موسوعة الحروب الصليبية

الدولة الزنكية

ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد
في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي

د. علي محمد الصلّابي

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الدولة
الزنكية

موسوعة الحروب الصليبية



الدولة الزنكية

ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد
في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي

د. علي محمد الصلّابي

دار المعرفة
بيروت - لبنان

ISBN 9953-85-082-8

الطبعة الأولى
1428 هـ \ 2007 م



جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله ونصرته

اهدي هذا الكتاب سائلاً المولى ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا

أن يكون خالصاً لوجهه الكريم

قـال تـعـالـى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: 111].

د. علي محمد الصَّلاَّبي

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: 70-71].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى، فلّله تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه.

أما بعد:

فهذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وعهد الدولة الأموية، وعهد السلاجقة، وقد صدر منها؛ السيرة النبوية، وأبو بكر وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي ﷺ، والدولة الأموية، ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ، وعمر بن عبد العزيز رحمه الله، ودولة السلاجقة وبروز المشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، والدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ودولتي المرابطين والموحدين، والدولة الفاطمية العبيدية، والثمار الزكية للحركة السنوسيّة، وَفِقْه النصر والتمكين في القرآن الكريم، وقد سميت هذا الكتاب «عصر الدولة الزنكية ونجاح المشروع الإسلامي بقيادة نور الدين محمود الشهيد في مقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»، وتعتبر حلقة مهمة من ضمن سلسلة الحروب الصليبية والتي نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن تكون لوجهه خالصة ولعباده نافعة، ويطرح فيها القبول والبركة، ويرزقنا حسن القصد، وإخلاص النية لوجهه العلي الكبير، ويوفقنا لإكمال الموسوعة التاريخية المستهدفة.

وهذا الكتاب يتحدث عن الزنكيين، من حيث أصول أسرتهم وعن جدهم آق سنقر ومكانته لدى السلطان ملكشاه، وسياسته الداخلية والخارجية في حلب وتولي إمارتها، وعن

نشأة عماد الدين زنكي وبزوغ نجمه السياسي ودور بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه أميراً على الموصل، وعن أهم صفاته، كالشجاعة، والهيبة، والدهاء، والمكر والحيلة واليقظة والحذر، والذكاء، وقدرته على اختيار الأكفاء من الرجال، ووفاؤه لأصحابه، وغيرته على محارمهم، وعدله، وعبادته وهواياته، ويتحدث عن سياسته الداخلية، والنظم الإدارية والعسكرية وعلاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وتوسع عماد الدين في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة، وعلاقته بالأكراد، كَبَني أيوب حكام تكريت، والأكراد الحميدية والعكارية، والمهرانية والبشنوية، وعلاقته بالإمارات المحلية في ديار بكر، ومحاولاته في ضم دمشق سواء بالتفاهم أم بالحصار أم بالسياسة، وتكلمت عن جهاده ضد الصليبيين، وتطرقت لحال المسلمين قبل مجيئه للإمارة، وسياسته مع الصليبيين وفتحه للحصون والقلاع، وسعيه الحثيث لتوحيد الجبهة الإسلامية وقيادتها لمقاومة الاحتلال الصليبي، وذكرت مناصرة عماد الدين لبني منقذ عندما تعرضت إمارة شيزر لمحاصرة الجيش البيزنطي والصليبي، ومواقفه البطولية في مقارعة الغزاة وأساليبه التي استخدمها ضدهم سواء نفسية أو تعبويّة من طلب النجدة من مختلف المناطق، واستخدم سهام الحيلة والدهاء لتعميق الخلاف بين إفرنج الشام وملك الروم البيزنطي، وقد حقق نجاحاً منقطع النظير في هذا الميدان، وفي نهاية المطاف اضطر الإمبراطور البيزنطي فك حصاره عن شيزر بفضل الله ثم جهود عماد الدين العسكرية، وكانت من أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الحملة:

تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية، وقد انهمك عماد الدين بعد ذلك على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية، كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين وأشاد الشعراء بدفاع عماد الدين زنكي عن شيزر فقال ابن قسيم الحموي في مدحه:

بعزمك أيها الملك العظيم ... تَذِلُّ لك الصِّعابُ وتستقيم

ألم تر أن كلب الرُوم لمَّا ... تَبيَّنَ أنه الملك الرحيم

فجاء يطبِّق الفلوات خيلاً ... كأنه الجَخْفَل الليل البهيم

إلى أن قال:

أيلتمس الفرنجُ لديك عفواً ... وأنت بقطع دابرها زعيم

إذا خطرت سيوفك في نفوس ... فأوّل ما تفارقها الجسوم

واستطاع عماد الدين بفضل الله ثم بجهوده الميمونة، أن ينتزع من الصليبيين إمارة الرُّها التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة 491هـ/ 1097م بزعامة بدوين الأول، وكان

تحريرها في عام 539هـ، وقد ساعد عماد الدين زنكي عوامل عديدة في فتح الرّها من أهمها: تنامي حركة الجهاد الإسلامي حتى عصره، وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبت أن إمارة الرّها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمرة من جانب أمراء الموصل خلال فترة تزيد على أربعة عقود من الزمان ـ على نحو مثل موتاً بطيئاً لها ـ إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور، ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين العسكرية الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم، فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها، وَوَجّه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم، لقد حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكان لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني، ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

1 ـ تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامي وصلت سن الرشد، وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما الأمير مودود بن التونتكين، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم فإنها البداية، واليوم إسقاط الرّها، وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة وإباء.

2 ـ تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة، لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل، وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة الروم، وكذلك بلاد فارس.

3 ـ كما أدى سقوط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الاستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق والرحم الأم، فلم يكن ذلك الغرب يسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق، أن ينهار قطعة قطعة، بل لا بد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام الحملة الصليبية الثانية عام 542هـ وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها، وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامي حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ

المسلمين، وقد مدح الشعراء الإنجاز الكبير الذي قام به عماد الدين لفتحه إمارة الرها، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرُّها فقال:

بجيش جاش بالفرسان حتى ... ظننت البرَّ بحراً من سلاح
وألسنة من العذبات حُمْر ... تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشه ليلٌ بهيم ... وغُرّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ... قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناح

وهنّأ الشاعر ابن القيسراني القاضي كمال الدين الشهرزوري بهذا الفتح فقال:

إن الصفائح يوم صافحت الرُّها ... عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مبشِّراً بتمامه ... كالفجر في صدر النَّهار الآيبِ
لله أية وقفة بدرية ... نُصرت صحابتها بأيمن صاحب
ظفرٌ كمال الدين كنت لقاحه ... كم ناهضٍ بالحرب غير محارب
وأمدكم جيشُ الملائك نُصرة ... بكتائب محفوفة بكتائب
جبنوا الدُّبور وقدتم ريح الصبا ... جُند النبوة هل لها من غالب

إلى أن قال:

وإذا رأيت الليث يجمع نفسه ... دون الفريسة فهو عين الواثب

وكان فتح الرها بداية لما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة، وقد استطاع عماد الدين أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه وأن يكوّن لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي، كسياسي بارع، وعسكري متمكن، ومسلم واعٍ أدرك الخطر الذي حاق بالعالم الإسلامي من قِبَل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام، وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة! استطاع بحنكته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه دولته من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج، أي تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين، ويعتبر عماد الدين زنكي أول قائد سلجوقي قام

بتجميع القوى الإسلامية، وفق برنامج معين ليجَابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين سنة (502هـ ـ 507هـ) وإيلغازي وبلك الأرتقين سنة (518 ـ 520هـ)، وقد مهد عماد الدين زنكي الطريق لقادة التحرير من بعده، فلم تكن جهود ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي، سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق، وبعد استشهاد عماد الدين تولى القيادة ابنه البطل الفذ والمجاهد الشهير نور الدين محمود الشهيد الملك العادل، فذكرت في هذا الكتاب سيرته وترتيبه أوضاع البيت الزنكي مع أخيه، سيف الدين غازي، واتفاقهم على توحيد الكلمة ومناصرة بعضهم البعض ضد الأعداء، وأصبح سيف الدين غازي أمير الموصل ونور الدين محمود أمير على حلب، وتوسعت في ذكر مفتاح شخصية نور الدين زنكي وشعوره بالمسؤولية، وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين، وخوفه من محاسبة الله له، وشدة إيمانه بالله واليوم الآخر، وقد كان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلّاب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة، والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها؛ الجدية، والذكاء المتوقد، والشعور بالمسؤولية، والقدرة على مواجهة المشاكل والأحداث، ونزعته للبناء والإعمار، وقوة الشخصية ومحبته لله ومحبة الناس له، واللياقة البدنية العالية، وتجرده وزهده الكبير، حتى قال الشاعر فيه:

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ... ومال بها عن الأموال زهد

وقال فيه آخر:

لا زلت تقفو الصالحين مسابقاً ... لهُمُ وتَطْلُعُ خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد ملك في الذي ... فيه تفانت يَعْرُبُ ونزار

وتحدثت عن شجاعته التي قال الشاعر فيها:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه ... كالرّمح دلّ على القساوة لينُهُ
ووراء يقظته أناة مُجرِّب ... لله سطوة بأسه وسُكُونه

وقال آخر:

متهلل والموت في نبراته ... يُرجى ويرهب خوفه وعقابه

وتكلمت عن محبته للجهاد والشهادة، فقد ذكر العماد الأصفهاني فقال: حضرت عند نور الدين بدمشق - في شهر صفر - والحديث يجري في طيب دمشق وَرِقة هوائها، وأزهار رياضها، وكل منا يمدحها ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها. وعندما دخل الموصل وغادرها بعد عشرين يوماً سأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد، وكان رحمه الله يتعرض للشهادة، وكان يسأل الله أن يحشره من بطون السِّباع، وحواصل الطير، وبينت لوحات رائعة من عبادته، فقد كان يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها، ويحافظ على الجماعة، وكان كثير الابتهال إلى الله ﷻ في أموره كلها، وقد اشتهر بالإنفاق الواسع والكرم العظيم، وكانت له أوقاف في كافة مجالات الحياة الاجتماعية على المساجد والمدارس والمستشفيات، والأرامل والأيتام.. إلخ، وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال أحدهم:

يا أيها الملك المنادي جوده ... في سائر الآفاق هل من معسر
ولأنت أكرم من أناس نَوَّهوا ... باسم ابن أوس واستخصُّوا البحتري
ذلَّت لدولتك الرقاب ولا تزل ... إن تغز تغنم أو تقاتل تظفر

ومدحه أسامة بن منقذ بقوله:

في كل عام للبرية ليلة ... فيها تَشُبُّ النارُ بالإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ... ناران: نارُ قِرى ونارُ جهاد
أبداً يصرِّفها نداه بأسه ... فالعام أجمع ليلة الميلاد
مَلِك له في كل جيد منة ... أبهى من الأطواق في الأجياد
أعلى الملوكِ يداً وأمنعهم حمىً ... وأمدهم كفاً ببذل تلاد
يعطي الجزيل من النوال تبرّعاً ... من غير مسألة ولا ميعاد

وأشرت إلى أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين محمود، وكيف اتخذ من عمر بن عبد العزيز ﵀ نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد اقتنع بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي، ودورها في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة، وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية إسهام كبير في تطوير الدول وتجديد

معاني الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السيرة المباركة كي يقتدي بها في إدارته للدولة، ولقد أتت معالم التجديد والإصلاح الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله ثمارها في الدولة الزنكية ومن أهم معالم التجديد في دولة نور الدين:

1 ـ الحرص على تطبيق الشريعة:

فقد جعل من مقاليد الحكم في الدولة أداة مسخرة لخدمة الشريعة، وتطبيق أحكامها وقيمها ومبادئها في واقع الحياة، ودعا إلى تحكيم الشريعة بحماس منقطع النظير، وقال في هذا الصدد: ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل، وقال: نحن شحن للشريعة نُمْضي أوامرها. فقد جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا كثيراً من الحكام قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته، فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه. فقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه على الالتزام بأحكام الشرع، ومنع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، وأسقط كل ما يدخل تحت شبه الحرام، وإزالة كل ما يندّ عن محجة الشريعة البيضاء وينحرف إلى بؤر الظلام، وكان يُنزل العقاب السريع العادل بكل من خالف أمره، وكل الناس عنده فيه سواء. وقد مدحه الشعراء فقال فيه ابن منير:

كم سيرة أحييتها عمريّة	رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيّرتهن لوازماً	بأقلها تستعبد الأحرار
أمّا نهارك فهو ليل مجاهد	والليل من طول القيام نهار

أيها الأخوة الكرام، يا أبناء الإسلام، يا مَن همهم النهوض الحضاري لهذه الأمة الجريحة، علينا بالسعي الدؤوب في مجتمعاتنا ودولنا، حتى تأخذ الشريعة الغرّاء مكانتها وحقها من الاحترام والتقدير والتطبيق، فآثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفّذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ؛ ومن تلك الآثار: التمكين في الأرض والأمن والاستقرار والنصر والفتح المبين والعز والشرف وانزواء الرذائل، قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز رحمه الله، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض

فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها، كما سنرى ذلك في سيرة نور الدين محمود وعصره بإذن الله تعالى.

إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا، يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه وأقام شرعه وقصد رضاه، وجعله فوق كل اعتبار، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65].

وقال الشاعر أحمد رفيق المهدوي الليبي:

فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد عليه بالأرواح

2 ـ ومن معالم التجديد بناء دولة العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة:

فقد جعل من العقيدة الإسلامية الصحيحة العمود الفقري لدولته، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة، وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحيّ على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يُؤذَّن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يُؤذن بحيّ على خير العمل؛ لأن شعار الرفض كان ظاهراً[1]. وكان نور الدين يتحرّى سنة النبي ﷺ في أموره كلها، ومن أعظم إنجازات دولته: إسقاط الدولة الفاطمية بمصر، وكان الفضل لله، ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلَّص المسلمين من شرورها، وأعلن تبعية مصر للخلافة العباسية السنية، وكان رأي نور الدين في الدولة الفاطمية العبيدية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي وهو يبشره بفتح مصر، وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدع[2] ويقول فيها: وطالما بقيت مائتين وثمانين سنة مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغُمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان: الكفر والبدعة، وتمكنَّا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض[3]، وسيرى القارئ الكريم بإذن الله فقه نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في هذا الكتاب.

واستفاد نور الدين من خريجي المدارس النظامية، وتبناهم في مدارس الدولة النورية

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 130.
(2) المصدر نفسه.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 331.

وفتح لهم الأبواب لدعم المذهب السّنّي ومناهضة الفكر الشيعي الرافضي، وصبغ الدولة بالكتاب والسنة، ووضع مشروعاً فكرياً ثقافياً عقائدياً تربوياً تعليمياً استهدف به رعايا دولته، ولم يفرق بين علماء الشافعية، والأحناف، والحنابلة، والمالكية، وأهل الحديث وشيوخ التصوف السني، وغيرهم من أبناء الأمة، وتحرك بهم من خلال جبهة عريضة تنضوي تحت راية أهل السنة والجماعة في مقاومة الأخطار الشيعية الرافضية، وقد تحرك نور الدين في مشروعه الآنف الذكر من خلال مؤسسات المجتمع المدني، كالكتاتيب والمدارس والمساجد، والربط، وأخذ بكافة الأسباب المادية والمعنوية المعينة على تحقيق الهدف المنشود من صبغ الدولة النورية ورعايا الدولة من المسلمين بالكتاب والسنة، وقد أثمرت جهوده في بلاد الشام، وعلى سبيل المثال في حلب، فقد تسابق أمراءه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية، حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية، بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة الإمامية والإسماعيلية.

وقد أحصى المؤرخ عز الدين بن شداد (ت 684هـ) مدارس حلب في أيامه، فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين مقراً للصوفية، وقد آتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام 600هـ، وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون، وبأفعال السُّنّة يتظاهرون. وهذا بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين، وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية، وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع في هذه المدينة، وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة، وهذا يدل على أهمية التربية العقيدية والفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

ومما ساعد نور الدين محمود على تحقيق برنامجه الإصلاحي: أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج، وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له.

3 ـ ومن معالم التجديد في دولة نور الدين حرصه على إقامة العدل:

فقد كان قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً قلَّ نظيره، حتى اقترن اسمه بالعدل وسُميّ: «بالملك العادل» ومدحه الشعراء على ذلك، فقد قال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محيي العدل الذي في ظله ... من عدله رعت الأسود مع المَها
محمودُ المحمودُ مِن أيامه ... لبهائها ضحك الزمان وَقَهْقَها

4 ـ ومن معالم التجديد في دولة نور الدين اهتمامه بالعلماء:

فقد فتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم، فقدمهم على الأمراء وبذل لهم العطاء، وشجع المتميزين منهم إلى الهجرة لدولته، وقد شارك العلماء معه في الجهاد ضد الصليبيين بالكلمة والسيف والتأليف والوعظ، كما سنرى في هذا الكتاب بإذن الله.

هذا وقد طوّر نور الدين النظام الإداري لدولته، وحرص على صبغته بالصبغة الإسلامية، واعتمد في إدارته على الشورى وابتعد عن الانفراد بالقرار بشكل كبير، وقدم المصلحة العامة على الانفعالات، وكان مثالاً رائعاً في الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام، وحرص على توفير الأمن للرعية وضمن لهم الحريات العامة، كحرية الرأي والمحافظة على كرامة الفرد، وأفردت مبحثاً عن النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية، فبينت مصادر دخل دولة نور الدين، كنظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلّفها أبوه عماد الدين، وأثر الأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة على خزانة الدولة، وأثر الأمن والاستقرار على انتعاش الحركة التجارية، ومساهمة الأثرياء والمعاهدات، والاتفاقات التي ألزم بها الخصوم لدفع أموال للدولة الزنكية، وتحدثتُ عن دعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وأثر السياسة الزراعية والصناعية والتجارية في تقوية اقتصاد الدولة واهتم نور الدين بالشرائح المنتجة كالفلاحين، وأصحاب الأموال كالتجار، فقد حرص على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرض دولته على نحو يدعم اقتصاديات الدولة، ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس الشرعية لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة، وقد وجد كبار التجار في نور الدين قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، وعندما دخل نور الدين مدينة دمشق حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة، وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية، وكان من سياسة نور الدين الاقتصادية والمؤيدة بالشرع الإسلامي، إلغاء الضرائب، وأخذ نور الدين في تنفيذ هذه السياسة منذ فترة مبكرة، وكان حيناً بعد حين يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب «اللاشرعية» التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها

الحكام، والأمراء الذين عاصروه، وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متوازٍ مع مقادير الضرائب التي كان يأمر بإلغائها، وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين: «ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه ومن قرأه أو قرئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه ممضياً لما أمر به». وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجيء من وجوه الحرام.

وسعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه، وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير، وسعت لتغطية شتى الحاجات، ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل، وانتهاءً بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة والفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات والملاجىء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة.

وقد لاحظتُ في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة، منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، ومنها على مستوى الوزارة، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك الوزارة العباسية في عهد يحيى بن هبيرة الوزير الصالح والعالم الرباني. وكان الشيخ عبد القادر الجيلاني من زعماء الدعوة الشعبية والإصلاح العام في عاصمة الخلافة العباسية، فقد كانت عامّة الجماهير متعطشة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره، تؤثر في المجتمع بدعوتها ومواعظها وتزكيتها، وتوقظ في النفوس الإيمان وتحي فقه القدوم على الله، وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلوّ الهمة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته، ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله، وتدعو إلى التوحيد الكامل والدين الخالص. ولقد كان هذا المصلح الكبير في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني، واستطاع أن يؤسس مدرسة ساهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية والاقتصادية، والاجتماعية، وساهمت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية، وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه

وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد، وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين روحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوفر لهذا المنهج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم: «الشيخ عبد القادر» حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية، ويقيم الطلبة والمريدون، فالتحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه الشيخ عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثير كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي[1].

وتعتبر تعاليم الشيخ عبد القادر ومدرسته ذات أثر ملموس ساهم في نهوض الأمة في عهد الزنكيين والأيوبيين، وكان الشيخ عبد القادر على أصول منهج أهل السنة في الأصول والفروع، وكانت له جهود مشكورة للتصدي للمذهب الشيعي الرافضي، وإعداد الأمة للجهاد ضد الصليبيين الغزاة، وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر، واعتبره من أئمة الصوفية والمشايخ المشهورين الذين كانوا على الصراط المستقيم، وإنه من أعظم الناس لزوماً للأمر والنهي وشهد له بأنه من الشيوخ الكبار[2]، ثم شهد له أنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء بالتزام الشرع والأمر والنهي، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية[3].

وفي الفصل الأخير من الكتاب تحدثتُ عن سياسة نور الدين الخارجية، وعلاقته مع الخليفة المقتفي لأمر الله والوزير يحيى بن هبيرة، والخليفة المستنجد بالله، ثم المستضيء بالله، وتكلمت عن جهود نور الدين وأخيه سيف الدين في التصدي للحملة الصليبية الثانية، وحمايته لدمشق من الغزاة وأهم نتائج تلك الحملة، وعن سياسته في ضم دمشق، وكيف تعامل مع القوى الإسلامية والأُسر الحاكمة في بلاد الشام والجزيرة والأناضول، وعن سياسته تجاه القوى المسيحية، وعلاقته مع مملكة بيت المقدس، وإمارة الرها، وأنطاكية وطرابلس، وعن المعارك التي خاضها والحصون التي فتحها، وعن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية، واستخدامه لفقه السياسة الشرعية في زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده، وحتى لا يجعل دولته بيت عَدُوّين: الصليبيين في الجنوب، والبيزنطيين في الشمال، واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية. ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية، وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 339.

(2) فتاوى ابن تيمية (10/ 463).

(3) المصدر نفسه (10/ 488).

التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية، أي بكافة القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية، والملاحظة المهمة في فقه نور الدين جهده الكبير في المفاوضات مع الاستعداد العظيم لحشد الجيوش، واستنفار الأمة للتصدي. ولقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفين بين التحالف البيزنطي والصليبي، وهذا لم يأتِ بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود الحالية والمرحلية ضد الصليبيين، وليست ضد البيزنطيين، فإنه وازنَ بين الإطاحة بمشروعه الكبير على يد الحملة الصليبية البيزنطية، وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الأخير، علماً بأن سلاجقة الروم في تلك المرحلة كانوا كالدولة المستقلة، ولم تندمج في مشروع نور الدين، بل كانت تعتدي على حلفاء الدولة الزنكية وأملاكهم، واستطاع نور الدين إيقاف الحملة بعد عقد معاهدة بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة: حفظ المشروع الإسلامي النوري من التصدع، أو الضعف، أو الزوال، وما كان للدبلوماسية النورية أن تنجح لولا الله ثم مساندتها بقوة عسكرية ضاربة استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي، الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م).

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي على أصول الإسلام الصحيح، من عقيدة سليمة، ومرجعية واضحة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدي الخلفاء الراشدين، له القدرة على استيعاب طاقات الأمة، وعلى رأس ذلك المشروع قيادة ربانية واعية تستطيع أن تستفيد من إمكانيات الأمة، وتستوعب فقه المبادرة كي تفجر طاقاتها وتوجهها نحو التكامل، لتحقيق الخير والغايات المنشودة، فيأتي دور القيادة لتربط بين الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها وفق رؤية نهوض شاملة تتحدى كل العوائق، وتسد كل الثغرات التي تحتاجها الأمة في النهوض، وتبث روح الأمل والتفاؤل بين الناس، وتحضهم على التمسك بعقيدتهم وقيمهم ومبادئهم، والترفع عن حطام الدنيا وإحياء معاني التضحية وشحن الهمم، وتقوية العزائم، في نفوس النخب والجمهور العريض في الأمة، وتأخذ بها رويداً نحو الأهداف المرسومة لمشروع النهوض، وعلينا أن نتذكر قول الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: 104].

هذا وقد تحدثت عن التفكير الإستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أُولي الأمر في نجاح المشروع المقاوم للتغلغل الباطني والغزو الصليبي، وعن الإستراتيجية العسكرية لنور

الدين، كالتركيز على النوعية والفاعلية، والتعبئة العامة للأمة وإنهاك العدو واستنزاف قوّاته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف، والعمل التعرضي، والقدرة على الحشد والمناورة، ووحدة القيادة وعنصر المفاجأة، ودور الاستخبارات، ومبدأ التقرُب غير المباشر، واستخدامه للحرب النفسية في رفع معنويات الأمة، وإضعاف همم العدو.

وأفردت المبحث الأخير عن فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية، فوضحت جذور الشيعة الإسماعيلية، ونشأة الدولة الفاطمية، وتكلمت عن جرائمها في الشمال الأفريقي، كغلو بعض دعاتهم كعبيد الله المهدي، وتسلطهم وظلمهم وتحريمهم الإفتاء على مذهب الإمام مالك، وإبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة، ومنع التجمعات، وإتلاف مصنفات أهل السنة، ومنع علماء أهل السنة من التدريس، وتعطيل الشرائع وإسقاط الفرائض، وإزالة آثار خلفاء السنة، ودخول خيولهم المساجد.

وتحدثت عن أساليب أهالي الشمال الأفريقي في مقاومة الفكر البدعي الشيعي الرافضي المنحرف عن الكتاب والسنة، كالمقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية، والمقاومة المسلحة، والمقاومة عبر التأليف، ومقاومة شعراء أهل السنة، وأشرت إلى انتقال المعز لدين الله الفاطمي من الشمال الأفريقي ودخوله مصر، لكي يتخلص من المقاومة والثورات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في الشمال الأفريقي لمدة خمس عقود متتالية رافضين المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الباطني، معلنين عقائد الإسلام الصحيح، فاستفاد المعز لدين الله الفاطمي من ضعف الحكم الأخشيدي التابع للدولة العباسية، فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة بقيادة جوهر الصقلي سنة 358هـ الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين، وجوهر الصقلي. هذا الذي بنى الأزهر الذي تم بناءه سنة 361هـ ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي.

وبعد الانتقال إلى مصر، بدأت المقاومة السنية في الشمال الأفريقي تقوى مع مرور الزمن حتى استطاع المعز بن باديس العنهاجي في سنة (435هـ) عندما تولى الحكم أن يطهّر الشمال الأفريقي من الشيعة الرافضة وبدأ في حملات تطهير للمعتقدات الباطنية، ولمن يطعن ويسب أصحاب رسول الله، وأوعز للعامة وجنوده بقتل من يُظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر ﷺ فسارع أهل السنة في الشمال الأفريقي للتخلص من الشيعة الرافضة الإسماعيلية وتصفيتهم من المعتقدات الفاسدة في ملحمة من ملاحم الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأشرت إلى جهود السلاجقة في حماية العراق وبلاد الشام من التشيع الرافضي، ودور المدارس النظامية في الإحياء السني، وتقليص المد الشيعي الرافضي، وإعداد الكوادر اللازمة لقيادة حركة المقاومة ضد الغزاة الصليبيين، وبينت جهود نور الدين السياسية والعسكرية والفكرية للقضاء على الدولة الفاطمية، وقد تمّ ذلك على يدي صلاح الدين الذي

تدرج في إلغاء الخلافة الفاطمية وفق رؤية إستراتيجية وضعها القاضي الفاضل بالتعاون مع القيادة النورية وقد تمّ بيانها في هذا الكتاب.

إن من الدروس المهمة من هذا الكتاب معرفة المشاريع المتصارعة في عهد الزنكيين، فقد كانت ثلاثة تتطاحن على قدم وساق، وهي المشروع الصليبي والذي تتزعمه الكنيسة من عهد أوربان الثاني، والمشروع الشيعي الرافضي بقيادة الدولة الفاطمية بمصر، والمشروع الإسلامي الصحيح وحامل لوائه نور الدين زنكي، فكانت المحاور التي سار عليها أهل السنة دولة وشعباً، تعميق الهوية العقائدية السنية والإحياء الإسلامي الصحيح في نفوس الأمة، والتصدي لشبهات المذهب الشيعي، وإعداد الأمة لمقاومة الصليبيين، وكانت المحاور متداخلة من حيث السير، إلا أن تحرير بيت المقدس والقضاء على الصليبيين في معركة حطين لم يتم، إلا بعد القضاء على الدولة الفاطمية سياسياً وعسكرياً، وقد سبقها الانتصارات العقائدية والفكرية والثقافية والتاريخية والحضارية للمذهب السني.

إن الذين استطاعوا تحرير بيت المقدس، وانتزاع المدن والقلاع والحصون من الصليبيين، هم الذين تميزوا بمشروعهم الإسلامي الصحيح، وعرفوا خطر المشاريع الباطنية الدخيلة، فتصدوا لها بكل حزم وعزم.

وعلى كل من يتصدى لقيادة الأمة في المواقف السياسية والتصريحات الإعلامية، عليه أن يدرس كتاب ربه وسنة نبيه وهدي الخلافة الراشدة، وحركة التاريخ الإسلامي، وحقيقة الصراع بين هذه المشاريع المتباينة، كي يساهموا في توعية الأمة، وإزالة الجهل عنها ومعرفة أعدائها.

إن ما يحدث في العراق ولبنان من صراع بين المشروع الصليبي والصهيوني والإيراني الشيعي، وعدم التركيز والدعم المطلوب للمقاومة الإسلامية في العراق وفلسطين، يبرهن على أن الكثير من القيادات السياسية والفكرية والشرعية والإعلامية غير مستوعبة لما حدث من صراع بين المشاريع في حركة التاريخ، ويدل على ذلك ما حدث في لبنان من صراع بين المشروع الإيراني الشيعي، والمشروع الأمريكي الصهيوني، حيث أهملت المقاومة الإسلامية العراقية السنية والمقاومة الإسلامية الفلسطينية إعلامياً وسياسياً ومادياً لصالح المشروع الإيراني الشيعي.

إن أية أمة تريد أن تنهض من كبوتها لا بد أن تحرك ذاكرتها التاريخية لتستخلص منها الدروس والعبر والسنن في حاضرها وتستشرف مستقبلها، وإيجاد الكتب النافعة في هذا المجال من الضرورات في عالم الصراع والحوار والجدال والدعوة مع اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين والمبتدعة.. إلخ، وهذا يدخل ضمن سنة التدافع في الأفكار والعقائد،

والثقافات والمناهج وهي تسبق التدافع السياسي والعسكري، فأي برنامج سياسي توسعي طموح يحتاج لعقائد، وأفكار وثقافة تدفعه، فالحرف هو الذي يلد السيف، واللسان هو الذي يلد السنان، والكتب هي تلد الكتائب.

إن تجربة نور الدين محمود ثرية، وهي تجيب على الكثير من الأسئلة المطروحة على الساحة القطرية، والإقليمية والعالمية، وهذه التجربة تأتي شاهداً تاريخياً مقنعاً، تماماً كما كانت تجربة عمر بن عبد العزيز من قبله على أن الإسلام قدير في أية لحظة تتوفر فيها النية المخلصة والإيمان الصادق والالتزام المسؤول والذكاء الواعي، على إعادة دوره الحضاري والقيادي، وإخراج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، هذا وقد كانت علاقتي الروحية مع نور الدين محمود مُنذ كنت طالباً بالمدينة المنورة، حيث أنني كنت ممن تتلمذ على أشرطة الشيخ الدكتور سفر الحوالي شفاه الله من كل سوء، ومن ضمنها كان الحديث عن نور الدين محمود الشهيد في شريطين، فتعلقت بسيرة هذا القائد الفذ، وقد حث الشيخ في محاضرته طلاب العلم والعلماء على كتابة سيرته والبحث فيها، ومن هناك كانت نقطة البداية، وفي إحدى زياراتي للمدينة النبوية بعد تخرجي زرت أستاذنا وشيخنا الدكتور يحيى إبراهيم اليحيىٰ، وحدثني عن نور الدين محمود، وطلب مني أن أبحث في سيرته فإنها تستحق الدراسة على حد قوله، وازددت قناعة بالموضوع إلا أن انشغالي بالسيرة وتاريخ صدر الإسلام ومرحلة الدراسات العليا منعني من تحقيق هذا الهدف النبيل، الذي لم يغب عن ذاكرتي ووجداني، وأصبح من ضمن أهدافي الرئيسية في الحياة، ودخل في أورادي ودعواتي بأن يوفقني الله لتحقيقه، وعندما أقمت باليمن السعيد الحبيب، كان من ضمن شيوخي الذين طلبوا مني الكتابة في مرحلة الحروب الصليبية الشيخ الدكتور عبد الكريم زيدان، الذي استفدت منه كثيراً في عهد الخلافة الراشدة، ولا أنسى أبداً شيخي وأستاذي ياسين عبد العزيز اليماني الذي فتح لي بيته للحوار والنقاش، وأعطاني من وقته الثمين الساعات الطوال، وفي زيارتي للشيخ الدكتور القرضاوي حثني على الكتابة في سيرة نور الدين محمود، واعتبرها من الشخصيات التي لم تُعطَ حقها في التاريخ، وأما شيخي وأستاذي الدكتور سلمان العودة، فقد قال لي: نادراً ما تتاح الفرصة للبحث في القضايا التاريخية مثل ما أتيحت لك، فعليك بالإخلاص لله، وأن تتقيه فيما تكتب، وعندما قرأ خطتي في إعادة كتابة التاريخ، شجعني على المضي فيها، وقد استفدت من حواراتي ومناقشتي معه في الأمور التاريخية والفكرية، وكان يستقبلها بسعة صدر، وبكل أريحية كعادة الشيخ مع طلابه وتلاميذه، كما أن لأحداث العراق تأثيراً مباشراً على هذه الكتابات، وهذا جهد مقل أساهم به مع إخواني في معركة المصير، مع الاعتراف بالتقصير في حقهم ولهم مني الدعاء في ظهر

الغيب بالسداد والتوفيق، وتحرير بلاد الرافدين من الغزاة المحتلين ومن الأخطار الداخلية والخارجية، وعلينا أن نستلهم من سيرة نور الدين محمود الشهيد الدروس والعبر في حياتنا المعاصرة، وكيف نخطط لتحرير بيت المقدس من أيدي اليهود الغاصبين.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الأربعاء الساعة الثانية عشر، وثماني دقائق من تاريخ 20 شعبان 1427هـ الموافق 13/ 09/ 2006، والفضل لله من قبلُ ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، ويشرح صدور العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنه وكرمه وجوده، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثبت إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يصله هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: 19].

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: 2].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصّلابيّ

الإخوة الكرام: يسرني أن تصل ملاحظاتكم وانطباعاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبي من خلال دور النشر، وأطلب من إخواني الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص لله رب العالمين، والصواب للوصول للحقائق ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

Mail: abumohamed2@maktoob.com

في نهاية الكتاب أضفت الخلاصة التي وصلت إليها من دراستي لعهد السلاجقة والزنكيين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الفصل الأول

ظهور عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث

المبحث الأول
أصول الأسرة الزنكية

ينتمي عماد الدين بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان إلى قبائل (السبايو) التركمانية، وقد حظي والده أبو سعيد آق سنقر ـ الملقب: بقسيم الدولة، والمعروف بالحاجب[1] ـ باهتمام المؤرخين بسبب الدور الذي لعبه على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية للدولة السلجوقية[2]، وكان آق سنقر من أصحاب السلطان ملكشاه الأول وأترابه[3]، وقيل إنه كان لصيقه، ومن أخصّ أصدقائه[4]، فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً، ولمّا تسلم ملكشاه الحكم عيَّنه حاجباً له، وحظي عنده فكان من المقرّبين وأَنِسَ إليه، ووثق به حتى أفضى إليه بأسراره، واعتمد عليه في مهماته، فكان أبرز قادته[5].

أولاً: مكانة آق سنقر عند السلطان ملكشاه:

من أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سُنقُر عند السلطان، منحه لقب «قسيم الدولة»، وهذا يعني الشريك، وكانت الألقاب في تلك الآونة مصونة لا تُعطى إلا لمستحقيها[6]، ويبدو أنه قاسم ملكشاه شؤون الحكم والإدارة، بالإضافة إلى ذلك، فإن آق

---

(1) وفيات الأعيان (1/217، 218)، عماد الدين زنكي، د. عماد الدين.
(2) عماد الدين زنكي، د. عماد الدين خليل، ص: 31.
(3) التاريخ الباهر في الدول الأتابكية بالموصل، ص: 4.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد طقوش.
(5) التاريخ الباهر، ص: 4.
(6) المصدر نفسه، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 43.

سُنقُر كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده[1].

والراجح أن منح آق سُنقُر هذا اللقب يعود إلى ثلاثة أسباب:

1 ـ محبة السلطان ملكشاه له ودعمه إياه.

2 ـ انتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها وأهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة، وأنه كان ذا مكانة رفيعة فيها.

3 ـ أنه أدّى خدمات جليلة للملكشاه، استحقت منحه هذا اللقب[2].

واشترك آق سنقر إلى جانب السلاجقة في معارك عديدة، فقد سيَّره ملكشاه عام 477هـ مع عميد الدولة ابن فخر الدولة في محاولة للاستيلاء على الموصل وطرد العقيليين منها، وقد تمكنا من إنجاز هذه المهمة[3]، وبعد مرور سنتين اشترك مع السلطان ملكشاه في انتزاع حلب من نواب العقيليين فولاه إياها تقديراً لجهوده[4]، وقد تسلم آق سنقر منصبه في حلب وأعمالها، كمنبع واللاذقية وكفر طاب[5]، واستطاع أن يوسع نطاق ولايته بالاستيلاء على حمص عام (483هـ)، وحصن أفاميه عام (484هـ). كما فرض طاعته على صاحب شيزر عام (481هـ)، وفي عام (485هـ) اشترك مع ملكشاه في مهاجمة العقيليين والانتصار عليهم قرب الموصل، وظلت علاقة آق سنقر بالسلطان ملكشاه قائمة على الطاعة والتفاهم المشترك، ولم يسعَ يوماً إلى الخروج على أوامره، ورفض السلطان بدوره الاستجابة لشكاوى معارضي آق سنقر أو إقرار مساعيهم للتخلص منه[6].

ثانياً: سياسة آق سنقر في حلب الداخلية:

بدأت مع تولي آق سنقر الحكم في حلب، مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لهذه المدينة، وانتهى حكم القبائل العربية لهذه الإمارة، وأزيحت عن مسرح الأحداث في شمالي بلاد الشام، ويُعدُّ سُنْقُر أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب، بعدما كانت سنوات طويلة من التمزق والحروب بين القبائل العربية فيما بينها، ثم بينها وبين التركمان القادمين من الشرق، ودام حكمه ثماني سنوات تقريباً كانت مرحلة هامة في تاريخ الإمارة والمنطقة بفعل

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 43.
(2) إمارة حلب، محمد ضامن، ص: 136.
(3) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (1/ 19 ـ 22).
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 32.
(5) الباهر، ص: 8، عماد الدين زنكي، ص: 32.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 32 ، 33.

أنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة[1]، لقد تسلم آق سُنقر الحكم في ظل حالة من الفوضى التامة بفعل عاملين داخلي وخارجي، يتمثل الأول: بصراع الحكام، وتدبيرهم المؤامرات، واستعانتهم بالقوى الكبرى في المنطقة ـ كالخلافة العباسية في بغداد، والدولة الفاطمية في مصر، بالإضافة إلى الدولة السلجوقية الجديدة الطامعة في التوسع في المنطقة ـ هي:

1 ـ قوة القبائل العربية البدوية وبخاصة الكلابيين العقيليين والمرداسيين لاستعادة نفوذها المسلوب.

2 ـ قوة التركمان المدمرة التي كانت تُغير على المنطقة.

3 ـ قوة الدولة البيزنطية التي كانت تستغل الصراعات الداخلية لاستعادة نفوذها المفقود.

شهدت حلب نتيجة ذلك أوضاعاً من عدم الاستقرار السياسي، انعكس سلباً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية فيها، في خِضَمِّ هذه الصراعات، تغافل الحكام عن الاهتمام بالشؤون الداخلية للسكان، كما أهملوا تطوير الحياة الاقتصادية، مما أدَّى إلى تراجع واردات البلاد، وعمدوا إلى استنزاف السكان بفرض ضرائب أخرى وأتاوات باهظة، كلما أعوزهم المال، حتى أثقلوا كاهلهم، فتذمروا من سوء الأوضاع، وكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق، مما أدَّى إلى انعدام الأمن على الطرق، فتعطلت الحركة التجارية، وقلَّت السلع في الأسواق، وتراجعت موارد الزراعة لعدم تمكُّن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول، فبرزت في هذه الظروف الصعبة، منظمة الأحداث التي أخذت على عاتقها رعاية مصالح أفرادها ومقاومة التعديات الخارجية[2]، وضع آق سنقر نصب عينيه هدفاً راح يعمل على تحقيقه، تمثل في إعادة الأمور إلى نصابها، ولذلك شرع في:

1 ـ إقامة الحدود الشرعية، وطارد اللصوص وقطاع الطرق وقضى عليهم وتخلص من المتطرفين في الفساد، كما قضى على الفوضى التي كانت متفشية في البلاد، وعامل أهل حلب بالحسنى حتى توارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر[3].

---

(1) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص: 209، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 46.

(2) دخول الترك الغز إلى الشام، مصطفى شاكر، ص: 307، 314، 315.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 47.

2 ـ لم يكتف آق سُنقُر بحصر تدابيره الإصلاحية في حلب، بل كتب إلى عمال الأطراف التي خضعت لحكمه أن يحذوا حذوه، وتابع أعماله بنفسه.

3 ـ وأقرّ قسيم الدولة مبدأ المسؤولية الجماعية، فإذا تعرض أحد التجار للسرقة في قرية ما، أو إذا هوجمت قافلة أو نهبت، فإن أهل القرية التي جرت الحادثة فيها يكونون مسؤولين جماعياً عن دفع قيمة الضرر اللاحق بهؤلاء[1]، ونتيجة لهذا المبدأ هبَّ سكان القرى لمساعدة الحكام في فرض الأمن، فإذا وصل تاجر إلى قرية أو مدينة، وضع أمتعته وبضاعته إلى جانبه ونام وهو مطمئن، بحراسة أهلها، وهكذا شارك السكان بتحمل المسؤولية في حفظ الأمن حتى أمنت الطرق، وتحدث التجار والمسافرون بحسن تدابيره وسيرته[2].

ونتيجة لاستتباب الأمن في كافة أرجاء إمارة حلب، نشط التجار، وامتلأت الأسواق بالبضائع الواردة إليها من كل الجهات واستقر الوضع الاقتصادي، وتداعى الناس إليها للكسب فيها والعيش برغد[3]. وقد اعترف المؤرخون بحسن سياسة آق سُنقُر الداخلية، والأمنية، وأجمعوا على مدحه.

ـ **قال ابن القلانسي**: وأحسن فيهم السيرة، وبسط العدل في أهليها، وحمى السابلة للمترددين فيها، وأقام الهيبة، وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين، فأبادهم، وقصد أهل الشر فأبعدهم، وحصل له بذلك من الصيت، وحسن الذكر، وتضاعف الثناء والشكر... فعمرت السابلة للمترددين من السفار، وزاد ارتفاع البلد بالواردين بالبضائع من جميع الجهات والأقطار[4].

ـ **وقال ابن واصل**: .. ورخصت الأسعار في أيام الأمير قسيم الدولة وأقيمت الحدود الشرعية، وعمرت الطرقات وأمنت السبل، وقتل المفسدون بكل فج، وكان كلما سمع بمفسد أو بقاطع طريق أمر بصلبه على أبواب المدينة[5].

ـ **وقال ابن الأثير**: ... وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين رخص عام، وعدل شامل وأمن واسع[6].

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 47.
(2) الباهر، ص: 15.
(3) مرآة الزمان (8/ 244).
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 196.
(5) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (1/ 19).
(6) الكامل في التاريخ (8/ 368).

ـ **وقال عنه ابن كثير**: . . بأنه كان من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة، وكان الرعية في أمن وعدل ورخص[1].

وأما من حيث إنجازاته العمرانية، فقد جدَّد عمارة منارة حلب بالجامع عام (482هـ/ 1089م) واسمه منقوش عليها إلى اليوم، وفي ذلك قصة لطيفة ذكرها ابن واصل مفادها: في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أسس القاضي أبو الحسن بن الخشاب منارة حلب، وكان بحلب بيت معبد نار، قديم العمارة، وصار بعد ذلك أتون حمّام، فأخذ ابن الخشاب حجارته، وبنى بها المنارة، فأنهى بعض حُسَّاده إلى الأمير قسيم الدولة خبره، فغضب على القاضي ابن الخشاب، وقال: هدمت معبداً هو لي وملكي، فقال: أيها الأمير، هذا معبد للنار، وقد صار أتوناً[2]، فأخذت حجارته لأعمر بها معبداً للإسلام، يُذكر فيه الله وحده لا شريك له وكتبت اسمك عليه، وجعلت الثواب لك، فإن رسمت غرمت ثمنه لك، ويكون الثواب لي، فعلت فأعجب الأمير كلامه، واستصوب رأيه وقال: بل الثواب لي، وافعل ما تريد، فشرع في عمارة المنارة في سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة[3].

ثالثاً: سياسته الخارجية:

عادت سياسة آق سنقر الحازمة بنتائج هامة على المنطقة، فساد الاطمئنان، وأمنت الطرق وانتشر العمران، فانتعشت التجارة، وقد بلغ من سيطرة آق سنقر على الأمن في قرى حلب وضياعها، أن أرسل من ينادي فيها: أن لا يغلق أحد بابه، وأن يتركوا آلاتهم الزراعية في أماكنها ليلاً ونهاراً[4]، ومن ثم جاءت شهرته بناء على ما أنجزه في هذا المجال[5]، وبعد أن نظم قسيم الدولة إمارته الداخلية، وحقَّق الأمن والاستقرار، أراد أن يقوم بدور خارجي وكانت بلاد الشام عبر تاريخها، عرضة للنزاعات من أجل السيطرة بين الشمال والجنوب. وقد مثَّلت دمشق، مُنذ القرن السابع الميلادي، الجنوب، في حين مثَّلت حلب الشمال، وكانت المفارقات بين الشمال والجنوب في بعض الأحيان اجتماعية واقتصادية ولكن غالباً ما كانت سياسية، حيث حاول حكام دمشق من جهتهم، وحكام حلب أيضاً مدَّ سيطرتهم كلياً على بلاد الشام، وتبعاً لهذه القاعدة حدث صراع بين تُتُش وآق سُنقُر[6]، فقد وقف في وجه «تُتش» الطامع في بلاده، وأن يتوسع على حساب جيرانه، وبدا له قبل الإقدام على تنفيذ هذا

---

(1) البداية والنهاية (16/ 143).
(2) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (1/ 20).
(3) المصدر نفسه (1/ 20).
(4) عماد الدين زنكي، ص: 35.
(5) ذيل تاريخ دمشق، ص: 119، 120، الباهر، ص: 15.
(6) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص: 215.

المشروع أن ينشىء جيشاً منظماً يعتمد عليه في حروبه، وشرع في ذلك، وتمثّلت نواة هذا الجيش بالقوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل، ثم تعدّت الستة آلاف[1]. وقد اعتمد آق سُنقُر على نوعين من القوات العسكرية:

النوع الأول: القوات الاحتياطية التي كان يزداد عددها باستمرار، وهي تنتمي إلى العنصر التركي.

النوع الثاني: القوات الاحتياطية التي كان يجمعها حين يحتاج إليها، وكانت خليطاً من العرب والتركمان وغيرهم، وقد وصل عددها في المعركة التي خاضها ضد تُتش إلى عشرين ألفاً، وكان تتش قد جهد منذ أن أصبح حاكماً على دمشق في عام (470هـ / 1077م) في العمل على:

ـ بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية، أو تُحكم من قبلها.

ـ إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان، إلا أنه فشل في تحقيق الهدف الأول، ونجح في تحقيق الثاني إنما بعد وفاة ملكشاه الأول. على أن الأوضاع التي آلت إليها البلاد لم تُرضِ تتش، فلجأ إلى السياسة وطلب من أخيه في عام (480هـ / 1087م) تزويده بقوات ومعدات تمكنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة، بما فيها المدن الساحلية، والواقع أن ملكشاه الأول كان يخشى تمدداً فاطمياً باتجاه الأملاك السلجوقية في بلاد الشام والعراق، لذلك لبَّى طلب أخيه، وأمر كل من قسيم الدولة صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، بأن يقدِّما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر وتجهيزات[2]. ويبدو أن الحاكمين لم ينفذا الأوامر السلطانية. فلم يذهب آق سنقر بعيداً في مساعدة تُتش وهو يعلم مدى خطورة أطماعه، وكذلك فعل بوزان. ومن جهته، فإن تُتُش لم يقم بأي عمل عسكري جدِّي ضد مدن الساحل[3]، ولكن الأوضاع تبدَّلت في عام (482هـ/ 1089م) حين استولى الفاطميون على عكا وصور وصيدا وجبيل، كما أنه وصل إلى المعسكر الفاطمي. في غضون ذلك، خلف بن

(1) مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص: 215.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 51.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 51.

ملاعب صاحب حمص وأفاميه[1]، فاجتمع بالقائد الفاطمي واعترف له رسمياً بسلطان الفاطميين وسيادتهم عليه[2]، مما شكل تهديداً مباشراً لسلطان السلاجقة في بلاد الشام، ونتيجة لما اتفق عليه الطرفان من بسط السيادة الفاطمية على كامل بلاد الشام، قام خلف بن ملاعب بالاعتداء على أراض تابعة لِـ«تتش» مما دفعه إلى الاستنجاد مجدداً بأخيه. كما أن الحكام السلاجقة في هذه البلاد شكوا إلى السلطان اعتداءات أمير حمص وكذلك فعل السكان، بفعل أنه اتصف بالظلم، ونظراً للأوضاع الخطيرة التي باتت عليها بلاد الشام، أمر السلطان أخاه تُتُش بتأديب ابن ملاعب، وطرد الفاطميين من البلاد وضمِّها إلى الأملاك السلجوقية، وطلب في الوقت نفسه من ولاته فيها بالتحرك السريع لمساعدته[3]، انزعج كلٌّ من آق سُنقُر وبوزان من قيادة تُتُش لهذه الحملة، وأدركا أنه سوف ينفرد بحكم ما سيتولى عليه، فخرجا مكرهين غير مقتنعين بمساعدته[4]. وصلت القوات المتحالفة إلى حمص عام (483هـ/ 1090م) وحاصرتها وضيَّقت عليها حتى استسلمت، وقبض على ابن ملاعب، وأرسل إلى السلطان ملكشاه الأول[5]، وانكشفت في غضون ذلك أطماع الأطراف المتحالفة، فقد طلب كل من الأمراء حمص لنفسه وكتب إلى السلطان بذلك، فأنعم بها على أخيه[6].

1 ـ موقف آق سنقر من تتش:

في عام 484هـ نزل تتش بجيوشه على طرابلس، وكان بها قاضيها ـ وهو صاحبها ـ واسمه: جلال الملك بن عمار، ونصبوا المجانيق فاحتج عليهم ابن عمار وأظهر لهم منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس، فلم يقبل منه تتش ذلك وتوقف آق سنقر عن قتاله فقال له تتش: أنت تبع لي فكيف تخالفني؟ فقال: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان، فغضب تاج الدولة تتش ورجع إلى دمشق وآق سنقر إلى حلب[7].

وأدرك آق سنقر أن سياسته العدائية تجاه تُتُش تفرض عليه منعه من ضم أي مدينة إلى أملاكه، لذلك جهد أثناء عودته إلى حلب في ضمِّ المواقع التابعة لخلف بن ملاعب، ومنها أفاميه التي سلّمها إلى منقذ صاحب شيزر[8]، وقد هدف من ذلك إلى أمور منها:

---

(1) أفاميه: مدينة حصينة.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 51.
(3) المصدر نفسه، ص: 52.
(4) المصدر نفسه، ص: 52.
(5) المصدر نفسه، ص: 52.
(6) بغية الطالب (7/ 3354).
(7) تاريخ الزنكيين، ص: 53.
(8) المصدر نفسه، ص: 53.

أ ـ إقامة منطقة حاجزة بين أملاكه في شمالي الشام، وأملاك تتش في الجنوب واعتقد أن إمارة بني منقذ في شيزر بإمكانها أن تقوم بهذا الدور.

ب ـ حرمان تُتُش من ضمّ إمارة بني منقذ، وبالتالي إبعاده عن منطقة حلب.

جـ ـ إيجاد حليف قوي يعتمد عليه في صراعه مع تُتُش.

د ـ إبعاد بني منقذ عن التحالف مع تُتُش[1].

والواقع أن ملكشاه وقف على هذا الصراع على النفوذ في بلاد الشام فعمد إلى وضع حدٍّ له، فاستدعى في شهر رمضان (عام 484هـ/ شهر تشرين الأول عام 1091م) جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة بالإضافة إلى أخيه تُتُش، ليبحث معهم مشاكل وقضايا مناطقهم[2]، واستغل تُتُش وجوده عند أخيه وعرض خلافه مع آق سُنقر، واتهمه بعدم الإخلاص للقضية السلجوقية، وقام آق سنقر يدافع عن نفسه متهماً تُتُش بالكذب، واستطاع إقناع السلطان بوجهة نظره، فرفض اتهام أخيه له كما رفض مساعيه للتخلص منه[3].

2 ـ دعم آق سنقر للسلطان بركيارق:

ظلت العلاقة الطيبة قائمة بين آق سُنقر وملكشاه طيلة حياة هذا الأخير، ولما توفي عام 485هـ/ 1092م طلب تُتُش السلطنة لنفسه في ظل صراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى، وتجهّز للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، وكاتب كلاً من آق سُنقُر وبوزان يطلب مساعدتهما[4]، واستجابوا لذلك واشتركوا في حرب إبراهيم بن قريش صاحب الموصل؛ لأنه رفض الخطبة في الموصل لتتش، ورفض أن يعطيه طريقاً إلى بغداد فهزم صاحب الموصل وأُخذت منه، ساروا إلى ميافارقين فملك تُتُش سائر ديار بكر[5]، ثم سار تُتش إلى أذربيجان وكان بركيارق بن ملكشاه قد قوي أمره وصارت بيده الري وهمذان فسار ليمنع عمه[6]، ولما علم تُتُش بذلك قرر الإسراع في زحفه باتجاه خراسان لمحاربة ابن أخيه، وعندما وصل إلى مدينة تبريز[7]، حدثت المفاجأة إذ تخلّى عنه آق سُنقر وبوزان وانضما إلى

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 53.
(2) المصدر نفسه، ص: 53.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 203.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 53.
(5) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 54.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 53.
(7) تبريز: أشهر مدن آذربيجان وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة.

بركيارق عند مدينة الري[1]، فقوي موقفه بهما وكان هذا الانسحاب محطماً لخطة تُتُش. ويبدو أن هناك عدة أسباب دفعت آق سُنقُر إلى هذا التصرف لعل أهمها:

أ ـ كان تُتُش منافساً خطيراً لآق سُنقُر، وأن تأييده له حتّمه واقع الظروف السياسية التي كان يمر بها.

ب ـ رأى آق سُنقُر أن تبقى السلطنة محصورة في أبناء سيده ملكشاه الأول وفاءً منه له.

ج ـ شعر قسيم الدولة بأن تتش يُقرِّب ياغي سيان صاحب أنطاكية ويميل إليه، وقد يعتمد عليه في حكم بلاد الشام في المستقبل[2]، ومهما يكن من أمر، فقد أدرك تُتُش حرج موقفه، وضعف قواته بعد الانسحابات التي حصلت في صفوفه، فاضطر إلى التوقف عن الزحف وقتال بركيارق، وآثر الانسحاب إلى الشام، فعاد أدراجه نحو ديار بكر، وتوقف في الرحبة، ثم حدث أن أقنع كل من آق سنقر وبوزان السلطان بركيارق بألا يترك تُتُش وشأنه وحذَّراه من أطماعه، وأشارا عليه بمطاردته[3]، وفعلاً تحرك الجميع باتجاه الرحبة، فلما علم تُتُش بذلك تركها واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية التي بقي فيها مدة ثم عاد إلى دمشق[4]. وفي الرحبة عقد اجتماع رباعي ضم السلطان بركيارق، وآق سُنقُر، وبوزان، وعلي بن مسلم بن قريش العقيلي، تمخَّض عن عقد تحالف بين الحاكمين السلجوقيين من جهة، والأمير العقيلي من جهة ثانية، تحت إشراف السلطان، هدفه الوقوف في وجه تُتُش، وعاد السلطان إلى بغداد، بعد أن ترك قوة عسكرية بتصرف آق سُنقُر، في حين عاد بوزان إلى الرها، وآق سُنقُر إلى حلب، فوصل إليها في شهر ذي القعدة (عام 486هـ/ شهر تشرين عام 1093م)، وهكذا قام آق سُنقُر بدور بارز في إفشال مخططات تتش، ومنعه من الحصول على السلطنة، وساعد بركيارق على الاحتفاظ بها، مدركاً في الوقت نفسه أن صاحب دمشق سوف ينتقم للضربة التي وجهت إليه، فأخذ يستعد للتصدي له وانتزاع دمشق منه هذه المرة، فطلب المساعدة من السلطان بركيارق فأمده بكر بوغا، واستنجد بمن جاوره من الحكام أمثال بوزان حاكم الرها، ويوسف بن آبق حاكم الرحبة، كما انضم إليه جماعة من بني كلاب وأحداث حلب[5].

3 ـ مقتل آق سنقر:

كان أول ما فكر فيه تُتُش عند عودته إلى دمشق هو الانتقام من آق سُنقُر وبوزان بعد

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 53.
(2) المصدر نفسه، ص: 55.
(3) المصدر نفسه، ص: 55.
(4) المصدر نفسه، ص: 55.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 55، الكامل في التاريخ (8/ 368).

أن تخليا عنه في وقت الشدة[1]، فأخذ يستعد لقتالهما، وتحالف مع ياغي سيان صاحب أنطاكية بعد أن زوَّج ابنه رضوان من ابنته[2]، كما جنَّد قوات إضافية من بني كلاب، والتقى الجيشان يوم السبت في التاسع من شهر جمادى الأول/شهر أيار عند تل السلطان[3]، القريب من حلب، ويبدو أن آق سُنقُر لم يثق بمن كان معه من العرب، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة، ثم إلى القلب، والراجح أن هذا التبديل في المواقع العسكرية أثَّر على قدراته القتالية، فدارت الدائرة عليه، ووقع أسيراً في يد تُتُش[4]، فسأله تتش: لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي؟ قال: كنت أرى قتلك، قال: فأنا أحكم عليك بما كنت تحكم عليَّ، فقتله صبراً وتسلم قلعة حلب يوم الاثنين 11 جمادى الأولى[5]، ودفن آق سنقر خارج حلب، ثم لمَّا ملك عماد الدين نقل بقايا أبيه فدفنها بجانب المدرسة الرجاحية في حلب[6].

رابعاً: نشأة عماد الدين زنكي وأسرته:

1 ـ نشأته:

ولد عماد الدين زنكي (سنة 477هـ)، وكان أبوه من كبار قادة ملكشاه حتى لقب «بقسيم الدولة»، وكان الابن الوحيد لهذا القائد العظيم في الدولة السلجوقية، وتولى والده آق سنقر حلب (سنة 479هـ) أي بعد سنتين من مولده، فكانت حلب مهد طفولته وقضى بها أيامه الأولى[7].

2 ـ تربية والده له:

عاش زنكي في كنف والده مدة عشر سنوات، تكونت خلالها الخطوط العريضة لشخصيته وتشرَّب من أبيه أخلاقه وصفاته، ولا شك أن والده درّبه على الفروسية مُنذ نعومة أظفاره؛ ليكون نِعم الوارث لمركزه، وقد دربه على ركوب الخيل ورمي السهام، وعوده الصبر على المشاق في الحرب وممارستها، وقد أثبتت الأحداث اللاحقة حسن تربية والده له، فقد تميّز بالشجاعة التي تبلغ حد الذروة، فهو يهاجم مع مودود طبرية وينهزم الصليبيون، ويلحقهم المسلمون وعماد الدين في المقدمة، ولا يلتفت إلى الوراء، ليتأكد من لحاق أصحابه به، ويصل إلى باب طبرية ويحارب الإفرنج عليه، ويبدي شجاعة فائقة وينسحب

---

(1) الحركة الصليبية، عاشور (1/ 112)، تاريخ الزنكيين، ص: 56.
(2) زبدة الحلب (1/ 331).
(3) تل السلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق.
(4) الكامل في التاريخ (8/ 368).
(5) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 55.
(6) المصدر نفسه، ص: 55.
(7) المصدر نفسه، ص: 57.

ويحسن الانسحاب عندما لا يرى حوله أحداً، فيعجب الناس من رجوعه سالماً، كما عجبوا من شجاعته[1]، وورث عن أبيه آق سنقر القوة التي تعرف العطف، والتي لا تبقي على عدو خطر، وورث عنه التخطيط الذي يؤدي إلى حتف الخصم الذي رسمه له زنكي[2].

3 ـ والدته:

توفي والده وعمره عشر سنوات، ولكن أمه عاشت حتى رأت ابنها يرث أبيه ويحكم الموصل، وقرت عينها إذ رأته في السنة التي توفيت فيها يحاصر دمشق التي قتل صاحبها تتش زوجها آق سنقر فقد توفيت سنة (529هـ) بالموصل، وكانت هناك أسطورة أوروبية سورية: أن أتابك الموصل من أصل فرنجي، ويفترض أن أمه كانت الأميرة الجميلة النمساوية التي أسرت وقضت بقية أيامها في حريم آق سنقر، وأن أمرأة عظيمة أوروبية تستطيع أن تلد مثل هذا البطل. لكن هذه القصة غير صحيحة لأن أباه آق سنقر مات قبل سنوات من حدوث كارثة الغزو الصليبي، ولا يذكر لنا المؤرخون اسماً لوالدته، ولا أصلها حتى نستطيع أن نتعرف على أسباب اكتسابه اللون الأسمر مع أن المشهور عن الأتراك اللون الأبيض، فلعله ورث هذه الصفات عن والدته[3].

4 ـ زوجات عماد الدين:

أ ـ تزوج زنكي أكثر من واحدة فمن زوجاته التي ذكرها المؤرخون زوجة الأمير كندغدي. وقال السلطان محمود: قد زوجتك امرأة الأمير كندغدي من أكابر أمراء السلطان محمد، والسلطان محمود، واتفق أنه مات وترك ولداً صغيراً وزوجة، ومن المال والبرك (المتاع الخاص من ثياب وقماش وسلاح) ما لا يقدر عليه إلا السلطان، فطلب من عماد الدين أن يتزوجها وأرسل إليها، يقول لها: إنني زوجتك بعماد الدين زنكي، فامتنعت ثم أجابت، فركب زنكي من غد دخوله بها ومعه ولد كندغدي وهو في موكب عظيم من أصحابه وأصحاب كندغدي، وأخرجت له زوجته من الخيام والبرك ما ليس لأحد من العسكر مثله[4].

ب ـ **الزوجة الثانية**: خاتون ابنة الملك رضوان، كان زواجه بها زواجاً سياسياً، فقد تزوجها ليصبح له الحق والشرعية في حكم حلب[5]، ولكنه هجرها بعد أن رأى ثياب أبيه آق سنقر الذي قتله جدها تتش، وطلقها بتدخل القاضي أبي غانم قاضي حلب[6]، وكان زواجه

---

(1) الروضتين (1/ 68).
(2) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 58.
(3) المصدر نفسه، ص: 59.
(4) التاريخ الباهر، ص: 28.
(5) نور الدين زنكي، حسن حبشي، ص: 24.
(6) زبدة الحلب، ص: 244، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 59.

بها سنة (522هـ) على رأي حسن حبشي، وسنة (523هـ) في رأي ابن العديم[1].

ج ـ الزوجة الثالثة: صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي، تزوج صاحبة خلاط ابنة سقمان القطبي سنة (529هـ)، والظاهر أن زواجه منها كان ليمكن نفوذه في تلك المنطقة، فقد كان زنكي في السنة السابقة لهذا الزواج في حرب، وكان حسام الدين تمرتاش معه في حربه ضد داود بن سكمان ابن أرتق، وربما أراد بالمصاهرة أن يضم خلاط إليه وتقوية جبهته في تلك المنطقة، ولا سيما أنه في سنة زواجه كان في حرب في تلك الجهة فاستولى على الصقر وشوش.

د ـ الزوجة الرابعة: ابنة تمرتاش.

هـ ـ الزوجة الخامسة: خاتون بنت جناح الدولة حسين، وكان زواجه منها سنة 531هـ، وفي هذه السنة كانت فترة نشاطه في حمص، فقد حاصرها حصاراً شديداً ولا يستبعد أن يكون زواجه بها ليكتسب شرعية أخذه حمص من دمشق، لأنها الوارثة لها بعد والدها وليضم إليه أنصار والدها ويساعدوه على أخذ المدينة[2].

و ـ الزوجة السادسة: تزوجها سنة 532هـ وهي صفوة الملك ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل وإخوته بني تاج الملوك، وهي أخت الملك دقاق لأمه[3]، وقد كان زواجه منها في أمل أن يمتلك دمشق فلما لم يحصل له ملك دمشق أعرض عنها[4]؛ ونلاحظ أن موضوع زوجات زنكي قد حَظِي باهتمام عدد من المؤرخين، وأغلب الظن أن سبب ذلك يعود إلى العلاقة الوثيقة بين معظم عقود الزواج التي قام بها وبين مشاريعه السياسية والعسكرية، وكان زنكي يعتمد رابطة الزواج لتحقيق بعض أهدافه السياسية والعسكرية، وأنه تمكن بهذا الأسلوب من توثيق علاقاته بعدد من الحكام والأمراء، الأمر الذي ساعده إلى حدٍّ كبير في تنفيذ خططه الرامية إلى توحيد القوى الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي[5].

5 ـ أبناؤه:

أما أبناؤه فهم سيف الدين غازي وهو الأكبر، نور الدين محمود، قطب الدين مودود، نصرة الدين أمير أفيران. وجميع أولاده ظهرت عليهم النجابة مما ورثوه من والدهم، وكانوا ذوي أخلاق حميدة، وشجاعة فائقة، وخاصة نور الدين محمود، وسيف الدين غازي،

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 59.
(2) المصدر نفسه، ص: 60.
(3) الروضتين (1/ 80).
(4) مفرج الكروب، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 60.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 172.

وقطب الدين مودود فأخبار شجاعتهم مشهورة، ونلاحظ من أسماء أولاد زنكي اسم مودود، فقد يدل على إعجاب زنكي بالأمير مودود، وهناك غازي، واسمه يدل عليه، أمّا محمود فإنه يطابق اسم أحد السلاطين السلاجقة ممن خدمهم زنكي[1]. وقد خصص زنكي لتربية أولاده علياً بن منصور السروجي، وكان أديباً شاعراً خطاطاً، وعندما كبر سيف الدين غازي أرسله أبوه لخدمة السلطان مسعود، فتلقاه بالحفاوة والتقدير، ورتب في خدمته عشرة من الحراس[2]، وقد بقي سيف الدين هناك حتى قبيل مقتل أبيه بوقت قصير، وأما نور الدين محمود فقد نشأ تحت رعاية والده، وتعلم القرآن الكريم والفروسية والرمي[3]، ولما جاوز صباه لزم خدمة أبيه حتى مقتله[4]، وهكذا كان زنكي يعدّ أولاده لتحمل المسؤوليات الإدارية والعسكرية في المستقبل، وما يقال عن غازي ومحمود يمكن أن يقال عن ابنيه الآخرين أميران ومودود[5].

المبحث الثاني
تطور شخصية عماد الدين القيادية

أولاً: بزوغ نجمه السياسي:

كان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، مُنذ عهد طفولته، ذلك الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية في الأعوام (465هـ ـ 487هـ) والمكانة التي حصل عليها نتيجة خدماته للسلاطين السلاجقة، وعمله على تدعيم كيانهم، حتى أنه ضحى بحياته ـ كما رأينا ـ في سبيل الولاء للسلطان السلجوقي بركيارق، ولم ينس هذا تضحية آق سنقر في سبيل عرشه فجازاه ـ بعد مقتله ـ بتوجيه العناية والاهتمام نحو ابنه الوحيد عماد الدين زنكي الذي كان آنذاك في العاشرة من عمره، وكان يقيم في حلب تحت رعاية مماليك أبيه، وأصحابه الذين كانوا يكنون الحب العميق لآق سنقر[6].

1 ـ مكانة زنكي عند أمير الموصل كربوقا:

لما تولى أمر الموصل قوام الدولة كربوقا سنة (489هـ)، باسم السلطان بركيارق أولى زنكي اهتماماً خاصاً، وطلب من بعض مماليك والده المقيمين في حلب إحضار عماد الدين

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 62.
(2) الباهر، ص: 97.
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن عماد الدين، ص: 173.
(4) الروضتين (1/ 119).
(5) عماد الدين زنكي، ص: 173.
(6) الباهر، ص: 15، عماد الدين زنكي، ص: 36.

إليه وقال لهم: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته، فأحضروه عنده[1]، ويبدو أن كربوقا أدرك مكانة آق سنقر والد عماد الدين في نفوس كثير من التركمان وعرف ما يكنّون له من الولاء والطاعة، فحرص على أن يضمّ إليه ابنه عماد الدين ليحصل على الولاء نفسه الذي يحمله التركمان لوالده، إضافة إلى أن كربوقا أثناء ملازمته لآق سنقر قد أدرك نجابة عماد الدين ومكانته بين مماليك والده، فأراد أن يضمه إلى جانبه للاستعانة به، وبمماليك والده في حروبه ضد خصومه، وربما ليضمن عدم منافسته له مستقبلاً، وقد حظي عماد الدين بمكانة مرموقة عند قوام الدولة كربوقا، وظل عماد الدين زنكي ملازماً له بالموصل إلى أن توفي كربوقا سنة (495هـ / 1101م)[2].

2 ـ مكانته عند الأمير جكرمش والي الموصل:

بقيت العلاقة طيبة بين زنكي وشمس الدولة جكرمش الذي أعقب كربوقا على ولاية الموصل (495هـ ـ 500هـ) والذي كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه، وعلى معرفة بالخدمات التي أداها والد زنكي للسلاجقة، ومن ثم توثقت العلاقة بينه وبين زنكي حيث قربه وأحبه واتخذه ولداً، وظل الأخير ملازماً له حتى وفاته عام (500هـ)[3].

3 ـ في عهد ولاية جاولي سقاو على الموصل:

بعد وفاة جكرمش تولى جاولي سقاو سنة (500هـ/ 502هـ) على ولاية الموصل، وكان زنكي قد بلغ مرحلة الشباب (وبدت عليه علامات الشهامة) وساد الصفاء علاقته بالوالي الجديد. إلا أن عصيان الأخير للسلطان محمد عام (502هـ) وهروبه إلى الشام، دفع زنكي إلى الانفصال عنه وجماعة من كبار الأمراء، في نفس الوقت الذي عين فيه السلطان والياً جديداً على الموصل هو الأمير مودود بن التونتكين سنة (502هـ ـ 507هـ)، فانضم زنكي ورفاقه إليه. مما كان له أبلغ الأثر في نفس السلطان والوالي الجديد على السواء، الأمر الذي رشحه لأن يكون من كبار أمراء هذا الوالي، وأن يحصل على مزيد من الإقطاعات[4].

4 ـ ملازمته للأمير مودود في حرب الصليبيين:

لما استقر الأمير مودود بالموصل واتصل به عماد الدين عرف له مكانته بالإضافة إلى منزلة أبيه، ولما رأى منه العقل والشجاعة زاد في إقطاعه، وشهد زنكي حروبه كلها وخاصة

(1) عماد الدين زنكي، ص: 36.
(2) الباهر، ص: 16، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 31.
(3) الباهر، ص: 16، عماد الدين زنكي، ص: 36.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 37.

مع الصليبيين في طبرية، وقبل مجيء مودود كان زنكي قد تميز بشجاعته ومقدرته، وقد شارك في الغزوات التي قام بها ضد اللاتين، ويذكر المؤرخون بكل اعتزاز أن عبقريته كرست للجهاد من السنوات الأولى من عمره[1]، وقد أظهر في عهد مودود من البطولات في جهاده ضد الصليبيين، ما أكسبه شهرة واسعة لدى المسلمين، وظل ملازماً لمودود حتى مقتله عام (507هـ) على أيدي الباطنية في جامع دمشق[2].

5 ـ في خدمة الأمير آق سنقر البرسقي:

عاد زنكي بعد استشهاد مودود إلى الموصل ليلتحق بخدمة الوالي الجديد «جيوش بك»، ثم ما لبث أن انضم إلى الأمير آق سنقر البرسقي الذي وجهه السلطان السلجوقي لقتال الصليبيين في نفس العام، فقاتل في الرُّها، وسميساط، وسروج، وأظهر من الشجاعة والمقدرة خلال ذلك ما زاد من شهرته لدى المسلمين[3]، ودفع السلطان محمد إلى أن يطلب من واليه على الموصل تقديم زنكي والرجوع إلى مشورته تقديراً لإخلاصه وقدراته[4].

6 ـ بعد وفاة السلطان السلجوقي محمد 511هـ:

عندما توفي السلطان محمد عام (511هـ)، سعى «جيوش بك» إلى استغلال وجود ابنه مسعود ـ إذ كان أتابكاً له ـ ودفعه إلى التوجه إلى بغداد لكي يُنصِّب نفسه سلطاناً على سلاجقة العراق مستهدفاً من وراء ذلك التحكم الفعلي في شؤون الدولة السلجوقية باسم السلطان الجديد، وقد أيد زنكي هذه المحاولة، وسار الوالي ومسعود متوجهين إلى بغداد على رأس حشد من قوات الموصل، إلا أن المحاولة أخفقت بعد سلسلة من الحروب والمناوشات شهدتها منطقة بغداد، واستتب الأمر للسلطان محمود الذي أعقب أباه في الحكم[5]. وبعد ثلاثة أعوام حاول جيوش بك أن يثور ثانية ضد السلطان محمود، غير أن زنكي رفض تأييده وأشار على المتمردين بطاعة السلطان وترك مخالفته، وحذرهم عاقبة العصيان. لكنهم لم يلتفتوا إلى قوله، وأقدموا على تنفيذ محاولتهم التي انتهت هي الأخرى بالفشل بعد هزيمة جيوش بك ومسعود على يد السلطان محمود الذي بلغه موقف زنكي منه فقدَّره حق قدره، وأوصى البرسقي والي الموصل الجديد بالعناية به، وتقديمه على سائر الأمراء[6].

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 63.
(2) الباهر، ص: 17ـ19، عمادالدين زنكي، ص: 37.
(3) المصدر نفسه (9/ 949).
(4) الباهر، ص: 24، عماد الدين زنكي، ص: 38.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 38.
(6) الباهر، ص 22، 24، الروضتين (1/ 73).

7 ـ تولي عماد الدين زنكي إمارة واسط والبصرة:

وعندما عين البرسقي عام 516هـ على شحنكية العراق رافقه زنكي، واشترك إلى جانبه في المعركة التي دارت ضد دبيس أمير الحلة وانتهت بهزيمة البرسقي[1]، الذي رأى أن يزيد من اعتماده على زنكي في صراعه ضد دبيس، فولاه واسط ـ ذات الموقع الهام ـ وكلفه مهمة الدفاع عنها ضد هجمات أمير الحلة. وقد استطاع زنكي أن يسحق في طريقه إلى واسط القوات التي حشدها دبيس للدفاع عن النعمانية، وأن يستولي على هذا الموقع[2]، وأظهر زنكي في منصبه الجديد حزماً وكفاءة، وأبان عن مقدرة إدارية فذة[3]، الأمر الذي دفع البرسقي ـ حاكم العراق ـ إلى إضافة البصرة إلى ولايته، لكي يصد هجمات الأعراب الدائمة عليها، وينشر الأمن في ربوعها[4]، فانتقل زنكي إليها لكي يحقق فيها ما أنجزه في واسط من نشر للأمن وقضاء على الفوضى. وقد تمكن في وقت قصير من أن يُوقِف هجمات الأعراب وغاراتهم المتتابعة عند حدها، وأن يجليهم إلى أعماق الصحراء، كما قضى على الفتن التي عمت البصرة، وأظهر مقدرة عسكرية وإدارية كالتي أظهرها في واسط من قبل، مما زاد من مكانته في نظر رجالات الدولة السلجوقية ومن رهبته للأعداء، حتى أن دبيس بن صدقة ـ أقوى أمراء الجنوب ـ تجنب الاصطدام معه، لأنه أدرك أن ليس في طاقته مجابهته والتغلب عليه، وفضل توحيد جهوده ضد الخليفة العباسي في بغداد بدلاً من مقارعة هذا الأمير القدير[5].

8 ـ دفاع زنكي والبرسقي عن الخليفة المسترشد:

لم يترك البرسقي وزنكي الخليفة يجابه بمفرده حشود دبيس، فجمعوا قواتهم والتقوا به في مطلع عام 517هـ قريباً من الحلة، واستطاعوا ـ بفضل الله ثم الخطة البارعة التي اتبعها زنكي ـ أن يلحقوا به هزيمة نكراء، وأن يقتلوا ويأسروا الكثير من جنده، واضطر هو ومن سلم من قواته إلى الفرار، بينما عاد المسترشد وحلفاؤه إلى بغداد يستقبلهم الأهالي هناك استقبالاً حافلاً، بعد خلوصهم من خطر محقق كان يحيق ببغداد ويعرضها للنهب والتخريب[6]، وكان زنكي ـ لدى مغادرته البصرة ـ قد فوض شؤونها لمقدم حاميتها الأمير «سخت كمان» فاستغل دبيس بُعْد زنكي عنها وهاجمها على حين غرة، وتمكن من قتل مقدم

---

(1) المنتظم (9/ 232، 233)، الباهر، ص: 24.
(2) الباهر، ص: 25، عماد الدين زنكي، ص: 38.
(3) الروضتين (1/ 73)، عماد الدين زنكي، ص: 39.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 39.
(5) المنتظم (9/ 242، 243)، عماد الدين زنكي، ص: 39.
(6) البداية والنهاية، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 39.

حاميتها ونهب أهاليها، لكن زنكي ما لبث أن عاد إلى البصرة ليقر الأوضاع فيها من جديد، فانسحب دبيس من المنطقة، واتجه إلى الشام للعمل مع الصليبيين[1].

9 ـ عماد الدين في خدمة السلطان محمود:

أقيل البرسقي من شحنكية العراق في عام (517هـ)، وأعيد إلى الموصل لقيادة حركة الجهاد ضد الصليبيين، وعين يرنقش الزكوي شحنة بعده[2]، فأرسل البرسقي إلى زنكي يستدعيه من البصرة ليتجه معه إلى الموصل، غير أن الأخير فضل أن يربط مصيره بالسلطان محمود، يصحبه عدد من كبار أمرائه، وقرر السلطان محمود تزويجه بأرملة أحد أمرائه الكبار، وتم ذلك في احتفال شهده السلطان وعدد كبير من القادة والمسؤولين[3] الأمر الذي هيّأ لزنكي فرصة الظهور في محيط كبار الأمراء وتعريف رجالات الدولة السلجوقية بمكانته[4].

10 ـ تكليف السلطان محمود عماد الدين بتوطيد الأمن في البصرة:

غدت البصرة بعد مغادرة زنكي لها مسرحاً للفوضى، وهدفاً للنهب والتخريب، وهجمات الأعراب، وبلغ السلطان ذلك فأمر زنكي بالعودة إليها، بعد أن أقطعه إياها عام 518هـ وطلب منه اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتوطيد الأمن في المنطقة، كما كلفه مهمة الإشراف على واسط، والسعي للدفاع عنها إذا ما فكر الخليفة بإرسال جيش للاستيلاء عليها، إذ كانت هدفاً لمحاولاته التوسعية[5]، غادر زنكي أصفهان إلى البصرة وباشر مهام منصبه، فأحسن معاملة أهلها، واستطاع أن يخلصهم من هجمات الأعراب، وذلك عن طريق تنظيم دوريات عسكرية دائمة للقيام بهجمات مضادة على الأعراب، ونصب الكمائن لهم، كما اهتم بالوقت ذاته بأمور واسط وأخذ يمد السلطان بأخبار العراق، بحيث لم يخف على الأخير شيئاً من أموره، الأمر الذي زاد من تقديره لزنكي ومن ارتفاع منزلته عنده، ورشحه لمنصب شحنكية العراق[6].

11 ـ الصراع بين الخليفة المسترشد والسلطان السلجوقي:

في عام 519هـ تدهورت العلاقات بين الخليفة المسترشد والسلطان محمود الذي رأى نفسه مضطراً للتوجه إلى بغداد للحد من مطامح الخليفة، وفرض سيطرته المباشرة على

(1) المنتظم (9/ 249).
(2) المصدر نفسه (9/ 249).
(3) الباهر، ص: 27، 28، عماد الدين زنكي، ص: 40.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 40.
(5) الباهر، ص: 28، عماد الدين زنكي، ص: 41.
(6) المصدر نفسه، ص: 28، المصدر نفسه، ص: 41.

العراق. وكان الخليفة قد أرسل بعض جيوشه بقيادة عفيف الخادم للاستيلاء على واسط إلا أن زنكي تمكن من صده والانتصار عليه في المعركة التي دارت بين الطرفين عند مشارف واسط. وفي العشرين من ذي الحجة وصل السلطان إلى بغداد وأرسل إلى الخليفة يطلب منه إقرار الصلح فرفض الأخير طلبه، الأمر الذي أدى إلى نشوب القتال بين الطرفين، وقد رأى السلطان أن يعتمد على زنكي في صراعه هذا، فأرسل إليه يأمره بالحضور إلى بغداد على رأس قواته، وأن يجلب معه ما يستطيع من زوارق حربية وسفن، فنفذ زنكي الأمر، وجمع عدداً كبيراً منها، إثر جولة قام بها في مناطق العراق الجنوبي لهذا الغرض، وبعد أن ملأها بالمقالة اتخذ طريقه إلى بغداد، وما إن بلغ الخليفة نبأ تقدم زنكي بقواته الحاشدة براً ونهراً، حتى أدرك أن ليس في طاقته الصمود طويلاً إزاء شروط السلطان، وأن بغداد مقبلة على حصار شديد في البر والنهر، فأرسل إليه يعلن موافقته على الصلح، ومن ثم دخل السلطان بغداد حيث تمت المصالحة وساد الوئام[1]. وهكذا لعب زنكي دوراً حاسماً في وضع حد للصراع بين السلطان والخليفة والذي كان من المحتمل أن يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها[2].

12 ـ تولي عماد الدين شحنكية العراق:

ولما أراد السلطان محمود الرحيل نظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية العراق، وبغداد، ويأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور، فلم ير في أمرائه وأصحابه من يصلح لسد هذا الباب العظيم، ويرفع هذا الخرق من الاتساع، ويقوى على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي فولاه شحنكية العراق مضافاً إلى ما بيده من الأقطاع وسار السلطان عن بغداد[3]، وقد اطمأن إلى نفوذه في العراق، بعد أن أناب عنه الرجل الذي يستطيع أن يقوم بمهام منصبه خير قيام وأصبح عماد الدين مُنذ ذلك التاريخ يصرف الأمور، لا في بغداد وحدها، بل في سائر جهات العراق[4].

ثانياً: دور الفقهاء في تعيين عماد الدين على الموصل:

عندما توفي أمير الموصل عز الدين البرسقي عام (521هـ/ 1127م) تولى أمرها أخ صغير له تحت وصاية مملوك تركي يدعى: جاولي. أدرك الفقهاء أن ضعف الموصل لا بد وأن يؤثر على حلب وبلاد الشام في هذه المرحلة الحاسمة في تاريخ الصراع، إذ أن ذلك الفراغ

---

(1) المنتظم (9/ 252، 259)، الباهر، ص: 28، 31.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 41، 42.

(3) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 68.

(4) الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 32.

السياسي، وعدم وجود قيادة عسكرية قوية في الموصل لا بد وأن يلقي انعكاساً على الصراع الصليبي الإسلامي[1]، ولذلك قامت عائلة الشهرزوري المعروفة بالعلم والصلاح بدور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائداً عسكرياً قوياً. حقيقة أن جاولي قام بإرسال القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري، ونائب عز الدين البرسقي صلاح الدين محمد الباغيسياني إلى بغداد، التي كان بها السلطان محمود السلجوقي، وذلك الولاية في الموصل لأخ عز الدين الصغير حتى يظل يسيطر باسمه على الحكم فيها بصفة الوصاية عليه، إلا أن القاضي ورفيقه أدركا ذلك الهدف وأنهما ليس في نيتهما تحقيق هدف جاولي، لاعتقادهما بعدم كفاءته لذلك الظرف الصعب، حيث كانا على معرفة بطباعه وتصرفاته التي لا يرضيان عنها، ويبدو في الوقت نفسه أنهما كانا على علاقة متينة بعماد الدين زنكي حيث خططا معاً في أن يتمكنا من إقناع ذلك السلطان لتولية الموصل وحلب، حرصاً منهما على عدم ضياع البلاد الإسلامية وخاصة الموصل في أيدي الصليبيين[2]، وبوصول القاضي ورفيقه إلى بغداد اتصل صلاح الدين محمد بأحد أقربائه في بغداد نصير الدين جقر ـ حيث كان بينهما مصاهرة[3] ـ واجتمعوا به وقرروا أن جاولي لا يصلح لحفظ البلاد لأنه كان سيىء السيرة[4]، وأخذ القاضي الشهرزوري على عاتقه حمل الأمانة وقول الحق، فاجتمع هو وصلاح الدين الباغيسياني بوزير السلطان السلجوقي[5] وقالا له: قد علمت أنت والسلطان السلجوقي أن ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها، وقويت شوكتهم بها واستولوا على أكثرها، وقد أصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين[6]، ويتضح من خلال حديث القاضي بهاء الدين الشهرزوري مبلغ تخوفه من سيطرة الصليبيين على أراضي الإسلام وخشيته من اتساع الرتق باستيلائهم على المزيد منها، وحاجة البلاد إلى الرجل المناسب لوقف التوسع الصليبي والتصدي له. فاستطرد قائلاً: ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحمي حوزتها[7]، ومن عمق إحساسه بالمسؤولية أمام الله والعباد نراه يقول: وقد أنهينا الحال إليك لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله واللوم من السلطان[8]، وهذا يعطينا درساً مهماً في دور هذا الفقيه الذي وضع مصلحة الأمة

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 84.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 84.
(3) المصدر نفسه، ص: 84.
(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 106.
(5) المصدر نفسه، ص: 106.
(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 107.
(7) المصدر نفسه، ص: 107.
(8) الكامل في التاريخ (8/ 659).

فوق كل اعتبار، ولم يتأثر بترغيب ولا ترهيب من حاكم الموصل الذي أرسله للسلطان السلجوقي، كما أن في اختيار كمال الدين الشهرزوري لعماد الدين زنكي تزكية له من بين بقية الأمراء في ذلك العهد. وقام وزير السلطان شرف الدين أنوشروان بن خالد بتوصيل مطلبهما وحال بلاد الشام إلى السلطان محمود. وبواسطة ذلك الوزير اقتنع السلطان برأيهما وحالهما، وتحقق هدفهما عندما استشارهما فيمن يفضلون لولاية الموصل. ويبدو أن القاضي الشهرزوري ورفيقه أشارا عليه بمجموعة من القادة المسلمين من بينهم عماد الدين زنكي حتى لا يشك في أمرهما وإصرارهما عليه، إلا أنهما اختارا عماد الدين بإيعاز من وزيره أنوشروان، وعينه والياً على الموصل[1]، وهنا يظهر دور العالم القاضي بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري في اختيار القائد الأفضل لقيادة القوى الإسلامية نحو مواجهة الغزو الصليبي، حتى كان لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي، حيث تمكن من خلاله غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ورحب به أهلها عام (521هـ/1127م) لأن موقع حلب الإستراتيجي بين بلاد الشام، ومناطق أعالي الفرات هو الذي جعلها في قلب الأحداث آنذاك حتى أن ذلك الأمير عماد الدين قد أدرك أهمية ذلك الموقع بالنسبة لبلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية، وتمنى لو أخذها المسلمون قبل أن يدخلها الصليبيون[2].

إن هذا العدو قد طمع في البلاد وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام.. فالمسلمون أولى من الكفار بها[3].

1 ـ مكانة القاضي بهاء الدين الشهرزوري عند عماد الدين:

واعترافاً من عماد الدين زنكي بما بذله القاضي بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه، ورداً لجميله نحوه، عيّنه قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وكذلك زاده أملاكاً وأقطاعاً واحتراماً، وكان يثق فيه وفي آرائه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان عماد الدين يستشيره في معظم الأمور الهامة في دولته حتى صرّح ابن الأثير بذلك قائلاً: وكان لا يصدر إلا عن رأيه[4]. إن احترام العلماء وتقدير آرائهم واستشارتهم من عوامل وأسباب نجاح القادة السياسيين والعسكريين.

2 ـ أتابكيّة الموصل:

مال السلطان السلجوقي إلى تولية عماد الدين زنكي إمارة الموصل، لما علم من شهامته وتمكنه من إنجاز المهام التي أنيطت به من قبل، وأمره بالحضور وبعد مناقشات

---

(1) الكامل في التاريخ (8/ 659).
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن موقف فقهاء الشام، ص: 86.
(3) المصدر نفسه، ص: 86.
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء، ص: 108.

قصيرة اقتنع السلطان بجدارة زنكي في القيام بأعباء المنصب الجديد، ومن ثم أصدر منشوراً بتوليته الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام، وسلمه وَلَدَيْه: ألب أرسلان والخفاجي ليكون أتابكاً لهما (أي أباً مربياً) وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومُنذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكاً، وأصبح كل من ولدي السلطان محمود تحت إشرافه المباشر، وفي الثالث من رمضان عام 521هـ وصل بغداد الأمير مجاهد الدين بهروز، قادماً من بلاد فارس، ليتولى شحنكية العراق، فغادر زنكي ورجاله عاصمة العراق نحو الموصل لتسلم مهام منصبه الجديد[1]، وتعتبر أتابكيّة الموصل نواة للدولة الزنكية[2].

ثالثاً: أهم صفاته:

كان عماد الدين زنكي حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين[3]، معتدل الطول[4]، وخط الشيب رأسه في سنيّ حكمه الأخيرة[5]، وكان ذا شخصية قوية، شديد الهيبة على رعيته وجنده[6]، جاداً في معظم الأحيان، وكان جِدُّه الصارم يمنعه من الاستسلام للراحة أو الترف ويدفعه إلى مواصلة كفاحه من أجل أهدافه، ويجعل أصوات السلاح ألذ في سمعه من غناء القينات[7]، وإليك تفصيل أهم صفاته:

1 ـ شجاعته:

فقد ورث الشجاعة عن أبيه الذي تقدم في جيش ملكشاه، وقد مرّ معنا شيء من سيرته وقوله لـِ: «تُتش» المنتصر وهو الأسير بين يديه: لو ظفرت بك لقتلتك، ويلقى نتيجة جرأته فيقتله تتش صبراً[8]، وقد تقدم عماد الدين عند أمراء الموصل بشجاعته، وظهرت شجاعته في القتال في زمن مبكر، فقد سار مع مودود في غزوته ضد الإفرنج، وخرج إفرنج طبرية للدفاع عنها، فحمل عليهم، وانهزم الإفرنج من أمامه، وطعن باب سور طبرية طعنة أثرت فيه، وكان أصحابه قد تأخروا عنه، لما قرب من الأسوار ومع ذلك قاتل متراجعاً، فعجب الناس من شجاعته ونجاته[9]، قال أبو شامة في شجاعته: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النّهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة، أن ولايته أحدق بها

---

(1) المنتظم (10/ 5)، عماد الدين زنكي، ص: 45.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 27.
(3) الباهر، ص: 76، عماد الدين زنكي، ص: 173.
(4) الروضتين (1/ 108)، عماد الدين زنكي، ص: 173.
(5) الباهر، ص: 76، عماد الدين زنكي، ص: 173.
(6) زبدة الحلب (2/ 290، 291)، عماد الدين زنكي، ص: 173.
(7) الباهر، ص: 81، عماد الدين زنكي، ص: 173.
(8) مفرج الكروب (1/ 26).
(9) أخبار الروضتين، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 160.

الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها، وبيت سُكْمان، وركن الدولة داود صاحب صحن كيفا، وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج ثم صاحب دمشق، وكان ينتصف منهم ويغزو كُلّاً منهم في عقر داره ويفتح بلادهم، ما عدا السلطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع وكلٌ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده[1]. وحمل على قلعة عقر الحميدية في جبال الموصل، وأهلها أكراد وهي على جبال عال، فوصلت طعنته إلى سورها، وفي حصار الرها، جمع أمراءه عنده، ومد السماط، وقال: لا يأكل معي على مائدتي هذه إلا من يطعن معي غداً في باب الرها، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد، وصبي واحد لا يعرفه، لما يعرفون من إقدامه وشجاعته، وأن أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبي: ما أنت وهذا المقام فقال عماد الدين: دعه، فإني أرى والله وجهاً لا يتخلف عني[2]، وكان يقدر الشجعان، وكان لا يضطرب أمام أي خطر[3].

2 ـ هيبته:

كان عماد الدين ذا هيبة شديدة في نفوس أصحابه لا يجرؤون على الجلوس بين يديه، واشترك معه في الحروب أجناس مختلفة، يحتاج ضبطها من الدراية والمهارة والهيئة، فاستطاع بشخصيته القوية، فرض النظام على جميع جنده، وكان ذا هيبة وسطوة، وكان إذا مشى يسير العسكر خلفه في صفين، كأنهم الخيط خوفاً أن يدوس أحدهم الزرع ولا يجسر أحد أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يجسر أن يأخذ من فلاح تبن إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية، وأن تعد أحد صلبه[4]. وهيبته كانت في نفوس قادته، قال علي كوجك نائبه بالموصل: لما فتحنا الرها مع الشهيد، وقع بيدي من النهب جارية رائعة أعجبني حسنها، ومال قلبي إليها فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد برد السبي والمال المنهوب، وكان مهيباً مخيفاً فرددتها وقلبي معلق بها[5]، وخرج يوماً من باب السر، في قلعة الجزيرة خطوة، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندرية من مماليك السلطان فحين رأى الشهيد سقط على الأرض فحركه فوجده[6] ميتاً، وركب يوماً فعثرت دابته، وكاد يسقط عنها فاستدعى أميراً، وكان معه، فقال له كلاماً لم يفهمه، ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد إلى بيته وودع أهله عازماً على الهرب فقالت له زوجته: ما ذنبك وما حملك على الهرب؟

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 160).
(2) مفرج الكروب (1/ 93).
(3) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 159.
(4) تاريخ حلب، ص: 283، الحروب الصليبية، ص: 159.
(5) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، نقلاً عن تاريخ حلب، ص: 159.
(6) مفرج الكروب (1/ 105).

فذكر لها الحال، فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية، فاذكر له قصتك، وافعل ما يأمرك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب وأهلك. فلم تزل به زوجته تراجعه وتقوي عزمه إلى أن عرف نصير الدين حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه الصرة من الدنانير واحملها إليه، فهي التي أراد، فقال: الله الله في دمي ونفسي، فقال لا بأس عليك، فإنه ما أراد غير هذه الصرة، فحملها إليه فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم، فأمره أن يتصدق به، فلما فرغ من الصدقة قصد نصير الدين وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصُرة ؟ فقال: إنه يتصدق بمثل هذا القدر كل يوم، يرسل إليّ يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط على الأرض، فأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة[1]، واجتمع حوله العرب والترك والتركمان والأكراد والبدو، وكان يجتهد أن تضبط أمور هذه الجموع بحكمة القائد الماهر، ويضبطهم في أحرج الأوقات، فعندما اقتحم جنده الرها، وكادوا يأتون على ما فيها، كف أيديهم وحافظ على البلد، لأن تخريب مثله لا يجوز في السياسة كما قال[2]، وخاف خصومه قصد ولايته لعلمهم أنهم لا ينالون منها عرضاً[3]، وبلغ من خوف الفرنجة منه أنه رفع الحصار عن قلعة البيرة لقتل نائبه في الموصل، فسلمها أهلها إلى حسام الدين تمرتاش خوفاً من عودة الشهيد إليهم[4]، وكان يخشاه سلاطين السلاجقة، ولا يقدرون على قصد بلاده، فيقول ابن الأثير: أراد السلطان مسعود زنكي إثارة الأطراف عليه ومنع السلطان مسعود قصده حصانة بلاده، وكثرة عساكره وأمواله[5]، والخليفة المسترشد نفسه، حاصر الموصل فلم ينل منها شيئاً مدة ثلاثة شهور[6].

3 ـ ذو دهاء ومكر وحيلة:

كان ذا دهاء ومكر وحيلة، وذكاء نافذ في مجابهة المشاكل الحربية والسياسية، وقد مكنه ذلك من اجتياز كثير من الصعوبات، وتحقيق مزيد من الانتصارات، فمن مناورته البارعة ضد التحالف البيزنطي الصليبي عام (532هـ)، فقد أرسل إلى قادته يقول: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، وتكون الغلبة لأحد الطرفين، فظن الروم والصليبيون أن وراءه قوات ضخمة أتاحت له أن يطرح تحديه، فتجنبوا لقاءه وهو ما كان زنكي يرجوه، ثم راح بعد ذلك يراسل إمبراطور الروم ويوهمه أن الصليبيين متفقون مع

---

(1) مفرج الكروب (1/ 105).
(2) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 159.
(3) الباهر، ص: 25.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 160.
(5) الباهر والكامل في التاريخ، نقلاً عن الحروب الصليبية، ص: 160.
(6) مفرج الكروب، نقلاً عن الحروب الصليبية، ص: 160.

المسلمين سراً وبالعكس، واستطاع بذلك أن يبذر بذور الانشقاق في الجبهة المسيحية مما اضطر قواتها إلى الانسحاب[1]. هذا إلى أنه فتح الرها وهو أكبر نصر حققه في حياته، معتمداً على الحيلة والمكر، إذ اتجه إلى آمد موهماً الصليبيين أنه يسعى لحصارها، وما إن رحل أمير الرها عن حاضرته مطمئناً إلى انهماك زنكي بمشاكله في ديار بكر حتى انقضَّ الأخير عليها وتمكن من اجتياحها[2].

4 ـ ذكاؤه:

من ذكائه أنه لم يظهر أنه مستقل عن السلاطين السلاجقة، بل أظهر أنه يحكم بأمرهم، فقد كان معه ولدان من أولاد السلطان محمود بن محمد السلجوقي وهما: ألب أرسلان وفرخشاه ويعرف: بالخفاجي، وكان يظهر أن الحكم له في بلاده، وأنه نائب عنه، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة يقول: قال الملك كذا وكذا، وكان ينتظر موت السلطان مسعود، ليجمع العساكر باسم ألب أرسلان، ويخرج الأموال ويطلب السلطنة، فعاجلته المنية قبل ذلك[3]، وكان ابنه سيف الدين غازي عند السلطان مسعود ليثق بطاعته[4]، وكان يثير الأطراف على السلطان مسعود حتى يحتاجه ويجمعهم عليه مرة ثانية ليشتغل بهم عنه[5].

5 ـ يقظته وحذره:

كان عماد الدين زنكي شجاعاً غير هياب، إلا أنه كان حذراً يحتاط للأمور، فقد كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها، حتى في خلواتهم، ولا سيما بلاط السلطان، وكان يدفع في ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان، في ليله ونهاره، من حرب وسلم وهزل وجد، فكان يصل إليه كل يوم من عيونه عدة كتب وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدولة لا يهمل الاطلاع على الصغيرة، وكان يقول: إذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيراً، وكان لا يمكن لملك أن يعبر بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه رسول في العبور أذن له، وأرسل إليه من يسيره ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها، ولا يعلم من أحوالها شيئاً. ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة، أودع بعضها بسنجار وبعضها بالموصل، وبعضها بحلب،

---

(1) الباهر، ص: 55، 56، عماد الدين زنكي، ص: 174.

(2) الباهر، ص: 67، 68.

(3) أخبار الروضتين، نقلاً عن الحروب الصليبية، ص: 168.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 168.

(5) مفرج الكروب، نقلاً عن الحروب الصليبية، ص: 168.

وقال: إن جرى علي بعض هذه الجهات فتن أو حيل بيني وبينه استعنت على سد الخرق بالمال في غيره[1]، وكان الرجل طويل الفكر كتوماً لا يعْلن عما ينويه، إلا بعد أن يتخذ الأهبة الكاملة، وكان يفرض أسوأ الاحتمالات، ويعد نفسه لها، فلما سار من بغداد قاصداً الموصل أخذ البوازيج ـ وهي قرية قرب تكريت[2] ـ ليملكها ويقوى بها، ويجعلها في ظهره إن منعه جاولي عن البلاد[3]، ومن حذره تردده في دخول دمشق بعد أن وعده جماعة من أهلها بفتح أبوابها له، خوفاً من أن يتفرق جيشه ولضيق المسالك ولإمكان مهاجمتهم من ظهور البيوت[4]. ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام نازلوا حلب، ولم ير عماد الدين أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم، فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة[5].

6 ـ قدرته على اختيار الأكفاء من الرجال:

وكان يختار الرجال الأكفاء الذين أخلصوا له، وكانوا دعائم دولته، ودولة أبنائه من بعده، فقد كانت له همة عالية، ورغبة في الرجال وذوي الرأي والعقل، ويرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويوفر لهم العطاء، وقال ابن الأثير: حكى لي والدي، قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين، ويحصل له في كل سنة ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منه بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، إن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال رحمه الله[6]، وكان يتعهد أصحابه ويمتحنهم، فقد أعطى يوماً خُشكُنانكه[7] إلى طشت دار له وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنة لا تفارقه خوفاً أن يطلبها منه، فلما كان بعد سنة سأله عنها، فأخرجها من منديل كان لا يفارقه خوفاً من أن يطلبها منه، فاستحسن ذلك وجعله دز دار لقلعة كواشي[8] ـ وهي قلعة حصينة في الجبال الواقعة شرقي الموصل[9]، وكان يخطب الرجال ذوي الهمم والآراء الصائبة والأنفس الأبية ويوسع

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 167.
(2) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 167.
(3) مفرج الكروب، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 168.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحروب الصليبية، ص: 168.
(5) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 168.
(6) كتاب الروضتين (1/ 159، 160).
(7) معناها : كعكه.
(8) مفرج الكروب (1/ 103).
(9) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 166.

في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع الرجال، ومن أسباب توفيقه أنه كان نقاداً للرجال، يعرف كيف يختار الأكفاء الصالحين منهم ويوليهم ثقته[1]، فمن هؤلاء:

أ ـ بهاء الدين الشهرزوري الذي يقول عنه ابن القلانسي: وكان صاحب عزيمة وهمة نافذة ويقظة ثابتة.

ب ـ ومنهم وزيره ضياء الدين أبي سعيد ابن الكفرتوثي: وكان على ما حكي عنه، حسن الطريقة جميل العقل، كريم النفس، مرضي السياسة مشهوراً للنفاسة والرئاسة.

ج ـ ومنهم نصر الدين جقر: وقد كان لنصير الدين أخبار في العدل والإنصاف، وتجنب الجور والاعتساق، أخباره متداولة بين التجار والمسافرين ومتناقلة بين الواردين والصادرين من السفار، وقد كان رأيه جمع الأموال من غير جهة حرام، لكنه يتناولها بألطف مقال وأحسن فعال، وأرفق توصل واحتيال، فهذا محمود من ولاة الأمور وقصد سديد في سياسة الجمهور، وهذه هي الغاية في مرضي السياسة والنهاية في قوانين الرياسة[2].

7 ـ تقديره للرجال:

ويظهر تقديره للرجال من تولية نائبه بالموصل فبعد مقتل نصير الدين ارتاب في من يقيمه في موضعه، ويخلفه في منصبه، فوقع اختياره على الأمير علي كوجك، لعلمه بشهامته ومضائه في الأمور وبسالته، فولاه مكانه، وعهد إليه أن يقتفي آثاره في الاحتياط والتحفظ، وتتبع أفعاله في التحرز واليقظة، وإن كان لا يغني غناءه ولا يضاهي كفاءته ومضاءه، فتوجه نحوها، وحصل بها وساس أمورها، سياسة سكنت معها نفوس أهلها، وبذل جهده في حماية المسالك وأمن السوابل، وقضاء حوائج ذوي الحاجات، ونصرة المظلومين فاستقام الأمر وحسنت بتدبيره الأحوال وتحققت بيقظته في أعماله الأمان[3].

8 ـ قليل التلون والتنقل:

وكان عماد الدين زنكي رَحِمَهُ اللَّهُ قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغير، والأمراء

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 166. والأسرة الزنكية، ص: 166.

(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 275، الحروب الصليبية

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 172.

والمقدَّمون الذين كانوا معه أولاهم الذين بقوا أخيراً من سَلِمَ منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهرزُوري، فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود كأنه أهل وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العليَّة والآراء الصائبة والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف[1].

9 ـ غيرته:

اتصف عماد الدين زنكي بالغيرة الشديدة ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري وقلَّما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعُرض إلى حُرمهم هلكن وفَسَدْت[2]، وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً اسمه: نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصِّه وأقرب الناس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه عنه أنه يتعرَّض للحُرمَ، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغسياني أن يسير مُجداً ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلع عينيه، عقوبة لنظره بهما إلى الحرم، ثم يصلبه، فسار الصَّلاح مُجداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصَّلاح ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسلِّم عليك ويريد أن يُعليَ قدرك ويرفع منزلتك ويسلِّم إليك قلعة حلب، ويولِّيك جميع البلاد الشامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته. ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليحدرها إلى الموصل في دِجْلة، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصَّلاح وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله، فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله[3].

10 ـ عدله:

حرص عماد الدين زنكي على نشر العدل بين رعيته، فقد أوصى عماله بأهل حران، ونهى عن الكلف والسخر والتثقيل على الرعية هذا ما حكاه أهل حران، وأما فلاحو حلب، فإنهم يذكرون ضد ذلك؛ لأنه كان يلزم الناس ويجمع الرجال للقتال والحصار[4]، وكان من

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 163).
(2) الباهر، ص: 84.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 161).
(4) زبدة الحلب، ص: 284، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 162.

أحسن الملوك سيرة وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل، يعجز القوي من ظلم الضعيف، ومما رواه أبو شامة، أن الشهيد كان بجزيرة في الشتاء، فدخل الأمير عز الدين أبو بكر الدبيسي وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده، ونزل بدار يهودي وأخرجه منها، فاشتكى اليهودي والشهيد راكب وبجانبه عز الدين أبو بكر الدبيسي، ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر، نظر إلى أبي بكر الدبيسي نظرة غضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقرى ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتمل نصب الخيام، فوضعوا عليها التبن، وخرج إليها من ساعته[1]، وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأراضي، والاكتفاء بالإقطاعات لأن الأملاك متى صارت لأصحاب السلطان، ظلموا الرعية، وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم ولحسن سيرته قصده الناس يتخذون بلاده داراً للإقامة[2] ومن عدله أنه لما فتح المعرّة وأخذها من الفرنج جاءه الناس يطلبون أملاكهم وكان عماد الدين حنفي المذهب ومن مَذهب أبي حنيفة ـ أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك المسلمين خرجت تلك الأموال عن أصحابها لصيرورة البلد دار حرب، فإذا عاد البلد بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال، ولما طلب الناس منه أملاكهم استفتى عماد الدين الفقهاء، فأفتوه بما يقتضيه مذهبهم، وهو أن الأملاك لبيت المال، ولا حظّ لأصحابها فيها فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كان الفرنج يأخذون أملاكهم ونحن نأخذ أملاكهم فأي فرق بيننا وبين الفرنج؟ كل من أتى بكتاب يدل على أنه مالك لأرض فليأخذها، فرد إلى الناس جميع أملاكهم، ولم يعترض لشيء منها[3].

11 ـ عبادته:

كان عماد الدين زنكي يشعر بمسؤوليته كمسلم سواء في سياسته وعلاقاته العامة، أم في سلوكه الشخصي، فقد كرس حياته وطاقاته في سبيل الجهاد ضد الصليبيين والجهاد من أفضل أركان العبادة[4]، واعتبر نفسه قائد المسلمين الأول في الوقوف بوجه الخطر الصليبي معتقداً أن مركزه ـ كأقوى أمير في المنطقة ـ يحتم عليه ذلك، ولعل موقفه من التحالف البيزنطي الصليبي ضد المسلمين عام (532هـ) يوضح طبيعة نظرته في هذا المجال، فعندما قرر الاستنجاد بالسلطان السلجوقي واعترض قاضيه بأن ذلك ربما أدى إلى تمهيد الطريق أمام سيطرة السلاجقة على بلاده، ردّ قائلاً: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 157).
(2) المصدر نفسه (1/ 158).
(3) مفرج الكروب (1/ 75).
(4) تاريخ دولة سلجوق، ص: 186، عماد الدين زنكي، ص: 186.

يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار[1]، وكان كلما قرر التوجه لقتال الصليبيين استثار في المسلمين تعشقهم للجهاد ففي عام (524هـ) ـ على سبيل المثال ـ اتجه إلى الشام وصمم العزم على الجهاد. . . وإعلاء كلمة الله[2]، وفي عام (532هـ) سار إلى بعرين الخاضعة للصليبيين وجمع عساكره وحثهم على الجهاد[3]، وعندما عزم على فتح الرها عام (539هـ) تبعته العساكر. . عازمين على أن يؤدوا فريضة الجهاد[4]. وقد لاقى فتحه للرها استبشاراً عاماً لدى المسلمين في كل مكان: فامتلأت به المحافل في الآفاق[5]، واعتبروه نصراً حاسماً للإسلام ضد الصليبية[6]، ومن ثم فإن مفهوم الجهاد خلع على عماد الدين زنكي صفة إسلامية في نظر المسلمين إلى الحد الذي دفع العماد الأصفهاني إلى القول: بأنه كان قطباً يدور عليه فلك الإسلام[7]، كما ذكر رنسيمان أن زنكي اعتبر نفسه «حامي الإسلام» ضد الصليبيين[8]، وتتضح نزعة زنكي الدينية في سياسته الداخلية وفي سلوكه الشخصي كذلك، وهناك العديد من الأمثلة التي تبين إلى أي مدى بلغ الحسّ الديني لدى هذا الأمير المسؤول، فعندما قام عام 534هـ ـ على سبيل المثال ـ بتولية هبة الله بن أبي جرادة قضاء حلب قال له هذا الأمر قد نزعته من عنقي وقلدتك إياه، فينبغي أن تتقي الله[9]. وكان يتصدق كل جمعة بمائة دينار جهراً، ويتصدق بما عداها من الأيام سراً[10]. كما كان يستفتي الفقهاء والقضاة قبل إقدامه على كثير من الأعمال[11]، وقد أقام الحدود الشرعية في أنحاء بلاده[12].

شبهات حول شخصية عماد الدين:

إن عدداً من المؤرخين يأخذون على زنكي لجوءه إلى الغدر والظلم إزاء أعدائه في بعض الأحيان، فيصفه الأصفهاني بأنه كان يبلغ في ذلك حد الظلم[13]، ويصفه الذهبي بالظلم والزعارة[14]، ويذكر أسامة بن منقذ كيف كان زنكي أحياناً يسكت عن الأساليب القاسية التي اتبعها أحياناً بعض كبار موظفيه أمثال الباغسياني حاجبه[15]، ونصير الدين جقر نائبه في

---

(1) الباهر، ص: 62، عماد الدين زنكي، ص: 175.
(2) المصدر نفسه، ص: 39، المصدر نفسه، ص: 175.
(3) المصدر نفسه، ص: 39، المصدر نفسه، ص: 176.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279، عماد الدين، ص: 176.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 176.
(6) المصدر نفسه، ص: 176، الباهر، ص: 69، 70.
(7) تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 185.
(8) عماد الدين زنكي، ص: 176.
(9) زبدة الحلب (2/ 274، 275).
(10) الباهر، ص: 81، عماد الدين زنكي، ص: 176.
(11) مفرج الكروب، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 176.
(12) زبدة الحلب (2/ 284)، عماد الدين زنكي، ص: 176.
(13) تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 186.
(14) العبر في خبر من غبر (4/ 112).
(15) الاعتبار، ص: 157، عماد الدين زنكي، ص: 177.

الموصل[1]، ويحمل ابن واصل عليه لدى استعراضه أحداث الهجوم على حماه عام 524هـ ـ قائلاً: وارتكب أمراً قبيحاً أنكره الناس عليه، ولا شيء أقبح من الغدر. ولما عزم على تلك الفعلة الشنعاء، استفتى الفقهاء في ذلك، فأفتاه من لا دين له، وجوز له ما لا يحل ولا يحسن شرعاً وعرفاً[2].

وقد ناقش الدكتور عماد الدين خليل تلك التهم وقال: . . ولعل ما يبرر لزنكي موقفه هذا إزاء أمراء الشام، محاولته الجادة لكسب الوقت وتوحيد العدد الأكبر من المدن ذات الحكم الذاتي هناك من أجل الإسراع بتشكيل الجبهة الإسلامية الموحدة للوقوف بوجه الخطر الصليبي، بعد أن أدرك عدم إمكان تحقيق نصر حاسم ضدهم في حالة تمزق بلاد الشام إلى إمارات عديدة متطاحنة، فكان لا بد من الخدعة سيما وإنها في حالة كهذه توفر على المسلمين كثيراً من الجهود والدماء، لذا نجد زنكي يستفتي الفقهاء قبل أن يقدم على فعلته هذه، وشبيه بهذا، الحيلة الطريفة التي مكنته عام 529هـ من الاستيلاء على الرقة، دون سفك قطرة دم واحدة[3]. وهل الحرب ضد الأمراء الذين سنوا وحدة الأمة ومصالحها الحيوية، إلا خداعهم والكيد لهم، أما إعدامه بعض أمراء بعلبك إثر استيلائه عليها بعد قتال عنيف عام 534هـ فقد جاء نتيجة نقضهم بعض الشروط التي تم الاتفاق عليها قبيل مغادرتهم القلعة[4]، ولعل هذه الحادثة هي أبرز ما دفع المؤرخين إلى وصف زنكي بالقسوة والغدر، وقد أشار ابن الأثير في الكامل إلى ذلك بقوله: واستقبح الناس ذلك من فعله، واستعظموه، وخافه غيرهم[5].

ولكن زنكي سرعان ما سعى إلى التعويض عن خطأه هذا وذلك بإصداره العفو عن العدد الأكبر من المحكوم عليهم بالإعدام، وتولية بعلبك لنجم الدين أيوب وهو الذي بذل جهوداً مشكورة في التوسط لهؤلاء الأمراء والدفاع عنهم[6]. وفي حصار زنكي لقلعة جعبر عام (541هـ)، جرت مفاوضات بين الطرفين وافق فيها على تسلم مبلغ ثلاثين ألف دينار مقابل فك الحصار عن القلعة، وما إن وصله الرسول حاملاً المبلغ المتفق عليه حتى ردّه من حيث جاء، بعد أن وردته أنباء تشير إلى أن القلعة قد أوشكت على السقوط[7]، وهو موقف يبرره تماماً حرصه على وحدة الجبهة الإسلامية إزاء أنانيات الأمراء الصغار وأطماعهم الذاتية[8]. وأما ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يقول: ما يتفق أن يكون

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 177.
(2) مفرج الكروب (1/ 42).
(3) عماد الدين زنكي، ص: 179.
(4) زبدة الحلب (2/ 273)، عماد الدين زنكي، ص: 179.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 179.
(6) أخبار الروضتين، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 179.
(7) زبدة الحلب (2/ 282، 283).
(8) عماد الدين زنكي، ص: 179.

أكثر من ظالم واحد - قاصداً نفسه[1]، فإنه لا يعني سوى عزمه على اتباع نظام المركزية في الإدارة، وتركيز السلطة بيد المسؤول الأعلى[2].

هواياته:

كان طبع زنكي الحاد، وعمله المتواصل من أجل تحقيق أهدافه السياسية والعسكرية، يستنفذان الكثير من وقته، ولا يتيحان له من الفراغ للراحة والتمتع إلا القليل القليل، وفي هذه الفترات المتباعدة من التحرر من قيود العمل والمسؤولية، كان زنكي يسعى للترفيه عن نفسه وممارسة هواياته المفضلة التي كان الصيد والطراد أبرزها وأقربها إلى طبيعته الحادة[3]. ويحدثنا ابن منقذ عن الجولات التي قام بها مع أمير الموصل وعن أنواع الصيد ووسائله وحيله ولنستمع إليه: شاهدت زنكي يوماً، وكانت له الجوارح الكثيرة، ونحن نسير على الأنهار، فيتقدم البازدارية[4] بالبزاة ويطلقونها على طيور الماء، وتدق الطبول كجاري العادة، فتصيد - من طيور الماء - ما تصيد، وتخطئ ما تخطئ ووراءهم الشواهيق الجبلية على أيدي البازدارية، فإذا أخطأت البزاة أرسلوا الشواهيق على الطيور، ويستطرد ابن منقذ قائلاً: وشاهدته يوماً ونحن بظاهر الموصل. وبين يديه بازدار على يده باشق، فطار ذكرُ دراج[5]، فأرسله عليه، فأخذه ونزل.

فلما صار في الأرض - تمكن من الإفلات - فلما ارتفع لحقه الباز وأخذه ونزل به وقد ثبته[6]. ثم يمضي ابن منقذ يقصّ علينا وجوهاً أخرى من الصيد، الذي كان يألفه زنكي ويهواه فيقول: ورأيت زنكي وهو في صيد الوحش مراراً عديدة، فإذا ما نصبت الحلقة واجتمعت الوحوش داخلها - ثم حاولت الخروج - رموها، وكان زنكي من أرمى الناس، فكان إذا دنا منه الغزال، رماه فنراه كأنه قد عثر فيقع ويذبح. وشاهدته وقد ضربوا الخيام، فوصل الوحش إلى الخيام، فخرج الغلمان بالعصي والعمد فضربوا منها شيئاً كثيراً.. وشاهدته يوماً ونحن بسنجار، وقد جاءه فارس من أصحابه فقال: ها هنا ضبعة نائمة؛ فسار زنكي، ونحن معه إلى واد هناك والضبعة نائمة على صخرة في سفحة، فترجل ومشى حتى وقف مقابلها وضربها بنشابه، فوقعت أسفل الوادي، فنزلوا وجاؤوا بها بين يديه وهي ميّتة[7]. وكان الملوك والأمراء إذا أرادوا التقرب إلى زنكي وكسب وده قدموا له هدايا مما اصطادوه من طيور وحيوانات شتى، وكان يرد عليهم - بدوره - بهدايا مما جنته يداه في جولات الصيد والطراد فهوداً وبزاة وصقوراً[8]، ولم يكن تعشُّق زنكي لسباق الخيل ومهارات الفروسية بأقل

(1) زبدة الحلب (2/ 284)، عماد الدين زنكي، ص: 179.
(2) عماد الدين زنكي، ص: 180.
(3) المصدر نفسه، ص: 180.
(4) الاعتبار، ص: 192، 193.
(5) الدراج: طير من فصيلة الدجاج.
(6) الاعتبار، ص: 192، 193.
(7) المصدر نفسه، ص: 192، 193.
(8) زبدة الحلب (2/ 263).

من تعشقه للصيد والطراد، فهذه هواية تصدر هي الأخرى عن الطبع الحاد والرغبة في قضاء أوقات الفراغ بما هو مجد في عصر كانت الفروسية فيه شارته الأولى[1]. وفي فترات أخرى من فترات الفراغ المتباعدة كان زنكي يُروح عن نفسه بالقيام منفرداً برحلات هادئة في نهر دجلة، متخففاً من أعباء ومهام إمارة شاسعة الأطراف يتربص بها الأعداء من كل جانب[2].

رابعاً: سياسته الداخلية:

اهتم عماد الدين زنكي بضبط إمارته وكانت النظم التي سار عليها تعتبر امتداداً طبيعياً لما فصلناه في كتابنا عن السلاجقة وتحول الموصل من عهد ولاة السلاجقة سنة (489 ـ 521هـ) إلى عهد الأتابكة ـ لم يؤد إلى ظهور مؤسسات إدارية جديدة بالمرة على المنطقة، بل إن معظم هذه المؤسسات ظل موجوداً في العهد الجديد مع إجراء بعض التعديلات واستحداث عدد قليل من المناصب التي اقتضتها الظروف السياسية، والعسكرية الجديدة، وأقام زنكي تنظيماته الإدارية على أكتاف مجموعة من الموظفين منحهم نوعاً من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونهم الإدارية، ولكن تحت إشرافه التام ومراقبته الدقيقة، وكان هؤلاء الموظفون يعملون في أربعة مجالات رئيسية هي:

* محافظة قلعة الموصل وسائر قلاع الإمارة. وكانت تسمى في كثير من الأحيان: النيابة، ويدعى: متوليها (النائب).

* ولاية المدن والأعمال.

* الوزارة.

* الدواوين.

1 ـ نيابة الموصل أو محافظة القلعة:

أنشأ زنكي هذا المنصب حال دخوله الموصل في رمضان عام (521هـ) وقد أطلقت المصادر عليه لقب النيابة أحياناً[3]، ودزدارية قلاع الإمارة أحياناً أخرى[4]. ولما كانت كلمة دزدار الأعجمية تعني حافظ القلعة فمن الممكن تسمية هذا المنصب بالمحافظة، وكان من

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 181.
(2) المصدر نفسه، ص: 181.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 263، 270، عماد الدين زنكي، ص: 234.
(4) الباهر، ص: 35، الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 76).

مهام نائب الموصل أن يدير شؤونها وبقية أجزاء الإمارة نيابة عن زنكي، وأن يكاتب السلطان السلجوقي والخليفة العباسي عن أحوال الإمارة خلال تغيب الأمير[1]، ومن مهامه جمع الضرائب وجباية الأموال، والإشراف المستمر على أحكام تحصينات الموصل وتعميق خنادقها، فضلاً عن الأعمال العسكرية المحصنة كالدفاع عن المدينة[2]، والقيام بحملات توسعية بناء على أوامر زنكي[3]، وكان نائب زنكي بالموصل يشرف على إقامة الحدود وتعقب المفسدين ومثيري الفتن مدمني الخمر ومعاقبة كل منهم حسب جريمته فضلاً عن مراقبة أبواب العاصمة والطواف في أحياء التجارة والمال وغير ذلك من الأعمال[4]. وفي أغلب الظن أن السلطات الإدارية الواسعة التي كان نائب زنكي يمارسها كانت تتطلب جهازاً إدارياً واسعاً لتنفيذ الأوامر والقرارات[5]، ومن أشهر نواب زنكي في المَوْصل:

أ ـ **نصير الدين جقر بن يعقوب (521هـ ـ 539هـ)**: هو أبو سعيد جقر بن يعقوب الهمذاني الملقب: نصير الدين، وكان جقر أعظم أصحاب زنكي منزلة، وقد لعب دوراً هاماً في توليته على الموصل عام 521هـ[6] واتبع جقر سياسة إدارية تضاربت المصادر في تحديد سماتها، بل إن المصدر الواحد لم يستطع تجنب هذا التناقض، فابن خلكان يصفه بأنه عرف بالعدل والإنصاف وتجنب الجور والظلم، ثم يشير إلى أن الطابع العام لسياسته وما اشتهر عنه هو الظالم وإنه كان جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء مستحلاً للأموال[7]، ويشير الفارقي إلى ما لقي الناس منه من شدة الجور والظلم والقتل والمصادرات والأقساط[8]، وكان ظلم جقر ـ كما يشير ابن خلكان ـ أحد أسباب المؤامرة التي دبرها أحد الأمراء ضده[9]. وكان زنكي يقول عنه: إنه يخافني وما يخاف الله[10]. ووضح عماد الدين خليل هذه التناقضات بقوله: . . بأن جقر اتبع سياسة شديدة قاسية ممتزجة بأسلوب من الرفق واللباقة أضفى على سياسته سمات العدل، ودفع بعض المؤرخين على عدم التأكيد على أي من الجانبين. ويظهر أنه كان قد اهتم إلى حد كبير بتجميع الأموال لحسابه وحساب أهله وأقاربه حتى أن زنكي لدى عودته إلى الموصل بعد مقتل جقر، استخرج ذخائره وصادر معظم ما لأولئك الأقارب[11]. إن أهم الأعمال التي أنجزها جقر خلال فترة نيابته هي إحكامه لأسوار الموصل. وحفره لخنادقها

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 263، عماد الدين زنكي، ص: 235.
(2) وفيات الأعيان (1/ 315 ، 316).
(3) الباهر، ص: 64، عماد الدين زنكي، ص: 235.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 235 ـ 237.
(5) المصدر نفسه، ص: 238.
(6) الباهر، ص: 34، 35.
(7) وفيات الأعيان (1/ 315، 316).
(8) عماد الدين زنكي، ص: 239.
(9) وفيات الأعيان (1/ 316).
(10) الاعتبار، ص: 157.
(11) وفيات الأعيان (1/ 316).

ودفاعه عنها ضد حصار الخليفة المسترشد العباسي عام (527هـ) الذي اضطر أخيراً إلى الانسحاب بسبب صمود جقر[1] لقيادة جيوش زنكي لدى مهاجمة حصون الأكراد في الجهات الجبلية شمالي الموصل، حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها[2]، كان يساعد جقر في حكم الموصل والٍ يعينه هو[3].

ب ـ زين الدين علي كجك بن بكتكين سنة (539هـ ـ 541هـ): يعتبر زين الدين علي كجك من أبرز رجال عماد الدين، وأحد قادته الكبار وقد اشترك معه في معظم حروبه في بغداد والشام ومناطق الأكراد وكان زين الدين رجلاً صالحاً، ذا أصل تركماني، لقب بـ: كجك أي: القصير اللطيف، وكان معروفاً بالقوة والشجاعة والإقدام رؤوفاً بالفقراء مواسياً للمرضى[4]. اشتهر بالمحافظة على حسن العهد، وأداء الأمانة، ولم يمارس غدراً قط[5]، وبلغ من تقواه أن قال عنه زنكي: إنه يخاف الله ولا يخافني[6]، وقد رأى عنه أهل الموصل كل خير[7]، واستقام له الأمر، وحسنت بتدبيره الأحوال[8]، وانتشر الأمن في المنطقة وازداد عمران البلاد[9]، وتحققت بهذا آمال السكان[10].

ت ـ نائب زنكي في حلب: أدرك زنكي أهمية حلب بالنسبة لأعماله العسكرية والسياسية في الشام فاتخذها قاعدة له في المنطقة واعتبرها عاصمته الإدارية هناك، وأقام فيها جهازاً إدارياً يشابه إلى حد ما ذاك الذي أقامه في الموصل، وجعل على رأس هذا الجهاز نائبه في حلب ليقوم في منطقة الشام بما يقوم به نائبه في الموصل في الجهات الشرقية من إمارته[11]، وقد جعل عماد الدين زنكي نائبه في حلب المسؤول الأعلى عن الجهاز الإداري هناك، وكان نائبه من كبار القادة العسكريين وكان يطلق عليه أحياناً اسم «مقدم زنكي في حلب» ومن أشهر نواب عماد زنكي في حلب سوار بن أبتكين قدم إلى حلب عام (524هـ) الأمير سوار الملقب بمسعود هارباً من دمشق إثر تدهور علاقته بأميرها، وتقدم لعرض خدماته على زنكي: فأكرمه هذا وشرفه وخلع عليه، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة وأعطاه ولاية حلب وأعمالها، واعتمد عليه في قتال الصليبيين، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور[12]، وكانت

---

(1) وفيات الأعيان (1/ 315، 316).
(2) الباهر، ص: 64، عماد الدين زنكي، ص: 240.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 240.
(4) الاعتبار، ص: 177، 178.
(5) الباهر، ص: 135.
(6) الاعتبار، ص: 157، عماد الدين زنكي، ص: 241.
(7) وفيات الأعيان (1/ 316)، عماد الدين زنكي، ص: 242.
(8) ذيل تاريخ دمشق، ص: 281، 282.
(9) المصدر نفسه، ص: 281، 282.
(10) الباهر، ص: 84، عماد الدين زنكي، ص: 242.
(11) زبدة الحلب (2/ 245)، عماد الدين زنكي، ص: 245.
(12) ذيل تاريخ دمشق، ص: 240، 241، عماد الدين زنكي، ص: 246.

أعماله العسكرية هي التي أكسبته شهرة واستنفذت معظم أوقاته وجهوده بسبب قربه من المواقع الصليبية وهكذا كان الأمير سوار يقوم بشن هجمات سريعة خاطفة على قوات الصليبيين وقوافلهم وكان ـ أحياناً أخرى يمدّ قوات زنكي بجند من عنده يقودهم بنفسه إن دعت الضرورة، كما كان يقوم بالدفاع عن مدينة حلب وأعمالها ضد هجمات الصليبيين، وفضلاً عن الجنود النظاميين الذين اعتمدهم. كان ينضم إليه أحياناً كثيرة تركمان المنطقة[1]، طمعاً في الغنيمة أو حباً للجهاد. وقد استمر سوار في منصبه حتى مقتل زنكي عام (541هـ)[2].

ث ـ ولاة نواب زنكي على المدن والقلاع: يتضح مما سبق أنه كان لزنكي نائبان مركزيان هما: نائبه في الموصل الذي يشرف على الجهات الشرقية من الإمارة، ونائبه على حلب الذي يشرف على الجهات الغربية «أي القسم الشامي». وفضلاً عن هذين عيَّن زنكي على المدن والأقاليم التي فتحها مجموعة من الولاة يطلق عليهم اسم النواب أو العمال[3].

2 ـ الوزارة:

إن الوزارة في عهد زنكي ليست سوى جزء من التطور العام لهذا المنصب طيلة عصور التاريخ الإسلامي تبلور منصب الوزير مُنذ العصر العباسي الأول، وكان عمله في البداية يقتصر على تنفيذ أوامر الخليفة العباسي لذا سمي هذا النوع من الاستيزار بـ «وزارة التنفيذ» وبعد مرور فترة قصيرة ظهر نوع آخر، عندما فوض الخليفة وزيره لإدارة شؤون مملكته، أطلق عليه «وزارة التفويض»[4] واستمر هذا المنصب يتأرجح بين التنفيذ والتفويض حسب مركز الخليفة أو السلطان الحاكم[5] ومن أشهر وزراء عماد الدين زنكي:

أ ـ الكفرتوثي (528هـ ـ 536هـ): تجمع المصادر على أن أول من استوزره زنكي هو ضياء الدين أبو سعد بهرام بن الخضر الكفرتوثي[6] عام (528هـ)، ويتضح من هذا أن السنوات السبع الأولى من حكم زنكي لم يكن اتخذ خلالها وزيراً وربما كان نائبه في الموصل هذا الذي يقوم بمهام الوزير، مما جعل زنكي يستغني عن هذا المنصب طيلة تلك المدة، وتذكر المصادر بالقول: بأن الكفرتوثي كان مشهوراً بحسن الطريقة والكفاية وحب الخير والمذهب الحميد[7]، وقد قدم مع زنكي إلى حلب، مما يشير إلى أنه لم يكن مستقراً في الموصل بشكل دائم[8].

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 246.
(2) المصدر نفسه، ص: 246.
(3) المصدر نفسه، ص: 246.
(4) المصدر نفسه، ص: 256
(5) المصدر نفسه، ص: 256.
(6) ذيل تاريخ دمشق، ص: 243، وفيات الأعيان (4/ 228).
(7) زبدة الحلب (2/ 254)، عماد الدين زنكي، ص: 262.
(8) عماد الدين زنكي، ص: 262.

ب ـ أبو الرضا بن صدقة سنة (536هـ ـ 538هـ): بقي الكفرتوثي في منصبه كوزير طيلة اثني عشر عاماً، وتوفي في شعبان عام 536هـ[1]، فاستوزر زنكي بعده جلال الدين أبا الرضا محمد ابن صدقة[2]، ولكنه لم يستمر في منصبه طويلاً حيث عزل عام 538هـ لأسباب أوجبت ذلك ودعت إليه[3].

ج ـ أبو المحاسن العجمي: يذكر ابن القلانسي أن زنكي ألقى القبض عام 531هـ على وزيره أبي المحاسن علي بن أبي طالب العجمي واعتقله في قلعة حلب، حيث بقي هناك بسبب مصادرته للأموال وانكسار المعاملات التي عجز عن القيام بها، وتأدية ما عليه من التزامات مالية[4]، ولم تقدم المصادر عن ترجمة العجمي شيئاً يستحق الذكر[5].

د ـ جمال الدين الأصفهاني: وأطنبت المصادر في وصف أخلاق جمال الدين، مركزة الأضواء على كرمه العجيب، تلك الأخلاق التي قربته من زنكي، وجعلته محبوباً ومشتهراً في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي، ومنحته لقب الجود لكثرة جوده، كما دفعت أبناء زنكي ـ فيما بعد ـ إلى الاعتماد عليه في إدارة إمارتهم[6]، وقد أطلقت بعض المصادر عن جمال الدين الأصبهاني وزير صاحب الموصل[7]، وذكرت بعض المصادر: أن زنكي جعل جمال الدين مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه[8]، ويقول ابن الأثير: قال والدي: كنت أرى من جمال الدين الوزير في أيام زنكي من الكفاية، والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحافظة ـ أي التحقيق ـ فيها، ما يدل على تمكنه من الكفاية، وتشير المصادر إلى أن زنكي عوّل على جمال الدين في الفترة الأخيرة من حكمه، في الإشراف على ديوانه، وزاد راتبه[9]، ومكنه في منصبه[10]، ولم يحاول جمال الدين أن يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص، بل كان يأخذ ما يكفي لمعيشته ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي[11]، مما زاد من اعتماد الأخير عليه وثقته به، فمكنه من أصحاب[12] ديوانه،

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 275 ، عماد الدين زنكي، ص: 262.
(2) عماد الدين زنكي، ص: 262.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 277، عماد الدين زنكي، ص: 263.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 263.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 264.
(6) ذيل تاريخ دمشق، ص: 356، عماد الدين زنكي، ص: 265.
(7) الباهر، ص: 118، 119، عماد الدين زنكي، ص: 259.
(8) الباهر، ص: 118، 119، وفيات الأعيان (4/ 228).
(9) عماد الدين زنكي، ص: 260.
(10) تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 192، 193، عماد الدين زنكي، ص: 260.
(11) عماد الدين زنكي، ص: 260.
(12) المصدر نفسه، ص: 260.

وهكذا كان جمال الدين يتمتع بسلطات عملية واسعة، وخاصة في مسائل الإشراف على الديوان والمسائل المالية، فقد شغل جمال الدين منصباً خطيراً، وقد أطلقت معظم المصادر على جمال الدين لقب: «وزير»[1].

هـ ـ الوزير مروان بن علي بن سلامة: كان وزير عماد الدين زنكي في الموصل مروان ابن علي بن سلامة الطنزي نسبة إلى «طنزة» من ديار بكر، وكان مروان هذا قد ورد بغداد وتفقه على الغزالي والشاشي، ثم عاد إلى بلده ليدبر أمور الوزارة حتى وفاته عام (540هـ)[2].

3 ـ الموظفون ونظام التوظيف:

اهتم عماد الدين زنكي بأمر الوظائف والموظفين اهتماماً كبيراً كي يستطيع أن يسيّر أمور دولته بشكل منظم، وكي يجنب جهازه الإداري الهزات التي كثيراً ما تعرقل سير الأمور وقد طبق زنكي مبادئ إدارية منها:

أ ـ مبدأ تكافؤ الفرص في المجال الإداري: كي يحقق هدفه آنف الذكر ويضع يديه على الموظفين الأكفاء فكان: يتعهد أصحابه ويمتحنهم فلا يرفع أحداً فوق قدره الذي يستحقه ولا يضعه دونه[3]، كما كان يجعل كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه.

ب ـ الثقة على قدر المعرفة: فكان يولي موظفيه ثقته على قدر ما يعلم منهم كي يشعرهم بالأمن والاستقرار، وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه.

ج ـ مبدأ كفاءة الشخص: فقد جعل من كفاءة الشخص أساساً لتقدير راتبه[4].

د ـ ثقته في موظفيه: على قدر ما يعلم منهم، كي يشعرهم بالأمن والاستقرار، وهو أمر ضروري لتقديم خدماتهم الإدارية على أحسن وجه، فكان: قليل التلون والتنقل، بطيء الملل والتغيّر، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلا بذنب يوجب التغيّر، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولاً هم الذين بقوا معه أخيراً، فلهذا كانوا ينصحونه، ويبذلون نفوسهم له[5]، وهذا هو الذي دعا جمال الدين الوزير إلى وصف زنكي بأنه كان متمكناً قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يتلون بأقوال أصحابه مما دفع أصحابه إلى حفظه[6].

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 260.

(2) طبقات الشافعية (7/ 295) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 255.

(3) الباهر، ص: 79، عماد الدين زنكي، ص: 266.

(4) الباهر، ص: 63، عماد الدين زنكي، ص: 266.

(5) عماد الدين زنكي، ص: 266.

(6) الباهر، ص: 82، 83، عماد الدين زنكي، ص: 266.

هـ ـ انتقاء الموظفين: كان زنكي ينتقي موظفيه من الرجال ذوي الهمم العالية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية[1] فإذا ما أضيف إلى ذلك توسيعه في رواتب موظفيه[2] أدركنا مدى إخلاص هؤلاء له ولعملهم، ومدى سير الأمور الإدارية في ولايته سيراً طبيعياً. وخير مثل على ذلك موظفه الكبير جمال الدين الأصفهاني الذي أظهر في أيامه من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والتحقيق فيها ما يدل على تمكنه من الكفاية، فلما وزر جمال الدين نفسه ـ لقطب الدين مودود بن زنكي، قلّت كفايته وصار يهمل بعض الأمور وعندما سأله أحد الموظفين عن السبب في ذلك أجاب: ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما هي أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه[3].

و ـ المركزية في الحكم: يقول بعض الباحثين كان زنكي يؤمن بما سمي اليوم (الدكتاتور العادل) ويسعى إلى تطبيع هذا المبدأ في مجال الإدارة، فكان يقول: ما يتفق أن يكون أكثر من ظالم واحد ـ يعني نفسه[4]، ويقول عماد الدين خليل: كلمة ظالم تعني السيطرة الفردية المركزية في الحكم، وعدم السماح للموظفين الآخرين بالارتفاع إلى مستوى مسؤوليته في الإدارة، ومشاركته في الحكم ولهذا السبب ـ نفسه ـ لم يكن زنكي يسمح لموظفيه وعماله بظلم أحد من أفراد الرعية أو التعرض لهم بأي أذى. وقد عاقب عز الدين الدبيسي ـ وهو من أكابر أمرائه ـ لأنه سلب أحد يهود جزيرة ابن عمر بيته[5]، وعاقب أحد ولاته بسمل عينيه لتعرضه لامرأة[6] فخاف الولاة وانزجروا[7]. وعجز القوي عن ظلم الضعيف[8].

ز ـ نهيه أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك: كان ينهى أصحابه وموظفيه عن اقتناء الأملاك قائلاً لهم: ما دامت البلاد بأيدينا فأي حاجة بكم إلى الأملاك، فإن الإقطاعات تغني عنها، فإن خرجت البلاد من أيدينا، فإن الأملاك تذهب معها ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم وغصبوهم أملاكهم[9]. وقد لخص زنكي بهذا التصريح سياسته العادلة إزاء الرعية، وموقفه من موظفيه كما أوضح مفهومه عن الحكم المستبد

(1) أخبار الروضتين (1/ 114).

(2) عماد الدين زنكي، ص: 267.

(3) الباهر، ص: 82، 83، عماد الدين زنكي، ص: 267.

(4) زبدة الحلب (2/ 284)، عماد الدين زنكي، ص: 266.

(5) الباهر، ص: 77، عماد الدين زنكي، ص: 267.

(6) الباهر، ص: 84، عماد الدين زنكي، ص: 267.

(7) مرآة الزمان (8/ 190).

(8) زبدة الحلب (2/ 284).

(9) الباهر، ص: 77، عماد الدين زنكي، ص: 268.

العادل، وهذا هو الذي دفع عدداً من المؤرخين إلى التأكيد على سياسته العادلة لدى استعراضهم لسيرته[1]، وأنه كان يتقبل آراء الرعية وانتقاداتهم ويروي ابن واصل: أن زنكي كان يمارس الظلم في بدء أمره، فسمع في إحدى الليالي شخصاً يغني بيتين من الشعر عن العدل فبكى وتبدّلت نيته في الظلم، وألزم نفسه بالعدل مُنذ ذلك اليوم[2]، كما يشير ابن العديم إلى أن أهل حران امتدحوا سياسة زنكي العادلة معهم ثم يقول: وبلغني أنه لا يتجاسر أحد من رعيته، كائناً من كان، أن يظلم أحداً من خلق الله[3]. وفي العموم كانت سياسته إلى العدل أميل وخالطها شيء من الظلم، وحرص على التخلص منه.

4 ـ الدواوين:

كان ديوان زنكي يقاس بدواوين السلاطين السلاجقة لكثرة التجميل ونفاذ الأمر، وعظم الحاشية والخرج[4] وهذا يؤكد أهمية ذلك الديوان وبلوغه مرحلة متقدمة من الاتساع والنمو وكثرة الموظفين وضخامة المصروفات بحيث أن أي مرجع كان يقصده كان يجد من توفر موظفيه عليه ونظرهم في مصالحه ما يجعله كأنه في أهله[5].

5 ـ الأمن الداخلي والإعمار:

استطاع زنكي، بإدارته الحازمة وضبطه للأمور[6] وعدالته وبمساعدة أجهزة الجيش والبريد أن يحقق نتائج هامة في إمارته في مجال إقرار الأمن والقضاء على المفسدين ونشر العمران في البلاد، حيث يشير ابن العديم إلى أن البلاد عمرت في أيام زنكي بعد خرابها وسادها الأمن بعد الخوف، وكان زنكي لا يبقي على مفسد[7]، وقد كان الأمن مضطرباً في الموصل نفسها خلال الفترة التي سبقت حكم زنكي، ويورد ابن الأثير نصاً يلقي ضوءاً على الموضوع، رغم ما فيه من مبالغة، يقول فيه: كان الناس لا يقدرون على المشي إلى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن[8] العمارة، وكانت معظم المناطق البعيدة عن المركز، خربة لا عمران فيها ولا أمن وسرعان ما ساد العمران هذه المناطق لدى مجيء زنكي[9]، بفضل حمايته للبلاد ومنعه المفسدين وكفه أيدي الأقوياء[10]. وكان لانتشار الأمن في المنطقة أثر

---

(1) مفرج الكروب، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 268.
(2) المصدر نفسه، ص: 268.
(3) زبدة الحلب (2/ 284)، عماد الدين زنكي، ص: 268.
(4) الباهر، ص: 83، عماد الدين زنكي، ص: 270.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 270.
(6) الباهر، ص: 13، عماد الدين زنكي، ص: 270.
(7) زبدة الحلب (2/ 284)، عماد الدين زنكي، ص: 270.
(8) الباهر، ص: 77، عماد الدين زنكي، ص: 270.
(9) الباهر، ص: 77، 78، عماد الدين زنكي، ص: 271.
(10) المصدر نفسه، ص: 77.

واضح في زيادة عدد السكان في إمارة زنكي[1]، كما غدت الموصل ملجأ للمهاجرين من بغداد بسبب فقدان الأمن هناك واشتداد الضوائق الاقتصادية[2]. وبالإمكان معرفة الدور الذي لعبه زنكي في مجال الأمن بتتبع ذلك في الأيام التي أعقبت اغتياله حيث اضطربت الأعمال، واختلت المسالك، وانطلقت أيدي الحرامية في إفساد الأطراف والعبث في سائر النواحي[3].

وعندما كان زنكي يسيطر على المدن، لم يكن يترك جنوده يتحكمون بمقدراتها ويسيئون إلى أهاليها وينشرون الرعب والفوضى في ربوعها، بل كان سرعان ما يعيّن عليها والياً من قبله، كي تكون الكلمة والسلطة بأيدي رجال مدنيين، من أجل إحلال الأمن في المدينة وإعمارها[4]، وكان لا يسمح ـ أبداً ـ لجنده ـ خلال التحركات والعمليات الحربية بأن يعتدوا على الفلاحين بنهب أو تخريب مزارعهم، فكان العسكر يمشي خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ ـ ولو مقداراً ضئيلاً من التبن ـ من فلاح إلا بثمنه، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية وإن تعدى أحد صلبه[5]، ومراراً عديدة، وفي مناطق مختلفة، والهدم والتسلط العسكري.

ففي عام (528هـ) مثلاً قام بالقضاء على أعمال النهب والفوضى التي كان يقوم بها بعض أكراد شرقي الموصل ضد الفلاحين[6]، وفي عام (533هـ) استولى على منطقة شهرزور التركمانية: فأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان[7]. وفي عام (537هـ) استطاع أن يستولي على عدد من حصون الأكراد شمالي الموصل وأن يقضي على أعمال الفساد في المنطقة[8]. وفي عام (539هـ) قام عسكره ـ إثر استرجاع الرها من الصليبيين ـ باستباحة المدينة خلال الأيام الأولى من الفتح فلما دخل زنكي البلد أعجبه منظره، فأسف لمثله من الخراب، ورأى أن تخريبه وإخلاءه من أهله غير مستحسن من مثله فأمر بإعادة ما أخذ من سبي وأموال، فردوا عن آخرهم، وعاد البلد عامراً آهلاً آمناً[9]، ثم أصدر أوامره بإعادة إعمار الرها[10]، ولا أدل على حب عماد الدين زنكي للإعمار ورفقه بأهالي المناطق

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 271.
(2) المصدر نفسه، ص: 271.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 271.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 271.
(5) زبدة الحلب (2/ 283، 284) عماد الدين زنكي، ص: 271.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 271.
(7) الباهر، ص: 57، 58، عماد الدين زنكي، ص: 272.
(8) الباهر، ص: 64، مرآة الزمان (8/ 190)، عماد الدين، ص: 272.
(9) الباهر، ص: 69، عماد الدين زنكي، ص: 272.
(10) زبدة الحلب (2/ 279، 280).

المفتوحة من تعيينه نجم الدين أيوب والياً على بعلبك عام (534هـ)، وهو الذي توسط لدى زنكي في العفو عن أمراء بعلبك الذين حكم عليهم بالإعدام، فأجابه زنكي إلى طلبه وولاه على بعلبك وأقطعه ثلثها[1].

6 ـ سياسة الترحيل:

اتبع زنكي ما يمكن تسميته بـ «سياسة الترحيل» أي نقل جماعة من مكان إلى مكان آخر لتحقيق غرضين. **أولهما**: التمكين لحكمه في بعض المناطق التي استولى عليها. **وثانيهما**: اتخاذ بعض هذه الجماعات كقوات حاجزة بين ممتلكاته وبين مناطق الأعداء، ففي عام (536هـ) استولى على مدينة «الحديثة» الواقعة على الفرات، ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل ورتب أصحابه فيها[2]، وأغلب الظن أن آل مهراش هم حكام «الحديثة» الذين كانوا يهددون سيطرة زنكي على المدينة مما اضطره إلى إبعادهم وفي عام (540هـ)، وعندما أعلن أرمن الرها العصيان ضد زنكي واستطاع نائبه زين الدين كجك أن يقضي على المحاولة، أمره زنكي بإعدام قادة المؤامرة ثم قام بترحيل بعض الأرمن من المدينة، وأحل محلهم ثلاثمائة عائلة يهودية تخلصاً من خطر وجودهم[3]، وخلال فترة مبكرة من حكم زنكي قام بنقل طائفة من التركمان تدعى: «الإيوانية» مع أميرهم ياروق أرسلان إلى الشام، وأسكنهم في ولاية حلب، وأمرهم بجهاد الصليبيين، ومنحهم الحق في تملك كل ما استولوا عليه من البلاد العائدة لهؤلاء وقد استطاعت هذه الطائفة ـ فعلاً ـ أن تسترد من الصليبيين الكثير من الأراضي المحيطة بحلب حيث بقيت بأيديهم إلى سنة (600هـ)[4]. وكان ياروق مقدماً كبيراً وإليه نسبت الطائفة الياروقية من التركمان. وقد حققت هذه الطائفة ـ فضلاً عن أعمالها الحربية ـ نتائج عمرانية، إذ بنى ياروق وأتباعه على شاطئ نهر قويق المار بحلب. عمائر كثيرة عرفت بالياروقية واشتهرت هناك[5]، وقد استفاد زنكي في توطيد الأمن الداخلي إلى حد كبير من جهاز استخباراته الدقيق[6] ومن البريد، ويمكن القول بأن جند زنكي وحرسه وحاميات المدن قاموا ـ كذلك ـ بدور تنفيذي هام في هذا المجال[7].

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 86 -87).
(2) المنتظم (10/ 102) عماد الدين زنكي، ص: 273.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 273.
(4) الباهر، ص: 80، عماد الدين زنكي، ص: 273.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 273.
(6) المصدر نفسه، ص: 274.
(7) المصدر نفسه، ص: 274.

خامساً: النظم العسكرية: عند عماد الدين زنكي:

1 ـ الجيش :

كانت مؤسسة الجيش هي القوة الضاربة التي استخدمها زنكي للقضاء على الإمارات المحلية لكي يوحدها في جبهة إسلامية متماسكة ليستطيع مجابهة الصليبيين، وقد اعتنى بجيشه بحيث أصبح قوياً متماسكاً ومن الأمور المتعلقة بالجيش التي اهتم بها زنكي:

أ ـ ديوان الجيش: نظم زنكي ديوان الجيش، ليقوم بالإشراف على أمور الجند وتنظيمهم وتوزيع رواتبهم وأعطياتهم بانتظام[1]، وجعل على رأس هذا الديوان موظفاً أعلى يطلق عليه: «أمير حاجب»[2]، وكان عمله أن ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمراجعة النائب، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند، وما ناسب ذلك[3]، كما كان ينظر في مخاصمة الأجناد واختلافهم في أمور الإقطاعات ونحو ذلك[4]، وذكر ابن الأثير أنه: كان لزنكي جماعة كثيرة من الخراسانية في الركاب أي ما يشبه الحرس الخاص المرافق للأمير ـ لهم الجامكيات[5] الوافرة، وكان في الديوان من يجمعونها من جهاتها ويقسمونها عليهم كل ثلاثة أشهر مرة، ففي بعض السنين تأخرت رواتبهم تأخراً يسيراً، فاجتمعوا ووقفوا بحيث يراهم زنكي مجتمعين، فعلم أنهم يشكون شيئاً، فأرسل إليهم وسألهم عن حالهم فذكروه له، فقال لهم: أشكوتم إلى الديوان؟ قالوا: لا، قال: فهل ذكرتم حالكم للأمير حاجب؟ قالوا: لا، قال: فلأي شيء أعطي الديوان مائة ألف دينار وأعطي الأمير حاجب أكثر من ذلك، إذا كنت أنا أتولى الأمور صغيرها وكبيرها؟.. كان عليكم أن تشكوا حالكم إلى الديوان، فإن أهملوا أمركم قلتم (لأمير حاجب)، فإن أهمل أمركم شكوتم الجميع إليّ حتى أعاقبهم على إهمالهم، وأما الآن فالذنب عليكم. ثم أمر بتأديبهم وقطع (رواتبهم)، حتى شفع فيهم بعض الأمراء فعفا عنهم. ثم أحضر موظفي الديوان وأمير حاجب

---

(1) الباهر، ص: 83، عماد الدين زنكي، ص: 192.
(2) المصدر نفسه، ص: 83، المصدر نفسه، ص: 192.
(3) صبح الأعشى (4/ 19)، عماد الدين زنكي، ص: 192.
(4) الخطط (2/ 219)، عماد الدين زنكي، ص: 192.
(5) الجامكيات: هي الرواتب العامة.

وقال لهم: إذا كنتم تهملون أمر جندي الذين تحت ركابي، ومن هو ملازمي في سفري وإقامتي، وبهم من الحاجة إلى النفقات في أسفارهم ما تعلمونه، فكيف يكون حال من بعد عني؟ وأنكر عليهم ذلك، فخرجوا من عنده وفرقوا في الأجناد من أموالهم إلى حين وصول «رواتبهم» فأخذوا عوض ما أخرجوه[1]، ويعلق ابن الأثير على هذه الحادثة قائلاً: بأن زنكي بهذا الإجراء: أصلح الجند لطاعة الديوان وأصلح الديوان للنظر في مصالح الجند وعظم نفسه عن أن يخاطب في هذا الأمر الحقير، وسهل عليه بذل المبلغ الكثير لمن يقوم بأموره[2].

ب ـ **أمير حاجب زنكي**: تولى صلاح الدين بن أيوب الياغسياني منصب أمير حاجب لدى زنكي، ويرجع ذلك في تولية الأخير على الموصل إذ كان أحد عضوين في الوفد الذي توجه إلى بغداد عام (521هـ) لمفاوضة المسؤولين حول إقرار الوضع في المنطقة، وقد وعده زنكي بتوليته منصب أمير حاجب حالما يستقر في الموصل، فلما دخلها عام (521هـ) ولاه هذا المنصب الهام[3]، وقد ظل الياغسياني يلازم زنكي في حله وترحاله، واعتمد عليه هذا في مهامه العسكرية، وجعله أحد قواده الكبار. وكلفه بقيادة جيشه في عدد من المهام والمعارك العسكرية[4]، وتقدم لدى زنكي بالمناصحة وسداد التدبير وحسن السفارة وصواب الرأي[5]، ولذلك لم يعترضه أو يقيله من منصبه طيلة فترة حكمه[6].

ج ـ **تنظيم الجيش وعناصره**: تعتبر نظم عماد الدين زنكي امتداد لنظم السلاجقة من جهة، وأساس للنظم الأيوبية والمملوكية من جهة أخرى، ومن العناصر التي كانت تشكل جيش زنكي، الخراسانيون والتركمان الذين كانوا يشكلون أعداداً كبيرة، إذ يشير ابن القلانسي إلى أن زنكي عندما حاصر الرها عام (539هـ) كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها (أي على الرها) وأداء فريضة الجهاد، فوصل إليه منهم الخلق الكثير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات[7]، وقد استفاد زنكي من التركمان لجهاد الصليبيين بالدرجة الأولى. وقام بنقل طائفة من التركمان الإيوانية مع أميرهم «الياروق» إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنفذوه من البلاد التي لهم.. فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال ويراوحونهم ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى سنة (600هـ).

---

(1) الباهر، ص: 83، عماد الدين زنكي، ص: 193.
(2) المصدر نفسه، ص: 83، المصدر نفسه، ص: 193.
(3) المصدر نفسه، ص: 35، المصدر نفسه، ص: 195.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 258.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 195.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 195.
(7) الباهر، ص: 279، عماد الدين زنكي، ص: 197.

وقد استفاد الأمير سوار بن أيتكين التركماني، نائب زنكي في حلب، من التركمان في غارته ضد الصليبيين في شمالي الشام واستطاع أن يحقق بواسطتهم انتصارات عديدة[1]، وكان التركمان ينتشرون في معظم أنحاء الشام وبخاصة مناطق الفرات وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة[2]. وكان زنكي يمضي إلى الفرات لجمع التركمان قبل القيام بمعاركه المهمة، إذ كان هؤلاء بأعدادهم الضخمة ومرانهم في الحرب وشجاعتهم، يشكلون أهم عنصر في جيشه[3] وجاءت إشارات متعددة عن (الحلبيين) كقوة عسكرية اشتركت في معارك عديدة ضد الصليبيين في شمالي الشام بقيادة الأمير سوار، وقامت بدور أساسي في الدفاع عن حلب وبعض المدن الأخرى القريبة، عند هجوم الإمبراطور البيزنطي المتحالف مع الصليبيين على هذه المنطقة عام (532هـ)[4]، كما قام الحلبيون بدور هام في فتح الرها عام 539هـ جنباً إلى جنب مع الخراسانيين، إذ كان في (الحلبيين) أيضاً من هو «عارف بمواضع النقوب»، فنقبوا عدة مواضع مع الخراسانيين، وأشعلوا فيها النار مما أدى إلى انهيار بعض أجزاء السور ودخول المسلمين إلى الرها[5]. وقد كان هؤلاء الحلبيون، من سكان حلب الأصليين، أي من العرب، بدليل ما أورده ابن العديم من أن زنكي كان يجبر فلاحي حلب على الالتحاق بجيشه في أوقات القتال[6]، ويظهر أن هؤلاء كانوا يتركون الجيش ويعودون إلى أعمالهم الزراعية بعد انتهاء القتال، ولا ريب أنهم كانوا يتقاضون أجوراً على اشتراكهم في المعارك، سواء كانت أرزاقاً معينة، أم ما يحصلون عليه من الغنائم، وقد ذكر ابن واصل: أن زنكي رحل إلى أرض حماة عام 533هـ واستصحب من أهلها تسعة آلاف راجل يخدمون الركاب[7]. أي للقيام بمهمة الحشم في خدمة الجيش وأمرائه في حلهم وترحالهم، فضلاً عن حراسة زنكي الخاصة، مما يشير إلى أن هذا اعتمد على أهالي الشام في كثير من الأمور الحربية[8] واعتمد جيشه على عناصر أخرى كالبدو والأكراد[9].

د ـ عدد جيش زنكي: ويظهر مما سبق أن عدد جيش زنكي لم يكن ثابتاً، بل كان عرضة للزيادة والنقصان بم ينضم إليه من المتطوعين من حين لآخر. وقد حاول زنكي أن

(1) عماد الدين زنكي، ص: 197.
(2) زبدة الحلب (2/ 264، 268).
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279، عماد الدين زنكي، ص: 198.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 198.
(5) المصدر نفسه، ص: 199.
(6) المصدر نفسه، ص: 199.
(7) المصدر نفسه، ص: 199.
(8) المصدر نفسه، ص: 199.
(9) المصدر نفسه، ص: 199.

يضمن وجود مورد عسكري بشري ثابت، ففرض التجنيد الإجباري على بعض المناطق القريبة من مواطن الخطر، ولذلك كان يلزم أهل حلب بجمع الرجالة للقتال والحصار، فإن كان ذلك في جهاد الكفار، فقد كان يجلب عليهم ذلك وله إلزامهم به[1].

هـ ـ معسكرات عماد الدين زنكي: هنالك إشارات محدودة عن معسكرات الجند، ففي شتاء إحدى السنين قدم زنكي إلى جزيرة ابن عمر، فنزل بالقلعة، وعسكر جنده في الخيام خارج المدينة[2]، الأمر الذي يشير إلى وجود معسكرات غير ثابتة في الحالات الطارئة، وأما في الحالات الدائمة، فقد كان زنكي يقيم حامية عسكرية في كل مدينة أو حصن يفتحه بعد أن يقطع أراضيها لأمراء الحامية وجنودها[3]، وهذا يؤكد وجود معسكرات ثابتة في مختلف المناطق التابعة لزنكي، ولم تحدد المصادر فيما إذا كانت سكنى الجند داخل القلاع أم خارجها[4]؟

و ـ استخدام الخيل في جيش عماد الدين: وردت إشارات عديدة عن اهتمام قوات عماد الدين زنكي بالخيل واستخدامها في مختلف الحروب. وفي الهجمات السريعة، وقد ذكر أسامة بن منقذ بعض اللمحات عن الخيول في عهد زنكي، فكان الفارس يلبس الزردية، أو الكزاغند (أي الدرع). والخوذة ويقاتل بالسيف أحياناً وبالدبوس أحياناً أخرى[5]. وقد جرى التنافس بين قوات زنكي لاقتناء الخيول الحسنة[6]، وكان للأمراء ركائبيون وإصطبلات خاصة لخيولهم[7]، ويشير ابن العديم إلى استخدام الخيل في معارك عام 532هـ ضد الروم والصليبيين[8]، وقد اعتمد الأمير سوار نائب زنكي في حلب على الخيول في غاراته التي شنها ضد الصليبيين[9]. وهنالك إشارات مختصرة عن تنظيم النقل في جيش زنكي، إذ يشير ابن منقذ إلى استخدام زنكي للبغال[10]. ويظهر أن حروبه الجبلية دفعته إلى ذلك، كما استخدمت الإبل في مناطق الجزيرة المستوية في الظروف التي تطلبت السرعة[11].

(1) عماد الدين زنكي، ص: 199.
(2) الباهر، ص: 76، 77، كتاب الروضتين (1/ 110).
(3) عماد الدين زنكي، ص: 200، الباهر، ص: 66، 69.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 200.
(5) الاعتبار، ص: 98، عماد الدين زنكي، ص: 201.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 201.
(7) المصدر نفسه، ص: 201.
(8) زبدة الحلب (262، 267).
(9) عماد الدين زنكي، ص: 201.
(10) الاعتبار، ص: 59، 60، عماد الدين زنكي، ص: 201.
(11) الباهر، ص: 68، عماد الدين زنكي، ص: 201.

ز ـ استدعاء الجيوش وأساليب الحرب: قبيل إعلان الحرب كان زنكي يستدعي قوات من المتطوعين لتنضم إلى جيوشه النظامية المجهزة[1]. فعندما عزم على فتح الرها عام 539هـ كاتب طوائف التركمان بالاستدعاء لهم للمعونة عليها، وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم الخلق الكثير[2]. كما كان يمر في طريقه إلى الحرب ببعض مدن إمارته ويجمع منها الجند ليضيفهم إلى قواته كما فعل مع أهالي حلب[3]، وحماة[4]. وكان الجهاد ضد الصليبيين أحد الدوافع المهمة في اشتراك المتطوعين في حروب زنكي وخصوصاً التركمان، كما كانت الرغبة في الغنائم والخوف من سلطة زنكي[5]، من الدوافع الأخرى لذلك. وكانت معظم المعارك التي خاضها زنكي عبارة عن هجمات ومحاصرة للحصون الكثيرة المنتشرة في منطقة الجزيرة والشام، وأما المعارك المفتوحة فإنها كانت أقلّ من حروب الأسوار بشكل ملحوظ ولذلك قلت الإشارات عن الأساليب التي اتبعت فيها[6].

وكان للجواسيس أهمية كبيرة في المعارك التي خاضها زنكي، وكانوا ينتشرون في مناطق العدو، ويطلعون أميرهم على تحركاته وإمكانياته لكي يكون على بينة من الأمر، وكان زنكي يحدد موقفه الحربي أحياناً بناء على ما يقدمه هؤلاء من معلومات[7]، ومن ثم يتجه هو أو أحد قواده على رأس الجيش لفرض الحصار، فإذا ما استدعت الظروف السرعة في السير اتخذ من الوسائل ما يكفل ذلك، ففي عام (528هـ) على سبيل المثال، توجه إلى (خلاط) وأراد الوصول إليها بسرعة، فسلك طريقاً عبر الجبال غير الطريق المسلوك وكان جنده يستريحون كل واحد في موضعه دون خيام[8]. وعندما توجه لحصار الرها عام 539هـ استعان على السرعة بركوب النجائب (أي الإبل صغيرة العمر)[9].

حروب الأسوار:

قدّمت بعض المصادر تفصيلات عن أساليب الأسوار، ففي حصار الرها، تقدم زنكي ـ أولاً ـ إلى أهل الحصن بتسليمه له دون أن يضطر إلى تخريبه، فلما رفضوا، أمر المنجنيقات بالضرب، وقاد الشجعان لنزاله على شكل زحوف مستمرة لقتال الحامية، وفي الوقت نفسه

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 202.
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279، عماد الدين زنكي، ص: 202.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 202.
(4) مفرج الكروب (1/ 84)، عماد الدين زنكي، ص: 202.
(5) الباهر، ص: 68، عماد الدين زنكي، ص: 202.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 202.
(7) مفرج الكروب (1/ 93) عماد الدين زنكي، ص: 202.
(8) الاعتبار، ص: 88، 89.
(9) الباهر، ص: 68.

كان النقابون العارفون بمواضع النقوب يعملون على نقب بعض المناطق الواقعة تحت الأبراج، وبعد ذلك وضعوا فيها الأخشاب وأحرقوها فسقطت الأبراج واحترق السور واندفع جند زنكي إلى داخل الحصن[1].

ـ **أسلوب الاشتباك**: اتبع زنكي أسلوب الاشتباك مع حامية الحصن حالما يفسح المجال بذلك، إذ تبدأ المنجنيقات أولاً بضرب الأسوار، وما أن تحدث بعض الفتحات حتى يقوم عدد من جنده بهجوم سريع على تلك المناطق والاشتباك مع الحامية، فإذا ما قضوا على المدافعين فتحوا الطريق أمام الجيش للدخول إلى الحصن والاستيلاء عليه[2].

ـ **الناحية التموينية**: كان عماد الدين زنكي يؤكد في حصاره للحصون على الناحية التموينية، فيفرض حصاراً اقتصادياً على الحصن، فضلاً عن الحصار العسكري[3]، كما كان يؤكد على إثارة حماسة الجند بأن يشترك هو نفسه في الهجوم على الأسوار، كما حدث في معركتي عقر الحميدية عام (528هـ)[4]، والرها عام (539هـ)[5].

ـ **الحروب المفتوحة**: فقد اتبع زنكي أسلوب الحرب المفتوحة، حيث تقسم القوات إلى عدة مجموعات على رأس كل منها أمير: ميمنة، قلب، ميسرة، مقدمة، مؤخرة. وقد ظهرت براعة زنكي وقواده في استخدام الأساليب المختلفة في القتال، كنصب الكمائن[6]، وفي الحالات التي كانوا يرون فيها أن من الخطورة الدخول بمعارك مفتوحة مع العدو، إمّا لقلة عددهم، أو لعدم ملائمة الظروف العسكرية لهذا النوع من القتال، في هذه الحالات، كان زنكي وقواده يلجؤون إلى شن الغارات على معسكرات العدو والانسحاب بسرعة وكانوا يستهدفون من ذلك إقلاق تلك المعسكرات ونشر الخوف والفوضى في صفوفها وذلك بما يحدثونه في أطرافها من قتل واختطاف ونهب وتخريب، مما يؤدي أيضاً إلى اضطراب في تموين العدو، وهو عامل هام لإضعافه، وقد حققت هذه الأساليب انتصارات عديدة لزنكي ورجاله[7]. وكان زنكي ـ أحياناً أخرى ـ يمارس ضغطه الاقتصادي ضد أعدائه عن طريق القيام بعمليات النهب والتخريب في المناطق التي تمد حصون هؤلاء بالتموين، كما حدث في منطقة

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279.
(2) الاعتبار، ص: 155، عماد الدين زنكي، ص: 203.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 203.
(5) مفرج الكروب (1/ 93، 94).
(6) ذيل تاريخ دمشق، ص: 259، عماد الدين زنكي، ص: 204.
(7) الباهر، ص: 55، 56، مفرج الكروب (1/ 78، 79).

حمص في السنوات التي سبقت الاستيلاء عليها عام 532هـ[1]، وفي حصاره لدمشق عام (534هـ) حيث أحرق عدة قرى من المرج والغوطة وشن الغارات على حوران وأعمال دمشق للنهب والتخريب[2].

ح ـ الأسلحة التي استخدمها عماد الدين زنكي في جهاده: فقد ورد ذكر منها كالدبوس وهو آلة من حديد ذات أضلاع والرماح، والسيوف، والقوس والسهم والنشاب والمنجنيقات والدبابة والكبش والقلعة المتحركة، والتي كانت تستخدم لنقل الجند والمعدات الحربية إلى الأسوار لكي تحميهم من سهام الأعداء ونيرانهم[3]، كما استعمل جند زنكي النار العادية لحرق الأسوار بعد نقبها وملئها بالخشب[4]، وبلغت أسلحة زنكي من الكثرة في إحدى المعارك بحيث قال عنها الشاعر: ظننّا البر بحراً من سلاح[5]، وكان مع جيوش زنكي جرائحي لعلاج مصاب الحرب[6]، وربما كان ذلك دليل على وجود مجموعة، أو هيئة ترافق جند زنكي لإسعاف الجرحى[7].

ط ـ سلوك الأمراء والجند تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة: كانت الاعتبارات السياسية والعسكرية هي التي تحدد سلوك الجند وأمرائهم تجاه سكان وحاميات المدن المفتوحة، ففي عام (533هـ) على سبيل المثال، فتح زنكي حصن بزاعة بالسيف، وقتل كل من فيه من الروم والفرنج[8]، كردّ انتقامي على سلوك الروم والصليبيين تجاه المسلمين لدى استيلائهم على هذا الحصن، ومعاملتهم لأهله بوحشية بالغة[9]. كما أن هذا الحصن كان يشكل مركزاً عسكرياً مهماً لقربه من حلب، ومن ثم فإن وجود أية جماعة تؤيد الصليبيين فيه يشكل خطراً على المنطقة كلها، وكذلك يمكن القول في موقف زنكي عند فتح الرها عام 539هـ، بعد مقاومة شديدة دفعته إلى إطلاق الحرية لجنده وأمرائه في الأيام الأولى من الفتح، فملؤوا أيديهم من الغنائم والأسلاب والأسرى[10]، لكنه لدى اطلاعه على البلد أعجبه منظره

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 204.
(2) مفرج الكروب، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 205.
(3) تاريخ المماليك، ص: 276، عماد الدين زنكي، ص: 205.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279، 282، عماد الدين زنكي، ص: 205.
(5) الباهر، ص: 68، عماد الدين زنكي، ص: 205.
(6) الاعتبار، ص: 59، 60.
(7) عماد الدين زنكي، ص: 206.
(8) مفرج الكروب (1/ 83)، عماد الدين زنكي، ص: 206.
(9) مفرج الكروب (1/ 77، 78)، عماد الدين زنكي، ص: 206.
(10) عماد الدين زنكي، ص: 206.

فأسف لمثله في الخراب، ورأى أن خرابه وإخلاءه غير مستحسن، فأمر بإعادة ما أخذ من الغنائم والسبي فردوا، وعاد البلد عامراً، آهلاً بالسكان، بعد أن كان داثراً[1]. وهكذا نجد أن موقف زنكي بالسماح لجنده بالنهب والأسر، كان ذا اعتبار عسكري بسبب المقاومة العنيفة، وتلك الأعمال كانت ذا اعتبار سياسي إذ كان يرمي من وراء ذلك جعل المسيحيين الوطنيين في الرها كتلة واحدة يقيد منها ضد الصليبيين الذين يخالفونهم في المذهب، ولعله أراد أن يستعين بالمسيحيين الوطنيين بالإضافة إلى الحامية التركية في المحافظة على الرها بعد طرد القوات الصليبية منها[2]. ولذلك اجتهد في مصالح ـ أهل الرها ـ ووعدهم بإجمال السيرة وبسط العدالة[3]، وعلى هذا الأساس كانت معاملة زنكي لأهل بعلبك وأمرائها بعد أن أعطاهم الأمان، إذ أن ما اتخذه معهم من شدة وقسوة قصد به إثارة خوف المقاتلين له من المسلمين في دمشق[4].

ي ـ علاقة عماد الدين زنكي بجنوده: قامت علاقة عماد الدين زنكي بجنده على النظام والطاعة والانضباط من جهة، وعلى الود والتعاطف والرأفة من جهة أخرى، بسبب ما قدمه للجند من رواتب حسنة، وما شمل به أهليهم من رعاية واهتمام[5]، وكان عقابه صارماً للمخالفين من جنده سيما إذا كانت مخالفتهم على حساب الرعية[6]، وقد بلغ زنكي من السطوة والنفوذ لدى جنده أنه إذا ركب مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين، مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع، ولا يجسر أحد من هيبته أن يدوس عرقاً منه، ولا يمشي فرسه فيه، ولا يجسر أحد من أجناده أن يأخذ من فلاح حفنة من التبن إلا بثمنها، أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية[7]، وكان زنكي يقدر الدور الهام الذي يؤديه الجند في خدمة الإمارة لذلك عني بتوفير الراحة والاستقرار للجندي في كل ما يتعلق به، وبخاصة عائلته وزوجته؛ فكان شديد الغيرة على الحريم، لا سيما نساء الجند، فإن التعرض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها، وقد علل ذلك بقوله: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري وما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن[8]، ولذلك كان يعاقب المتعرضين للنساء أشد العقاب، وقد مرّ معنا قصة والي جزيرة ابن عمر التابع لعماد الدين زنكي (حسن البرطي) وكيف جرده من كل أمواله وعاقبه[9].

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 206.
(2) الحروب الصليبية (1/ 8527) العريني.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 280.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 207.
(5) المصدر نفسه، ص: 209.
(6) كتاب الروضتين (1/ 110)، عماد الدين زنكي، ص: 208.
(7) زبدة الحلب (2/ 283، 284).
(8) الباهر، ص: 84، عماد الدين زنكي، ص: 208.
(9) المصدر نفسه، ص: 208.

ك ـ **الاستخبارات**: أقام عماد الدين زنكي جهازاً للمخابرات وخصص له الموظفين والرواتب وقد ورد عنه أنه: كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، وكان له في بلاط السلطان السلجوقي من يطالعه ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره وفي الحرب والسلم، والهزل والجد، وكان (يصرف) على ذلك الأموال الجليلة، وكان يصل إليه في كل يوم عدد من القاصدين أو الكتب[1]، كما كان له في كل بلد من يطالعه بالأخبار[2]، وقد اتصف عماد الدين زنكي بالدراية الواسعة والحذر في هذا المجال، فكان لا يمكن لرسول ملك أن يعبر في بلاده بغير إذنه، وإذا استأذنه رسول في العبور إلى بلاده أذن له وأرسل إليه من يسيره، ولا يتركه يجتمع بأحد من الرعية ولا غيرهم، فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئاً البتة[3]، كما كان لا يمكن لأحد موظفيه من مغادرة بلاده ويعلل ذلك بأن البلاد، كبستان عليه سياج فمن هو خارج السياج يهاب الدخول، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ويطمع العدو فيها، زالت الهيبة وتطرق الخصوم إليها[4]، وهنالك عدد من الروايات حول هروب بعض موظفيه وفلاحيه إلى الإمارات الأخرى وإلحاحه بإعادتهم إلى إماراته حتى لو اضطره ذلك إلى استخدام القوة[5]، وقد قدم جهاز مخابراته خدمات مهمة له في ظروف شتى ولعب دوراً هاماً في حصار بعرين عام (531هـ)[6]، وحصار الرها عام (539هـ)[7]، كما كان يستخدمه عماد الدين على أحوال الجند لدى حصارهم بعض المواقع وملاحظة ما يصل إليهم من رواتب وسلاح[8]، وكان عماد الدين زنكي مع اشتغاله بأمور الدولة الهامة لا يهمل الاطلاع على القضايا الثانوية، معللاً ذلك بأن الصغير إذا لم يُعرف ليمنع، صار كبيراً[9]. وكان من الطبيعي أن رجال المخابرات في الدولة الزنكية ارتبطوا بعماد الدين مباشرة نظراً لأهمية دورهم السياسي والعسكري، ولأنهم كانوا يتسلمون أوامرهم المباشرة منه[10].

ل ـ **كان عماد الدين زنكي رجلاً ذا هدف واضح**، وهذا أول شروط النجاح، وكان جاداً ومثابراً في تنفيذ خططه، وكان غالباً لا يهادن الصليبيين، قاسياً عليهم، وكان حريصاً

---

(1) الباهر، ص: 78، كتاب الروضتين (1/ 111) عماد الدين زنكي، ص: 209.
(2) عماد الدين زنكي، ص: 209، نقلاً عن الباهر.
(3) مفرج الكروب، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 209.
(4) المصدر نفسه، ص: 210.
(5) كتاب الروضتين (2/ 283).
(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 210.
(7) عماد الدين زنكي، ص: 210.
(8) الباهر، ص: 78، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 210.
(9) الباهر، ص: 78، عماد الدين زنكي، ص: 210.
(10) عماد الدين زنكي، ص: 210.

على نشر الخوف في حصونهم وقلاعهم ومدنهم، وكان يقدر الظروف الحربية، فقد هادن جوسلين عندما قدم إلى الموصل لكي يتفرغ لإصلاح البلاد وتجنيد الأجناد، وتجنب مهاجمة مملكة بيت المقدس، حتى لا يثير أوروبا ضده، فقد كان هدفه القضاء على الأطراف مثل الرها، وإضعاف أنطاكية والقضاء على إمارة طرابلس وله فقه كبير في السياسة الحربية[1] سنستعرضها بإذن الله تعالى عند الحديث عن جهوده الوحدوية وأعماله الجهادية.

2 ـ نظام الإقطاع العسكري:

أدرك زنكي ضرورة توزيع الإقطاعات على أمرائه وجنده نظراً لطبيعة الظروف الحربية والسياسية التي جابهتها إمارته، حيث انتشرت مجموعة من الإمارات المحلية المتنافسة في الجزيرة والشام والجبال وشرقي الموصل، فضلاً عن إمارات الصليبيين، فكان ذلك يحتم عليه اتباع الأساليب التي تضمن له تشكيل قوة عسكرية متمكنة، يخلص أفرادها لأميرهم ومصلحة إمارتهم بناء على وجود مصالح مشتركة، وليس ثمة في تلك الفترة ما هو أحسن من الأسلوب الإقطاعي لضمان تكوين الجندي المخلص والجيش القوي المنظم، لذلك كان أول عمل قام به زنكي عند دخوله الموصل عام (521هـ) هو «تقرير قواعد الجنود وإقطاع العساكر»[2]، كما جعل من منهجه قبل الاصطدام مع الصليبيين، الاستيلاء على ما بقي من البلاد الشامية والجزرية، وإصلاح شأنها، والتفرغ من إقطاع بلادها لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم[3]، وفي سبيل تحقيق ذلك عقد هدنة مؤقتة مع صليبيي الرها[4]، ولم تكن معظم مدن الموصل والجزيرة وشمالي الشام خاضعة لزنكي عند توليته هذه المناطق رسمياً من قبل السلطان السلجوقي، لذا غدت معظم عمليات التوزيع الإقطاعي متوقفة إلى حد كبير على فتوحاته ومتدرجة زمنياً مع أوقات هذه الفتوحات، فكان كلما استولى على بلد رتب أموره وأقطع أعماله الأجناد والأمراء[5]، وفضلاً عن قيام المقطع بالدفاع عن المنطقة وإمداد جيوش زنكي بقوات من عنده في حالات القتال[6]، فقد استخدم الأخير الإقطاع لأغراض أخرى أهمها الغرض الإداري، وهو قيام المقطع بإدارة أمور ولايته كوالٍ من قبل زنكي على تلك المنطقة[7]، أو لإبعاد الشخص الذي يرى في وجوده خطراً بإقطاعه منطقة بعيدة[8]، أو لإكرام

---

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 169، 171.
(2) الباهر، ص: 36، عماد الدين زنكي، ص: 218.
(3) المصدر نفسه، ص: 37، المصدر نفسه، ص: 218.
(4) الباهر، ص: 37، مفرج الكروب (1/ 36).
(5) الكامل، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 218.
(6) مفرج الكروب (1/ 103)، عماد الدين زنكي، ص: 218.
(7) عماد الدين زنكي، ص: 218.
(8) الباهر، ص: 35، عماد الدين زنكي، ص: 218.

بعض أمرائه المقربين اعترافاً بفضلهم[1]، أو لإغراء بعض أعدائه بتسليم حصونهم مقابل إقطاعهم بعض المناطق[2]، كما أنه تنازل عن بعض الحصون التي فتحها في ديار بكر لحسام الدين تمرتاش أمير بني أرتق، وذلك لأغراض سياسية تستهدف تقوية حلفه مع حسام الدين ضد أعدائه في المنطقة[3]، وإليك أسماء بعض الأمراء والقواد الذي أقطعهم زنكي بعض المدن والحصون:

أ ـ **الأمير جاولي** الذي كان وصياً على ابن عز الدين مسعود والي الموصل المتوفى عام 521هـ، أقطع الرحبة تخلصاً من خطره[4].

ب ـ **بهاء الدين بن القاسم الشهرزوري**، قاضي قضاة الموصل، وهبه زنكي أملاكاً وإقطاعاً[5]، لم تحددها المصادر[6].

ج ـ **أبو بكر البكجي**، أحد كبار أمراء زنكي، أقطع نصيبين[7].

د ـ **سوتكين الكرجي**، أقطع حران عام (522هـ) أو (523هـ)، وفي عام (527هـ) أعلن العصيان وقد استطاع زنكي القضاء عليه عام (533هـ)، وعيَّن نوابه هناك[8].

هـ ـ **صلاح الدين الباغسياني** (أمير حاجب). أقطع حماة عام (523هـ).

و ـ **زين الدين علي كجك بن بكتكين**، أحد كبار قواد زنكي أقطع أربل عام (526هـ)[9]، وعقر الحميدية وأعمالها عام (528هـ)[10]، وشهرزور[11].

ز ـ **شهاب الدين أميرك الجاندار**، أقطع الرقة عام (529هـ)[12].

ح ـ **نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه**: أقطعهما زنكي في بلد شهرزور إقطاعاً سنياً، وقيل: إنه أقطع أسد الدين بالمؤزر[13] وذلك بعد التجائهما إليه في أواخر عام 532هـ.

---

(1) الباهر، ص: 16، عماد الدين زنكي، ص: 218.
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 270، عماد الدين زنكي، ص: 219.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 219.
(4) كتاب الروضتين (1/ 76)، عماد الدين زنكي، ص: 219.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 219.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 219.
(7) الباهر، ص: 79.
(8) مفرج الكروب (1/ 84).
(9) ذيل تاريخ دمشق، ص: 258.
(10) عماد الدين زنكي، ص: 220.
(11) المصدر نفسه، ص: 220.
(12) المصدر نفسه، ص: 220.
(13) المصدر نفسه، ص: 220.

ط ـ **عز الدين الدبيسي** من أكابر أمراء زنكي، كانت دقوقاً من جملة إقطاعه[1].

ي ـ **ناصر الدين كوري بن جكرمش** (والي الموصل 495 ـ 500هـ) أقطعه زنكي إقطاعاً كثيراً اعترافاً بفضل والده[2].

ك ـ **الأمير سوار بن أيتكين التركماني**، وُلّي حلب عام (524هـ)[3]، وأجرى عليه زنكي الإقطاعات الكثيرة، واعتمد عليه في قتال الفرنج[4].

ل ـ **نجم الدين أيوب** الذي ولاه زنكي بعلبك عام (534هـ)، بعد أن أقطعه ثلثها، وقيل: نصفها[5]. وكان زنكي يمتلك بعض الإقطاعات، خارج حدود إمارته حصل عليها في ظروف استثنائية، كتلك التي وهبه الخليفة المقتفي إياها، من أملاكه الخاصة في بغداد، رغبة في استمالته[6] وقال متحدثاً عن ذلك: هذه قاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف، وهي أن يكون له في العراق إقطاع[7]. ومن ثم اعتبر هذا النوع من الإقطاع شاذاً.

فهذه بعض الأسماء التي قدمتها المصادر عن مقطعي زنكي من كبار الأمراء والقواد، والراجح أن عدداً كبيراً من المقطعين لم تشر إليهم المصادر، إما إغفالاً منها، أو لعدم أهمية الأماكن التي أقطعت لهم من النواحي العسكرية والجغرافية وربما لقلة اشتهار المقطعين أنفسهم[8]، وقد وزعت الإقطاعات على الجند فضلاً عن الأمراء، وتشير النصوص الواردة في ذلك إلى أن زنكي كان يقوم بنفسه أحياناً، بتقرير قواعد الجند وإقطاعهم[9]، وأورد ابن الأثير في الباهر الإجراء الذي اتخذه زنكي بشأن أمرائه المقطعين، إذ نهى هؤلاء من اقتناء الأملاك معللاً ذلك بقوله: ما دامت البلاد لنا فأي حاجة بكم إلى الأملاك؟ فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليهم، وغصبوا أملاكهم[10]. وهذا النص يؤكد بوضوح عدم وجود ملكية مباشرة للأرض من قبل المقطعين بل كانت هذه الملكية بيد الفلاحين[11]،

(1) عماد الدين زنكي، ص: 220.
(2) المصدر نفسه، ص: 220.
(3) المصدر نفسه، ص: 221.
(4) المصدر نفسه، ص: 221.
(5) المصدر نفسه، ص: 221.
(6) المصدر نفسه، ص: 221.
(7) الباهر، ص: 54.
(8) عماد الدين زنكي، ص: 221.
(9) الباهر، ص: 35، 37.
(10) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 222.
(11) زبدة الحلب (2/ 283، 284)، عماد الدين زنكي، ص: 223.

والأهالي[1]، مقابل دفع ضريبة سنوية للحكومة والمقطعين[2]، وقد كان لهذا الإجراء الذي اتخذه زنكي بمنع المقطعين من «التملك» نتائج إيجابية:

* إذ أن اقتناء الأملاك من قِبل هؤلاء يؤدي إلى أضرار عديدة قد تلحق بالأهالي وبمصلحة الإمارة على حد سواء **أولها**: ما يجر إليه المقطعين من ظلم للرعية واعتداء عليهم واغتصاب لأملاكهم، ذلك أن الأمير في حالة كهذه سيستخدم ما يمتلكه من نفوذ وسلطة للضغط على أصحاب الملك ببيعه ملكهم بأقل ثمن، وربما دفعهم إلى التنازل عنه بالقوة[3]، وقد أدرك ابن الأثير مدى عدالة زنكي في هذه الخطوة فعلق عليها قائلاً: فما أحسن هذا الخلق - أي خلق زنكي - وأحسن هذا النظر للرعايا، وأكثر هذه الشفقة عليهم والرحمة لهم. ولا خلاف في أن عمارة البلاد من ثمرات العدل، وكف الأيدي المتطاولة إلى أهلها[4].

* وفضلاً عن ذلك، فإن من نتائج اقتناء المقطعين للأملاك تجمع الثروة بأيدي طبقة محدودة من الأمراء، واحتكار هذه الطبقة لموارد الرزق، بينما تبقى أكثرية السكان في فقر مدقع.

* هذا إلى أن اقتناء الأمراء للأملاك والعناية بها قد يؤدي بهم إلى عدم توجيه جهودهم لكل ما يتعلق بالجندية والدفاع وهي الأمور التي أقطعوا الأراضي والأعمال من أجلها[5].

ويستدل من بعض الروايات: أنه لم يكن يشترط في المقطع البقاء في إقطاعه خاصة إذا كان من أصحاب الوظائف العالية التي تقتضي ملازمته لزنكي، وكان المقطع في هذه الحالة ينيب عنه من يقوم بإدارة إقطاعيته، كما حدث بالنسبة لجمال الدين محمد بن أيوب الياغسياني، أمير حاجب زنكي، الذي أقطع عدة مدن، فأناب في كل منها مَن يعتمد عليه في إدارة شؤونها[6] كحماه التي أناب فيها ابنه شهاب الدين أحمد[7]، وحصن الخربة الذي أناب فيه عيسى الحاجب[8]، وكذلك بالنسبة لزين الدين علي كجك بن بكتكين قائد زنكي في الموصل، الذي أقطع أربل وعقر الحمدية وأعمالها، ومن المرجَّح أنه أناب عنه فيهما من

---

(1) مفرج الكروب (1/ 74، 75).
(2) الباهر، ص: 79، زبدة الحلب (2/ 280).
(3) عماد الدين زنكي، ص: 22.
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 223.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 223.
(6) المصدر نفسه، ص: 223.
(7) ذيل تاريخ دمشق، ص: 258، الاعتبار، ص: 97، 98.
(8) الاعتبار، ص: 78.

يدير شؤونهما، بدليل عدم مغادرته الموصل إلى إقطاعه في أربل إلا عام (563هـ)[1].

وتشير الروايات إلى أن نور الدين محمود بن زنكي أدخل نظام التوريث في الإقطاع، إذ كان من آرائه الحسنة ما كان يعتمده في أمر أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلف ولداً ذكراً، أقر الإقطاع عليه. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها وكان ذلك من أعظم الأسباب لصبر الجند في الحروب بين يديه[2]. وقد رجح الدكتور «عماد الدين خليل» أن زنكي سبق ابنه في إدخال هذا النظام، إذ هنالك سابقة من عهده تُشير إلى هذا الاتجاه الجديد في نظام الإقطاع، وذلك عندما قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق إلى الشام؛ وأسكنهم بولاية وأمرهم بجهاد الفرنج، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج وجعله ملكاً لهم، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم وأخذوا كثير من السواد[3]، وسدوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة (600هـ). ولا شك أن زنكي أدرك كما أدرك ولده من بعده مدى النتائج الإيجابية التي يمكن أن يؤدي إليها نظام التوريث هذا، وأهمها إخلاص جنده له، واستماتتهم في القضاء على ما يهدد إمارته من أخطار لما في ذلك من مصلحة لهم ولأولادهم الذين سيرثون إقطاعهم من بعدهم[4].

3 ـ نظام الإعداد القيادي (الأتابكية):

وهي كلمة مشتقة من الكلمة التركية أتابك المركبة من المقطعين (أتا) بمعنى: أب و«بك» بمعنى أمير، وتعني: «الوالد الأمير» وكان هذا اللقب يطلق على من يتولى تربية أبناء الملوك والسلاطين، ويرعى شؤونهم وكان الأتابك، هو الحاكم الأعلى في الأتابكية، وكان يلقب بالملك أيضاً، وله الإشراف على جميع شؤون المملكة أو الأتابكية، كما أنه يعد المسؤول الأول عن السياسة الخارجية، ومن حقه أن يعلن الحرب ويقود الجيوش، ويعيِّن الولاة والقواد، فهو لذلك أشبه بالسلطان السلجوقي، كما أن له الحق في نقش اسمه على السكة، والدعاء له في الخطبة إلى جانب اسم الخليفة والسلطان[5].

وقد عرف عماد الدين زنكي بلقب: (الأتابك) مُنذ تعيينه حاكماً على الموصل عام

---

(1) الباهر، ص: 78، الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين، ص: 224.
(2) مفرج الكروب (1/ 280).
(3) المنطقة الزراعية المحيطة بحلب، عماد الدين زنكي، ص: 225.
(4) كتاب الروضتين (1/ 111، 112).
(5) دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي، ص: 236.

521هـ، واشتهرت الإمارة التي أسسها باسم (أتابكية الموصل) والسلالة التي أعقبته في الحكم باسم الأتابكة، وقد بدأت تسمية زنكي بهذا اللقب في شعبان عام (521هـ) عندما ولاه السلطان محمود الموصل وسلمه ولديه ألب أرسلان، وفرّوخ شاه (المعروف بالخفاجي) وجعله أتابكاً لهما[1]، وقد ترتبت على «أتابكية زنكي» نتائج عديدة، فقد كان عليه من الناحية الرسمية، أن يحكم باسم ألب أرسلان، أكبر الأميرين، وأن يخطب له، ولذلك أظهر للخلفاء والسلاطين وأصحاب الأطراف أن البلاد التي يحكمها إنما هي للملك ألب أرسلان[2]، وأنه نائب فيها فكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب على رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا[3] وكذا، وكان هذا الإجراء من قبل زنكي لا يعدو أن يكون شكلياً، إذ أن السلطة الفعلية كانت متركزة في يده، ولم يكن لأحد من ابني السلطان محمود أية سلطة عملية، بل كانا أشبه بالمحتجزين، إذ فرق زنكي بينهما فجعل أحدهما: في أحد معاقل سنجار، والآخر: تحت إشراف زوجته في الموصل[4]، وقد استهدف من الخطبة لألب أرسلان إلقاء الصفة الرسمية «الشرعية» على سياسته وأعماله مستغلاً اسم الملك السلجوقي، كما عمل زنكي على استغلال وجود هذين الملكين السلجوقيين، فقام بمحاولات ثلاث سنة (525هـ ـ 529هـ) لتنصيب ألب أرسلان على عرش سلاجقة العراق بالاتفاق مع الخليفة العباسي ضد السلطان السلجوقي في أصفهان، وقد استهدف من وراء ذلك جعل السلطة الفعلية لسلاجقة العراق بيده باسم السلطان الشرعي المنصب، ولكن هذه المحاولات انتهت جميعاً بالفشل[5].

أ ـ محاولة انقلابية في الموصل: قامت مؤامرة ضد عماد الدين زنكي تزعمها الملك الخفاجي عام 539هـ أثناء غياب زنكي عن الموصل، إذ اتفق الخفاجي وأنصاره على اغتيال نصير الدين جقر نائب زنكي في الموصل، ومن ثم السيطرة على المدينة وإعلان العصيان ضد زنكي، ففي صباح الثامن أو التاسع من ذي القعدة عام 539هـ ركب جقر في موكبه كعادته واخترق شوارع المدينة متجهاً إلى الدار التي يقيم فيها الملك الخفاجي للتسليم عليه[6]، فحسَّن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنَّك إن قتلته ملكت الموصل وغيرها ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان عليك فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه كعادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظناً منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا، ويملك الملك البلاد وكان الأمر بخلاف

---

(1) وفيات الأعيان (1/315، 316)، عماد الدين زنكي، ص: 226.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 227.

(3) الباهر، ص: 71، عماد الدين زنكي، ص: 227.

(4) عماد الدين زنكي، ص: 227.

(5) المصدر نفسه، ص: 227.

(6) المصدر نفسه، ص: 227.

ما ظنُوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدّار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة عماد الدين مملوءة بالرّجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة، فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء[1].

ب ـ دور العلماء في تثبيت عماد الدين: كان عماد الدين زنكي منشغلاً بمحاصرة البيرة سنة 539هـ وكانت هذه المدينة قد أوشكت على السقوط في يد عماد زنكي، فورد إليه نبأ مقتل نائبه بالموصل نصير الدين جقر فانزعج كثيراً، واضطر عماد الدين إلى الرحيل عن البيرة وأرسل نائباً عنه إلى الموصل لاستطلاع حقيقة الأمر وهو القاضي تاج الدين بن يحيى ابن الشهرزوري كان ملازماً لعماد الدين أثناء محاصرته للبيرة، فلما وصل تاج الدين إلى الموصل علم أن الملك السلجوقي ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه كان وراء مقتل نصير الدين جقر ليملك الموصل في غياب عماد الدين عنها[2]، ولذلك قام القاضي تاج الدين ابن الشهرزوري بخدعة كي يفسد على الملك السلجوقي زعيم الانقلاب بالموصل مخططه، فدخل في الدار التي كان يحاصره فيها أصحاب جقر وأصحاب عماد الدين زنكي، وظل يخادعه بمعسول الكلام ويحسن له ما فعله مع جقر ويشجعه على الصعود إلى قلعة الموصل حتى يملكها ويكون في مأمن، حيث يوجد بها الأموال والسلاح فيستطيع بعد ذلك تملك الموصل، فاقتنع الملك السلجوقي بن محمود، وخرج في صحبة القاضي تاج الدين وصعدا معاً إلى القلعة، وهناك قبض عليه وعلى مَن معه من أتباعه الذين قتلوا نصير الدين جقر، وبعد ذلك توجه القاضي تاج الدين إلى عماد الدين زنكي وبلغه بكل ما فعله فسكن جأشه واطمأن قلبه[3]، ومما تقدم يتضح لنا مدى ما بلغه القاضي تاج الدين من الفطنة وحسن التصرف، مثل باقي أقاربه من بيت الشهرزوري الذين امتلأت بهم دولة عماد الدين زنكي[4]، وعين عماد الدين زنكي قائده زين الدين علي كجك؛ ليحل محل جقر نائب الموصل المقتول ثم ذهب هو بنفسه بعد ذلك لإقرار الأوضاع هناك[5].

ج ـ سياسة عماد الدين مع الملك الآخر ألب أرسلان: أبدى زنكي، بعد مقتل الخفاجي، عطفه على الملك الآخر ألب أرسلان، فألغى احتجازه في أحد معاقل سنجار وعطف عليه وعُنِي بتفاصيل أمره، وعيَّن له حراساً وموظفين لخدمته، واهتم بمراسيم جلوسه

---

(1) كتاب الروضتين.

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 113.

(3) الباهر، ص: 72، دور الفقهاء والعلماء، ص: 113.

(4) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 114.

(5) عماد الدين زنكي، ص: 229.

وركوبه، وطالب رجاله بالاهتمام بأمره واحترامه وتلبية مطالبه وقد استهدف من هذه الإجراءات تغطية مقتل الملك الخفاجي[1]، كي لا يثير السلاجقة ضده، ومحاولة منه لاستغلال ألب أرسلان لتحقيق أمله في المستقبل وذلك بالمطالبة بتوليته سلطنة العراق بعد وفاة عمه السلطان مسعود، ليصبح زنكي المتحكم الفعلي باسم السلطان الجديد[2].

المبحث الثالث
علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

تسلّم عماد الدين زنكي الموصل من الأمير جاولي وأقطعه الرحبة وأعمالها[3]، ثم انصرف إلى تنظيم شؤون إمارته إدارياً وعسكرياً مستنداً في ذلك إلى ما كان سائداً عند السلاجقة من نظم الحكم، فولّى نصير الدين جقر قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الولاية جميعها، وعيَّن الياغسياني أمير حاجب والقاضي الشهرزوري قاضي بلاده وما يفتحه من بلاده[4]، ثم انصرف إلى العمل على تحقيق هدفين وضعهما نصب عينيه هما:

* تأسيس دولة وراثية وتوسيعها عن طريق ضمّ المدن والإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام، وتوحيدها مع إمارة الموصل.

* تكوين جبهة إسلامية متماسكة تستطيع مواجهة الصليبيين وتطردهم من الشرق الإسلامي، فدخل من أجل ذلك في علاقات سياسية عسكرية مع الأمراء المحليين.

ويبدو أنه لم يتمكن من المضي قدُماً في تحقيق هدفيه في بادئ الأمر، بسبب انغماسه في أحداث العراق، مما صرفه عن ميدان بلاد الشام، إذ شهد هذا البلد آنذاك صراعاً بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية من أجل الاستئثار بالنفوذ تدخل فيه عماد الدين زنكي، وانتهى بانتصار واضح لصالحه وتحديد مستقبله السياسي[5].

أولاً: محاولة عزل عماد الدين زنكي عن الموصل:

تراوحت علاقة عماد الدين بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بين التعاون المثمر

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 229.
(2) المصدر نفسه، ص: 230.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 88.
(4) الباهر، ص: 34.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 89.

والعداء الشديد وفقاً للمصلحة العامة والشخصية في الوقت نفسه، على أن هذه التقلبات لم تؤثر على مركزه في ولاية الموصل والجزيرة وبلاد الشام، فقد تعرَّض في بداية حكمه، لمحاولة استهدفت عزله عن منصبه وإحلال دُبَيس بن صدقة أمير الحلة مكانه، ذلك أن هذا الرجل كان قد التحق بخدمة السلطان سنجر، سلطان السلاجقة العظام في خراسان، وأضحى من أمرائه المقربين وحدث أن توجه محمود سلطان سلاجقة العراق إلى خراسان لتصفية المشاكل القديمة مع عمه سنجر[1]، وأثناء المباحثات التي جرت بينهما طلب سنجر من ابن أخيه محمود أن:

* يعزل عماد الدين زنكي عن الموصل والجزيرة وبلاد الشام ويوليها لدُبَيس.

* يطلب من الخليفة تحسين علاقاته به بعد المشاكل التي أثارها ضد الخلافة[2].

ويبدو أن محموداً استجاب لطلب عمه، فعندما وصل إلى بغداد في مطلع عام 523هـ/ آخر عام 1128م سعى لدى الخليفة المسترشد بالله لتحقيق ذلك، كما طلب من عماد الدين زنكي التخلي عن منصبه وتسليمه لدُبَيس[3].

كان هذا الطلب كافياً للقضاء على آمال عماد الدين زنكي وتطلعاته السياسية، لذلك تحرك على وجه السرعة لإحباط هذا التدبير، فقدم إلى بغداد، وتمكّن بعد مباحثات طويلة من إقناع السلطان بضرورة إبقائه على ولاية الموصل لمجابهة الصليبيين، كما أكَّد طاعته وإخلاصه له فخلع عليه وجدّد له ولايته، وكتب له منشوراً جديداً بحكم الموصل والجزيرة والشام، تأكيداً لمنشور عام (521هـ)[4]، وقد ساعدت عماد الدين زنكي مجموعة من العوامل على بقائه في منصبه منها ما بذله الخليفة من جهود لتثبيت زنكي على الموصل بدافع من كراهيته العميقة لدبيس، حتى أنه أرسل إلى السلطان محمود يقول له: إن دبيساً أعان الفرنجة ضد المسلمين فكيف توليه[5]؟! وكان دبيس قد انضم إلى الصليبيين ـ وهو من الطائفة الشيعية الإثني عشرية ـ بعد هزيمة سنة (517هـ) وأسهم معهم في حصار حلب طمعاً بالاستيلاء عليها وحكمها نيابة عنهم.

* لم يكن أهالي بغداد أقل كراهية لدبيس وحقداً عليه من الخليفة نفسه، حتى أنهم تظاهروا ضده لدى دخوله العاصمة، وراحوا يندِّدون به ويهتفون بالتأييد والدعاء للخليفة

---

(1) أخبار الدولة السلجوقية للحسيني، ص: 88، 90.
(2) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (10/ 8، 9).
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 89.
(4) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (1/ 40).
(5) زبدة الحلب (2/ 244)، عماد الدين زنكي، ص: 50.

والسلطان[1] بسبب محاولات دبيس المتكررة لنهب بغداد وتخريبها[2]، فضلاً عن مساعدته للصليبيين[3].

* ولم يكن في صالح السلطان محمود نفسه عزل زنكي عن الموصل وهو الذي وقف إلى جانبه في الظروف الحرجة، ولعله لم يقم بمحاولة العزل ـ أساساً ـ إلا تحت ضغط عمه سنجر صاحب السلطة العليا على السلاجقة، هذا فضلاً عن أن تعيين دبيساً في الموصل قد يتيح لسنجر أن يتخذ منه صنيعة ضد مصالح السلطان محمود في العراق[4].

ثانياً: صراع البيت السلجوقي على السلطنة بعد وفاة السلطان محمود:

اطمأن زنكي إلى ولايته طيلة الأعوام الأخيرة من حكم السلطان محمود، وعندما توفي هذا في منتصف عام 525هـ أرسل زنكي إلى الخليفة المسترشد يطلب منه أن يقيم الخطبة ببغداد للملك السلجوقي ألب أرسلان ـ وهو أحد الملكين اللذين أنيطت بزنكي مهمة الإشراف على تربيتهما ـ إلا أن الخليفة اعتذر عن ذلك محتجاً[5]:

1 ـ بصغر سن ألب أرسلان وبعدم صلاحيته للحكم.

2 ـ بأن السلطان كان قد عهد بالسلطنة من بعده وهو بأصفهان إلى ابنة داوود.

3 ـ بأن حكام الولايات قد بدؤوا فعلاً بإقامة الخطبة له وأضاف، بأنه لن يقدم على اتخاذ أي إجراء بهذا الصدد قبل أن تصله رسالة من السلطان سنجر زعيم السلاجقة الكبار في خراسان[6]. وهكذا فوّت الخليفة فرصة ذهبية على عماد الدين زنكي للاستفادة من وفاة السلطان محمود، الذي لو نجح في اغتنامها لأتاحت له مجالات جديدة في العمل السياسي، ودفعته إلى الخروج عن الولاء للسلاجقة بتنصيب أحد أمرائهم المقيم تحت إشرافه في الموصل سلطاناً على سلاجقة العراق، فيصبح بذلك المتحكم الفعلي في شؤون العراق باسم السلطان الجديد[7].

وفي العام التالي استطاع السلطان مسعود بن محمد ـ حاكم أذربيجان ـ استمالة زنكي لمساعدته في المطالبة بعرض سلاجقة العراق، لقاء منحه مدينة أربل الحصينة شرقي

(1) زبدة الحلب (2/ 221، 225).
(2) المنتظم (10/ 11).
(3) عماد الدين زنكي، ص: 51.
(4) المصدر نفسه، ص: 51.
(5) المصدر نفسه، ص: 51.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 91.
(7) عماد الدين زنكي، ص: 52.

الموصل، وتم الاتفاق بينهم على أن يتجها إلى بغداد لمطالبة الخليفة المسترشد بالخطبة لمسعود والاعتراف به سلطاناً على العراق[1]، إلا أن سلجوق شاه بن محمد ـ أخو مسعود الذي كان يطمح هو الآخر بعرش السلاجقة في العراق ـ سبق أخاه إلى بغداد، وطالب الخليفة بالخطبة له فامتنع الأخير عن تنفيذ طلبه، ولما سمع سلجوق شاه باقتراب زنكي على رأس قواته الموالية لمسعود، أمر قائده (قراجا الساقي) بالإسراع في التوجه شمالاً لإيقاف تقدمه، فوصل إلى مشارف سامراء بأقل من يومين، ودارت المعركة بين الطرفين عند قصر المعشوق على الجهة المقابلة لسامراء، وانتهت بهزيمة زنكي وأُسر عدد كبير من قواته، فلجأ بمن معه من فلول إلى تكريت[2] حيث أسرع واليها نجم الدين أيوب بإقامة المعابر لهم، وإكرام ضيافتهم لحين عودتهم إلى الموصل[3]، وهناك استطاع زنكي أن يعيد تنظيم قواته، بعد أن أنفق عليها أموالاً كثيرة وجهزه بالمؤن والمعدات[4].

ثالثاً: موقف السلطان سنجر من الأحداث:

كان السلطان سنجر يراقب تطورات الأحداث السياسية في العراق، بهدف انتهاز فرصة للتدخل والهيمنة على مقدرات الأمور وإخضاع سلاجقة العراق لإشرافه المباشر. وحتى يدعم موقفه، رأى أن يستقطب كلاً من عماد الدين زنكي ودُبيس بن صدقة، فطلب منهما التوجه إلى بغداد والاستيلاء عليها وإقامة الخطبة فيها له ولخليفته الملك طغرل بن محمد بن محمود، وتعهد بإضافة شحنكية بغداد إلى عماد الدين زنكي، وبإقطاع الحلة لدُبَيس[5]، فوافق عماد الدين زنكي على هذا العرض لاعتقاده بأن النصر سيكون حليف سنجر، وبذا يستطيع أن يحقق مزيداً من مطامعه. أدرك كل من مسعود وسلجوق شاه أن الصراع بينهما سوف يتيح الفرصة لتدخل عمهما سنجر ويقضي على مصالحهما في العراق فعقدا صلحاً بينهما ووحَّدا قواتهما للوقوف في وجهه، لكن سنجر انتصر على جيوشهما، وأجلس طغرل بن محمد على عرش سلاجقة العراق في شهر جمادى الآخرة عام 526هـ/ شهر نيسان (عام 1132م)[6]. في هذه الأثناء كان عماد الدين زنكي ودُبيس قد اقتربا من بغداد، واشتبكا مع قوات الخليفة في «أواخر شهر رجب/ شهر أيار» وحلَّت بهما الهزيمة، فتراجع عماد الدين زنكي إلى الموصل،

---

(1) مفرج الكروب (1/ 97)، عماد الدين زنكي، ص: 52.
(2) المنتظم (10/ 25)، الباهر، ص: 43.
(3) الباهر، ص: 119، 120، عماد الدين زنكي، ص: 52.
(4) الباهر، ص: 43، عماد الدين زنكي، ص: 52.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 93.
(6) المصدر نفسه، ص: 92.

وقام دُبيَس بمحاولة فاشلة لاستعادة الحلة[1] واستطاع مسعود، بعد سلسلة من الحروب، أن يقضي على منافسيه ويجلس على عرش سلاجقة العراق بموافقة سنجر في شهر صفر عام 527هـ/ شهر كانون الأول عام 1132م.

نتائج تلك الحروب:

كان للحروب التي حدثت بين السلاجقة فيما بينهم من جهة، ثم فيما بينهم وبين الخلافة العباسية من جهة أخرى، واشتراك عماد الدين زنكي فيها نتائج هامة على وضعه السياسي والعسكري منها:

1 ـ أنه خسر علاقته الودية بالسلطنة السلجوقية التي استفاد منها في أيام السلطان محمود، إلا أنه حصل على مدينة إربل المهمة عسكرياً.

2 ـ اتسعت شهرته كأمير ذي قوة مؤثِّرة في الصراع الدائر في المنطقة.

3 ـ خرج من تلك الحروب وقد تعرَّف على عائلة بني أيوب، مما سيكون له أثر كبير في تطور هذه العائلة، وازدياد نشاطها.

4 ـ تدهورت العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية[2].

رابعاً: محاصرة الموصل

أرسل المسترشد بالله إلى عماد الدين الإمام أبا الفتوح الإسفراييني، فأغلظ له في القول فأهانه عماد الدين وعاد إلى المسترشد بالله فسار إلى الموصل بثلاثين ألفاً سنة (527هـ)[3]، وحاصرها في 20 رمضان فنزَّل زنكي بالموصل نائبه نصير الدين، وسار هو إلى سنجار ليقطع المسيرة عن عسكر الخليفة، واستمر الحصار ثلاثة أشهر وعاد الخليفة إلى بغداد يوم عرفة وسبب هذا الحصار سير عماد الدين زنكي السابق إلى بغداد، واختلاف سلاطين السلاجقة، وإهانة زنكي لرسول الخليفة[4]، ولم يتمكن جيش الخليفة من اقتحام الموصل،

---

(1) الباهر، ص: 45، 46، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 93.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 93.

(3) زبدة الحلب، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 75.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحروب الصليبية، ص: 75.

وكان عماد الدين في غضون ذلك يشن الهجمات عليه، حتى أضحى محاصراً، فتناقضت قوّاته وساء وضعه القتالي[1]. وعلى الرغم من هذا الموقف الصعب الذي وجد الخليفة فيه نفسه إلا أن عماد الدين زنكي لم يتمكن من النيل منه، وكان تراجع الخليفة العسكري الذي حصل بعد ذلك نتيجة لعوامل خارجية. إذ استغل السلطان مسعود فرصة انهماك الخليفة بحصار الموصل فتوجه إلى بغداد لتعزيز مركزه فيها، واستغاث بُدَبيس بن صدقة للاستيلاء عليها[2] تلقى الخليفة هذه الأنباء المقلقة، وهو يحاصر الموصل، ففكَّ الحصار عنها وعاد إلى بغداد ليدافع عن عاصمته، فوصل إليها في العاشر من شهر ذي الحجة[3]. وبذلك تخلص عماد الدين زنكي من الخطر الذي كاد يقضي على آماله[4].

خامساً: التوتر بين عماد الدين والسلطان مسعود:

أجرى الخليفة المسترشد بالله العباسي مفاوضات ناجحة مع عماد الدين زنكي وعُقد الصلح بين الجانبين في مطلع عام (528هـ) أواخر عام (1133م) وتبودلت الهدايا، وأرسل عماد الدين زنكي ابنه سيف الدين غازي إلى الخليفة ليؤكد طاعته وولاءه له[5] واستنجد الخليفة بزنكي عام (529هـ) أثناء صراعه مع السلطان مسعود وكان عماد الدين زنكي آنذاك يحاصر دمشق، ففك الحصار عنها، وعقد صلحاً مع حكومتها حتى لا يُطعن من الخلف وعاد مسرعاً إلى بغداد لنجدة الخليفة إلا أنه وصل متأخراً، إذ انتصر السلطان مسعود على الخليفة المسترشد في المعركة التي دارت بينهما في العاشر من شهر رمضان ووقع في السر، وظل مأسوراً حتى منتصف ذي القعدة، حين هاجمه جماعة من الباطنية وقتلوه[6]. وقد فصّلتُ في سيرة المسترشد بالله العباسي في كتابي عن دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي.

هذا وقد أخذت البيعة بعد مقتل المسترشد بالله لابنه أبو جعفر منصور الملقب بالراشد بالله سنة (529هـ ـ530هـ) بموافقة السلطان مسعود[7]، وهكذا ضاعت فرصة أخرى من يد عماد الدين زنكي للسيطرة على العراق[8]، ونتيجة لهذه التطورات السياسية ازداد التوتر بين عماد الدين زنكي والسلطان وقد بلغ حداً دفع الثاني إلى تدبير مؤامرة لاغتيال الأول حتى يتخلص من خطره بشكل نهائي فاستدعاه إلى أصفهان، لكن دُبَيساً أخبره، بنواياه وحذّره من التوجه

---

(1) الكامل في التاريخ (8/ 696).
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 94.
(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 94.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 94.
(5) المنتظم (10/ 34)، الباهر، ص: 47، 48.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 57.
(7) المصدر نفسه، ص: 57، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 95.
(8) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 95.

إلى بلاطه، فامتنع عن الذهاب، ولما علم السلطان بما فعله دُبيس قتله على الفور[1]. وكان عماد الدين زنكي قد أحسن لصدقه فعندما وقع في يدي تاج الملوك حاكم دمشق طلب عماد الدين من أمير دمشق أن يسلمه دُبيساً وإن امتنع عن تسليمه سار إلى دمشق وحصرها وخرّبها ونهب بلدها فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، وأرسل عماد الدين سونج ابن تاج الملوك والأمراء الذين معه، وأرسل تاج الملوك دُبيساً، فأيقن دُبيس بالهلاك ففعل زنكي معه خلاف ما ظن وأحسن إليه وحمل له الأقوات، والسلاح والدواب وسائر أمتعة الخزائن وقدمه على نفسه وفعل معه ما يفعل مع أكابر الملوك[2]. ولما سمع عماد الدين زنكي بمقتل دبيس بن صدقة قال: فديناه بالمال وفدانا بالروح[3]. وذكر ابن كثير بأنه فداه بخمسين ألف دينار، وما لبثت العلاقات أن تدهورت بين الخليفة الجديد وبين السلطان مسعود واجتمع لدى الراشد عدد من الأمراء المناهضين للسلطان، وجندوا له العمل على إسقاطه والمجيء بسلطان جديد يرتضونه[4] وفي مستهل صفر عام 530هـ وصل زنكي بغداد قادماً من الشام بعد أن استدعاه الراشد واتفق معه على إعلان الخطبة لألب أرسلان المقيم في الموصل[5]، وانضم إلى الأمراء الذين كانوا قد حرضوا الخليفة على إعلان العصيان ضد السلطان مسعود[6]، وجد الخليفة أن الفرصة قد سنحت للبدء بالعمل، فألغى الخطبة لمسعود وحوَّلها لداود بن محمود، خلافاً لما تم الاتفاق عليه مع زنكي[7].

وقام السلطان الجديد بتعيين شحنة له في العراق، ولم يمض على ذلك سوى وقت قصير حتى دبت الخلافات بين الراشد وسائر الأمراء بسبب المنافسات والأحقاد القديمة[8] واتفق المتحالفون على توجيه ضربتهم للسلطان مسعود في بلاد فارس نفسها، إلا أنهم ما إن قطعوا مسافة قصيرة حتى ورد خبر بتوجه مسعود على رأس قواته صوب بغداد، فارتأوا أن يعودوا إليها لاتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة لصد الهجوم[9] وما لبث السلطان مسعود أن فرض الحصار على بغداد، وجرت مناوشات ومعارك جانبية بين الطرفين لم تُسفر عن نتيجة حاسمة وسعى الخليفة إلى إحلال الصلح وإنهاء الصلح دون جدوى، وأخذت الأوضاع داخل بغداد تزداد سوءاً يوماً بعد يوم[10]، ونجح السلطان مسعود في دخول بغداد وخلعه عن سدة

---

(1) المنتظم (10/ 53)، تاريخ الزنكيين، ص: 95.
(2) الكامل في التاريخ (8/ 680).
(3) واقع التربية الإسلامية في عهد نور الدين، ص: 17.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 58.
(5) النجوم الزاهرة (5/ 358)، عماد الدين زنكي، ص: 58.
(6) المنتظم (10/ 55)، عماد الدين زنكي، ص: 58.
(7) مفرج الكروب (1/ 64)، عماد الدين زنكي، ص: 58.
(8) عماد الدين زنكي، ص: 59.
(9) المنتظم (10/ 57)، مفرج الكروب (1/ 65).
(10) عماد الدين زنكي، ص: 60.

الخلافة وولّى المقتفي لأمر الله مكانه في شهر ذي الحجة عام (530هـ)، أيلول عام (1136م)[1]، وغادر الراشد بغداد متوجِّهاً إلى الموصل بصحبة عماد الدين زنكي، والجدير بالذكر أن الخطبة للمقتفي اقتصرت على بعض أنحاء العراق بينما استمرت مناطق الموصل والجزيرة وبلاد الشام تخطب للراشد الذي كان يتمتع بحماية عماد الدين زنكي[2].

سادساً: مصالحة عماد الدين زنكي للسلطان مسعود:

لم يدم التحالف طويلاً بين عماد الدين زنكي والراشد، فقد شعر كل منهما بضعف موقفه أمام موقف السلطان والخليفة الجديد لذلك أسرعا بإرسال الرسل للتوسط لديهما وإنهاء حالة الحرب[3]، وأضحى عماد الدين زنكي على الرغم من ضعف موقفه، القوة التي تتطلع إليها الأطراف المتنازعة لاستقطابها، وهكذا استماله أعوان المقتفي، إلى جانبهم وكافأه الخليفة، بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد في ألقابه[4]، واضطر تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية إلى التخلي عن حليفه الراشد، وكانت التقلبات السياسية السريعة بعماد الدين زنكي تهدف إلى ضمان استمرار حكمه، وتحقيق وحدة الصف الإسلامي في الموصل والجزيرة والشام لتكوين جبهة إسلامية موحّدة تقف في وجه الصليبيين[5]، وكان من الطبيعي أن تتحسن العلاقات بينه وبين السلطان مسعود الذي أرسل إليه في شهر ربيع الأول عام 532هـ/ تشرين الثاني عام 1137م التشريف الكامل والخلع[6]، وأدرك عماد الدين زنكي خطورة الأوضاع في شمالي الشام بفعل تهديد الصليبيين لمدينة حلب التي كانت تعاني من الفوضى في ظل صراع على السلطة بعد وفاة حاكمها إيلغازي الأرتقي في شهر رمضان عام (516هـ/ 1122م)، فأرسل قاضيه الشهرزوري ليشرح للسلطان هذا الوضع، ويطلب منه مساعدة عسكرية لإبعاد الصليبيين عن المنطقة[7]. ونجح الشهرزوري في مهمته، وتمكّن من إقناع السلطان بإمداده بقوة عسكرية إلا أن رسالة عاجلة وصلت إلى بغداد من عماد الدين زنكي، أفادت بأن الصليبيين رحلوا عن حلب، وأنه لم يعد بحاجة إلى المدد العسكري، وتدليلاً على العلاقات الجيدة بين السلطنة السلجوقية والدولة الزنكية، فقد أرسل السلطان مسعود رسالة تهنئة إلى عماد الدين زنكي وهو على أبواب حمص بمناسبة انتصاره على الصليبيين وخلع عليه الخلع السلطانية، إلا أن هذه

---

(1) مفرج الكروب (1/ 65، 66)، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 95.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 96.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 96.
(4) الباهر، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 96.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 96.
(6) المصدر نفسه، ص: 96.
(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 96.

العلاقات تبدّلت في عام (538هـ/ 1143م) حين حاول السلطان مسعود الذي خشي من طموحات عماد الدين زنكي واتساع رقعة إمارته، وتنامي قوته العسكرية، توجيه ضربة حاسمة له، معتقداً بأنه وراء القلاقل التي كان يقوم بها أمراء الأطراف ضد حكمه في العراق وأن هؤلاء لا يلتزمون بسياسته والراجح أن عماد الدين زنكي هدف إلى إلهاء السلطان لمنعه من مضايقته وبذلك يستطيع وهو مطمئن أن يوطد نفوذه في الموصل ويوسع رقعة أملاكه على حساب الأمراء المسلمين المجاورين، ويحارب الصليبيين[1]. ولما علم بنوايا السلطان أرسل إليه يستعطفه ويستميله وفعلاً جرت مفاوضات بين الطرفين أدّت إلى إعادة الوفاق بينهما وكان من أهم بنود الصلح أن:

- يدفع عماد الدين للسلطان مبلغ مائة ألف دينار.
- يتنازل له عن بعض إقطاعاته.
- يحضر شخصياً إلى بلاطه لإعلان الطاعة[2].
- والواضح أن تراجع السلطان عن موقفه العدائي تجاهه يعود إلى أمرين:

الأول: أنه أدرك خطورة الوضع في الجزيرة وشمالي الشام حيث غدا الصليبيون يشكلون خطراً مباشراً على المنطقة وأن عماد الدين زنكي هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تقف في وجههم، وترغمهم على التراجع.

الثاني: أنه جوبه بمعارضة شديدة من رجال دولته ومواطنيه من أجل إبقاء إمارة الموصل كحاجز قوي متماسك أمام أطماع الصليبيين، وقد أوضحت هذه المعارضة أن عماد الدين زنكي هو الأمير الوحيد في المنطقة الجدير بالتصدي لتلك الأطماع وأن القضاء عليه يعني فتح الطريق أمام الصليبيين في العراق[3]، بعد إقرار الصلح، أرسل عماد الدين زنكي عشرين ألف دينار كدفعة أولى تنفيذاً للبند الأول من الاتفاق، ثم تنازل السلطان عن المبلغ المتبقي بهدف استقطابه وكسب وده حتى لا ينضم إلى أمراء الأطراف الذين خرجوا عن حكمه، كما تغاضى عن تنفيذ البند الخاص بحضوره إلى البلاد السلجوقية، وعذره بسبب انهماكه في جهاد الصليبيين إلا أنه اشترط عليه فتح الرها[4]. وقامت علاقات عماد الدين زنكي مع الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله على الود والتعاطف، واستمرّت الصلات المتبادلة بينهما، وازدادت هذه العلاقات وثوقاً بعد أن فتح عماد الدين زنكي الرها في عام (539هـ/

(1) تاريخ الزنكيين، ص: 97.
(2) المنتظم (10/ 108)، الباهر، ص: 65.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 98.
(4) الباهر، ص: 65، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 98.

1144م) حيث منحه عدداً من الألقاب، كالأمير الكبير، العادل، المؤيد، المظفر، المنصور[1]. وهكذا يتضح أن عماد الدين زنكي اتبع سياسة مستقلة إلى حد كبير، تجاه علاقته بكل من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وأضحى يُشكل قوة مؤثرة ضاغطة في الأحداث التي شهدها العراق مستغلاً علاقات الخلافة المتقلبة بالسلطنة السلجوقية لتحسين وضعه السياسي غير أن هذه السياسية لم تؤدِّ إلى استقرار وضعه بل على العكس هدَّدت حكمه بين الفينة والفينة، ولولا نجاحه في مقاومة الصليبيين وإقامة إمارة حاجزة في الموصل، بينهم وبين العراق لكان من المحتمل أن تتعرَّض إمارته لخضات سياسية شديدة وخطيرة، ربما أودت بجهوده في بناء دولة[2].

المبحث الرابع
توسع عماد الدين في شمال بلاد الشام وإقليم الجزيرة
(٥٢١هـ ـــ ٥٤١هـ/١١٢٧ ـــ ١١٤٦م)

بدأ عماد الدين زنكي محاولاته لتوحيد المنطقة بضم المدن التي حوله والقريبة منه، بسبب ضعفها وتفرقها وضيق مساحتها وكان ولاة الموصل الذين سبقوه قد عجزوا عن اكتساحها وبالتالي عن تحويل السلطة الرسمية التي منحهم السلاجقة إياها، بحكم الموصل والجزيرة وشمالي الشام، إلى سلطة فعلية، ولذلك سعى زنكي للقضاء على هذه المواقع المستقلة كي تغدو سلطته في هذه المناطق أمراً واقعاً. كانت البوازيج ـ الواقعة على طريق الموصل، عند مصب الزاب الأسفل ـ أولى المواقع التي استولى عليها زنكي وذلك لدى توجهه إلى الموصل عام (521هـ) لتولي مهام منصبه، مستهدفاً من وراء ذلك اتخاذها خط رجعة له لحماية ظهره في حال تصدى وصي حاكم الموصل لزحفه، ثم استمر في سيره نحو الموصل، وعندما وصل جاولي نبأ تقدمه على رأس قوات حاشدة، يحمل معه منشور السلطان بحكم الموصل أدرك أن ليس في طاقته التصدي له وآثر السلامة، فخرج لاستقباله يصحبه أمراء الموصل وقادتها، وما أن التقى به حتى ترجل وقبَّل الأرض بين يديه وأعلن طاعته له، فأقطعه زنكي مدينة الرحبة وأعمالها، وسيّره إليها[3].

أولاً: جزيرة ابن عمر ٥٢١هـ

بعد أن رتب عماد الدين زنكي أوضاعه في الموصل، أراد الانتقال إلى جزيرة ابن عمر

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 98.
(2) المصدر نفسه، ص: 98.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 69، 70.

وسار بقواته إليها بمجرد وصوله إلى مشارفها، علم أعيانها وسكانها بقدومه فخافوا منه وامتنعوا عن استقباله وأغلقوا أبواب المدينة في وجهه، فضرب عماد الدين حصاره حولها وبدأ بمراسلة أعيان المدينة ومماليك البرسقي، وحاول إقناعهم بالمهادنة وبذل لهم الوعود الكثيرة إن سلّموا المدينة، غير أنهم امتنعوا عن موافقته، وعند ذلك قرر عماد الدين قتالهم وإخضاع المدينة عنوة. وكان مجرى دجلة يفصل بين جيش عماد الدين والمدينة فأمر قواته بعبور النهر إلى المدينة، فمنهم من عبر بالسفن، وبعضهم بالأكلاك[1]. ولما تكاثر جيش عماد الدين وشدّد حصاره على المدينة، كان السكان قد خرجوا إلى منطقة بين الجزيرة ودجلة تعرف بالزلاقة وكانوا بخروجهم يحاولون منع جيش عماد الدين من إكمال عبوره، ولكن عساكر عماد الدين تمكنوا من العبور وشددوا الحصار على المدينة، وجرت مناوشات بين مماليك البرسقي والمهاجمين، ظهر فيها التباين بين القوتين، ولم يمضِ وقت طويل حتى انهزم جماعة البرسقي. ولما رأى أهالي الجزيرة أن ميزان المعركة ليس في صالحهم، ضعفوا وأيقنوا أن على المدينة أن تستسلم أفضل من دخولها عنوة. فبعثوا إلى عماد الدين يطلبون منه الأمان فاستجاب لطلبهم واستلم المدينة[2]، ولعله بدأ بمهاجمة هذا الموقع قبل غيره من المدن والقلاع بسبب قربه من الموصل وأهميته العسكرية والاقتصادية[3].

ثانياً: حلب ٥٢٢هـ:

تعد حلب ذات أهمية بالغة لأية قيادة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الصليبيين، بفضل ما تتمتَّع من حصانة عسكرية، ومركز متميز، وإمكانات اقتصادية وبشرية وسياسية هامة، بالإضافة إلى موقعها على خطوط المواصلات بين فارس والعراق من جهة، وبين الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، ثم بين إمارتين صليبيتين هما: الرها وأنطاكية، وغدت مُنذ عهد طويل، قاعدة لا يمكن بدونها السيطرة على الجهات الشمالية والوسطى من بلاد الشام في الوقت الذي يمكنها فيه الاتصال بالقوى الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي بلاد الشام وأواسطه، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد، وتحقيق أهداف حاسمة ضد الصليبيين، لذلك كان ضمها من قبل أي قائد إسلامي، بمثابة فتح الطريق أمامه لتبوّء مركز القيادة في حركة الجهاد[4]. وساعدت الظروف السياسية التي كانت تمر بها إمارة حلب التي وجدت نفسها في حالة شديدة من الفوضى، عقب وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن البُرسقي في عام (521هـ/ 1127م) وتعدُّد المطالبين بالسلطة وتنازعهم،

(1) تاريخ جزيرة ابن عمر، ص: 121.
(2) المصدر نفسه، ص: 121.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 71.
(4) المصدر نفسه، ص: 71.

فقد استأثر قتلغ أبه نائب الأتابك المتوفى بإدارة شؤونها[1]، في الوقت الذي طمع فيه جوسلين الثاني أمير الرها، وبوهيمند الثاني أمير أنطاكية لاتخاذها قاعدة لمد نفوذهما باتجاه الشرق والجنوب الشرقي، وشنَّ الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها رافقها تدهور حاد في أوضاعها الاقتصادية، وانتشار الخوف والقلق بين السكان[2]، مما دفع هؤلاء إلى الالتفاف حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الأرتقي وقد تزعم الثورة ضد قتلغ أبه الذي اتصف بالتعسف[3]، ويبدو أن سليمان لم يتمكن من وضع حد لتدهور الأوضاع على الرغم من أنه عقد هدنة مع جوسلين الثاني تنازل له بموجبها عن بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية لحلب[4].

لكن يقظة عماد الدين زنكي أفسدت على الجميع خططهم ومشاريعهم وقد سعى إلى ضمِّ حلب بوصفه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي بحكم الموصل والجزيرة وبلاد الشام، ومهَّد لخطواته هذه بإرسال الرسل إليها حتى يشرحوا لسكانها أحقيته في تولي أمورها، كما أرسل حاجبه الياغسياني لتنظيم أمورها الإدارية وتمهيد الطريق له لدخولها، ثم غادر الموصل في طريقه إليها وضمّ في طريقه بزاعة[5] ومنبج، ولما وصل إلى مشارف المدينة في شهر جمادى الآخرة عام (522هـ) شهر حزيران عام (1128م) خرج سكانها لاستقباله آملين ببداية عهد جديد من الأمن والاستقرار بعدما سئموا من الفوضى التي سادت مدينتهم، فدخل القلعة وبدأ بتنظيم أمورها، وأقطع أعمالها لأمرائه وأجناده[6]، وحتى يثبت أقدامه في حلب ويقطع الطريق على المفسدين ضايق عماد الدين زنكي زعماء المدينة المعارضين لحكمه وذوي المصالح القديمة فيها، فقضى على بعضهم وفرَّ البعض الآخر من وجهه، فقتل قتلغ أبه، وفرَّ إبراهيم بن رضوان بن تتش إلى نصيبين وغادر سليمان بن عبد الجبار المدينة والتجأ فضائل بن بديع رئيس حلب السابق إلى قلعة جعبر القريبة من حلب[7].

وبذلك تحققت الوحدة بين الموصل وحلب مرة أخرى، وحصل عماد الدين زنكي على موقع هام، وأمن جانب المعارضة، وتهيأت له الفرصة للتدخل في الأوضاع السياسية لبلاد الشام لتوحيد صفوف المسلمين ومجابهة أخطار الصليبيين، كما أدَّى ذلك إلى عزل إمارة الرها عن بقية الإمارات الصليبية في الغرب والجنوب[8].

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 100.
(2) الباهر، ص: 34، 37، 38.
(3) زبدة الحلب (1/ 431)، تاريخ الزنكيين، ص: 101.
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 101.
(5) بزاعة: بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين منبج وحلب.
(6) الحروب الصليبية د. سهيل زكار (2/ 678).
(7) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 101.
(8) المصدر نفسه، ص: 101.

ثالثاً: سنجار والخابور وحرّان وإربل والرقة:

1 ـ سنجار والخابور:

لم يتعرض زنكي ـ حين توجهه إلى حلب ـ للمدن والحصون الواقعة على الطريق بينها وبين الموصل، إذ كانت الظروف تستدعي منه أن يضع يده على حلب أولاً، ثم ينطلق لغرض سيطرته على المواقع الأخرى من أجل تأمين الطريق إلى الشام وما إن أقرّ الأوضاع في المدينة المذكورة حتى اتجه في أواخر عام (522هـ) للاستيلاء على سنجار والمناطق المجاورة[1] وفرض الحصار عليها، إلا أن أهاليها امتنعوا عليه، وإذ لم يروا من مقاومتهم جدوى إزاء إصرار زنكي على اقتحام المدينة، اضطروا إلى مصالحته وتسليم سنجار إليه[2]. ثم ما لبث أن أرسل من هناك بعض قواته إلى الخابور[3]، حيث تمكنت من الاستيلاء عليه[4]. وكانت سنجار تقع وسط الطريق بين الموصل وحلب، وتشكل منطلقاً للسيطرة على المناطق الأخرى[5] ولذا فقد حقق زنكي باستيلائه عليها نصراً هاماً[6].

2 ـ ضمُّ حرّان:

كانت حرّان تابعة لعز الدين مسعود بن البُرسُقي وكانت قد تعرضت بعد وفاته لتهديدات الصليبيين الذين كانوا قد استولوا على بعض المواقع القريبة منها كالرها وسروج، فاستدعى أهلها عماد الدين زنكي في عام (523هـ/ 1129م) إذ انتهت المشكلة بوفاة سوتكين[7].

3 ـ ضمُّ إربل:

أدرك عماد الدين زنكي أهمية إربل العسكرية بالنسبة للموصل، إذ هي بمثابة الباب الشرقي الذي يصلها ببلاد فارس والمشرق، ونقطة الدفاع الرئيسية في الطريق الذاهب غرباً صوب الشام، وعندما أتيحت له فرصة مهاجمتها لم يتردد رغم كونها ممتلكات مسعود بن محمد السلجوقي سلطان أذربيجان فهاجمها عام 526هـ وشدد النكير عليها، إلا أن حاميتها استطاعت أن تصمد لحين تقدم السلطان مسعود لنجدتها، فاضطر زنكي إلى الانسحاب، ثم رأى مسعود أن يضحي بهذا الموقع كي يكسب زنكي إلى جانبه في صراعه ضد منافسيه من

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 74.
(2) الباهر، ص: 37، الكامل في التاريخ (8/ 661).
(3) عماد الدين زنكي، ص: 74.
(4) الباهر، ص: 37، الكامل في التاريخ (8/ 661).
(5) عماد الدين زنكي، ص: 74.
(6) المصدر نفسه، ص: 74.
(7) مفرج الكروب (1/ 84)، تاريخ الزنكيين، ص: 102.

أجل الحصول على عرش سلاجقة العراق، فوافق الأخير على اتفاق كهذا يتيح له ضم موقع هام إلى إمارته قد يساعده في المستقبل على التوغل شرقاً، وبعد أن أخذ كل من الحليفين العهود من صاحبه تسلم زنكي إربل وعين فيها نائباً عنه[1].

4 ـ ضمُّ الرقة[2]:

مرّ عماد الدين زنكي بالرقة في عام (529هـ/ 1135م) وهو في طريقه إلى دمشق في محاولة لضمّها فرأى أن يضمها إلى أملاكه، فانتهز هذه الفرصة ونفَّذ خدعة ذكية فأعلن رغبته بالاستحمام في حمام البلد، فقام حاجبه الياغسياني بتدبير هذا الأمر واتفق مع مسيِّب بن مالك صاحب الرقة الذي لم يشك في نوايا عماد الدين زنكي ورجاله، على السماح للجيش بدخول المدينة، وما إن أصبح آخر جندي داخل السور حتى أمر عماد الدين زنكي قواته للاستيلاء على المدينة، فأبعد المسيِّب وأقطعها أحد أمرائه[3].

6 ـ ضمُّ دقوقا[4] وشهرزورا[5]:

وضم عماد الدين زنكي دقوقا في عام (531هـ/ 1137م) عنوة[6]، ودخل بعد ثلاث سنوات قلعة شهرزور الواقعة وسط سهل واسع يمتد من إربل إلى همذان ويقطنه الأكراد[7] وقد ارتبط هذا الضمُّ بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بين الأمير قفجاق بن أرسلان تاش التركماني حاكم شهرزور وبين السلطان السلجوقي مسعود فخشي عماد الدين زنكي أن يتنازل الأمير التركماني عن بعض أملاكه للسلطان ومنها شهرزور فيغدو مجاوراً لإمارة الموصل، فيشكل عندئذ خطراً جدّياً عليه[8].

6 ـ التوسع باتجاه الجنوب:

توسع عماد الدين زنكي بين عامي (536هـ ـ 538هـ/ 1141 ـ 1143م) في الجنوب

---

(1) مفرج الكروب (1/ 97) عماد الدين زنكي، ص: 76.

(2) مدينة على الفرات بينها وبين حرّان ثلاثة أيام معدودة.

(3) زبدة الحلب (2/ 450) تاريخ الزنكيين، ص: 76.

(4) دقوقاً: مدينة بين إربل وبغداد الحموي (8/ 459).

(5) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.

(6) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 103.

(7) معجم البلدان.

(8) الباهر، ص: 57، 58، تاريخ الزنكيين، ص: 104.

الغربي، فضمَّ الحديثة الواقعة على الفرات[1]، وعانة القريبة منها[2]، وفي عام (541هـ / 1146م) كان قد بلغ درجة من القوة مما دفعه إلى ضمِّ قلعة جعبر المطلة على الفرات، عملاً بخطته القاضية: بألا يبقى وسط بلاده ما هو ملك لغيره[3]. وكانت هذه القلعة تحت حكم العقيليين، فهاجمها على حين غرَّة وحاصرها، وتوغلت قواته في ربضها واستمر القتال حتى اليوم الخامس من شهر ربيع الآخر، حيث اغتيل عماد الدين زنكي، فساد الاضطراب صفوف جيشه، فاضطر أفراده إلى فك الحصار[4]، مما سنبحثه مفصلاً بإذن الله تعالى.

رابعاً: علاقة عماد الدين زنكي بالأكراد:

1 ـ بنو أيوب حكام تكريت 526هـ ـ 541هـ:

تعتبر علاقة عماد الدين زنكي بالبيت الأيوبي الكردي متميزة وبدأت هذه العلاقة في الثاني عشر من ربيع الآخر عام 526هـ عندما انهزم زنكي في أعقاب المعركة التي دارت بينه ـ كحليف للسلطان مسعود ـ وبين قوات الملكين طغرل وداود المنافسين للسلطان المذكور[5] وانسحب بفلول جيشه نحو تكريت التي كان يحكمها نجم الدين أيوب[6]، فأقام هذه المعابر على دجلة وجهز عدداً من السفن لنقله وقواته إلى الضفة الأخرى التي تقع عليها مدينة تكريت وهناك أحسن نجم الدين إلى زنكي وجنده، وداوى جراحهم، وقدم إليهم سائر ما يحتاجون إليه، وبعد أسبوعين غادر زنكي وأتباعه تكريت مودعين بمثل ما استقبلوا به من حفاوة وإكرام[7]، وأخذ يرسل الهدايا إلى نجم الدين تباعاً اعترافاً منه بفضله وحسن ضيافته[8]. وعندما بلغ بهروز ـ شحنة بغداد ـ موقف نائبه في تكريت من زنكي بعث إليه رسولاً ليعاتبه على إحسانه لعدو سلاجقة العراق وإطلاق سراحه بعد أن كان قد وقع في يديه[9]، وازداد حرج بهروز لدى قيام أسد الدين شيركوه بقتل أحد سكان تكريت بسبب تعرضه لإحدى النساء، واضطرّ إلى إصدار أمره إلى نجم الدين بمغادرة تكريت وجميع أفراد عائلته، ولم يكن

---

(1) تقع على جزيرة وسط الفرات، وهي غير حديثة الموصل.

(2) عانة: بلدة مشهورة، بين الرقة وهيت يعد في أعمال الجزيرة.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 104.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 104.

(5) عماد الدين زنكي، ص: 76.

(6) المصدر السابق، ص: 76.

(7) المصدر نفسه، ص: 77.

(8) كتاب الروضتين (2/ 537).

(9) وفيات الأعيان (6/ 142)، عماد الدين زنكي، ص: 77.

باستطاعة بهروز معاقبة أسد الدين شيركوه لما بين الطرفين من صداقة قديمة ترجع إلى زمن أبيه[1]. وفي هذه الفترة الحرجة من أواخر عام (532هـ) ولد صلاح الدين لنجم الدين أيوب، واضطرت العائلة لمغادرة تكريت، وربما كان ذلك في الليلة التي ولد فيها الطفل المذكور[2]، ولـم يكن هناك ملجأ أكثر أمناً لهذه العائلة الطريدة من كنف الأمير الذي أحسنوا إليه قبل عدة أعوام، ولـم ينس زنكي الإحسان فاستقبل عائلة بني أيوب أحسن استقبال، وأقطع رجالاتها الإقطاعات الواسعة[3] وأتاح للأخوين نجم الدين وأسد الدين الانخراط في قواته[4] والإشراف على تربية أبنائه[5]، والاشتراك في الحروب التي خاضها في الشام ضد الصليبيين[6]، وظلت العائلة الأيوبية تنعم بحماية عماد الدين زنكي، وأخذت علاقاتها به تزداد وثوقاً يوماً بعد يوم. وعندما استولى على بعلبك عام (534هـ) عيّن نجم الدين أيوب والياً عليها وأقطعه ثلثها[7]، فاستقر هناك هو وأفراد العائلة الأيوبية[8]، وظل يمارس مهام عمله كوال لزنكي حتى مقتل الأخير عام 541هـ، وكان صلاح الدين خلال تلك الفترة قد ترعرع في كنف والده، وبدت عليه سمات النجابة والذكاء والتمعت عيناه ببريق القوة[9]. وهكذا قُدِّرَ لعماد الدين زنكي أن يلعب دوراً هاماً في إظهار العائلة الأيوبية في المجالات السياسية والعسكرية والإدارية، وأن يمهد لها الطريق إلى المكانة الكبيرة التي تمتعت بها في عهد ابنه نور الدين محمود[10].

2 ـ الأكراد الحميدية:

بدأ عماد الدين زنكي بضم مناطق الأكراد الحميدية بسبب قرب حصونهم من الموصل. وكان الحميديون يقومون في كثير من الأحيان بمهاجمة قرى ومزارع الموصل الشرقية ونهب فلاحيها، مما سبَّب قلقاً وخوفاً لفلاحي الموصل، وعندما أسس عماد الدين زنكي إمارة الموصل، أقرَّ الأمير عيسى الحميدي على ولايته ولـم يعترضه بشيء مما في يده[11] إلا أن الأمير المذكور سرعان ما خرج على طاعة زنكي لدى حصار الخليفة المسترشد الموصل عام (527هـ)، حيث انضم إليه بجيوشه وأمده بالأقوات، وحشد له عدداً كبيراً من

---

(1) الباهر، ص: 119، عماد الدين زنكي، ص: 77.
(2) وفيات الأعيان (6/ 143، 144)، عماد الدين زنكي، ص: 77.
(3) كتاب الروضتين (2/ 538).
(4) الباهر، ص: 119، عماد الدين زنكي، ص: 77.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 77.
(6) كتاب الروضتين (2/ 538)، عماد الدين زنكي، ص: 77.
(7) الكامل في التاريخ (8/ 750)، عماد الدين زنكي، ص: 78.
(8) عماد الدين زنكي، ص: 78.
(9) المصدر نفسه، ص: 78.
(10) المصدر نفسه، ص: 78.
(11) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 105.

الأكراد، وما أن فشل الحصار وانسحب المسترشد عائداً إلى بغداد حتى بدأ زنكي هجومه على قلاع الحميدية، فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً حتى أنه حمل بنفسه على حامية العقر وصعد في جبلها المرتفع إلى سورها فوصلت طعنته إليه[1]، ثم ما لبث أن استولى عليها سنة (527هـ) منهياً بذلك أسباب القلق والخوف التي كانت تسببه هجمات الحميديين على فلاحي الموصل[2]، الأمر الذي أدى ـ ولا ريب ـ إلى عودة ازدهار الحياة الزراعية والتجارية في المنطقة[3] ونتيجة لضمّ قلاع الحميدية، حقق عماد الدين زنكي هدفين:

الأول: أمَّن المركز العسكري المسيطر على أمن الموصل بفعل ما كانت تشغله الإمارة الحميدية في موقع هام.

الثاني: حصل على موطئ قدم مهد الطريق أمامه للتوغل في بلاد الأكراد الجبلية[4].

3 ـ الأكراد الهكارية:

أدرك أبو الهيجاء الهكاري، صاحب قلعة آشب، مدى قوة عماد الدين زنكي، وخطورة النصر الذي حققه على وضع الأكراد بعامة، فاستعطفه بمبلغ من المال، وتوسل إليه ألا يتعرض له، ثم ما لبث أن قدم إلى الموصل لإعلان ولائه[5]، والجدير بالذكر أن طائفة من الأكراد الهكارية تقطن في المنطقة المعروفة بهكاريا إلى الشمال في نهر الخابور الذي يصب في أعالي دجلة، وكانت قلعة آشب مركزهم الرئيسي وتنتشر حولها عدة قرى زراعية ترتبط بها وتؤمّن لها التموين الغذائي واستمرت العلاقات الجيدة بين عماد الدين زنكي وبين الهكاريين حتى عام (537هـ/ 1142م) إذ توفي في ذلك العام أبو الهيجاء فدبَّت الفوضى في إمارته بسبب النزاعات الأسرية وبرز في هذه الصراعات باو ألارجي، نائب أبي الهيجاء في حكم الإمارة الذي ساند الطفل علي بن الهيجاء ليهيمن من خلاله على شؤون الإمارة ويحكم باسمه، في حين ساند عماد الدين زنكي أخاه أحمد[6].

ونجح عماد الدين زنكي في ضمّ قلعة آشب بعد أن هزم باو وأنصاره، ثم غادر المنطقة عائداً إلى الموصل بعد أن ترك فيها نائبه نصير الدين جقر ليتم ما بدأه بضمّ منازل

---

(1) مفرج الكروب (1/ 55)، عماد الدين زنكي، ص: 105.
(2) الباهر، ص: 48، عماد الدين زنكي، ص: 105.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 105
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 106.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 106
(6) الباهر، ص: 64، عماد الدين زنكي، ص: 106.

الهكارية، فاجتاح هذا القائد القلاع المتبقية وسيطر على المنطقة[1]، واستطاع عماد الدين زنكي بهذه الانتصارات أن ينهي أعمال الفوضى والفساد في المنطقة، فحل الأمن في ربوعها وعاد نفعه قبل كل أحد على الأكراد أنفسهم، الذين تخلصوا من المنازعات الداخلية على ما يظهر، واتجهوا إلى الإنتاج، ثم ما لبث عماد الدين زنكي أن أصدر أوامره ببناء قلعة العمادية ـ نسبة إلى اسمه[2] ـ على أطلال حصن قديم كان الأكراد قد خربوه لعجزهم عن الدفاع عنه[3]؛ ويبدو أن زنكي أراد اتخاذ هذه القلعة قاعدة عسكرية للدفاع والتموين في حالات التمرد التي قد يقوم بها الأكراد ضد ممتلكاته هناك، ونقطة انطلاق لتوسيع نفوذه في المنطقة[4].

4 ـ الأكراد المهرانية:

بدأ عماد الدين زنكي هجماته على الأكراد المهرانية في عام (537هـ/ 1142م)، والجدير بالذكر أن هذه الفئة تقطن عدداً من القلاع المنتشرة في المنطقة الجبلية المتاخمة لجزيرة ابن عمر، وأهمها كواشي الواقعة في جبال الجودي، شرقي نهر دجلة، والزعفراني، والشعباني وغيرها[5] والواقع أن ضم المنطقة الخاصة بالمهرانية يُعد خطوة متممة لضمّ المنطقة الخاصة بالهكارية بفعل تجاورهما، فبعد أن انتهى عماد الدين زنكي من ضمّ المنطقة الثانية انتقل إلى ضمّ المنطقة الأولى. واستطاع أن يفرض سيطرته على عدة قلاع، منها المذكورة أعلاه، وألقت هذه الانتصارات السريعة الرعب في قلوب حاميات القلاع الأخرى المجاورة مما دفعها إلى طلب الأمان، وخضعت لحكم عماد الدين زنكي[6].

5 ـ الأكراد البشنوية:

التفت عماد الدين بعد ذلك إلى مناطق الأكراد البشنوية في بلاد الزوزان الواقعة في الأرض الممتدة من جبال أرمينية شمالاً حتى الموصل جنوباً ومن أذربيجان شرقاً حتى إقليم ديار بكر غرباً[7]، وكان أمراء البشنوية قد أنشؤوا عدداً من الحصون لعل أهمها حصن فنك المطل على نهر دجلة، واتخذوه مركزاً رئيسياً لهم نظراً لما يتمتع به من حصانة طبيعية ومتانة، وكان أميرهم آنذاك حسام الدين البشنوي قد اشترك مع عدد من الأمراء الأكراد القاطنين شمالي الموصل في إثارة الفتن والاضطرابات ضد إمارة عماد الدين زنكي، فهاجمها هذا

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 107.
(2) الباهر، ص: 64، عماد الدين زنكي، ص: 109.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 109.
(4) المصدر نفسه، ص: 110.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 107 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 107.
(7) المصدر نفسه، ص: : 107.

الأخير وأخضعها لسلطانه، باستثناء حصن فنك الذي أوكل مهمة إخضاعه إلى قائده زين الدين علي كجك في حين توجه هو لحصار قلعة جعبر، وفرض كجك الحصار على الحصن وصادف أن اغتيل عماد الدين زنكي أثناء حصار قلعة جَعْبَر فاضطر كجك إلى فك الحصار والانسحاب إلى الموصل[1]. تلك هي الجماعات الكردية التي هاجم زنكي مواقعها، واستطاع أن يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة، ويخضعها لسيطرته في أقل من عقد ونصف، بفضل قدرته العسكرية، وخططه السياسية البارعة التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة وسط فئات لا تدين له بالولاء، وقد تمكن بذلك من تأمين إحدى الجهات الهامة لإمارته بعد أن كانت تشكل نقاط خطر عليه، وأن يجعلها تستند إلى خطوط دفاعية يصعب اختراقها، تحقيقاً لخطته في بناء السياج الذي صمم على بنائه حول إمارته عندما قال يوماً: إن البلاد كبستان عليه سياج، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول[2].

خامساً: عماد الدين والإمارات المحلية في ديار بكر:

كان هدف زنكي بعد أن تمّ له الاستيلاء على حلب واتخاذها قاعدة في بلاد الشام، السيطرة على المناطق الممتدة بينها وبين الموصل والتي كان يحكمها أمراء مستقلون، عملاً بخطته القاضية: بألا يبقى في بلاده ما هو ملك لغيره، حزماً منه واحتياطاً. ذلك أنه كان يستهدف ـ كما ذكرنا ـ إنشاء إمارة موحدة قوية، تمكنه من تحقيق انتصارات حاسمة ضد الصليبيين. وكان عليه ـ لتحقيق هذا الهدف ـ اكتساح عدد من الإمارات المحلية في منطقة ديار بكر، والتي كانت تشكل خطراً على مواصلاته مع الشام، سيما في حالات صدامه مع الصليبيين[3].

أ ـ ضمّ نصيبين: بدأ عماد الدين زنكي حركته التوسعية الهادفة إلى توحيد الإمارات الإسلامية بالهجوم على نصيبين التابعة لإمارة ماردين وقد اختارها أولاً بفعل كونها أقرب المواقع إلى الجهات التابعة لحكمه، فضرب عليها حصاراً مركزاً فاستنجد حاكمها حسام الدين تمرتاش بداوود بن لقمان صاحب حصن كيفا، لصدّه وإرغامه على فك الحصار عنها، فوعده

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 108.

(2) مفرج الكروب (1/ 103)، عماد الدين زنكي، ص: 116.

(3) عماد الدين زنكي، ص: 85.

بالمساعدة[1]، كما بعث إلى أهاليها وحاميتها رسالة مستعجلة على جناح طائر، يحثهم فيها على الصمود ريثما تصلهم النجدة الأرتقية خلال فترة لا تتجاوز الخمسة أيام، إلا أن الرسالة وقعت بيد زنكي واطلع على ما فيها، ورأى أن ينتهز الفرصة لتدبير حيلة قد تساعده على تحقيق هدفه، فأمر بكتابة رسالة أخرى إلى أهل نصيبين بدلاً من الرسالة الأولى، جاء فيها: من حسام الدين تمرتاش، إنني قد قصدت ابن عمي داود وقد وعدني بالنجدة والمسير بالجيوش، وسوف لن يتأخر قدومه إلينا بأكثر من عشرين يوماً، لذا أطلب منكم الثبات طيلة هذه المدة[2] وبعث الرسالة على جناح الطائر نفسه، ولم يشك النصيبيون لحظة واحدة بأنها وردت إليهم من أميرهم الأرتقي. فخافوا على نفوسهم وأيقنوا أنهم يعجزون عن الدفاع عن البلد خلال هذه المدة الطويلة، لذا أرسلوا إلى زنكي وصانعوه وسلموا مدينتهم إليه فبطل على حسام الدين وداود ما كانا قد عزما عليه[3]. وبفتح نصيبين انفسح الطريق أمام زنكي لتحقيق أهدافه ضد إمارات ديار بكر، إذ اتخذ من هذا الموقع قاعدة عسكرية في المنطقة للهجوم على المواقع المجاورة[4].

ب ـ معركة دارا: مهد ضمُّ نصيبين الطريق أمام عماد الدين زنكي لتحقيق أهدافه في ديار بكر بعد أن تأكد عن عجز الحكام المحليين عن مواجهته، إذ غدا هذا الموقع قاعدة انطلاق للانتشار في المنطقة، ومن جهتهم أدرك أمراء هذا الإقليم مدى خطورة توسع عماد الدين زنكي على أملاكهم، فتداعوا في عام (524هـ/ 1130م) إلى عقد حلف للوقوف في وجهه، اشترك فيه الأميران الأرتقيان حسام الدين تمرتاش وابن عمه ركن الدولة داود، وانضمَّ سعد الدولة أبو منصور إيكلدي صاحب آمد إلى الحلف، بالإضافة إلى عدد كبير من أمراء التركمان الموالين لداوود[5]، ولما سمع عماد الدين زنكي بحشود الأمراء قرّر مباغتة القوم قبل أن يتهيؤوا للقتال، فانطلق على رأس أربعة آلاف مقاتل، والتقى بهم بالقرب من دارا[6] التابعة لتمرتاش، وانتصر عليهم. كانت النتيجة الفورية للمعركة سيطرة عماد الدين زنكي على عدد من المواقع القريبة كحصن سرجي[7] ودارا[8]، وحتى يعرقل توغله في المنطقة، قرّر داود

(1) التاريخ الباهر، ص: 36.
(2) المصدر نفسه، ص: 36، 37، عماد الدين زنكي، ص: 86.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 87.
(4) المصدر نفسه، ص: 87.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 110.
(6) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين.
(7) سرجي أو سرجة: حصن بين نصيبين ودُنسير ودارا.
(8) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 111.

مهاجمة جزيرة ابن عمر التابعة للموصل، مما دفع عماد الدين زنكي إلى ترك ديار بكر والتوجه إليه لإيقافه عند حده لكنه لم يتمكّن من التوغل بعيداً بسبب وعورة المسالك، وانتشار التركمان في المنطقة، فاكتفى باستقطاب السكان في الجهات التي بلغها ثم قفل عائداً[1].

3 ـ أساليب سياسية من عماد الدين زنكي لإحداث انشقاق وتنافر في صفوف الأراتقة:

أدرك زنكي، إثرَ هذه الأحداث، مدى الخطر الذي يشكله التحالف بين أمراء ديار بكر ضد مطامحه في المنطقة، فرأى أن يلجأ إلى الأساليب السياسية عَلّها تُتيح له إحداث انشقاق وتنافر في صفوف أولئك الأمراء كي يسهل عليه ـ بعد ذلك ـ اقتطاع أراضيهم وممتلكاتهم. واعتقد أن خير ما يبدأ به خططه السياسية هو إيجاد تحالف متين مع أحد هؤلاء الأمراء والاستعانة به ضد الآخرين وكان من الصعب عليه تحقيق هذا التحالف مع غريمه اللدود ركن الدولة، لما كان يتميز به هذا من حقد ورغبة بإنزال الضربات بعدوه وتحيُن الفرص للانقضاض على ممتلكاته[2]، كما أن زنكي لم يشأ أن يتخذ من صاحب آمد حليفاً له، لضعف إمكانياته وعدم قدرته على تقديم مساعدات مجدية في حال نشوب قتال بين أمير الموصل والأراتقة، ولم يبق أمامه إذن سوى حسام الدين تمرتاش الذي كان أكثر مرونة من ابن عمه داود، لذا أخذ يتقرب إليه، وأوقف مهاجمته لممتلكاته وسرعان ما أحس الأمير الأرتقي باتجاه زنكي الودي منه، ورأى أن التضحية بابن عمه داود لابد منها في سبيل كسب حليفه الجديد، وائتمان جانبه، والسعي ـ عن طريق هذا التحالف ـ للحصول على مزيد من المكاسب في المنطقة[3].

أ ـ مهاجمة حصن آمد: شهد عام (528هـ) لقاءً ودياً بين الحليفين انطلق بعده مباشرة لمهاجمة الحصن المنيع آمد، وفرضا الحصار عليه، فأرسل صاحبه سعد الدولة إيكلدي سنة (503هـ ـ 536هـ) يستنجد بداود الأرتقي، وسرعان ما جمع هذا جيوشه ومتطوعيه من التركمان واتجه لفك الحصار عن آمد، وهناك عند أسوار هذا الحصن حدث اللقاء بين الطرفين في أواخر جمادى الآخرة من ذلك العام، وانتهى القتال بهزيمة داود وأسر ولده ومقتل عدد من جنده، بينما استمر حصار زنكي وحليفه لهدفهما المنيع، وكي يلقيا الفزع

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 111.
(2) مفرج الكروب (1/ 52).
(3) عماد الدين زنكي، ص: 88.

واليأس في نفوس أصحابه قاما بتخريب واسع النطاق في البساتين والمزارع المجاورة إلا أن آمد صمدت وأقنعت المهاجمين بعدم جدوى البقاء طويلاً ورضي زنكي من صاحبها ـ لقاء فك الحصار ـ تقديم مقدار من المال[1] ثم اتجه الحليفان بعد ذلك إلى قلعة الصَوْر[2] القريبة وهي من ممتلكات داود ويحكمها ابنه قرا أرسلان فحاصراها وأرغماها على الاستسلام، وأهداها عماد الدين زنكي لحليفه تقديراً لمساعداته وتأكيداً لتحالفهما[3].

ب ـ اتساع شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داود: نتيجة لهذا الانقسام في الصف الأرتقي، اتسعت شقة الخلاف بين تمرتاش وبين ابن عمه داود وبدت في الأفق السياسي بوادر نزاع مسلح بينهما في الوقت الذي ازداد فيه التحالف بين تمرتاش وعماد الدين زنكي متانة وصلابة. وقام الحليفان بشن هجوم مشترك على جبل جور[4] والسيوان في عام (530هـ) وتمكّنا من ضمهما، ومنحهما زنكي لحليفه تماشياً مع خطته في تقوية التحالف معه[5]، وأدت هذه الانتصارات السريعة إلى إلقاء الرعب في روع قرا أرسلان بن داود الذي أدرك أنه أمام عدو صلب قوي وبالتالي عدم جدوى المقاومة، فغادر المنطقة إلى قاعدة أبيه في حصن كيفا، تاركاً مناطق ولايته لقمة سائغة في يد عماد الدين زنكي، وحاول تمرتاش الإفادة من تحالفه مع عماد الدين زنكي في توسيع رقعة إمارته بضم بعض المواقع القريبة، وتمكَّن في عام (530هـ/ 1136م) من ضم قلعة الهتَّاخ[6]، وهي آخر الحصون المروانية في ديار بكر[7].

ج ـ تعرّض التحالف الزنكي الأرتقي إلى الاهتزاز: تعرّض التحالف الزنكي ـ الأرتقي إلى الاهتزاز في عام (533هـ/ 1138م) وبدا في الأفق السياسي ما يشير إلى فتور في العلاقات بين الحليفين ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى: التجاء الأمير أبي بكر نائب عماد الدين زنكي في نصيبين إلى حسام الدين تمرتاش، بعد ما خرج عليه، فرفض الأخير تسليمه إلى عماد الدين

(1) زبدة الحلب (2/ 253)، عماد الدين زنكي، ص: 89.

(2) الصَوْر: قلعة حصينة عجيبة على رأس جبل قرب ماردين بين الجبال من أعمال ماردين.

(3) الاعتبار لابن منقذ، ص: 199، 201، تاريخ الزنكيين، ص: 112.

(4) جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية.

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 112.

(6) الهتاخ: قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافارقين.

(7) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 112.

زنكي رغم إلحاحه وجرت بينهما منازعات طويلة بسبب ذلك، فاضطر تمرتاش إلى تسليمه إلى السلطان مسعود الذي سلمه بدوره إلى عماد الدين زنكي لينال عقابه[1].

د ـ عودة الوئام بين تمرتاش وداود: أدرك كل من تمرتاش وداود أن هذا الخلاف الذي اشتد بينهما واتسع إلى درجة الحرب والتخريب لن يفيد أياً منهما بقدر ما يعود بالمكاسب على زنكي الذي قد يستغله بشكل دائم لتحقيق مزيد من الانتصارات في المنطقة، وبالتالي إضعاف قوى الأراتقة جميعاً، كي يصبحوا بعد ذلك هدفاً سهل المنال، لذا قام كل من الأميرين الأرتقيين بتبادل الرسل في مطلع عام 536هـ، وأسفرت المفاوضات عن عقد صلح بينهما وما لبث داود أن اتجه إلى ميافارقين حيث اجتمع بابن عمه بعد سنين طويلة من العداء[2].

هـ ـ سعي عماد الدين زنكي في كسب حليف جديد: لم يغب عن زنكي أن الصلح الذي تم بين الأراتقة سيكون على حسابه للحد من مطامحه في المنطقة، فسعى إلى اتخاذ إجراءات سياسية تكفل عدم انعزاله من جهة، واكتساب حليف جديد ضد منافسيه في المنطقة من جهة أخرى، وقد تمكن ـ في أقل من عام ـ من تحقيق هدَفيه هذين، وذلك بأن أرسل إلى صاحب آمد[3] يتهدده، واستطاع أن يحصل على مركز قوي في ديار بكر، وأن يستغل هذا المركز لمدّ نفوذه هناك، والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من الحصون الكثيرة المنتشرة في المنطقة والتابعة لعدد من الأمراء، كي يتسنى له بعد ذلك القيام بخطوته الحاسمة، وهي الانقضاض لإسقاط حكم بني أرتق الذي يقف عائقاً دون تحقيق هدفه الرئيسي في توحيد بلاد الموصل والجزيرة وشمالي الشام[4].

و ـ حملة عسكرية واسعة من عماد الدين زنكي: وشهدت أواخر عام (537هـ) ومطالع العام التالي قيام زنكي بحملة واسعة ضد عدد كبير من الحصون الواقعة في أقاصي ديار بكر والتابعة لأمير يدعى: يعقوب بن السبع الأخمر الذي لم تُشر المصادر ـ بوضوح ـ إلى تاريخه السياسي، وهويته وطبيعة علاقاته بأمراء ديار بكر[5]. وقد تمكن زنكي في حملته هذه

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 113.
(2) عماد الدين زنكي، ص: 92.
(3) المصدر نفسه، ص: 92.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 93.
(5) المصدر نفسه، ص: 94.

ـ من الاستيلاء على مدينة طنزة، والسعرد والمعدن[1] وحيزان[2]، وحصن الزوق[3]، وفطليس[4] وباتاسا[5]، وحصن ذي القرنين[6]، وأنيرون[7]، وقام بترتيب أوضاع هذه المواقع والحصون، ووضع في كل منها حامية عسكرية لتدافع عنها ضد هجمات الأعداء[8] وأسرع زنكي ـ بعد إنجازه هذه الانتصارات ـ بالتوجه إلى ميافارقين لتنفيذ الخطة السرية التي رسمها مع شرف الدين حبشي وزير تمرتاش وعسكر بقواته الكبيرة في إحدى ضواحيها القريبة المسماة (تل بسمي) أملاً أن يقوم حبشي، المقيم في ميافارقين، بفتح الأبواب لدخول قواته والسيطرة على المدينة والقلعة دون إراقة قطرة من دماء، إلا أن الخطة اكتشفت، واتفق رجلان من كبار أعيان البلد ومسؤوليه على اغتيال حبشي وإنهاء الخطر المحدق بميافارقين[9]، فتسللا إلى خيمته ليلاً وضرباه بالسيوف، ثم حملا رأسه إلى تمرتاش في ماردين، وسرعان ما انتشر نبأ الحادثة، فاضطرب جيش زنكي وعمته الفوضى، واضطر قائده إلى الانسحاب، إذ أن مقتل حبشي المفاجئ جعل من الصعوبة بمكان الاستيلاء على ميافارقين، فقفل عائداً إلى نصيبين[10]. وفي مطلع العام التالي (539هـ) توفي داود بن سقمان صاحب حصن كيفا، فخلفه ابنه فخر الدين قرا أرسلان ويبدو أن هذا الأخير لم يكن يتمتع، كأبيه، بمقدرة سياسية أو عسكرية فرأى أن خير وسيلة لإيقاف عماد الدين زنكي هي إعادة التحالف القديم بين إمارتي حصن كيفا وماردين، فقام بالخطوة الأولى في هذا السبيل فصاهر تمرتاش[11] واستغل عماد الدين ضعف قرا أرسلان، فتوسع على حسابه، وضمّ مناطق واسعة من إمارة الحصن، وقد أدّت العمليات العسكرية التي نفَّذها إلى تعميق الخلاف بينه وبين تمرتاش وبخاصة أنه هاجم قلعتي الجور والسيوان وضمهما إلى أملاكه، بعد أن كان قد منحهما لهذا الأخير والواقع أن عماد الدين زنكي لم يأبه لهذا النزاع بعد أن أضحى مركزه قوياً في ديار بكر، فقرّر استئناف هجماته على الأملاك الأرتقية، فاتجه إلى آمد في محاولة لضمها إلا أنه انهمك بمهاجمة إمارة الرها الصليبية، فأنقذ تمرتاش من هجوم جديد ضد أملاكه[12].

---

(1) تقع قريباً من منابع نهر دجلة سميت بذلك بسبب كثرة معدني الحديد والنحاس.
(2) بلد كثير الأشجار والبساتين.
(3) عماد الدين زنكي، ص: 94.
(4) المصدر نفسه، ص: 94.
(5) المصدر نفسه، ص: 94.
(6) المصدر نفسه، ص: 94.
(7) المصدر نفسه، ص: 94.
(8) المصدر نفسه، ص: 94.
(9) المصدر نفسه، ص: 94.
(10) عماد الدين زنكي، ص: 95.
(11) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 115.
(12) المصدر نفسه، ص: 115.

ز ـ موقف عماد الدين من إمارة أرمينية: لابد قبل الانتهاء من سرد وتحليل علاقات زنكي بأمراء أرمينية المتاخمة لذلك الأقليم[1]، إذ أرسل في عام (528هـ) يطلب خطبة ابنه سمكان القطبي الذي كانت زوجته قد تولت الوصاية على شؤون الإمارة مُنذ وفاته عام (505هـ)، وصادف في الوقت نفسه أن تقدم حسام الدولة بن دلماج أمير بدليس المجاورة، يخطب هذه الفتاة لابنه، الأمر الذي أغضب زنكي أشد الغضب، واعتبر الموضوع بمثابة تحدّ لرغبته، فتقدم على رأس قواته إلى خلاط، سالكاً بجنده الطرق الجبلية الوعرة غير المسلوكة، من أجل أن يبلغ هدفه بأسرع وقت ممكن[2]. فكان الجيش بغير خيام وكل جندي في موضعه من الطريق[3]. وعندما وصلوا خلاط ضربوا خيامهم قريباً منها، واتجه زنكي مع كبار أفراد حاشيته إلى القلعة لكتابة المهر. وما أن أتم ذلك حتى قام بإرسال حاجبه الياغسياني إلى بدليس، على رأس قسم من قواته، لتأديب صاحبها، إلا أن هذا استطاع إقناع قائد زنكي بالعودة إلى سيده مقابل مبلغ من المال[4].

وهكذا اعتمد زنكي رابطة الزواج لتعزيز علاقته بإمارة أرمينية وكسب بذلك صديقاً جديداً، ربما حصل على مساعدته خلال عملياته العسكرية في المناطق القريبة من أرمينية، أو ضمن حياده على الأقل، سيما وأن هذه الإمارة كانت تجاور أعداءه في ديار بكر ومناطق الجبال الكردية، مما كان يحتم إبعادها عن الدخول في الصراع إلى جانب هؤلاء الأعداء ولم يحاول زنكي ـ من جهة أخرى ـ أن يتوسع على حساب هذه الإمارة، ربما لبعدها عن حدود ممتلكاته، وعدم تشكيلها خطراً مباشراً عليه، حيث يفصل بين الطرفين عدد من الإمارات والمواقع المستقلة في أقاليم الجبال وديار بكر، امتصت معظم جهوده خلال صراعه الطويل مع أمرائها، هذا إلى أن المنشور الذي منحه السلطان السلجوقي لزنكي، نص على توليته الموصل والجزيرة والشام، دون أية إشارة إلى أرمينية وفضلاً عن هذا وذاك، كان هدف زنكي الرئيسي العمل على توحيد المواقع الإسلامية التي تخدمه في صراعه ضد الصليبيين، ولم تكن أرمينية ذات غناء كبير في هذا المجال، وأخيراً لا بد أن نلاحظ بُعد نظر زنكي في سياسته التي استهدفت عدم إضعاف الإمارة المذكورة التي كانت بمثابة حزام واقٍ ضد هجمات الخزر والقفجاق القاسية على الجهات الشمالية من آسيا الصغرى وأرمينية، أولئك الذين كانوا يشكلون خطراً على المناطق المجاورة[5].

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 96.
(2) المصدر نفسه، ص: 97.
(3) المصدر نفسه، ص: 97.
(4) المصدر نفسه، ص: 97.
(5) المصدر نفسه، ص: 98.

سادساً: عماد الدين زنكي، وأمراء دمشق:

1 ـ ضمُّ حماة:

أدرك عماد الدين زنكي أنه لا يستطيع مواصلة الجهاد ضد الصليبيين إلا إذا ضمّ دمشق والمدن المحيطة بها إلى أملاكه، وأقام محور الموصل حلب دمشق لأن قطع الشام عن الجزيرة كان يجعله محتاجاً إلى البقاع وحوران لتموينه بالحبوب، بالإضافة إلى هدف سياسي يعود إلى وجود مملكة بيت المقدس اللاتينية في الجنوب. والواقع أن ممتلكات المسلمين في بلاد الشام كانت تتوزع آنذاك بين ثلاث قوى:

أ ـ محورها بوري بن طغتكين، أتابك دمشق الذي يسيطر على دمشق وحماة في الشمال وحوران في الجنوب، والجدير بالذكر أن آل طغتكين ورثوا حكم هذه المنطقة الحيوية من سلاجقة الشام، وكانت مشكلتا دمشق الرئيسيتان تتمثلان في تجنُّب قوة الزنكيين في الموصل وحلب، وقوة الصليبيين في بيت المقدس، والاحتفاظ بالسيطرة على السهلين الزراعيين، البقاع في الشمال الغربي، وحوران في الجنوب الشرقي، اللذين يؤمّنان لها القمح والعلف.

ب ـ محورها صمصام الدولة خير خان بن قراجا، أمير حمص.

ج ـ محورها سلطان بن منقذ، الأمير العربي الذي يسيطر على شيزر.

وحتى يحقق هذا الهدف كان عليه أن يضم حماة وحمص أولاً الواقعتين على الطريق المؤدي إلى دمشق نظراً لما يمنحه ذلك من قواعد عسكرية هامة، ومراكز للتموين لا يمكن الاستغناء عنها عند القيام بهجوم ضد المدينة الأخيرة أو فرض الحصار عليها[1]، ورأى عماد الدين زنكي أن يستعمل الأساليب والمناورات السياسية لضمّ حماة وحمص، ويتجنَّب ما أمكن استعمال القوة، فأرسل إلى بوري بن طغتكين في دمشق يخطره بنيّته في محاربة الصليبيين، ويلتمس منه المساعدة، فكتب بوري إلى ابنه سونج في حماة يأمره بالخروج من عسكره لنجدة عماد الدين زنكي، كما أرسل من دمشق قوة عسكرية مؤلفة من خمسمائة فارس، لتنضمَّ إلى القوات الإسلامية. رحب عماد الدين زنكي بقدوم سونج، وأحسن لقاءه، لكنه لم يلبث أن قبض عليه، وعلى عدد من أمرائه وقادته، وأرسلهم إلى حلب ثم تقدم مسرعاً إلى حماة، منتهزاً خلوها من الدفاعات، ودخلها في شهر شوال عام 524هـ/ شهر

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 116.

أيلول عام 1130م سلَّمها لحليفه خير خان صاحب حمص الذي كان يرافقه في عملياته[1].

2 ـ محاولة ضمِّ حمص:

ويبدو أن هذه الخطوة كانت خدعة من عماد الدين زنكي ليطمئن حليفه قبل أن يضربه، وفعلاً انقلب عليه بعد ذلك، فقبض عليه، وأمره بمراسلة أهل حمص لتسليمه المدينة قبل أن يرسله إلى حلب، ثم أسرع بمهاجمتها[2]. إلا أن أهالي حمص قاتلوا ببسالة كبيرة، اضطرت زنكي ـ أخيراً ـ إلى فك الحصار والعودة إلى حلب[3]. حيث أرسل من هناك كلًا من خير خان وسونج وأمرائه لكي يعتقلوا في الموصل. ثم ما لبث بوري أن أخذ يراسل زنكي ملتمساً إطلاق سراح ابنه، وأخيراً تمت موافقة أمير الموصل على إعادة المعتقلين إلى دمشق مقابل تسليمه دبيساً بن صدقة ـ أمير الحلة ـ الذي كان محتجزاً آنذاك في دمشق[4]. أما خير خان فقد بقي في السجن حتى مقتله عام (529هـ)[5] ثم ما لبث زنكي أن قام في العام التالي بهجومه الثاني على حمص، لكنه جُوبه بنفس المقاومة الشديدة، فآثر الانسحاب انتظاراً لفرصة مواتية أخرى[6]، وفي السنة التالية توفي بوري حاكم دمشق، فأعقبه في الحكم ابنه إسماعيل الذي كان أكثر طموحاً واندفاعاً من أبيه، فعزم على مهاجمة حماة، وتمكن من استردادها في شوال عام 527هـ بعد أن أبدت حاميتها مقاومة عنيفة[7].

3 ـ محاولة التفاهم مع حكام دمشق:

حدث في شهر رجب عام 526هـ/ شهر حزيران عام 1132م أن توفي بوري بن طغتكين، فخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل الذي اتصف بالطموح والاندفاع الزائد، ونجح هذا الحاكم الجديد في استعادة حماة في أول شهر شوال عام 527هـ/ شهر آب عام 1133م[8]، مستغلاً انهماك عماد الدين زنكي بمشاكله مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية غير أن إسماعيل لم يلبث أن أساء السيرة، وبالغ في ظلم الأهالي ومصادرة أموالهم، كما أسرف في التخلص من معارضيه، حتى أضحى كل شخص يخشى على حياته، فاضطربت أحوال دمشق، وتألّب الجميع عليه[9]، وكان قد أدرك إصرار عماد الدين زنكي على مهاجمة دمشق

---

(1) زبدة الحلب (2/ 440)، تاريخ الزنكيين، ص: 116.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 117.

(3) عماد الدين زنكي، ص: 120.

(4) المنتظم (10/ 20).

(5) مفرج الكروب (1/ 71).

(6) عماد الدين زنكي، ص: 121.

(7) الاعتبار، ص: 97، 98، عماد الدين زنكي، ص: 121.

(8) ذيل تاريخ دمشق، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 117.

(9) المصدر نفسه.

وصعوبة الصمود بوجهه والنقمة تحيطه من كل مكان قرر القيام بمناورة استهدف من ورائها كسب زنكي إلى جانبه ضد خصومه الدمشقيين، فكاتبه عام (529هـ) يطلب منه القدوم إلى دمشق لتسليمها إياه طوعاً، وشرط عليه ـ لقاء ذلك ـ أن يمكنه من الانتقام من خصومه، وأبلغه أنه إن لم يسرع بتلبية طلبه قام باستدعاء الصليبيين، وسلمهم دمشق، وكان إثم المسلمين في عنق زنكي. ثم ما لبث إسماعيل أن شرع بنقل أمواله وممتلكاته إلى صرخد، استعداداً لتسليم دمشق لأمير الموصل. غير أن كبار أمراء دمشق وقادتها أوضحوا لوالدته ـ ذات النفوذ الكبير في الإمارة ـ العواقب الوخيمة التي ستجرها عليهم سياسة ابنها الرعناء فأسرعت بتدبير قتله، وأجلست مكانه في الحكم أخاه شهاب الدين محمود حيث بايعه الناس[1]، كان عماد الدين زنكي آنذاك قد خرج من الموصل وعبر الفرات في طريقه إلى دمشق، وعندما بلغته أنباء التغييرات التي حصلت، لم يقطع أمله في إيجاد وسيلة التفاهم مع الحكام الجدد، لذلك واصل سَيْره حتى بلغ أرباض المدينة، وأرسل رسولاً إلى حكامها للتفاوض بشأن شروط التسليم اعتقاداً منه بعدم قدرتهم على المقاومة[2].

4 ـ حصار دمشق:

الواقع أن الدمشقيين رفضوا التفاوض معه وأصروا على المقاومة. وأصر هو من جهته على مهاجمة دمشق، فضرب الحصار عليها في أوائل جمادى الأولى ونفَّذ غارات على أطرافها، فردّ عليه الدمشقيون بغارات مضادة، وتَزَعم حركة المقاومة معين الدين أنر أحد مماليك طغتكين[3]، ولما فشل في اقتحام المدينة اضطر، تحت ضغط الظروف السياسية والعسكرية المستجدَّة إلى عقد صلح مع الدمشقيين في آخر شهر جمادى الأولى عام 529هـ/ شهر آذار عام (1135م)، وقفل عائداً إلى حلب[4]، والواضح أن الظروف التي دفعته إلى فك الحصار تكمن في الأحداث التالية:

أ ـ قيام الدمشقيين بمضايقة جيشه في الوقت الذي أخذت أقواته في التناقص.

ب ـ تسلُّل بعض جنوده إلى دمشق، وانضمامهم إلى الدمشقيين.

ج ـ بَعَثَ حكام دمشق إلى الخليفة العباسي المسترشد بالله مبلغاً من المال، قدره خمسون ألف دينار، وطلبوا منه دفع عماد الدين زنكي عنهم، وتعهدوا إذا نجح في ذلك،

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 121.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 118.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 119.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 119.

بأن يرسلوا مبلغاً مماثلاً كل سنة، فقبل الخليفة هذا العرض، وأرسل إليه يأمره بفك الحصار عن دمشق، والتوجه على رأس قواته إلى بغداد لمعاونته ضد السلطان مسعود[1]، وهكذا فشلت الجهود التي بذلها عماد الدين زنكي لضمّ دمشق، كما ظلّت هذه المدينة أمداً طويلاً تمثل عقبة في سبيل إتمام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام[2].

5 ـ تجدُّد الغارات على حمص:

تمكّن عماد الدين أثناء عودته إلى حلب، بعد أن فكَّ الحصار عن دمشق من إعادة ضمّ حماة إلى أملاكه، كما هاجم حمص، إلا أنه فشل في دخولها[3]، ويبدو أن هذه المدينة ظلت طيلة السنوات الثلاثة التالية: (530هـ ـ 532هـ/ 1135م ـ 1137م) عرضة لهجماته، إذ شهد عام (530هـ/ 1135م) محاولة أخرى لضمها، فوجد قريش بن جبرخان نفسه عاجز عن صده، فاستنجد بشهاب الدين محمود صاحب دمشق يلتمس منه إرسال من يراه كفئاً لتولي شؤون الحكم فيها على أن يعوّضه عنها بإحدى مدن إمارته، وافق حاكم دمشق على هذا العرض الذي يتيح له ضمّ مدينة كبيرة وهامة كحمص إلى إمارته فتسلمها في شهر ربيع الأول عام 530هـ/ شهر كانون الأول عام (1135م) وأقطعها معين أنر[4]، لم يركن الزنكيون إلى الهدوء وتابعوا شن الغارات على حمص بقيادة سوار بن أيتكين، غير أن المدينة صمدت وانتعشت بما كان يدخلها من الميرة والأقوات، فاضطر سوار إلى طلب التفاوض، واستقر الصلح بين الطرفين على قاعدة عدم تعرض أي منهما للطرف الآخر[5]. آمن عماد الدين زنكي دائماً بأن قيام الجبهه الإسلامية المتحدة في بلاد الشام، يجب أن يسبق أية خطوة عملية يتخذها ضد الصليبيين، فرفض من هذا المنطلق إقرار الهدنة التي عقدها نائبه في حلب، وجدَّد الهجوم على حمص في شهر شعبان (عام 531هـ/ شهر آيار عام 1137م) إلا أنه فشل في اقتحامها بسبب المقاومة الشديدة التي أبداها معين الدين أنر من جهة، وظهور بوادر تحالف خطير بين الزعماء الصليبيين من جهة أخرى، إذ قام فولك أنجو، ملك بيت المقدس، برفقة ريموند الثاني، أمير طرابلس، بنجدة المدينة[6].

6 ـ الهدنة مع حكام دمشق:

اضطر عماد الدين زنكي إلى عقد هدنة مع حكام دمشق كي يتفرغ للتصدي للصليبيين الذين احتشدوا في حصن بارين المنيع، فانتصر عليهم[7]، وتهيأت له الفرصة مرة ثانية

---

(1) المنتظم (10/ 43)، تاريخ الزنكيين، ص: 119.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 119.
(3) زبدة الحلب (2/ 451، 452)، تاريخ الزنكيين، ص: 119.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 120.
(5) المصدر نفسه، ص: 120.
(6) المصدر نفسه، ص: 120.
(7) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 120.

لمهاجمة ممتلكات آل طغتكين، وتوحيد بلاد الشام فقام في أوائل عام (532هـ/ أواخر عام 1137م) بمهاجمة بعلبك إلا أنه قنع بما بذله له صاحبها[1]، واتجه إلى حصن المجدل فاستولى عليه دون مقاومة تذكر، وإذ ذاك شعر إبراهيم بن طرغت صاحب بانياس بضعف مركزه تجاه زنكي فراسله وأعلن دخوله في طاعته، وعندما دخل الشتاء واشتد البرد، أوقف زنكي نشاطه في المنطقة[2].

7 ـ الحصار على حمص:

ومع بوادر الربيع انطلق على رأس قواته صوب حمص وفرض الحصار عليها. كان مركزه في المنطقة قد بلغ درجة كبيرة من القوّة أتاح لنفسه معها أن ينقض الهدنة التي عقدها مع حكام دمشق في العام الماضي، كما أنه باستيلائه على حصن المجدل، وفرض طاعته على صاحبي بعلبك وبانياس تمكن من السيطرة على معظم المواقع الغربية لإمارة آل طغتكين، ولم يبق أمامه، لاتخاذ طريقه صوب دمشق، سوى مدينة حمص[3]، شدد عماد الدين زنكي الحصار على حمص، وجمع عليها جموعاً كبيرة من مقاتلي التركمان استقدم من حلب فرقة عسكرية متمرسة على أساليب الحصار، وقام بشن هجماته على أنحاء المدينة، مستخدماً هذه المرة مزيداً من أساليب العنف والإرهاب، إلا أنه اضطر إلى فك الحصار وتوجه لمجابهة أخطار التحالف البيزنطي ـ الصليبي، وقد تمكن في فترة قصيرة من القضاء على هذا التحالف الذي انتهى بانسحاب إمبراطور الروم إلى بلاده[4]، وعاد زنكي إلى حصار حمص من جديد، محاولاً هذه المرة استخدام الأساليب السلمية لتحقيق هدفه، مستغلاً مركزه القوي في المنطقة إثر الانتصارات الحاسمة التي حققها ضد الصليبيين والبيزنطيين، فتقدم طالباً يد زمرد خاتون والدة شهاب الدين محمود حاكم دمشق، لعله يضمن الحصول على حمص عن طريق هذا الزواج السياسي، فأجيب إلى طلبه بعد مفاوضات قصيرة، وتمت إجراءات العقد في السابع عشر من رمضان، بعد أن تمكن من إقناع آل طغتكين بتسليمه حمصاً كجزء من الاتفاق، على أن يعوض نائبها بعدد من الحصون القريبة من دمشق، كبعرين واللكمة والحصن الشرقي، كما اشترط عليهم تزويج ابنته من شهاب الدين محمود ـ مستهدفاً من وراء ذلك ـ إقامة علاقته بهذه العائلة الحاكمة على قواعد راسخة قد تفيده في المستقبل القريب[5].

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 124.
(2) المصدر نفسه، ص: 124.
(3) المصدر نفسه، ص: 124.
(4) المصدر نفسه، ص: 125.
(5) مرآة الزمان (8/ 165)، عماد الدين زنكي، ص: 125.

8 ـ تجدُّد هجمات عماد الدين زنكي على دمشق:

ظن عماد الدين زنكي أنه بهذا الرباط العائلي ستصبح دمشق في متناول يده إلا أنه لم يكسب شيئاً، باستثناء الحصول على حمص فقط، أما ضَمُّ دمشق الذي كان هدفه الأساسي من هذا الزواج فلم يتحقق. ويقول ابن الأثير في ذلك: إنما حمله على الزواج بها ما رأى من تحكيمها في دمشق، فظن أنه يملك البلد بالاتصال بها فلما تزوجها خاب أمله، ولم يحصل على شيء، فأعرض عنها[1]. فما الذي تغير في الأوضاع السياسية في دمشق وحال بين عماد الدين زنكي وبين تحقيق هدفه؟ الواقع أنه ما إن غادرت زمرد خاتون دمشق حتى فقدت مكانتها السياسية العالية التي كانت تتمتع بها، حيث غدت الكلمة الأولى لابنها محمود وحاشيته[2]. وشكّلت سنة (533هـ/ 1139م) نقطة تحول هام في تاريخ دمشق، فقد هوجمت هذه المدينة من اتجاهين متباعدين، فقد هاجمها الصليبيون في بيت المقدس من الجنوب، في حين هاجمها عماد الدين زنكي من الشمال، ولم يدرك الدمشقيون أي الخطرين كان أشد على وضع مدينتهم، إلا أن الجنوبية شهدت هدوءاً يكاد يكون تاماً بعد حملة عام (523هـ/ 1129م)، ثم تحقق السلام بين الجانبين في عام (528هـ/ 1134م)، والذي كان من الممكن أن يتجدَّد.

أما سياسة عماد الدين زنكي تجاه دمشق، فقد اختلفت كلياً، فإنه بوصفه المدافع الأول عن المسلمين، فقد رأى توحيد صفوفهم تحت رايته، ولكن دمشق وقفت عقبة أمام تحقيق ذلك فكان عليه تذليلها وشهدت دمشق خلال (شهر شوال / شهر حزيران) تطورات سياسية متسارعة أدّت إلى مقتل شهاب الدين محمود على أيدي رجاله، وتنصيب أخ له غير شقيق هو جمال الدين محمد صاحب بعلبك.

والراجح أن معين الدين أنر كان وراء هذه الأحداث بهدف السيطرة على الحاكم الجديد والتفرد باسمه بالسلطة الفعلية. وفعلاً حقّق أنر هدفه بعد أن فوّض إليه الأتابك أمور المدينة وأقطعه بعلبك[3]. وهكذا أدّت تلك التطورات السياسية إلى ازدياد نفوذ أنر مما حمل ابن الأثير على وصفه بأنه صار هو الجملة والتفصيل[4]، ولم تكن هذه التطورات في صالح عماد الدين زنكي، كما عزَّ على زمرد خاتون التي كانت تقيم في حلب أن يقتل ابنها ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرتها، فأرسلت إلى عماد الدين زنكي، وكان في الموصل تستدعيه طالبة الثأر لولدها والسيطرة على دمشق[5]. كما أن الأمور لم تستتب للحكام الجدد بسهولة، إذ كان للأتابك جمال الدين محمد أخ يدعى: بهرام شاه، عزَّ عليه أن يتجاهله أنر

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 122.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 122.

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 123.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 123.

(5) زبدة الحلب (2/ 462) تاريخ الزنكيين، ص: 123.

بعد مقتل شهاب الدين محمود، فلجأ إلى حلب، ومنها سار إلى الموصل، طالباً مساعدة عماد الدين زنكي[1]، وبذلك تهيأت لعماد الدين زنكي فرصة أخرى للتدخل في شؤون دمشق، فأعدَّ جيشاً خرج على رأسه في (شهر ذي القعدة عام 533هـ/ شهر تموز عام 1139م) قاصداً دمشق لاقتحامها قبل أن تستتب الأمور فيها، ويبدو أنه أدرك أن مهاجمة دمشق ليس بالأمر الهين ـ هي المدينة التي أخلص أهلها لبيت بوري ـ إذ لم يكد سكانها يسمعون بأخبار الزحف باتجاه مدينتهم حتى صمَّموا على الدفاع والمقاومة، انطلاقاً من هذا الواقع وضع خطة عسكرية من شقين:

* تنفيذ حصار شديد على دمشق وعزلها عن بقية ممتلكاتها.

* تكوين جبهة مناهضة لحكامها[2].

وتنفيذاً للشق الأول هاجم بعلبك، التي كانت إقطاعاً لأنر، ودخلها في شهر صفر عام 534هـ/ شهر تشرين الأول عام 1139م ووضع يده عليها[3]، والواضح أن ضمَّ بعلبك في هذه الآونة وحمص وحماة وبانياس والمجدل من قبل، هيَّأ له تحقيق الشق الأول من خطته بعزل دمشق ومنع حكامها من الاتصال ببقية أجزاء الإمارة لطلب المساعدة العسكرية والاقتصادية الأمر الذي سيضعف من مقاومتها إلى حد كبير[4]، وتنفيذاً للشق الثاني قام، بجهود سياسية لتقوية موقفه، فراسل رضوان بن الولخشي، الوزير الفاطمي، الذي كان في طريقه إلى دمشق هرباً من ثورة الجند عليه وأغراه بالانضمام إليه، وفعلاً استجاب الوزير الفاطمي ومال إلى مساندته[5]. ويبدو أن أنر أدرك خطورة هذا التحالف على وضعه الداخلي، فسعى لإحباطه وأرسل أسامة بن منقذ إلى رضوان ليقنعه بالعدول عن هذا التحالف، وبذل له من الأموال ما أغراه[6]. وظل عماد الدين زنكي قابعاً في بعلبك حتى (شهر ربيع الأول عام (534هـ/ شهر تشرين الثاني عام 1139م)، أعاد خلالها تنظيم أمورها الإدارية وعين عليها نجم الدين أيوب، ثم زحف نحو دمشق، وعسكر في سهل البقاع، ورأى قبل أن يهاجمها استقطاب الأتابك جمال الدين لتسليمه المدينة، مقابل منحه حمص وبعلبك، إلا أن هذا الأخير رفض هذا العرض، وسانده رجال دولته وعلى رأسهم معين الدين أنر[7] عندئذٍ اضطر إلى التقدم نحو

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 123.
(2) المصدر نفسه، ص: 124.
(3) المصدر نفسه، ص: 124.
(4) المصدر نفسه، ص: 124.
(5) الاعتبار، ص: 37، 40، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 124.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 124.
(7) المصدر نفسه، ص: 125.

المدينة وفرض الحصار عليها، ودارت عدة اشتباكات بين الطرفين لم تكن حاسمة إنما جاءت لمصلحة عماد الدين زنكي، الذي أوقف القتال مدة عشرة أيام لإعطاء المحاصرين فرصة أخرى للتسليم[1]، ويبدو أن جمال الدين محمد اقتنع أخيراً بعدم جدوى المقاومة، وضرورة حقن الدماء، إلا أنه جوبه بمعارضة أنر فوجد نفسه مضطراً لاستئناف القتال[2]. وفي شهر شعبان عام 534هـ/ شهر آذار عام 1140م توفي جمال الدين محمد، مما أتاح لعماد الدين زنكي في ظل النزاع بين الورثة حول الفوز بحكم دمشق، فرصة مؤاتية لتوجيه ضربة حاسمة ضد المدينة، إلا أن أنر أسرع بتعيين مجير الدين أبق بن محمد أميراً على دمشق، فاضطر عماد الدين زنكي، الذي ضعفت نفسه وضاق صدره إلى التراجع قليلاً، بعدما رأى إصرار الدمشقيين على المقاومة لكنه استمر حصاره أملاً في انهيار الحالة الاقتصادية في دمشق، ومن استسلام المدينة[3].

9 ـ التحالف بين حكام دمشق والصليبيين:

وأمام استمرار الحصار، واشتداد الخطر الزنكي، رأى أن يستعين بالصليبيين، فأرسل أسامة بن منقذ إلى فولك أنجو، ملك بيت المقدس لإجراء مفاوضات معه تستهدف طلب المساعدة وأبدى استعداده، بأن:

أ ـ يدفع عشرين ألف دينار كل شهر، وهي نفقات القوات الصليبية التي ستأتي لمساعدته.

ب ـ يعيد له حصن بانياس بعد انتزاعه من حاكمه التابع لزنكي.

ج ـ يسلمه عدداً من كبار أمرائه ليكونوا رهائن ضماناً لحسن التنفيذ، وأوضح له أنه إذا نجح عماد الدين زنكي في ضمّ دمشق فإن مقدرات بلاد الشام ستصبح بين يديه مما يشكل خطراً كبيراً على الصليبيين وفعلاً، أدرك الملك فولك ومجلسه الاستشاري أن عماد الدين زنكي الذي بات يمتلك الموصل وحلب وحماة وحمص وبعلبك، لا ينبغي بأي حال أن يمتلك دمشق، وإلا فإن تحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام وشمالي العراق ستصبح واقعاً، وهذا معناه طردهم من الشرق الإسلامي، وأقنعتهم الظروف السياسية والعسكرية بضرورة التعاون المثمر مع أنر، وساد بينهم الشعور بأنه لا بدّ من قبول عرضه، وبخاصة أنهم

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 125.
(2) المصدر نفسه ص 125.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 125، نقلاً عن الكامل في التاريخ.

كانوا يتطلعون إلى استعادة حصن بانياس[1]، وسرعان ما اتجه الصليبيون شمالاً بقيادة فولك لنجدة حليفهم. أما عماد الدين زنكي، ظل يراقب الوضع عن كثب، وفك الحصار عن دمشق حتى لا يقع بين فكي الكماشة، وأسرع للتصدي للصليبيين منفردين قبل أن يقتربوا من دمشق وعسكر في إقليم حوران في شهر (رمضان/نيسان) بانتظار وصولهم ويبدو أن فولك، الذي كان يتقدم بحذر، فضَّل التوقف قرب بحيرة طبرية، مما دفع عماد الدين زنكي إلى معاودة حصار دمشق، بيد أن ما لبث أن فكَّ الحصار عندما سمع بتقدم الصليبيين لنجدة حلفائهم، وعاد إلى حمص وتمكَّن الحليفان من الاستيلاء على بانياس في شهر (شوال/أيار) وتسلمها فولك وفقاً للاتفاق المُبرم مع أنر. والواقع أن التحالف بين دمشق وبيت المقدس، أنقذ الأولى دون أن ينشب القتال، وتخلَّص أنر من أخطر وآخر محاولة جدّية من عماد الدين زنكي لضمِّها إلى أملاكه، الأمر الذي أعاق جهوده بتوحيد المسلمين في بلاد الشام، إلا أنه ظل على الرغم من ذلك يفكر طوال سنوات حكمه المتبقية بتحقيق هذا الهدف[2].

المبحث الخامس
جهاده ضد الصليبيين

أولاً: حال المسلمين والصليبيين قبل عماد الدين:

كان المسلمون في الشام متفرقين تكاد كل مدينة أن تكون دولة مستقلة، وأقام الصليبيون في شمال سوريا تسعة شهور بعد فتح أنطاكية قبل سَيْرهم إلى بيت المقدس واستفادوا من هذه الفترة بالإغارة على المناطق الشمالية في سوريا، وأقاموا النفوذ الصليبي محل النفوذ الإسلامي دون أن يحتكوا بالبيزنطيين، فأقاموا بذلك سداً في وجه القوات الإسلامية والبيزنطية على السواء إذا فكرت في مهاجمة أنطاكية أو غيرها من الإمارات الصليبية في المستقبل، كما جعلت الترابط بين الإمارات اللاتينية متيسراً لتستطيع إحداها أن تنجد الأخرى على جناح السرعة ـ إذا جد الجد ـ وتعقدت الأمور وتقدم الصليبيون نحو الجنوب فأسسوا مملكة بيت المقدس مستغلين ضعف الدولة الفاطمية، ودمشق عن حماية المنطقة والمدن الساحلية وبإنشاء إمارة طرابلس حدث توازن بين الصليبيين والمسلمين، فأنطاكية تواجه حلب وطرابلس تواجه مدن وادي العاصي، والرها تقع بين حلب والدولة الإسلامية في الشرق

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل ص 125، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(2) المصدر نفسه، ص: 126.

والغرب، والقدس تقع بين دمشق ومصر ونقطة التوازن، والسؤال المطروح: هل تنضم حلب إلى دمشق أو للموصل أو إلى الصليبيين[1]؟ لقد كانت بلاد الفرنجة تقتصر على سواحل سوريا وفلسطين، وتعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج، وعلى سلسلة من القلاع الضخمة المبتدئة من ذغيرة في الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية ثم كرك، وبيت جبريل، والدروم، وكان خلف هذا الخط الأول توجد القلاع الممتدة من شقيق أرنون إلى صفد والقسطل، وفي الشمال حصون عكا والكرك وبارين، ومن ورائها جميعاً المدن الساحلية الكبيرة: أنطاكية طرابلس وعكا وصور والمرقب وبيروت ويافا وعسقلان، وهي أطراف القوى الصليبية من ناحية البحر. ويقابلها من ناحية البر مرجعيون وجسر يعقوب، وبيسان، وطبريا وامتازت هذه الحدود الصليبية، أن قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية، من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين، وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين، ووسائل دينية وصحية[2].

وأما خصائص الصليبيين الاستراتيجية الإسلامية فامتازت باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين في سرعة، ففي الشمال حلب وحماه، وإلى الشرق الموصل وقلاع الجزيرة ولكنها مدن حصينة، وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب العربي والنوبة واليمن[3]. وبدأ المسلمون في مقاومة الصليبيين مُنذ اللحظات الأولى لقدومهم لكن كانت الكفة الراجحة للصليبيين فطمعوا في حلب ودمشق وفرضوا عليها الأتاوات، ويصف الحال ابن الأثير[4]: لما ملك المولى الشهيد البلاد كانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم وامتدت إلى بلاد الشام أيديهم، وضعف أهلها عن غارتهم، وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وسجستان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماه ودمشق، وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمد ومن الجزيرة إلى نصيبين ورأس العين، وأما الرقة وحران، فقد كان أهلها معهم في ذلّ وصغار، وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرحبة والبر، فكان التجار والمسافرين يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعباً ومشقة، ويخاطرون بالقرب من القبائل العربية بأموالهم وأنفسهم ثم زاد الأمر وعظم الشر حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً يأخذونها منهم ليكفوا أيديهم عنهم، ثم لم يقتنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق

(1) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 112.
(2) المصدر نفسه، ص: 112.
(3) صلاح الدين، ص: 310، قلعجي الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 113.
(4) المصدر نفسه، ص: 113

واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر البلاد النصرانية، وخيروهم المقام عند أربابهم أو العودة إلى أوطانهم والرجوع إلى أهلهم وإخوانهم، وناهيك بهذه الحالة للمسلمين ذلة وصغاراً، وللكافرين قدرة واقتساراً. . . وأما حلب فإنهم ناصفوها أعمالها حتى الرحا على باب الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام فكانت حالها أشد من هذين البلدين[1].

ثانياً: سياسة عماد الدين زنكي مع الصليبيين:

أدّت مواقف عماد الدين زنكي من الصراع ضد الصليبيين دوراً بارزاً في تحديد مستقبله السياسي، إذ دفعت السلطان محمد السلجوقي إلى توليته الموصل والجزيرة وما يفتحه من بلاد الشام، إثر وفاة واليها عز الدين مسعود بن البُرسُقي في عام (521هـ/ 1127م)، ويبدو أن السلطان اقتنع بأنه الرجل الكفء الذي يستطيع أن يملأ الفراغ الذي تركه حكام الموصل من قبل، مما يؤكد حرصه على الاستفادة من قدراته لصد الخطر الصليبي الجاثم على حدود العراق الغربية[2]. لم يمارس عماد الدين زنكي، في بداية حكمه للموصل أي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يُثبّت أقدامه في إماراته الجديدة، ويُعزّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ويوحّد ما أمكنه من الإمارات الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذي يمكّنه من التصدي لهم، ولعل ما يدل على بُعد نظره في هذا الصدد، أنه وقّع هدنة مع جوسلين الثاني أمير الرها لمدة سنتين أخذ أثناءها يوحّد سلطانه في بلاد الشام[3]، ولم تشر المصادر إلى شروطها، إلا أن ابن الأثير يذكر أنها تمّت على ما اختاره عماد الدين زنكي، ويبدو أن المشاكل التي جابهت صاحب الرها اضطرته إلى قبول هدنة لصالح عدوه المسلم، وكان هدف عماد الدين زنكي من عقد الهدنة التفرغ لضمّ حلب إلى أملاكه واتخاذها نقطة انطلاق له في بلاد الشام[4]، ونجح في تحقيق هذا الهدف، وانطلق بعد ذلك لاكتساح ما كان يقف في طريقه من حصون مستقلة وإمارات محلية منتهزاً فرصة الهدنة[5].

ثالثاً: مشكلة الوراثة الأنطاكية:

وصادف عام (524هـ) أن اجتازت أنطاكية الصليبية ظروفاً صعبة كادت أن تؤدي إلى سقوط هذه الإمارة في يد زنكي، أو بخضوعها لطاعته على الأقل. ذلك أن أميرها «بوهيمند الثاني» قتل هذا العام على أيدي سلاجقة آسيا الصغرى، فخلفته في الحكم زوجته «أليس» ابنة

---

(1) صلاح الدين، ص: 310، قلعجي، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 114.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 129.
(3) المصدر نفسه، ص: 130
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 130.
(5) عماد الدين زنكي، ص: 140.

(بلدوين) ملك بيت المقدس، وعندما استنجد الأنطاكيون بأبيها، واتجه لإنهاء المشاكل هناك، أسرعت ابنته وبعثت رسولاً إلى زنكي تعرض عليه إعلان طاعتها له مقابل إقرارها كأميرة على أنطاكية. لكن الرسول ما لبث أن قتل على يد بلدوين، الذي عثر عليه أثناء توجهه إلى أنطاكية، إلا أن ملك بيت المقدس ما أن وصل إلى هناك حتى قامت ابنته بإقفال الأبواب في وجهه، ثم ما لبثت أن أعلنت ـ مضطرة ـ خضوعها له[1] وهكذا خسر زنكي فرصة ثمينة لا تعوض، كانت ستتيح له ـ بلا شك ـ السيطرة على أهم إمارات الصليبيين في الشمال.

رابعاً: فتح الأثارب:

كان عماد الدين آنذاك قد أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر[2]، كما كانت هدنته مع جوسلين قد انتهت، فقرر البدء بالهجوم على المواقع الصليبية، مستهدفاً أشدها قرباً وخطراً على كيانه السياسي في حلب، ولم يكن غير حصن الأثارب المجاورة هو ذلك الهدف، بسبب ما كان يلحقه من إضرار بفلاحي المنطقة من المسلمين، وكان من فيه من الصليبيين يقاسمون سكان حلب كافة أعمالها الغربية، ويقومون بغارات مستمرة عليهم وقد جمعوا فيه خيرة فرسانهم، نظراً لخطورة موقعه وأهميته بالنسبة لأهدافهم في المنطقة[3]، اتجه عماد الدين زنكي إلى هذا الحصن وفرض الحصار عليه، فلما علم صليبيو الشام بذلك حشدوا قواتهم من كل مكان، وشكلوا جيشاً ضخماً اتجَهوا به لقتال زنكي، فاستشار هذا أصحابه وقادته فيما يعمل، فأجمعوا أمرهم على الانسحاب، وترك الحصن، لأن لقاء الصليبيين في بلادهم مجازفة وخيمة العاقبة، إلا أنه أجابهم أن الفرنج متى رأونا قد عدنا من بين أيديهم، طمعوا وساروا في أثرنا، وخربوا بلادنا ولا بد من لقائهم على كل حال[4]. ومن ثم سار بجيشه للقائهم بعيداً عن الأثارب، وجرت بين الطرفين معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين وقتل وأسر عدد كبير من الصليبيين. ثم ما لبث زنكي أن اتجه إلى الحصن وفتحه عنوة، وقتل وأسر معظم أفراد حاميته، ثم أمر بتخريبه[5] كيلا يكون عرضة لتهديد مستمر من قبل الصليبيين وتقدم من هناك إلى حارم الواقعة على طريق أنطاكية، وضرب عليها الحصار، فبذل له أهلها نصف دخل بلدهم والتمسوا مهادنته، فأجابهم إلى ذلك، وقفل عائداً إلى حلب[6]. وقد أشار ابن الأثير إلى نتيجة من أهم نتائج معركة الأثارب، وهي أن الأحداث في الشام أخذت تتجه اتجاهاً جديداً لصالح المسلمين الأمر الذي جعل الصليبيين يدركون أن

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 140.
(2) الباهر، ص: 39، عماد الدين زنكي، ص: 140.
(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 140.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 141.
(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 141.
(6) عماد الدين زنكي، ص: 141.

عليهم مجابهة قوة جديدة لم تكن في حسابهم، ويحولون خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع[1].

خامساً: حصن بعرين او بارين:

انهمك عماد الدين زنكي طيلة السنوات بين (525 ـ 528هـ/ 1131 ـ 1134م) بتنظيم شؤون إمارته وتوسيعها، ولم يستطيع أن يوجه اهتمامه إلى الصليبيين على الرغم من المنازعات التي نشبت بينهم إثر وفاة الملك بلدوين الثاني[2]، وفي عام (529هـ) أتيحت له الفرصة ثانية لتحقيق انتصارات جديدة في بلاد الشام، حيث قام بمهاجمة عدد من المواقع الصليبية المحيطة بحلب والتي كانت تهددها باستمرار، فضلاً عن كونها الخط الدفاعي الذي يحمي أنطاكية من هجمات المسلمين، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها: الأثارب، زردنا، تل أغدي، معرة النعمان، وكفر طاب[3]. وقد أدت هذه الانتصارات التي حققها زنكي ضد الصليبيين إلى تنبيههم إلى تزايد خطره على ممتلكاتهم في الشام، وإلى ضرورة توجيه ضربة حاسمة إليه، وراحوا يتحينون الفرصة المواتية لإنزال هذه الضربة، وبعد عامين وحينما كان منهمكاً في حصاره لحمص، قاموا بحشد جيش كبير تقدموا به مسرعين لمباغتة زنكي والقضاء عليه، وكسب حكام دمشق إلى جانبهم، وعندما سمع بذلك سار للقائهم بعيداً عن حمص كيلا يوقع نفسه في شقي الرحى بينهم وبين الحمصيين، ورأى أن خير وسيلة يستدرج بها الصليبيين إليه، وتتيح له في نفس الوقت تولي زمام المبادرة بنفسه، هو أن يظهر عزمه على مهاجمة حصن بعرين الصليبي القريب، وما أن بدأ زحفه صوب ذلك الموقع حتى تقدم إليه الصليبيون بقيادة كل من فولك ملك بيت المقدس، وريموند كونت طرابلس، ودارت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بانتصار المسلمين، وقتل وأسر عدد كبير من جند العدو وأمرائه وقادته، كان ريموند من بينهم، أما فولك فقد تمكن من الهروب إلى حصن بعرين[4].

وما لبث عماد الدين زنكي أن تقدم نحو الحصن وفرض عليه حصاراً شديداً، بينما اتجه عدد من المنهزمين من المعركة إلى بلاد البيزنطيين وأوروبا طالبين النجدة من أبناء العالم المسيحي وأمرائه قائلين لهم: إن زنكي إذا ما تمكن من الاستيلاء على بعرين، سهلت عليه السيطرة على بقية الممتلكات الصليبية في الشام، لعدم وجود من يدافع عنها، وإن المسلمين لهم نية في قصد بيت المقدس. فجمع المسيحيون جيشاً كبيراً من الصليبيين والبيزنطيين، وساروا لنجدة الحصن. إلا أن زنكي كان قد عزله عن العالم الخارجي ومنع عنه تسلل

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 141، نقلاً عن الكامل في التاريخ.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 133.

(3) زبدة الحلب (2/ 259)، عماد الدين زنكي، ص: 142.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 258، 259، عماد الدين زنكي، ص: 142.

الأخبار، كما أن تشديده الحصار على هذا الموقع الهام أدى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه، الأمر الذي اضطر أصحابه إلى طلب الصلح، فأجابهم زنكي إليه، بعد أن علم بتقدم الأعداء لنجدته، واشترط عليهم فضلاً عن تسليم الحصن تقديم مبلغ قدره خمسون ألف دينار يستعين بها على نشاطه العسكري، فلم يتردد أصحاب الحصن في قبول مطالب زنكي، بعد أن أيقنوا بعجزهم عن مقاومته، والتمسوا منه إطلاق سراح أمرائهم وكبار أسراهم، فأطلقهم، بعد أن عاملهم معاملة حسنة، وتسلم الحصن[1]. والواقع أن ما اشتهر به عماد الدين زنكي من الجلد والصبر ساعده في تحقيق أهدافه، وهو على يقين بما يفعله، فلم تكن بارين قلعة غير ذات أهمية، إذ أن تملكها سوف يمنع الصليبيين من أن ينفذوا إلى أعالي وادي نهر العاصي، كما أن موقعها الاستراتيجي يجعلها تسيطر على حماه وحمص، ويُعدُّ فتحها بالغ الأهمية في مشاريعه المستقبلية[2].

1 ـ الشاعر ابن القيسراني يخلد انتصار عماد الدين في بارين:

قال عنه الذهبي في سيره: سيد الشعراء، أبو عبد الله، محمد بن نصر بن صغير بن خالد القيسراني ولد بعكّا ونشأ بقيسارية، وسكن دمشق وامتدح الملوك. . وقرأ الأدب، وأتقن علم الهيئة والهندسة، قال عنه السمعاني: هو أشعر من رأيته بالشام، ولد سنة ثمان وسبعين وأربع مئة، وتوفي سنة ثمان وأربعين وخمس مئة[3]، ويعتبر القيسراني من أشهر شعراء العهد الزنكي، وقد خلَّد انتصارات عماد الدين في بلاد الشام، وشهد بأم عينيه البطولة الإسلامية وهي تحقق الانتصارات الرائعة على الصليبيين، وقد قال هذا الشاعر قصيدة مدح فيها عماد الدين زنكي، وخلَّد انتصاره على الفرنجة في معركة بارين أمنع حصونهم، سنة (534هـ)[4].

حذار منا وأنّى ينفع الحَذَرُ ... وهي الصوارم لا تبقي ولا تَذَرُ
وأين ينجو ملوك الشرك من مَلِكٍ ... مَنْ خيلُهُ النصر لا بل جُنْدُهُ القَدَرُ
سلُّوا سيوفاً كأغماد السُّيوف بها ... صالوا فما غَمَدُوا نَصْلاً ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهَقَهُم ... في مأزق مِنْ سَنَاه يَبْرُقُ البَصَر
وَلَّوْا تفيقُ بهم ذَرْعاً مسالكهم ... والموتُ لا ملجأً منه ولا وَزَرُ
وفي المسافة من دون النَّجاة بهم ... طُولٌ وإن كان في أقطارها قِصَرُ

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 143.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 137.

(3) سير أعلام النبلاء (20/ 226).

(4) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، ص: 25.

وأصبح الدِّين لا عيناً ولا أثراً ... يخاف والكُفْرُ لا عين ولا أثر

فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة ... فالقوم إن نفروا أَلْوى بهم نَفَرُ

إن قاتلوا قُتلوا أو حاربوا حُرِبوا ... أو طاردوا طُرِدوا أو حاصروا حُصِروا

وطالما استفحل الخطْب البهيمُ بهم ... حتى أتى مَلِكٌ آراؤه غُرَرُ

والسيف مُفترعٌ أبكارَ أنفسهم ... ومن هنالك قيل الصارم الذَّكرُ

لا فارَقَتْ ظِلَّ محيي العَدْل لامعة ... كالصُّبْح تطوي من الأعداء ما نَشَرُوا

ولاَ انثنى النَّصْر عن أنصار دَوْلته ... بحيث كان وإن كانوا به نُصِرُوا

حتى تعود ثُغورُ الشام ضاحكة ... كأنما حَلَّ في أكنافها عمر[1]

ويعتبر عماد الدين زنكي أول من مدحه ابن القيسراني من الزنكيين، وكان جمال الدين الأصفهاني وزير عماد الدين السبيل الذي أوصله إليه، فنظم في جمال الدين القصائد ومدحه بمدائح كانت ـ كما يقول العماد ـ أجود ما سمع من منظومة في الأفاضل[2] ومما قاله في مدح جمال الدين الأصفهاني:

وإذا الوفود إلى الملوك تبادرت ... فعلى جمال الدين وفد محامدي

يا حبذا هم إليك أصارني ... وعزيمةٌ تقفو رياضة قائد

أنا روضةٌ تُزهى بكل غريبة ... أفرائدي من لم يُفْر بفرائدي

إن ساقني طلب الغنى أو شاقني ... حبُّ العُلا فلقد وَرَدْتُ مواردي

ومتى عَددت إلى نداك وسائلي ... أعْدَدْتُ قصدي من أجلّ مقاصدي

حتى أعود مِن امتداحك حالياً ... وكأنني قُلِّدتُ بعض قلائدي[3]

ومما قال فيه أيضاً:

ومروّع سَكَنَتْ خوافقُ أمنه ... لولا جمال الدين عزّ أمانه

أمحمد بن عليّ اعتنق الأسى ... فكريَ فضاق بفارس مَيدانُهُ

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 132).

(2) الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ص: 177.

(3) الخريدة (1/ 104، 106) الأدب في بلاد الشام، ص: 177.

مـا بـالُ حـادي الـمـجـد مـغـبِّـر الـمـدى / وأخـو الـهُـوَيـنـى روضـةٌ أعـطـانُـهُ
وأنـا الـذي لا عـيـب فـيـه لـقـائـل / مـا لـم يُـقـلْ هـذا الـزمـان زمـانـه
فـهـل الـمـحـامـد ضـامـنـاتٌ عـنـكَ لـي / مـعـنـىً عـلـى هـذا الـبـيـانِ بـيـانُـه؟
وهـي الـقـوافـي مـا تـنـاظـر بـالـنـدى / إلا وقـام بـفـضـلـهـا بـرهـانُـهُ
مـا كـان بـيـتُ فـضـيـلـةٍ فـي فـارس / إلا ومـن عـربـيـتـي سـلـمـانُـهُ[1]

وقد أورد الذين ترجموا لابن القيسراني طائفة مختارة من شعره، ولاسيما العماد الكاتب في خريدته وياقوت في إرشاده، وقد درس مجموعة من الناقدين شعره، ومن أشهرهم من المعاصرين: الدكتور عمر موسى باشا، وقد أشار إلى أن شعره تميز باتجاهات عامة ثلاثة، تصور الأحداث الكبرى في بلاد الشام والاتجاه التقليدي في المدح، والتجديد في معاني الغزل والنسيب، ونحن ندعو شعراء اليوم للقيام بواجبهم في بث روح الجد والعمل والجهاد في الأمة من خلال ملكة الشعر التي وهبها الله لهم.

أ ـ أحداث كبرى: صور الشاعر الأحداث الكبرى في عصره خير تصوير، ووصف من خلال المدح الأبطال المسلمين وحروبهم ورسمها بدقة، فكانت لنا صورة حقيقية عن الملاحم المشتجرة بين المسلمين والفرنجة، ونستطيع القول: إن المدح التقليدي المعروف خرج عن طوقه الآسر، وتطرق إلى وصف هذه الأحداث خلال فترة مديدة من الزمن، وَلَمْ يبق الشاعر كما كان كثير من سابقيه أسير المعاني التقليدية المعروفة: جود، وبأس، وحلم، وَجَد نفسه أمام صراع مرير تسترخص فيه المهج وتبذل له الأرواح في سبيل العقيدة، وصون الأوطان، وحماية الأعراض، وطرد المغتصب، فقد أدى الشاعر مهمته خير أداء، فصور هذه الأحداث الجسام ونظمها في شعره، وخلدها على توالي الأيام وتعاقب الدهور، شأنه في ذلك كأي مؤرخ[2]، وقد تفاعل مع الأحداث، ومما قاله في عماد الدين زنكي وجهاده:

فـقـل لـمـلـوك الـكـفـر تُـسـلِـم بـعـدهـا / مـمـالـكـهـا إن الـبـلاد بـلاده
كـذا عـن طـريـق الـصُّـبـح فـلـيـنـتـه الـدجـا / فـيـا طـالـمـا غـال الـظـلام امـتـداده
ولـلـه عـزمٌ مـاء سـيـحـان وردهُ / وروضـة قـسـطـنـطـيـنـة مـسـتـرداه[3]

---

(1) الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ص: 178.
(2) المصدر السابق، ص: 187.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 37، 38).

ب ـ التجديد في معاني الغزل والنسيب: درج الشعراء في معظم الأحيان على استهلال قصائدهم بالنسيب، وعلى هذه السّنة جرى ابن القيسراني في مطالع بعض القصائد وله في هذه المجال كلام يطول[1]، وقد وصف العماد الكاتب في وصف إحدى قصائده أنها قطعت مجنسة في لطافة الهواء، مالكة رق الأهواء، خلصت من كلفة التكلف، وصفا مشربها عن قذى التعسف، فالأشعار المتكلفة المصنوعة قلّما ينفق فيها الأبيات المطبوعة، إلا أن يخص الله من يشاء بالخاطر العاطر، والفكر الحاضر، والقريحة الصافية والآداب الوافرة الوافية، وربما يندر للناظر مقطعات يرزق فيها القبول، كهذه القطعة التي تسلب العقول[2].

ومما قاله في هذا الباب:

سقى الله بالزوراء[3] من جانب الغرب ... مهاً وردت عين الحياة من القلب

عفائف إلا عن معاقرة الهوى ... ضعائفُ إلا في مغالبة الصبّ

عقائلُ تخشاها عُقيلُ بن عامر ... كواعب لا تعطى الذّمام على كعب

إذا جاذبهُنَّ البوادي مزيّة ... من الحسن شبّهن البراقع بالنقب

تظلمتُ من أجفانهنَّ إلى النّوى ... سفاها وهل يعدي البعادُ على القُرب

ولما دنا التوديع قلت لصاحبي ... حنانيك سر بي عن ملاحظة السّرب

إذا كانت الأحداق نوعاً من الظُّبا ... فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب

هبوني تعشقت الفراق ضلالة ... فأصبحت في شعب وقلبي في شِعْب

فمالي إذا ناديت ياصبرُ منجداً ... خذلت، ولبى إن دعا حرقةً لبّي

تقضّى زماني بين بينٍ وهجرة ... فختامَ لا يصحو فؤاديَ مِنْ حبّ

وأعجب ما في خمر عينيه أنها ... تضاعف سكري كلما قللّت شربي

إذا لم يكن في الحب عندي زيادة ... تُرجّى فما فضلُ الزيارة عن رغب

فصرت إذا ما هزّني الشوق نحوهم ... أحلت عذولي في الغرام على صحبي[4]

---

(1) الأدب في بلاد الشام، ص: 189.

(2) الخريدة (1/ 98)، نقلاً عن الأدب في بلاد الشام، ص: 204.

(3) الزوراء: أي مدينة الزوراء، وسميت دجلة بغداد الزوراء.

(4) الأدب في بلاد الشام، ص: 189.

2 ـ ابن منير الطرابلسي يمدح عماد الدين في بارين:

شاعر الشام أبو الحسين، أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي، صاحب ديوان مشهور، وله نظم بديع، وكان يلقب بمُهَذَّب الدين، ويقال له: عين الزمان[1]، قال ابن عساكر: رأيته مرات، وكان رافضياً، خبيث الهجو والفُحش، سجنه بُورى مدة ـ حاكم دمشق ـ وهمَّ بقطع لسانه، ثم تَسَحَّبَ، فلما ولي شمس الملوك عاد إلى دمشق، فبلغ شمس الملوك عنه أمرٌ، وأراد صلبه، فاختفى، وهرب، ثم قدم في صحبة نور الدين، وتوفي في جمادى الآخر سنة ثمان وأربعين وخمس مائة بحلب، وكان هو والقيسراني كفرسي رهان، ولكن القيسراني سُنيٌّ دَيِّن[2].

ولقد صوّر ابن منير في مدائحه الزنكية كفاح المسلمين البطولي ضد الغازين الصليبيين ومما قاله في موقعة بارين:

فدتك الملوك وأيّامها	ودان لنقضك إبرامها
وزلّت لِعَيْنَيك أقدامُها	وزال لبطشك إقدامُها
ولو لم تُسلّم إليك القلوب	هواها لما صحّ إسلامها
أيا محيي العدل لَمَّا نعاه	أيامَى البرايا وأيتامها
وَمُنْتَقِذَ الدِّين من أُمّةٍ	أذال المحاريب أصنامها
دَلَفْتَ لها تقتفيك الأسود	والبيض والسُمر آجامها
جَزَزْتَ جزيرتها بالسيوف	حتى تشاءمها شامها
وصارت عواريَّ أكنافه	متى شئت أرخص مُسْتامُها[3]

تصور هذه الأبيات حب الشاعر لعماد الدين وإعجابه به وشماتته بأعدائه الصليبيين، فيفتتحها بالدعاء بأن يجعل الله ملوك الصليبيين فداء لعماد الدين، وبأن يديم قدرته على نقض ما يبرمون ويرجو أن تزل أقدامهم أمام ثبات أقدامه، وأن يزول إقدامهم أمام بطشه، ويرى أن قلوب المسلمين لا يصح إسلامها إذا لم تسلم إليه زمامها، وهو الذي أحيا العدل بعد أن بكت على فقده الأرامل والأيتام وأنقذ الدين من الصليبيين الذين أزالوا المحاريب وأقاموا

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 223).
(2) المصدر نفسه (10/ 224).
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 132).

مقامها الأصنام ثم يمدحه لفتحه الجزيرة بسيوفه حتى تشاءم أهل الشام وتوقعوا أن يحل بهم ما حلّ بإخوانهم أهل الجزيرة[1].

سادساً: الإمبراطور البيزنطي يغزو بلاد الشام:

1 ـ ظروف قيام الحملة:

ذكر ابن الأثير أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصر الملك فولك في بارين أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطي والغرب الأوروبي، فدخلت القسوس والرهبان بلاد الروم والفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنصرين على المسلمين، وأعلموهم أن زنكي إن أخذ حصن بارين ومن فيه من الفرنج، ملك جميع بلادهم في أسرع وقت لعدم الحامي عنها، وأن المسلمين ليس لهم إلا قصد البيت المقدس، فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم[2]، والواقع أنه إذا كانت الأميرة الأنطاكية أليسن لم تنجح في الاتصال بعماد الدين زنكي لمساندتها في صراعها مع والدها والنبلاء الآخرين، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى هي الاتصال بالإمبراطور البيزنطي يوحنا كومنين تعرض عليه زواج ابنتها الأميرة كونستانس من ابنه مانويل[3]، وقد صادف هذا العرض قبولاً حسناً من قبل الإمبراطور، لأن ذلك يعني دخول أنطاكية في تبعية بيزنطية، وهي ما تسعى إليه جاهدة مُنذ الحملة الصليبية الأولى، وهو الأمر الذي لا يقرُّه بقية الزعماء الصليبيين لذلك سارعوا بتزويج كونستانس من ريموند دي بواتييه وقد غضب يوحنا من هذا الزواج الذي تمَّ دون استشارته؛ لأن أنطاكية تابعة له من الناحية الاسمية، وبذلك أضحى الصدام وشيكاً بين يوحنا وريموند[4]. والحقيقة أن العداء قد اشتد بين البيزنطيين والصليبيين مُنذ وصول هؤلاء إلى أطراف بلاد الشام والعراق، ورفضهم التقيد بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم للإمبراطور البيزنطي بتسليمه كافة المدن والبلدات التي كانت فيما مضى من ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية قبل أن يفتحها المسلمون، وقد تركّز جزء كبير من العداء بين الطرفين في العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية، لأن هذه الإمارة بالإضافة إلى إمارة الرها كانت تشكل أهمية دينية وعسكرية وتجارية في السياسة البيزنطية، وعدَّت بيزنطة هذه البلدات جزءاً من ممتلكاتها، والواضح أن هذه البلاد كانت تتيح للأرمن الذين سكنوها مُنذ أكثر من مائة

---

(1) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 138.
(3) معالم التاريخ الإسلامي الوسيط، ص: 205.
(4) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 138.

عام، التوغل داخل الأراضي البيزنطية وتهديدها، ثم إن إقامة الصليبيين في بلاد الشام كان يعني توطيد النفوذ اللاتيني المضر بالمصالح البيزنطية، مما يعرّض للخطر تجنيد المرتزقة الصليبيين ضمن إطار النظام العسكري البيزنطي. بالإضافة إلى ذلك، فإن مدنها الرئيسية كانت تشكل رؤوساً للجسور التجارية البالغة الحيوية في التجارة البيزنطية، فضلاً عن أنها كانت أكثر الإمارات الصليبية في بلاد الشام تطرفاً إلى جهة الشمال، مما جعل حدودها تجاور الحدود البيزنطية في كيليكية[1]، ويذكر أن الإمبراطور يوحنا كومنين حدَّد السياسة البيزنطية في الشرق الأدنى عند اعتلائه العرش على الشكل التالي:

* إعادة الحدود الآسيوية للإمبراطور إلى ما كانت عليه قبل الغزو السلجوقي.
* طرد سلاجقة الروم من الأناضول.
* طرد الأرمن من كيليكية.
* إجبار الصليبيين في أنطاكية على الاعتراف بسيادة الإمبراطورية.
* استعادة عدد من المواقع الإسلامية في شمالي الشام[2].

وحتى يؤمن مؤخرة جيشه أثناء زحفه نحو بلاد الشام، عقد يوحنا اتفاقيات أمنية مع سلاجقة الروم في الأناضول في عام 531هـ أما الدانشمهديون في سيواس، فقد انهمكوا في منازعات أسرية، فلم يشكلوا أي خطر جدّي على الإمبراطورية، فأضحى بوسعه بعد ذلك، التدخل في أمور بلاد الشام وهو مطمئن[3].

2 ـ السيطرة على كيليكية وأنطاكية:

تقدم الإمبراطور البيزنطي من السيطرة على القلاع الأرمينية في كيليكية وتابع زحفه نحو الجنوب، فاجتاز إسكندرونة، وعبر الدروب الشامية إلى أنطاكية التي كانت الهدف الثاني لحملته بعد كيليكية، فظهر أمام أسوارها، وضرب الحصار عليها، فاضطر صاحبها، ريموند بواتيه، أمام ضخامة وقوة الجيش البيزنطي من جهة، وعدم حصوله على مساعدات الصليبيين في الرها وبيت المقدس من جهة أخرى، إلى الخضوع لإرادة الإمبراطور بعد حصوله على موافقة الملك فولك وتسلّم الإمبراطور البيزنطي المدينة، إلا أنه لم يُصر على الدخول إليها، غير أن العلم الإمبراطوري ارتفع بأعلى القلعة[4].

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 139.
(2) المصدر نفسه، ص: 139.
(3) المصدر نفسه، ص: 139.
(4) الحروب الصليبية، رنسيمان (2/ 341).

3 ـ زحف الحملة على حلب:

وجرت مباحثات بين الصليبيين والبيزنطيين أدّت إلى ما يلي:

* قيام تحالف بينهم.

* توحيد الجهود العسكرية وتوجيهها للقيام بحملة نصرانية كبرى ضد مسلمي بلاد الشام بهدف. تحطيم قوة عماد الدين في حلب.

* القضاء على إمارة بني منقذ في شيزر.

* إقامة إمارة صليبية تشمل الجهات الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحماة وحمص.

* تعيين ريموند بواتييه أميراً على تلك الإمارة.

* ترك ريموند إقليم أنطاكية للإمبراطور البيزنطي.

* إنجاز هذا العمل التوسعي في الصيف القادم سنة (1138م)[1].

دلت المفاوضات على ما يشعر به الصليبيون من الضيق والقلق نحو الإمبراطور البيزنطي، إذ أن موافقة الملك فولك أملتها فيما يبدو واقعية الظروف السياسية السيئة التي كان يمر بها الصليبيون حيث كان يُدرك جيداً أن عماد الدين زنكي هو العدو الأكبر للصليبيين، ولذا لم يشأ أن يقاوم القوة البيزنطية وينهكها وهي الوحيدة القادرة على وقف تقدمه، ومن جهته، فإن يوحنا كومنين كان واقعياً في تفكيره السياسي، فأدرك أن مصلحة النصارى العامة تقضي بعدم طرد الصليبيين من أنطاكية دون أن يبذل لهم تعويض، يضاف إلى ذلك، أنه أراد أن يقيم على امتداد الحدود إمارات تابعة يتحكم في سياساتها العامة، وتتحمل في الوقت نفسه صدمات، كما تجلّت أطماعه في أملاك المسلمين بالشام ويبدو أن أخبار هذا الاتفاق قد تسربت إلى أهالي حلب الذين قاموا بأعمال التحصين وحفر الخنادق، كما أن الأمير سوار قام بمهاجمة الجيش البيزنطي أثناء عودته من أنطاكية إلى أرمينية لقضاء فصل الشتاء وظفر بسرية وافرة العدد من عسكره، فقتل وأسر، ودخل بهم إلى حلب[2]، ورغم ما كان يضمره

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 141.
(2) المصدر نفسه، ص: 141.

يوحنا من سوء النية وما كان يبيته من هجوم على حلب في العام التالي، إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين زنكي، فأرسل إليه رسولاً أخبره بأنه ذاهب لقتال الأرمن وأن البيزنطيين ليسوا راغبين في أن يبادروا إلى مهاجمته وهو ينوي خداعه حتى يطمئن إليه[1]، ثم ما لبث أن أصدر أوامره بإلقاء القبض على جميع المسافرين القادمين من حلب والقرى المجاورة صوب الغرب، كيلا تصل أنباء تحركات قوات المتحالفين إلى زنكي[2]، ومن ثم تقدم الإمبراطور، يصحبه أميرا الرها وأنطاكية، وبدأوا بمهاجمة حصن بزاعة القريب من حلب وتمكنوا من الاستيلاء عليه[3]، وقد استطاع بعض أهاليه أن يفروا إلى حلب، حيث أنذروا المسؤولين فيها عن قرب الخطر، فقام هؤلاء بتعزيز التحصينات الدفاعية، وأرسلوا إلى زنكي يطلبون نجدة مستعجلة، فأمدهم بقوة من الفرسان، كان لدخولها حلب تأثير كبير على رفع معنويات أبنائها وما أن وصل المتحالفون إلى حلب وفرضوا الحصار عليها، حتى أدركوا مدى مناعتها وقدرتها الكبيرة على المقاومة، هذا إلى أن الحلبيين أخذوا يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم، فآثروا الانسحاب، ولما علم جند الأثارب بذلك، خافوا من توجه المتحالفين إليهم، فأحرقوا خزائن القلعة وانسحبوا، وقام الإمبراطور إثر ذلك بإرسال بعض قواته إلى هذا الموقع، فتمكنت من الاستيلاء عليه. أما هو فقد تقدم على رأس القسم الأكبر من جنده إلى معرة النعمان واستولى عليها، وتوجه من هناك إلى شيزر، وفرض الحصار عليها ساعياً بذلك إلى وضع يده على موقع هام يمنح الغزاة السيطرة على وادي نهر العاصي، ويقف سداً أمام مطامح وأهداف زنكي البعيدة في المنطقة[4].

4 ـ مناصرة عماد الدين زنكي لبني منقذ في شيزر:

أبدى أهالي حلب مقاومة عنيفة للقوات الغازية فضلاً عن وصول نجدة عماد الدين زنكي مما أقنع الإمبراطور بعدم جدوى الاستمرار لحصار المدينة، فغادرها واتجه إلى حصن الأثارب وملكوه، ثم احتلوا بعد ذلك معرة النعمان وكفر طالب واتجهوا إلى شيزر[5]، كما ذكرنا وكانت حجم القوات الغازية: مائة ألف راكب ومائة ألف راجل، ومعهم من الكراع والسلاح ما لا يحصيه إلا الله. وأمام هذا الخطر الكبير ما كان من حاكم شيزر أبو العساكر إلا

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 141.

(2) زبدة الحلب (2/ 264)، عماد الدين زنكي، ص: 144.

(3) عماد الدين زنكي، ص: 144.

(4) الباهر، ص: 55، عماد الدين زنكي، ص: 145.

(5) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري، ص: 156.

أن يعزز من استحكامات المدينة ويطلب النجدة من عماد الدين زنكي، الذي أسرع بالقدوم إلى المنطقة ونزل حماة واتخذها قاعدة لقواته[1]. وشرع الإمبراطور في بادئ الأمر بمهاجمة حصن الجسر، وتمكن من زحزحة المدافعين الذين انسحبوا عنه إلى داخل حصن شيزر، واتخذ الإمبراطور من ذلك الحصن الواقع على الجهة اليمنى من نهر العاصي مقراً له، ثم اندفع فرسانه إلى الجزء الذي عليه «البلد» وأظهر بنو منقذ مقاومة عنيفة في المعركة التي جرت بين الطرفين وجرح فيها أحد أمرائهم، وهو أبو المرهف نصر بن منقذ الذي توفي فيما بعد متأثراً بجروحه، وتمكن عدد من المهاجمين من النفاذ إلى داخل القلعة من خلال إحدى الثغرات التي أحدثتها قذائف المنجنيقات إلّا أن رجال بنو منقذ تصدوا لهم وأجبروهم على الانسحاب من المدينة[2]، ولكن البيزنطيين ظلوا يحتفظون ببعض المواقع المتقدمة في ضواحي المدينة، واستمرت غاراتهم مدة عشرة أيام، ثم اقتصر القتال فيما بعد على ضرب المدينة بالمنجنيقات[3].

أ ـ توزيع القوات المهاجمة:

توزعت القوات المهاجمة في أثناء فترة القتال على النحو التالي: قوات ريموند حاكم أنطاكية الذي كان يتمركز في مسجد سمّون ـ الذي يقع بالقرب من باب المدينة ـ وقوات حاكم الرها جوسلين الثاني الذي اتخذ مواقعه في الساحة العامة المخصصة للصلاة، أما الإمبراطور يوحنا فبعد ما عجز عن تحقيق النصر في غارته على المدينة اختار مرتفعاً مقابلاً لشيزر يعرف باسم: «جبل جرجيس» ونصب عليه ثمانية عشر منجنيقاً وأربع لعب كانت تضرب المدينة بشكل مباشر، وتمنع المدافعين عنها من الوصول إلى النهر والتزود من مائه[4]، وعلى الرغم من ذلك فقد ذكر أسامة بن منقذ أن جماعة من الراجلة من أهالي شيزر خرجوا لقتال المهاجمين ولكنهم قتلوا وأسر البعض منهم[5]، وقد أثارت المنجنيقات التي جلبها البيزنطيون معهم الاستغراب والذعر لدى أهالي شيزر، نظراً لضخامتها ولما ألحقته من خراب ودمار بالمدينة حتى وصفها أسامة بأنها مجانيق هائلة جاءت معهم من بلادهم ترمي الثقل، وتبلغ حجرها ما تبلغه النشّابة، وترمي الحجر عشرين وخمسة وعشرين رطلاً[6]، ويذكر أن إحدى

---

(1) الباهر، ص: 55، أسرة بني منقذ ودورها السياسي، ص: 158.
(2) الاعتبار، ص: 146.
(3) زبدة الحلب (2/ 267) أسرة بني منقذ، ص: 158.
(4) أسرة بني منقذ، ص: 159.
(5) المصدر نفسه، ص: 159.
(6) الرطل: كان يعادل آنذاك الكيلو ونصفاً، الاعتبار ص: 145.

القذائف أصابت منزلاً لصديق له يدعى: يوسف بن أبي الغريب فانقلب رأساً على عقب وإن أخرى وقعت على القاعدة الحديدية التي أثبتت عليها السارية المرفوعة في دار عمه الأمير فكسرتها على أحد المارة فقتلته[1].

ب ـ موقف عماد الدين زنكي من هذه المجابهة: وأما عن دور زنكي في هذه المجابهة فإنه لدى سماعه استغاثة أبي العساكر هرع بقواته إلى المنطقة واختار موضعاً بين حماه وشيزر على ضفاف نهر العاصي، ولم يشأ أن يغامر بشن هجوم عام على البيزنطيين وحلفائهم نظراً لتفوقهم عليه عدة وعدداً، وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم[2]، ويضيف ابن القلانسي أن عماد الدين زنكي كان يجول بخيله على أطرافهم ويفتك بمن يظفر به، فضلاً عن قيامه بمساعدة بني منقذ بالرجال والسلاح، كما أنه استطاع منع وصول المؤن إلى القوات المهاجمة[3]، فأثّر هذا في زيادة حراجة الموقف بالنسبة لهم، ويؤيد لنا هذا الرهاوي في تاريخه بقوله: وشرعت القوات تشعر بالنقص في المؤونة، لأن شعباً فقيراً كان معهم وكان عماد الدين زنكي بمهارته يمنع باحتراس وصول شيء إليهم[4].

ـ أساليب الحرب النفسية: ولجأ عماد الدين زنكي إلى اعتماد أساليب الحرب النفسية تجاه أعدائه، فقد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي يقول له: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها، ولم يكن له بهم قوة وإنما كان يرهبهم بهذا القول وأشباهه[5]. وعندما أشار الفرنجة على الإمبراطور بالاستجابة لمنازلة عماد الدين قال لهم: أتظنون أن معه من العساكر من ترون وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا فيه، إنما يريد أن تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حدّ له[6].

ـ طلب النجدة من مختلف المناطق: ومن الجدير بالذكر أن عماد الدين زنكي قد أرسل في طلب النجدة من مختلف المناطق، فأرسل إلى القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه يستنجده ويطلب منه العساكر فقال القاضي لعماد الدين حين أرسله: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل

---

(1) الاعتبار، ص: 145، 146 أسرة بني منقذ ودورها السياسي، ص: 160.
(2) الكامل في التاريخ (87/ 7396).
(3) الباهر، ص: 55، أسرة بني منقذ ودورها السياسي، ص: 160.
(4) أسرة بني منقذ ودورها السياسي، ص: 160.
(5) الكامل في التاريخ (8/ 750).
(6) المصدر السابق (8/ 740).

السلطان هذا حجة علينا وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها.

فقال عماد الدين: إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار بها[1]. وهذا الموقف درس عملي من عماد الدين للقادة السياسيين والعسكريين في الولاء والبراء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: 51]. وقال رسول الله ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان، الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**»[2]، وكم ضاعت من بلاد المسلمين قديماً وحديثاً بسبب ضياع هذا المبدأ العقائدي المهم في حياة الأمة، قال القاضي كمال الدين: فسرت طالب بغداد وجدت في السير، فلما وصلت بغداد وحضرت قدام السلطان وأديت الرسالة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطب ولا أزاد على الوعد شيئاً فلما رأيت قلة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرت فلاناً، وهو فقيه كان ينوب عني في القضاء فقلت له: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد: وإسلاماه؛ وادين محمداه، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين ثم وضعت إنساناً آخر فعل ذلك في جامع السلطان.

فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه، وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى، وبطلت الخطبة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان؛ وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال ما الخبر؟ فقيل: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة فقال: أحضروا القاضي ابن الشهرزوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلا أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق. فلما دخلت قال: يا قاضي ما هذه الفتنة ؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان لم يعلم كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، وإن أخذوا حلب انحدروا إليكم في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمر عليه حتى كأنه ينظر إليه؛ فقال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرفتهم الحال وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا، وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس من خيار العسكر، وكتبت إلى الشهيد أعرفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير: وأجدد استئذانه في ذلك فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، وعبرت بالعساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة، وإذا قد وصل نجّاب من الشهيد

---

(1) مفرج الكروب (1/ 79).

(2) صحيح الجامع الصغير (2/ 343). ح(2536).

يخبر بأن الروم والفرنج رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر؛ فلما خاطبت السلطان في ذلك أصرّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذها وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد ويملكها، ولم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقي وسرت إلى الشهيد[1].

ويتضح لنا مما تقدم مدى بعد نظر القاضي كمال الدين الشهرزوري وحكمته وفطنته لما يدور حوله، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود، وبحسن تصرفه في الموقفين في توفير الجيش عند الاحتياج له وصرفه عند انتفاء الحاجة إليه؛ أنقذ عماد الدين زنكي من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذ وصلت عساكر السلطان إلى الشام في ذلك الوقت بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين عن حلب، ويكفي هنا أن نوضح أهمية وجود القاضي كمال الدين في دولة عماد الدين زنكي أن نذكر تعقيب ابن الأثير على ما قام به هذا الفقيه مع السلطان مسعود، إذ يقول: فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس، رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا همة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، ويرغبهم ويخطبهم في البلاد ويوفر لهم العطاء[2] إن عماد الدين زنكي، ثبت الله ملكه بالعلماء، فقد جاء إلى حكم الموصل بسبب آرائهم، وأنقذه الله من انقلاب محقق على يديهم، وأبعد الله عنه أطماع السلطان مسعود بسبب حنكة العلماء وذكائهم من أمثال القاضي كمال الدين الشهرزوري ولهذا كانت لكمال الدين مكانة خاصة عند عماد الدين زنكي، فقد قال عن جهوده وأعماله: إن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار[3]، هذا وقد أرسل عماد الدين إلى سلاجقة الروم يشير عليهم بالإغارة على المواضع البيزنطية في آسيا الصغرى حتى ينصرف البيزنطيون عن القتال هناك[4]، وصدق حدس الإمبراطور عندما وردته أخبار مفادها: قدوم أرسلان بن داود ومعه عساكر بلغ تعدادها عشرين ألف فارس لنجدة شيزر[5].

ـ **سهام الحيلة والدهاء يطلقها عماد الدين زنكي**: أدرك زنكي كنه العلاقة بين الإمبراطور والفرنجة، فلجأ إلى اعتماد أسلوب الحيلة والخداع لتعميق الخلاف بينهما، فراح يراسل إفرنج الشام ويحذرهم من ملك الروم، ويحمّلهم أنه إن مَلَكَ بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدده ويوهمه بأن الفرنج معه. فسادت الشكوك بين الطرفين المسيحيين[6] سيما وأن أميري الرها وأنطاكية لم يسعيا إلى التعاون الجاد مع الإمبراطور، فضلاً عن اشتداد المنافسة بينهم، وتخوف ريموند من انتصار الروم، وبالتالي

---

(1) مفرج الكروب (1/ 80، 81).

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 112.

(3) الباهر، ص: 63 نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء المسلمين، ص: 112.

(4) تاريخ الحروب الصليبية رنسيمان (2/ 346).

(5) أسرة بني منقذ، ص: 161.

(6) الباهر، ص: 56، عماد الدين زنكي، ص: 146.

تنفيذ الاتفاقية التي وقعها معهم، والتي تجعله يقف وجهاً لوجه أمام قوات المسلمين بعيداً عن أنطاكية ولم يرغب أمير الرها ـ هو الآخر ـ في أن يكون منافسه ريموند قريباً منه في حلب، في حالة انتصار المتحالفين وتنفيذ بنود الاتفاقية المعقودة بينهم، وقد عرقلت هذه العوامل جميعاً توحيد الجهود لفتح شيزر[1]. ووردت أنباء إلى أن أمير حصن كيفا الأرتقي أرسل ابنه على رأس جيش كبير من التركمان[2]، وأن قوات دمشق تحركت لمساعدة زنكي[3].

ج ـ **فك الحصار عن شيزر**: إزاء هذا وذاك رأى الإمبراطور أن الانسحاب أصبح أمراً محتماً فأنهى حصاره لشيزر في التاسع من رمضان سنة (532هـ)، بعد أن عرض عليه أميرها مبلغاً من المال[4]. وقال له: أيها الملك إن الفرنج خدعوك إذ دفعوك إلى محاصرة هذا الموضع، بينما نحن لم نسيء إلى أحد قط ولم نضايق المسيحيين، فاستجاب الإمبراطور بسبب الضغوط الخارجة عن يده وأعلن الانسحاب وبادر بنو منقذ بإرسال هدايا إليه قوامها آنية كنيسة من الذهب والفضة وصلبان من الذهب مرصعة بالياقوت، وهي بقايا الغنائم التي حصل عليها آباؤهم في أثناء مشاركتهم في معركة ملاذكرد[5]، وقاد يوحنا كومنين الإمبراطور البيزنطي القوات المسيحية في طريق العودة إلى أنطاكية وحينئذ انقضَّ عماد الدين زنكي على آلاتهم الحربية الثقيلة ومجانيقهم العظام فاستولى عليها ورفعها إلى قلعة حلب[6]، كما أرسل بعض جنده في آثار قوات العدو المنسحب، فقتلوا وأسروا عدداً كبيراً منهم[7]، وفي أنطاكية حدث خلاف جديد بين الإمبراطور والصليبيين، كاد أن ينتهي بفتنة واسعة بين الطرفين لولا إسراع كومنين بالرجوع إلى بلاده[8].

د ـ **أسباب فشل الحملة: يمكن تحديدها فيما يلي:**

* عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الإمبراطور[9].

* اشتداد المنافسة بين كل من ريموند بواتييه وجوسلين الثاني، فخشي الأول أنه إذا سقطت شيزر بيد النصارى سيُجبر على أن يقيم بها، وفقاً للاتفاقية المُبرمة بين الحلفاء وهي تقع على الخط الأمامي للممتلكات النصرانية المواجهة للمسلمين، وسيبتعد نتيجة ذلك عن أنطاكية ومباهجها. أما جوسلين الثاني يكنُّ في قرارة نفسه الكراهية لريموند بواتييه، فإنه لم

---

(1) محاضرات عن الحروب الصليبية، صالح أحمد العلي، ص: 235.
(2) زبدة الحلب (2/ 8268).
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 266، عماد الدين زنكي، ص: 147.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 147.
(5) أسرة بني منقذ، ص: 163.
(6) زبدة الحلب (2/ 268)، الباهر، ص: 56.
(7) الباهر، ص: 56، عماد الدين زنكي، ص: 147.
(8) زبدة الحلب (2/ 268)، عماد الدين زنكي، ص: 147.
(9) الباهر، ص: 56، عماد الدين زنكي، ص: 147.

يود أن يراه مستقراً في شيزر وفي حلب فيما بعد، فحاول الإيقاع بينه وبين الإمبراطور، ونجح في[1] ذلك.

* انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم فرصة تواجد الإمبراطور يوحنا بعيداً عن الإمبراطورية وانشغاله بأمر الصليبيين وعماد الدين زنكي، فقام بمهاجمة مدينة أذنة، ولا شك بأن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الإمبراطور؛ لأنه خرج بجيشه من أجل العمل على ضمّ أنطاكية إلى أملاك بيزنطية، لا من أجل فقدان بعض أملاك الإمبراطورية، مما حمله على فك الحصار وشرع في العودة إلى بلاده لحمايتها من السلاجقة[2].

* اتبع عماد الدين زنكي خطة عسكرية ذكية يمكن أن نطلق عليها الحرب النفسية إذا جازت هذه التسمية في ذلك الوقت. ذلك أنه راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند مدينة شيزر يقول لهم: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين[3] من شركم، وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الإمبراطور بالنزول إليه وقتاله، ولكن يوحنا خشي مغبّة ذلك وأجاب: أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لا حدّ له عليه، وفي نفس الوقت كان يراسل صليبيي الشام يحذّرهم من إمبراطور الروم ويعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد في الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، ويرسل من جهة أخرى إلى الإمبراطور يخوّفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر وسادت الشكوك بينهما، وكان قد بلغ الإمبراطور أن قرا أرسلان بن داوود الأرتقي قد عبر الفرات في جموع عظيمة في طريقه إلى شيزر، ومما كان دافعاً له على فك الحصار عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الإمبراطور[4].

هـ ـ النتائج التي أسفرت عن فشل حملة المسيحيين:

إن أهم النتائج التي أسفرت عن فشل حملة المسيحيين هذه، هي: تدهور العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين، وعدم استطاعتهم القيام بعمل سريع ضد نشاط زنكي في المنطقة في السنين التالية، وفي الأيام التي أعقبت انسحاب المتحالفين، استطاع صلاح الدين

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 145.
(2) المصدر نفسه، ص: 145.
(3) المصدر نفسه، ص: 145.
(4) الباهر، ص: 56، عماد الدين زنكي، ص: 147.

الباغسياني حاجب زنكي، أن يستولي على كفرطاب بعد أن بلغه هروب الصليبيين منها[1]. كما سار زنكي إلى حصن عرقة، فحاصره وفتحه عنوة، وأسر من فيه من الصليبيين، ثم أمر بتخريبه[2]. وما لبث أن اتجه في مطلع العام التالي (533هـ) إلى حصن بزاعة، فاجتاحه عنوة وقتل معظم من فيه من قوات الصليبيين والروم، ثم حاصر الأثارب، وتمكن من فتحها ـ في صفر ـ وقفل عائداً إلى الموصل[3] وانهمك زنكي في الفترة التالية بالعمل على إتمام خطته بتوحيد الجبهة الإسلامية، كي يكون أكثر قدرة على مجابهة الصليبيين، وقام عام (533هـ) بعدة مناورات وعمليات عسكرية وسياسية في بعض جهات الجزيرة مستهدفاً ضمها لإمارته[4]، ثم عاد ليستأنف السعي من أجل تحقيق هدفه القديم بالاستيلاء على دمشق وتوحيد الجبهة الشامية، فاتجه إليها في أواخر العام نفسه، وفرض حصاراً شديداً عليها كاد أن يسقطها في يديه، لولا استنجاد أمرائها بصليبيّ بيت المقدس، واستجابة هؤلاء لهم، رغبة منهم في القضاء على الخطر المشترك الذي يمثله وجود زنكي في المنطقة، الأمر الذي اضطر الأخير إلى الانسحاب[5]، وفي عام (538هـ) أتيح لزنكي استغلال مركزه القوي في ديار بكر[6]، والقيام بفتح عدد من المواقع والحصون الصليبية العائدة لإمارة الرها الصليبية، والمنتشرة في المناطق القريبة من ماردين، كجملين والموزر[7]، وتل موزن، وغيرها من حصون إقليم شيختان[8]، وكان هدفه من وراء ذلك قطع الاتصال بين قرا أرسلان الأرتقي، أمير حصن كيفا. وبين جوسلين أمير الرها، وبسبب تحالفهما ضده[9]، وبذلك تمهد الطريق أمامه لإنزال ضربته المباشرة بالرها نفسها وتحقيق حلمه الذي طالما راود خياله عبر سني صراعه الطويل ضد الصليبيين[10].

و ـ **مبالغات عند الكتّاب الأوروبيين متعلقة بشيزر**: عند الحديث عن حقيقة انسحاب الإمبراطور عن شيزر يلاحظ عنصر المبالغة الذي اتسمت به الكتابات الأوروبية وانساق وراءها مؤرخينا المحدثين مفيدة أن بني منقذ أعلنوا عند مفاوضاتهم مع الإمبراطور عن قبولهم بالتبعية والسيادة له، ويبدو أن هذه الكتابات اعتمدت على بعض الروايات البيزنطية التي أرادت أن

---

(1) زبدة الحلب (2/ 268)، عماد الدين زنكي، ص: 148.
(2) الباهر، ص: 57، عماد الدين زنكي، ص: 148.
(3) مفرج الكروب (1/ 83)، عماد الدين زنكي، ص: 148.
(4) عماد الدين زنكي، ص: 148.
(5) المصدر السابق، ص: 148.
(6) المصدر نفسه، ص: 148
(7) يذكر ابن شداد أنها وجملين قلعتان لهما عمل متسع بين ديار بكر وديار مضر، على مسيرة يوم جران.
(8) شيختان: هو أحد أقاليم ديار بكر عند منابع نهر الخابور.
(9) عماد الدين زنكي، ص: 149.
(10) المصدر نفسه، ص: 149.

تغطي الفشل الذريع الذي واجهه الإمبراطور عند أسوار شيزر. والذي يثبت عدم صحتها - كما نرى - هو أن الإمبراطور لم يكن في وضع يسمح له بأن يملي شروطه على بني منقذ للأسباب الآنفة الذكر، حتى أنه لم يمتلك الوقت عند انسحابه لحمل معداته الحربية أو تدميرها فتركها في أماكنها، فأمر زنكي بحملها إلى حلب، يضاف إلى هذا عجز قواته عن صد الهجمات التي كانت تتعرض لها قواته من قبل زنكي بعد انسحابه عن شيزر[1]، علاوة على أن المصادر العربية والسريانية التي عاصرت تلك الحملة لم تتطرق إلى هذه المسألة[2].

ز - **من عجيب ما يحكى**: أن ملك الروم لما عزم على حصار شيزر سمع من بها ذلك، فقال الأمير مرشد بن علي صاحبها وهو ينسخ مصحفاً: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني إليك، فتوفي بعد أيام[3].

ح - **ابن قسيم الحموي يمدح عماد الدين زنكي**: ولد شرف الدين أبو المجد، مسلم ابن الخضر بن مسلم بن قسيم التنوخي الحموي أوائل القرن السادس الهجري بحماه 500هـ وهو أحد شعراء العصر الزنكي الثلاثة المشهورين بعد ابن القيسراني وابن منير، نبغ في عصر شيخوختهما وبلغ إلى درجتهما[4]، وأحرز ابن قسيم أول نصر أدبي له عام 532هـ، وكان ذلك في الثلاثينات من عمره عندما هرع عماد الدين للدفاع عن المسلمين ضد الأطماع الصليبية في شيزر، وقد خلد الشعراء هذا الحادث الكبير وكانت قصيدة ابن قسيم الوحيدة التي اقتبسها المؤرخون في كتبهم دون سائر القصائد الأخرى، وهي لأعلام شعراء عصر عماد الدين زنكي[5]، ومما قاله من الشعر:

بعزمك أيها الملك العظيمُ ... تَذِلُّ لك الصِّعاب وتستقيمُ

ألم تر أن كلب الرُّوم لمَّا ... تبيَّنَ أنه الملك الرحيمُ

فجاء يطبق الفلوات خيلاً ... كأن الجحفل اللَّيلُ البهيمُ

وقد نزل الزمان على رضاه ... فكان لِخَطبِه الخَطْبُ الجسيمُ

فحين رَمَيْتَه بك في خميس ... تيقَّن أن ذلك لا يدوم

(1) أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري، ص: 164.

(2) المصدر نفسه، ص: 164.

(3) الكامل في التاريخ (8/ 742).

(4) الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين، ص: 228.

(5) المصدر السابق، ص: 230.

وأبصر في المفاضة[1] منك جيشاً فأحرن[2] لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور توقَّدَ وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولّى وليس سوى الحِمام[3] له حميمُ[4]
يؤمِّلُ أن تجود بها عليه وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنجُ لديك عفواً وأنت بقطع دابرها زعيم[5]
وكم جَرَّعْتَها غُصَصَ المنايا بيوم فيه يَكْتَهِلُ الفَطيمُ[6]
ولمَّا أنْ طلبْتُهُم تمشَّى المنية جُوسلينَهُمُ[7] اللئيم
أقام بطُوف الآفاق حيناً وأنت على معاقله مقيُم
فسار وما يعادله مليك وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس فأوّل ما تفارقها الجسوم[8]

سابعاً، فتح الرها

كانت إمارة الرها الصليبية أولى الإمارات التي تأسست في الشرق الإسلامي سنة (491هـ / 1097م) بزعامة بلدوين الأول الذي استمر في حكم هذه الإمارة حتى سنة (494هـ/ 1100م) حين انتقل إلى حكم بيت المقدس عقب وفاة جورفرى ملك بيت المقدس[9]. وقد تميزت الرها عن بقية الإمارات الصليبية بموقعها في الحوض الأوسط لنهر الفرات حيث تحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام، وذلك لقربها من الخلافة العباسية ثم لوقوفها في وجه التركمان الذين كانت تعج بهم منطقة الجزيرة عقب التفكك الذي أصاب السلاجقة في بلاد الشام والعراق عقب وفاة السلطان ملكشاه (485هـ / 1092م)[10]، ولم تقتصر أهمية الرها على موقعها الإستراتيجي وكونها خط الدفاع الأول عن بقية الإمارات الصليبية في بلاد الشام بل

---

(1) المفاضة : مكان واسع تندفع منه الغارة.
(2) فأحرن : في بعض النسخ فأحزن، أي بمعنى: الأرض الغليظة المرتفعة.
(3) الحمام : الموت.
(4) الحميم : صديق.
(5) زعيم: كفيل.
(6) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 174).
(7) صاحب الرها.
(8) كتاب الروضتين (1/ 124 ، 125).
(9) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 230
(10) سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين، ص: 84.

إنها شكلت خطراً أساسياً على خطوط المواصلات الإسلامية بين الشام وآسيا الصغرى والعراق ومنطقة الجزيرة[1].

ومما يوضح ذلك أن الحملة التي قام بها كربوقا صاحب الموصل سنة (491هـ/ 1098م) نجدة للمسلمين بأنطاكية قد تعطلت بعض الوقت حول الرها في محاولة لانتزاعها من بلدوين الأول[2]، وعلى الرغم من أن الرها لم تقع في نطاق الأراضي المقدسة في فلسطين فقد عدها الصليبيون من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية، وفيرة الثروات ساعدت أمراء الرها على توسيع رقعتهم، فامتدت إمارة الرها الواقعة على ضِفتي نهر الفرات من راوندان وعين ثاب غرباً إلى مشارق، ومن بهنسي وكيسوم شمالاً إلى منبج جنوباً[3]، واكتسبت الرها أهمية بما تهيأ لها من حكام اتصفوا بالقوة والشجاعة استطاعت الصمود في وجه المقاومة الإسلامية، على الرغم من أن الرها كانت تعاني من نقطتي ضعف واضحتين: **أحدهما**: الحدود الطبيعية إذ لا توجد لها موانع طبيعية تحميها وتكسبها وقاية ومناعة. **وثانيها**: عدم وجود تجانس بين سكانها إذ كانوا خليطاً من المسيحيين الشرقيين «السريان والأرمن اليعاقبة» ومن الصليبيين الغربيين، فضلاً عن المسلمين الذين تركزوا من مدن بكاملها كسروج والبيرة التي خضعت للصليبيين[4]، ولم تقتصر أهمية الرها على الجانب الصليبي، بل كانت في نظر المسلمين من أهم المواقع التي يجب السيطرة عليها، فقد ذكر ابن الأثير مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب، أي بينهما قاعدة عما في شمال العراق وقاعدتها في الشمال، ولهذا وصفها بأنها من الديار الجزرية عينها، ومن البلاد الإسلامية حضنها مما جعل القوى الإسلامية سواء في العراق أو الشام أو الجزيرة ترغب في السيطرة عليها[5].

1 ـ أوضاع إمارة الرها الداخلية:

كانت ظروف الرها الداخلية مؤاتية لعماد الدين زنكي، إذ اتصف أميرها جوسلين الثاني بضعف الشخصية وانسياقه وراء العواطف والأهواء، وعدم امتلاكه مقدرة سياسية وبعد نظر، والواقع أن جوسلين الثاني تأثر في نشأته بالميول الأرمينية بفعل أن والدته كانت منهم، فترعرع وفي نفسه ميل إلى الأرمن وغيرهم من السكان الأصليين من الطوائف النصرانية

---

(1) إمارة الرها، علية الجنزوري، ص: 34، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 230.
(2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 230.
(3) الحركة الصليبية (1/ 424) سعيد عاشور، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 230.
(4) الجهاد ضد الصليبيين، ص: 231.
(5) التاريخ الباهر، ص: 66، 67، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 231.

الشرقية وفضَّلهم على النصارى الغربيين الأمر الذي أثار الفرسان الصليبيين، وأوجد نوعاً من عدم الاستقرار داخل الإمارة، وعُرف عن صاحب الرها أنه كان من ذلك النوع الذي يؤثر الراحة والعافية، حتى أنه في الوقت الذي هاجم فيه عماد الدين زنكي إمارته، اختار أن يترك مدينته ليقيم في تل باشر على الضفة الغربية للفرات، وإذا أضفنا إلى ذلك أن المسلمين أحاطوا بهذه الإمارة من كل جانب، وفصلها نهر الفرات عن بقية الممتلكات الصليبية في بلاد الشام؛ لاستطعنا أن نكوّن فكرة عامة عن العوامل التي ساعدت على سقوطها، والجدير ذكره أن هذه شكَّلت خطراً كبيراً على المواصلات الإسلامية بين حلب والموصل وبغداد وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى، كما كانت عائقاً حال دون قيام الوحدة الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة بسبب تدخلها المستمر لصالح خصوم عماد الدين زنكي من الأمراء المسلمين في المنطقة[1]، فكان فتحها ضرورة سياسية وعسكرية واقتصادية[2] ودينية.

2 ـ عمليات الفتح:

استغل عماد الدين زنكي الظروف السابق ذكرها وسعى إلى تدبير خدعة تتيح له تحقيق هدفه من أقصر طريق. وكان يعلم أنه لن يستطيع أن ينال غرضه من الرها ما دام جوسلين وقواته موجودين بها، وهكذا انصب اهتمامه على إيجاد وسيلة تدفع غريمه إلى مغادرة مقر إمارته، فاتجه إلى آمد، وأظهر أنه يعتزم حصارها، وأنها هدفه دون غيرها، وبث عيونه ـ في الوقت نفسه ـ في منطقة الرها ليطلعوه ـ أولاً بأول ـ على تحركات أميرها الذي ما أن رأى انهماك زنكي بحروبه في ديار بكر وعدم تفرغه للهجوم على المواقع الصليبية، حتى غادر مقر إمارته على رأس قواته[3]، بعد أن اتخذ إجراءاً احتياطياً بأن عقد هدنة مع قرار أرسلان صاحب حصن كيفا الذي كان قد التجأ إليه بعد تهديد زنكي لإمارته[4]، ومن ثم اتجه إلى تل باشر الواقعة على الضفة الغربية للفرات، كي يتخلص هناك من كل مسؤولية، ويتفرغ لملذاته، تاركاً حماية الرها لأهاليها من الأرمن والسريان والنساطرة واليعاقبة، وكان معظمهم من التجار الذين لا خبرة لهم بشؤون الحرب والقتال بينما تولى الجند المرتزقة مهمة الدفاع عن القلعة[5]، وجاءت عيون عماد زنكي لتطلعه على النبأ الذي كان يتحرَّق إليه فأسرع بالتوجه إلى الرها مستعيناً على السرعة بركوب النجائب من الإبل مستنفراً كل قادر على حمل السلاح

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 149.

(2) المصدر نفسه، ص: 149.

(3) الباهر، ص: 67، عماد الدين زنكي، ص: 151.

(4) عماد الدين زنكي، ص: 151.

(5) المصدر نفسه، ص: 152.

من مسلمي المنطقة للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين، فطوق بهم الرُّها من جهاتها الأربع. وحاول في البدء أن يتوسل بالطرق السلمية علّها تحقق هدفه دون اضطرار إلى رفع السيف، فراسل أهالي الرها باذلاً لهم الأمان، طالباً منهم أن يفتحوا له الأبواب قبل أن يجد نفسه مضطراً إلى تدمير أسوار بلدهم وإخلاء ديارهم، إلا أنهم أبوا قبول الأمان[1]. وحينئذٍ اشتدّ زنكي في التضييق على الحصن، مستخدماً آلات الحصار الضخمة التي جلبها معه لتدمير أسواره. ولكي تتاح الفرصة لتجمع الصليبيين والتقدم لإنقاذ هذا الموقع الخطير، وأرسل جوسلين لدى سماعه نبأ الهجوم - في طلب نجدة مستعجلة من كافة الإمارات الصليبية في الشام، فلم يستجب له سوى (ميلزاند) الوصية على بيت المقدس، التي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان[2]، كما أنه قام بمحاولة للدخول إلى المدينة، أو إرسال نجدة لتعزيز دفاعها فحيل بينه وبين ذلك، وفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة 539هـ وبعد مرور ثمان وعشرين يوماً على بدء الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن إثر الضرب المركز الشديد الذي تعرضت له، فاجتاحت قوات المسلمين المدينة[3]، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت بعد يومين، وقام القس اليعقوبي برصوما بإجراءات تسليم الرُّها لزنكي[4].

3 - سياسة عماد الدين زنكي في الرها:

رأى عماد الدين زنكي، بعد أن فتح الرها، أن ذلك البلد لا يجوز في السياسة تخريب مثله[5]، وأصدر أوامره إلى جنده بإيقاف أعمال القتل والأسر والسلب، وإعادة ما استولوا عليه من سبي وغنائم، فأعيدوا، ولم يفقد إلا الشاذ النادر، وأعقب ذلك بإصدار أمر آخر بالإسراع في تنظيم ما اضطرب من أمور الرها، وتعمير ما تهدم خلال أسابيع طويلة من القتال ورتّب من رآه أهلاً لتدبير أمرها وحفظها والاجتهاد في مصالحها، ووعد أهلها بإجمال السيرة وبسط العدالة[6] مستهدفاً من وراء ذلك استمالة سكانها الأصليين من المسيحيين الشرقيين ضد الصليبيين الكاثوليك، الأمر الذي يؤكده قيامه بتدمير عدد من الكنائس الكاثوليكية، واحتفاظه بكنائس الشرقيين[7].

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 152.

(2) الحركة الصليبية (2/ 605، 606) عاشور، عماد الدين زنكي، ص: 152.

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 279، 280)، عماد الدين زنكي، ص: 152.

(4) عماد الدين زنكي، ص: 153.

(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل 153.

(6) ذيل تاريخ دمشق، ص: 280، عماد الدين زنكي، ص: 153.

(7) عماد الدين زنكي، ص: 153.

4 ـ العوامل التي ساعدت عماد الدين على استعادة الرها:

هناك العديد من العوامل التي ساعدت عماد الدين على تحرير الرها منها:

* تنامي حركة الجهاد الإسلامية حتى عصره وحصاد تجربة المسلمين في ذلك المجال، فلا ريب في أن التجارب السابقة أثبتت أن إمارة الرها مرشحة أكثر من غيرها لكي تكون أولى الإمارات الصليبية المعرّضة للسقوط في أيدي قادة الجهاد الإسلامي حينذاك، وقد أجهدها أمر الإغارات المستمر من جانب أتابكة الموصل على نحو خاص طوال ما يزيد على أربعة عقود من الزمان مثّل موتاً بطيئاً لها إلى أن تم الإجهاز عليها في العام المذكور.

* ويضاف إلى ذلك براعة عماد الدين زنكي العسكرية الذي فاجأ تلك الإمارة الصليبية بالهجوم، بعد أن اطمأن الصليبيون إليه وتصوروا أنه لن يهاجم فاستغل فرصة غياب أميرها جوسلين الثاني عنها، ووجه لها ضربته القاضية التي انتهت بإسقاطها، وهكذا أثبت ذلك القائد المسلم الكبير أنه اختار التوقيت الملائم لذلك العمل العسكري العظيم.

زد على ذلك: أن الخلاف الواقع بين إمارتي الرها وأنطاكية أثّر بدوره على إمارة الرها، وأدى إلى إجهادها واستهلاكها سياسياً وعسكرياً[1]، على نحو أثبت أن الخلافات التي كانت تحدث بين القيادات الصليبية أثرت بدورها على كياناتهم السياسية وها هي ـ لحسن الحظ ـ إمارة الرها تدفع الثمن بأن سقطت في قبضة من استحقها من قادة الجهاد الإسلامي في ذلك الحين.

* ولا نغفل ـ من ناحية أخرى ـ شخصية أمير الرها جوسلين الثاني الذي لم يكن على القدر نفسه من الكفاءة السياسية والعسكرية التي اتصف بها والده جوسلين الأول، وكان أميل إلى حياة الخلاعة والمجون والسعي الحثيث إلى الملذات، بل إنه كثيراً ما غادر مدينة الرها ذاتها واتجه إلى تل باشر من أجل أن يجد هناك ما يبحث عنه من صور الفساد، ولذلك أدرك فيه المسلمون تلك الزاوية فأحسن قائدهم الإفادة منها وهاجم الرها وقت أن غاب عنها جوسلين الثاني، فأصابها في مقتل[2].

* ويبدو أن الجيل الصليبي الذي حل بعد الجيل الأول الذي أسس الكيان الصليبي

---

(1) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 162.
(2) المصدر نفسه، ص: 162.

وحافظ عليه، لم يكن قادراً على الحفاظ على ما شيده السابقون، بل لم يكن يدرك أهمية دوره التاريخي في ذلك الموقع الشديد الحساسية الذي أحاطه المسلمون من كل جانب، وهكذا شارك جوسلين الثاني ـ دون أن يدري ـ في إنجاح حركة الجهاد الإسلامية حينذاك بقيادة قائدها الكبير عماد الدين زنكي[1].

* **وعلى أية حال**: من الممكن أن من المؤرخين الغربيين من حاول إظهار عوامل الضعف الداخلي في إمارة الرها، وجعل تلك العوامل وحدها هي التي أدت إلى إسقاطها، وهدف من وراء ذلك إضعاف فعاليات المسلمين السياسية والحربية، غير أن المنطق التاريخي يدعونا إلى تصور أن العوامل الداخلية والخارجية تعاونت معاً من أجل صنع انتصار عام (539هـ/ 1144م)، ومهما كان شأن عوامل «النحر والانتحار» الداخلية ونتائجها في الرها فإنها ما كانت لتسقط دون الفعاليات العسكرية لقائد موهوب مثل عماد الدين زنكي، وجنوده من خلفه[2].

5 ـ موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها وماذا جرى في صقلية:

رؤيا لعماد الدين بعد موته:

أ ـ موقف الفقيه موسى الأرمني في فتح الرها: كان للفقيه المؤذن موسى الأرمني المدرس بإحدى مدارس الموصل موقف مشكور في فتح الرها حيث استخدم أسلوب الحرب النفسية في حملة عماد الدين زنكي على الرها عام (539هـ/ 1145م)، فقد نزل الفقيه محاصراً ومقاتلاً، فخطرت بذهنه خطة ذكية أثناء حصار عماد الدين للرها، فقد نزل السوق، واشترى ملابس الأرمن، لكي يدخل بها إلى المدينة حتى لا يعرفه الصليبيون، ويشكّون في أمره[3]، فقال: فنزلت السوق، واشتريت لباساً من لباس الأرمن، وتزينت في زيهم[4]، ووصلت إلى البلد لأنظره وأكشف حاله، فجئت إلى الجامع فدخلت ورأيت المنارة فقلت في نفسي أصعد إلى المنارة، وأؤذن حتى يجري ما جرى، فصعدت وناديت الله أكبر الله أكبر، وأذنت، والكفار على الأسوار، فوقع الصياح في البلد أن المسلمين قد هاجموا البلد من الجهة الأخرى، فترك الكفار القتال ونزلوا عن الأسوار، فصعد المسلمون وهاجموا المدينة[5].

---

(1) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 163.

(2) المصدر السابق، ص: 163.

(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 22.

(4) المصدر نفسه، نقلاً عن بغية الطلب في تاريخ حلب.

(5) بغية الطلب في تاريخ حلب (9/ 3851)، موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 122.

ب ـ **ملك جزيرة صقلية**: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله، ويقدّمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرها سيّر هذا ملك الإفرنج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي، وقد نعس (وهو شبيه النائم) فأيقظه الملك وقال: يا فقيه، قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها ـ أي أتباع رسول الله ﷺ ـ فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيرُ قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلوّ منزلة الرّها عند النّصرانية[1].

ج ـ **رؤيا للشهيد بعد قتله**: ويحكى أن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها[2].

د ـ **مؤامرة فاشلة من سكان الرها**: ما لبث سكان الرها من الأرمن أن دبروا ـ في العام التالي ـ مؤامرة استهدفت الفتك بالمسلمين وإعادة المدينة إلى السيطرة الصليبية بعد القيام باستدعاء جوسلين، إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشف هذه المحاولة الخطيرة، والقبض على مُدبريها وإعدامهم، ثم أعقب ذلك بنفي عدد من الأرمن كيلا يتاح لهم مرة أخرى أن يسعوا إلى طعن المسلمين من الخلف، وتسليم أهم مواقعهم لقمة سائغة للغزاة الصليبيين[3].

6 ـ نتائج فتح الرَّها:

حقق عماد الدين زنكي بفتح الرها أهم إنجازاته التي قام بها ضد الصليبيين طوال مدة حكمه، وكان لهذا النصر نتائج هامة في العالمين الإسلامي والنصراني، ومن أهم تلك النتائج على الإجمال:

أ ـ تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامية وصلت سن الرشد، وتجاوزت المراهقة السياسية والعسكرية دون أن يكون لذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي لا سيما

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 141).
(2) المصدر نفسه (1/ 141).
(3) عماد الدين زنكي، ص: 157.

مودود. وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية، واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة، وإباء، وإنجاز.

ب ـ تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض المسلمة، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل، وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق، ولم تعد الرها تمثل دور الفاصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس[1].

ج ـ زاد الضغط على النطاق الصليبي الذي اتخذ شكلاً طولياً من أنطاكية في الشمال إلى أيلات (الرشراش) جنوباً ومن نهر الأردن شرقاً إلى الساحل الشامي ـ باستثناء عسقلان، إذ أن صور سقطت بالفعل عام (518هـ/ 1124م) بما اشتمله من إمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس الصليبية، فالمؤكد أن رأس الحربة الصليبية في الرها سقطت إلى غير رجعة، والآن أصبح ذراعها قائماً في باقي الكيان الصليبي، ولذلك ازداد الضغط العسكري عليه من قبل القوى الإسلامية التي سيطرت على الظهير الشامي الموازي للساحل والسهل الساحلي، وكأن المعركة صارت ـ على المستوى الجغرافي ـ معركة بين الساحل والظهير، واعتمد الأول على الدعم الخارجي الأوروبي في الأساس، واعتمد الثاني على إمكاناته المحلية الوافرة التي تزايد شأنها مع ظهور قادة الوحدة بين المسلمين.

د ـ أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الإستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأم في الغرب الأوروبي، فلم يكن ذلك الغرب ليسمح لامتداده السياسي والتاريخي في الشرق أن ينهار قطعة قطعة، بل لابد من التدخل من أجل إعادة الأمور إلى نصابها وإجهاز فعاليات إمارة الموصل، ومن ثم كان قيام صليبية 1147م ـ 1149م/ 542هـ ـ 544هـ التي اشتهرت بالصليبية الثانية، وهي من النتائج المباشرة لإسقاط الرها وهو أمر يوضح لنا بجلاء كيف أن قادة الجهاد الإسلامية حاربوا قوى عالمية، ولم تكن مجرد قوى محلية محدودة التأثير والفعالية، وأنهم بالفعل كانوا جزءاً من صراع قاري أو عالمي على نحو يجعل لهم مكانة بارزة في تاريخ المسلمين ـ عامة ـ في عهد الحروب الصليبية.

هـ ـ ومن النتائج العديدة التي نتجت عن ذلك الإنجاز، ارتفاع شأن عماد الدين زنكي

---

(1) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 164، 165.

إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية، تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين، فقد احتل مكانة بارزة[1]، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود، والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين، ملك الأمراء أمير العراقين والشام[2]. وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية، أحاديث تمحورت حول شخصه، تصور لنا مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير، ومهد هذا الفتح الطريق أمام عماد الدين زنكي لاستكمال فتح الحصون المجاورة، وفرض سيطرته التامة على أملاك أعدائه في المنطقة، وأدّى فتح الرها دوراً كبيراً في إنقاذ إمارة عماد الدين زنكي من خطر استمرار الغارات الصليبية عليها، فأصبح أهلها بعد الخوف آمنين[3]، وهذا إنشاء الله من عاجل بشرى المؤمن.

7 ـ رأي المستشرق جون لامونت في عماد الدين:

يعد المستشرق جون لامونت من أبرز المؤرخين الأمريكيين خلال النصف الأول من القرن الماضي، وتعددت مؤلفاته في مجال الصليبيات، ولا سيما دراسته الوافية عن الملكية الإقطاعية في مملكة بيت المقدس، غير أن له دراسة أخرى عنوانها الحرب الصليبية والجهاد ضمن كتاب التراث الإسلامي الذي نشره نبيه فارس، وفي هذه الدراسة؛ اتجه لامونت إلى تفنيده فكرة الجهاد عند المسلمين حينذاك، وتصور تحرك قادة الجهاد الإسلامي حينذاك على أنه من خلال الدوافع السياسية والاقتصادية فقط، وذكر بأن عماد الدين زنكي لا يعتبر بأي حال من الأحوال بطل الجهاد، فإن عماد الدين وإن كان يطمع في استرجاع الرها مُنذ وقت طويل كما يقول كمال الدين بن العديم، لم يقم بهذا العمل بوضوح إلا متأخراً، وبعد أن حثه على ذلك أمير حران جمال الدين أبو المعالي فضل الله بن ماهان الذي بيَّن له سهولة احتلال المدينة[4]، ويستمر في تصوره قائلاً: الظاهر أنه هو نفسه كان يعتبر احتلال الرها خروجاً عن

---

(1) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 165.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 156.

(3) المصدر نفسه، ص: 156.

(4) الحروب الصليبية، والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 166.

سياسته وعملاً قام به بناء على تحريض الآخرين[1]، وذكر أيضاً: أن استيلاء زنكي على حماه، وحمص، وحلب وحروبه ضد الأرتقيين أعظم أهمية عنده من حرب النصارى، وما كان ليكره التحالف مع اللاتين إذا رأى في ذلك مصلحته[2]. ومن الممكن تفنيد تلك الآراء على النحو التالي:

* كان اتجاه عماد الدين زنكي لمهاجمة الرها متأخراً وذلك أمر لا يقلل البتة من دوره الجهادي خاصة أنه كان يرى أن يستهلك طاقات تلك الإمارة الصليبية في صراعاته وحروبه معها ضد حصونها ومعاقلها، ثم يتجه بعد ذلك إلى مهاجمة الإمارة نفسها بعد أن يتمكن من سبر غور دفاعاتها، ومعرفة نقاط الضعف فيها، وكذلك نقاط القوة، ومن ناحية أخرى من الطبيعي تصور أن نصيحة أمير حران لزنكي بإسقاط الرها لم تكن لتغير من الموقف شيئاً لو لم يكن زنكي قد خطط مسبقاً لذلك، بل أغلب الظن أن سقوط تلك الإمارة من الصعب تصور حدوثه على النحو الذي يصوره لامونت، بل أنها في الأغلب كانت من مخططات الزنكيين مُنذ أمد بعيد، أما تعليل عدم تبكير زنكي بالاستيلاء عليها، فذلك مرجعه إلى عدم رغبته في إجهاض قوته الحربية في صدام مبكر مع الصليبيين غير مضمون النتائج خلال مرحلة حكمه المبكرة، ولذا فمن الممكن اعتبار توقيت الاستيلاء على الرها ـ على نحو ما فصلته المصادر اللاتينية والسريانية، والعربية بحق ـ من أبرز دلائل حنكة زنكي السياسية، يبدو أن ادعاء لامونت بأن إسقاط الرها كان بعيد عن سياسة عماد الدين زنكي هو أكبر الادعاءات التي لا تجد سنداً تاريخياً يدعمها، فمن المعروف أن زنكي كان مشتركاً في جيش مودود، وبنص عبارة ابن الأثير: شهد معه حروبه[3]، ولا ريب في أنه أدرك أهمية إسقاط الرها، بل إن ذلك الحلم ترسب في ذهنه مُنذ زمن بعيد والمتصور أنه أراد النجاح فيما أخفق فيه مودود من قبل، وقد اعتقد أن إسقاطها أمر ضروري على اعتبار أنها الهدف الصليبي الأقرب إلى الموصل، كما أن تحقيق مثل ذلك الهدف من شأنه تيسير اتصاله بشمال الشام، وخاصة من خلال رؤيته التوحيدية الثاقبة[4].

* إن افتراض جون لامونت بأن زنكي كان يمكن أن يتحالف مع اللاتين من أجل مصلحته السياسية، افتراض يدعم حنكة عماد الدين زنكي السياسية، فقد لجأ إلى عقد الاتفاقيات مع الصليبيين أحياناً من أجل التقاط الأنفاس، وعدم الوقوع في أتون جبهتين: جبهة الشرق بصراعه مع قواه السياسية، وجبهة الصراع مع الصليبيين، ثم أنه أراد أن يبعث

---

(1) الحروب الصليبية، والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 166.

(2) المصدر نفسه، ص: 166.

(3) الباهر، ص: 17، الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 167.

(4) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 167.

الطمأنينة في نفوس الأخيرين من خلال مثل تلك الاتفاقات، في حين كان يبطن النية للإجهاز على الرها، ولذا جاءت عمليات الحصار من جانبه نحوها أمراً مفاجئاً لأهلها[1].

* أما القول: بأن زنكي لم يكن هدفه الوحيد إسقاط الرها، بل إنه كان يسعى أيضاً إلى بناء دولته على حساب جيرانه سواء المسلمين أو الصليبيين، فينبغي ملاحظة أن كافة القيادات الإسلامية التي ظهرت خلال عصر الحروب الصليبية على امتداد القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين/ السادس والسابع الهجريين وساهمت في قضية الجهاد، كان لديها طابع ما من الطموح السياسي وكانت تسعى بالفعل إلى توطيد أركان دولها على حساب القوى السياسية المجاورة لها، غير أن العبرة هنا بأن الطموح السياسي ـ كما أشرت من قبل ـ يتم تفجيره في قضية الأمة بأسرها وهي الجهاد، لأن مثل تلك القيادات كان من الممكن أن ترضى العيش في ذلة وانكسار مع الصليبيين ولا تتوسع على حسابهم تجنباً لإثارة المشكلات السياسية معهم ولسقوط القتلى والجرحى، بل وتعرّض مناطق نفوذها الأصلية لاعتداءات الغزاة غير أنها رفضت ذلك وقبلت التحدي الصليبي وأظهرت قدرتها على تغيير الجغرافية السياسية للمنطقة من خلال تبنيها لمشاريع الجهاد[2].

* من المهم أن تعرف أنه لا يخفى على دارسي تاريخ العلاقات الإسلامية مع القوى المسيحية في مرحلة الحروب الصليبية، كيف أن قطاعاً من المستشرقين حرص على سلب المسلمين إنجازاتهم، وشككوا في المراحل الناصعة من تاريخهم، كما أن هناك ثأراً ملازماً ـ من قبل ذلك القطاع ـ منهم لاسيما مع فكرة الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام، ولذلك حرصوا الحرص أجمعه على إنكارها، والتشكيك فيها، والإساءة إلى كافة التجارب الجهادية الماضية للمسلمين حتى لا يتبنوها في الحاضر والمستقبل، وهكذا من الممكن الإقرار ـ بموضوعية ودون تعسُّف في الأحكام ـ أن عصر الحروب الصليبية شهد نقلة نوعية في تطوير فكرة الجهاد في الإسلام، حيث أن الجهاد هذه المرة كان ضد عدو استقر على الأرض الإسلامية، بعد ضعف المسلمين من جراء صراعاتهم مع بعضهم البعض، فإذا ما أدركنا أن هويتهم الدينية كانت في خطر أمام مشاريع التنصير التي علقت عليها البابوية آمالاً كبرى، أدركنا كم كانت فكرة الجهاد فكرة محورية في عصر الحروب الصليبية[3]. إن المراجع الغربية حاولت تشويه صورة هذا المجاهد الكبير قديماً وحديثاً، ومن أشهر الكتب المعاصرة، كتاب الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، قالت صاحبة الكتاب كارين أرمسترونغ

---

(1) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 167.

(2) المصدر نفسه، ص: 168.

(3) المصدر نفسه، ص: 168.

عن عماد الدين زنكي: لم يكن هذا بأي حال قدوة تحتذى، بل كان سكّيراً عربيداً قلما يفيق من سكره، كما كان قاسياً بطاشاً مثل معظم رجال الحرب في عصره[1].

وسيرة الرجل تكذب ما يقولون، ووصفه مؤرخونا بالشهيد، وهو وسام عالي الرتبة والمقام لا يعطى إلا لمن هو أهلاً لهذا الوصف الكبير، فقد قالوا في سيرته من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف[2]، وكان معظِّماً للشريعة ومقيماً لحدودها في دولته، وقد كلف بذلك القضاة.

إن من أهداف بعض المستشرقين:

* تشويه رموز الجهاد لكي تبقى أجيالنا بدون قدوات تقوي العزائم وتنهض بالهمم.

* إضعاف روح الفداء والتضحية والشهادة والجهاد في الأمة حتى يستطيعوا سوقها كالبهائم.

* محاولة فصل الأمة عن تاريخها بالأكاذيب والتشويه حتى لا ترجع إلى تاريخها الحافل فتستخرج منه الدروس والعبر.

* كانت كتابتهم تنبثق من روح صليبية حاقدة على الأبطال الذين ساهموا في إفشال المشروع الصليبي ولذلك حاول المستشرقون تشويه صورة عماد الدين زنكي.

* إن سيرة عماد الدين ومن حوله من أعوانه المخلصين كالقاضي الشهرزوري تقطع بدون شك بكذب أولئك المستشرقين الذين حاولوا طمس الحقائق، وإلصاق التهم الباطلة بذلك الرجل العظيم، فتجربته الجهادية تستحق الدراسة والتحليل العميق مع ربط ما وصلنا إليه من دروس وعبر بواقعنا المعاصر، لكي نستفيد منها في السعي الجاد لنهضة الأمة.

8 ـ مدح الشعراء لعماد الدين عند فتح الرَّها:

إن كثيراً من الباحثين والكتّاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط، آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ وأدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها: رغبتهم في عدم اطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعزة والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً وأكراداً وأتراكاً ـ يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام ـ مقاتلين ومجاهدين ومنتصرين يترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية ويجمعهم حب الله ورسوله

---

(1) الحرب المقدسة والحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ص: 245.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 157).

والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة، ثم إلى إعادة تقييم وحينئذ سنجد أن آراءنا قد تغيرت تغيراً إيجابياً لأننا سنجد فيه الكثير مما يستحق الدراسة وسنجد الكثير من الأشعار اللطيفة الرقيقة في الحماسة ووصف المعارك ومديح الأبطال وسنجد الشعر الحزين الباكي في رثائهم[1]، وهذه باقة طيبة من الأشعار متعلقة بفتح الرها ومدح عماد الدين زنكي، فقد وصف ابن الأثير جيش عماد الدين في خروجه لفتح الرها فقال:

بجيش جاش بالفُرسان حتى ... ظننت البرَّ بحراً من سلاح
وألسنة من العذبات حُمْر ... تخاطبنا بأفواه الرِّياح
وأروع جيشه ليلٌ بهيم ... وغُرَّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن ... قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلباً ... وهيبته جناحاً للجناح[2]

أ ـ القيسراني يمدح عماد الدين في فتح الرُّها: قال الشاعر:

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده ... وهل طوّق الأملاك إلا نجاده

ولقد كان لهذا الفتح رنة فرح في نفوس الناس، وبفتح الرها تغيرت نظرة الفرنج إلى قوة المسلمين، وأعادها عماد الدين زنكي إلى ديار الإسلام بعد أن حكمها الفرنج نصف قرن ومما جاء في القصيدة:

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظُّبى ... سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ... ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وذاد قسيمُ الدولة ابنُ قسيمها ... عن الله ما لا يُستطاعُ ذياده
لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ ... رواسيه عزًّا واطمأنَّ مهاده
وفتحٌ حديثٌ في السماع حديثه ... سهيٌ إلى يومِ المَعَادِ مُعَادُه
أراح قلوباً طِرْن من وُكُناتِها ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ
لقد كان في فتح الرُّها دلالة ... على غير ما عند العُلُوجِ اعتقاده

---

(1) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين، ص: 10.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 139).

يُرَجُّون ميلاد ابن مريم نصرة ... ولم يُغنِ عند القوم عنهم ولاده

مدينة إفك مُنذ خمسين حِجَّة ... يفِلُّ حديد الهند عنها حداده

تفوتُ مدى الأبصار حتى لو أنها ... ترقت إليه خان طرفاً سواده

وجامحةٌ عزَّ الملوكَ قِيادُها ... إلى أن ثناها من يعزُّ قياده

فأوسعها حرَّ القِراع مُؤيَّدٌ ... بصيرٌ بتمرين الألدُّ لِدَادهُ

كأنَّ سنا لَمْعِ الأسنَّةِ حوله ... شرارُ ولكن في يديه زناده

فأضرمها نارين: حرباً وخدعة ... فما راع إلا سورُها وانهدادُهُ

فصدَّت صُدُودَ البِكْر عند افتضاضها ... وهيهات كان السيف حتماً سفاده[1]

فيا ظَفَراً عمَّا البلاد صلاحه ... بمن كان قد عمَّ البلادَ فساده

فلا مُطْلَقٌ إلا وشُدَّ وثاقه ... ولا مُوثَقٌ إلا وحُلَّ صِفاده

ولا مِنبرٌ إلا ترنَّح عُودُه ... ولا مصحف إلا أنار مداده

فإن يشكل الإبرنز فيها حياته ... وإلا فقل للنجم كيف سُهادُهُ

وباتت سرايا القمص نقمص دونها ... كما يتنزَّى عن حريق جراده

إلى أين يا أسرى الضَّلالة بعدها ... لقد ذَلَّ غاويكم وعَزَّ رشاده

رُوَيْدكُمُ لا مانع من مُظَفَّر ... يعانِدُ أسباب القضاء عِنادُهُ

مُصيبُ سهام الرأي لو أن عَزْمَهُ ... رمى سَدَّ ذي القرنين أصمى سَدادُهُ

وقل لملوك الكُفر سُلم بعدها ... ممالكها إن البلاد بلاده

كذا عن طريق الصُّبح أيتها الدُّجى ... فيا طالما غال الظلام امتدادُهُ

ومن كان أملاك السَّمٰواتِ جنده ... فأية أرض لم ترضها جياده

ولله عزم ماءُ سيحان ورده ... وروضة قسطنطينة مستراده[2]

وله قصيدة هنَّأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرزُوري أوّلُها: هي جنة المأوى فهل من خاطب. يقول فيها:

---

(1) في رواية: نفاده.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 143).

إن الصَّفائح يوم صافحت الرُّها ... عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مبشِّراً بتمامه ... كالفجر في صدر النَّهار الأيبِ
لله أيَّة وقفة بدرية ... نُصرت صحابتها بأيمن صاحب
ظفرٌ كمال الدين كنت لقاحَه ... كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيشُ الملائك نصرةً ... بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدَّبور وقد تم ريح الصبا ... جندُ النبوة هل لها من غالب
أترى الرُّها (الورهاء)[1] يوم تمنعت ... ظنت وجوب السورِ سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها ... ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدُّا إلى أرض الفرنجة بعدها ... إن الدُّرُوبَ على الطريق اللأحب
أفغرَّكم والثأرُ رهنُ دمائكم ... ما كان من إطراق لحظ الطَّالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه ... دون الفريسة فهو عينُ الواثب[2]

ب ـ ابن منير يمدح عماد الدين في فتح الرها:

صفاتُ مجدِكَ لفظ جلَّ معناه ... فلا استردَّ الذي أعطاكه الله
يا صارماً بيمين قائمةٌ ... وفي أعالي أعادي الله حَدَّاه
أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً ... بلا شبيهٍ إذ الأملاكُ أشباه
فداك من حاولت مسعاك همتُهُ ... جهلاً وقصَّرَ عن مسعاك مسعاه
قل للأعادي ألا موتوا به عمداً ... فالله خيَّبكم والله أعطاه
مَلْكٌ تنام عن الفحشاء همتُهُ ... تقى وتسهر للمعروف عيناه
ما زال يَسْمُكُ والأيام تخدمه ... فيما ابتلاه وتُدني ما توخَّاه
حتى تعالت عن الشِّعرى مشاعره ... قدراً وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس عن فتح أُتيح له ... مظلٌّ أفف الدّنيا جناحاه
على المنابر من أنبائه، أرج ... مقطوبة بفتيق المسك ريّاه

---

(1) الورهاء : الخرقاء.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 144).

فتحٌ أعاد على الإسلام بهجتهُ ... فافترَّ مبسمُه واهتزَّ عِطفاه
يُهدَى بمعتصم بالله فتكته ... حديثها نَسَخ الماضي وأنساه
إن الرُّها غير عمُّوريةٍ وكذا ... مَنْ رامها ليس مَغْزًا، كمغزاه
أخت الكواكب عِزًّا ما بغى أحدٌ ... من الملوك لها وَقْماً[1] فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم يشحذه ... رأيٌ يبيتُ فُوَيْقَ النَّجم مسراه
مشمِّراً وبنو الإسلام في شُغُلٍ ... عن بَذْءِ غرس لهم أثمار عقباه
يا مُحيي العَدْلِ إذ قامت نَوَادبُه ... وعامر الجُودِ لما مخَّ[2] معناه
يا نعمة الله يستضفي المزيد بها ... للشاكرين ويستقني صفاياه
أبقاك للدّين والدُّنيا تحوطُهما ... من لم يُتوِّجك هذا التَّاج إلا هو[3]

ولابن منير أيضاً من قصيدة أخرى يقول فيها:

أيا ملِكاً ألقى على الشرك كلكلاً ... أناخ على أماته كَلْكَلُ الثُّكل
جمعت إلى فتح الرُّها سدّ بابه ... بجمعك بين النَّهب والأَسْر والقتل
هو الفتحُ أنس كلّ فتح حديثه ... وتوَّجَ مسطورَ الرّواية والنَّقلِ
فضضت به نقش الخواتمِ بعده ... جُزيتَ جزاء الصدق عن خاتم الرسلِ
تجردت للإسلام دون ملوكه ... تُبتّكُ أسباب المذلَّةِ والخذل
أخو الحرب غَذَّتْهُ القراع مفطَّماً ... يشوب بإقدام الفتى حُنْكَة الكهل

وقال أيضاً:

بعماد الدين أضحت عروة الدين ... معصوباً بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدَّولة ... القسم في إدحاض كيد المارقين
ملك أسهر عيناً لم يزل ... همُّها تشديد هَمّ الرّاقدين
لاخَلَت من كَحَل النَّصر فقد ... فقأت غيظاً عيون الحاسدين

---

(1) وقماً : أي ذلاً.
(2) مخّ : خلق ودرس.
(3) أماته : مفردها : أم، والجمع : أمات أو المهات.

كلُّ يوم مرّ من أيامه ... فهو عيدٌ عائد للمسلمين

لو جرى الإنصاف في أوصافه ... كان أولاها أمير المؤمنين

ما روى الرّاوون بل ما سطّروا ... مثل ما خَطّتْ له أيدي السنين

إذ أناخ الشرك في أكنافه ... بمثني ألفٍ تلاها بمثين

وقعة طاحت بكلب الروم من ... قطعه التّين إلى قطع الوَتين[1]

إن حمت مصر فقد قام لها ... واضح البرهان أن الصّين صينْ

والرُّها لو لم تكن إلا الرُّها ... لَكَفَتْ حسماً لشك المُمترين

درج الدّهر عليها مُعصِراً ... لم تدنس بمرام اللّا مسين

هَمَّ قسطنطين أن يَفْرَعَهَا ... ومضى لم يَحوِ منها قِسْطَ طين

ولكم مِنْ مَلِكٍ حاولها ... فتحلّى الحين وسما في الجبين

هي أخت النجم إلا أنها ... منه كالنجم لرأي المبصرين

مُنِيَتْ منه بليث قائدٍ ... بِعران[2] الذُّلّ أساد العرين

زارها يزأرُ في أسد وغى ... تبدل الأسد في الزأر الأنين

صولجوا البيضَ[3] بضرب نثر ... الهام في ساحاتها نثر الكُرِيْن[4]

يا لها همّةُ ثغرٍ أضحكت ... من بني القُلْفِ[5] ثغور الشّامتين

بَرْنَسَتْ رأسَ برنسٍ ذِلّةً ... بعدما جاست حوايا جوسلين

وسروج مُذْ وعت أسراجه ... فَرّقَتْ جُمّاعها عنها عِضين

تلك أقفال رماها الله من ... عزمه الماضي بخير الفاتحين

شامَ منه الشّامُ برقاً ودَقُه[6] ... مؤمنُ الخوف مخيفُ الآمنين

كم كنيس كُنِسَتْ آرامها ... منه بعد الروح في ظل السّفين

---

(1) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(2) العران: خشبة تجعل في وتر أنف البعير وهو ما بين المنخرين.

(3) أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها: صولجان.

(4) مفردها كرة: وهي التي يلعب بها بالصولجان.

(5) القُلْف: أي الذين لم يُختنوا ويعني الصليبيين.

(6) ودقة: مطرة.

إلى أن قال:

همة تمسي وتضحي عزمةً	ليس حصن إن نحته بحصين
قل لقوم غرّهم إمهاله	ستذوقون شذاه بعد حين
إنه الموت الذي يدرك من	فر منه فشجا للغافلين
وهو يُحيي مُمسكي عُروته	إنها حبل لمن تاب متين
من يطع ينج ومن يعص يكن	من غداةٍ عبرةً للآخرين
أقسم الجد بأن تبقى لكي	تملك الأرض يميناً لا يمين[1]
وتفيض العدل في أقطارها	منسياً مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارُك كيف انتقلت	كعبة محفوفة بالطائفين
كل يوم يتحلى جيدُها	من نظيم المدح بالدُّرّ الثمين
كلما أُخلص فيها دعوةٌ	لك قالت ألسُنُ الخلْقِ آمين[2]

ثامناً: الأحداث العسكرية بعد فتح الرها:

كان فتح الرها بداية لها ما بعدها، إذ لم يكن من الصعب على عماد الدين زنكي أن يستكمل مهمته بفتح باقي المعاقل الصليبية التابعة لهذه الإمارة، فاستغل فرصة تضعضع أحوال الصليبيين في المنطقة[3]، واتجه إلى سروج التي تخلت حاميتها عنها مولية الفرار واستولى عليها، وما لبثت الحصون المجاورة أن أخذت تسقط في يديه واحدة تلو الأخرى[4]، وجعل لا يمرّ بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها، إلا سلّم إليه في الحال[5]، ثم يمم وجهه صوب قلعة البيرة الحصينة المطلة على الفرات، وكانت من أهم الحصون التي تبقت لجوسلين الثاني، وأشدها مناعة ففرض الحصار عليها وقطع عنها ما كان يصل إليها من القوت والميرة والمعونة حتى أشرفت على الاستسلام، وحينذاك بلغ زنكي نبأ مقتل نائبه في الموصل فاضطر إلى فك الحصار والإسراع بالتوجه إلى مقر إمارته لإقرار الأوضاع فيها، إلا أن صليبيي

---

(1) لا يمين: لا يكذب.

(2) كتاب الروضتين (1/ 149).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 156.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 280، عماد الدين زنكي، ص: 156.

(5) المصدر نفسه، ص: 280، المصدر نفسه، ص: 157.

الحصن خافوا من مهاجمته إياهم ثانية، فأرسلوا إلى حسام الدين تمرتاش الأرتقي وأعلموه برغبتهم في التنازل له عن موقعهم هذا، قبل أن يسقط بيد عدوهم اللدود. وهكذا فَقَدَ صليبيو الرها كافة حصونهم الواقعة شرقي الفرات[1]، كنتيجة مباشرة لسقوط القاعدة الأم بيد زنكي، ولم يتبق لجوسلين من إمارته الواسعة سوى عدد من الحصون المنتشرة غربي الفرات كتل باشر ومرعش ودلوك وسميساط وعينتاب وعزاز[2]، واستطاع نور الدين محمود ـ فيما بعد ـ اكتساحها جميعاً، ومحو أولى الإمارات الصليبية من الوجود[3].

تاسعاً: من أساليب عماد الدين زنكي في محاربة الصليبيين:

لم يقتصر عماد الدين زنكي، في قتاله للصليبيين على الحروب النظامية، فحسب، إذ كان ذلك يقتضي منه البقاء باستمرار في بلاد الشام، واستنفاد قواه في قتال أعدائه هؤلاء، وعدم تمكنه ـ بالتالي ـ من التفرغ لتصفية مشاكله العديدة في العراق والجزيرة، وأدرك أهمية الاستفادة من الغارات، أي الهجوم والانسحاب السريع، سيما في فترات غيابه عن الشام، ذلك أن هذا النوع من القتال سيتيح له الحصول على نتائج هامة، **أولها**: إقلاق الصليبيين وعدم إعطائهم المجال لإعادة تنظيم قواتهم، ورسم الخطط الهجومية على مواقع المسلمين في المنطقة، ومن ثم تمكين هؤلاء من الدفاع عن مراكزهم والاحتفاظ بها، **وثانيها**: إضعاف قوى العدو العسكرية والاقتصادية، بما تحدثه ـ هذه الحروب ـ من قتل وأسر ونهب وتخريب، **وثالث** تلك النتائج: قطع الاتصال بين المراكز الصليبية شمالي الشام، وعدم إعطائهم الفرصة للتجمع وتوجيه ضربة موحدة ضد المسلمين[4]، وقد اعتمد زنكي في هذا النوع من القتال على محاربي التركمان، ومهد لذلك بتوثيق علاقاته بقادتهم وإسناد كبرى المناصب الحربية إليهم، وقد عمل زنكي على توفير القيادة الحاذقة من التركمان أيتكين، ولجة التركي والياروق وغيرهم، والمحاربين الشجعان، للقيام بشن ما يطلق عليه اليوم حروب المقاومة والعصابات، وجعل من حلب مركزاً لهم نظراً لأهمية موقعها بالنسبة للحصون الصليبية والإسلامية على السواء، فهي تتوسط أنطاكية والرها الصليبيتين، وتسيطر على خطوط المواصلات بينهما، كما أنها تعد خير قاعدة عسكرية لتوجيه الهجمات السريعة ضد مواقع وتحركات الصليبيين، وقوافل إمدادهم وتموينهم، وقد قامت هذه الجماعات من التركمان بشن

---

(1) مفرج الكروب (1/96)، عماد الدين زنكي، ص: 157.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 157.

(3) المصدر نفسه، ص: 157.

(4) المصدر نفسه، ص: 158.

غارات عديدة ضد جيوش الأعداء ومعسكراتهم، وقوافلهم ومراكز تجمعهم، ولم تخل سنة من سني الصراع وحروب العصابات كان يقوم بها هؤلاء التركمان، ويلحقون ـ بفضلها ـ خسائر مختلفة في صفوف أعدائهم، ففي رجب من عام (524هـ) على سبيل المثال جهز زنكي قوة عسكرية أغارت على عزاز الصليبية وعاشت في بلاد جوسلين أمير الرها[1]، وفي العام التالي حدث اشتباك بين سوار وجوسلين، شمالي حلب، أسفر عن انتصار الصليبيين ومقتل عدد من المسلمين، مما دفع سوار إلى القيام بهجوم على ربض الأثارب، والاستيلاء على مقادير من أموالهم ومحاصيلهم ثم ما لبث بعد عام واحد (526هـ) أن أوقع بصليبيي تل باشر وقتل منهم خلقاً كثير[2]، ولم يتوقف سوار وجنده التركمان عن شن الغارات ضد الصليبيين كلما أتيحت الفرصة لذلك، وشهد صفر من عام (527هـ) عدة اشتبكات بين الطرفين، وقع أحدها بالقرب من قنسرين، أثر قيام بلدوين بيت المقدس بمحاولة للهجوم على أطراف حلب، حيث تصدى له سوار، وجماعة من جنده، وأسفر القتال عن هزيمة المسلمين وانسحابهم إلى حلب، إلا أن قائدهم الشجاع ما لبث أن خرج بهم ثانية، ووقع على طائفة منهم فأوقع بهم وأكثر القتل والأسر، وانهزم من سلم منهم إلى بلادهم وعاد إلى حلب حاملاً معه رؤوس القتلى والأسرى وكان يوماً مشهوداً[3]، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى قام صليبيو الرها بمحاولة جديدة للإغارة على أعمال حلب، فخرج إليهم سوار يصحبه الأمير حسان البعلبكي أمير منبج، وأوقع بهم على حين غرة، وتمكن من إبادة عدد كبير منهم، وأسر الباقين، ثم قفل عائداً إلى حلب دون أن يصاب أحد من جنده بأذى[4].

وفي جمادى الآخرة من نفس العام قام سوار على رأس قوة من الفرسان بالإغارة على تل باشر، فتصدى له صليبيو ذلك الموقع، إلا أنه تمكن من هزيمتهم، وحصد رؤوس ألف رجل، حملها معه إلى حلب[5]. وفي ربيع الأول من العام التالي سار صاحب موقع القدموس الصليبي إلى قنسرين، على رأس قوة من فرسان أنطاكية، فلقيهم عسكر حلب بقيادة سوار وأسفر القتال عن انتصار الصليبيين واضطر قائد زنكي إلى مصالحتهم، إلا أنه ما لبث أن باغت إحدى سرياهم بهجوم سريع، وتمكن من قتل معظم أفرادها، ثم قفل عائداً إلى حلب، فسر الناس بذلك بعد مساءتهم. ولم يمض سوى وقت قصير حتى أغار فرسان الرها على أطراف حلب الشمالية في طريقهم إلى إحدى المعسكرات الصليبية فأوقع بهم سوار وحليفه أمير منبج، وأباد عدداً كبير منهم، بينما وقع

---

(1) مفرج الكروب (1/ 4)، عماد الدين زنكي، ص: 159.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 160.

(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 240، 241، عماد الدين زنكي، ص: 160

(4) عماد الدين زنكي، ص: 160.

(5) المصدر نفسه، ص: 161.

معظم الباقين في الأسر[1]، ثم ما لبث سوار أن قام ـ في نفس العام ـ بغارة واسعة على المواقع الصليبية في منطقة الجزر[2]، وزردنا، وأوقع بأعدائه عند حارم ثم عاد إلى حلب محملاً بالغنائم والأسلاب[3]، وأخذ نطاق الغارات والهجمات المفاجئة يتسع شيئاً فشيئاً، وشهد رجب من (عام 530هـ) محاولة واسعة قام بها سوار، إذ سار على رأس ثلاثة آلاف فارس من التركمان وفاجأ بلاد اللاذقية وأعمالها بهجوم مباغت لم يكن الصليبيون يحسبون له أي حساب، وتمكن بذلك من أسر سبعة آلاف أسير، والحصول على مقادير كبيرة من الغنائم، واجتياح عشرات من القرى والمزارع الصليبية ملأ المسلمون أيديهم منها بالأسرى والغنائم، وقد استبشر مسلمو المنطقة أيما استبشار لهذا النصر الكبير الذي أحرزه سوار، والذي كان بالنسبة لصليبيي الشمال نكبة لم يمنوا بمثلها[4].

والواقع أن ما شاهدته أنطاكية، خلال عامي (529هـ، 530هـ) من فتن داخلية بسبب النزاع على الحكم، أسهم إلى حد كبير في عجز هذه الإمارة عن الدفاع عن نفسها إزاء هجمات المسلمين[5] الأمر الذي دفع قائدهم إلى استغلال الفرصة وتحقيق نصر كبير ضد صليبيي الشمال، وفي أواخر العام التالي قام سوار بهجوم مباغت ضد سرية بيزنطية كبيرة العدد، كانت تتقدم شرقاً، وتمكن من قتل وأسر عدد من أفرادها ثم قفل عائداً إلى مقره في حلب[6]، ولم تمض سوى أشهر معدودات على هذا الهجوم حتى قام الصليبيون والبيزنطيون بإرسال قوات مشتركة لاحتلال قلعة الأثارب القريبة من حلب، وبعد أن حققت هذه القوات هدفها، أوْكل إليها حراسة أسرى المسلمين الذين جمعوا في هذا الموقع. إلا أن سوار ما لبث أن خرج على رأس قواته وهاجم الحامية الصليبية والبيزنطية، وتمكن من استخلاص معظم أسرى المسلمين من أيديهم، وعاد بهم إلى حلب التي عمها السرور وسادتها الأفراح لهذا النصر الذي حققه أميرها[7]، وفي عام (533هـ) هاجم سوار عدداً من المواقع الصليبية واستولى على بعض الغنائم، إلا أن فرسان الصليبيين تمكنوا من اللحاق به وإنزال هزيمة بقواته أسفرت عن أسر ما يزيد عن ألف فارس منهم، وانسحب هو إلى حلب بمن سلم من جنده[8]، واستمرت المناوشات بين الطرفين طيلة السنين التالية،

---

(1) زبدة الحلب (2/ 252).

(2) الجزر: إحدى كور حلب، معجم البلدان (2/ 71).

(3) زبدة الحلب (2/ 254)، عماد الدين زنكي، ص: 161.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 255، 256)، ، عماد الدين زنكي، ص: 161.

(5) الحروب الصليبية، العريني (1/ 510)، ، عماد الدين زنكي، ص: 161.

(6) عماد الدين زنكي، ص: 162 زبدة الحلب (2/ 263).

(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن عماد الدين زنكي، ص: 162.

(8) زبدة الحلب (2/ 271)، عماد الدين زنكي، ص: 162.

وأصابها بعض الفتور خلال عامي (534هـ ـ 535هـ). أثر فشل زنكي في الاستيلاء على دمشق، وتحالف الصليبيون والدمشقيون ضده إلا أن هذه المناوشات ما لبثت أن استعرت من جديد في عام (536هـ) والسنين التي تلته، ففي الأشهر الأولى من هذا العام قام الصليبيون بهجوم سريع ضد بعض المواقع الإسلامية غربي حلب، ولدى تفرقهم، أرسل سوار قوة من التركمان بقيادة ابنه علم الدين، أغارت على المواقع الصليبية وتوغلت إلى أسوار أنطاكية، ثم عادت تحمل معها كثيراً من الغنائم والأسلاب[1] وبعد فترة قصيرة أغار لجة التركي على بعض المناطق الصليبية في الشمال فساق وسبى وقتل، وذكر أن عدد القتلى بلغ سبعمائة رجل[2]، وفي رمضان من العام نفسه هاجم سوار معسكراً صليبياً عند جسر الحديد، إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، بعد أن اجتاز بقواته نهر العاصي صوب تجمعات العدو، وتمكن من قتل معظم أفراد المعسكر، وأسر الباقين[3]، وما لبث أمير أنطاكية أن خرج ـ في العام التالي ـ للإغارة على وادي بزاعة القريب من حلب، فتصدى له سوار وأجبره على الانسحاب. وانتهز جوسلين الفرصة فقام بهجوم على تجمعات المسلمين عند ضفاف الفرات، وتمكن من أسر تسعمائة رجل منهم، ثم ارتأى الطرفان عقد هدنة بينهما لم يكن لأمير أنطاكية نصيب فيها[4]، وهكذا ظل القتال مستمراً بين هذه الإمارة وقوات حلب وعندما خرجت طائفة كبيرة من تجار أنطاكية في جمادى الأولى من عام 538هـ ـ تحرسها قوة من الفرسان في طريقها إلى بعض البلاد الصليبية المجاورة ومعها مال كثير وأموال ومتاع باغتها المسلمون، وأوقعوا بها، وتمكنوا من إبادة كافة أفراد القوة التي خرجت لحمايتها، وغنموا ما كانت تحمله من بضائع قيمة[5]، وفي أواخر ذي القعدة من العام نفسه هاجمت مجموعة من فرسان حلب قوة من الفرسان الصليبيين الخارجين من باسوطا وأبادوهم، وأسروا صاحب باسوطا حيث اعتقله سوار في حلب[6].

عاشراً: حصيلة الدور السياسي العسكري الذي لعبه عماد الدين على مسرح التاريخ الإسلامي:

يمكن القول بأن عماد الدين زنكي استطاع أن يحقق قسطاً كبيراً من برنامجه، وأن يكوّن لنفسه مكانة خاصة في التاريخ الإسلامي كسياسي بارع وعسكري متمكن، ومسلم واع

---

(1) زبدة الحلب (2/ 275)، عماد الدين زنكي، ص: 162.

(2) عماد الدين زنكي، ص: 163 زبدة الحلب (2/ 275).

(3) زبدة الحلب (2/ 276)، عماد الدين زنكي، ص: 163.

(4) المصدر نفسه، ص: 160 ـ 163.

(5) ذيل تاريخ دمشق، ص: 278، زبدة الحلب (2/ 277، 278).

(6) زبدة الحلب (2/ 278)، عماد الدين زنكي، ص: 163.

أدرك الخطر الذي أحاط بالعالم الإسلامي من قبل الصليبيين، فقد استطاع أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية، بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام، وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بمقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج، أي تشكيل الجبهة الإسلامية، وضرب الصليبيين، وقد اتضح لنا من خلال استعراض علاقة عماد الدين زنكي بالقوى الإسلامية كإمارات المدن والإمارات المحلية في الجزيرة والشام، والقبائل الكردية والتركمانية ـ مدى قدرته السياسية وبراعة خططه العسكرية خلال علاقاته السلمية والحربية مع هذه القوى المنبثة في المنطقة، فهو من الناحية الرسمية كان قد تسلم من السلطان السلجوقي «محمود بن محمد بن ملكشاه» عام (522هـ) منشوراً يقر سلطته الشرعية على الموصل والجزيرة والشام، وقد تأكد هذا المنشور خلال الأعوام التالية. إلا أنه لم يكن كافياً لتثبيت سلطته الفعلية في هذه الفترة التي استطاع فيها عدد كبير من الأمراء أن يفرضوا سلطتهم على عدد لا يحصى من المدن والأقاليم، مستقلين إلى حد كبير عن السلطة السلجوقية، ومستفيدين من مجموعة من العوامل الشخصية والسياسية والجغرافية والاقتصادية والبشرية، فكان لابد لزنكي إذن من إخضاع هذا العدد الكبير من السلطات المتمركزة في المنطقة، ومن اختيار أسلوب الهجوم، مُنذ البداية بالرغم مما يحيق بهذا الأسلوب من أخطار.

أولها: احتمال تشكيل حلف دفاعي مضاد من الأمراء العادين، وقد يتحول هذا الحلف فيما بعد إلى حلف هجومي، كما حدث بالنسبة للأراتقة. **وثاني تلك الأخطار**: عدم وجود خط رجعة في حالة انكساره أو انسحابه أمام الأمراء المحليين الذين كانوا يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. إلا أنه لم يأبه لهذه الأخطار، وراح يهاجم الأمراء المحليين مُنذ البداية، دفعه إلى ذلك طموحه وشجاعته الشخصية، واطمئنانه إلى قاعدة شعبية تحبه وتخلص له ولمواقفه السابقة تجاه الصليبيين، قبل أن يتولى الحكم في الموصل، كما ساعده على ذلك منشور السلطان، آنف الذكر بتسلم الموصل والجزيرة والشام، وما كان يتضمنه من اعتراف بحرية زنكي في الاشتباك مع التشكيلات السياسية المحلية واكتساحها، والتوسل بأية وسيلة يراها مناسبة لتحقيق هذا الهدف[1]، لكن الأهم من ذلك كله ما تمتع به زنكي من مقدرة سياسية وعسكرية وما تميز به من نظر بعيد. ذلك أنه عرف ـ مُنذ البدء ـ أنه إذا ما سلك سبيل المسالمة والتودد تجاه الأمراء المحليين فإن حصونهم ومدنهم وإماراتهم ستظل تشكل عوامل خطر ضد إمارته، لقربها منها، ولاستراتيجية مواقعها إذ تشكل نقاط تسلط مرتفعة، انحدارها باتجاه الموصل، وخطوطها الخلفية سلاسل جبلية وأنهار متشابكة وحصون منيعة. كما أن السياسة الانعزالية التي اتبعها أولئك الأمراء تجاه الخطر الصليبي المتقدم نحو الشرق،

---

(1) عماد الدين زنكي، ص: 165.

وما تبع ذلك من تشتيت لإمكانات المسلمين البشرية والعسكرية والاقتصادية، قد أدت إلى عجز هذه الإمارات عن الوقوف بوجه هذا الخطر الصليبي الزاحف، هذا في الوقت الذي كان على زنكي فيه أن يعمل على إزالة العقبات التي تقف أمام توحيد الإمارات المتفرقة، المبعثرة، في جبهة إسلامية موحدة تستطيع أن توقف الزحف الصليبي، ومن ثم تبدأ بالهجوم المنظم على قواعد الصليبيين، هذه العوامل التي دفعت زنكي إلى اتباع سياسة الهجوم، والتي تخللتها أحياناً علاقات سلمية ومعاهدات استدعتها طبيعة الظرف الذي كان يمر فيه، وفي نفس الوقت عمل زنكي على تأمين حدود إمارته باتجاه الشرق والشمال الشرقي، حيث يشكل الأكراد والتركمان في هذه المناطق عناصر خطر بالغة ضد إمارته، لاسيما عند تأزم علاقاته بالإمارات الغربية، أو عند توغله بعيداً عن مقره في الموصل[1]. ومن ثم تبدو لنا واضحة أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين سنة (502هـ ـ 507هـ) وإيلغازي، وبلك الأرتقيين سنة (512هـ ـ 518هـ) وآق سنقر البرسقي سنة (518هـ ـ 520هـ)[2]، ومن المرجح أنه لو تمكن زنكي من فتح دمشق وإنجاز محاولته لتوحيد الشام، ولو لم يقتل ـ وهو في قمة انتصاراته ضد الصليبيين ـ لكان قد استطاع أن يستكمل الأجزاء المتبقية من برنامجه، ولتكاملت أمام الباحث الحديث الصورة الواضحة للدور الذي قام به في التاريخ الإسلامي، وهو دور فاصل تتضح خطورته، إذا عرفنا أن نور الدين محمود، ومن بعده صلاح الدين لم تكن جهودهما سوى إتمام العمل الذي بدأه عماد الدين زنكي وفي نفس الطريق[3].

الحادي عشر: الأيام الأخيرة من حياة عماد الدين زنكي:

1 ـ تهنئة عماد الدين بالشفاء من مرض عرض له:

في عام 540هـ أنشد ابن منير بالرقة في عماد الدين زنكي قصيدة، يهنّئه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قال فيها:

يـا بـدرُ لا أفـلٌ ولا مُـحـاقُ[4] ... ولا يَـرِم[5] مـشـرقـك الإشـراق

بـالـدِّيـن والـدُّنـيـا الـذي تـشـكـو هـول ... يـهـتـز فـرعٌ لـم يُـقـمـه سـاق

(1) عماد الدين زنكي، ص: 166.

(2) المصدر نفسه، ص: 166.

(3) المصدر نفسه، ص: 166.

(4) لا أفق ولا مجال وهو وهم.

(5) لا يَرِم: يبرح.

لن تُورِق القُضب ويجري ماؤها ... فيها إذا التاثت الأعراقُ

إن الرّعايا ما سلمت في حمّى ... للخطب عن طُرُوقه إطراقُ

غرست بالعدل لهم خمائلاً ... ترتع في حديقها الجِداقُ

ياهضبة الدين التي عاذ بها ... فعاد لا بغت ولا إرهاقُ

لو لم تَخُطه راحلاً وقافلاً ... أصبح لا شام ولا عِراقُ

عماد الدين مُذْ أقام زيغَهُ ... حي ومات الشِّركُ والنفاقُ

يا محيي العدْل الذي في ظلّه ... تسربَلَتْ زينتَها الآفاقُ

يَفديك من لان مِهادُ جنبه ... لمّا نبا بجنبك الإقلاقُ

من بِشَبَا سيفك[1] انبطت[2] له ... العذب وماء عيشه زُعاقُ[3]

تجرّع السُّمّ ولو لم تحمه ... بحده لعزه الدِّرياقُ[4]

ملوك أطراف حمى أطرافها ... عزمك هذا اللاّحق السُّبّاقُ

لو لم ترق ماءَ كرى العين لما ... ساغت بأفواههم الأرياقُ[5]

شققتَ من دونهم موج الرّدى ... وشقّ أكبادَهُمُ الشقاقُ

أقسم لو كلّفتهم أن يسمعوا ... حديث أيامك ما أطاقوا

لمّا اشتكيت دبّ في أهوائهم ... توجّس للسّمع واستِراقُ

تطاولوا لاعدمت آمالهم ... قصراً ولا جانبها الإخفاقُ

توهّمُوها غَسَقاً ثم انجلت ... والصَّفوُ من مشربهم غسّاقُ[6]

لئن ألمّ ألمٌ بقدمٍ ... خَدُّ السُّها[7] لنعلها طرّاقُ

أو كان مدَّ يَدَهُ إلى يدٍ ... تجري بها الآجال والأرزاقُ

---

(1) أي بحد سيفك.

(2) أنبطت : أي استخرجت.

(3) ماء زعاق : مر غليظ لا يطاق شربه من أجوجته.

(4) الدّرياق : لغة في الترياق، فارسي معرب وهو يستعمل لدفع السم.

(5) الأرياق : مفردها ريق وهو اللعاب.

(6) الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار وغُسالتهم.

(7) السُّها : كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى.

فـالـنـصـل يُـغـلَـى صَـداً وتـحـتـه حـــدّ حـســام وســنــا رقــراقُ
رمـى الـصَّـلـيـبَ بـصـلـيـب الـرأي عـن زوراء أوْفـــى[1] نـــزعـــهـــا الإغـــراقُ
ونـوم مَـنْ خـلـف الـخـلـيـج سَـهَـرٌ والـعـيـش فـي فـرنـجـةٍ سـيـاقُ[2]
مـاتـوا فـلا هـمـسٌ ولا إشـارة خـوف هـمـوس زأره إزهـاقُ
لا سَـلَـبَـتْ مـنـك الـلـيـالـي مـا كـسـت ولا غَـــرًا[3] جــدَّتَــك الإخـــلاقُ[4]

2 ـ مقتله: 541هـ:

تجمع المصادر على أن زنكي اغتيل ليلة الخامس من ربيع الآخر عام (541هـ) خلال حصاره لقلعة جعبر، عندما انقضّ عليه ـ وهو نائم ـ غلام أو عدة غلمان من مماليكه المقربين الذين كانوا يقومون على حراسته أثناء نومه، وإنهم هربوا ـ بعد قتله ـ إلى القلعة ونادوا أصحابها بحقيقة الأمر ففتحوا لهم الأبواب، وأنه ما إن انتشر نبأ الاغتيال في معسكره حتى اضطرب وتشتت وسادته الفوضى، فلم ير قادته بداً من فك الحصار والرحيل[5]، قال ابن الأثير: ختم الله بالشهادة أعماله.

لاقـى الـحِـمـام ولـم أكـن مُـسـتَـيـقـنـاً أنَّ الـحِـمـام سَـيُـبْـتَـلَـى بـحِـمـامِ

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلّى عنه العبيد والخول، فأي نجم للإسلام أفل، وأي ناصر للإيمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غرب، وأي أسد افترس ولم يُنْجِه قُلَّة[6] حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته وكم أدّبها[7] في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم، ومقسيها في الحَدَث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهوراً، وبعد وثير المضاجع في التراب معفراً مقبوراً، رهين جَدَثٍ لا ينفعه إلا ما قدَّم قد طويت صحيفة عمله فهو موثوق في صورة مستسلم[8]. وقد اختلفت المصادر في تفاصيل عملية القتل وهوية القاتل وسبب القتل، فمن حيث تفاصيل عملية القتل يشير العماد الأصفهاني إلى أن عماد الدين زنكي إذا نام ينام حول سريره عدة من خدامه، يشفقون عليه في حالتي يقظته ومنامه ويذودون عنه ذود الآساد في ملاحمه، ويزورونه زور الخيال في

---

(1) في النسخ الخطية: أوهى.
(2) السياق: نزع الروح عند الموت.
(3) في الأصل: عرق.
(4) أخبار الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 153).
(5) ذيل تاريخ دمشق، ص: 284، عماد الدين زنكي، ص: 183.
(6) القلة: أعلى الجبلة، وقلة كل شيء أعلاه.
(7) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 154).
(8) المصدر نفسه (1/ 155).

أحلامه وهو يحبّهم أعمق الحب. . ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم وهم أبناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه وأقصاه واستبقى ولده وخصاه. . . فهم على أنهم من ذوي الاختصاص ينتهزون فيه فرصة الاقتصاص، فنام تلك الليلة وحوله مماليكه، فانتبه وهم قد شرعوا في اللعب، وأخذوا في الطرب فزجرهم وتوعدهم وهم ساكتون، لكن كبيرهم المدعو: «يرنقش» أسرّ ذلك في نفسه، وراح ينتظر الفرصة للأخذ بثأره وما أن عاد سيده إلى النوم ثانية حتى أسرع إليه، وبرك عليه، وذبحه، واستطاع ـ أثر ذلك ـ أن يتسلل من المعسكر إلى أسوار جعبر، دون أن يشك أحد فيه باعتباره كبير حراس زنكي، وهناك أخبر أهل القلعة وحراسها بما أقدم عليه، وأراهم الأدلة والعلامات[1]، فأسرعوا بإشاعة الخبر في داخل القلعة وبين صفوف قواته كي يشيعوا الاضطراب فيها ويجبروها على الانسحاب وقد نجحوا في ذلك[2]، ويتفق كل من ابن القلانسي وسبط ابن الجوزي مع العماد الأصفهاني في هذه الرواية مع اختصار وحذف بعض التفاصيل[3]، وأما ابن العديم فإنه يذكر أن زنكي تهدد يرنقش خلال النهار، فخاف الأخير منه وأسرع باغتياله ليلاً[4].

وأما من حيث هوية القاتل فيشير كل من ابن القلانسي ورنسيمان وأليسييف إلى أن القاتل كان من أصل إفرنجي: أما حسن حبشي فيقول: ولعل القاتل كان باطنياً[5]، ومن حيث سبب القتل فيبدو أن صاحب قلعة جَعْبَر هو الذي حرّض على قتله كي يتخلص من الحصار، وأنه كان على صلة بالقاتل بدليل ما أورده ابن العديم من أن حساناً البعلبكي، صاحب منبج، تقدم إلى أسوار القلعة ونادى على ابن مالك وقال له: يا أمير علي، إيش بقى يخلصك من أتابك ؟ فقال له: يا عاقل، يخلصني الذي خلّصك من حبس بلك، يعني حين قُتل بلك على منبج وخلص حسان، يضاف إلى ذلك أن يرنقش التجأ إلى القلعة بعد حادثة الاغتيال[6]، والراجح أن يرنقش نفّذ عملية الاغتيال مدفوعاً بثلاثة عوامل: شخصية ونفسية وسياسية[7].

أما العامل الشخصي: فيتمثّل بتهديد عماد الدين زنكي له وخشيته عاقبة هذا التهديد، فأسرع باغتيال سيده دفاعاً عن نفسه ويتجلى تأثير العامل النفسي في انزعاج يرنقش من معاملة

(1) عماد الدين زنكي، ص: 183، تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 190.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 160.
(3) المصدر نفسه، ص: 160.
(4) زبدة الحلب (2/ 281، 282)، عماد الدين زنكي، ص: 184.
(5) نور الدين والصليبيون، ص: 40، تاريخ الزنكيين، ص: 184.
(6) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 160.
(7) المصدر نفسه، ص: 160، عماد الدين زنكي، ص: 184.

عماد الدين زنكي القاسية له وزجره إياه ثم شعوره العميق بما أصابه من ظلم[1]، ولعب إحساسه بمرارة الإهانة دوره، فاندفع لحماية كرامته وذبح سيده، ويصور الأصفهاني حركات يرنقش أثناء الاغتيال بالشكل الذي يبرز أثر الانفعال النفسي فيها: فأسرع إلى زنكي، وبرك عليه وذبحه في نومه[2]. وأما الدافع السياسي للاغتيال فيقوم على وجهين، **أولهما**: اتفاق يرنقش ـ سراً ـ مع أصحاب قلعة جعبر لاغتيال عدوهم وإنهاء أزمتهم، بعد أن كاد حصنهم يوشك على الاستسلام، ويدخل ضمن هذا الاحتمال كون يرنقش ذا ميول باطنية، وربما تسلل إلى خدمة زنكي مُنذ زمن بعيد، لتحقيق هدفه هذا، كعادة الباطنية في التستر والانتظار الطويل لتنفيذ اغتيالاتهم لكبار الشخصيات السياسية السنية التي كانت تشكل خطراً على دعوتهم، خاصة إذا ما عرفنا العطف الذي كان يبديه أمراء جعبر تجاه الباطنية.

أما ثاني الاحتمالات السياسية: فكون يرنقش ذا أصل «إفرنجي». كما أكّد ابن القلانسي وابن واصل ورنسمان، ويُحتمل أن يكون قد أقدم على فعلته: إما باتفاق سري مع الصليبيين، أو بدافع شخصي مرتجل يعود إلى حرصه على مصالح قومه التي بدأ زنكي يوجه إليها ضربات حاسمة، ولا نستطيع الجزم بأي من هذه الدوافع الثلاثة لاغتيال زنكي، ذلك أن المصادر ـ كما رأينا ـ لم تعط القول الفصل في هذا المجال، ومن الخطإ الاعتقاد بأن يرنقش ذا الأصل الفرنجي اغتال سيده ـ وهو في قمة انتصاره على الجبهتين الصليبية والإسلامية ـ بدافع شخصي أو نفسي محض، ولا ريب أن وراء هذا الاغتيال الخطير، في هذه المرحلة الصعبة، دوافع سياسية أبعد مدى وأشد خطورة، ربما تعود إلى الأصل الفرنجي للقاتل، أو إلى ميوله الباطنية، وربما تعود إلى اتفاقه سراً مع أمراء قلعة جعبر لقاء ما منّوه به، إذا أتم تخليصهم من عماد الدين زنكي الذي غدا قاب قوسين أو أدنى من اجتياح حصنهم. واتجه القاتل، بعد أن اغتال زنكي، إلى أسوار قلعة جعبر بسكينه الملطخ بالدم، وصاح في الحرس: شيلوني، فقد قتلت زنكي فلم يصدقوه، فأراهم السكين، وعلامة أخرى، كان قد أخذها من سيده وعند ذلك أصعدوه إلى القلعة وتحققوا صدق ما كان يقول[3]، وعندما بشر صاحب جعبر بالنبإ لم يصدقه أول الأمر وآوى يرنقش إلى القلعة وأكرمه، وعرف حقيقة الأمر، فسر بذلك واستبشر بما أتاه من الفرج بعد الشدة الشديدة[4]، ويشير ابن العديم إلى رد الفعل الذي أحدثه القاتل في أهل القلعة، فعندما ناداهم:

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 161.

(2) تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 189، 190، عماد الدين زنكي، ص: 185.

(3) عماد الدين زنكي، ص: 186.

(4) المصدر نفسه، ص: 186.

إني قتلت زنكي، أجابوه: اذهب إلى لعنة الله، فقد قتلت المسلمين كلهم بقتله[1]، ولم يقبض القاتل ثمناً لخيانته إلا المطاردة والخوف، ذلك أن حكام جعبر قاموا بطرده بعد وقت قصير من التجائه إليهم، ولم يكافؤوه على عمله ربما خوفاً من قيام نور الدين محمود زنكي أمير حلب بالانتقام منهم لأبيه، وأخيراً تم إلقاء القبض على القاتل، وأُرسل مخفوراً إلى الموصل حيث قتل هناك[2]، وعندما انتشر خبر اغتيال زنكي في معسكره انقسم إلى قسمين: اتجه **أحدهما**: إلى حلب بقيادة نور الدين محمود، واتجه **القسم الآخر**: إلى الموصل بقيادة جمال الدين الأصفهاني حيث قام هو وكبار الأمراء بتنصيب سيف الدين غازي أميراً على الموصل[3] وحملت جثة زنكي إلى الرقة حيث دفنت في مشهد هناك في منطقة قبور شهداء صفين[4].

3 ـ ما قيل في مقتل عماد الدين زنكي من شعر:

اضطربت الأمور بعد مقتل عماد الدين واختلت المسالك بعد الهيبة المشهورة، والأمنة المشكورة وانطلقت أيدي التركمان والحراميَّة في الإفساد في الأطراف والنواحي، وقال أبو يعلى التميمي في صفة هذا الحال أبياتاً:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت ... سعادته عنه وخرَّت دعائمه
وكم بيت مال من نُضارٍ وجوهر ... وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كلُّ حصن مصونةً ... يحامي عليها جنده وخوادمه
ومن صافنات الخيل كلُّ مُطهَّم ... يروع الأعادي حَلْيُه وبراجمه
فلو رامتِ الكُتّاب وصف شياتها ... بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه ... وشامخ حصن لم تفته غنائمه
ودانت ولاة الأرض فيها لأمره ... وقد أمَّنتهم كُتْبُه وخواتمه
وأمَّن من في كل قطر بهيبة ... يُراع بها أعرابه وأعاجمه
وظالم قوم حين يُذكر عَدْلُه ... فقد زال عنهم ظُلْمُه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه ... وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الأملاك بأساً وسطوة ... ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه

(1) عماد الدين زنكي، ص: 186.
(2) المصدر نفسه، ص: 187.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.

فلما تناهى ملكه وجلاله ... وراعت وُلاةَ الأرضِ منه لوائمه
أتاه قضاء لا تُردُّ سهامه ... فلم تُنْجِه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حِمامهُ ... وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مُجدَّلاً ... صريعاً تولَّى ذبحه فيه خادمه
وقد كان في الجيش اللُّهام[1] مبيته ... ومن حوله أبطاله وصوارمُه
وسُمْرُ العوالي حَوْلَهُ بأكُفِّهم ... تذود الرَّدى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عُصبةٌ قد ترتَّبت ... بأسهمها يُرْدى من الطير حائمه
وكم رام في الأيام راحة سرِّه ... وهمَّتُه تعلو وتقوى شكائمه
وكم مَسْلَكٍ أمَّن سُبْلَه ... ومسرح حَيٍّ أن تراع سوائمه
وكم ثغرِ إسلام حماه بسيفه ... من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله ... وتنفذ في أقصى البلاد مراسِمُه
فلو رُقيت في كلِّ مصر بذكره ... أراقمه ذلَّتْ هناك أراقِمُه[2]
فمن ذا الذي ينجو من الدَّهر سالماً ... إذا ما أتاه الأمر والله حاتِمُه
ومن رام صفواً في الحياة فما يرى ... له صَفْوَ عَيْشٍ والحِمَامُ يحاومه
فإيَّاك لا تغبط مليكاً بملكه ... ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه
وقل للذي يبني الحصون لحفظه ... رُويدك ما تبني فدهرك هادمه
وفي مثل هذا عبرة ومواعظ ... بها يتناس المرء ما هو عازمه[3]

وقال الحكيم أبو الحكم المغربي قصيدة في رثاء عماد الدين جاء فيها:

عينُ لا تدَّخري الدموع وابكي ... واستهلِّي دماً على فقد زنكي
لم يَهَب شخصه الرَّدى بعد أن ... كانت له هيبة على كل تُركي
يَهَبُ المال والجياد لمن ... يمَّمَه مادحاً بغير تَلَكِّي

---

(1) اللُّهام: أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 165).
(3) المصدر نفسه (1/ 166).

إنَّ داراً تـمـدُنـا بـالـرَّزايـا ... هـي عـنـدي أحـقُّ دار بـتـرك
فـاسـكُـبـوا فـوق قـبـره مـاء وَرْدٍ ... وانـضـحُـوهُ بـزعـفـران ومـسـك
أي فـتـكٍ جـرى لـه .فـي الأعـادي ... بـعـد مـا استـفـتـح الـرُّهـا أي فـتـكِ
كـل خـطـب أتـت بـه نُـوَبُ ... الـدهـر يـسـيرُ فـي جـنـب مـصـرع زنـكـي
بـعـد مـا كـاد أن تـديـن لـه ... الـرُّوم ويـحـوي الـبـلاد مـن غـيـر شـكٍّ[1]

4 ـ فوائد متنوعة من البداية والنهاية في عهد إمارة عماد الدين زنكي:

1 ـ في سنة 523هـ قال ابن كثير:

في هذه السنة قتل صاحب دمشق من الباطنية ستة آلاف، وعلّق رأس كبيرهم على باب القلعة، وأراح الله أهل الشام منهم، وفيها حاصرت الفرنج مدينة دمشق فخرج إليهم أهلها فقاتلوهم قتالاً شديداً، وبعث أهل دمشق عبد الوهاب الواعظ ومعه جماعة من التجار إلى بغداد يستغيثون بالخليفة، وهموا بكسر منبر الجامع حتى وعدوا بأنهم سيكتبون إلى السلطان ليبعث جيشاً كثيفاً نصرة لأهل الشام، فلم يبعث إليهم جيش حتى نصرهم الله من عنده، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم عشرة آلاف، ولم يفلت منهم سوى أربعين نفساً ولله الحمد والمنة وقتل بَيْمَنْذ الفرنجي صاحب أنطاكية[2].

2 ـ وفي أحداث عام 524هـ:

فيها كانت زلزلة عظيمة بالعراق تهدمت بسببها دور كثيرة ببغداد، ووقع بأرض الموصل مطر عظيم فسقط بعضه ناراً تأجّجُ، فاحترقت دُور كثيرة من ذلك وتهارب الناس، وفيها وجد ببغداد عقارب طيّارة لها شوكتان، فخاف الناس منها خوفاً شديداً، وفيها ملك عماد الدين زنكي بلاداً كثيرة من الجزيرة، ومن بلاد الفرنج، وجرت له معهم حروب طويلة، وخطوب جليلة، ونُصر عليهم في تلك المواقف كلّها، ولله الحمد والمنة، وقتل خلقاً من جيش الروم حين قدموا إلى الشام ومدحه الشعراء على ذلك[3].

3 ـ وفي عام 524هـ:

توفي إبراهيم بن عثمان، أبو إسحاق الكَلْبيُّ من أهل غزّة، جاوز الثمانين، وله شعر جيد ومن شعره في الأتراك قوله:

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 167).

(2) المصدر نفسه (1/ 167).

(3) البداية والنهاية (16/ 284).

في فتنة من جيوش التركِ ما تركت ... للرّعْدِ كَرّاتُهُمْ صوتاً ولا صِيتا
قوم إذا قُوبِلوا كانوا ملائكة ... حُسناً وإن قُوتِلُوا كانوا عفاريتا[1]

وله أيضاً:

إنّما هذه الحياةُ متاعٌ ... والسَّفيهُ الغَوِيُّ من يصطفيها
ما مضى فات والمؤمّلُ غَيْبٌ ... ولك الساعة التي أنت فيها[2]

4 ـ وفي سنة 525هـ:

توفي أحمد بن محمد، أبو نصر الطوسي سمع الحديث، وتفقه بالشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وكان شيخاً لطيفاً عليه نور، قال ابن الجوزي أنشدني:

فإن نلت خيراً نِلْتهُ بعزيمة ... وإن قصَّرَت عنك الخطوب فعن عُذرِ[3]

قال: أنشدني أيضاً:

لبستُ ثوب الرّجا والناس قد رقدُوا ... وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلتُ يا عُدّتي في كلّ نائبة ... ومن عليه لكشف الضُّرّ أعتمدُ
وقد مددت يدي والضُّرُ مُشتملٌ ... إليك يا خير من مُدّت إليه يدُ
فلا تَرُدّنّها يا رَبِّ خائبة ... فبحرُ جُودِك يرْوِي كل من يَرِدُ[4]

5 ـ وفي سنة 527هـ:

اقتتل الفرنج فيما بينهم قتالاً شديداً فمحق الله منهم خلقاً كثيراً، وغزاهم فيها أيضاً عماد الدين زنكي فقتل منهم ألف قتيل وغنم أموالاً جزيلة، ويقال لها: غزاة أسوار[5]، وفي نفس السنة توفي محمد بن أحمد بن يحيى، أبو عبد الله العثماني الدّيباجي، وكان ببغداد يُعرف: بالمقدسي وتفقه ووعظ الناس ببغداد، قال ابن الجوزي: سمعته ينشد في مجلسه قوله:

دعْ جفوني يَحِقُّ لي أن أنُوحَا ... لم تَدَعْ لي الذنُوبُ قلباً صحيحا
أخْلَقَتْ بهجتي أكف المعاصي ... ونَعاني المشيب نعياً فصيحاً

---

(1) البداية والنهاية (16/ 285).
(2) المصدر نفسه (16/ 286).
(3) المصدر نفسه (16/ 289).
(4) المصدر نفسه (16/ 289).
(5) المصدر نفسه (16/ 289).

كلما قُلتُ قد بَرا جُرحُ قلبي ... عاد قلبي من الذنوب جَريحا
إنما الفوز والنعيمُ لعبد ... جاء في الحشر آمناً مُستَريحا[1]

6 ـ وفي سنة 533هـ:

توفي علي بن أفلح الكاتب وقد خلع عليه المسترشد الخليفة العباسي ولقَّبه جمال الملك وأعطاه أربعة دور، وكانت له دار إلى جانبهن، فهدمهن كلَّهنَّ، واتخذ مكانهن داراً هائلة طولها ستون ذراعاً في عرض أربعين، وأطلق له الخليفة أخشاباً وآجُراً وذهباً فبناها، وغرم عليه ابن أفلح مالاً جزيلاً، وكتب على أبوابها وطرازاتها أشعار حسنة من نظمه ونظم غيره فكان على الطُرُزِ مكتوب[2]:

ومن المروءة للفتى ... ما عاش دار فاخرة
فاقنع من الدنيا بها ... واعمل للدار الآخرة
هاتيك وافية بما ... وعدت وهذي ساحرة[3]

وفي موضع آخر مكتوب:

ونادٍ كأنَّ جنانَ الخلود ... أعادته من حُسْنِها رَوْنَقا
وأعطته من حادثات الزمان ... أن لا تُلِمَّ به مُوْبِقا
فأضحى يتيه على كلِّ ما ... بُني مغرباً كان أو مشرقا
تظلُّ الوفود به عُكَّفاً ... وتُمسي الضيوف به طرقا
بقيتَ له يا جمال الملوك ... والفضل مهما أردت البقا
وسالمه فيك ريب الزمان ... ووُقّيت منه الذي يُتَّقى

فما صدقت هذه الأماني، بل عمّا قريب ـ بعد نيلها ـ اتُّهم الخليفة ابن أفلح بأنه يكاتب دُبَيساً، فأمر بتخريب هذه الدار، فلم يبق فيها جدار، وصارت خرابة بعد ما كان قد حَسُن منها المقام والقرار، وهذه حكمة من يقلِّبُ الليل والنهار وتجري بمشيئته الأقدار[4].

7 ـ وفي سنة 535هـ:

توفي محمد بن عبد الباقي بن محمد بن كعب بن مالك الأنصاري، وكان مشاركاً في

(1) البداية والنهاية (16/ 298).
(2) المصدر نفسه (16/ 323).
(3) المصدر نفسه (16/ 323).
(4) المصدر نفسه (16/ 324).

علوم كثيرة وقد أُسر في صغره في أيدي الروم، فأرادوه على أن يتكلم بكلمة الكفر فلم يفعل، وتعلَّم منهم خط الروم، وكان يقول: من خدم المحابر خدمته المنابر، ومن شعره الذي أورده ابن الجوزي عنه وسمعه عنه قوله:

احفظْ لسانك لا تَبُحْ بثلاثة ... سنٍّ ومالٍ ما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تُبْتَلَى بثلاثة ... بمُكفِّرٍ وبحاسدٍ ومُكذِّب

ومن ذلك قوله:

لي مُدَّة لابُدَّ أبلغها ... فإذا انقضت وتصرَّمت مِتُّ

لو عاندتني الأُسْدُ ضاريةً ... ما ضرَّني ما لم يَجي الوقت[1]

ومن ذلك قوله:

بغدادُ دارٌ لأهل العلم طيبةٌ ... وللمفاليس دار الضَّنْك والضَّيقِ

ظللت حيران أمشي في أزقتها ... كأنني مصحفٌ في بيت زنديق[2]

قال ابن الجوزي: بلغ من العُمر ثلاثاً وتسعين سنة لم تَتَغيَّر حواسه ولا عقله، وكانت وفاته ثاني رجب من هذه السنة، وحضر جنازته الأعيان والناس، ودفن قريباً من قبر بشر[3].

(1) البداية والنهاية (16/ 329).
(2) المصدر نفسه (16/ 330).
(3) المصدر نفسه (16/ 330).

الفصل الثاني

عهد نور الدين زنكي وسياسته الداخلية

المبحث الأول
اسمه ونسبه وأسرته وتوليه الحكم

هو نور الدين محمود زنكي، صاحب الشام، الملك العادل، ناصر أمير المؤمنين، تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود بن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد ـ عماد الدين ـ زنكي بن الأمير الكبير آق سنقر التركي السلطاني الملكشاهي، مولده في شوال سنة إحدى عشرة وخمس مئة[1]، وهم ينتسبون إلى قبيلة ساب يو التركية، ولا تذكر المصادر التاريخية شيئاً عن نشأة نور الدين وشبابه، ولكنها جميعاً تؤكد أنه تربى في طفولته تحت رعاية وإشراف والده، وأن والده كان يقدمه على إخوانه ويرى فيه مخايل النجابة[2]، ولما جاوز الصبا لزم والده حتى مقتله سنة (541هـ/ 1047م)[3]. وكانت حياة عماد الدين في فترة حكمه الموصل من 521هـ ـ 541هـ مدرسة عُليا شاملة لجميع أنواع المعارف الإنسانية في مجالات العلوم السياسية والإدارية والعسكرية بالإضافة إلى العلوم الشرعية الدينية، وقد جمعت مدرسة الحياة الكبرى التي عاش فيها نور الدين بين الأسلوب النظري والتطبيقي[4].

وقد تزوج نور الدين عام 541هـ الزواج الذي لم تكن من ورائه جارية ولا سريّة من عصمت الدين خاتون ابنة الأتابك معين الدين حاكم دمشق، بعد أن ترددت المراسلات بين الرجلين واستقرت الحال بينهما على أجمل صفة، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق، بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وما إن تم إعداد الجهاز حتى قفل الوفد عائداً وبصحبة ابنة معين الدين[5]، وخلّف نور الدين

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 531).

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، ص: 73.

(3) المصدر نفسه، ص: 73.

(4) المصدر نفسه، ص: 88 ، 89.

(5) ذيل تاريخ دمشق، ص: 288، 289، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 48.

من زوجته هذه ابنة واحدة وولدين هما: الصالح إسماعيل الذي تولى الحكم من بعده وتوفي شاباً لم يبلغ العشرين من العمر، من جراء مرض ألم به عام (577هـ)، وأحمد الذي ولد بحمص عام (547هـ) ثم توفي في دمشق طفلاً[1]، وقد ذكر ابن منير في أشعاره تهنئة لنور الدين بمولوده الجديد فقال:

وجئت بأحمد فملأت حمداً ... موارد كان معدنها عذابا

تهلل وجه مُلك يوم أهدت ... قوابله لك المَلِك اللبابا

شبيهك لا يغادر منك شيئاً ... سناً وحياً وبذلاً واستلابا

قسيم الحمدِ إلا أنّ حرفاً ... من اسمك زاد للمعنى منابا

ألا لله يوم فُزّ عنه ... وركب نصّ بالبشرى الرّكابا[2]

وسرعان ما امتدت تقوى الرجل إلى زوجته وابنه الأكبر، فكانت زوجته تكثر القيام في الليل، ونامت ليلة عن وردها فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب الطبول في القلعة وقت السحر لتوقظ النائمين حينذاك للقيام، ومنح الضاربين أجراً جزيلاً[3]، وصفها المؤرخون بأنها كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن خدمة متمسكة من الدين بالعروة الوثقى، وكانت لها أوقاف وصدقات كثيرة وبر عظيم[4]، وقد ذكر ابن كثير في أحداث عام 563هـ: وفي شوال وصلت امرأة الملك نور الدين محمود زنكي إلى بغداد تريد أن تحجَّ من هناك، وهي السِّتُّ عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر، فتلقاها الجيش ومعهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات وأُكرمت غاية الإكرام[5]، وعرف عن الصالح إسماعيل تقواه العميقة والتزامه الأخلاقي المسؤول حتى رفض الأخذ برأي الأطباء في شرب شيء من الخمر عندما ألحّت عليه علة القولنج التي أودت بحياته. وقال: لا، حتى أسأل الفقهاء، فلما أفتوه بالجواز لم يقبل وسأل كبيرهم: إن الله تعالى قرّب أجلي، أيؤخره شرب الخمر؟ قال: لا، فأجابه: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرّم عليّ[6].

أولاً: انقسام الدولة الزنكية بعد مقتل عماد الدين زنكي:

عندما قتل عماد الدين زنكي سنة 541هـ كان ابنه الأكبر سيف الدين غازي مقيماً

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 418.
(2) كتاب الروضتين (1/ 221).
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 49.
(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 49.
(5) البداية والنهاية (16/ 425).
(6) الباهر، ص: 182، نور الدين محمود، ص: 49.

بشهرزور وهي إقطاعه من قبيل أبيه بينما كان نور الدين محمود، وهو الابن الثاني لعماد الدين مع أبيه عند قلعة جعبر، وبعد أن شهد مصرع أبيه أخذ خاتمه من يده وسار ببعض العساكر إلى حلب، فملكها هي وتوابعها في ربيع الآخر سنة (541هـ 1146م)[1]، وكان عمره ثلاثون سنة كما كان مع زنكي أيضاً على قلعة جعبر الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود السلجوقي، وكان زنكي يظهر أنه يحكم البلاد باسمه مُنذ سنة (521هـ/ 1127م) حيث اصطحبه معه إلى الموصل بأمر من السلطان محمود[2]، وقد ذكر المؤرخون أن الملك ألب أرسلان حاول أن يحل محل زنكي في ملك البلاد وأن يبعد أولاده عنها، فجمع العساكر وأعدّ العدة للتوجه إلى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، ولكن الوزير جمال الدين الأصفهاني[3] قام بدور كبير في الحفاظ على الدولة الزنكية وإبقائها في أيدي أولاد صاحبه وولي نعمته عماد الدين زنكي، فما أن شعر بقصد الملك ألب أرسلان حتى بادر بالاتصال بالأمير صلاح الدين محمد الياغسياني، حاجب عماد الدين متناسياً ما كان بينهما من خلاف، فاتفقا على حفظ الدولة لأولاد زنكي وإبعاد الملك ألب أرسلان السلجوقي[4] عنها، حيث أرسل الوزير جمال الدين إلى صلاح الدين الياغسياني يقول له: إن المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلك طريقاً يبقى فيه الملك في أولاد صاحبنا ونهر بيته جزاء لإحسانه إلينا، فإن الملك (ألب أرسلان) قد طمع في البلاد واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلاف هذا الأمر في أوله، ونتداركه في بدايته ليتسعن الخرق ولا يمكن رقعه، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف كل واحد منهما لصاحبه[5]، وكان أول عمل قام به جمال الدين وصلاح الدين أن أرسلا رسولاً على وجه السرعة إلى زين الدين علي كُجَك نائب زنكي في الموصل يخبراه بما حصل لزنكي، فسارع سيف الدين غازي للحضور من شهرزور إلى الموصل لتسلم الحكم فيها وتسلمها قبل أن يتمكن ألب أرسلان السلجوقي من الوصول إليها[6]، أما الملك ألب أرسلان السلجوقي فقد تكفل الوزير جمال الدين الأصفهاني بإلهائه ومخادعته ريثما تستتب الأمور لسيف الدين غازي في الموصل، وظلّ يتنقل من مكان إلى آخر بالجزيرة حتى تفرق معظم أصحابه عنه، ثم اتجه إلى الموصل فقُبض عليه وأودع السجن، ولم يأت له ذكر بعد هذا التاريخ[7].

---

(1) زبدة الحلب (2/ 285)، الحياة في العهد الزنكي، ص: 42.
(2) الباهر، ص: 71، 72، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 42.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 42.
(4) نهاية الأرب، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 43.
(5) الباهر، ص: 84، 85.
(6) تاريخ دولة آل سلجوق، ص: 191، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 44.
(7) مفرج الكروب (1/ 109).

وهكذا انقسمت الدولة الزنكية بعد مقتل مؤسسها عماد الدين بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة، ونور الدين محمود الذي حكم مدينة حلب وما جاورها من مدن الشام، أما أخوهما نصرة الدين أمير أميران[1]، فقد حكم حرّان تابعاً لأخيه نور الدين محمود، في حين كان الأخ الرابع قطب الدين مودود لا يزال في رعاية أخيه سيف الدين غازي بالموصل. وكان نهر الخابور هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين وأدّى الوضع الجغرافي الشرقي إلى أن: ـ يرث غازي الأول المشاكل الداخلية، مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في العراق.

أ ـ يحمي حدود الإمارة من غارات سلاجقة فارس.

ب ـ يحمي ثغور الإمارة الشمالية من تعديات سلاجقة الروم والداشمنديين والبيزنطيين في آسيا الصغرى.

أما في القسم الغربي، فقد ورث نور الدين محمود المشكلتين الكبيرتين المتمثلتين بأتابكية دمشق والإمارات الصليبية المنتشرة في مختلف بلاد الشام.

ثانياً: ترتيب أوضاع البيت الزنكي:

كان من الطبيعي أن تنشأ بين البيتين الزنكيين في كل من الموصل وحلب علاقات وثيقة، بفعل الروابط الأسرية من جهة، واشتراك آل زنكي بعامة بهدف واحد، وهو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام، وكانت حلب تشكل، بالنسبة للموصل، خط الدفاع الأول وصمّام الأمان ضد أي خطر تتعرض له، فنشأت نتيجة لذلك علاقات جيدة بين سيف الدين غازي الأول، صاحب الموصل، وأخيه نور الدين محمود، صاحب حلب، ثم بين الأمراء الذين توالوا على حكم الموصل بعد غازي الأول، إلا أن هذه العلاقات الودية القائمة على التعاون والدفاع المشترك، شهدت في بعض الأوقات فتوراً عاماً، كان لا يلبث أن يتلاشى لتعود المحبة والألفة[2]، فبعد استقراره في الموصل والجزيرة وبعض مناطق بلاد الشام كحمص والرحبة والرقة، كان على سيف الدين غازي الأول أن يُنسّق مع أخيه نور الدين محمود في حلب، ويتعاون معه لاستكمال سياسة والدهما القاضية بالتصدي للصليبيين، مُدركاً في الوقت نفسه أهمية هذا التعاون، خشية أن يستغل أعداء الأسرة فرصة انقسام الإمارة الزنكية لمهاجمتها، بالإضافة إلى الظهور بمظهر القوة أمامهم، لذلك رأى ضرورة الاجتماع

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 44. (2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 168، 169.

بأخيه بين وقت وآخر لتسوية ما قد ينشأ بينهما من أزمات داخلية بسبب توزيع الإرث الزنكي، ويبدو أن العلاقات بين الأخوين تعرضت لأزمة عابرة عقب وفاة والدهما بدليل أن سيف الدين غازي الأول أرسل إلى أخيه نور الدين محمود يدعوه للحضور إليه، إلا أن صاحب حلب تأخر في تلبية الدعوة معلّلاً تصرفه بانهماكه في محاربة الصليبيين[1]، وقد كانت هناك مجموعة من الأسباب ساهمت في الفتور في العلاقة بين الأخوين وهي:

أ ـ رأى سيف الدين غازي الأول أنه كان يجب على أخيه الوقوف إلى جانبه عندما تعرض الحكم الزنكي في الموصل لخضة سياسية أثارها الملك ألب أرسلان السلجوقي بهدف الاستيلاء على السلطة، وذلك حتى تستقر الأوضاع لهما في البلاد، ثم يستأذنه في العودة إلى بلاد الشام.

ب ـ عدّ سيف الدين غازي الأول تصرف أخيه نور الدين محمود بعد مقتل والدهما أمام قلعة جَعْبَر خروجاً على التقاليد الأسرية عند القبائل التركية التي تقضي بأن تكون السيادة للابن الأكبر[2].

ج ـ رأى سيف الدين غازي الأول في تصرف أخيه انفصالاً واضحاً عن الدولة الزنكية، لأن استئثار نور الدين محمود بأملاك الأسرة في حلب يعني تكوين حكم انفصالي عن دولة الأتابكة في الموصل[3].

دفعت هذه العوامل سيف الدين غازي الأول إلى الإلحاح على أخيه نور الدين محمود للاجتماع به وتسوية الأمور بينهما، وقد تصرف صاحب الموصل بحكمة لإزالة أسباب التوتر، كما أنه لم يعارضه عندما استولى على الرها التي كانت تدخل في منطقة نفوذه بعد محاولة جوسلين الثاني استردادها من أيدي المسلمين في أواخر عام 541هـ/ ربيع الثاني 1147م، والواقع أنه أرسل قوة عسكرية لمساندة أخيه لإنقاذ الرها المهدّدة، لكنها وصلت بعد أن نجح نور الدين محمود في استعادتها[4]، وأخيراً حصل اللقاء بين الأخوين في الخابوْر. وفي هذا الاجتماع، اعتذر نور الدين محمود لأخيه عن تأخره في الحضور، وأظهر له الطاعة والاحترام من جهته[5]، ولشدة حذر نور الدين اشترط أن يكون الاجتماع ومع كل منهما خمسمائة فارس فقبل سيف الدين، وخرج نور الدين ومعه خمسمائة فارس، فرأى أخاه سيف الدين وليس معه

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 170.
(2) المصدر نفسه، ص: 170.
(3) المصدر نفسه.
(4) الباهر، ص: 87 ، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 170.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 170.

إلا خمس فوارس فتأكد من حسن نيته واقتربا وتعانقا وبكيا وقال له سيف الدين: من لي غيرك يا نور الدين، ولمن أدخر الخير إن أسأت إلى أخي، فبعدها كان نور الدين يخرج إلى معسكر سيف الدين للخدمة وصفت الأمور بينه وبين أخيه[1]، وسكن روعه وعاد إلى حلب[2]، حيث جمع عساكره وتجهَّز، ثم عاد للاستقرار في كنف أخيه ووضع نفسه تحت تصرفه، إلا أن سيف الدين غازي الأول أمره بالعودة إلى بلاده وقال له: لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنا، فلم يرجع نور الدين ولزمه حتى قضيا ما كانا فيه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده[3].

1 ـ وفاة سيف الدين غازي الأول:

استطاع سيف الدين ونور الدين أن يحلاّ المشاكل التي بينهما وتعاونا على البر والتقوى، وكان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل جنباً إلى جنب مع عساكر الشام في الجهاد ضد الصليبيين، وذلك في الدفاع عن دمشق ضد الصليبيين الذين حاصرت قواتهم المدينة في الحملة الصليبية الثانية عام (543هـ/ 1148م)، ونجاحهم في حمل الصليبيين على الرحيل عن دمشق، ومن مظاهر التعاون أيضاً اشتراك عساكر الموصل مع عساكر نور الدين في فتح حصن العُريمة وطرد الصليبيين منه، كما كان من مظاهر التعاون بين الأخوين اشتراك عساكر الموصل مع قوات حلب في هزيمة الصليبيين في إنّب، وفي فتح أفاميه سنة (544هـ/ 1149م)[4]، إلا أن العهد لم يطل بسيف الدين غازي حيث توفي بالموصل في جمادى الآخرة من سنة (544هـ / 1149م) بعد أن حكم الموصل ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً، ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل[5].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ جميل الصورة، وكان عمره نحواً من أربع وأربعين سنة وخلّف ذكراً رباه عمه نور الدين محمود وزوَّجه ابنة أخيه قطب الدين مودود بن زنكي، فتوفي ولد سيف الدين شاباً، وانقرض عقبه[6]، وكان سيف الدين غازي جواداً كريماً شجاعاً وهو الذي بنى المدرسة الأتابكية بالموصل وقفها على الفريقين الحنفية والشافعية، وبنى رباطاً للصوفية، وكان مقصداً للشعراء، فقصده شهاب الدين الحيص امتدحه بقصيدة قال فيها:

أتابكُ إن سميت في المهد غازيا ... فسابقة معدودة في البشائر

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 172).
(2) الباهر، ص: 87، 88، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 171.
(3) الباهر، ص: 92 ، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 47.
(4) مفرج الكروب (1/ 116).
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه.

وَفَيتَ بها والدِّين قد مال رزقه ... وصدّقتها والكفر بادي الشعائر

وقد أجازه سيف الدين بألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهد مدة مقامه، وسوى الخلع والثياب[1].

وعزّى أبو الحسين أحمد بن منير نور الدين بأخيه سيف الدين بقصيدة منها:

وكان نظيرك غارَ الزمان ... من أن يرى لك فيه نظيرا

فدتك نفوسٌ بك استوطنت ... من الأمن نوراً وقد كُنَّ بورا

بقيت مُعزًّا من الهالكين ... تُوقَّى الرَّدَى وتوفَّى الأجورا

وما نقص الدّهرُ أعدادكم ... إذا شفَّ قطراً وأبقى بحورا

ولو أنصف المجد موتاكم ... لَخَطُّ لهم في السّماء القبورا

حياتك أحيت رميم الحياة ... وأَمْطَتْ من الجود ظهراً ظهيرا[2]

وأما القيسراني فقد قال قصيدة في تعزية نور الدين:

ما أطرق الجوُّ حتى أشرق الأُفُق ... إن أُغمد السيف فالصّمصام يأتلقُ

دون الأسى منك نور الدين في حلب ... مُملَّكُ ينجلي عن وجهه الغَسَقُ

كنت الشقيق الشفيق الغيب حين نوى ... أراق ماء الكَرَى من جفنك الأرَقُ

تلقى الأسى في لباس الصبر في جُنَنٍ[3] ... حصينةً تحتها الأحشاء تحترق

ومدة الأجل المحتوم إن خفيت ... فإن أيامنا من دونها طُرُقُ

وإنما نحن في مضمار حلبتها ... خيل إلى غاية الأعمال تستبق

إلى أن قال:

ما دام شمسُكَ فينا غير آفلةٍ ... فالدِّين منتظم والملك متسقٌ[4]

2 ـ تولي قطب الدين مودود زنكي إمارة الموصل:

اتفق الوزير جمال الدين الأصفهاني وزين الدين علي كُجك أمير الجيش على أن

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 228، 229).

(2) المصدر نفسه (1/ 230).

(3) مفردها جُنَّة : وهي الدرع.

(4) كتاب الروضتين (1/ 230).

يخلف قطب الدين أخاه على الموصل، فأحضراه، وخلّفا له الأمراء والعساكر في الموصل، وتسلّم جميع ما لأخيه سيف الدين غازي من البلاد التابعة للموصل[1]، وقد تعرضت العلاقات بين الموصل والشام في بداية حكم قطب الدين مودود لأزمة خطيرة كادت تؤدي إلى اندلاع الحرب بين الأخوين لولا أن قطب الدين تدارك الأمر ووضع حدّاً لنزاعه مع أخيه نور الدين، وتعود أسباب هذه الأزمة إلى: أن بعض الأمراء في الموصل وأعمالها وعلى رأسهم المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد صاحب سنجار، راسلوا نور الدين ليتسلم البلاد بعد وفاة سيف الدين باعتباره أكبر سناً من أخيه قطب الدين[2]، ويضيف ابن الأثير سبباً آخر دفع هؤلاء الأمراء إلى استدعاء نور الدين هو: كراهيتهم وحسدهم للوزير جمال الدين ولأمير الجيش زين الدين علي كجك للمكانة التي كانا يتمتعان بها في الموصل[3].

وقد لقيت هذه البادرة قبولاً طيباً عند نور الدين، وطمع في ضم بلاد الجزيرة والموصل تحت ملكه ليتحقق له توحيد الجبهة الإسلامية في ظل قيادة موحدة وباعتباره الوريث الشرعي لملك أخيه سيف الدين فجدّ نور الدين في السير، وقطع الفرات متجهاً إلى سنجار فاستولى عليها[4]، وكان رد الفعل عنيفاً في الموصل بعد دخول نور الدين سنجار، إذ انزعج قطب الدين وأمراؤه المخلصون وعدّوا ذلك اعتداء مباشراً عليهم على اعتبار أن سنجار تابعة لهم، فتجهز قطب الدين وخرج بعساكره نحو سنجار، فنزل بتل يعفُر[5] وأرسل جمال الدين الوزير، وزين الدين كجك أمير الجيش إلى نور الدين كتاباً ينكران عليه إقدامه على أخذ سنجار واعتدائه على أملاك أخيه قطب الدين مودود، وهدداه بقصده إن هو لم يرحل عن البلد، ولكن نور الدين لم يلتفت لتهديدهما ورد عليهما بقوله: إنني أنا الأكبر وإني أحق أن أدبر أمر أخي له منكم وما جئت إلا لمّا تتابعت إليّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكما عليهم، فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على إخراج الأمر من أيدينا وأما تهديدكم إياي بالحرب والقتال، فأنا لا أقاتلكم إلا بجندكم[6]، أدرك الوزير جمال الدين محمد، وزين الدين على ما ينطوي عليه هذا الرد من أخطار، فأشارا على قطب الدين مودود بمصالحة أخيه، والتنازل عن بعض المواقع في الشام والتي كانت تتبع الموصل مثل حمص، والرحبة والرَّقة[7]، مقابل انسحاب نور الدين من سنجار والعودة إلى حلب، فوافقهما قطب الدين،

---

(1) الباهر، ص: 94، زبدة الحلب (2/ 296).

(2) الباهر، ص: 95، زبدة الحلب (2/ 296) الحياة العلمية، ص: 48.

(3) الباهر، ص: 95، الحياة العلمية، ص: 48.

(4) المصدر نفسه، ص: 95 ، 96، المصدر نفسه، ص: 48.

(5) تل يعفر : ويقال: أعفر : وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل.

(6) الباهر، ص: 96 ، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 49.

(7) الرّقة : مدينة مشهورة على الفرات بينها وبين حرّان مسيرة ثلاثة أيام.

وتمّ الاتفاق بين الأخوين وانسحب نور الدين من سنجار محملاً بالكنوز التي كانت بخزائن سنجار في أيام أبيه[1]، وقد بلغت العلاقات بين الأخوين درجة من التحسن جعلت نور الدين يقدم في عام (554هـ/ 1159م) على اختيار قطب الدين ليخلفه في حكم بلاده عندما أحسّ بضعفه ومرضه، وقد أنفذ نور الدين إلى أخيه قطب الدين وفداً يخبره بالموقف وباتفاق الأمراء على توليته العهد بعده، وطلب إليه الحضور بعساكره إلى الشام، فلما خرج قطب الدين مودود على رأس جيشه من الموصل، وصلته الأخبار بتحسن صحة أخيه نور الدين وقيامه من مرضه، فأقام قطب الدين حيث هو، وأرسل وزيره جمال الدين محمد لمقابلة نور الدين محمود والوقوف على تطورات الموقف هناك، فوصل الوزير دمشق في صفر سنة (554هـ/ 1159م) واجتمع بنور الدين وأبلغه استعداد قطب الدين، ووضع إمكانياته في خدمته فشكره نور الدين على ذلك، وعبّر له عن شكره لمشاعر أخيه قطب الدين مودود[2].

وعلى العموم كانت صلة نور الدين بإخوانه وثيقة يقول ابن الأثير في حقهم: إن الله سبحانه جمع فيهم من مكارم الأفعال، ومحاسنها، وحسن السيرة وعمارة البلاد، والرفق بالرعيّة إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها، يقول: أظن أنَّ القائل أرادهم بقوله:

هَـيّـنـون لَـيّـنـون أيـسـار بـنـو يـسـرٍ	سُـوّاسُ مـكـرمـةٍ أبـنـاءُ أيـسـار
لا يـنـطـقـون عـلـى الـعـوراء إن نـطـقـوا	ولا يـمـارون إن مـاروا بـإكـبـار[3]

المبحث الثاني
أهم صفات نور الدين زنكي

إن مفتاح شخصية نور الدين محمود زنكي شعوره بالمسؤولية وحرصه على تحرير البلاد من الصليبيين، وخوفه من محاسبة الله له وشدة إيمانه بالله وباليوم الآخر، وكان هذا الإيمان سبباً في التوازن المدهش والخلّاب في شخصيته، فقد كان على فهم صحيح لحقيقة الإسلام وتعبد الله بتعاليمه، وتميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها:

---

(1) الباهر، ص: 96، 97، كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 49.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 50.

(3) الباهر، ص: 15، نور الدين زنكي في الأدب العربي، ص: 51.

أولاً: الجدية والذكاء المتوقّد:

مُنذ البداية والتكوين الجاد لنور الدين يدفعه إلى الإسراع لسّد أي فتق أو اعتداء من قِبل الأعداء: فلما قتل زنكي سنة (541هـ) يقول ابن الأثير: كان جوسلين الفرنجي، في ولايته غربي الفرات: تل باشر وما جاورها، فراسل أهل الرها وكان عامتهم من الأرمن، وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، وقاتلهم وجدّ في قتالهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين فسار مجداً إليها في العسكر الذي عنده، فلما سمع جوسلين بوصوله خرج عن الرها إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها وسبى أهلها، فلم يبق منهم إلاّ القليل وأجلى من كان بها من الفرنج[1]. وكان أبوه زنكي قد استرد هذا الموقع الخطير من الصليبيين عام (539هـ) وأمر جنده يومها بالكف فوراً عن النهب والسلب والتخريب، ومنح النصارى المحليين حريات واسعة وحمى كنائسهم وممتلكاتهم في محاولة منه لفك ارتباطهم بالغزاة الصليبيين الذين مارسوا معهم الكثير من أساليب التمييز والتفرقة الدينية. أما وقد تآمروا ـ ثانية ـ في أخريات عهد زنكي، وثالثة: بعد مقتله لإعادة الرها إلى السيطرة الصليبية منها يجي الرد بمستوى الجدّ الذي يقتضيه الموقف إذا ما أريد لهذا الموقع أن يبقى مجرداً، وألا يعود ثانية إلى قبضة الغزاة[2].

وفي عام (567هـ) هاجم صليبيو اللاذقية مركبين للمسلمين كانا مملوأين بالأمتعة مكتظين بالتجار، وغدروا بالمسلمين وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع الخبر استعظمه وأرسل إلى الصليبيين يطلب إعادة ما أخذوه، فغالطوه فلم يقبل مغالطتهم وكان لا يهمل أمراً من أمور رعيته كما يقول ابن الأثير، إذ ما لبث أن جمع عساكره وبث سراياه في بلاد الصليبيين بين أنطاكية وطرابلس، وقام بحصار حصن عرقة وتخريب ربضه، والاستيلاء على حصني صافيتا والعزيمة شمالي اللاذقية، وإجراء أعمال نهب وتخريب واسعة النطاق؛ الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى مراسلة نور الدين يعرضون عليه استعدادهم لإعادة ما أخذوه من المركبين وتجديد الهدنة بين الطرفين، فأجابهم نور الدين إلى ذلك لحاجته الماسّة ـ كما يبدو ـ إلى هدنة كهذه[3].

ويوماً بلغه ما فعله جوسلين من إرسال السلاح ـ الذي كان قد استولى عليه في إحدى معاركه مع نور الدين ـ إلى حمية السلطان مسعود حاكم سلاجقة الروم، فقام نور الدين

---

(1) الباهر، ص: 86، 87، نور الدين محمود زنكي، ص: 12.

(2) نور الدين محمود، ص: 12.

(3) الباهر، ص: 154، 155، نور الدين محمود، ص: 13.

وقعد، وهجر الراحة للأخذ بثأره، فأذكى العيون على جوسلين، وأحضر جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً أو أسراً، لأنه علم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأخلد إلى إعمال الحيلة[1]. وكان نور الدين، كما يقول ابن الأثير: إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر يكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدد للفرنج على المسلمين، فتكون حصونهم مستعدة غير محتاجة لشيء[2].

وهكذا ترتبط جدّية نور الدين بذكائه الحذر ودهائه الذي حقق له الكثير من المكاسب والمنجزات والذي لم يتح لأحد من الأعداء في الداخل والخارج أن ينفذ لتوجيه ضربة أو إصابة مقتل، كان كما يقول ابن الأثير: يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ويضرب على ذلك مثلاً سياسته مع مليح بن ليون ملك الأرمن في بلاد الأناضول: فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها ـ إذا أراد ـ فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجر فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج، وحين توفي نور الدين وسلك من بعده غير هذا الطريق ملك زعيم الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه[3]، وفي محاولته فتح دمشق أدرك أن اعتماد العنف سيفتزُّ حكامها ويدفعهم إلى مراسلة الصليبيين والاستعانة بهم، فعمد إلى إعمال الحيلة والسياسة فأخذ يراسل صاحبها مجير الدين ويستميله، ويبعث إليه بالهدايا الموصولة ويظهر له المودة حتى وثق إليه، وأخذ نور الدين يكاتبه مشككاً إياه بنوايا عدد من أمرائه، وإنهم بصدد الاتصال به ضد ملكهم، الأمر الذي دفع مجير الدين إلى إبعاد واعتقال عدد من أبرز أصحابه، فلما خلت دمشق من زهرة أمرائها، انتقل نور الدين خطوة أخرى فاتصل بأحداث دمشق (أي حرسها الشعبي) وجماهيرها واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، وعند ذاك تقدم لحصار دمشق وتمكن بمعونة أهلها أنفسهم من دخولها بسهولة بالغة ودونما إراقة للدماء[4]، فحقق بذلك الهدف الكبير الذي طالما سعى له أبوه، وقبل ذلك، وحينما بعث إليه الفاطميون ـ كما سيأتي بيانه بإذن الله ـ يطلبون منه القيام بهجوم على المواقع الصليبية جنوبي الشام لإشغالهم عن مهاجمة مصر، أجاب نور الدين أسامة بن منقذ سفيرهم في هذه

---

(1) زبدة الحلب (2/ 301، 302)، نور الدين محمود، ص: 13.

(2) الباهر، ص: 103 نور الدين محمود، ص: 13.

(3) الباهر، ص: 169، نور الدين محمود، ص: 13.

(4) الباهر، ص: 107، 108، زبدة الحلب (2/ 303، 305).

المهمة: إن أهل دمشق أعداء والإفرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما[1]، ويحدثنا أبو شامة عن إحدى خدع نور الدين حيث أغار على طبرية وجمع بعض أعلام الصليبيين وشيئاً من ملابسهم وسلاحهم وسلمها إلى أحد جنده قائلاً: أريد أن تعمل الحيلة في الدخول إلى بلبيس، وتخبر أسد الدين شيركوه المحاصر هناك بما فتح الله على المسلمين في بلاد الشام، وتعطيه هذه الأعلام وتأمره بنشرها في أسواق بلبيس فإن ذلك مما يفتّ في عضد الكفار ويدخل الوهن عليهم؛ ففعل أسد الدين ما أمر به، فلما رأى الصليبيون ذلك قلقوا وخافوا على بلادهم وسألوا حليفهم شاور ـ الوزير المصيري ـ الإذن بالانفصال[2]، كما يحدثنا ابن الأثير عن الأسلوب الذي اعتمده نور الدين في فتح حصني المنيطرة بالشام 561هـ، فهو لم يحشد له ولا جمع عساكره، وإنما سار إليه في سريّة من الفرسان على حين غرة من الصليبيين، إذ أدرك أنه بجمعه العسكر سيعطي الإشارة إلى خصومه لكي يأخذوا أهبتهم، وما لبثت حامية الحصن أن فوجئت بهجوم نور الدين المباغت وبعد قتال عنيف سقط الحصن، ولم يجتمع لدفعه إلّا وقد ملكه، ولو علموا أنه في قلعة من العساكر لأسرعوا إليه، إنما ظنوه أنه في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من ردّه[3]، فهذه الأحداث تظهر صفة الجدية والذكاء المتوقد في شخصية نور الدين.

ثانياً: الشعور بالمسؤولية:

تولد عن ورع نور الدين وتقواه إحساس شديد بالمسؤولية، ظهر في جميع أعماله وحالاته، فالخشية من الله تعالى تجعله دائماً في موقع المحاسب لنفسه المراقب لها، حتى لا تتجاوز إلى ما يغضب الله، فهو يعتبر نفسه مسؤولاً أمام الله عن كل ما يتعلق برعيته، وكل ما يتعلق ببلاد المسلمين ودمائهم وحقوقهم حتى لو كانوا من غير رعيته، فإذا كان باستطاعته مساعدتهم فهو مسؤول إذا قصر في تقديم هذه المساعدة، يظهر هذا الفهم الشامل للمسؤولية[4] في رسالة نور الدين محمود إلى إيلدكز أمير أذربيجان وأرمينية وهمذان والري، جواباً على رسالته التي يطلب فيها من نور الدين عدم احتلال الموصل، ويتهدده بأن لا سبيل له إليها، قال نور الدين للرسول: «قل لصاحبك: أنا أرحم ببني أخي» ـ يعني سيف الدين

---

(1) الاعتبار، ص: 14، نور الدين محمود، ص: 14.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 15.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 15.

(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، ص: 132.

غازي ـ منك، فلم تدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك عند باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس: الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام، وإزالة الظلم عن المسلمين[1]. كان نور الدين يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه تجاه الوقت أن يضيع هباء والدم المسلم من أن يُهدر، والكرامة الإسلامية من أن تهان والأرض الإسلامية من أن تُغزى وتُقتطع[2].

فحينما علم في عام (544هـ/ 1149م) بتحالف الصليبيين قال: لا أنحرف عن جهادهم، إلا أنه مع ذلك كان يكفّ أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضّياع، ويحسن الرأي في الفلاحين، ويعمل على التخفيف عنهم، الأمر الذي أكسبه عطف وتأييد جماهير دمشق وسائر البلاد التابعة لها، فراحت تدعو له بالنصر. وكتب إلى زعماء دمشق: «إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين. . . بأن الفلاحين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج وانعدام الناصر لهم، فلا يسعني مع ما أعطاني الله ـ وله الحمد ـ من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال، ولا يحلّ لي القعود عنهم والانتصار لهم؛ مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين»[3]، وفي العام التالي خرج إليه أهل دمشق وكثير من أجنادها، بعد أن قرر عدم مهاجمتها عنوة كراهية لسفك دماء المسلمين، والتقى بعدد من الطلاب والفقراء والضعفاء فلم يخيب أحداً من قاصديه[4].

وقد أصر نور الدين طيلة الفترة التالية على عدم القيام بهجوم على البلد تحرجاً من قتل المسلمين، وقال: «لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين»[5]. فهو يعلم جيداً أن الأمة إذا قتلت نفسها سهلت على العدو، وإذا قدرت على حماية دمها بذلته رخيصاً في مجاهدة هذا العدوّ. . معادلة واضحة يمكن أن تفسر لنا الكثير من هزائم الأمم وانتصاراتها على السواء[6]. . . ومن ثم كانت عادة

---

(1) زبدة الحلب (2/ 332، 333)، نور الدين محمود، ص: 17.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 407.
(3) دمشق، ص: 308، 309 لابن القلانسي، نور الدين محمود، ص: 16.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 310، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 17.
(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 17.
(6) المصدر نفسه، ص: 17.

نور الدين كما يقول أبو شامة: إنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستعين على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منها كما فعل بدمشق ومصر وغيرها[1]. لقد كان الدم عنده عظيماً، لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل[2].

ثالثاً: قدرته على مواجهة المشاكل والأحداث:

اعتمد نور الدين محمود الحلول العقلية ذات الطابع العلمي في مواجهة المشاكل والأحداث، واضعاً عينيه على التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، ففي عام (552هـ) شهدت الجهات الوسطى والشمالية من بلاد الشام زلازل عنيفة تتابعت ضرباتها القاسية، فخربت الكثير من القرى والمدن، وأهلكت حشداً لا يحصى من الناس، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، فما كان من نور الدين إلاّ أن شمّر على ساعد الجدّ وبذل جهوداً عظيمة في إعادة إعمار ما تهدم وتعزيز دفاعاته، فعادت البلاد كأحسن مما كانت، ولولا أن الله منّ على المسلمين بنور الدين، فجمع العساكر وحفظ البلاد، لكان دخلها الفرنج بغير قتال ولا حصار[3]، وفي عام (565هـ) ضربت بلدان المنطقة بغارة أخرى من الزلازل لم تقل هولاً على سابقتها، خربت الكثير من المدن وهدمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحدّ والإحصاء، فلما بلغ الخبر نور الدين سار إلى بعلبك لإعادة إعمار ما تهدم من أسوارها وقلعتها، ولم يجأر إلى الله بالشكوى، ويعلن أن الظلم قد فشا وأن هذا عقاب الله فقط أو أنه إشارات الساعة قد لاحت في الأفق القريب، وعندما وصل بعلبك أتاه خبر دمار باقي البلاد وهلاك كثير من أهليها، فرتب في بعلبك من يحميها ويعمرها وانطلق إلى حمص ففعل مثل ذلك، ومنها إلى حماه فبعرين، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بعرين فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب، فلما شاهد ما صنعته الزلزلة بها، وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار جميع البلاد وجوامعها وأخرج من المال ما لا يقدر قدره[4].

إن الكوارث ـ التي يبتلي الله بها عباده ـ تجيء بمثابة تحديات دائمة تستفز الجماعات البشرية وقياداتها إلى المزيد من الوعي والإنجاز، وإن الاستجابة لهذه التحديات هي التي تقود

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 17.

(2) الباهر، ص: 107، نور الدين محمود، ص: 17.

(3) الباهر، ص: 110، 112، نور الدين محمود، ص: 18.

(4) الباهر، ص: 45.

الأمم والتجارب السياسية والحضارات خطوات إلى الأمام، والعجز عنها هو الذي يربك مسيرتها ويصيبها بالعجز والشلل والجمود، أما نور الدين فقد اختار الموقف الأول وأعاد إعمار ما هدمته الكوارث بسرعة مدهشة وواصل الطريق[1]. ثمة واقعة أخرى ذات دلالة واضحة في هذا المجال: كانت في الموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلّا من ذهب عمره ولم يتم على مراد أمره. فأشار الشيخ عمر الملاء أحد صالحي المدينة وشيوخها الورعين بابتياعها وبناء جامع كبير فيها تقام فيه الصلوات وتخطب الجمع وتدرّس العلوم ففعل نور الدين وأنفق فيه أموالاً كثيرة[2]. وعلق الدكتور عماد الدين صاحب «كتاب نور الدين محمود الرجل والتجربة» على هذه الحادثة فقال: لم يضرب نور الدين الخرافة والشائعة بالكلمة ولكنه ضربها بالفعل، وبالإنجاز وزالت الخرافة. ولكن المسجد الكبير الذي بناه على أنقاضها ظل حتى اليوم يستقبل مئات المتعبدين والدارسين[3].

رابعاً: نزعته للبناء والإعمار:

إن الحاكم الناجح في نظره هو ذلك يعرف كيف يحقق أكبر قدر من العمران والتحضر بأقل قدر من الزمن[4]، فقد بنى نور الدين المساجد والربط والزوايا للتعبد وتربية الروح، كما أنشأ المدارس ودور الحديث للتعلم وتربية العقل، وشجّع أعمال الفروسية وسائر النشاطات الرياضية لكسب المزيد من المهارات القتالية، وتنمية الجسد، وبنى أيضاً دوراً للأيتام لإيواء أطفال المسلمين، والمارستان لمعالجة المرضى، وأقام الجسور والقناطر والحدائق والقنوات والأسواق والحمامات والمخافر وشقّ الطرقات العامة، فحفلت دولته بالكثير من المؤسسات الاجتماعية والعمرانية[5]، ولم يغفل نور الدين ـ وهو بصدد البناء والإعمار ـ عن الجانب الجمالي الذي يرتبط ارتباطاً أساسياً بالإبداع.. ورجلٍ كنور الدين خرجته مدرسة الإسلام الرحيبة الشاملة لا يمكن إلا أن يرى في العمل والتزيين في المضمون والشكل في الوقائع والجماليات وجهين لعملة واحدة[6]، فقد أوقف بستان الميدان والغيضة التي تليه في دمشق لتطييب جوامع دمشق ومدارسها لكي يظل هواؤها معبقاً بالروائح الطيبة والشذى العبق، وكان على اهتمام كبير بهذه المسألة بحيث أنه حدّد مصارف وقفه المذكور نصفه على تطبيق جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم عشرة أجزاء، جزءان على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية

---

(1) الباهر، ص: 45.

(2) نور الدين محمود، ص: 19.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 19.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 19.

(5) نور الدين محمود، ص: 19.

(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 21.

والثمانية أجزاء الأخرى على تطييب المساجد التسعة في دمشق وأطرافها[1]. وجلب للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب، من مدينة أفاحية، مذبحاً من الرخام الملكي الشفاف الذي إذا وضع تحته ضوء شفّ من وراء الرخام[2]، ولما دخل قلعة دمشق عام 549هـ أنشأ بها داراً عامة في غاية الحسن سماها: دار المسرّة[3]، وفي قلعة حلب أنشأ نور الدين أبنية كثيرة وأقام ميداناً «خضّره بالحشيش» وسمي الميدان: الميدان الأخضر[4]، ويرتبط بهذه المسألة الجمالية ما كان نور الدين يأمر به في المناسبات عام (552هـ) حيث أمر نور الدين بزينة قلعته ودار مملكته بحيث حلّى أسوارها بالآلات الحربية من الجواشن والدروع والتراس والسيوف والرماح والطوارق، والإفرنجية والأعلام والطبول والبوقات وأنواع الملاهي المختلفات، وهرعت الأجناد والرعايا وغرباء البلاد لمشاهدة الحال فشاهدوا ما استحسن منه مدة سبعة أيام[5]. لقد كان إكسسوار الحفل وديكوراته ـ إذا صح التعبير ـ مناسبة تماماً لمدينة كدمشق تتزعم حركة الجهاد وتقف في قلب التحدي.

وتبدو نزعة نور الدين للإعمار والتحضر، أكثر ما تبدو في سياسته الرامية لتوطين العناصر البدوية وجعلها تمارس حياة الاستقرار، فقد أقطع لأمراء العرب في جنوب الشام والحجاز القطائع لئلا يتعرضوا لقوافل الحجاج[6]، ونقل أعرُب بني عبّاد من البلقاء والأردن إلى صرخد الملاصقة لبلاد حوران من أعمال دمشق، ورغم أن عمل هذه الخطوة انصب على تجميد نشاط هؤلاء في مساعدة صليبيي المنطقة وإرشادهم على الطرق، وتحويل هؤلاء الأعراب إلى قوة تعمل لصالح المسلمين أنفسهم كما أشارت الرواية المذكورة[7]، إلا أنها حققت من ناحية أخرى هدفاً عمرانياً واضحاً[8]، وليس ثمة رواية تحمل دلالتها على نزعة نور الدين للبناء والإعمار تعدل رواية ابن جبير، الرحالة الذي زار دمشق ووصف معالمها بعد سنوات فحسب من وفاة نور الدين، ولا شك أن وصفه هذا ينسحب على العصر الذي نتحدث عنه، لأن تغييرات جغرافيا المدن لا تقاس بالسنين المحدودة بل بعقودها على أقل تقدير، يقول الرجل، مشيراً إلى الاتساع العمودي لدمشق: «وبناء البلد ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن، لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً، وحسنه كله خارج المدينة لا داخلها، وبدمشق ما يقرب من مائة حمّام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً

---

(1) البداية والنهاية نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 21.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 21.
(3) المصدر نفسه، ص: 21.
(4) مرآة الزمان (8/ 306)، نور الدين محمود، ص: 22.
(5) المصدر نفسه.
(6) مرآة الزمان (8/ 306)، نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 22.
(7) البرق، ص: 125، 126، نور الدين محمود، ص: 22.
(8) المصدر نفسه.

للوضوء يجري الماء فيها كلها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب؛ لأن المرافق بها كثيرة.. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها صنعاً»[1]، وقد سرت عدوى الرغبة في البناء والإعمار إلى رجال نور الدين وكبار موظفيه ـ كما سنرى في الفصول التالية ـ فراحوا يتسابقون في بناء المدارس والمساجد ومؤسسات الخدمات الاجتماعية، وما أكثر الروايات التي قيلت في هذا الصدد، ويكفي أن نطلع على تراجم رجال نور الدين محمود، بل النساء اللواتي اشتهرن في عصره كذلك[2].

خامساً: قوة الشخصية:

كان نور الدين محمود قوي الشخصية، قديراً على الوقوف في نقطة التوازن بين الصرامة والمرونة، والشدة واللين، والعنف والرحمة[3]، وقد وصفه ابن الأثير بأنه كان مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، وأنه كانت إليه النهاية في الوقار والهيبة شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف[4]، ويصف مجلسه فيقول: «وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدّى هذا..» وقال الحافظ ابن عساكر الدمشقي: كنا نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأن على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار وإذا تكلم أنصتنا، وإذا تكلمنا استمع لنا[5]، وقال ابن كثير: لم يُسمع منه كلمة فحش قط في غضب ولا رضى، صموتاً وقوراً[6]. وكان نور الدين محمود يملك هيبة عجيبة على موظفيه، ويلزمهم بوظائف الخدمة، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس باستثناء نجم الدين أيوب... وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم، إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه، ويُقبل عليه بحديثه كأنه أقرب الناس إليه، وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً كثيراً يقول: «هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء، ولهم في بيت الله حق أضعاف ما أعطيهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[7].

---

(1) البرق، ص: 125، 126، نور الدين محمود، ص: 24.

(2) المصدر نفسه، ص: 24.

(3) المصدر نفسه، ص: 24.

(4) المصدر نفسه، ص: 24.

(5) الباهر، ص: 173، نور الدين محمود، ص: 24.

(6) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 24.

(7) الباهر، ص: 172، 173، تاريخ الزنكيين، ص: 409.

سادساً: محبة المسلمين له:

عندما تحدث ابن كثير في أحداث سنة 552هـ قال: وفيها مرض نور الدين، فمرض الشام بمرضه، ثم عوفي ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً[1]، وقال في أحداث سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وفيها: «كبست الفرنج نور الدين وجيشه فانهزم المسلمون لا يلوي أحد على أحد، ونهض الملك نور الدين فركب فرسه والشِّبحة[2] في رجله، فنزل رجل كردي فقطعها حتى سار السلطان نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج الكردي فقتلوه»[3]، وفيما ذكره ابن كثير يظهر الحب العميق الذي تكنه الأمة لنور الدين، وهذا الحب الرباني كان نابعاً من القلب، وبإخلاص، لم يكن حب نفاق، وما أبلغ تعبير ابن كثير: «مرض نور الدين فمرض الشام بمرضه»، فهل هناك تلاحم بين القيادة والقاعدة مثل هذا في ذلك الزمن؟ ومن أسباب ذلك الحب صفات نور الدين القيادية، فهو يسهر ليناموا ويتعب ليستريحوا، وكان يفرح لفرح المسلمين ويحزن لحزنهم، وكان عمله لوجه الله ـ نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً ـ وصدق الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي عندما قال:

فـــإذا أحـــب الله بـــاطـــن عـــبـــده ظـــهـــرت عـــلـــيـــه مـــواهـــب الـــفـــتـــاح

وإذا صـــفـــت لله نـــيـــة مـــصـــلـــح مـــال الـــعـــبـــاد عـــلـــيـــه بـــالأرواح[4]

إن القيادة الصحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كل شيء وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحب من الجنود والأمة لها.

إن نور الدين وضع الله له قبولاً عظيماً بين أبناء أمته، وأحبته الجماهير لجهاده وإخلاصه وتفانيه في خدمة الإسلام، وامتد هذا الحب لكي يتجاوز مدن دولته وحصونها وقراها إلى ما وراء الحدود وكسب جماهير خصومه من الداخل، وهز عروشهم، وقطع جذور مواقعهم من الأعماق، وأزاحهم من طريق الوحدة التي اعتزم بناءها دونما قطرة من دم، فالدم المسلم كان عنده عظيماً، وليست تجربته مع أهالي دمشق بالمثل الوحيد، فمُنذ عام 543هـ حينما تقدم على رأس قواته للمساعدة على فك حصار الحملة الصليبية الثانية عن دمشق، شاهد الدماشقة حرمته حتى تمنوه[5]، وراحوا يدعون له دعاءً متواصلاً[6] وأخذ يخرج إليه

(1) البداية والنهاية (16/ 382).
(2) الشبحة: التي تربط بها يد الفرس من لباد ونحوه.
(3) البداية والنهاية (16/ 406).
(4) الحركة السنوسية للصَّلاَّبي (2/ 7).
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 25.
(6) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي، ص: 308، 309 نور الدين محمود، ص: 25.

خلال المراحل التالية من الحصار ـ عدد كبير من الطلاب والفقراء والضعفاء ولهذا دلالته، فهم الذين كانوا في الواقع أصدقاءه الحقيقيين كما سيتبين لنا: فما خاب قصده كما يقول ابن القلانسي[1]، أما فلاحو المنطقة فكانت قلوبهم معه؛ لأنه منع أصحابه من العبث في مزارعهم، وأعلن أنه جاء لكي يحمي كدحهم من تخريب الصليبيين[2].

وفي عام (547هـ) عندما تقدم إلى دمشق لضمها إلى جبهة القتال الجادّ المخلص ضد الصليبيين، واستنجد حاكمها مجير الدين بالعسكر والأحداث[3] للخروج إلى قتاله، لم يخرج إلا القليل، لِمَا وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين بالفرنج. وأقام نور الدين على دمشق من غير قتال ولا زحف خوفاً على المسلمين[4]. وقد عزّز بذلك محبة الدمشقيين له فكانوا يدعون ليلاً ونهاراً أن يبدلهم الله سبحانه بالملك نور الدين[5]، وأخذ نور الدين يكاتب أهل دمشق ويستميلهم، وكان الناس يميلون إليه لما هو عليه من العدل والديانة والإحسان فوعدوه بالتسليم[6]. وقد دخل نور الدين دمشق عام 549هـ في فتح أبيض لم ترق فيه دماء وما ذلك إلا ـ بتوفيق الله ـ ثم بمساعدة الجماهير التي كانت تنتظر دخوله مُنذ سنوات وسنوات، يقال: إن امرأة كانت على السور فدلّت حبلاً فصعدوا إليه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعدت جماعة أخرى ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين[7]، وبعد أقل من ثلاث سنين، حينما أعلن في دمشق عن التطوع في حملة لقتال العدو خرج كل قادر على حمل السلاح من أهل دمشق وتبع نور الدين في حملته تلك فتيان البلد من الأحداث والغرباء والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير[8].

وهناك رواية لابن الأثير، تناقلها كثير من المؤرخين، تحمل دلالتها العميقة في هذا الموضوع: طلب نور الدين عام (559هـ) نجدات من أمراء الأطراف لفتح حارم المعروفة بحصانتها الشديدة، فأما فخر الدين قرا أرسلان الأرتقي، حاكم حصن كيفا في ديار بكر، فبلغني عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي بنفسه والناس معه في المهالك فكلهم

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 310، نور الدين محمود، ص: 26.
(2) زبدة الحلب (2/ 304، 305)، نور الدين محمود، ص: 26.
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 26.
(4) مرآة الزمان (8/ 209، 210)، نور الدين محمود، ص: 26.
(5) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 26.
(6) زبدة الحلب (2/ 304، 305).
(7) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 26.
(8) نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 27.

وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال نرى الآن ضدها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أُنجده خرج أهل بلادي على طاعتي وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زهّادها وعبّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه، وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليّ، فلا بد من إجابة دعوته، ثم تجهز هو «أيضاً» وسار إلى نور الدين بنفسه.

إن نور الدين يتعامل مع الجماهير وأعيانها ورموزها، وقد حقق نجاحات باهرة في كسب قلوبها وتأييدها ومحبتها، فكان يطلعها على تفاصيل ما يجري على الساحة، فإن تردد الحكام والأمراء، أو جبنوا، أو بخلوا، فإن بمقدور القواعد الأكثر ثقلاً وتأثيراً يومذاك أن ترغمهم على الطاعة وإلاّ عصفت بهم وأخرجت البلاد من أيديهم، وذلك هو الضمان الكبير في تجنيد القدرات الإسلامية كافة ودفعها إلى ساحات الجهاد[1]، وما من شك في أن انسجاماً عميقاً يتحقق بين القيادة والقواعد ومحبة واعية تسود العلاقة بين الرجل والجمهور، وتعاطفاً مخلصاً من أجل الأهداف الكبيرة، وما من شك أن هذا وذاك من أسباب النجاح والتوفيق في إدارة دولته[2].

سابعاً: اللياقة البدنية العالية:

تطلبت حياة نور الدين محمود الحافلة بالعمل المتواصل والجهاد المضني جسداً قوياً قادراً على تحمل الأعباء والمشقات، ولا يتم بناء الجسم القوي إلا بممارسة الرياضة، ولذلك كان نور الدين مواظباً على ممارسة الألعاب الرياضية المعروفة في زمانه بما يتعلق بالفروسية وأعمال القتال، وكان بشكل خاص مولعاً بلعبة الكرة أو الصولجة التي تدعى في هذه الأيام بلعبة البولو[3]، ويصفه ابن الأثير بقوله: «من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، ولم يُر جوكانه يعلو رأسه وكان ربما ضرب الكرة فتعلو، فيجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان، وكانت يده لا ترى والجوكان[4] فيها، بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب، وعندما احتجّ عليه أحد الزاهدين من أصحابه؛ لأنه يلهو ويعذب الخيل لغير فائدة دينية قال: والله ما حملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر، وإنما نحن في ثغر، والعدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 28.

(2) المصدر نفسه، ص: 28.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 134.

(4) الجوكان: هو العصا التي تضرب بها الكرة.

ونهاراً شتاء وصيفاً إذ لابد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماماً لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف في الكر والفر في المعركة فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب فيذهب جمامها وتتعود سرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي يبعثني على اللعب بالكرة»[1].

وقد فسر نور الدين بكلامه هذا الممارسة الرياضية تفسيراً إسلامياً رائعاً في جوابه على اعتراض أحد إخوانه الزهاد عندما كتب له[2]، ففي هذا التفسير المنطقي والتحليل التفصيلي للعبة البولو كشفٌ وتوضيح لنفسية نور الدين، فهو لا يلعب الكرة للعبث وإهدار الوقت، وإنما لتحقيق العديد من الفوائد التي هي في الحقيقة استعداد وتحضير للجهاد، تحضير لأجسام اللاعبين ولأجسام خيولهم، وإشغال أوقات الفراغ بما هو مفيد إضافة إلى ما تقتضيه الرياضة من راحة نفسية، واستجمام وصفاء التفكير وذهاب الهم للجنود والقادة، وفي هذا الجواب لصاحبه الزاهد تظهر روح نور الدين الرياضية في أعلى درجاتها، فهو يخاطب الزاهد حسب مستواه من العلم والمعرفة ويأتيه من الباب الذي يقنعه، دون أن يجرح شعوره باتهامه بقلة المعرفة أو التزمُت أو التعصُب[3]، وبهذا الموقف يبين لنا نور الدين فهمه للإسلام بالمنظور الشمولي الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي بردة في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره: قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[4]. وفي كلام معاذ رضي الله عنه دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل على شؤون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله[5].

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين، انحرافهم عن تصور مفهوم العبادة، وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل للعبادة الواسع العميق الذي كان يمارسه نور الدين وانعكاسه على جنوده وشعبه ودولته، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب.

---

(1) الباهر، ص: 168، 169.

(2) نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 33.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، ص: 134.

(4) البخاري، كتاب: المغازي، باب: بعثة أبي موسى الأشعري، رقم 42.

(5) فقه النصر والتمكين، ص: 197.

إن من شروط النهوض التي نتعلمها من دراستنا لسيرة نور الدين الشهيد أن يكون مفهوم العبادة في حس جيلنا: أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: 56] وبهذا الفهم لمفهوم العبادة عند نور الدين وجيله حقق إنجازات رائعة في كل اتجاه خاضته الدولة النورية. قال ابن الأثير: في حديثه عن نور الدين محمود: «وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة» ثم ذكر قصة اعتراض الزاهد على لعبه بالخيل والكرة التي ذكرناها آنفاً ثم علق ابن الأثير بعد نهاية القصة فقال: «فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقلّ في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة، حتى يصير من أعظم العبادات وأكثر القربات يقلّ في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة. وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين»[1]. والملاحظ في حياة نور الدين صياغة حياته ودولته كلها صياغة إيمانية ربانية ملتزمة بمنهج رب العالمين وامتثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام: 162].

إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط النهوض والتمكين ألا وهو: تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح[2]، وهكذا كان نور الدين محمود لا يغيب عنه مفهوم العبادة الشامل في لهوه ولعبه وجده، وكان يمارس ألعاب أخرى تشبه في مغزاها وفائدتها لعبة البولو كلعبة طعن الحلق ورمي القبق[3]، وكانت رحلات الصيد الممتعة من رياضته الأخرى، تحمل من الجدّ جنب متعتها البريئة، ما يجعلها من بين المهارات الفروسية التي يتقنها ويتعشقها يومذاك الفارس والمجاهد، ولقد قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: **«ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي»**[4]. وقال: **«من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا»**[5]. وليس مهارات الصيد ـ في نظر نور الدين محمود زنكي ـ سوى محاولة، من بين عديد من المحاولات لتركيز القدرة على الرمي وحمايتها من التبدد والنسيان، وحكى أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» عن ممارسة نور الدين لرياضة الصيد: وظل نور الدين يمارس رياضة الصيد، ويتعشق لعب الكرة والرماية حتى مرضه الأخير الذي أودى به بعد أيام قلائل من ذلك اليوم الحافل الذي قرّر فيه ختان ولده الملك الصالح إسماعيل، حيث أقيمت الاحتفالات، ورددت الأناشيد، وخرج الرجل مع بعض أصحابه إلى الميدان الأخضر شمالي دمشق لممارسة العديد من ألعاب الفروسية، كطعن الحلق ورمي

---

(1) عيون الروضتين (1/ 360).

(2) فقه النصر والتمكين، ص: 190.

(3) القبق: لعبة القبق عبارة عن خشبة عالية في أعلاها خشبة مستديرة، توضع الخشبة في أرض مستوية ويتم رمي السهام عليها.

(4) مسلم، رقم 1917.

(5) مسلم، رقم 1919.

القبق، كما يقول العماد الأصفهاني: «فما غادر الساحة إلا وهو يعاني ألماً حاداً وسرعان ما أودى بحياته بعد قليل»[1].

ثامناً: تجرده وزهده الكبير:

فهم نور الدين محمود زنكي ﷺ من خلال معايشته للقرآن الكريم وهدي النبي ﷺ، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، وعليه فإنَّها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرَّرَ من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد، وأسلم نفسه ظاهراً وباطناً، ومن هذه الحقائق:

* اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو عابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»**[2].

* وأن هذه الدنيا لا وزن لها، ولا قيمة عند رب العزّة إلا ما كان منها طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ إذ يقول النبي ﷺ: **«لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**[3]، **«ألا إن الدّنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، أو عالماً أو متعلّماً»**[4].

* وأن عمرها قد قارب على الانتهاء، إذ يقول ﷺ: **«بعثت أنا والساعة كهاتين»**، ويقرن بين إصبعيه السّبابة والوسطى[5].

* وأن الآخرة هي الباقية، وهي دار القرار، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: 39-40][6]، كانت هذه الحقائق قد استقرت في قلب الملك العادل نور الدين محمود الشهيد فترفع رحمه الله عن الدّنيا وحطامها، وزهد فيهما، وإليك شيئاً من مواقفه:

---

(1) البرق، ص: 150، 154.

(2) سنن الترمذي، كتاب: الزهد، رقم 2333، وهو حديث صحيح.

(3) المصدر السابق، رقم 2320.

(4) المصدر السابق نفسه، رقم 2322، حسن غريب، قاله الترمذي.

(5) مسلم، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة، رقم 867.

(6) من أخلاق النصر في جيل الصحابة، د. السيد محمد نوح، ص: 48، 49.

1 ـ قال ابن الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن الشكري وكان خصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا، وأنس به وله معه انبساط، قال: كنت معه في الميدان بالرّها والشمس في ظهورنا، فكلّما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها وتطلب من يهرب منها قلت: رضي الله عن مَلك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى وهما:

مَثلُ الرزق الذي تطلبه ... مثل الظل الذي يمشي معك

أنت لا تدركه متبعاً ... وإذا ولّيت عنه تبعك[1]

2 ـ تشبه نور الدين محمود بعمر بن عبد العزيز في زهده، وقد كان الأخير حاكم لأقوى دولة على الأرض في زمنه، فكان نور الدين لا ينفق على نفسه وعلى أهله، إلا من ملك اشتراه من سهمه من الغنائم، وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فيأخذ ما يفتونه بحله ولم يتعداه إلى غيره البتة[2]، قال العماد الأصفهاني: «كان رسم نفقته الخاص في كل سنة من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس»[3]، يصرفه في كسوته ونفقته ومأكوله ومشروبه وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطه وطباخه، ومن ذلك المقرر المعين النزر، ثم يستفضل ما يتصدق به في آخر الشهر ويفضه على المساكين وأهل الفقر[4].

3 ـ وأما ما يُهدى إليه من الثياب والألطاف وهدايا الملوك من المناديل والسكاكين والمهاميز والدبابيس، وكل دقيق وجليل لا يتصرف في شيء منه، بل يعرض نظره عنه، وإذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ليحصّل أثمانها الموفورة ويصرفها في عمارة المساجد المهجورة[5].

4 ـ ولم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة[6]، وحكي لي عنه: أنه

---

(1) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 261).

(2) الباهر، ص: 164، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 128.

(3) الكواكب، ص: 53، 54 نور الدين محمود، ص: 39.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 39.

(5) البرق، ص: 143، 144، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 40.

(6) الباهر، ص: 164، نور الدين محمود، ص: 40.

حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهّبة فلم يحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها، وبينما هم معه في حديثها، إذ قد جاءه رجل صوفي فأمر له بها فقيل له: إنها لا تصلح لهذا الرجل، ولو أعطي غيرها لكان أنفع له، فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أعوّض عنها في الآخرة. فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة، وأنا أشك أنها كانت تساوي أكثر[1].

5 ـ قال رضيع الخاتون «زوجة نور الدين»: إنها قلّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قد قرّره لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها (أي مخصصاتها المالية) فلما قلت له ذلك تنكر واحمرّ وجهه ثم قال: من أين أعطيها، أما يكفيها ما لها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن؛ إنما هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم ومعدّة لفتق ـ إن كان ـ من عدوّ الإسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال لي: بمدينة حمص ثلاث دكاكين ملكاً قد وهبتها إياها فلتأخذها، وكان يحصل منها قدر قليل نحو عشرين ديناراً[2].

6 ـ قال ابن كثير: كان نور الدين عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على أهله وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا[3]. وكان عمر الملّاء رجلًا من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل له بفتيت ورقاق فيفطر عليه[4]. وكان إذا أقام الولائم العظيمة لا يمدّ يده إليها إنما يأكل من طبق خاص فيه طعام بسيط[5].

* وأما مقرّ سكن حاكم الجزيرة والشام ومصر واليمن، فكانت دار متواضعة تطل على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، ألحق بها صُفّة يخلو فيها للعبادة، فلما ضربت الزلازل دمشق، بنى بإزاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب، فهو يبيت فيه ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح[6]. ولما توفي دفن في البيت البسيط المقام من الأخشاب[7].

---

(1) الباهر، ص: 165، نور الدين محمود، ص: 40.
(2) المصدر السابق.
(3) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 41.
(4) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 41.
(5) مرآة الزمان (8/ 315)، نور الدين محمود، ص: 41.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 41.
(7) البرق، ص: 153، 154، كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين، ص: 410.

7 ـ **زهده في الألقاب**: عندما تفقُدُ قيادةٌ ما القُدرة على الإسهام الجادّ في حركة التاريخ، يتحول همها إلى منح النياشين والألقاب لمن يقدرون من أجل أن تغطي عجزها وانكماشها، لكن رجلاً فاعلاً كنور الدين يرفض هذه (المنح) خوفاً أن يكون في طياتها الكذب والمبالغة والزيف، وخوفاً أن تقوده إلى نوع من الاعتداد والغرور كثيراً ما انتهى إليهما القادة العاملون، وأما نور الدين الذي علّمه التجرد كيف يكون الرفض فإنه يتمنع حتى النهاية عن الذهاب مع الإغراء إلى ما يريد الشيطان لا إلى ما يريد الله؛ تَلَقّى يوماً من بغداد هدية تشريف عباسية ومعها «قائمة» بألقابه التي كان يُذكر بها على منابر بغداد: . . . اللهم أصلح المولى السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط المثاغر نور الدين وعدته ركن الإسلام وسيفه، قسيم الدولة وعمادها، اختيار الخلافة ومعزها، رضيّ الإمامة وأثيرها، فخر الملّة ومجدها، وشمس المعاني وملكها، سيد ملوك المشرق والمغرب وسلطانها، محيي العدل في العالمين المظلومين من الظالمين ناصر دولة أمير المؤمنين.

لكن نورالدين أسقط جميع الألقاب وطرح دعاءً واحداً يقول: اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكي[1]، وثمة رواية أخرى تمنحنا مزيداً من الأضواء عن الموضع وتتضمن كلمات وجملاً من إنشاء نور الدين نفسه. . روي أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسراني ـ بعد أن استفزته كثرة الألقاب ـ يأمره أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ولئلا يقول ما ليس فيه، فكتب ابن القيسراني كلاماً ودعا له فيه ثم قال: وأرى أن يقال على المنبر: اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود زنكي، فكان جواب نور الدين: هذا لا يدخله كذب ولا تزيّد. وكتب بخطه في أعلى الصفحة: مقصودي أن لا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال. أفرح بما لا أعمل ؟ والتفت إلى وزيره قائلاً: الذي كتبت به جيد: اكتب به نسخاً إلى البلاد[2]. ثم أضاف ثم يبدؤون بالدعاء: اللهم أره الحق حقاً، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفّقه. . من هذا الجنس[3].

إن القيادة التي تريد أن تنهض بالأمة وتمارس فقه النهوض في حياتها عليها أن تمنع كل ما من شأنه أن ينمّي روح النفاق والتزلف للمسؤولين، لأن ذلك يوفر النقد البنّاء وحرية

---

(1) الكواكب، ص: 68، 69، نورالدين محمود، ص: 43.
ص: 42.
(2) مرآة الزمان (8/ 322/ 323)، نور الدين محمود،
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 274.

الرأي للشعوب حتى يعرف القادة أخطاءهم فيصلحوها في حركته النهضوية، وعلى القيادة أن تتصف بالتجرد لله في أعمالها وتزهد في حطام الدنيا الزائل. لقد كان زهد نور الدين، زهد المؤمن الذي لا يرغب في الدنيا، وما فيها من ملذات وشهوات، ويسعى ويعمل للآخرة دار النعيم والخيرات، ولقد مدح ابن القيسراني نور الدين في زهده فقال:

يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زُهّادها[1]

ويقول أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفافاً ومال بها عن الأموال زهدا[2]

ويصوره ابن منير من الصالحين الأبرار الذين يزهدون فيما يتنازع عليه الناس من عرض الدنيا، يقول:

لا زلت تقفو الصالحين مسابقاً لهُم وتَطلُعُ خلفك الأبرار
نفس السيادة زهد مثلك في الذي فيه تفانت يَعْرُبٌ ونزار[3]

تاسعاً: شجاعته:

ورث نور الدين محمود الشجاعة عن والده عماد الدين زنكي الذي يضرب بشجاعته المثل، فقد شارك نور الدين في جميع المعارك التي خاضها والده خلال فترة حكمه سنة (521 ـ 541هـ) ومن بعد توليه الحكم أمضى معظم أيام حياته على صهوة جواده يشارك جنوده ويتقدم الصفوف ويعرض نفسه للشهادة، وقد ورد أفضل وصف لشجاعته على لسان ابن الأثير بقوله: «وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل، وبلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، صليب الضرب يقدم أصحابه عند الكرّة ويحمي منهزمهم عند الفرّة»[4] وعندما فاجأ الفرنجة معسكره بالقرب من حصن الأكراد عام (558هـ / 1163م) ولم يتمكن هو ومن

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي، ص: 64.
(2) المصدر نفسه، ص: 64.
(3) ديوان ابن منير، ص: 192، نور الدين في الأدب العربي، ص: 65.
(4) الباهر، ص: 168، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 125.

كان معه من الثبات، انسحب باتجاه حمص مسافة اثنتي عشر كيلو متراً وتوقف حتى تجمع عنده من نجا من المعركة، وأرسل في طلب الخيام والسلاح والمؤن من حمص وحلب وأقام معسكره في نفس المكان، فنصحه بعض قادته باختيار موقع أبعد خوفاً من متابعة الفرنجة لهم، فأجابه: إذا كان معي ألف فارس لا أبالي بأعدائي قلّوا أم كثروا والله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري[1]. ولم يغادر مكانه إلا عندما تجمعت له القوات الكافية، فتوجه بها نحو حارم حيث وقعت معركة حارم المشهورة وبرَّ نور الدين بقسمه[2]. وقد تحدث الشعراء عن صفة الشجاعة، وشبهوا نور الدين بالأسد، بل هو يأسر الأسود ويتغلب عليها، يقول ابن القيسراني:

من باتت الأسد أسرى في سلاسله ... هل يأسر الغلب إلا من له الغلب[3]

ويقول أيضاً:

أنت حيناً تقاس بالأسد ... الورد وحيناً تُعدُّ في الأولياء[4]

وهو عند الأصفهاني يغلب الملوك، ويصيد الأسود، وهو فارس الفرسان ويسلب التيجان من الملوك الآخرين، ويحوز الفخار لشجاعته وبطولته، يقول العماد في مدحه:

يا غالب الغلب الملوك وصائد ... الصيّد الليوث وفارس الفرسان

يا سالب التيجان من أربابها ... حزت الفخار على ذوي التيجان[5]

وقال ابن قسيم الحموي:

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهه ... كالرمح دلّ على القساوة لينُهُ

ووراء يقظته أناة مُجرِّب ... لله سطوة بأسه وسُكُونه[6]

وقال ابن منير:

ملأ البلاد مواهباً ومهابة ... حتى استرقت آيه أحرارها[7]

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 125.

(2) الباهر، ص: 117، 118 دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 126.

(3) كتاب الروضتين (1/ 154).

(4) المصدر نفسه (1/ 245).

(5) ديوان العماد، ص: 410، نور الدين في الأدب العربي، ص: 69.

(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين في الأدب العربي، ص: 70.

(7) ديوان ابن منير، ص: 217، نور الدين في الأدب العربي، ص: 70.

وقال أيضاً:

مـتـهـلـلٌ والـمـوت فـي نـبـراتـه يُـرجـى ويـرهـب خـوفـه وعـقـابـه[1]

عاشراً: مفهومه للتوحيد وتضرعه ودعاؤه:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد من عمق فهمه للتوحيد ومعرفته بالله تعالى لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة[2]، وحقق في حياته مفهوم التوحيد الصحيح، وحقق الإيمان بكل معانيه والتزم بشروطه وابتعد عن نواقضه، وهذا الموقف العظيم يدل على ما قلنا: قال له قطب الدين النيسابوري ـ الفقيه الشافعي ـ مرة: بالله لا تخاطر بنفسك، وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم[3] ـ فقد نصحه بعدم الاشتراك بالقتال والمخاطرة بنفسه حتى لا يقتل فلا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف وتؤخذ البلاد[4]، فقال نور الدين: يا قطب الدين اسكت فإن قولك هذا إساءة أدب على الله، ومَن محمود حتى يقال له هذا، قبلي مَن حفظ البلاد، ذلك الله الذي لا إله إلا هو، فبكى من كان حاضراً[5]. وهذا الذي قاله نورالدين رَحِمَهُ اللَّهُ يدخل في صميم مفهوم التوحيد، فالله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وما الناس ابتداءً من أصغر جندي فيهم حتى أكبر قائد إلا أدوات «فاعلة» في يده يحرّكها وفق مشيئته وإرادته لتحقيق كلمته في الكون، عزّ الله وجلّ وكفى[6]. هذا التطبيق العملي لمفهوم الإيمان بالله وتحقيق توحيده الذي لو أدركته قياداتنا عبر التاريخ لعرفت كيف تضع هذا التاريخ لصالحنا نحن لا لصالح الخصوم والأعداء[7].

وفي ساحة الحرب، حيث الموت على بعد خطوات وحيث لقاء الله آت وراء كل لحظة.. كان نور الدين يذوب تواضعاً وإشفاقاً وتضعه تقواه العميقة في حضور مؤثر أمام الله حيث تتمزق في أعماق وعيه بقايا الستائر والحجب التي ظل يكافح من أجل تمزيقها لكي يقف نقياً.. فعندما التقت قواته في حارم بالصليبيين الذين كانوا يفوقونهم عدة وعدداً انفرد نور الدين تحت تل حارم وسجد لربه ﷻ ومرّغ وجهه وتضرع وقال: يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك. وإيشى فضول محمود في الوسط؟ يقول أبو شامة: يشير نور الدين هنا إلى أنك يا رب إن نصرت

---

(1) نور الدين في الأدب العربي، ص: 70.
(2) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 359).
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 339.
(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 128.
(5) الباهر، ص: 169، الكواكب الدرية، ص: 30.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 44.
(7) المصدر نفسه، ص: 44.

المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر. وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً مَن الكلب محمود.. حتى يُنصر؟[1]

وفي إحدى المعارك سنة ست وخمسين وخمس مائة، قضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفاً على تلّ يقال له: تل حبيش وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجّالة المسلمين مع رجالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم موليًا وجهه إلى قبلة الدُعاء، حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه بسرّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضعيف ملَّكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النيِّابة، عمرت بلادك، ونصحت عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعتُ المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيِّك محمد ﷺ ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله تعالى دعاءه وأوقع في قلوبهم الرُعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا في مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين في الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما أقدموا عليه[2].

ومن خلال المواقف السابقة يبدو نور الدين لا فدائياً فحسب ولكن فقيهاً بقدر الله متبصراً بدور الإنسان في حركة التاريخ، عالماً أن إرادة الله إذا شاءت تهيأت لها الأسباب ولن يعجزها شيء ولو مات أو قتل عشرات القادة والمجاهدين، فإن آخر رجل منهم سيحمل المهمة ويواصل الطريق، ومن ثم يستوي - عبر هذه الرؤية - هذا القائد أو ذاك[3]. وكان نور الدين محمود في أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها[4]. وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممَّن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار، أنهم يقولون: ابن القسيم، له مع الله سر، فإنه ما يظهر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه يستجيب دعاءه، ويعطيه سؤله وما يَرُدّ يده خائبة، فيظفر علينا، فهذا كلام الكفار في حقه[5].

إن نور الدين محمود اعتبر الدعاء من أمضى الأسلحة التي تسهم في تحقيق النصر،

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 180.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 377، 378).

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 44.

(4) عيون الروضتين (1/ 255).

(5) المصدر نفسه (1/ 255).

ومهما أعد المسلمون من أسلحة وعدة وعتاد، فإنهم يظلون عرضة للفشل والهزيمة والإحباط، إذا امتنعوا عن استخدام هذا السلاح، أو أساؤوا استخدامه(1)، ولذلك استخدمه بنفسه وطلب من الزهاد والعباد والعلماء والفقراء والفقهاء كذلك، وكان مستوعباً لقول رسول الله ﷺ: **«هل تنصرون إلا بضعفائكم»**(2).

فالدعاء لله والتعلق به عند قادة النهوض الربانيين والصادقين من المسلمين: مخ العبادة(3)، لا بل هو سيد العبادات وأقربها وأحبها إلى الله تعالى لقوله ﷺ: **«الدعاء هو العبادة(4)، ومفتاح الرحمة»**(5) يستمطر العباد به مفاتيح رحمة الله تعالى بعد أن تتقطع بهم الأسباب.

أيها الإخوة الكرام المهتمون بنهضة أمتهم والتمكين لدين الله تعالى في الأرض، عليكم بالدعاء فإنه كنز حقيقي من جملة الكنوز التي تنطوي عليها الشريعة الإسلامية، فالله تعالى يحض عباده على اقتناص هذا الكنز في مثل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: 55]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60] وغالباً ما تحدث الإجابة عاجلاً أم آجلاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186].

إن من أسباب نجاح نور الدين محمود في مشروعه النهضوي، استيعابه العميق لفقه الدعاء ومقدرته على استخدامه كسلاح فتاك ضد الأعداء، وحسن تضرعه وانكساره بين يدي المولى ﷻ.

الحادي عشر: محبته للجهاد والشهادة:

كان نور الدين محمود الشهيد من محبي عبادة الجهاد في سبيل الله، ويجد متعته في جهاد الأعداء والمرابطة في الثغور، قال العماد الأصفهاني: حضرت عند نور الدين بدمشق ـ في شهر صفر ـ والحديث يجري في طيب دمشق ورقة هوائها وأزهار رياضها وكل منا يمدحها

---

(1) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (1/ 241).

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد، الدواء الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص: 6.

(3) سنن الترمذي، رقم 3368.

(4) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، المستدرك (1/ 491).

(5) ذكره الهندي في كنز العمال، رقم: 3116.

ويطربها، فقال نور الدين: إنما حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها[1]، ومرة أخرى نلتقي به وهو يغادر الموصل بعد عشرين يوماً من دخوله إياها عام (566هـ) فيسأله أصحابه: إنك تحب الموصل والمقام بها، ونراك أسرعت العود ؟ فيجيب: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت؛ ويمنعني أيضاً أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد[2]، وأما حبه للشهادة، فقد قال عنه أبو شامة: كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي، صليب الضرب يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السِّباع وحواصل الطير[3]، كانت عقيدة الشهادة تحركه، وهذا الإيمان العميق بعقيدة الشهادة في سبيل الله هو الذي دفع أجيالاً من المسلمين إلى ساحات الجهاد طلباً للموت، فأسقطوا الدول، وغيروا الخرائط وسحقوا العروش ومرغوا الأنوف، ولم يموتوا، فكان نور الدين إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين وباشر القتال بنفسه وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أرزقها[4].

إن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد تربى على كتاب الله وهدي النبي ﷺ، فقد خص الله الشهيد بالذكر في القرآن الكريم في مواضع، منها قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: 140]. وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى أن الشهادة إنما هي اصطفاء وتكريم من الله ﷻ لبعض عباده الأخيار، وأن الشهادة لا تكون لكل أحد من الناس فالله سبحانه وتعالى يكرم بها من يشاء من خلقه[5]، والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: 69]. في هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى درجة المصطفين الأخيار من شهدائه أنهم مع النبيين والصديقين ومن تكون له هذه المنزلة إلا من أكرمه الله بالشهادة، ثم تأتي الصورة الناصعة للشهداء يوم القيامة يوم يؤتى بهم مع النبيين ليشهدوا يوم القيامة لمن ذب عن دين الله، وذلك شرف عظيم وموقف عظيم نالوه بالشهادة يقول الله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر: 69].

لقد أعد الله للشهداء من الكرامة والنعيم الأبدي ما يجعل كل نفس زكية تتوق إلى

(1) البرق، ص: 126، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 45.
(2) الباهر، ص: 153، 154، نور الدين محمود، ص: 45.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 35).
(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 31.
(5) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، ص: 95.

الشهادة وترغب لتفوز بالأجر العظيم[1]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: 169-170]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: 154].

وورد في السنة الثابتة عن النبي ﷺ: **«إن أرواحَ الشهداء في جوف طير خُضر لها قناديلُ معلّقة بالعرش، تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلعَ إليهم ربهم اطّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا: أي شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؛ فعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسْألوا، قالوا: يارب نريد أن تُردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا»**[2]. فالشهيد فضله عظيم ومكانته رفيعة، فإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ فضل المجاهدين على القاعدين فالشهداء أكثر فضلاً وأعظم تشريفاً[3]. ولقد قاتل نور الدين الأعداء وجاهد في الله حق جهاده حتى استحق لقب الشهيد[4]، تشريفاً وتكريماً من الأمة لهذا البطل المجاهد الفذ.

الثاني عشر: عبادته:

كان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد يصلي أكثر الليالي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلاة في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها[5] ويحافظ على الجماعة، وكان كثير الابتهال إلى الله ﷻ في أموره كلها[6]. وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إلى المسجد بغلس، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح[7]، وقال ابن الأثير: حدثني صديق لنا بدمشق ـ كان رضيع الخاتون زوجة نور الدين ـ فقال: كان نور الدين يصليّ فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء إلى بكرة، ثم يظهر للركوب ويشتغل بمهام الدولة[8]. وقال ابن كثير: كان نور الدين كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية،

---

(1) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، ص: 95، 96.

(2) مسلم، كتاب الإمارة (3/ 1502).

(3) الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، ص: 97.

(4) نور الدين في الأدب العربي، ص: 48.

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين الرجل والتجربة، ص: 46.

(6) البداية والنهاية (16/ 490).

(7) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 46.

(8) الباهر، ص: 164، نور الدين محمود، ص: 46.

محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، صموتاً وقوراً[1]، كان نور الدين كثير الصيام وله أوراد في الليل والنهار، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده[2]، وعبارة: «فكان يقدم أشغال المسلمين عليها ثم يتمم أوراده» هذا هو المنطق الذي علمنا إياه الإسلام والذي يجعل التعبد، الذي هو غاية الخلائق، ممارسة إيجابية تضرب في أعماق الناس فتغيّر نفوسهم، وتمتد إلى حركة التاريخ فتصوغ مسيرته، كان طبيعة تَعَبّد نور الدين يدفعه إلى المسؤولية ويجعله في قلبها وهو أعمق وعياً وأشد خشية وأمضى عزيمة وأقدح ذكاء[3]، لقد مارس نور الدين مفهوم العبادة بمفهومها الشامل وأعطت تلك الممارسة ثمارها على مستواه الشخصي والشعبي، وعلى دولته، وتحقيق العبادة من شروط التمكين قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٥٦﴾ [النور: 55-56] فقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة ومحاربة الشرك بكافة أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ[4].

الثالث عشر: إنفاقه وكرمه:

اشتهر نور الدين بالإنفاق الواسع والكرم العظيم وكانت له أوقاف عظيمة، قال العماد: وكلف نور الدين.. بإفادة الألطاف والزيادة في الأوقاف وتكثير الصدقات وتوفير النفقات وكسوة النسوة الأيامى. .وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل ببذله، وعون الضعفاء وتقوية المقوّين بعدله، وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما أبقى الجزية والخراج وما تحصل من قسم الغلاّت على قويم المنهاج، قال: وأمر أن يكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكتب أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر، فزاد على ثلاثين ألف دينار،

---

(1) الكواكب، ص: 54، نور الدين محمود، ص: 47، 46.

(2) المصدر نفسه، ص: 54.

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 46

(4) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، الصلاّبي ص: 161.

وكانت عادته في الصدقة أنّه يحضر جماعة من أماثل البلد في كل محلة، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم، وكان يرسم نفقته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمّة حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ويتفضل منه ما كان يتصدق به في آخر الشهر، وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصّل ثمنه، ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة، وتقدم بإحصاء ما في محال دمشق من ذلك، فأناف على مائة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كلّه، وعين له وقوفاً[1].

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كلّ بلد لطال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمره، ومشاهدة أبنيته الدّالة على خلوص نيّته تغني عن خيرها بالعيان، ويكفي أسوار البلدان فضلاً عن الربط والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب وفي شرح طوله طول وعمله لله مبرور مقبول[2]. وأدرّ على الضعفاء والأيتام الصدقات، حتى وقف وقوفاً على المرضى والمجانين وأقام لهم الأطباء والمعالجين، وكذلك على جماعة من العلماء ومعلّمي الخط والقرآن وعلى ساكني الحرمين، ومجاوري المسجدين، وجهز عسكراً يحفظ المدينة، وأقطع أمير مكة، ورفع عن الحجاج ما كان يؤخذ منهم من المكس، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحجاج، وأمر بإكمال سور مدينة الرسول ﷺ واستخراج العين التي بأُحد، وكانت قد دفنتها كثرة السيول، وعمّر الربط والخانقاهات، والبيمارستانات، وبنى الجسور في الطرق والخانات ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم بقدر كفايتهم، وكذلك صنع لما ملك سنجار، وحرّان والرقة، ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلاّ وله فيه حسن أثر، وحصل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلاّبها[3].

وقد مدح الشعراء نور الدين على كرمه وجوده فقد قال ابن منير:

يـأيـهـا الـمـلـك الـمـنـادي جـوده	فـي سـائـر الآفـاق: هـل مـن مـعـسـر
ولأنـت أكـرم مـن أنـاس نـوّهـوا	بـاسـم ابـن أوس واسـتـخـصّـوا الـبـحـتـري
ذلّـت لـدولـتـك الـرقـاب ولا تـزل	إن تـغـز تـغـنـم أو تـقـاتـل تـظـفـر[4]

(1) عيون الروضتين (1/ 346).
(2) المصدر نفسه (1/ 346).
(3) المصدر نفسه (1/ 351).
(4) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين، ص: 170.

كان نور الدين ـ كما يصفه كثير من المؤرخين ـ: قليل الابتهاج بالشعر[1]، لا عن نفور من الشعر ذاته وعدم توافق مع معطياته الوجدانية التي تهز العقول والقلوب، وإنما على نفور من الشعراء أنفسهم ومن مزايداتهم المعروفة على حساب الحق، وتملقهم الزائف للسلطة على حساب العدل[2].

إن نور الدين هُنا يُذَكِّرنا بعمر بن عبد العزيز لا في كراهيته للتجربة الشعرية، ولكن بتوجّسه من ملق الشعراء وضعفهم ومزايداتهم، ومن ثم فإن نور الدين ـ كسلفه ـ لم يكن يشرع الأبواب في وجوههم بل لم يكن يعطيهم، وقد سُئل يحيى بن محمد الوهراني في بغداد عن نور الدين، فأجاب في إحدى مقاماته: وهو سهم للدولة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد مجاهد، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل لابن السبيل، وبالمحل الجديب للشاعر الأديب، فليس لشاعر عنده من نعمة تُجزى[3]. وعبارة «غير أنه» ترد بعد عبارات المديح تلك توحي بأن موقفه هذا لم يكن مرضياً عنه من الجميع فهناك دائماً من يريد أن (يأخذ) على حساب أي شيء في عصر كانت آذان هؤلاء قد اعتادت عبارة «أعطوه ألف دينار» أو عبارة «سل ما شئت». ومن بين هؤلاء الشعراء أسامة بن منقذ الذي يمدحه ببيتين من الشعر يتضمنان غمزاً مستوراً لموقف نور الدين من عطاء الشعراء:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدت ... له فكل على الخيرات منكمش

أيامه مثل شهر الصوم طاهرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش

لكن أبا شامة، المؤرخ الدمشقي، يتصدى بنفسه للردّ على الرجلين: صاحب المقامة وصاحب القصيدة، ولفضح الازدواجية التي يعانيها كثير من الشعراء، ولبيان حقيقة الموقف العظيم فيقول: ما كان ـ نور الدين ـ يبذل أموال المسلمين إلّا في الجهاد وما يعود نفعه على العباد. وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز ـ وهو من سادات التابعين في الشام ـ أنه كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلًا حيث تحبّون، وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في مدح نور الدين:

في كل عام للبرية ليلة ... فيها تَشُبُّ النارُ بالإيقادِ

لكن لنور الدين من دون الورى ... ناران نار قرى ونار جهادِ

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 135.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 136.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 137.

أبداً يصرّفها نداه وبأسه ... فالعام أجمع ليلة الميلادِ
مَلِك له في كل جيد منةٌ ... أبهى من الأطواق في الأجيادِ
أعلى الملوكِ يداً وأمنعهم حمًى ... وأمدهم كفاً ببذل تلادِ
يعطي الجزيل من النوال تبرُعا ... من غير مسألة ولا ميعادِ
لا زال في سعد وملك دائم ... ما دامت الدنيا بغير نفادِ[1]

وعندما أسر الفرنج أخا أسامة بن منقذ نجم الدولة محمد طلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الإعانة في فكاكه فلم يفعل، قال أسامة: وادّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدَّمي الدَّاوية يقال له: المشطوب، قد بذل الإفرنج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر[2]. والملاحظ أن نور الدين قد مدح من قبل شعراء عصره الكبار كابن القيسراني، وابن منير، والعماد الأصفهاني، وغيرهم، ويبدو أن مدح الشعراء لنور الدين لم يكن بدافع التكسب أو توخّي التزلف[3]. يقول الدكتور محمود إبراهيم في حديثه عن علاقة ابن القيسراني بنور الدين ومدحه له: ومما يلفت النظر في تمجيد ابن القيسراني لنور الدين، أن الشعر الذي نظم في هذا التمجيد قد خلا من الاستماحة التي لم تخل منها قصائد أخرى لابن القيسراني قيلت في أشخاص آخرين في مناسبات قديمة. ولعل هذا مما يعضِّد الاعتقاد بأن شعر ابن القيسراني في نور الدين يمثّل إعجاباً صادقاً بالبطل الإسلامي وأن هذا الشعر لا يترجم عن مشاعر ابن القيسراني وحده، بل عن مشاعر الجماعة الإسلامية كذلك[4].

وكان نور الدين يحب الشعر ويعجب به، لأنه كان يدرك أثر الشعر في إثارة الشعور وتحريكه ولاسيما شعر الجهاد ووصف المعارك. أما كونه لا يبتهج بالمدح فهذا تواضع منه، لأنه لا يحب مبالغات الشعراء، ومزايداتهم بالمدح، ولأنه كان مقتدياً بالسلف الصالح كالخلفاء الراشدين، فلا يأخذه بهرج القول[5]. فنور الدين لم يكن في حالة خصام مع الشعر، بل كان يحب الشعر الملتزم، فقد طلب من العماد الأصفهاني أن يعمل مثنويات شعرية في معنى الجهاد على لسانه فقال:

للغزو نشاطي، وإليه طربي ... ما لي في العيش غيره من أرب

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين زنكي في الأدب العربي، ص: 197.
(2) كتاب أخبار الدولتين (1/ 358).
(3) نور الدين في الأدب العربي، ص: 195.
(4) صدى الغزو الصليبي، ص: 159، 160.
(5) نور الدين في الأدب العربي، ص: 197.

بالجد وبالجهاد نجح الطلب والراحة مستودعة في التعب
لا راحة في العيش سوى أن أغزو سيفي طرباً إلى العلى يهتز
في ذل ذوي الكفر يكون العز والقدرة في غير جهاد عجز[1]

ويقول الأصفهاني في موضع آخر: كنت راكباً مع نور الدين في أعقاب إحدى جولاته الظافرة ضد الصليبيين عند طبرية، فسألني: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة مطلعها:

عقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان[2]

ولكن ما هو أكثر دلالة من هذا كله أن يشهد عصر نور الدين تألق عدد من كبار الشعراء، كان يقف في قمتهم ابن القيسراني، والعماد الأصفهاني، وابن منير، وابن الدهان الموصلي، أولئك الذين وجدوا في دولة نور الدين الأرضية الصالحة لازدهار الشعر الذي طرق أبواباً واسعة، وخطا إلى آفاق بعيدة المدى ما كان لهم أن يرحلوا إليها بقصائدهم المبدعة لولا أن لقوا من نور الدين إعجاباً وتوافقاً وانسجاماً[3]، وأما ما تضمنه قول الوهراني، وقول ابن منقذ من إثارة إلى بخل نور الدين أو حرصه على المال، فهذا أمر مستبعد، وفيه كثير من المبالغة، ولو كان نور الدين، كما يقولان لما ازدحم الشعراء على بابه يمدحونه ويسجلون انتصاراته، ولما أجمع أغلب شعراء عصره على مدحه بالكرم والجود، حتى أسامة ابن منقذ نفسه، ولما اختصَّ بمدحه بعض الشعراء ولازموه فترات طويلة[4].

ومما له علاقة بالكرم والإنفاق في سيرة نور الدين: حضر صبي وبكى عند نور الدين، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حُجرة من حجر الوقف ـ يعني وقف الجامع ـ فسأل عن حاله؟ فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ ابن أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف، لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل: كم أجرة السنة؟ قالوا: مائة وخمسون قرطاساً، وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرّق له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك بإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأنّ الإنعام كان في حقه[5].

---

(1) نور الدين الرجل والتجربة، ص: 138.
(2) المصدر السابق.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 139.
(4) نور الدين محمود في الأدب العربي، ص: 198.
(5) عيون الروضتين (1/357).

هذه هي أهم صفات نور الدين محمود الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ، قال فيه ابن عساكر: «.. ومع ما ذكرت من هذه المناقب كلها وشرحت من دقها وجلّها فهو حسن الخط بالبنان متأتٍ لمعرفة العلوم بالفهم والبنيان، حريص على تحصيل كتب الصحاح والسنن مقتني لها بأوفر الأعواض والثمن، كثير المطالعة للعلوم الدينية، متتبع للآثار النبوية، مواظب على الصلوات في الجماعات، مراع لآدابها في الأوقات، مؤدياً فروضها ومسنوناتها، معظّم لقدرها في جميع حالاتها، عاكف على تلاوة القرآن على مرّ الأيام، حريص على فعل الخير من الصدقة والصيام، كثير الدعاء والتسبيح، راغب في صلاة التراويح، عفيف البطن والفرج، مقتصد في الإنفاق والخرج، متحرّ في المطاعم والمشارب والملابس، متبرّئ من التمادي والتباهي والتنافس، عريّ عن التجبر والتكبّر، بريء من التنجيم والتطيُّر، مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء بسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحدث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما حيّره.

ولقد حكى لي عنه من صحبه في حضره وسفره أنه لم تُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا ضجره، وإن أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها، يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه بهم، فإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد ولاته أمر بالكف عن أذى من تكلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله بإسقاط المرتبة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيسر له ما يقصده من جميع الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكّن له في البلدان والبقاع حتى ملك حصن شيزر، وقلعة دوسر، وهما من أحصن المعاقل والحصون، واحتوى على ما فيهما من الذخر المصون من غير سفك محجمه من دم في طلبهما، ولا قتل أحد من المسلمين بسببهما، وأكثر ما أخذه من البلدان، بتسليمه من أهله بالأمان، وَوَفِيَ لهم بالعهود والأيمان فأوصلهم إلى مأمنهم من المكان. وإذا استشهد أحد من أجناده حفظه في أهله وأولاده، وأجرى عليهم الجرايات، وولّى مَن كان أهلاً منهم للولايات، وكلما فتح الله عليه فتحاً وزاده ولاية أسقط عن رعيته قسطاً وزادهم رعاية، حتى ارتفعت عنهم الظلامات والمكوس، واتّضعت في جميع ولايته الغرامات والنحوس، ودرّت على رعاياه الأرزاق ونفقت عندهم الأسواق، وحصل بينهم بيمنه الاتفاق، وزال ببركته العناد

والشقاق..» إلى أن قال: «فالله يحقن به الدماء ويسكن به الدهماء، ويديم له النعماء ويبلغ مجده السماء ويُرجي الصالحات على يديه، ويجعل منه واقية عليه، فقد ألقى أزمتنا إليه وأحصى علم حاجتنا إليه، ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ذكرت منها غيضاً من فيض، وقليلاً من كثير، وقد مدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادة في تواضعه لعلو القدرة، فالله يديم على الرعية ظله وينشر فيهم رأفته وعدله، ويبلغه في دينه ودنياه مأموله، ويختم بالسعادة والتوفيق أعماله فهو بالإجابة جدير على ما يشاء قدير»[1].

إن ما ذكرته من صفات للملك العادل نور الدين ثمرات زكية لإيمانه العميق على تحقيق ما عجز عنه غيره ممن كانت بلادهم وثرواتهم تزيد أضعافاً على ما كان عليه، فقد امتلأت نفسه بمبادئ الإسلام على نحو لا نكاد نجد له شبيهاً، إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام، وهذا الإيمان هو الذي حوّله من أمير إلى مجاهد ومن حاكم سياسي إلى زاهد، وهو الذي أعانه على مواجهة مشكلات عصره السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتغلب عليها رغم قلة الموارد، ولم يُعرف عنه تعصباً وكانت نفسه سمحة اكتسبها من طبيعة الإسلام السمحة، إنه حارب الصليبيين على أنهم أجانب مغتصبين، لا على أنهم نصارى، ومن هنا فإنه لم يمس النصارى الوطنيين بسوء وكان لهم عنده حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم في حياته كنيسة، ولا آذى قساً أو راهباً على عكس الصليبيين الذين إذا دخلوا قرية قتلوا أهلها المسلمين جميعاً. وقد أكسبه إيمانه هذا احترام خصومه من الصليبيين فكانوا على عداوتهم له يحترمونه ويعترفون له بالامتياز عليهم، حتى أن المؤرخ وليم الصوري، الذي أفاض في كتاباته بالحقد على الإسلام والمسلمين، لم يستطع إلا أن يعترف بفضله وعدله وصدق إيمانه[2].

المبحث الثالث
أهم معالم التجديد والإصلاح في دولة نور الدين

اتخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي، وتمكينه في إيجاد

(1) تاريخ دمشق الكبير (60/ 122، 123).

(2) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (2/ 742).

وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة، ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة لكي يقتدي برجالها، قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين . . علّمنا منه الاقتداء عن سلف الفضلاء العقلاء يكمل الأجر ويبقي الذكر، واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء، فقال عز من قائل: «﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۝﴾ [الأنعام: 90]، وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۝﴾ [هود: 120] فلذلك اشتد حرصه ـ أدام الله سعادته ـ على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقاً عليَّ بذل الوسع في مساعدته، واستنفاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ﵁ والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك، ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة، معاونة على البر والتقوى[1].

لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً عملياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر ابن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة وقمع البدع، وأقام العدل، ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة، وعمق هوية الأمة، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء، وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه، واهتم بالإدارة والاقتصاد والقوات المسلحة، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء، يقول شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي: «. . فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خِلّانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيِّد الملوك بعده، الملك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين ﵄ في العدل والجهاد، واجتهدا في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد وهما ملِكا بلدتنا وسُلطانا خُطّتنا، خصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما، فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلّه يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير

(1) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 2) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ص: 356.

وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجّة عليهم بمن هو في عصرهم من بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم وسدّد..»[1] هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فلله دَرّهُما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة، وجميل السريرة، وهما: حنفي وشافعي شفى الله بهما كل عِيّ، وظهرت من خالقهما العناية... والفضل للمتقدّم، فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظيم محلّه، فإنه أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعدله وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة[2]... فما أحقهما بقول الشاعر:

وألبس الله هاتيك العظامَ وإن ... بَلين تحت الثرى عفواً وغفرانا

سقى ثرى أودِعُوه رحمةً ملأت ... مثوى قبورهم روحاً وريحانا[3]

وإليك أخي أخيراً أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته:

أولاً: الحرص على تطبيق الشريعة:

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية «براغماتية» لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادىء أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدماً صوب آفاقها الرحبة الشاملة.

إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وَبَعْث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود، فهي إذن دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية، وكسب واحتراف، وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة، وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات، ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى ـ فعلاً ـ إلى أن تنتقل هذه الدعوة ـ رغم المصاعب والعقبات ـ من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق[4]، قال: «ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 19.

(2) المصدر نفسه (1/ 27).

(3) المصدر نفسه (1/ 28).

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.

قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل»[1]. وقال: «نحن شحن[2] للشريعة نمضي أوامرها»[3]، وقال مخاطباً أحد ولاته: انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميّز بين المحاسن، والمساوئ، واحمل الأمور فيها على الشريعة[4]. وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: «والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي»[5]، وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب: «إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع»[6]، وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أداة لتحقيق كلمة الله في الأرض[7]، يقول ابن الأثير: «كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها»[8]. ويقول في مكان آخر: «وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه»[9]. ويقول أبو شامة: «سمعت أبا شداد يقول: أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين»[10]، ويقول في مكان آخر: «كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها»[11]. ويقول ابن كثير: «كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة»[12].

ويقول ابن قاضي شهبة: كان نور الدين ـ لما صارت له الموصل ـ قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا

---

(1) الباهر، ص: 173، 174.
(2) شحن: أي الشرطة: أو القوة المشرفة على تنفيذ الشريعة.
(3) الباهر، ص: 166، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.
(4) البرق، ص: 146، 147.
(5) الكواكب، ص: 25، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.
(6) كتاب الروضتين (1/ 36، 37).
(7) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.
(8) الباهر، ص: 166، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 86.
(9) الباهر، ص: 165، 166.
(10) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 87.
(11) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجرب، ص: 87.
(12) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 87.

بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء ـ أحد شيوخ الموصل الصالحين ـ وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور الدين كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها وعدم ارتداعهم: وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة أو نقصان، ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب واعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه: إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له[1]، فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم[2].

فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد[3]. وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكّن أحداً من إظهار ما يخلف الحق، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته[4]، وكان لا يقدم على إجراء ما، عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة الغرّاء، بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها[5].

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد.. إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج، وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويستنزف القدرات الجهادية الخلّاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها، كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة. لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ ـ برهان

---

(1) عيون الروضتين (1/ 276).
(2) المصدر نفسه (1/ 276).
(3) المصدر نفسه (1/ 276).
(4) الكواكب، ص: 25 ، 32، 33، نور الدين محمود، ص: 87.
(5) مرآة الزمان (8/ 247)، نور الدين محمود، ص: 87.

الدين البلخي ـ وجهاً لوجه أمام نور الدين: أتريدون أن تُنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله[1]، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا، ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين. لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام، وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وإزالة كل ما ينذّ الظلام، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء[2]. لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام حداً في غاية الروعة والجمال وشدة المحبة لرسول الإسلام. فقد حكى الشيخ أبو البركات: أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرّ أثناء الحديث: أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه، وقال كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف؛ يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هم على خلاف ذلك؛ لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغد، مرّ وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك[3]. رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن[4]. وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني:

ذو الجهادين من عدوٍّ ... فهو طول الحياة في هيجاء

أيها المالك الذي ألزم الناس ... سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل ... لما سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسماً ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التُقى على الأتقياء[5]

وقال فيه ابن منير:

عفّى جهادك كل رسم مخوفة ... وعفت بصفوة عدلك الأكدار

(1) زبدة الحلب (2/ 215)، نور الدين محمود، ص: 88.
(2) نور الدين محمود الرجل التجربة، ص: 88.
(3) عيون الروضتين (1/ 384، 385).
(4) الكواكب، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 89.
(5) كتاب الروضتين (1/ 285، 286).

ومحا المظالم منك نظرة راحم ... لله في خطراته أسرار
غضبان للإسلام مال عموده ... فلنوره مما عراه نوار
لم يَبق ما كسى مسلم سلقاً ولا ... ساع لمظلمة ولا عشّارُ
همدوا كما همدت ثمود وقادهم ... لخسارهم مما أتوه قدارُ
العار في الدنيا شقوا بلباسه ... ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عمريّة[1] ... رفعت لها في الخافقين منار
ونوافل صيّرتهن لوازماً ... بأقلها تستعبد الأحرار[2]
أما نهارك فهو ليل مجاهدٍ ... والليل من طول القيام نهارُ[3]

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.. إلخ وسوف تتضح بإذن الله تعالى هذه الآثار في هذا الكتاب.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأيناها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح، وهي من سنن الله الجارية والماضية لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار[4]. قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

(1) عمريّ: قصد ابن عمر بن الخطاب.
(2) عيون الروضتين (1/ 393).
(3) المصدر السابق.
(4) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ص: 357.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55].

ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة:

كان نور الدين رجل عقيدة، وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق قال عنه ابن كثير: .. كان مجاهداً في الفرنج، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكر وأهلها، ورفع العلم والشرع، وليست الدنيا عنده بشيء رحمه الله[1]، وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة، قال عنه ابن كثير: أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحيّ على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً[2]، وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات: قيل إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه، فأركب على حماره، وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حرّان[3]، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها، ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية، وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود[4] حتى خلَّص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية، وكان رأي نور الدين في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة[5]، يقول فيها: وطالما بقيت «280» سنة مملوءة بحزب الشياطين... حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض[6]. وسيأتي الحديث عن أساليب ومنهج نور الدين في إزالة الدولة الفاطمية في مصر.

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 330.

(2) المصدر السابق، ص: 330.

(3) كتاب الروضتين (1/ 24) الجهاد والتجديد، ص: 330.

(4) الجهاد والتجديد، ص: 331.

(5) المصدر نفسه، ص: 331.

(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 331.

دور نور الدين في دعم المذهب السني:

مهدت مدارس نظام الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ السبيل، ويَسَّرَته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحى الطريق مُعبداً لتحقيق الهدف الذي أُنشئت النظاميات من أجله، وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السني، وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة، ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي، والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر، وبذل جهوداً كبيرة ليمكن لمذهب السنة، إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث، وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة[1]:

1 ـ جهود نور الدين في حلب:

أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني سنة (333 ـ 356هـ/ 944 ـ 967) لأن بني حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية، فيسَّروا لدعاة هذا المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها، ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غيَّر سعد الدولة أبو المعالي سنة (356هـ ـ 381هـ/ 967م ـ 991م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام (367هـ/ 977هـ) وزاد فيه: حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر[2]، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً[3]. وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تتش الذي أمِل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن، ومن هؤلاء وأولئك تكوَّن مجتمع الشيعة في حلب، ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين، فقد كان المذهب الشيعي متغلغل في حلب[4]، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة: ففي رجب من عام (543هـ/ 1148م) ـ أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب ـ رأيناه يأمر الشيعة بترك «حي على خير العمل» في الأذان، وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله ﷺ ويحذرهم من مغبة العودة إلى ما نُهوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضاقت له

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 206.

(2) زبدة تاريخ الحلب (1/ 172).

(3) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 207.

(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 207.

صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة[1]، كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي[2]، وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة وهي: إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين: **إحداهما للحنفية**، وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته (543هـ/ 1148م)، وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجاء وألقى بها الدروس على الفقهاء، وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين: أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع[3].

وكانت **المدرسة الثانية** التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النِفَّريّة النورية، وقد أنشأها سنة (544هـ/ 1149م) لتدريس المذهب الشافعي، وتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري (ت 578هـ، 1182م) أحد أساتذة نظامية نيسابور، وقد كان حضر إلى دمشق في عام (540هـ/ 1145م) وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة[4]، ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادفة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام، ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية الرافضية، وكان نور الدين بحاجة ماسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته[5].

أ ـ الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب: كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النفرية والعصرونية والشعيبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرَّجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر، لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 202).
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 85.
(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 209، نقلاً عن زبدة الحلب.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 209.
(5) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 209.

على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم، وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين، إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير، ولأن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة، والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهي: النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت: بالنورية الصغرى، وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين[1]، ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المُسلحين بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية، لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب، ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها[2].

ب ـ **الاستفادة من جهود علماء السنة:** لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص **إحداهما**: لفقهاء الحنابلة، **والأخرى**: للمالكية، وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة[3]، وتوحيدها في جبهة واحدة، ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي[4].

ج ـ **دعم التصوف السني:** اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية، وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة، وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاهاً له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة، خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب، وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً، فقد كان الصوفية في ذلك

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق، ص: 210.

(2) المصدر نفسه، ص: 211.

(3) المصدر نفسه، ص: 211.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 87.

العصر محل تقدير الحكام واحترامهم، وخاصة نور الدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبني لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال خوانق: اثنتان منها للرجال، وواحدة للنساء[1]، واستطاعت الدولة النورية التأثير على التصوف السني، وساهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية، ومدّ نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً، والتي كان من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً، ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك[2].

د ـ دور تدريس الحديث: اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف، وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث، إلا إذا كان مروياً عن آل البيت، وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف ـ المجانب للحق والعدل والصواب ـ إلى الطعن في صحاح السنة، ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف، وتشييد معاهد دراسية خاصة به، كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنية، من أثر ذلك: العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تَمَثَّل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبىء الناس للجهاد وتحيي فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به، خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته، هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السني بها[3].

هـ ـ موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنية: لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السني بها، وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام (552هـ/ 1157م) عندما مرض نور الدين بحلب

(1) التاريخ السياسي والفكر للمذهب السني، ص: 212.

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 185.

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 212.

حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فتجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته، شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة، وقام الأخيرون بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ويصلي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه، فشرع المؤذنون في الأذان السني فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحذرهم، وبيَّن لهم أن نور الدين قد عوفي، وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكتت الفتنة[1].

و ـ وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام (564هـ/ 1169م) عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع، وكان يتخذ مكاناً للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرة[2]، ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض في تضييق الخناق على الشيعة، وأنه عازم على استئصال هذا المذهب من مصر والشام[3]، كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السنية الهادفة، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين[4]، كما كان نور الدين رَحِمَهُ اللهُ يدرك قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي يعيشه الآن[5]، فالتصدي للغزو الباطني الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكرية وإعلامية تتوازن وتتعاون وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحفة.

---

(1) زبدة الحلب (2/ 308، 310) التاريخ السياسي والفكري، ص: 213.
(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 213.
(3) المصدر نفسه، ص: 213.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 213.
(5) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 213.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسابق أمراؤه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية، حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة، وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد (ت 684هـ/ 1285م) مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية[1]، وقد أتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذِ انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام (600هـ/ 1203م) وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن أخذوا يتنكرون، وبأفعال السنة يتظاهرون، ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب: أن الشيعة انقرضوا من المدينة وتلاشوا بالمرة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة[2]، وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة[3]، وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس.

2 ـ جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق:

استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام (549هـ/ 1154م) ومن ثَمَّ واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية، وكان منهجه في دعم المذهب السني في دمشق قد خضع لزيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً، ولذا فإن المنهج الذي سلكه نور الدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية، ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائد تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني ـ الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاث اتجاهات رئيسة[4]:

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 214.

(2) نهر الذهب في تاريخ حلب (1/ 191، 193) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 214.

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 214.

(4) المصدر نفسه، ص: 215.

الاتجاه الأول: تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لميل طبيعي إلى هذا المذهب الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجعلها وقفاً على الحنفية، وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق: بهاء الدين بن عسكر المعروف: بابن العقادة ت (596هـ/ 1199م) ووصف ابن جبير هذه المدرسة عندما زارها في عام (580هـ/ 1199م) بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً.. وهي قصر من القصور الأنيقة[1]، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة، وهي المدرسة النورية الصغرى[2]، وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مُؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التي تُعنى بتراث الإمامين العظيمين، فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين إهمالاً تاماً، بل وقف على زاوية المغاربة (وهم مالكية بالجامع الأموي) ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة[3]، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيد لهم خانقاه خارج المدينة وصفها ابن جبير بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف: بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها[4]، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويه[5].

وأما الاتجاه الثاني: فكان منصبًا على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، ومن ثَمّ بنى أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ الكبير: تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (571هـ/ 1175م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلّكان بأنه: من أعيان الفقهاء والشافعية، ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به[6]، وهذه العلوم الثلاثة: أعني الحديث، والفقه، وعلم الكلام، كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة، ولذلك قرّبه نور الدين منه وأدناه من مجلسه واستمع إليه، وفوّض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدريس بدار

(1) رحلة ابن جبير، ص: 231.
(2) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 648).
(3) رحلة ابن جبير، ص: 231، 232، التاريخ السياسي والفكري، ص: 216
(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 216.
(5) مرآة الزمان (8/ 272)، التاريخ السياسي والفكري 216.
(6) وفيات الأعيان (2/ 471، 473).

الحديث النورية، وعناية نور الدين بالحديث الشريف ـ على هذا النحو ـ تعبر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب: من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثهم عليه، في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويتربص بهم الدوائر، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية، فقد شارك العلماء في هذا الميدان فَحَدَّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري[1].

الاتجاه الثالث: كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية، فإن نور الدين بنى في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرأون القرآن ـ بالمساجد التي شيدها ـ أوقافاً معلومة[2] يذكر ابن كثير: أن نور الدين وقف وقفاً على من يُعَلِّم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة[3]. وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية ـ على اختلاف أنواعها ـ الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه، حتى إن ابن الأثير ذكر أنه: بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام (608هـ/ 1211م) تسعة آلاف دينار كل شهر[4]، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم[5]، ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي سنة (572هـ/ 1176م) النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق:

كأنها جنة الخلد دانية	قصورها فتحت منها المقاصير
في كل قطر بها للعلم مدرسة	وجامع جامع للدين معمور
يتلى القرآن به في كل ناحية	والعلم يذكر فيه والتفاسير
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت	أوصاف مولى بنشر العدل مشهور

---

(1) الباهر، ص: 165، كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي، ص: 217.

(2) الباهر، ص: 172، التاريخ السياسي والفكري، ص: 217.

(3) البداية والنهاية، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 217.

(4) الباهر، ص: 172، التاريخ السياسي والفكري، ص: 218.

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 218.

الملك والدين والدنيا بأجمعها وللخليفة من أنواره سور[1]

3 ـ دور نورالدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني:

لم يقدر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثَمّ لم تتهيأ له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم، وتنتشله من مستنقع البدع والضلال، وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية السنية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أُنشىء منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قُدِّر لهم أن يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته، فنسبت معظم الجهود ـ إن لم يكن كلها ـ إليهم. ولكنا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة، وهي: أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن نلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة[2]؟ يذكر المقريزي: أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة «الظافر» في المحرم سنة (549هـ/ 1154م) وتولية ابنه: «الفائز» وكان طفلاً صغيراً، فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين، وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل السيوطي في «حسن المحاضرة»[3]، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي، هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك، وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني[4].

ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحيى بن هبيرة في دعم مسيرة نور الدين، إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار استراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي، وهذه الحقيقة عَبَّر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته، عندما أرسل إليه صلاح الدين من مصر هدايا وتحفاً فقال: والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه[5]، وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر

---

(1) التاريخ السياسي والفكري، ص: 218.
(2) المصدر نفسه، ص: 218.
(3) حسن المحاضرة (2/ 3)، اتعاظ الحنفا (3/ 223).
(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 219.
(5) مرآة الزمان، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 219.

السني لكي يطهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون، كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سني، وهو على أي حال امتداد للسلاجقة الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته، ومتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى، ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها، قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيء يبشره بإقامة الخطبة له في مصر: ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها[1]، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر:... وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين مملوءة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك[2].

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة التي سنحت له للتدخل في شؤون مصر، عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطمع الصليبيين فيها، فثابر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، حتى تمّ الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة، وذلك في ربيع الآخر سنة 564هـ/ 1169م) ووزر قائده أسد الدين شيركوه للخليفة العاضد في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة، ثم يتابع المسيرة بعد وفاة أستاذه العظيم[3].

خطة نور الدين في بداية فتح مصر:

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين هامين:

الأول: تغيير النظام القضائي بها بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 220.

(2) المصدر نفسه، ص: 220.

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 220.

الشيعي الإسماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أبو شامة: أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه، وكان بحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها، ومما قاله نور الدين للشيخ: أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق. . إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع. . والآن قد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت. . فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله[1].

والأمر الثاني: كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر، فما أن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولي «المستضيء» في عام (566هـ/ 1170م) كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا يواجه بما لا تحمد عقباه، إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج فسيؤول أمره إلى الفساد، وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام (567هـ/ 1171م)، وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر وبموته سقطت الدولة الفاطمية[2]، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسي يحمل رسالة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها، وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلى عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونثرت عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين[3]، وبذلك قدر لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب: الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 220.
(2) التاريخ السياسي والفكري، ص: 221.
(3) المصدر نفسه.

الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية[1]. وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر، فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيَّد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيأة للعبادة والدرس، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص وبعلبك[2]. ويقول ابن خلكان عن نور الدين إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل: دمشق وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنبج والرحبة، وبنى بمدينة الموصل الجامع النُّوري، ورتب له ما يكفيه، كما بنى جامع حماة وجامع الرها، وجامع منبج[3].

4 ـ عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي:

إن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج، وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى، واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني، وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة، ولا يسمح لأحد أن يتناول واحداً منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سمواً، وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم، كما كان يحرص على حضور مجلس العلم كلما سنحت له ظروفه بهذا ويواظب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع مع الناس للحافظ ابن عساكر، ولقطب الدين النيسابوري، وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي[4].

كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة، والاستمرار في المقاومة للصليبيين، ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة. وقد تحدثنا عن شخصية نور الدين وأهم صفاته في مبحث مستقل، فقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لأن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم،

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 221.

(2) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 401).

(3) وفيات الأعيان (4/ 272).

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري، ص: 224.

الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبوهم إلى صفوفهم، ويدخلوهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة[1]. إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتاة المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله، ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لا بد فيه من وحدة الصف، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: 100] فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[2].

وقال رسول الله ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته**»[3]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم»[4]، وعنه رضي الله عنه: «من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»[5]. ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي، التي تُساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد: العدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 225.
(2) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 263، 264.
(3) مسلم، كتاب الصحابة، رقم 2533.
(4) رواه مالك الموطأ، رقم 1619.
(5) حلية الأولياء (1/ 379).

بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: 90]. وأمرُ الله بفعلٍ كما هو معلوم يقتضي وجوبه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: 58]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: 135]، وقال رسول الله ﷺ: «**أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر**»[1]، والعدل أساس الحكم[2]، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات وأهمِّها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل[3]، ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي: بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة، ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم، وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة، وهو يؤذن بزوال الدول وقد حرم الله الظلم على نفسه، فقد قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»[4]. وقال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: 22]، وقال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: 52]، وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته[5] وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم، ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته[6].

وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخوَّل القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة، ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادىء الحق والعدل،

---

(1) الجامع الصغير للسيوطي رقم الحديث 1050 حديث حسن.

(2) معوقات الجهاد في العصر الحاضر (1/ 481).

(3) فقه التمكين في القرآن الكريم للصَّلاَّبي، ص: 455.

(4) مختصر صحيح مسلم، للمنذري، رقم 1828.

(5) دروس وتأملات في الحروب الصليبية، ص: 205.

(6) أيعيد التاريخ نفسه، ص: 98.

وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتُوّجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة مَحْكمة عُلْيا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر[1]. وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلي قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي[2]. ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي ـ الذي كان أحد نوابه في حلب ـ هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال: كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً وجعل ينكش بإصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر؟ في عائلته أو في وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال: ما تقولان ؟ فأجبناه بعد تردد، فقال: والله إني أفكر في والٍ وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله): فبالله عليكم. . وإلا فخبزي عليكم حرام ـ لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وارفعاها إلي[3]، وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جَرَمَ أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها[4].

1 ـ دار العدل أو المحكمة العليا:

كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل)، وكانت أشبه بمحكمة عُليا لمحاسبة كبار الموظفين، ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة، وقد جاء إنشاؤها بسبب تزايد جور عدد من كبار الأمراء في دمشق ـ وبخاصة أسد الدين شيركوه ـ وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل[5]. يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين ؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه، فامضوا إلى كل من

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 75.
(2) الكواكب، ابن قاضي شهبة، ص: 25، نور الدين محمود، ص: 75.
(3) المصدر نفسه.
(4) الباهر، ص: 166.
(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 76.

بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن، ولو أتى على جميع ما بيدي، فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[1].

وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق[2]، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل: أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله[3]، وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب، لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب، حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة[4].

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير: ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده[5]، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق، ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم[6]، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب، حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف[7] وفي الثانية ألفاً وخمسمائة[8]، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور

---

(1) الباهر، ص: 168، نور الدين محمود الشهيد، ص: 76.

(2) رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود، ص: 326.

(3) كتاب الروضتين (1/ 62).

(4) المصدر نفسه (1/ 62).

(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 77.

(6) الكواكب، ص: 25، نور الدين محمود، ص: 77.

(7) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 77.

(8) المصدر نفسه، ص: 78.

الدين فإنهم لم يمسوا بأذى ـ رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي ـ وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، ولم يعرف عنه[1] أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً، وقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً قتلوا جُلة أهله المسلمين، ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساؤوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرة بأهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا من بلد تنفس نصاراه الصعداء وأمنوا إلى عدله وإنصافه[2].

2 ـ استجابته للقضاء:

طلب مرة من قِبل أحد المدعين، فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم؟ وأردف: يُحضَر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ۝٥١﴾ [النور: 51]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: امض إلى القاضي وسلم عليه وقل له: إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع[3]. ويوماً كان يلعب الكرة ـ هوايته المفضلة ـ في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي كمال الدين، وقال له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه[4]. تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه كما علق ابن الأثير[5]، وفي (عام 558هـ ـ 1162م) ادعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 78.

(2) نور الدين محمود حسين مؤنس، ص: 367، 368.

(3) الباهر، ص: 166، 167.

(4) المصدر نفسه، ص: 166، 167.

(5) الباهر، ص: 167، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 79.

بذلك. فقال نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة[1].

3 ـ لا عقوبة على الظنة والتهمة:

لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبه العقوبة العادلة من غير تعد[2]، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة، والأخذ بالظنة وآمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر[3].

4 ـ من عدله بعد موته:

ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يُحكى: أن إنساناً كان بدمشق استوطنها وأقام بها لِمَا رأى من عدل نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلمّا توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه، وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يُحصى وكلّهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك ـ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ـ فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأول، فقال له صلاح الدين: لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عَدَل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلّمناه[4].

5 ـ رقبتي دقيقة: لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى

قال ابن الأثير: وحكى لي من أثق به أنّه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره فسأله عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال: إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عنّي: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى فرآه فأنكر على النّواب قال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه؟

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 80.

(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 80.

(3) عيون الروضتين (1/ 364).

(4) المصدر نفسه (1/ 365).

فذكروا له قول كمال الدين، فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً[1].

6 ـ رجال القضاء في دولة نور الدين:

اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقاة عرف كيف ينتقيهم، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده ـ كما رأينا ـ قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه، وكبار أمرائه، ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا مُنذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله وبرعوا فيها[2].

أ ـ القاضي كمال الدين الشهرزوري: حدث في مطلع (عام 555هـ / 1160م) أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء، فأجابه إلى طلبه وولي قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري، وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له: المشهور بالتقدم ووفور العلم، وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال، في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما، فإن ولده محيي الدين ينوب عنه في منصبه[3]، كان كمال الدين قد ولد (عام 491هـ/ 1097م) وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين[4]، وقد تخرّج من النظامية[5]، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين[6]، وأصبح بعد أقل من عامين (557هـ ـ 1161م) قاضياً لقضاة الدولة كلها، وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه، وهناك من يقول: إن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء (عام 555هـ/ 1160م) وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين، ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العماد: الحاكم المطلق[7]،

---

(1) عيون الروضتين (1/ 364).
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 82.
(3) المصدر نفسه، ص: 82.
(4) المصدر نفسه، ص: 83.
(5) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 222.
(6) قضاة دمشق، ص: 47، 48.
(7) البرق، ص: 222، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.

وأصبحت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور[1].

وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة، فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[2]. وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء[3]، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية، ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية، بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها[4]، وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب، وأوقاف الدولة، وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار، وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير وجه[5]، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء[6] وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد[7]، كما اعتمد ابنه محيي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها، فضلاً عن النظر في أمور ديوانها، وكان محيي الدين هذا، كما يصفه العماد: من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية مُنذ سنة 535هـ ـ 1140م[8]، كما اعتمد في حماه وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم[9]. وعندما دخل الموصل (عام 566هـ ـ 1170م) أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري[10].

ب ـ الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون: تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعيينهم بنفسه[11]، فقد ولد بالموصل (سنة 492هـ أو 493هـ ـ 1099م)، وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب (سنة 545هـ ـ 1150م)، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها (عام 549هـ ـ1154م) ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب، ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به، وكان فقيهاً من الطراز الأول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره،

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.
(2) الخريد قسم الشام، ص: 246، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.
(3) البرق، ص: 222، 224.
(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 83.
(5) البرق، ص: 146، 147.
(6) البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 84.
(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 84.
(8) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 84.
(9) قضاة دمشق، ص: 47، 48، نور الدين محمود، ص: 84.
(10) البرق، ص: 97، نور الدين محمود، ص: 84.
(11) البرق، ص: 100.

وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل، وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه الإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه ـ كما سبق أن ذكرنا ـ صلاحيات واسعة[1]. كما اعتمده عام (566هـ ـ 1170) رسولاً إلى الخليفة المستضيء في بغداد[2]. وقد توفي عام (585هـ ـ 1189م)[3].

7 ـ رفع الضرائب والمكوس:

لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً، إلا وأطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي 45% وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره[4]، وكان رحمه الله نادماً على ما فاته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة: أن الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرّع ويقول: اللهم ارحم العشّار المكّاس. وكان قد دعا أحد معاونيه ـ موفق الدين خالد ـ وقال له: اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، وأثبت ما أثبته الله عليكم[5]. وقد أمر بقراءة المناشير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة: أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة (566هـ)، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يُقرأ على الناس فيه: وقد قنعنا من الأموال باليسير من الحلال، فسحقاً للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة.. إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل[6]. وقُرِئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام 567هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين جاء فيه: وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا ونكفي الرعية ضرهم.. ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب[7]. وهدد من لا يطبق ذلك من المسؤولين: ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه، ومن قرأه أو قُرِئ عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه، ممضياً

(1) وفيات الأعيان (3/ 53، 56).
(2) مرآة الزمان (8/ 283).
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 85.
(4) عيون الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 362).
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 327.
(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 328.
(7) المصدر نفسه، ص: 328.

لما أمر به[1]، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله: فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيهم أرزاقهم؟ (أي رواتبهم) فأجابه نور الدين: إن كنا نغزو من هذه الجهات (أي من هذه الموارد) نتركها ونقعد ولا نخرج[2]. ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلاً من هذه الضرائب، وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستعجلوا من التُّجار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه ـ يعني من أموالهم ـ فتقدّم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك[3].

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته، فأمره نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرّان وسنجار والرحبة، وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفّار ـ أبادهم الله ـ عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين[4]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: 10]، وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمريّة وأقرها من الدولة الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر وهدم أركان التعدّي، وأقرّ الحق مقرّه لقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۝١٦٠﴾ [الأنعام: 160]، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 261]. ثم لما أعانه الله بعونه وأيّده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطاعنة، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرُّقاد ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ [ص: 38-40] علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزّائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذُخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارّة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 238

(2) المصدر نفسه (1/ 67).

(3) المصدر نفسه (1/ 69).

(4) المثاغرين: سكان الثغور.

[الانفطار: 19] فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه تباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ في كل سنة من العين مئة ألف وستة وخمسين ألف دينار[1].

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام، بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (165,000) مائة وخمسة وستين ألف دينار[2]، ويقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران، وانتقضت الأحوال[3] ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم.. يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعاً[4].

وكانت هناك أمور عديدة ساعدت نور الدين على إلغاء المكوس، وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحم العشّار المكّاس، وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في حِلٍّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوِّ الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم[5]، ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي، فقد قال قصيدة في نور الدين وقدمها له جاء فيها:

مــثّــلْ وقــوفــك أيــهــا الــمــغــرور ... يــوم الــقــيــامــة والــســمــاء تــمــور

إن قــيــل نــور الــديــن رحــت مــسلّــمــاً ... فــاحــذر بــأن تــبــقــى ومــا لــك نــور

أنَــهَــيْــتَ عــن شــرب الــخــمــور وأنــت مــن ... كــأس الــمــظــالــم طــافــحٌ مــخــمــورُ

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 70).
(2) الجهاد والتجديد، ص: 329.
(3) المقدمة، ص: 286، معوقات الجهاد (1/ 422).
(4) المقدمة، ص: 290.
(5) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 54).

عطِّلتَ كاساتِ المُدام تعفُّفاً وعليكَ كاسات الحرامِ تدورُ
ماذا تقول إذا نُقلت إلى البلى فرداً وجاءك منكرٌ ونكيرُ
وتَعَلَّقتْ فيك الخصوم وأنت في يوم الحساب مُسَحَّبٌ مجرورُ
وتَفرَّقتْ عنك الجنودُ وأنت في ضيق اللُّحود مُوَسَّدٌ مقبورُ
وَوَدِدْت أنك ما وَلِيتَ ولاية يَوماً ولا قال الأنام أميرُ
وبقِيْت بعد العزِّ رَهْنَ حُفيرة في عالم الموتى وأنت حقير[1]
وَحُشرتَ عُرياناً حزيناً باكياً قلِقاً وما لك في الأنام مُجيرُ
أرضِيتَ أن تحيا وقَلْبُك دارسٌ عافي الخراب وجسمك المعمورُ
أرضيت أن يحظى سواك بقُربه أبداً وأنت مُبَعَّدٌ مهجورُ
مهِّد لنفسك حُجَّةً تنجو بها يوم المَعاد لعلَّك المَعْذُورُ

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار، فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده[2]، فرحم الله الواعظ والمتعظ، وَوفق من أراد الاقتداء بهم.

8 ـ ما قيل من الشعر في عدله:

قال ابن منير:

بنور الدين روِّض كلُّ مَحْلٍ من الدنيا وجُدِّد كُلُّ بالِ
وَصَوِّب عَدْلُه في كُلِّ أوب فعوض عاطِلاً منه بحال
وُينكي رأيهُ رأي المحامي ويَقْتُلُ خوفه قبل القتال
لقد أحصدتَ للإسلام عِزاً يفوت سَنامه يَدَ كُلِّ قال[3]

وقال أيضاً:

رددت على الإسلام عصر شبابه ثباته من دونه وثباتُهُ

(1) أخبار الروضتين (1/ 56).
(2) البداية والنهاية (16/ 489).
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن شعر الجهاد الشامي، ص: 167.

أرسى قواعده ومَدَّ عِمادَهُ ... صُعُداً وشيَّد سوره سوراتُهُ
وأعاد وجه الحقِّ أبيض ناصعاً ... إصلاتُهُ وصِلاتُهُ وصَلاتُهُ[1]

وقال أيضاً:

لا تأمنوا في الله بطشة ثائرٍ ... لله ملءُ سريره أسرارُ
صافٍ إذا كُدِرَ المعادِنُ عادِلٌ ... إن خاف حُكّام الملوك وجاروا[2]

وقال أيضاً:

أوَ لَسْتَ مَنْ ملأ البسيطة عَدْلُهُ ... واجتبَّ بالمعروف أنف المُنكَرِ
حدبُ الأب البَرِّ الكبير، ورأفة ... الأم الحفية باليتيم الأصغرِ
يا هضبة الإسلام من يُعصم بها ... يأمَنْ، وَمَنْ يَتَولَّ عنها يَكْفُرِ[3]

وقال أيضاً:

لا مُلْكَ إلا مُلْكُ محمود الذي ... اتَّخَذَ الكتاب مظاهراً ووزيرا
تمشي وراء حدودِه أحكامُهُ ... تأْتَمُّهُنَّ فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عَدْلَهُ في دولة ... جاءت لِمَطْويِّ السماح نشورا[4]

وقال أيضاً:

يا سائلي عن نهج سيرته ... هل غير مفرّق هامة الفجر
عدل حقيق من تأمَّلُه ... أن يحيي العمرين بالذكر[5]

وقال أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفافٌ ... ومال بها عن الأموال زهد
رأى حط المكوس عن الرعايا ... فأهدر ما أنشاه بعد

---

(1) شعر الجهاد الشامي، ص: 168.
(2) المصدر نفسه، ص: 170.
(3) المصدر نفسه، ص: 170.
(4) المصدر نفسه، ص: 171.
(5) عيون الروضتين (1/ 386، 387).

ومد لها رواق العدل شرعاً   وقد طُوى الرواق ومن يمد[1]

وبات وعند باب العرش منها   لدولته دعاء لا يرد[2]

وقال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محيي العدل الذي في ظله   من عدله رعت الأسود مع المهَا

محمودٌ المحمودُ مِن أيامه   لبهائِها ضحك الزمان وقهقها[3]

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف، فهي جانب من جوانب المدينة المتكاملة، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى؛ لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي، والأمن الغذائي والأمن الصحي[4]، وهذه الأمور عمل نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25] فهذه الآية الكريمة توضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل، وتكفل استمراره، ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة لقلنا: إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن تتوفر له الأيديولوجية الصالحة زائد التكنيك المتقدم، فالأيديولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة بعيدة عن التجزئة والتشرذم، وتمنحها الأهداف، ووحدة الحركة والتصميم والإرادة وتمنع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة، والفكر، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنيك يمنحها فرص التقدم على الآخرين علمياً وصناعياً، ليس من أجل إذلالهم واستعمارهم، فالأيديولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك، بل لإقامة العدل في الأرض بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزول الكتب السماوية وخاتمها القرآن الكريم، يهدف إلى تثبيت موازين العدالة، وبيان الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيقها، فالناس يقومون بالعدل، ويحيون بالأمل، ويسعون بالأمن، وينتفعون بالعمل والإنتاج[5].

---

(1) عيون الروضتين (1/ 388).

(2) المصدر نفسه (1/ 388).

(3) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين، ص: 174.

(4) الإسلام والوعي الحضاري، د. أكرم العمري، ص: 115.

(5) الإسلام والوعي الحضاري، ص: 117.

إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح للكتاب والسنة، والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية، وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين[1].

رابعاً: مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود:

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية، فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة، وأنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوتة معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبدّل كما كان يحدث دائماً، وما يقتضيه «الموقف» هذا ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن.. إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي، وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع، وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً، لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط، تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين، ولكنه في الثالثة أو الرابعة ينهار فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماؤها[2].

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه «تصميم» هادف يسعى إلى عملية «التأصيل العقائدي» من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والازدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلى حيّز التاريخ «الإنسان» المتوازن الذي أراده الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله[3]، وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ربانية على رأسها العلماء الربانيين، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً، وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية[4]، فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة

---

(1) الإسلام والوعي الحضاري، ص: 117.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 139.
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 130.
(4) المصدر نفسه، ص: 131.

من سلف منهم[1]، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم[2]، يحضرهم إلى مجلسه، فيدنيهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً[3]، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[4]، وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيّز، فالمذاهب عنده ـ كما أجمع المؤرخون ـ كلها سواء والإنصاف سجيته في كل شيء[5]، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين.. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، محاولة في تعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث[6]، كما ألف كتاباً في الجهاد[7]، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين[8]، ولا شك أن هذا التوجه العلمي عند نور الدين أثر على سياسته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته[9].

إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوي وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم، تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد العزيز: دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

1 ـ تقديمه للعلماء على الأمراء:

كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده، فكان إذا أعطى

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 35.
(2) مفرج الكروب (1/ 283)، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 35.
(3) الباهر، ص: 171، 172، نور الدين محمود، ص: 36.
(4) الباهر، ص: 171، 173، نور الدين محمود، ص: 36.
(5) الباهر، ص: 165.
(6) الكواكب، ص: 56، 57، الباهر، ص: 165، 166
(7) مرآة الزمان (8/ 313)، نور الدين محمود، ص: 36.
(8) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 36.
(9) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 39.

أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا[1]. وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه، ويقول لهم: من المعصوم؟ ويكفينا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري[2] عنده، وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فقال نور الدين له: يا هذا إن كان ما تقوله صحيح فله حسنة تغفر له كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا ـ إن صحت ـ مع وجود حسناته؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكره أو غيره بسوء لأوذينَّك، فكف عنه[3].

2 ـ البذل والعطاء للعلماء:

لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة ولكنه تجاوز هذا ـ على أهميته ـ إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مُقدراً أن هذه الفئة الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب، وألاَّ تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها، أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظيمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال[4].

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة، عليها ألا تبخل عليهم بما يسدّ حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمهم، كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا[5]، ولم يبخل عليهم بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

---

(1) البداية والنهاية، نقلاً عن دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص: 122.
(2) دور الفقهاء والعلماء في الشرق الأدنى، ص: 123.
(3) الباهر، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 134.
(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 140.
(5) الباهر، ص: 173 البداية والنهاية، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 141.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكّن العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية[1]، وهذا المنهج من هَدْي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي يتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار، أو بتوجيه من الدولة فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب[2]، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر بن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل، حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها، ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم، بينما تهمل الجوانب الأخرى، ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله تعالى كما يجوز أخذ مال الزكاة، أو الصدقة، أو الوقف، أو الوصية، أو الهبة، أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد[3]، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: 26].

3 ـ اهتمامه بعلماء المدارس النظامية:

من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ، وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير، وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي»، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهرة، والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصليبية، وهو مؤهلٌ بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له والدفاع عنه، وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظاميات ومنهم: القاضي كمال الدين الشهرزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة،

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 141.
(2) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ص: 265.
(3) أولويات الحركة الإسلامية، ص: 193، فقه النصر والتمكين، ص: 272.

والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت563هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس ببعض مدارس دمشق[1]، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً لهجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين وهو يُمكّن لمذهب أهل السنة[2].

4 ـ هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود:

شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً علمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة[3] حتى أن بلاد الشام كانت، كما يصفها أبو شامة: خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية[4]، فالدولة التي تهيىء الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشىء المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين ـ هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها، وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم[5]، وقد استقدم ـ على سبيل المثال:

أ ـ برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي سنة (548هـ/ 1153م) وهو من علماء الأحناف، فقد استُقدم من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاوية وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام (519هـ)، وجلس للوعظ، وكان يتميز بصدق كلماته، فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها[6]،

---

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، ص: 222.

(2) المصدر نفسه، ص: 223.

(3) الباهر، ص: 171، 172، نور الدين محمود زنكي، ص: 144.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود زنكي، ص: 144.

(5) زبدة الحلب (2/ 293، 294)، مفرج الكروب (1/ 283).

(6) المصدر نفسه.

وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب[1].

ب ـ **الفقيه أبو العباس السلفي**: فقد قام برهان الدين البلخي إثر تَوَلِّيه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا العباس أحمد السلفي ـ من دمشق أيضاً ـ ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم فسيّر إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائباً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً، ولم يزل الأخير مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما يلبث أن يتوفى عام (548هـ). وحل محله في التدريس عبد الرحمٰن بن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة (564هـ)[2]، ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى[3].

ج ـ **عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي**: تعاقب على المدرسة الحلّاوية مدرّسون من جهات شتى، وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانه لكنة غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة، وعُيِّن في المدرسة الحلّاوية حتى وفاته عام (581هـ أو 582هـ) بينما أَقرَّ علاء الدين على التدريس في الحلاوية، وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام (587هـ) أي بعد ثمانية عشر عاماً، وقد وصفه ابن شداد بأنه: كان من ذوي التحصيل والتصانيف البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الآفاق ذكرها[4]، تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي، وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوّجه شيخه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه[5]. وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة، وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطإ فيرجع إلى قولها، وكانت تمارس الإفتاء، وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها، وهي التي سنّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاّوية في حلب[6].

---

(1) مرآة الزمان (8/ 219، 220) نور الدين محمود، ص: 145.

(2) نور الدين محمود، ص: 145.

(3) المصدر نفسه، ص: 145.

(4) نورالدين، ص: 146.

(5) تاريخ حلب (4/ 305، 308) نور الدين محمود، ص: 146.

(6) نور الدين محمود، ص: 146.

د ـ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون: وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام 550هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار ـ غربي الموصل ـ الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان ـ بحق ـ من أعيان فقهاء عصره، وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى، فبنى له مدارس عدة في منبج وحماه وحمص وبعلبك ودمشق، وفوّضه أن يولي التدريس فيها من يشاء، ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة (570هـ)[1].

هـ ـ قطب الدين مسعود النيسابوري: وفي عام (544هـ) تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه[2]، وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ، وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام 540هـ فدرّس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك اسْتُدعيَ إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة، وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير[3]. ووصفه العماد الأصفهاني بأنه: فقيه عصره ونسيج وحده[4]، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة 568هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي، واجتمعت طلبة العلم عليه ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها[5]، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين 578هـ[6].

و ـ سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف الفلكي النيسابوري: المتوفى سنة (560هـ) والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً، وحدّث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس، فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته، ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به

---

(1) زبدة الحلب (2/ 293، 294) نور الدين محمود، ص: 147.

(2) المصدر نفسه، ص: 147.

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 147.

(4) البرق، ص: 134، 135، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 147.

(5) مرآة الزمان (8/ 294).

(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 147.

وأنزله الخانقاه والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم ابن عساكر[1]، ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)[2].

ز ـ الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني: وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام 562هـ وقد قدّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية، حيث ولي المدرسة النورية التي سميت ـ بعدئذ ـ بالمدرسة العمادية نسبة إليه، وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر، والتي تمّ إنجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه: الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصرة، الفيح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[3].

ح ـ الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغدادي: ملك النحاة ـ كما يسميه سبط بن الجوزي ـ ولد ببغداد سنة 489هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق، وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي ﷺ، وكان يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين، وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات، وكان يكتب إليه[4].

ط ـ أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه: كان معيداً بالنظامية سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه «الروضتين»[5].

ي ـ أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ... ورد أربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد، وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه[6].

---

(1) الدارس في تاريخ المدارس (2/ 153).
(2) المنتظم (10/ 249)، نور الدين محمود، ص: 148.
(3) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 408، 411).
(4) مرآة الزمان (8/ 295 ـ 297).
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 149.
(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 150.

ك ـ **شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حمويه**: وفد إلى الشام عام 563هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساوٍ، فأقبل عليه نور الدين ورغّبه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشور يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام[1]، وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين، والذين تدفقوا على حواضرها وملأوا نشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك، حتى صارت بلاد الشام في عصره مَهْجراً لكبار عقول الأمة.

5 ـ ابتعاد نور الدين عن التعصب:

لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنية لكي يسعى ـ من خلال نشاطه المدرسي هذا ـ إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز مواقع (فقه) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتّيبّس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير: العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة، وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مُبدع واجتهاد خلّاق؛ إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة، ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض، ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه، وصراع من جهة أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم، ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعمّ وأشمل وأبعد مدى، وثمة حادثة ـ من بين عديد من الحوادث ـ تناقلها المؤرخون، تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال[2]: في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يريد مذهباً من المذاهب، ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس.. وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين، فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه مجد الدين ابن الداية وقال لهم على لسانه: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا لنشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء

---

(1) البرق، ص: 135، نور الدين محمود، ص: 150. (2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 165.

الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب[1]، لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة، واستطاع أن يرص الصفوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية والخارجية، وحقق الأجواء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه، إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب الكريم، والسُّنةَ المطهرة: التعصُّب الذي يؤدي إلى مهاوي الردى ويقود صاحبه إلى مسالك الغواية والضلال ويصدّ عن اتباع النور والهدى، فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الآخرة[2].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف[3] وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب، وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة، وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة من التعصب وغيرها، التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً وأحزاباً.

6 ـ أثر العلماء في دولة نور الدين:

كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أ ـ الجهاد ضد الصليبيين: فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان بمشورة العلماء ومساندتهم، حيث كانت لهم الكلمة النافذة، والمكانة المرموقة، والحظ الوافر في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد[4]، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين: الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م)، ومن أعماله التي قام بها لينضمّ إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث

---

(1) تاريخ حلب (2/ 68)، نور الدين محمود، ص: 165.

(2) في ظلال القرآن (2/ 991) فقه النصر والتمكين، ص: 259.

(3) فقه النصر والتمكين، ص: 260.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 183.

في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد، دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله[1]، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق (562هـ/ 1166م) في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سنداً لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد[2].

ب ـ **السفارات بين الدولة**: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية، والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما بهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين، ومن سفراء الاستنجاد وطلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (572هـ/ 1176م)، إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله سنة (530 ـ555هـ/ 1135 ـ 1160م) والسلطان السلجوقي مسعود سنة (527 ـ 547هـ/ 1133 ـ1152م) عام (532هـ/ 1137م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام[3]، وقد مرّ تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود، إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى الخليفة العباسي المستضيء سنة (566 ـ 575هـ/ 1172م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكراماً لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمسه[4]، كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين سنة (534 ـ 549هـ/ 1139 ـ 1154م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة (546هـ/ 1151م) وقد تولى المهمة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة (548هـ/ 1153م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما[5].

---

(1) معجم البلدان (13/ 78).

(2) معجم البلدان (19/ 14)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 184.

(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 185.

(4) المصدر نفسه، ص: 185.

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 186.

ج ـ تولي بعض المناصب المهمة في الدولة: كالقضاء وقد تمّ الحديث عن ذلك، وكتابة الإنشاء[1] وغير ذلك من المناصب التي يأتي بيانها بإذن الله في هذا الكتاب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها:

* أن نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

* أن عصر الملك العادل كان حافلاً بالحركة العلمية، مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها[2]: ويعود ذلك إلى ذكاء لمَّاح ونية حسنة، وعلم غزير، مما مَكَّنه من حل مشكلات عصره، بينما عجز عنها قبله فُحُولٌ وأساطين.

* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة[3]، وسيأتي الحديث بإذن الله تعالى في مبحث قادم عن دور التعليم ووظائفها في العهد الزنكي، والمدرسون والطلاب ونظم التعليم ووسائل تحصيله في العهد الزنكي، وميادين العلوم وأبرز أعلامها وأهم المراكز العلمية.

خامساً: الشورى في دولة نور الدين محمود:

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت اسمها، وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم، وهو يمثل أرقى أشكال التعاون، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: 38] كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: 159]

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 187، 189.

(2) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، ص: 313.

(3) المصدر نفسه، ص: 313.

وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي لبيب أو مشورة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم[1]

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء، فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها، ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه[2]، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض، والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع، ولقد اعتمدها نور الدين محمود، ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية.

1 ـ الشورى في القضايا العامة:

وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن إحدى المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك، كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق[3]، ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء[4]، وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم: ليس العمل إلّا ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، ولا يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلّا ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلّا وينكره، والساكت منكم مصدِّق للناطق ومصوِّب له. فشكروه على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والفصيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم

---

(1) مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة (1/ 422).

(2) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 454.

(3) المصدر نفسه، ص: 454.

(4) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 80.

وأموالهم، ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين[1]، فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ ابن عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك ؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به[2].

2 ـ مجالس متخصصة:

كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر[3]، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت، وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول، وترفاً فكرياً . . إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهها الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة، وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤياه لموقع الإنسان في العالم. . . ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما، أو استعداد تشريع، أو إقرار قانون، ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي مرّ ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة[4]، وقد شبّه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ: مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا[5]. . . وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 81).
(2) المصدر نفسه، ص: 82.
(3) الباهر، ص: 171، 173 ، نور الدين محمود، ص: 133.
(4) نور الدين محمود، ص: 133.
(5) الباهر، ص: 173، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 133.

لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعدّه إلى غيره البتة[1]. فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل؛ لأن نور الدين ـ وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته ـ ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلّا بعد الاطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرّعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً، مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء[2]، وكان يكاتب العلماء للاستشارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً[3]، وكان نور الدين سأل العلماء والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال له شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه[4].

3 ـ فراسته في معرفة العلماء:

لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة كما يقولون، حيث يختلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء، وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيّفوا حقيقة، أو يلبسوا باطلاً بحق، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، إن الرجل يرفض الكذب، الكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة، وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع، وهو من الجهة الأخرى يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب ﷺ متحدثاً عن نفسه: «لست بالخبّ[5]، ولا الخبّ يخدعني»، ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن «يعبر» على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدثّر بألف رداء علمي واختبأ خلف ستار، فهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علميّة الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال ـ يقول العماد: فوض إليّ

---

(1) الباهر، ص: 164.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 134.
(3) المنتظم (10/ 249).
(4) عيون الروضتين (1/ 374).
(5) الخب: الخادع.

نور الدين إحدى مدارسه وعوّل عليّ في التدريس والنظر في أوقافها، وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة (562هـ) خلّف ولدين واستمرا فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء[1]، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه، فغاظ نور الدين هذا المعنى، وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع، فقال لي: تسلّم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً[2].

والمقصود من كلامي: أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته، وكانت له مجالس شورية يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى، ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى؟ وكيف؟ لأن الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي[3]، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد، وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بصورة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله، لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة[4].

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسية وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها جانب الفنون الإدارية، وفيها جانب التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب، ولكل

---

(1) يوم كانت الكيمياء دجلاً وشعوذة وسحراً ومحاولة لاستخراج الذهب من التراب بمعونة الجن والشياطين.

(2) البرق، ص: 119، 120.

(3) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 464.

(4) المصدر نفسه، ص: 465.

جانب أُناس عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار، وطول الخبرة والمِرن هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحها ثقتها، وتنيبهم عنها في الرأي، وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها، مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد[1]، ولذلك ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين وفي شؤون العمران والهندسة يستشار المهندسون، وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة، وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة، وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة[2]. لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان وسنرى ذلك في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

المبحث الرابع
النظام الإداري عند نور الدين

إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طوال حياته دون غيره من المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية، تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتنامية، على عدد كبير من الرجال الأكفاء، فكان يختارهم بعناية فائقة، وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم، حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم، فإذا تحقَّق من ذلك وثق بهم وخولهم الصلاحيات التي يحتاجونها لتنفيذ أعمالهم، فيباشرون وظائفهم وهم يرون فيه قدوتهم في الالتزام بالشرع والإخلاص بالعمل، والإحساس بالمسؤولية، والعدل والبساطة في العيش، والحرص على الأموال العامة، فتتحقق الإدارة الناجحة، وينعكس ذلك على الشعب بالرخاء والأمن الازدهار ويصدق فيه قول المؤرخ «ستيفن رنسيمان» في هذا المجال عندما وصفه بقوله: التزم البساطة في حياته، وحمل أسرته على أن تسير على نهجه، وآثر أن ينفق

---

(1) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص: 57. (2) المصدر نفسه، ص: 58، 59.

موارده على أعمال البر والإحسان، كان إدارياً حازماً يقظاً ودعمت حكومته الرشيدة ما أقامه له سيفه من مملكة[1].

أولاً: حسن اختياره للرجال:

اعتمد نور الدين نفس النظم الإدارية المعمول بها في عصره والتي كان السلاجقة قد أرسوا قواعدها العريضة، وجاء الأيوبيون والمماليك من بعدهم لكي يسيروا بها نحو مزيد من النضج والتخصص والشمول، لكن نور الدين أكّد على مؤشر أساسي في ميدان الإدارة ذلك هو أن كفاءة أجهزتها وحصيلة معطياتها لا تعتمد على بنيان الجهاز أو تركيب المنصب نفسه، قدر اعتمادها على الرجال أنفسهم الذين يعهد إليهم بتسييرها، ومن ثم فإننا نجد نور الدين يملأ إدارته بنماذج متنوعة من هؤلاء الرجال الذين كانوا يتباينون في الانتماء الجنسي والجغرافي والاجتماعي ولكنهم ـ في الأغلب ـ يجتمعون على تلك الميزات التي لا تستقيم بدونها إدارة ما[2].

1 ـ أسد الدين شيركوه وبنو أيوب:

عندما قتل عماد الدين زنكي عام 541هـ ـ 1146م والد نور الدين محمود، وجد نور الدين في بعض رجالات والده المتقدمين في ميادين الإدارة المدنية والعسكرية ساعده الأيمن الذي اعتمده في الوصول إلى الحكم في حلب، وتثبيت أركان إمارته الفتية هناك، اتصل به أسد الدين شيركوه عم الناصر صلاح الدين وقال له: أعلم أن الوزير جمال الدين الأصفهاني ـ أكبر وزراء زنكي ـ قد أخذ عسكر الموصل وعمل على تقديم أخيك سيف الدين غازي وتمليكه الموصل وقد انضوى إليه جل العسكر وقد أنفذ إليّ يغريني على اللحاق به، فلم أستجب لطلبه، وقد رأيت أن أصيّرك إلى حلب فتجعلها كرسي ملكك، وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك لأن من ملك الشام ملك حلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق. فما كان من نور الدين إلا أن أصدر أمره بأن ينادي ليلاً في عساكر الشام للاجتماع، وانطلق من ثم إلى حلب فدخلها في السابع من ربيع الأول واعتمد أسد الدين شيركوه الذي أصبح أشبه بوزيره الأول[3]، ومع الوقت استمرت علاقة أسد الدين مع نور الدين في القوة والانسجام وأخذت تزداد مع الأيام حتى بلغت قمتها في ترشيح

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 170 تاريخ الحروب الصليبية (4/ 614).

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 54.

(3) المصدر نفسه، ص: 54.

أسد الدين لقيادة الحملة النورية على مصر في رحلاتها الثلاثة، كما اعتمد نور الدين على أسد الدين للاتصال بأخيه نجم الدين في دمشق والتمهيد لدخولها سلماً بعد إذ تبين استحالة أخذها عنوة. وقد توجت هذه الاتصالات الناجحة بدخول نور الدين دمشق (عام 549هـ ـ 1154م) بمعونة الأخوين. نجم الدين، وأسد الدين حيث ازدادت مكانتهما ارتفاعاً، وبرز إلى دائرة الضوء ابنا نجم الدين وهما: الناصر صلاح الدين، وتورانشاه كأميرين متقدمين في الدولة. وقد قال أبو شامة: كان لأسد الدين اليد الطولى في فتح دمشق، فولاه نور الدين أمرها ورد إليه جميع أحوالها[1]، وزاد على ذلك فأقطعه الرحبة[2] ويواصل أبو شامة حديثه فقال: وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه قطاعاً وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تورانشاه شحنكية دمشق فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن استبدل بأخيه صلاح الدين[3]. وكان صلاح الدين قد فارق أباه نجم الدين مُنذ عام (546هـ ـ 1151م)، وانتقل إلى خدمة عمه أسد الدين في حلب فقدمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً[4]. واستخص صلاح الدين وألحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر[5] ويذكر ابن الأثير كيف أن كلاً من نجم الدين وأسد الدين صارا عند نور الدين بعد فتح دمشق في أعلى المنازل. لا سيما نجم الدين فإن سائر الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك كما يحدثنا كيف أن أسد الدين كان قد لزم خدمة نور الدين مُنذ أيام والده زنكي.. وبعد أن تولى إمارة حلب راح يقربه ويقدمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدم عسكره[6].

2 ـ مجد الدين ابن الداية وإخوته:

لم يشأ نور الدين أن يجعل جل اعتماده على العناصر الإدارية المخضرمة، ورأى أن يطعمها بعناصر جديدة أكثر ملائمة وفهماً لأهدافه، أسوة بما يفعله مؤسسو الدول في إعادة تنظيم أجهزتهم الإدارية وترشيح العناصر الأكثر تقبلاً للوضع الجديد وتجانساً معه[7]، وقد كان مجد الدين محمد أبو بكر ابن الداية، شقيق نور الدين من الرضاعة وإخوته شمس الدين علي وسابق الدين عثمان وبدر الدين حسن، وبهاء الدين عمر الذي لم يبرز في ميدان الإدارة كما

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 58.
(2) المصدر نفسه، ص: 58.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 58.
(4) المصدر نفسه، ص: 59.
(5) المصدر نفسه، ص: 59.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 55.
(7) المصدر نفسه، ص: 56.

برز إخوته لربما لصغر سنه، ويتحدث العماد الأصفهاني عن المكانة العالية التي بلغها مجد الدين وإخوته في إمارة نور الدين فيقول: كان مجد الدين رضيع نور الدين قد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده، ففوض إليه نور الدين جميع مقاصده وحكمه في الملك فلا يحل ولا يعقد إلا برأيه. وكان يسكن قلعة حلب. وقد سلمت قلعة جعبر وتل باشر لأخيه الأصغر سابق الدين عثمان، وحارم لأخيه الثالث بدر الدين حسن. وثمة مواقع عديدة أخرى مثل عزاز وعين تاب وغيرهما كان مجد الدين يشرف عليها بنفسه عن طريق نوابه[1]، وعندما هدمت الزلازل شيزر عام (552هـ ـ 1157م) واستولى عليها نور الدين من بني منقذ سلمها إلى مجد الدين[2]. ويؤكد سبط ابن الجوزي أن مجد الدين وإخوته: كانوا أعز الناس على نور الدين وكان قد أسكنهم معه في قلعة حلب لا يصدر إلا عن رأيهم[3]. ويكاد المؤرخون يجمعون على أن مجد الدين أحسن تدبير المهمة التي عهدت إليه وأنه كان عند حسن الظن، وظل طوال خمسة عشر عاماً يتمتع بثقة سيده ومحبته وتفويضه الأمور في قاعدة ملكه حلب. وقد امتاز الرجل بشجاعته وتدينه وتعشقه لتقديم الخدمات الاجتماعية. وعندما توفي عام (565هـ ـ 1169م) نفس السنة التي توفي فيها نائب كبير آخر في دولة نور الدين يدعى العمادي محمد، حزن نور الدين حزناً عميقاً، وقال وهو يبكي: لقد قصت جناحاي. وسرعان ما عمد بجميع ما كان له من مناصب وصلاحيات إلى أخيه شمس الدين علي الذي غدا بمرور الوقت أكبر الأمراء النورية في حلب، وأما أخوه الآخر سابق الدين عثمان فقد جعله مقدم عساكره وفي عام (569هـ ـ 1173م) السنة التي توفي فيها نور الدين ـ كان بنو الداية قد تمكن نفوذهم في حلب تماماً وأصبح أمرهم إليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده[4]. وكان شمس الدين علي قد عهدت إليه أمور الجيش والديوان، وعهدت الشحنكية إلى أخيه بدر الدين حسن، وكان بيد هؤلاء الأخوة جميع المعاقل المحيطة بحلب[5]، وكان هناك أسماء أخرى بارزة طيلة العهد النوري لم تكن لتقل عن بني الداية شهرة وإنجازاً[6].

3 ـ العماد الأصفهاني:

غادر بغداد ميمماً شطر الشام فوصل إلى دمشق في شعبان سنة (562هـ ـ 1166م)، وأعانه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وأنزله بالمدرسة الشافعية النورية وسرعان ما

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 56.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 56.
(3) مرآة الزمان (8/ 324، 325).
(4) الباهر، ص: 163، نور الدين محمود، ص: 57.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 57.
(6) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 57.

توثقت العلاقة بينه وبين بني أيوب: نجم الدين، وأسد الدين وصلاح الدين، ثم ما لبث كمال الدين الشهرزوري أن قدمه في أواخر السنة إلى نور الدين ونوّه بشأنه، فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً في مطلع عام (563هـ، 1167م)، وصار رئيس ديوان الإنشاء وكاتب السر، ومديح الوثائق الرسمية حتى وفاة نور الدين وكان يتلقى من بني أيوب في مصر تقارير مفصلة عما يستجد فيها من أحداث فيقرأها على نور الدين ويكتب أجوبتها، وقد جاء تعيين العماد في هذا المنصب ـ كما يذكر هو نفسه ـ بعد استعفاء أبي اليسر بن عبد الله من الخدمة في ديوان الإنشاء واعتكافه في بيته، وهو يذكر أيضاً أنه وجد من نور الدين مُنذ ذلك الوقت «الإعزاز والتمكين على الأيام» وقد اعتمده نور الدين فضلاً عن ذلك في عدد من السفارات إلى شاه إرمن صاحب خلاط في أرمينيا أواخر سنة (564هـ/ 1168م) وإلى الخليفة العباسي في أوائل سنة (566هـ/ 1170م)، كما فوضه الإشراف على المدرسة النورية في دمشق ـ والتي سميت بعدئذ بالمدرسة العمادية نسبة إليه ـ في رجب سنة (567هـ/ 1171م) وفي العام التي أصبح العماد مشرفاً على دواوين المملكة كلها إضافة إلى مهمته في ديوان الإنشاء والإشراف هو المراقبة وتفتيش أمور الدواوين، فكان المشرف هو المفتش العام للحكومة[1]، فَجَمَعْتُ ـ يقول العماد ـ بين المنصبين وقسمت زماني على النصيبين فمرة للكتب والمناشير وتارة للإثبات في الدساتير[2]، ولم أثق بنائب وباشرت العمل بنفسي[3]، وبعد توجه الموفق خالد القيسراني إلى مصر قام العماد مقامه وصار مستوفي المملكة وأصبح بذلك الرجل الأول في الدولة وأكثر من يعتمدهم نور الدين من الرجال حتى وفاته، إذ أصبح العماد بمناصبه الثلاثة تلك، المسؤول الأول عن الكتابة والإشراف الإداري والمالي[4]، ويحدثنا العماد عن الثقة المتبادلة بينه وبين نور الدين، وحرص الأخير على تجاوز (الروتين) الإداري فيقول: . . وقد مال إليّ نور الدين وعول في مناصبه علي وطالعته كل يوم بمرافق عملي ومنافع شغلي، فما أتحف بتحفة، ولا أخص من أحد بعطية إلا أطالعه به وأطلعه على سببه، فكان يعجبه مني تلك الشيمة ويقول: تصرف فيه تصرفك في مالك[5]، ويمضي العماد إلى القول: ثم اعتمد علي اعتماداً كلياً وجعلني له نجباً، وإذا أراد أن يكتب إلى أحد منهم يقول: اكتب إليه من عندك ومن جملة ذلك، أن سعد الدين كمشتكين ـ نائبه في الموصل أخذ من رجل ألف دينار بعلة عللها، فجاء الرجل ـ وتظلم، فأمرني نور الدين بأن أكتب إليه بردها عليه. فقال

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 60.

(2) الدستور: هو الدفتر الذي تكتب فيه أسماء الجند ومرتباتهم.

(3) البرق، ص: 120، 122، نورالدين محمود، ص: 60.

(4) البرق المقدمة، ص: 10، 11، نور الدين محمود، ص: 60.

(5) البرق، ص: 61، نور الدين محمود، ص: 61.

كمشتكين إنك كاتبي وأميني وصاحبي ولا تكتب إلا بأمري؟ فإن خالف كتابك إليه قلعت عينيه !! فمضى إليه بكتابي فسارع إلى طاعته ورد عليه الألف في ساعته[1]، ومما لا شك فيه أن العماد الأصفهاني قد حقق نجاحاً كبيراً في مهماته الإدارية الأمر الذي أكسبه ثقة نور الدين المتزايدة وجعله يظفر سريعاً في مدى فترة لم تتجاوز السنوات الست بأهم وظائف الدولة وأعلاها: الكتابة والإشراف (الإداري) والاستيفاء (المالي). وإذا صح ما يقوله الرجل عن نفسه ـ وهو الأرجح، لما سبق وأن ذكرناه ـ فإن نور الدين كان قد اعتمده إلى حد تفويضه الأمر كاملاً في مناصبه تلك. ورغم ذلك فإن العماد ما كان ليقدم على خطوة إلا بعد أن يُطلع سيده عليها. . وقد عمَّق هذا الموقف الذكي من الرجل الثقة بين الطرفين تلك التي استمرت حتى نهاية حكم نور الدين[2]، وتلي هذه الأسماء في ميدان الإدارة أي بنو الداية، وبنو أيوب والعماد الأصفهاني، أسماء أخرى أقل منها أهمية، وإن كان بعضها قد بلغ القمة التي بلغها أولئك الرجال، رغم أن المصادر لم تشر إليها إلا عرضاً ولم تقدم لنا الشيء الكثير[3].

4 ـ خالد بن محمد القيسراني:

مستوفى المملكة حتى عام (568هـ/ 1172م) والذي يصفه العماد بأنه كان عند نور الدين في مقام الوزير، وله انبساط زائد[4]، ويذكر في الخريدة أنه لما وصل الشام وجد القيسراني في صدر مناصبها وبدر مراتبها، وكان نور الدين قد رفعه واصطنعه، وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه ولقد كان حقيقاً بذلك[5]. ويتحدث عنه أحد أحفاده المدعو معين الدين بن محمد فيقول: كان جدي خالد قريب المنزلة من نور الدين إلى الغاية، وإليه استيفاء دواوينه بأسرها، وكتابة الإنشاء وإمرة مجلسه وهو المشير والوزير والأمور كلها عائدة إليه[6]، وواضح أن عمله في كتابة الإنشاء كان في الفترة التي سبقت توليها من قبل العماد الأصفهاني[7].

5 ـ محمد العمادي:

صاحب نور الدين وأمير حاجبه وأحد كبار نوابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر[8]. وكان كما يصفه سبط ابن الجوزي: عزيزاً عند نور الدين ومن أعظم أمرائه[9].

---

(1) البرق، ص: 132، 133، نور الدين محمود، ص: 61.
(2) نور الدين محمود، ص: 61.
(3) المصدر نفسه، ص: 61.
(4) البرق، ص: 116، نور الدين محمود، ص: 62.
(5) نور الدين محمود، ص: 62.
(6) مفرج الكروب (1/ 270)، نور الدين محمود، ص: 62.
(7) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 62.
(8) مرآة الزمان (8/ 280)، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 62.
(9) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 360).

6 ـ الشيخ الأمير مخلص الدين

أبو البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جرادة الحلبي الأمين على خزائن أموال نور الدين، كان كاتباً بليغاً حسن البلاغة نظماً ونثراً مستحسن الفنون من التذهيب البديع، وحسن الخط المحَرَّر على الأصول القديمة المستطرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء[1].

7 ـ أبو سالم بن همام الحلبي:

ولي الإشراف على الديوان بدمشق حتى عام (551هـ/ 1156م) حينما كشف التحقيق معه عن استغلاله المنصب لسرقة أموال الدولة فألقي القبض عليه واعتقل، ثم أصدر نور الدين أمراً بكشف خيانته للناس، وعقابه عقاباً قاسياً والطواف به في الأسواق حيث كان المنادي يصيح: هذا جزاء كل خائن. وبعد أن أقام في المعتقل بدمشق أياماً أمر نور الدين بنفيه إلى حلب فغادر دمشق على أقبح صفة، من لعن الناس، ونشر مخازيه[2].

ثانياً: أهم الإدارات والوظائف في دولة نور الدين:

كانت دولة نور الدين مقسمة إلى عدة أقاليم، هي: إقليم حلب شمال بلاد الشام وإقليم دمشق وسط بلاد الشام، وإقليم الموصل منطقة الموصل والجزيرة الفراتية، وإقليم مصر، وإقليم اليمن، وإقليم الحجاز[3]، وكان لكل إقليم إدارته المحلية التي تتألف من عدة موظفين يعينهم نور الدين، وكانت جميع هذه الأقاليم تتبع السلطة المركزية للدولة في دمشق، التي يشرف عليها نور الدين وجهازه الإداري المركزي. أما الوظائف التي تتألف منها الإدارة المركزية.

1 ـ النائب:

هو الذي ينوب عن نور الدين في الإقليم، ويكون مسؤولاً عن الشؤون العسكرية والإدارية فيه، من صلاحياته توقيع المراسيم والمنشورات، وترشيح أسماء نوابه في المدن الأخرى التابعة للإقليم، والإشراف على تنفيذ قوانين ضمن منطقة مسؤوليته، وترؤس اجتماعات ديوان الجيش في الإقليم وقيادة الفرق العسكرية، الموجودة في الإقليم، كان مجد الدين ابن الداية من أشهر نواب نور الدين، فقد ظل خمسة عشر عاماً نائباً لنور الدين في حلب[4].

---

(1) نور الدين محمود، ص: 63.
(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 170.
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 171.
(4) المصدر نفسه، ص: 171.

2 ـ الوزير :

هو رئيس الجهاز الإداري المركزي ويكون مسؤولاً أمام نور الدين عن جميع الدواوين والسجلات المتعلقة بالجند والبريد والخزينة[1]، ويقدم النصح والرأي في الأمور السياسية والإدارية والعسكرية، كانت وظيفة الوزير أهم وظائف الدولة قبل استحداث وظيفة النائب[2]، فقد كان الوزير في بداية عصر السلاجقة هو المدبر الوحيد والحقيقي لجمع شؤون الدولة، ولكن صلاحياته تقلّصت بعد استحداث وظيفة النائب الذي كان يتمتع بجميع صلاحيات السلطان ضمن منطقة مسؤوليته ويرتبط بالسلطان مباشرة، وقد حصل تداخل في الواجبات والصلاحيات بين وظيفة الوزير ووظيفة الناظر (ناظر الديوان) الذي كان يعتبر مسؤولاً عن الدواوين، وكان عمل الوزير يقتصر في بعض الأحيان على تقديم المشورة في الأمور الهامة بسبب التداخل المذكور[3]، لم يكن هناك وصف دقيق للوظائف وصلاحياتها، فكان الأمر في الحقيقة يعتمد على كفاءة من يتولى المنصب وشخصيته، كما حدث مع كمال الدين الشهرزوري، فقد كان قاضي القضاة في كل مملكة نور الدين وكان يكلفه بكثير من المهام الأخرى غير القضاء، ويستشيره في الأمور الهامة[4]، حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه أصبح في دمشق الحاكم المطلق، وأنه ارتقى إلى درجة الوزارة، فكان له الحل والعقد في أمور الشام[5]، ومثال ذلك أيضاً ثقة نور الدين في العماد الأصفهاني كما مرّ معنا.

3 ـ المستوفي :

هو المسؤول عن موازنة الدولة جميعها من حيث تقدير الأموال المستحقة وجمعها من مصادرها وحفظها، وتخصيص الأموال اللازمة للجند وغيرهم من أجهزة الدولة ومؤسساتها، ويكون له نواب في الأقاليم يقومون بالواجبات نفسها ويعملون بإمرته، وكذلك يكون له عدد من الكتبة المساعدين في الإدارة المركزية يعملون معاً تحت إمرته في ديوان يسمى: ديوان الاستيفاء[6] ووظيفة المستوفي من أهم الوظائف في الإدارة المركزية بعد وظيفة الوزير، ويتبع المستوفي موظف آخر هو المشرف الذي يرأس ديوان الإشراف ويعتبر عمله مكملاً لعمل المستوفي، ومهمته تدقيق الحسابات والموازنة بين الصادرات والواردات لخزينة الدولة، ويشبه عمله إلى حد ما عمل المفتش في هذه الأيام[7].

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 172.
(2) المصدر نفسه، ص: 172.
(3) المصدر نفسه، ص: 172.
(4) المصدر نفسه، ص: 172.
(5) نور الدين محمود وتجربته الإسلامية، ص: 82، 83.
(6) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 174.
(7) المصدر نفسه، ص: 174.

4 ـ الأمير الحاجب:

هو المسؤول عن ديوان الجيش من حيث حفظ السجلات التي تحوي أسماءهم ووظائفهم ورواتبهم وإقطاعاتهم، ويقوم بحل مشاكلهم وتقديم صورة واضحة عن أحوالهم إلى السلطان أو النائب. كما يقوم بالإشراف على سلاح الجند وخيولهم ويساعده في ذلك عدد من الكتبة والموظفين يشكلون معه ديوان الجند الذي يتولى كما ذكرت كل ما يتعلق بشؤون الجند من خيل وسلاح ورواتب وإقطاعات وسجلات[1]، كان محمد العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وأحد كبار نوّابه في حلب وصاحب بعلبك وتدمر[2]. أما الحاجب فهو الذي يتولى تنظيم مقابلات السلطان والدخول عليه في مجلسه، ومع أن بعض المراجع تذكر أن وظيفة الحاجب اختلفت عما كان عليه قبل عصر السلاجقة وأصبحت مهمة الحاجب: إبلاغ السلطان حالة الشعب وكشف مظالمهم أمامه وإطلاعه على الأمور الرئيسية للدولة، ومطاردة الظلم وفق توجيهات المسؤول الأعلى، فالحاجب إذن يشبه وزير الداخلية حالياً[3]، إلا أنه ورد في مراجع أخرى كثيرة أن نور الدين كان يأمر بإزالة الحاجب والبواب عندما يجلس في دار العدل للقضاء ليسهل دخول الضعفاء من الناس عليه[4]، مما يدل على أن وظيفة الحاجب ظلت حتى في عصر نور الدين تشمل واجب تنظيم الدخول على السلطان ومقابلته[5].

5 ـ الوالي:

تغيَّر مفهوم وظيفة الوالي عما كان قبل دولة السلاجقة، فقد كان الوالي يمثل الخليفة أو السلطان في ولايته ويعتبر مسؤولاً عن جميع الشؤون الإدارية والعسكرية فيها، أما في عهد السلاجقة والدولة الزنكية، فقد أصبح النائب هو الذي يتولى الصلاحيات المذكورة بينما يكون الوالي مسؤولاً عن مدينة أو بلدة أو قلعة في الولاية أو الإقليم الذي يحكمه النائب باسم السلطان، أي أن النائب في عهد السلاجقة وعهد الدولة الزنكية حلَّ محل الوالي في مركزه وصلاحياته[6]. أما واجبات الوالي في المدينة فهي واجبات إدارية تشمل تنفيذ الأحكام، ومراقبة الأسواق ومحاسبة المخالفين للقانون، وتفقد أبواب المدينة وأسوارها وإطلاع النائب

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 174.
(2) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 174.
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 174.
(4) الباهر، ص: 168، عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 174.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 175.
(6) عماد الدين زنكي، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 175.

أو السلطان على الأوضاع العامة في المدينة[1]، بينما تختلف واجبات والي القلعة فهو يعتبر قائد الحامية، ويكون مسؤولاً عن أبواب القلعة وصيانتها وإدارة حاميتها، فهو قائد عسكري وله واجبات إدارية ضمن القلعة نفسها[2].

6 ـ الشحنة :

الشحنة أو الشحنكية كلمة تركية تعني: قائد الحامية، أو الحاكم الإداري للمدينة المسؤول عن الأمن والنظام فيها؛ يُعَيَّن من قِبل السلطان، ويعمل بإمرته رجال الشرطة أو الحامية، ويقوم بملاحقة اللصوص والخارجين عن القانون، ويلاحظ أن هناك تداخلاً بين واجبات الوالي والشحنة في المدينة، ولا تذكر المصادر والمراجع حدوداً فاصلة بين واجبات مختلف الوظائف الإدارية في تلك العصور ويظهر أن واجبات كل وظيفة كانت تتحدَّد في ضوء قوة شخصية من يشغلها، فإذا كانت شخصيّته قوية زادت صلاحياته واتسعت لتشمل واجبات لوظائف أخرى، كما حصل مع كمال الدين الشهرزوري الذي كان قاضياً في دمشق ثم صار قاضياً للقضاة في مملكة نور الدين كلها، وكان نور الدين يكلفه بأعمال كثيرة غير القضاء حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان في مقام الوزير، وتشير بعض المراجع إلى تعيين السلطان السلجوقي محمود الأمير آق سنقر البرسقي شحنة في بغداد عام (516هـ/ 1122م)، وكذلك تشير المراجع نفسها إلى تعيين السلطان نفسه لعماد الدين زنكي شحنة في بغداد عام (520هـ/ 1126م) والمعروف أن آق سنقر البرسقي كان يقود الجيوش وهو في الوظيفة المذكورة، ويدافع عن بغداد ويتصرف كنائب للسلطان، وكذلك كان من بعده عماد الدين زنكي في هذه الوظيفة[3]، وتشير المراجع ذاتها إلى تعيين نور الدين محمود توران شاه ابن نجم الدين أيوب شحنة في دمشق ومن بعده أخو صلاح الدين يوسف في الوظيفة نفسها، وكانت واجبات الأخوين في هذه الوظيفة لا تتعدى الأمور الإدارية[4]، مما يعني أن مفهوم وظيفة الشحنة كان يتغير من ظرف إلى آخر ومن مكان إلى مكان[5].

7 ـ القاضي :

حظي القضاء برعاية نور الدين واهتمامه أكثر من أية وظيفة أخرى ويرجع السبب في ذلك إلى تركيزه على إقرار العدل وإشاعته في دولته، فقد كان يختار لهذه الوظيفة أشهر

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 175.
(2) المصدر نفسه، ص: 175.
(3) المصدر نفسه، ص: 176.
(4) الكواكب الدرية، ص: 147، دور نور الدين، ص: 176.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 176.

العلماء والفقهاء المعروفين بالتقوى والاستقامة، ويعطيهم كامل الصلاحيات في تنفيذ أعمالهم وأحكامهم فكان القضاء يتمتع باستقلال تام[1]، وكان هو أول من أنشأ محكمة عليا سمّاها دار العدل ـ كما مرّ معنا ـ للنظر في القضايا المتعلقة بكبار رجال الدولة، عندما لاحظ تهيب القاضي طلب بعضهم للمحاكمة، فكان يجلس فيها للقضاء ومعه الفقهاء والعلماء والقاضي ليستشيرهم فيما يعرض عليه من قضايا، ثم جعل من نفسه قدوة لرجال دولته عندما ذهب إلى مجلس القضاء وطلب من القاضي أن يساوي بينه وبين خصمه في المحاكمة[2]، فلم يجرؤ أحد بعد ذلك من الأمراء والقادة وكبار موظفي الدولة على مخالفة الشريعة، أو ظلم أحد من الرعية؛ لأنه علم أن العقاب لا بد أن يقع عليه وكان كمال الدين الشهرزوري أشهر القضاة في دولة نور الدين الذي كان يجلُّه ويقدره فجعله قاضياً للقضاة في الدولة كلها بحيث يكون القضاة في الأقاليم نوّاباً عنه، وكلّفه بأعمال مهمة غير القضاء كالإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وبناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستانها حتى وصفه العماد الأصفهاني بأنه كان الحاكم المطلق في دمشق وأنه: ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[3]، ومن القضاة الآخرين الذين اشتهروا في دولة نور الدين: شرف الدين أبي عصرون، الذي وصف بأنه من أفقه أهل عصره[4].

ثالثاً: صبغ الإدارة الزنكية بالصبغة الإسلامية وتكامل القيادات السياسية والفكرية:

حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها وممارساتها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية، وإلى شخصية نور الدين فقد كان نور الدين زنكي تقياً ورعاً وعّده بعض المؤرخين بأنه أفضل من جاء بعد عمر بن عبد العزيز من الحكّام، وكان يحافظ على صلاة الجماعة ويكثر من الصلاة من الليل إلى وقت السحر إلى أن يركب. وكان محدثاً مع الحديث وأسمعه وجمعه، وكان حنفي المذهب عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ولكن دون تعصّب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعدو عن كونها مدارس في الفقه[5]، نور الدين ذو تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش وأصبح بعضهم على مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 176.
(2) المصدر نفسه، ص: 176.
(3) دور نورالدين محمود في نهضة الأمة، ص: 176.
(4) المصدر نفسه، ص: 176.
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 362.

محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، الذي قدم من بغداد إلى دمشق فقد كان فقيهاً أصولياً شغل مناصب مختلفة كالسفارة والوزارة وناظر الأوقاف، وناظر المالية والقضاء واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين[1]. ولم تكن هذه الشخصيات إلا نماذج لرجال الإدارة والحكم زمن نور الدين. فقد أظهر هذا الرعيل من صفوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات الأمة وتنظيمها مما هيأها لمجابهة التحدّيات في الداخل والخارج[2]. ومن أمثلة هذه المهارات والمزايا ما يلي:

1 ـ تكامل القيادات الفكرية والسياسية:

فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال، أو انفراد فريق من القيادات دون الآخر، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المنزلة الأولى فيه[3]. وكان نور الدين يمنع الأمراء من اغتياب العلماء، وقد مرّ ذلك في قصة أحد الأمراء مع قطب الدين النيسابوري ودفاع نور الدين عنه.

2 ـ اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات:

فقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يُتفق عليه[4]، ما دام يحقق المصلحة العامة، وقد تحدثنا عن بعض الممارسات الشورية في حديثنا عن الشورى في عهد نور الدين زنكي.

3 ـ غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية:

في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران، فلقد كان من الطبيعي أن تقوم مشكلات وخلافات بين نور الدين ـ مثلاً ـ ووزرائه وقادته لكنهم كانوا يعالجون هذه

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 164.
(2) الكواكب الدرية، ص: 38 هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 264.
(3) الكواكب الدرية، ص: 38 هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 264.
(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 265.

المشكلات بأسلوب لم يخرج يوماً عن حدود المصلحة العامة وما تقتضيه وحدة الكلمة وتغليب الأخلاق الإسلامية[1].

4 ـ التفاني في أداء الواجب بتعاون وتآخٍ:

ومن طريف ما لاحظه الدكتور حسين مؤنس عند هذا الزعيم من القادة والإداريين والعلماء قوله: إن تعلقهم بالدين جعلهم يتخيرون أسماءهم على نحو يتفق مع هذه النزعة: فبينما كان البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصام الدولة، كان قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، ونور الدين، وصلاح الدين وأسد الدين، ونجم الدين وزين الدين وهكذا[2]، وثمة ملاحظة أخرى وهي تَعَلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين[3].

5 ـ الزهد والتعفف وبذل المال في الصالح العام:

تجلت آثار التربية الإسلامية في مواقف رجال الدولة والإدارة والجيش من الثروات والسياسة الاقتصادية، فقد زهدوا بالمكاسب، وعزفوا عن الاحتكار والترف. وحذا حذوهم الأغنياء في المدن والقرى، فقد كان نور الدين زنكي مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعلى أسرته، وكان لا يكنز ولا يستأثر الدنيا، ولم يكن له بيت يسكنه، وإنما كان مقامه في قلعة البلد الذي يحل فيه[4]، وكان نفقته في الشهر مئة وخمسين درهماً يأخذها، من دكاكين كانت له في مدينة حمص حيث اشتراها من حصته من الغنائم، ولقد شكت له زوجته يوماً قلة نفقاتها، وأرسلت له أخاها في الرضاع تطلب زيادة فقال: من أين أعطيها ما يكفيها؟ والله لا أخوض في نار جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن: إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم وأنا خازنها فلا أخونهم فيها ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم فقد وهبتها إياها فلتأخذها. وكان نور الدين صاحب مهنة يخيط الكوافي، ويعمل سكاكر للأبواب، ويعطيها لبعض العجائز فتبيعها ولا يدري به أحد[5]. ومع ذلك فقد شهدت دولته تقدماً اقتصادياً يأتي بيانه بإذن الله. وقادة

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 266.

(2) نور الدين محمود، ص: 407، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 266.

(3) البداية والنهاية، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 266.

(4) نور الدين محمود، ص: 369 د. حسين مؤنس.

(5) الكواكب الدرية، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 267.

الجيش، كان منهم أسد الدين شيركوه أكبر قادته العسكريين، فقد كان يملك أراض واسعة أنفق مواردها في بناء المدارس التي تنشر الفكر الإسلامي، وحين مات لم يخلف إلا دنانير قليلة[1]، وكذلك فعل وزير نور الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله الشهرزوري الذي أوقف أوقافاً كثيرة منها: مدرسة الموصل ومدرسة نصيبين، ورباطاً في المدينة المنورة، وأوقف أوقافاً في قرية «الهامة» على المقادسة الذين نزحوا من وجه الاحتلال الصليبي وكان كثير التبرع والهبات، ولا تقل هبته في المرة الواحدة عن ألف دينار فما فوقها[2] وكذلك فعل عبد الله بن عصرون حيث بنى مدرستين في دمشق وحلب، وكذلك فعل نجم الدين يوسف والد صلاح الدين حيث بنى خانقاه تُعرف بالنجمية[3]. وعلى هذا المنهاج سار بقية رجال الحكم والإدارة، وحذت حذوهم نساؤهم. من ذلك ما فعلته الست خاتون عصمت الدين زوجة نور الدين حيث أوقفت «الخاتونية» بمحلة حجر الذهب وخانقاه خاتون باب النصر، وأوقافاً كثيرة أخرى ومثلها زمرد خاتون بنت جاولي[4].

6 ـ توفر الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة:

تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحرمات العامة، كحرية الرأي المنضبطة والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا، فلم أر فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه، وإنعام يسديه. فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف في بيت واحد[5]. وإلى جانب ذلك امتازت الأجواء العامة بحرية الرأي، فكان كل إنسان يقول رأيه دون خوف من التعرض للأذى أو الانتقاد حتى لو كان النقد موجهاً لنور الدين بالرغم من استعمال البعض لأساليب قاسية محرجة ولقد أورد المؤرخون الإسلاميون أمثلة عديدة لمواقف نور الدين التي تكشف عن أنه كان يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت حدته وينظر في كلام الناقدين فإذا رأى فيه ما ينفع سارع إلى الأخذ به وقد مرّ معنا كلام الواعظ أبي عثمان

---

(1) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص: 391.
(2) طبقات الشافعية (6/ 117، 119).
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 268.
(4) المصدر نفسه، ص: 269.
(5) التاريخ الباهر نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 270.

المنتخب بن أبي محمد الواسطي، وكيف تناول موضوع الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه فحذّره وخوّفه مما هو فيه، وأنشد أمامه أبيات من الشعر[1] مرّ ذكرها إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة في الحركات الإسلامية والدول من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى، ولقد عرّف بعض الباحثين التخطيط بأنه: جسر الحاضر والمستقبل[2]. إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا فإن الإداري المسلم يكون قد عرف التخطيط؛ لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك في آيات كثيرة. قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 77]. إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة[3].

إن نور الدين محمود رجل عاش مع كتاب الله، وعرف من قصة يوسف وغيرها أهمية التخطيط والإدارة، ولذلك نجحت إدارته، فقد أدرك الملك العادل أن الإسلام لا يقوم على التخمين والتواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها، فقد عرف أن من ثمار حسن إدارة يوسف عليه السلام وتخطيطه أنه حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء. والتخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما: التنبؤ والأهداف، وأما العناصر فهي: السياسات، والوسائل والأدوات، والموارد البشرية، والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية التقديرية[4]. إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق، وهذا عين الذي زاوله الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والجهادي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي كل ذلك في ذهنه قد أعد إعداداً كافياً. وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله تعالى. إن الاهتمام بالفكر الإسلامي وأصوله وقواعده وفق التصور الإسلامي الصحيح من الأسباب المهمة التي مارسها نور الدين محمود وساعدته على إنجاح مشروعه النهضوي الكبير.

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 273.

(2) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 277.

(3) المصدر نفسه، ص: 277.

(4) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص: 415، 416.

المبحث الخامس
النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية

أولاً: مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية:

ثمة سؤال يفرض نفسه قبل الحديث عن هذا الموضوع، فنور الدين محمود أنفق مقادير كبيرة من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المتشعبة الواسعة، وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقدية أكبر منها حجما كانت تنصب في خزائن الدولة ضرائب ومؤناً ورسوماً ومكوساً، فمن أين كانت دولة نور الدين تحظى بموردها الدائم الذي يحميها من العجز، وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير بإسقاط المكوس والضرائب، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية دون أن يصيبها الخلل فتوقف ـ على الأقل ـ عن العطاء إن لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد الفتق، واستعادة التوازن والقدرة على العمل؟ إن دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال وبشكل دائم لما واصلت سياستها تلك حتى آخر لحظة، ولما وصفها العماد بأنها كانت: نافذة الأوامر منتظمة الأمور[1]. وقد كانت خزائن الدولة تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرةعلى الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي وغيرها بسبب سياسة نور الدين الحكيمة وإليك شيء من التفصيل:

1 ـ نظام القطاع الحربي:

اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي للصرف على جيوشهم خلال جهادهم ضد الصليبيين، فقد نشأ نظام الإقطاع الحربي في الشرق الإسلامي في الدولة السلجوقية التي كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات التي تصرف للجيش، إلى تفكير الوزير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية، بالإقطاعات من الأراضي لمختلف عناصر الجيش[2]، وقد انتقل نظام الإقطاع الحربي كاملاً إلى الدولة الزنكية التي نبتت وترعرعت في أحضان السلاجقة، ثم

---

(1) نور الدين محمود، ص: 119، 120 البرق، ص: 147.

(2) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن، عماد الدين وابنه، ص: 26، نقلاً عن جيش مصر، حسان سعداوي، ص: 1، 2.

ورثتهم بعد ذلك[1]. وقد ارتبط الإقطاع الحربي في عصر الزنكيين بالخدمة الحربية، إذ كان الأمير المقطع يلزم بتقديم العساكر وقت الحرب مجهزة بكامل عتادها وعدتها، وكان إقطاعاً وراثياً، أي أن إقطاع الأمير أو الجندي يمنح بعد وفاته لأولاده[2]، وفي حالة صغر سن الابن كان السلطان يعين من يدير الإقطاع حتى يبلغ سن الرشد، ومنح الإقطاع بواسطة السلطان لم يكن معناه تمليك الأراضي الزراعية للمقطع، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بمتحصلات الإقطاع لفترة طويلة، بل كان يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه وأجناده مجموعة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية العسكرية التي كان المقطع ملزماً بها[3]، والملاحظ أن توزيع الإقطاعات الحربية على الأمراء والأجناد في العهد الزنكي شمل كل البلاد التي تمكن عماد الدين، وابنه نور الدين من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية آنذاك والأدلة على ذلك كثيرة منها أنه عندما لجأ نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه إلى الموصل، رحب بهما زنكي وأقطعهما الإقطاعات في شهرزور بشمال العراق ثم خص أسد الدين بالمؤزر[4] وأقطع الأمير جاولى الرحبة وأعمالها[5] وسار نور الدين محمود على نهج والده في توزيع الاقطاعات الحربية، فعندما استولى على دمشق سنة (549هـ/ 1154م)، اقطع صاحبها مجير الدين ضياعاً بحمص عوضاً عن دمشق، كما أقطع شهاب الدين على بن مالك العقيلي سروج والملاحظة والباب وبزاغة[6] وأقطع في سنة (563هـ/ 1167م) مجد الدين أبا بكر ابن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر، ثم أقرها بعد وفاته سنة (565هـ/ 1169م) في يد أخيه علي ابن الداية، وأقطع نور الدين مسعود بن الزعفران حمص وحماة، وقلعة بعرين وسلمية، وتل خالد والرها[7]، كما أقطع أمراء العراق الإقطاعات لحفظ طريق الحاج بين الشام والحجاز، ولمثل هذا الهدف اقطع أمير مكة إقطاعاً وافراً[8]، وشمل الإقطاع الحربي في عهد نور الدين الأراضي المصرية، من ذلك ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن نور الدين عندما سمع بأن بعض أمرائه في مصر تردد في محاربة الفاطميين والصليبيين عند البابين في صعيد مصر، هددهم بأخذ

---

(1) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين وعماد الدين وابنه، ص: 26.
(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 27.
(3) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 27.
(4) مفرج الكروب (1/ 3، 6) النجوم الزاهرة (5/ 277).
(5) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 27.
(6) مفرج الكروب (1/ 3، 6) النجوم الزاهرة (5/ 277).
(7) كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 28.
(8) مقومات حركة الجهاد، ص: 28.

إقطاعاتهم وإعادة الموارد التي أخذوها منها[1]، واتبع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود أساليب عدة لتوزيع الاقطاعات الحربية على أمرائهما وأجنادهما. منها ما كان الغرض منه استمالة الحكام المسلمين بهدف توحيد الجبهة الإسلامية، ومن ذلك أن عماد الدين عندما عزم في سنة (540هـ/ 1145م) الاستيلاء على قطعة جعبر وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، لما رأى حصانتها كتب إلى عز الدين علي بن مالك في معنى تسليمها، وفوض عماد الدين حسان المنبجي أن يضمن لعلي بن مالك الإقطاع الوافر، والعطاء الكثير مقابل التسليم[2]، ومن ذلك أيضاً ما ذكر أن نور الدين عندما حاصر دمشق سنة (549هـ/ 1154م) وأدرك صاحبها مجير الدين آبق عدم جدوى المقاومة احتمى بقلعة دمشق ساعات، ثم استسلم فأطلق نور الدين سراحه وأقطعه عوضاً عن دمشق حمص وأعمالها[3]. كما منح الاقطاع في العهد الزنكي للأمراء والأجناد كمكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة سواء في مرحلة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة، أو أبان مراحل جهادهم ضد الصليبيين، من ذلك ما ذكره ابن الأثير أن عماد الدين عندما ملك بعض ديار بكر سنة (538هـ/ 1143م): رتب أمور الجميع وجعل فيها من الأجناد من يحفظها[4].

ومن خصائص الإقطاع الزنكي انتقاله من مقطع إلى آخر عن طريق الوراثة أو غيرها، فتشير المصادر إلى أن عماد الدين زنكي قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم الياروق، وأسكنهم بحلب وأعمالها وأمرهم بجهاد الصليبيين، وأعطاهم كل ما استنقذوه منهم، ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى نحو سنة ستمائة[5]، وقد سار نور الدين على نهج أبيه يدلنا على ذلك قول ابن واصل أن نور الدين كان من آرائه الحسنة ما يعتمده من أمر أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ذكراً أقر عليه إقطاعه[6]، ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة (558هـ/ 1162) عندما هزم جيش نور الدين في هذه السنة أمام الصليبيين بالقرب من حصن الأكراد في المعركة المعروفة: بالوقيعة، حيث أصدر نور الدين أوامره بإحضار الأموال والدواب والأسلحة والخيام من دمشق، وفرق ذلك على من سلم من عسكره ومن قتل أعطى اقطاعه لأولاده[7].

---

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 29.

(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 282 ، 285، الباهر، ص: 74، 75.

(3) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 30.

(4) الباهر، ص: 66 ، مقومات حركة الجهاد، ص: 30.

(5) الباهر، ص: 80 مقومات حركة الجهاد، ص: 31.

(6) مفرج الكروب، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 31.

(7) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 31.

وأما انتقال الإقطاع من مقطع إلى آخر من غير وراثة والذي يحدث غالباً إذا تقاعس المقطع عن أداء واجبه أو متى بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية، يدلنا على ذلك ما حدث سنة (562هـ/ 1117م) عندما اختبر أسد الدين شيركوه رجاله لمعرفة ما يمكن أن يقدموه إذا اشتبكوا مع الصليبيين والفاطميين في مصر، فأبدى بعضهم تخوفه من ذلك حيث صاح فيهم أحد أمراء نور الدين والذي كان مرافقاً لشيركوه قائلاً: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عُدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من اقطاع وجامكيه، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه مُنذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار[1]. ويظهر من خلال هذا العرض أنه كان على المقطع في مقابل الموارد المتحصلة من الاقطاع مجموعة من الالتزامات كان يؤديها للسلطان وهي في المرتبة الأولى التزامات حربية املتها ظروف الجهاد الذي اتصف به عصر الأسرة الزنكية ـ شملت تقديم العساكر وقت الحرب، فكان المقطع مسؤولاً مسؤولية كاملة عن نفقات عساكره، إذ كان عليه أن يخرج بهم إلى ساحات القتال مزودين بكل مستلزماته من مؤنٍ وعتاد ودواب وغيرها، فضلاً عما يتبع ذلك من تدريبات عسكرية فردية وجماعية لجيشه من أساليب القتال المعروفة آنذاك[2]، وإلى جانب ذلك كان على المقطع الاضطلاع بحماية اقطاعه من أي اعتداء خارجي، وفي ذات الوقت القيام بمراقبة تحركات الأعداء وتنفيذ بعض الأعمال الحربية ضد مراكزهم[3]، وصفوة القول فإن نظام الاقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع متى قصر في شيء منها كان كفيلاً بإخلاص الأمراء والجند واستماتتهم في أداء واجب الجهاد في سبيل الله وتحقيق المزيد من الانتصارات ضد أعداء الإسلام والتوسع في الفتوحات لجعل كلمة الله هي العليا، خاصة وأن الزنكيين كانوا حريصين على تحري الدقة في توزيع الإقطاعات على أمرائهم وأجنادهم يخصون بها المخلصين منهم، يدلنا على هذا ما ذكرته[4]، بعض المصادر من أن عماد الدين زنكي كان يقطع بلاده لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم[5]. وعلى هذا النهج سار الملك العادل نور الدين محمود الشهيد.

2 ـ الزكاة والخراج والجزية:

تشكل الزكاة والخراج والجزية جزء مهم من موارد الدولة وتؤخذ حسب أحكام الشريعة الإسلامية، فالزكاة ركن من أركان الدين الإسلامي لا يكمل إسلام المسلم وإيمانه إلا

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 32.
(2) مقومات حركة الجهاد، ص: 32..
(3) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 33.
(4) المصدر نفسه، ص: 34.
(5) الباهر، ص: 37.

بتأديتها، ولذلك يقبل المسلمون على تأديتها من باب الحرص على دينهم دونما إكراه من الدولة، وإن كان من حق الدولة إلزام من يمنعها من المسلمين بتأديتها؛ لأنها ركن من أركان الدين من حقوق المسلمين يجب على الدولة جمعها وتنظيم صرفها في مصالحهم وقد ثبت بالتجربة من خلال التاريخ الإسلامي في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز[1] أن الزكاة تساهم إلى حد كبير في سد نفقات الدولة، إذا كانت الدولة تُطبق الإسلام على حقيقته وكان نور الدين يحكم أرضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي وبكثرة ذميّيها ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الواجدين فيه يهرعون لتقديم زكاة أموالهم قبل أن ترغمهم الدولة على الدفع، فكانت هذه الموارد الثلاثة تشكل ضماناً ثابتاً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنها من العجز والإفلاس[2].

3 ـ الغنائم وفداء الأسرى:

كانت الغنائم تمثل بحق مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في (حالة حرب) مع الأعداء وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في أغلب الأحيان؛ يقول سبط ابن الجوزي على سبيل المثال: عاد نور الدين بعد فتح حارم (عام 559هـ) إلى حلب بالأسارى، ثم فادهم وكان قد استفتى الفقهاء فقال قوم: يقتل الجميع، وقال آخرون يفادي بهم، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار، معجلاً، وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفادة، وجميع ما وقفه منها، وليس فيها من بيت المال درهم واحد[3] ستمائة ألف دينار حصيلة معركة واحدة، فكيف سائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين والتي تغطي فترة حكمه من أقصاها إلى أقصاها؟ ثمة رواية أخرى فيها إشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المفاداة: وقع صاحب طرابلس أسير بيد نور الدين فأطلق سراحه لقاء ثلاثمائة ألف دينار ومائة وخمسين أسير من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي[4]. أما أبو شامة فإنه يطرح أرقاماً أخرى: مائة وخمسون ألف دينار، وفكاك ألف أسير من المسلمين[5]، ومهما كان الأمر فإن المبالغ النقدية والعينية المترتبة على فداء الأمير

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 190.
(2) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 121.
(3) مرآة الزمان (8/ 247، 248) نور الدين محمود، ص: 124.
(4) المنتظم (10/ 249) نور الدين محمود، ص: 124.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 124

الصليبي كانت كبيرة حقاً، فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الأقاليم التي فتحها كمصر واليمن وغيرها[1]، على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية، أدركنا كما كان واسعاً كبيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق النشاط الحربي[2].

4 ـ الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين

والتي آلت خزائنها العظيمة إلى نور الدين ـ لحسن الحظ ـ بدلاً من أخيه الأكبر سيف الدين غازي، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في قلعة سنجار على الطريق بين الموصل وحلب، فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام 544هـ وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب، فكانت كما يصفها كل من ابن الأثير، وابن العديم «كثيرة جداً»[3]، وأنها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال، وكان من بين الأخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب[4].

5 ـ الأمانة العظيمة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة:

تميز بأمانة عظيمة تجاه أموال الأمة والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص، وإن لنا أن نقدّر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع وموظفين لا يعرفون غير تنمية جيوبهم، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين وإن لنا أن نقدر ـ بالمقابل ـ ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وإيمانه والتزامه واختياره الدقيق لكبار موظفيه وحسابه الشديد معهم[5]، فقد سار على نهج عمر بن عبد العزيز، وعني بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم. والأغلب أن ذلك عوّض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين[6]، وما قيل عن عمر ينسحب بالضرورة على نور الدين[7]، كما أن وجود الحكومة الرشيدة التي كان يقودها نور الدين ساهم على تحقيق ما أراد، فقد اعتمد في إدارته لدولته الواسعة على حشد من العلماء والفقهاء المشهورين بالأمانة والاستقامة والكفاية، وكان أغلبهم قد مارس العمل مع الحكام والأمراء قبل العمل مع نور الدين، فاكتسب خبرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، فكان

---

(1) البرق، ص: 123، 124 نور الدين محمود، ص: 124.

(2) نور الدين محمود، ص: 124.

(3) زبدة الحلب (2/ 298) نور الدين محمود، ص: 124.

(4) الباهر، ص: 98 نور الدين محمود، ص: 125.

(5) نور الدين محمود، ص: 125.

(6) الدولة العربية وسقوطها، ص: 296 ترجمة عبد الهادي أبي ريدة.

(7) نور الدين محمود، ص: 125.

نور الدين يستشيرهم ويعقد لهم الاجتماعات لبحث الأمور الهامة[1]، وكان نور الدين يعتبر نفسه خازناً لأموال المسلمين يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط[2]، وألزم نوّابه ورجال دولته بهذا الفهم الذي يرقى إلى أعلى مستويات الأمانة والإحساس بالمسؤولية، وفرض رقابته الصارمة على بيت المال في مركز الدولة، وفي الولايات، ولم يتردد في محاسبة نوابه في الأقاليم إذا أحسّ منهم ميلاً للمحافظة في هذا المجال[3]، وأنزل عقوبة شديدة بأحد موظفيه بعد أن ثبت أنه استغل مركزه وأخذ من الأموال العامة فوق ما يستحق من راتبه[4]، قد مرّ ذكرها، ويكفي أن نتذكر حادثة المال الذي وجده في الخزينة ولم يكن يعلم عنه من قبل، فأمر برده إلى القاضي كمال الدين الذي كان قد أرسله لبيت المال ليرده إلى أصحابه[5]. لنعلم كم كان الرجل صارماً، ودقيقاً في مسألة الحلال والحرام فيما يتعلق بالأموال العامة، فحفظت وانعدم التسرّب منها إلى حد كبير إلى جيوب الولاة والموظفين[6].

لقد انتصر نور الدين على نفسه قبل أن يواجه أهله ورعيته بسياسته التقشفية، فاستطاع بإيمانه القوي أن يتجرّد من أهواء الدنيا ومغريات الملك، ومن مظاهر البذخ والترف التي كان يعيشها غيره من الحكام غير مبالين بما تعانيه خزينة الدولة بسبب ذلك، وألزم نفسه بالعيش المتواضع دون أن يفقد شيئاً من هيبة السلطان وقوة الحكم، بل كان كما قيل: «من شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما يحيُّره»[7]، فاقتدى به أهله وأمراؤه وقادته والتزموا البساطة في حياتهم، ثم انتقلت خصائله إلى العامة من الناس فكان لهذه السياسة أثرها البعيد في توفير الأموال التي كانت تهدر في مجالات اللهو والبذخ والترف، فصارت تصرف في وجوه الخير والمصلحة العامة[8].

6 ـ سيادة الأمن والاستقرار الداخلي:

كانت النزاعات والحروب بين الإمارات الإسلامية المتعددة في بلاد الشام قبل توحيدها تستهلك أغلب موارد هذه الإمارات، وتقضي على الأجواء المناسبة لاستغلال الأرض ورواج التجارة فيما بينها، فكانت الأوضاع الاقتصادية سيئة فلما توحّدت بلاد الشام كلها تحت زعامة نور الدين زالت أسباب التوتر والنزاع وساد الأمن والاستقرار على الجبهة الداخلية، وأصبحت

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 190.
(2) المصدر نفسه، ص: 190.
(3) المصدر نفسه، ص: 190.
(4) المصدر نفسه، ص: 190.
(5) المصدر نفسه، ص: 189.
(6) المصدر نفسه، ص: 189.
(7) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 189.
(8) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 189.

الجهود كلها موجهة نحو الخطر الخارجي المتمثل بالفرنجة الذين أصبحوا بفضل جهود نور الدين العسكرية في وضع دفاعي لا يشكلون خطراً مباشراً على المدن الإسلامية في بلاد الشام كما كانوا من قبل، فانصرف الناس إلى أعمالهم الزراعية والتجارية وهم مطمئنون، فتحسنت الأحوال الاقتصادية وكثر العمل، وكان من نتيجة ذلك كله زيادة مقادير الزكاة التي تشكل المورد الرئيسي لخزينة الدولة[1].

7 ـ مساهمة الأثرياء:

أثرت جهود نور الدين وقيادته الحكيمة في إيجاد مجتمع التكافل والتضامن في بلاد الشام، وصار التعاون والتراحم والمودة والمواساة سمات بارزة في المجتمع، وأخذ الأثرياء من أبناء الأمة يسارعون إلى أعمال الخير تأسياً بسلطانهم وطلباً للأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، فتمّ بناء الكثير من المدارس والمساجد ودور الأيتام من قبل القادة والأمراء والولاة وغيرهم من الأثرياء، حتى صارت هذه الأعمال من ظواهر المجتمع الدائمة، وامتدت بعد دولة نور الدين، واتسعت في زمن الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وما يهمنا هنا أن هذه المساهمات ساعدت في توفير الأموال لخزينة الدولة[2].

8 ـ المعاهدات والاتفاقات:

فقد شكلت المعاهدات والاتفاقات مورداً مالياً طيباً للدولة الزنكية ففي سنة (557هـ/ 1156م) سار نور الدين بقواته لمحاصرة حارم التابعة لإمارة أنطاكية، وجمع الصليبيون قواتهم لصده عنها، وكان في هذا الحصن رجل صليبي من دهاة الإفرنج، يرجعون إلى رأيه، نصحهم بمفاوضة نور الدين فوافق على ذلك مقابل أن يعطوه نصف أعمال حارم[3]، كما حدث سنة (559هـ/ 1163م) أن وافق نور الدين على إطلاق سراح بوهيمند سنة (1163 ـ 1201م) أمير أنطاكية بعد أن دفع فدية كبيرة، وتعهد أن يرسل مالاً كثيراً، وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين عنده، وفي السنة نفسها شاطر الصليبيين في أعمال طبرية، وقرروا له من المناطق التي يشاطرهم عليها، مالاً في كل[4] سنة.

9 ـ دعم الخليفة العباسي:

كان نور الدين يدين بالتبعية السياسية للخلافة العباسية السنية في بغداد فتحصل على

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 191.
(2) المصدر نفسه، ص: 191.
(3) مفرج الكروب (1/ 128) مقومات حركة الجهاد، ص: 35.
(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن مقومات حركة الجهاد، ص: 35.

إضفاء صفة الشرعية على قيام دولته والحصول على التأييد منها في أعماله الجهادية حرصاً على ما يبدو في ذات الوقت على طلب المساعدة المالية منها أحياناً، لدفع حركة الجهاد ضد الصليبيين، يدلنا على ذلك ما ذكر أن نور الدين محمود لم يتحرج في أن يطلب من الخليفة العباسي المستنجد بالله النفقات والأسلحة، لسد الكلمة ودفع الملمة على أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام سنة (565هـ/ 1169م)[1].

10 ـ سياسته الزراعية:

عهد نور الدين إلى اعتماد سياسة زراعية سليمة، كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية، في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم الاقتصاد، فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين والفلاحين من كافة صنوف الأذى، والتخريب، والعدوان التي كان يمكن أن تلحق كدهم من جراء حالة الحرب المستمرة، وتحرك الجيوش الدائم وتحوّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال لا تعرف طعم السلم إلا قليلاً.. وقد مر بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق طيلة الأربعينات كان يشدد على أصحابه وجنده ألّا يفسدوا المزارع والضياع والقرى وألّا يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق.. كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين، ونتذكر رواية ابن القلانسي: سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين فقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافاً أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع وإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم. وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والغربان بأن الفلاحين الذين أُخذت أموالهم، وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم[2]. وقد نجح نور الدين في كسب الفلاحين ومثلوا دعماً حربياً متجدداً للجيش النوري وساعدتهم الدولة على الاستفادة من إمكاناتهم المتميزة في مجال الزراعة، فقد امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة وتوافر مصادر الري سواء من الأنهار أو الأمطار، أو الينابيع، والآبار وحرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة، وقد أنتج القطاع الفلاحي العديد من المحاصيل الزراعية التي دخل بعضها في نطاق التصنيع مثل القطن وقصب السكر، والسمسم، والزيتون وغيرها[3].

---

(1) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 35.

(2) نورالدين محمود الرجل والتجربة، ص: 122.

(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 42.

11 ـ المجال الصناعي:

فقد امتازت الدولة النورية بتوفر المواد اللازمة للتصنيع، وكذلك العمال المهرة ووسائل النقل، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحرير خاصة ثياب الدمسك[1] والموسلين، وكذلك صناعات الورق، والزجاج وغيرها. ويلاحظ أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات في عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم حينذاك، وهي أن الآلات التي أمكن استخدامها لهم معقدة، ولم توجد المعدات التي يمكن أن تدار على طريق المعادن التي وجدت في بلاد الشام والجزيرة، وظلت الطاقة الأساسية متمثلة في حركة الماء لإدارة الطواحين، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس في بيروت والموصل ومناطق أخرى في صناعات ثقيلة بل إن استخدام الحديد انحصر في صناعة أدوات الطب[2] والجراحة، وكذلك الأسلحة وأيضاً في بعض أدوات الصناعة البسيطة، وهذا الوضع بالطبع حد من نمو حركة التصنيع، ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها في حركة التجارة الداخلية والخارجية النشطة، ولم تشأ استثماره في المجال الصناعي[3]، حيث رغبت في توظيفه في المجال الذي توارثته وسبرت أغواره، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقي في وسائل الإنتاج، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة، كذلك عدم توافر وعي صناعي للطبقة الوسطى التجارية، أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة في عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لا ثورة، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية[4].

12 ـ القطاع التجاري:

اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية وكذلك الخارجية واستطاعت التحكم في طرق التجارة في إقليم الجزيرة، وخاصة بعد استرداد الرها جعلها تتحكم في طرق التجارة التي تربط بين العراق وآسيا الصغرى من ناحية، وبلاد الشام من ناحية ثانية. كما أن سيطرة نور الدين بعد ذلك على الأراضي المصرية وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة بعد القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة سنة (567هـ/ 1171م) مكّنه من الاتصال بتجارة الهند والشرق عبر ممرين مائيين هما: الخليج العربي والبحر الأحمر[5]. وكانت العشور يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة النورية سواء الداخلية أو الخارجة منها، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركيّة في العصر الحاضر، ويقوم

---

(1) الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 43.
(2) سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ص: 159.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية، ص: 43.
(4) المصدر نفسه، ص: 43.
(5) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين، ص: 37.

بتحصيلها موظف يقال له: (العاشر) أي: الذي يأخذ العشور[1]، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وخليفته الأوَّل أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأنَّ تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل نشره، وبناء الدولة الإسلاميَّة، فلما اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر رضي الله عنه وامتدَّت حدودها شرقاً وغرباً وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة ضرورة تمليها المصلحة العامَّة، ورأى الخليفة عمر رضي الله عنه أن يفرض تلك الضَّريبة على الوارد إلى دار الإسلام، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجَّار المسلمين القادمين إلى بلادهم، معاملة بالمثل[2]، وقد أجمع المؤرّخون[3] أن أوَّل من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب[4] رضي الله عنه .

اهتمت الدولة الزنكية بالحركة التجارية وإقامة العدد من المؤسسات التجارية مثل الخانات[5]، والفنادق[6]، وأورد ابن عساكر العديد منها في مدينة دمشق، كذلك شجعت التجار اليهود على المشاركة في النهضة التجارية التي شهدتها البلاد، وقد استقروا في مناطق خطوط التجارة العالمية المارة بمدن الشام والجزيرة الكبرى مثل: دمشق وحلب، وشيزر، ومعرة النعمان، والموصل وغيرها، ففي دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة وعرفت حارة باسمهم[7]. وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلآف وَوُصِفُوا بأن منهم «ذوو اليسار»[8]، أي أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة وكذلك وجدوا مجالاً متسعاً في أعمال الصيارفة[9].

وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية في عالم البحر المتوسط، فهناك الإمبراطورية البيزنطية، والقوى التجارية الإيطالية مثل: جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفي[10]، وتمكن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام والجزيرة، وأقام قناصلهم في المدن الشامية والجزرية مثل: حلب، ودمشق، والموصل

---

(1) الخراج لأبي يوسف، ص: 271، اقتصاديات الحرب، ص: 223.
(2) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: 327.
(3) سياسة المال في الإسلام، ص: 128.
(4) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: 327.
(5) الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان (1/ 234).
(6) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 44.
(7) خطط مدينة دمشق ضمن كتاب ابن عساكر، ص: 109 عبد القادر ريحاني.
(8) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 45.
(9) المصدر نفسه، ص: 45.
(10) المصدر نفسه، ص: 45.

وغيرها، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية[1] ولا مراء في أن ذلك العهد قد شهد صحوة للطبقة الوسطى التجارية يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار في العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري المتخصص فهناك الخزانون ثم الركاضون، والمجهزون[2]، ويكشف لنا الدمشقي المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم كذلك ظهرت عدة أُسر تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرحبي ت 632هـ/ 1234م الذي عاصر نور الدين محمود، فقد ترك أبناء لهم اشتغال جيد في هذا الفن[3]،، ووجدت في حلب بيوت قديمة معروفة بالثروة[4]، يتوارثونها وطبيعي أنها نجمت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع. يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موجودة من قبل[5]، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام[6]،، وانطبق ذلك على بلاد الشام والجزيرة، حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية، وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية حيث جبيت فيها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق[7]، ويبدو أن الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الاستراتيجية ولم تنشأ أن تجعلها في أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها، وتزايد ثرواتها على حساب احتياجاتها، واحتياج السوق الشامي واستقراره، ويبدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد والأخشاب والقار وهكذا فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد، ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ووقع ذلك في عام 567هـ فقال:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عوضت مصر فيها من النشب[8]،

إن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي غنمت أكثر واستفادت بعد الفتوحات ونصرة الإسلام من نشاطها التجاري إذ اخضعت تجارة شمال الشمال ومرت بها الطرق

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 45.

(2) الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي، تحقيق الشوربجي، ص: 74، 75.

(3) تاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص: 217.

(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 46.

(5) تاريخ التجارة، ص: 191.

(6) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارات، ص: 202.

(7) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص: 46.

(8) الخريدة، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 47.

التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا في أوروبا، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام وأيضاً القادمة من دمشق، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، ومر بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال إفريقيا إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجاري، وأنها مثلت حركة اتصال مؤثرة وحيوية بين تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة، وتجارة الإقليمَين المتجاورين بصفة عامة[1]، ويلاحظ أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي ساهمت في إحكام قبضتها على قسم حيوي من البحر المتوسط، ومن المؤكد فقد تمكنت من إخضاع الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب، ولا نغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقة وجبل نفوسة، قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الإفريقي خاصة تجارة الذهب والرقيق وهما عصب تجارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، المحطات البحرية مثل: عيذاب على البحر الأحمر، ودمياط والإسكندرية على البحر المتوسط، أدركنا كم كان على كافة القوافل المارة عبر كافة تلك الطرق والمحطات التجارية المذكورة، ولا مراء في أن خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسعية[2]، وقد تمكنت الدولة النورية من فتح أسواق جديدة في كافة المناطق التي أخضعتها لسيطرتها السياسية[3].

أ ـ مبدأ التخصص في التجارة الخارجية: شهدت التجارة في عهد تلك الدولة تطوراً مهماً من جراء التوسع الخارجي، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بحلب ـ قلب تجارة شمال الشام ـ صار هناك مبدأ التخصص في التجارة الخارجية، وفي قطاعات إقليمية منسَّقة وموزعة بين قسم من غربي قارة آسيا والشمال الأفريقي، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ثلاث محاور:

ـ المحور الأول: المتاجرة مع الكيان الصليبي، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليس لها موانيء على الساحل الشامي، وحيث أن تلك الموانيء خضعت للسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجاري بين تلك الدول والأسواق التجارية الدولية، التي استهلكت منتجاتها ألتجارية مثل الإمبراطورية البيزنطية وجنوب أوروبا وغربها، ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناء تجارياً لدمشق، وكذلك كان

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 238.
(2) المصدر نفسه، ص: 238.
(3) المصدر نفسه، ص: 239.

ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كل من حماه وحمص، ولا نغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل: مدن جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفي، دورها في دعم النشاط التجاري الصليبي[1].

ـ **المحور الثاني**: تجارة التوابل فقد نهض بأمرها الكارمية، فقد احتلت أهمية كبيرة في ميزانية الدولة، ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية، قد تأتي لها بعد أن سيطرت على مصر وقضت على النفوذ الفاطمي بها، واحتاج الأوروبيون على نطاق متسع لتلك التوابل التي حددها لويبز بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة في الزينة والعطور، والعقاقير، والصيانة الكيماوية، والطهو[2].

ـ **المحور الثالث**: تجارة الرقيق والذهب من بلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، فقد مثلت أهمية بالغة للدولة النورية، وقد تهيأ لها أن تشارك في تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدت سيطرتها السياسية إلى مصر، وأمنتها بالسيطرة على برقة، وجبل نفوسة[3] بطرابلس، وكذلك بإحكام قبضتها على النوبة، أما تجارة الرقيق فكانت لها أهمية خاصّة[4] وازدهرت تجارة الذهب مع إفريقيا وعبر الصحراء الكبرى، وغنمت من وراء ذلك غنائم عظيمة، ولكن ينبغي أن نُدرك أن امتدادها إلى تلك الحدود جاء متأخراً أي بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر عام (567هـ/ 1171م) وبالتحديد قبل ثلاث سنوات من وفاة نور الدين محمود نفسه[5].

ب ـ **التجارة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس**: لم تقطع الدولة النورية مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما التجارة، بل إن القوافل استمرت تتردد بين الجانبين، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسي، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة ومن المرجح أن الإزدهار التجاري الذي شهده ميناء عكا بالذات يرجع ـ في أحد أسبابه ـ إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذ اعتبر أحد الموانيء الرئيسية الهامة لتصريف تلك الدولة، وقد أثرت سياسة التوسع النورية والتداخل الذي جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبي على المستوى التجاري، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية إذ أنها لكي تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبع الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل[6]، كما كان

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 240.
(2) المصدر نفسه، ص: 241.
(3) تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، ص: 69.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 241.
(5) المصدر نفسه، ص: 244.
(6) مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق، ص: 124.

الصليبيون في حاجة إلى استعمال نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصوري وتم استخدامه في التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق، وقد شابه البيزنت البيزنطي وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً في كافة أنحاء بلاد الشام[1]، ويلاحظ أن الهدنات التي عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثرها الفعال على التبادل التجاري بين الجانبين، إذ توقفت عند ذلك المعارك ووجد التجار فرصة سانحة لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب[2]، وأما الإمارات الصليبية فقد أفادت ـ شأنها في ذلك شأن المملكة اللاتينية نفسها ـ من المتاجرة مع الدولة النورية[3].

ج ـ **مكانة التجار عند نور الدين زنكي**: تجدر الإشارة أن الدولة النورية حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة، ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة ولاسيما الأخيرة، ومما ساعد على التعاون بين التجار ودولة نور الدين أن مصالحهما ألتقت مع بعضهما، فعندما سقطت دمشق في قبضة نور الدين محمود عام (549هـ/ 1154م) وبصورة غير دموية ودون جهد عسكري ضخم، مَثَّلَ دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهينة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، ومن الأمور ذات الدلالة: أن نور الدين عندما دخل المدينة، حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة[4]، وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية[5].

13 ـ إلغاء الضرائب:

أدرك نور الدين محمود أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن والأمثل: لن يستكمل أبعاده إلّا من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لا يبقى هناك ظالم أو مظلوم، وكان موقفه الفعال ينطلق من الرؤية الإسلامية

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 247.
(2) المصدر نفسه، ص: 247.
(3) المصدر نفسه، ص: 248.
(4) اذيل تاريخ دمشق، ص: 328، 329.
(5) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 255.

الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ، وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير المواطنين، وتقديم أوسع الخدمات لهم، وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي، وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسّع الضرائبي السالب، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات، ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماماً، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتاح، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته، وكان يحوط هذا التحرك ـ الذي أخذ يتصاعد بمرور الزمن ـ برقابة صارمة على أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء، كما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة، من أجل تفهم واقعها المرير ودفعها إلى مستوى الكفاية يستند في ذلك كله على قدر من السياسات والموارد، كانت قديرة على تغطية متطلبات العطاء الواسعة التي نفذتها دولته الراشدة[1]، كانت الضرائب في عصر نور الدين تتزايد مع الزمن حتى أن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكسباً يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها، وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما ينفقون به، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبي أضعافه من الناس[2]. في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب بعد ـ ولا شك ـ كانت تثير استغراب الكثير من أبناء ذلك الجيل، وهي خطوة إيجابية في طريق العدل الاجتماعي، وأخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه منُذ فترة مبكرة، وكان حيناً بعد حين ـ يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللا شرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين، والتي كان لا يزال العديد من الحكام والأمراء الذين عاصروه يعتمدونها، وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها[3]. وهذا يؤكد ما قال الدكتور عماد الدين خليل: بأن إجراءاته الضرائبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحقيق العدل الاجتماعي

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 94.
(2) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص: 402.
(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 95.

وكان ينتهز الفرص المناسبة كفتح من الفتوح، أو انتصار من الانتصارات، أو حادث من الأحداث أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرّد والعطاء[1].

أ ـ في دمشق عام 549هـ: عندما دخل دمشق عام 549هـ أصدر منشوراً بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق: دور البطيخ، سوق الخيل، سوق البقل، ضمان الأنهار[2]، سوق الغنم، الكيالة.. وغيرها. وقرىء المنشور على المنبر فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس والفلاحين والحرم والمتعيشين برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه.

ب ـ في عام 552هـ عندما دخل شيزر أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم أنحاء دولته وجاوز المائة والخمسين ألف دينار، وقد جاء فيه: هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعاية ـ رعاهم الله ـ لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار ـ أبادهم الله تعالى ـ إلخ، ثم يعرض من المنشور بعد هذه المقدمة قائمة بالمواقع التي شملها الإلغاء والمبالغ التي أعفيت من دفعها[3].

ج ـ في الموصل عام 566هـ: عندما دخل الموصل عام (566هـ) لم يشأ إلا أن يسقط عن أهليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل ذلك أيضاً عدداً من المدن الجزرية كالخابور ونصيبين وغيرهما، وأصدر بذلك منشورات من إنشاء العماد الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت، وحقاً للحرام الحقيق بالمقت.. وتقدمنا بإسقاط كل مكسٍ وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً.. وهذا حق الله قضيناه، وواجب علينا أديناه[4].

د ـ في مصر عام 566هـ: فقد رفع صلاح الدين في مصر في عام 566هـ، جميع

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 95.

(2) أي احتكار توزيع الماء للري والشرب.

(3) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 96، نقلاً عن كتاب الروضتين.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 98.

المكوس صادرها وواردها جليلها وحقيرها[1]. ويبين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينار: فأطلقها نور الدين، وهذا لم تتسع له نفس غيره[2]، ويؤكد ابن العديم أن عام 567هـ شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين لإسقاط المظالم والمكوس[3].

س ـ وفي عام 569هـ ـ السنة التي توفي فيها نور الدين ـ قام بحملة تطهير أخرى للضرائب فأسقط ما أطلق عليه «فريضة الأتبان» في بلاد الشام، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني. وقد أطلع أبو شامة على نسخة المنشور، وعلامته بخط نور الدين «الحمد لله»، ومما جاء فيه: وبعد، فإن من سنتنا العادلة وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم وما نزال نجدّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ونصفُها من الشبهة والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله[4] تعالى، ويلخص العماد الأصفهاني الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب سوى الجزية والخراج. . وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج[5] وقد مرّ الحديث عن إلغاء المكوس مفصلاً عند حديثنا عن العدل في دولة نور الدين محمود، إن نور الدين محمود في سياسته الاجتماعية والمالية يظهر حرصه العجيب على الأموال العامة وأموال الأمة، التي هي حصيلة كدّها ودمعها وعرقها، سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس أم عامة في أيدي الدولة.

و ـ حمايته للرعية من جشع التجار: كان رحمه الله حريصاً على حماية الرعية من أي مظالم قد تقع عليهم، ويوماً حضر إليه جماعة من التجار وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار) كان كل ستين منها بدينار فصار سبعة وستون دينار، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة والنقصان مما يلحق بهم الكثير من الخسائر وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس، فسكت وقتاً طويلاً ثم قال: إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد منهم عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، إيش يعمل بها، فيكون ذلك سبباً لخراب بيته، ورفض من ثم الاستجابة لمطالب التجار[6].

---

(1) الباهر، ص: 166، نورالدين محمود، ص: 98.
(2) نور الدين محمود، ص: 99.
(3) البرق، ص: 143، نور الدين محمود، ص: 102.
(4) المصدر نفسه.
(5) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 103.
(6) الكواكب، ص: 24، نور الدين محمود، ص: 105.

ز ـ الأموال التي خلفها أمير شيزر: وعندما دخل شيزر عام 552هـ بعد أن خربتها الزلازل ـ لم يكن لينسى أن هنالك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق، وأن عليه المطالبة به والبحث عنه لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة، ويذكر ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال وهددها، وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم وأنها لا تعلم شيئاً، وإن كان ثمة شيء فهو تحت الأنقاض[1]، ولا ندري إن كان المال قد عثر عليه أم لا؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه[2].

ح ـ خراج معرة النعمان: ويحدثنا أبو طاهر الحمدي الفقيه: كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق وقد أخرج جريدة (سجلّ) خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى أهلها فقال: رفع إليّ الخبر من الثقات أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة، فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك ويشهد له هذا في دعوى أخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق، وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر، ثم استعادها المسلمون مما سَبَّبَ ضياع المستندات الخاصة بالملكية، فقلت له: أيها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستمدّ تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لا يجوز !! فأطرق نور الدين وقتاً طويلاً ثم قال: إني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك، والتفت إلى كاتبه قائلاً: أكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك[3].

ط ـ اختيار أصحاب الأمانة في الإشراف على المشاريع: عندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام (566هـ) وليكون مسجداً جامعاً للمصلِّين ومدرسة كبيرة للدارسين، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولى أمر الإشراف على بنائه، لا سيما وأنه عائد إلى حلب، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة، وإنما بحث عن المشرف الأمين الذي يطمئن إليه، فكان عمر الملأ الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون، ويحدثنا العماد الأصفهاني شاهد العيان عن الرجل فيقول: إنما سُمي بذلك؛ لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوى بها، وكان يهب كل ما يصل إليه ولا يستبقي لنفسه شيئاً، وكان العلماء والفقهاء والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، وكان نور الدين من أخصّ محبيه، ويستشيره

(1) زبدة الحلب (2/ 307)، نور الدين محمود، ص: 105.

(2) نور الدين محمود، ص: 105.

(3) الكواكب، ص: 71، نور الدين محمود، ص: 106.

في حضوره ويكاتبه في مصالح دولته[1]. هذا وقد أُنفقت على الجامع الكبير أموال كثيرة، واشترى عمر الملاء الأملاك المحيطة به من أصحابها بأوفر الأثمان، وعندما تم إنشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام (568هـ) تقدم إليه عمر الملأ بدفاتر الحسابات التي تضمنت تفاصيل الصرف بدقة بالغة، رفض نور الدين تدقيقها لثقته العميقة بنزاهة الرجل.. عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة فاستراح إلى النتيجة[2].

المحاسبة الدقيقة لعمال الزكاة:

وحكى معين الدين محمد حفيد القيسراني وزير نور الدين الشهيد قال: انكسر ضامن دار الزكاة المعروف: بابن شمام مال جمّ، فحبس، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية آلاف دينار وحمله إلى الخزانة، ولكنه بقي في الحبس مطالباً بما بقي في ذمته[3].

هذه الخطوط العريضة في مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية الرشيدة، من نظام القطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، والأمانة التي تميز بها وحكومته الرشيدة، وأهمية سيادة الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية، ومساهمة الأثرياء، والمعاهدات والاتفاقات التي يترتب عليها امتيازات مالية، ودعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وسياسة نور الدين الزراعية، والصناعية والتجارية وغير ذلك من سياسته الاقتصادية الحكيمة التي ساهمت في دعم دولة الجهاد وتحقيق أهدافها.

إن من أسباب النهوض التي أخذ بها نور الدين الاهتمام بالجانب الاقتصادي؛ لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يقهر ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على القادة المهتمين بأمر نهوض الأمة أن يعتمدوا على الذات في موارد ثابتة، وهذا عامل مهم من عوامل النهوض.

إن حاجات مشروع نهوض الأمة متعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، والمطلوب من الحركات الإسلامية والحكومات كذلك أن من رجالها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاق الإسلام في التعاملات التجارية، وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم مع

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 106.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن نور الدين محمود، ص: 106.

(3) مفرج الكروب (1/ 19)، نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 106.

إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين، لإيجاد شبكات للتعاون المثمر لمقارعة الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية، وبذل ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلامي على الأسواق العالمية وتوظيفه لخدمة المشروع الإسلامي. من تحرير شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالي الدخيل والشيوعي[1].

إن التاجر المسلم في المفهوم الإسلامي الأصيل من صناع الحياة، بل هم صناع الصناع، يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في هذا الصدد: وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية[2]. وطلب في كتابه: (صناعة الحياة) من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق، لأن في ذلك مردود دعوي، وذكر اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق، ونحن لا نجيد إلا سبهم، ونضجر من المارون والأقباط والبهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزماً، وبمساعدة قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبِّهم وشتمهم. إلى أن قال: ولا بد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد والتصدير وبخاصة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فيها ظلم، وفي العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار[3].

إن نور الدين محمود اهتم بالقوة الاقتصادية وجعلها في خدمة الأمة والدعوة وسياسة الدولة وقادة الفكر، ودعّم بها مشروعه النهضوي.

ثانياً: سياسة الإنفاق في الخدمات الاجتماعية:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل وانتهاء بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق: كالمارستانات والملاجىء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث، والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار.. وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 288.
(2) صناعة الحياة، ص: 46.
(3) المصدر نفسه، ص: 46، 47.

(الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة[1]. كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز، لا أداة قسر واستنزاف[2]، فزمانه كما يقول أبو شامة: مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم[3].

1 ـ المجال الصحي (المستشفيات):

اهتم نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات) وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية وتعتبر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م) هو أوّل من بنى البيمارستانات الثابتة في الإسلام كما بينا في كتابنا: «الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار» فإن الملك العادل نور الدين محمود وخلفاؤه من البيت الأيوبي هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين واهتموا بدراسة الطب وممارسته اهتماماً بالغاً وقاية لبلادهم من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمود إحدى مراكز تدريس الطب في بلاد الشام، وكان ميدان ذلك البيمارستان النوري الذي كان يؤدي رسالة علمية لها أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية وهي علاج المرضى ومتابعتهم[4].

أ ـ البيمارستان النوري: قال ابن الشحنة: إن الملك نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء[5]. وقال الغزيّ: هو لصيق البهرامِيّة من جنوبها الشرقي بناه نور الدين محمود زنكي[6]. وقد ذكر ابن الشحنة أن الملك نور الدين حينما أراد بناء هذه البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة، تكون صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذبحوا خروفاً وقطّعوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلمّا أصبحوا وجدوا أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا

---

(1) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 111.
(2) المصدر نفسه، ص: 112.
(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 112.
(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 412.
(5) الدّر المنتخب، ص: 230، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 412.
(6) نهر الذهب (2/ 64)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 412.

الموقع، فبنوا البيمارستان[1] فيه وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء[2].

ويقع هذا البيمارستان حالياً في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حالياً بزقاق البهراميّة[3]، وقد وجد مكتوباً عند باب البيمارستان: بسم الله الرحمٰن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قِسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محيي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة المشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته[4]، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان: قرية معراشا، ونصف مزرعة وادي العسل من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا، وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها من المُطخ، وثُمن طاحون غربية طاهر باب الجنان وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مَدَايا من عزاز، وخمسة أفدنة بمزرعة الحميرة المُطخ، اثني عشر فداناً من مزرعة الغرزل من المعرّة، وثلث قرية بيت راغِل من الغربيّات وعشرة دكاكين بسُوق الهواء منها ثلاثة تمام والباقي شركة الجامع الكبير، وأحكار ظاهر باب أنطاكية، وباب الفرج وباب الجِنان[5]، وكثرة هذه الأوقاف تدل على مقدار المال الوفير الذي تدرّه هذه الأوقاف لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير[6]، وقد أشار محمد كرد إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان تشمل على كثير من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان[7]، مما يؤكد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها[8].

ب ـ البيمارستان النوري في دمشق: ينسب هذا البيمارستان للملك نور الدين محمود زنكي قال عنه ابن الأثير: وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير[9]، وذكر أبو شامة أن لأصل بنائه قصة عجيبة وهي: أن نور الدين رَحِمَهُ اللهُ وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.

(3) أخبار حلب وأسواقها، خير الدين الأسدي، ص: 167.

(4) نهر الذهب (2/ 65، 66)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.

(5) الدر المنتخب، ص: 231، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 413.

(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 414.

(7) خطط الشام (6/ 187)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 414.

(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 414.

(9) التاريخ الباهر، ص: 170، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 456.

نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نور الدين أمراءه، فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحسنيين وهما: الفِداء، وموت ذلك اللّعين، فبنى نور الدين رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم[1]، كما علق أبو شامة على قول ابن الأثير: بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير[2]، فقال: وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه والله المستعان، وإنما صرّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخصّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لا سيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطى، وروي أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه ـ أي دواء للعلاج ـ وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي. والله أعلم[3]. وهذا الشرط يؤكد الهدف الاجتماعي النبيل من إنشاء هذا البيمارستان إذ كان الفقراء موضع عناية كبيرة لدى الملك نور الدين[4] رَحِمَهُ اللَّهُ. وذكر كرد عليّ أن هذا البيمارستان ظل عامراً إلى سنة (1317هـ/ 1899م) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكيّة السليمانية المطلّة على المرج الأخضر وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في 15 ذي القعدة 1317هـ بافتتاح المستشفى الجديد[5]، أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة للبنات ثم اتخذت سنة (1356هـ/ 1937م) داراً لمدرسة التجار الرسمية[6]. وحالة البيمارستان النوري الحاضر جيدة وقد رُمّمت قبة المدخل حديثاً على الشكل الذي كانت عليه ويقام فيه حالياً: متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية[7].

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن العهد الزنكي، ص: 456.
(2) المصدر نفسه، ص: 457.
(3) المصدر نفسه، ص: 457.
(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 457.
(5) خطط الشام (6/ 159)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 408.
(6) تاريخ البيمارستانات، ص: 213 أحمد عيسى.
(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 458.

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة (570هـ/ 1174م) فذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخّر عنه، وكان بعد فراغه من ذلك، وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماع من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويُقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره[1]، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخُرِستانين[2] اللذين في صدر الإيوان[3]. كما كان بعض مشايخ الطب ومتقدميهم يجعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه كما كان يفعل الطبيب مهذب الدين ابن النّقاش[4]، المتوفى سنة (574هـ/ 1178م)[5] فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شاركه في ذلك مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدريسه لطلابهم، ولم تُشر المصادر إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة (621هـ/ 1224م) وهي المدرسة قبلي الجامع الأموي بدمشق[6].

2 ـ المساجد:

اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم وظل المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم[7]، ويروي العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناف على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعيَّن له أوقافاً[8]. وأصلح أحوال المسجد الأموي وأضاف إلى أوقافه

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 146.
(2) تعني المكان اللائق أو المخزن أو الخزانة.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 146.
(4) المصدر نفسه، ص: 147.
(5) المصدر نفسه، ص: 147.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 147.
(7) المصدر نفسه، ص: 110.
(8) نور الدين محمود الرجل والتجربة، ص: 116.

المعلومة الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسمّاها مال المصالح[1] وأما أشهر المساجد التي بناها فهو المسجد النوري بالموصل الذي يذكره ابن الأثير بقوله: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان[2] وبنى جامعاً في حماه على نهر العاصي وصفه ابن الأثير بأنه من أحسن الجوامع وأنزهها[3]، وأمر بإصلاح الجوامع (المساجد) في جميع المدن التي تأثرت بالزلازل سنتي (552هـ، 566هـ)[4] وأصبحت المساجد في عصره من أهم المراكز العلمية والتي من أهمها:

أ ـ في حلب: كانت المساجد من المؤسسات العلمية التي استخدمها نور الدين في الإحياء السني والوقوف أمام المذهب الشيعي ولقد شهدت المساجد في حلب نشاطاً علمياً واسعاً في مجال الدراسات الشرعية اللغوية والأدبية، واستمرت تلك المساجد في نشاطها العلمي رغم انتشار المدارس في هذه المدينة، حيث أشارت المصادر إلى النشاط العلمي في أول جامع أنشىء في حلب وهو:

ـ المسجد الكبير: وقد ذُكر أن موضع هذا الجامع كان بستاناً للكنيسة العظمى في أيام الرّومان، وهي منسوبة إلى هيلانة أو قسطنطين الملك باني القسطنطينية، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع المسجد الجامع[5]، وقد ذكر ابن شداد أن هذا الجامع من بناء الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك سنة (96 ـ 99هـ/ 705 ـ715م) هو الذي قام ببناء هذا المسجد[6] وفي شعبان سنة (564هـ/ 1169م) في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع، كما احترقت الأسواق المجاورة له، فقام الملك نور الدين وأمر ببنائه واجتهد في عمارته، ونقل إليه عُمداً من بُعادين، وقنسرين لأن العمد التي كانت فيه قد تفطرت من النار، وقام بإضافة سوق قبلي الجامع إليه، واتسع به المسجد، وأوقف نور الدين عليه أوقافاً كثيرة ويقع هذا الجامع حالياً في سويقة حاتم أشهر حارات حلب وأقدمها ويبعد الجامع عن قلعة حلب الكبرى مسافة نصف ميل تقريباً من جهة الغرب، وبناؤه الحالي يرجع للعهد المملوكي باستثناء منارته التي يرجع تاريخها إلى سنة (482هـ/ 1089م)[7]. أما

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 188، الكواكب، ص: 17.
(2) الباهر، ص: 170، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.
(3) الباهر، ص: 170، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.
(4) الدر المنتخب، ص: 61، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 389.
(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390.
(6) زبدة الحلب (2/ 105)، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390.
(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390.

النشاط العلمي في هذا الجامع فقد أشارت المصادر إلى وجود حِلق عديدة يجتمع حولها المشتغلون بالعلم أشهرها: السارية الخضراء التي كانت مخصّصة للدراسات الأدبية، كما كانت حِلق الأدب واللّغة والنحو تُعقد باستمرار في هذا الجامع إلى جانب قراءة القرآن الكريم والفقه[1] وقد أنشأ نور الدين في هذا الجامع زاويتان إحداهما: لتدريس الفقه على المذهب المالكي، والأخرى: لتدريس الفقه الحنبلي. وقد كان لهاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال فترة البحث وبخاصة في عصر مؤسسهما. وبالإضافة إلى تدريس الفقه في هذا الجامع، فقد حظي علم الحديث باهتمام الملك نور الدين محمود، توجيهاً منه لسياسة التعليم في عصره نحو الدراسات الشرعية ليدعم بها المذهب السني في حلب فأنشأ زاوية لتدريس علم الحديث في هذا الجامع، وأوقف عليها الأوقاف الكافية للصرف عليها وعلى المشتغلين بها[2].

ب ـ **المساجد في دمشق**: قامت العديد من المساجد في دمشق بدور في نشاط الحياة العلمية في هذا رغم التوسع الكبير في إنشاء المدارس وازدياد نشاطها في تلك الفترة، وكان من أبرز تلك المساجد ما يلي:

ـ **الجامع الأموي**: يُعدّ الجامع الأموي بدمشق من المساجد المتميزة بحسن عمارتها، أراد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م) عندما عزم على بنائه أن يجعل منه مفخرة من مفاخر دمشق، فأنفق فيه الأموال، وجلب إليه المهرة من الصُنّاع وأهل الفن البارعين، وبقي العمل فيه تسع سنين، أنفق عليه أربع مئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وبذلك أصبح مفخرة من مفاخر العمارة الإسلامية على مرّ العصور[3]. وقد حظي هذا الجامع باهتمام بالغ ورعاية كبيرة من الخلفاء والملوك والحكام على مرّ العصور الإسلامية وذلك فيما يتعلق بمتابعة تعميره، وتحسينه، أو صيانته وزيادة الوقف عليه، وفيما يتعلق بتشجيع حِلق التعليم التي كانت تعد في جنباته، والصرف عليها[4]، وقد ظل الجامع مُنذ بنائه مناراً للعلم والمعرفة، ومدرسة جامعة لعلماء دمشق وطلابها فيه، تُلقى الدروس العلمية من كل فن، وإليه يفِد طلاب العلم من كل صوب للنهل من معين الثقافة وللاجتماع بالعلماء الذين وقفوا أنفسهم في هذا المسجد على نشر المعارف وتدريس العلوم، واستمر هذا الجامع في العهد الزنكي قبلة للعلماء والدارسين، ومركزاً علمياً بارزاً، فيه تُعقد حِلق التعليم الخاصة والعامة، وفي جنباته تنشر زوايا تدريس القرآن وإملاء الحديث،

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 390 ، 391.

(2) المصدر نفسه، ص: 390 ، 391.

(3) الحياة العلمية في عهد الدولة الزنكية، ص: 416.

(4) المصدر نفسه، ص: 417.

وفيه صُنفت وأمليت العديد من المؤلفات المُهمّة مثل: تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وغيره، كما تواتر في المصادر ذكر الزاوية الغزاليّة، ومجلس ابن عساكر، وزاوية المقادسة والزاوية الكوثرية، والسُبع المجاهدي، وغيرها من منابر العلم في هذا المسجد والتي كان لها نشاط علمي مميز خلال هذا العهد، وكان النشاط العلمي في الجامع الأموي قد تركز على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والفقه، كما عُقدت في هذا الجامع العديد من مجالس الإملاء والسماع اجتمع إليها عدد من العلماء وطلاب العلم حتى أصبح هذا الجامع من أبرز مواطن الثقافة في دمشق تناوب فيه جلّة من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في ميادين العلوم الشرعية، ولا تزال آثارهم ومؤلفاتهم باقية حتى اليوم، ويصور أحد الشعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود، وهو علي بن منصور السُروجي المتوفى سنة (572هـ ـ 1176م) نشاط التعليم في هذا الجامع في قصيدة وصف بها النشاط العلمي الذي شهدته دمشق في العهد الزنكي فيقول:

كأنها جنة للخُلد دانية ... قُصُورها فتحت منها المقاصير

في كل قطر بها للعلم مدرسة ... وجامع جامع للدين معمور

يُتلى القرآن به في كل ناحية ... والعلم يذكر فيه والتفاسير

تكامل الحسنُ فيه مثل ما كمُلت ... أوصاف مولى بنشر العدل مشهور

الملك والدِّينُ والدّنيا بأجمعها ... وللخليفة من أنواره سُورُ[1]

وكان من أشهر مرافق التعليم في هذا الجامع:

الزاوية الغزالية:

تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي، كانت تُنسب إلى الشيخ المقدسي المتوفى سنة (490هـ/ 1097م) ثم نسبت إلى الشيخ أبي حامد الغزالي المتوفى سنة (505هـ ـ 1112م)[2] لكونه دخل دمشق، وقصد الخانِقاه السِميساطيّة ليدخل إليها فمنعه الصُوفيَّة من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن عُلِم مكانه، وعُرِفت منزلته؛ فحضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، وأدخلوه إلى الخانقاه، فعرفت تلك الزاوية به[3] وقد درّس مجموعة من العلماء في هذه الزاوية بعد الشيخ نصر المقدسي منهم: تلميذه عالم

---

(1) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 418.

(2) سير أعلام النبلاء (19/ 322، 346).

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 416.

الشام أبو الفتح نصر الله المصيصي المتوفي سنة (542هـ/ 1147م) والشيخ أبو النصر محمد بن علي الطوسي المتوفي سنة (561هـ/ 1166م)[1]، وخطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الحارثي المعروف: بابن عبد المتوفى سنة (562هـ/ 1167م) والصائن أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن عساكر المتوفي سنة (563هـ/ 1168م)، وأبو الفضائل عبد الرحيم بن رُستم الزنجاني المتوفي سنة (563هـ/ 1168م)[2]، ثم درّس بها مرتين العلامة قطب الدين النيسابُوري المتوفى سنة (578هـ/ 1182م)[3]. إن تدريس جميع هؤلاء العلماء الأعلام في الفقه الشافعي في هذه الزاوية يؤكد الأثر الكبير والنشاط العلمي المتواصل في هذا الجامع رغم انتشار المدارس في دمشق في هذا العهد، وربما أن هذا النشاط يفوق نشاط الكثير من مدارس دمشق في تلك الفترة سيما وأن هذه الزاوية تناوب عليها جُلة من أقطاب الفقه الشافعي في بلاد الشام في ذلك العصر[4].

ـ **السبُع المجاهدي**: يقصد بالسبع، قراءة سبع من القرآن ثم أطلق على المكان الذي كان يقرأ السبع فيه ويقع هذا السبع على ما ذكر النعيمي داخل الجامع بمقصورة الخِضر داخل باب الزيادة، ويُنسب للأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامِين أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود، موصوف بالشجاعة والبسالة مواظب على الصلاة والصدقات توفي في داره بدمشق (في صفر 555هـ/ 1160م) ودفن بالمدرسة المشهورة باسمه[5].

ـ **الحلقة الكوثرية**: تقع هذه الحلقة تجاه شباك الكلّاسة تحت مئذنة العروس بالجامع الأموي[6]، وقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل يوم بعد صلاة العصر «سورة الإخلاص» ثلاث مرات يهدون ثوابها للواقف ولهم على ذلك مُرتّب يتناولونه من ديوان السُبع الكبير[7]. وقد ذكر النعيمي أن عدد طلاب هذه الحلقة في عصر واقفها يصل إلى ثلاث مئة وأربعة وخمسين طالباً[8].

ـ **حلقة لإقراء القرآن الكريم تحت قبّة النسر**: ورد في ترجمة المقرئ الحنبلي أبو

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 419.
(2) طبقات الشافعية (4/ 159) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 418).
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 420.
(4) المصدر نفسه، ص: 420.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 420.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 421.
(7) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 451).
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 421.

العباس أحمد بن الحسين العراقي المتوفى سنة (588هـ/ 1192م) أنه قدم دمشق سنة (540هـ/ 1145م) فنزل بها وكان يقعد لإقراء القرآن في الجامع الأموي تحت قبة النسر[1].

ـ **مجلس الحافظ ابن عساكر**: ذكر ياقوت الحموي أن الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن بن عساكر أكمل أربع مئة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد[2]، وكان الجامع الكبير بدمشق ميدان هذه الأمالي وبخاصة قبل إنشاء دار الحديث النورية بدمشق، والتي أملى كثيراً من مجالسه فيها[3]، كما كانت تُعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالس السماع ـ مصنّفة الكبير «تاريخ دمشق» ـ وقد حفظت لنا العديد من هذه السماعات ونُشرت في المجلدة الأولى من الكتاب، وفيها ذكر لتاريخ السماع، وعدد سطور السماع، وعدد السامعين وهي الأمور التي لا بد من ذكرها عند تمام السماع[4].

ـ **جامع القلعة**: هذا الجامع أنشأه الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف الكافية للصرف على المسجد وإمامه ومؤذنه[5]، وقد ذكر ابن شداد ضمن مدارس الحنفية مدرسة بجامع القلعة واقفها الشهيد نور الدين محمود، كما ذكرها النعيمي باسم: المدرسة النورية الحنفية الصغرى، بجامع قلعة دمشق[6].

ج ـ **في الموصل، جامع نور الدين محمود**: كان من ضمن أعمال نور الدين، أمره ببناء جامع يستوعب عدداً أكبر من المصلين، وكان قد فوّض أمر بناء هذا الجامع للشيخ عمر الملا، وقد باشر الشيخ عمر بناء الجامع سنة (566هـ/ 1171م) واستمر العمل فيه نحو ثلاث سنوات[7]، وكان نور الدين قد أنفق في بناء هذا الجامع أموالاً كثيرة، وأوقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، وكان قد قدم الموصل سنة (568هـ/ 1173م) وصلى في جامعه بعد أن فرشه بالبسط والحصران، وعيّن له مؤذنين وخطيباً ورتب ما يلزمه[8]، وقد بلغ هذا الجامع درجة عالية من روعة البناء وحسن التخطيط قال عنه ابن الأثير: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان[9]، وحينما اكتمل بناء هذا الجامع رأى نور الدين أن من الأفضل، أن يجمع فيه بين الصلاة وطلب العلم، فأمر ببناء مدرسة بداخله، ووافق أن وصل الموصل في تلك

---

(1) شذرات الذهب (4/ 292) الحياة العلمية، ص: 421.
(2) معجم الأدباء (13/ 81).
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 422.
(4) المصدر نفسه، ص: 422.
(5) المصدر نفسه، ص: 422.
(6) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 648).
(7) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 356.
(8) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 356.
(9) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 357.

السنة الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي، ففوّض إليه أمر التدريس في هذه المدرسة، وكتب له منشوراً بذلك[1]. هذا على سبيل المثال لا الحصر في اهتمام نور الدين بالمساجد وتفعيل دورها العلمي والتربوي، فكان لها آثار ملموسة في الازدهار العلمي وتطوره في العهد الزنكي، رغم وجود المدارس وانتشارها بشكل واسع في ذلك العهد[2]. وتبقى ملحوظة مهمة هي: أنه لا يكاد يخلو مسجد من هذه المساجد من مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم، والتخصصات وكانت تلك المكتبات تُوقفت خصيصاً على المساجد ليرجع إليها الطلاب والباحثون، مثل مكتبة الشَرقيّة لجامع حلب، وهي مكتبة عامرة، مسبلة للمطالعة، وتشتمل على الكثير من الكتب في مختلف فروع المعرفة[3]. وهكذا كانت المساجد من المؤسسات المهمة في المجتمع الإسلامي وهي بمثابة المعاهد العلمية المُشعّة التي نهضت بمختلف العلوم في هذا العهد أسوة بالعهود الإسلامية السابقة وخرّجت العديد من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في تقديم العلم وازدهاره، وكانت تلك المساجد تتميز بتكافؤ الفرص بين الطلاب دون تمييز لغني منهم على فقير، فزاد إقبال طلبة العلم عليها، ولم يقف الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها، بل على العكس، فقد وجدت الكثير من الأوقاف التي قُررت لمن يرتاد هذه المساجد معلّماً أو متعلماً حتى يتفرغوا لطلب العلم دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.

3 ـ المدارس:

كانت المساجد المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها محل عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكن أخرى عرف بالمدارس وقد ناقش شلبي هذا الأمر وعلله بأمور عديدة من أهمها:

ـ ازدياد الإقبال على الدراسات الشرعية، وبالتالي ازدحام حِلق التعليم في المساجد بالكثير من الرّواد، وكان يبتعث من كل حلقة من هذه الحِلق صوت المدرس يُلقي درسه، وأصوات الطلاب يناقشونه ويسألونه، حتى تلاقت الأصوات المتصاعدة من الحِلَق المتعددة، فأحدثت في المسجد شيئاً من الضجيج مما يتنافى مع مكانة المسجد، وهذا ما جعل احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً أمراً صعباً[4].

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 357.
(2) المصدر نفسه، ص: 114.
(3) المصدر نفسه، ص: 115.
(4) تاريخ التربية الإسلامية، ص: 113.

ـ تطور العلوم والمعارف مع مرور الزمن، حيث أصبحت هناك مواد تستدعي دراستها الكثير من الحوار والنقاش، ومثل هذه المواد تتنافى مع ما يجب أن يكون عليه روّاد المسجد من هدوء وسكينة[1].

ـ انشغال جماعة من المسلمين بالتعليم في حلق المساجد معظم وقتهم، ومحاولتهم الارتزاق عن طريق ممارسة حرف بسيطة قاموا بها إلى جانب التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى معيشي مناسب، مما أدى بهم إلى البحث عن مكان مستقل تتوافر فيه شروط التدريس من جهة، ويضمن لهم جرايات وافرة تقوم بحاجاتهم من جهة أخرى[2]، وعلى هذا الأساس بُدِءَ بتأسيس هذا المكان الذي حمل اسم «المدرسة» ومن ثم بدأت طلائع الحركة المدرسية الفعلية بالظهور، والتطور مع الزمن[3]. وتطورت المدارس وازداد انتشارها في زمن السلاجقة على يدي الوزير نظام الملك السلجوقي، وقد ذكر السبكي في ترجمته لنظام الملك ما نصه: وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بَهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة[4]، وقد تحدثت عن المدارس النظامية بالتفصيل في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي» ولما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شاهدت حركة بناء المدارس انتشاراً واسعاً فقد أخذ في إنشائها واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وبنى لهم العديد من المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك دعم المذهب السني، ومقاومة مذهب التشيع في المنطقة[5].

أ ـ المدارس في حلب: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام (541هـ/ 1146م) والذي ركز نشاطه مُنذ استلامه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء، عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنية، وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية، وقد جلب عدد من العلماء الأكفّاء لتولي المهمة وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من

---

(1) تاريخ التربية الإسلامية، ص: 113.

(2) المصدر نفسه، ص: 114، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 122.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 122.

(4) المصدر نفسه، ص: 22، طبقات الشافعية (4/ 313).

(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 125.

تأصل الفكر الشيعي بها وتمكن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة، بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة[1]، وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة، التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة من مظاهرها إنشاء العديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها، حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة كان من مظاهرها: إنشاء العديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها، حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المهمّة في العالم الإسلامي، بل ربما تفوقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي، في نفس القوة التي بدأ بها نظراً لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرين طيلة عصر نور الدين، والسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم[2]. وكانت أبرز المدارس التي أنشئت في حلب:

المدارس الشافعية

المدرسة الزّجاجية: تعد هذه المدرسة من المدارس السابقة على الحكم الزنكي، فقد أنشأها بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي سنة (517هـ/ 1123م) وهي أول مدرسة سنية فيها، وحينما عزم بدر الدولة على بناء أول مدرسة بحلب لم يمكنه الحلبيون من ذلك لغلبة نزعة التشيع فيهم، فكان كلما بنى فيها شيئاً في النهار خربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك، فأحضر الشريف زهرة بن علي الحُسَيني أوكل إليه أمر الإشراف على بنائها ليكفّ عنه الشيعة، فلازم الشريف زهرة بناء تلك المدرسة حتى تم الانتهاء منه[3]. وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها[4]. ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر حلب في سنة (522هـ/ 1128م) نقل والده وكان مدفوناً في قرنْبيا[5]، فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد عماد الدين في وقفها للصرف على القُرّاء والمتفقهين المرتبين بها[6]، وكان أبرز المدرسين في هذه المدرسة في العهد الزنكي:

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 389.
(2) المصدر نفسه، ص: 389.
(3) المصدر نفسه، ص: 84، 85.
(4) المصدر نفسه، ص: 85.
(5) قرنبيا: يقع شرقي حلب.
(6) الدر المنتخب، ص: 110، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 392.

شرف الدين أبو طالب عبد الرحمٰن الحلبي المتوفى سنة (561هـ/ 1166م)[1]، حيث ذكر ابن شداد أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة فوّض مُنشئها أمر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين أبي طالب المعروف: بابن العجميّ، وقد استمر شرف الدين مدرساً بها إلى أن توفي سنة (561هـ/ 1166م)[2]، وتولى التدريس بها بعده حفيداه: مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل المتوفى سنة (597هـ/ 1201م)[3] وأخوه زين الدين عبد الملك بن نصر بن جهيل المتوفى سنة (590هـ/ 1194م)[4]، وكانا من العلماء المتميزين والفضلاء المبرزين[5].

ـ المدرسة النِصْريّة (النورية): أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة (544هـ/ 1149م) وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري، وهو أول من وُلي التدريس في هذه المدرسة وكان قدم إليها من دمشق، ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة (597هـ/ 1201م)[6]، ولم يزل مدرساً بها إلى أن نقل إلى القدس الشريف فدرّس به إلى أن توفي[7].

ـ المدرسة العصرونية: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دار لأبي الحسن علي بن أبي الثُريّا وزير بني مِرداس أصحاب حلب، ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه الدار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك سنة (550هـ/ 1155م) حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية[8]، وبعد أن أتمّ نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة (585هـ/ 1183م)[9]، وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أوّل من درّس بها فعُرفت به ونسبت إليه[10]، ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدرّس في هذه المدرسة وينظر أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة (570هـ/ 1174م)[11]، ولما خرج إلى دمشق استخلف (نيابة) فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبد الرحمٰن، وظل هذا حتى

---

(1) طبقات الشافعية (7/ 147)، الحياة العلمية، ص: 392.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 393.
(3) شذرات الذهب (4/ 324) الحياة العلمية، ص: 393.
(4) الحياة العلمية، ص: 393.
(5) المصدر نفسه، ص: 393.
(6) المصدر نفسه، ص: 394.
(7) طبقات الشافعية للأسنوي (1/ 372).
(8) الدر المنتخب، ص: 110، الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 395.
(9) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 394.
(10) المصدر نفسه، ص: 395.
(11) وفيات الأعيان (3/ 54) الحياة العلمية، ص: 397.

ولي قضاء حماة فغادر حلب[1]. وممن أقام في هذه المدرسة الإمام الحافظ حجة الدين محمد ابن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصّقلي المتوفى سنة (565هـ / 1169م)[2]، فقد ذكر أنه حلّ بحلب وأقام بالمدرسة العصرونية وصنّف كتباً حسنة، فلما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة وأظنها فتنة سنة (552هـ/ 1157م)[3]، ونُهبت كتبه فيما نُهب وخسر جزءاً من مؤلفاته القيمة، فرحل إلى حماه وأقام بها حتى وفاته[4].

ـ **المدرسة الشرفية**: أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمٰن الحلبي المعروف: بابن العجميِ المتوفى سنة (561هـ/ 1166م) وقد صرف شرف الدين على بنائها ما نيف على أربع مئة ألف درهم وأوقف عليها أوقافاً جليلة[5].

ـ **المدرسة الأسدية الجُوّانية**: تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى ابن مروان المتوفى سنة (564هـ/ 1168م) الذي أنشأها بمحلة الرحبة بحلب للمذهب الشافعي[6].

ـ **المدرسة الشُعيبيَّة**: كان موقع هذه المدرسة مسجداً يقال: إنه أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرف هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِريّ المتوفى سنة 313هـ، فلما ملك نورالدين محمود حلب وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيب الأندلس إلى حلب فصيّر له هذا المسجد مدرسة وجعله مدرساً بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرّساً بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة (596هـ/ 1199م)[7].

٥ ـــ المدارس الحنيفية:

المدرسة الحلّاوية (الحَلَوِيّة): يذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلارني أم قسطنطين، فلمّا حاصر الصليبيون حلب سنة (518هـ/ 1124م) قاموا بقطع الأشجار ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، عمد القاضي أبي الفضل بن خشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصيرها مساجد، وكانت هذه المدرسة تُعرف قديماً: بمسجد السّراجين، فلمّا ملك نور الدين محمود مدينة حلب جعل هذا المسجد مدرسة، وأنشأ فيه مساكن يأوي

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 397.
(2) المصدر نفسه، ص: 397.
(3) المصدر نفسه، ص: 397.
(4) معجم الأدباء (19/ 48) بغية الوعاة (1/ 142، 143).
(5) الدر المنتخب، ص: 112، الحياة العلمية، ص: 398.
(6) الحياة العلمية، ص: 399.
(7) المصدر نفسه، ص: 400.

إليها الفقهاء وإيواناً للدروس، وكان مبدأ عمارتها في سنة (544هـ/ 1149م)[1]، وقد جلب نور الدين إلى هذه المدرسة من أفامية مجموعة من الرخام الشفّاف الذي إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهه ووصفه فيها[2]، وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامِكِيّة، وكان من شروط الواقفة: أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس، يصنع بها للفقهاء طعاماً، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى معلومة، وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم، وفي أيام شرب الدواء من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي المولد أيضاً الحلوى، وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها من دراهم معلومة، وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخاً ومشمشاً وتوُتاً[3].

ـ **المدرسة المقدمية**: ذكر ابن شداد أن الذي أنشأ المدرسة هو عز الدين عبد الملك المُعدّم، وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي ابن الخشاب مساجد في سنة (518هـ/ 1124م) وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها، وأنه ابتدئ في عمارتها سنة (545هـ/ 1150م)[4]. وكان أول من درّس في هذه المدرسة الشيخ برهان الدين أبو العباس أحمد بن علي الأصولي مدرس المدرسة الحلاوية، ثم وليها بعده السيد الشريف الإمام العالم افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي، ولم يزل بها إلى أن توفي في جمادى الآخر سنة (616هـ/ 1219م)[5].

ـ **المدرسة المجديّة الجُوّانية**: ذكر ابن الشحنة أن هذه المدرسة تنسب إلى نائب حلب في عصر نور الدين محمود، وهو مجد الدين أبو بكر محمد ابن الداية المتوفى في رمضان سنة (565هـ / 1170م)[6].

ـ **المدرسة البرّانية**: ذكرها ابن الشحنة أيضاً، ونسبها إلى مجد الدين ابن الداية مؤسس الجوانية[7].

ـ **المدرسة الحدّادِيّة (الحدّادين)**: ذكر ابن شداد أن منشىء هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة (518هـ/ 1124م)[8].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 400.
(2) المصدر نفسه، ص: 400.
(3) المصدر نفسه، ص: 401.
(4) المصدر نفسه، ص: 404.
(5) المصدر نفسه، ص: 405.
(6) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 406.
(7) أحياء حلب وأسواقها، ص: 142.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 406.

ب ـ في دمشق: كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة (491هـ/ 1097م) وهي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في الحكم الزنكي لدمشق سنة (549 ـ 569هـ/ 1154 ـ 1174م) وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيراً المذهب المالكي[1].

المدارس الحنفية:

ـ **المدرسة الصادرية**: أنشئت هذه المدرسة على يد أمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة (491هـ/ 1097م) داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق[2].

ـ **المدرسة الطرخانية**: قال ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان وهي كانت قديماً للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن، فوقفها آق سنقر الموصلي وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة[3].

ـ **المدرسة المُعينيّة**: ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة المُعينيّة في قصر الثقفيين[4]، وقال ابن شداد بحصن الثقفيين أنشأها معين الدين أنر أتابك الأمير مجير الدين آبق آخر الحكام البوريين بدمشق[5]، وذكر الصفدي: أن معين الدين قد بنى هذه المدرسة للشيخ أبي المظفر محمد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف: بابن الحكيم العراقي مُدرّسي الصادرية والطرخانية المتوفى سنة (567هـ/ 1171م)[6].

ـ **المدرسة النُورية الكبرى**: ذكر كل من أبي شامة وابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخوّاصين[7]، وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي[8]، وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة (580هـ/ 1184م) ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً، وأنها قصر من القصور الأنيقة[9]. وفي هذه المدرسة يقول الشاعر

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 423.
(2) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 537).
(3) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 425.
(4) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 426.
(5) الحياة العلمية، ص: 426.
(6) الدارس في تاريخ المدارس (2/ 203).
(7) يسميه أهالي دمشق حالياً: سوق الخياطين.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 427.
(9) الرحلة، ص: 256، الحياة العلمية، ص: 428.

المشهور عرقلة الدمشقي المتوفى سنة (567هـ/ 1171م)[1]:

ومدرسة سيدرس كلُّ شيء ... وتبقى في حِمى علم ونُسكِ

تضوّع ذكرها شرقاً وغرباً ... بنور الدين محمود بن زنكي

يقول وقوله حق وصدق ... بغير كناية وبغير شك

دمشق في المدائن بيت مُلكي ... وهذي في المدارس بيت مِلكي[2]

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور، يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم، وتتضح أهمية هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومُدَرّسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا منها: إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد[3]، واستقراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكوّن العتبة العليا لباب المدرسة، يتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق على ريعه على الطلاب والمدرسين، والعاملين بالمدرسة إنفاقاً سخياً متواصلاً ونص هذه الكتابة كالآتي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ووقف عليها، وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمّام المُستجد بسوق القمح، والحمّامين المستجدين بالوراقة ظاهرِ باب السلامة والدار المجاورة والربع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتاً خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُص وشُرط فكتب الوقف رغبة في الآخرة، وتقدمه بين يديه يوم الحساب: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾[4].

ـ **المدرسة الخاتونية البرّانية**: كانت هذه المدرسة مسجداً أوقفته الست زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دُقاق بن تُتُش المتوفاة سنة (557هـ/ 1161م)[5]، وتاريخ وقفه سنة

(1) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 429.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 429.

(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 429.

(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 430.

(5) المصدر نفسه، ص: 430.

(526هـ/ 1132م) على الشيخ أبي الحسن علي البلخي المتوفي سنة (548هـ/ 1153م)[1]، وقد ذكر الذهبي أن الست زُمُرّد خاتون على قدر من الثقافة والعلم استنسخت الكتب، وحفظت القرآن وبنت الخاتونية بصنعاء دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين، فلما قُتل حجّت وجاورت بالمدينة ودفنت بالبقيع[2].

المدارس الشافعية:

ـ **المدرسة الأمينية:** ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة من بناء أمين الدولة ربيع الإسلام، وزاد عليه النعيمي أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق، بناها أتابك العساكر بدمشق وكان يقال له: أمين الدولة، وكان مبدأ التدريس بها سنة 514هـ على ما ذكر الذهبي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُلمي الدمشقي الشافعي مدرس الغزالية والأمِينيّة ومفتي الشام في عصره المتوفى سنة (533هـ/ 1138م)[3].

ـ **المدرسة المجاهدية الجُوانية:** وواقف هذه المدرسة الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكُردي أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود وقبله[4].

ـ **المدرسة المجاهدية البرانية:** تنسب هذه المدرسة للأمير مجاهد الدين بُزّان واقف المدرسة المجاهدية الجُوّانية وقد دفن فيها بعد وفاته[5].

ـ **المدرسة العمادية:** بناها نور الدين محمود رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درّس بها[6]، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده، وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة (567هـ/ 1172م) فقال: وفي رجب من هذه السنة فوّض إليّ المدرسة التي بحضرة حمام القصير، وعوّل علي في التدريس بها والنظر في أوقافها[7].

ـ **المدرسة العصرونية:** تنسب هذه المدرسة للفقيه العلّامة قاضي القضاة شرف الدين

---

(1) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 502، 503).
(2) العبر (3/ 27)، الحياة العلمية، ص: 431.
(3) الحياة العلمية، ص: 432.
(4) الدارس (1/ 451)، الحياة العلمية، ص: 435.
(5) الدارس (1/ 453، 454)، الحياة العلمية، ص: 437.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 438.
(7) المصدر نفسه، ص: 439.

عبد الله بن محمد بن أبي عصرون المتوفى سنة (585هـ/ 1189م)[1] وقد بنى له مدارس عديدة بحلب وحماه وحمص وبعلبك وغيرها[2]، وقد وردت نصوص تفيد أن القاضي شرف الدين ابن أبي عصرون قد بنى لنفسه بدمشق[3]، يقول عنه ابن خلكان: توفي ليلة الثلاثاء الحادية عشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق، ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد وهي معروفة به[4].

المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية:

ـ **المدرسة الأسدية**: تنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه، أحد أمراء نور الدين الكبار والمتوفى سنة (564هـ/ 1168م)[5]. وقد درس في هذه المدرسة عدد من المدرسين على المذهبين: الحنفي والشافعي ذكر النعيمي منهم خلال العهد الزنكي: الواعظ الحنفي المعروف: بابن الشاعر نزيل القاهرة سنة (584هـ/ 1188م)[6]. وكان قد قدم دمشق وسمع الحافظ ابن عساكر وغيره، فحدّث وأفاد ودرّس بالأسدية[7].

المدارس الحنبلية:

ـ **المدرسة الحنبلية الشريفية**: ذكر ابن شداد أنها من إنشاء سيف الإسلام أخ صلاح الدين يوسف بن أيوب[8].

ـ **المدرسة العمرية**: سمّاها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر بالجبل في وسط دير الحنابلة، وذكر أن بانيها وواقفها هو الشيخ أبو عمر الكبير[9]، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الأولياء المشهورين، وذكر ابن طولون أنه إلى الشيخ أبي عمر وإلى ولده أحمد بن قدامه المتوفي سنة (558هـ/ 1163م) يرجع سببه إلى كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وبلاد الشام، فوالد الشيخ أبي عمر كان قد فرّ بدينه وعياله من نابلس بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس، ووصلوا إلى دمشق في سنة (551هـ/ 1156م) ونزلوا في سفح جبل قاسِيون بمسجد أبي صالح، ولهذا عرفوا: بالصالحين، وأقاموا في السفح منزلاً كثير

---

(1) الحياة العلميّة في العهد الزنكي، ص: 440.
(2) وفيات الأعيان (3/ 54)، الحياة العلمية.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 441.
(4) وفيات الأعيان (3/ 55).
(5) الدارس في تاريخ المدارس (1/ 152).
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 444.
(7) الدارس (1/ 473)، الحياة العلمية، ص: 444.
(8) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 444.
(9) المصدر نفسه، ص: 446.

الحجرات عُرف بدير الحنابلة، ثم تتابع البناء وعُمرت تلك الأراضي ودُعيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصالحين لما عُرِف منهم من علم وتقى وصلاح[1]، وكان آل المقدسي عندما هاجروا إلى الشام استقرّ نزلهم في الجبل وكان الناس يزورون الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة وكان السلطان نور الدين الشهيد يأتي إلى زيارته[2].

المدارس المالكية:

ـ **المدرسة النورية الصلاحية: ذكر الإربلي:** المدرسة النورية ضمن مدارس الطائفة المالكية بدمشق ولكنه لم يحدد موقعها[3]، وأثبت ابن عساكر المدرسة النورية في حديثه عن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة النورية التي أوقفها نور الدين على المالكية في حجر الذهب[4]. هذه هي أهم المدارس التي كانت في دولة نور الدين وهي على سبيل المثال لا الحصر.

5 ـ دور الحديث:

على الرغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي، وشيوع لفظ «مدرسة» على المكان المخصص للتعليم والإقامة والرعاية، فقد وجدت بجانبها دور تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس، وإن لم تعمل اسمها، فلفظ دار كان مرادفاً في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة، وقد ورد كثيراً في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، ولم يطلق عليها مسمى مدرسة. ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية يخصصه لهذا العلم، وقد عنى المسلمون بدراسة الحديث الشريف عناية كبيرة، باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدور التي تتولى مهمة تدريس أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله من حيث رواية الحديث والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ﷺ من حيث أحوال رُواتها ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، والمراد منها مبنيًا على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقاً لأحوال النبي ﷺ[5]. وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة

---

(1) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية (1/ 125).
(2) المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها، ص: 39.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 448.
(4) المصدر نفسه.
(5) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، ص: 132.

وتدريساً، وتشييد دُور خاصة به من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام كما ذكرنا ذلك وهي دار الحديث النُورية بدمشق، والتي أولى مهمة التدريس فيها، والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره هو الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م)[1]، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي، وتُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكاً منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة، سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي وتحمل عبء تقويضه من المنطقة ونشر المذهب السني[2]، أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد العدوان، فكثرت الدراسات والتأليف حول فضائل الجهاد والحث عليه، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص، وكانت دور الحديث مقراً لذلك النشاط[3]. وليس هناك اختلاف في نظم التعليم بين دور الحديث والمدارس الأخرى، سوى في كون المناهج في الأولى تُركز على الدراسات المتصلة بعلوم الحديث، بينما يغلب التخصص الفقهي على مدارس العصر، وهذه خطوة تميزت بها حركة التعليم في العهد الزنكي لعدم وجود مثل هذا النوع من المدارس قبل ذلك، إذ أن دراسات الحديث كانت تتم في حِلَق المساجد، كما كانت مادة إضافية في العديد من المدارس الفقهية، ومع ذلك فإن علم الحديث لم تقتصر دراسته في العهد الزنكي على تلك الدور فحسب، بل كان يضاف لمناهج الدراسة في كثير من المدارس، إضافة إلى تخصيص بعض الزوايا الملحقة بالمساجد لتدريسه[4].

أ ـ **في حلب**: وردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسيها وكانت أبرز تلك الدور ما يأتي:

ـ دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود[5]، وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم والتي سبق الحديث عنها[6].

ـ دار أخرى أنشأها نائب نور الدين في حلب مجد الدين ابن الداية المتوفى سنة (565هـ/ 1170م)[7].

---

(1) التاريخ الباهر، ص: 172، الحياة العلمية، ص: 133.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 133.

(3) المصدر نفسه، ص: 133.

(4) المصدر نفسه، ص: 134.

(5) الدر المنتخب، ص: 123.

(6) المصدر نفسه، ص: 408.

(7) المصدر نفسه، ص: 408.

ـ دار أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانِقاه التي بنتها[1].

ب ـ **في دمشق**: سبقت الإشارة إلى أن الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وإنشاء دُور خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفى سنة (571هـ 1176م)، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي، ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار[2].

ـ **دار الحديث النُورية**[3]: أجمعت كثير من المصادر على أن هذه الدار من إنشاء الملك العادل نور الدين محمود زنكي، وأنها أول دار من نوعها في الإسلام[4]، قال عنه ابن الأثير: وبنى بدمشق أيضاً داراً للحديث، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه[5]، وكان نور الدين قد عهد بأمر التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة (571هـ / 1176م)[6]، وكان من بين تآليف الحافظ كتاب سمّاه: «تقوية المنّة على إنشاء دار السُنة» في ثلاثة أجزاء[7]، حيث كانت هذه الدار تُسمى دار السنة في السماعات القديمة التي قُرئت بها، وقد زاد من مكانتها أن الذين تولوا التدريس فيها في أول أمرها هما الحافظ الكبير وابنه القاسم بهاء الدين المتوفى سنة (600هـ / 1203م) من بعده، ثم تناوب فيها جُلّة من علماء الحديث البارزين وكانت هذه الدار مركز إشعاع للدراسات الحديثية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)[8].

6 ـ الخوانق والرُبط:

تُعد الخوانق والرُبط من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، حيث يمارس فيها

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 408.
(2) المصدر نفسه، ص: 450.
(3) المصدر نفسه، ص: 450.
(4) المصدر نفسه، ص: 450.
(5) التاريخ الباهر، ص: 172، كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 450.
(6) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 450.
(7) معجم الأدباء (13/ 78)، الحياة العلمية، ص: 450.
(8) الحياة العلمية، ص: 451.

التصوف سلوكاً بالإضافة إلى قيامها بوظائف دينية واجتماعية أخرى، ولكنها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية بالإضافة إلى مهمتها الأساسية التصوف[1]. وكان التصوف في تلك المدة اتجاهاً له نفوذه وسيطرته، وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، فكان الصوفية محل تقدير الحكام واحترامهم، وقد برز نور الدين في هذا المجال، وحظي الصوفية لديه بمكانة عالية فأكرمهم، وأدناهم من مجلسه وبنى لهم الخوانق والربط في شتى أنحاء مملكته[2]، وكانت مراكز الصوفية تلك مكاناً للعبادة والدرس قدمت مع دور التعليم الأخرى خدمات جليلة لحركة التعليم في ذلك[3]، وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم، وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد، والمدارس، ذلك لأنها لم تُبنَ أساساً لأغراض التعليم، والقيام بوظائفه، وإنما بنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون لأنفسهم لعبادة الله تعالى، فخصصت لهم تلك الدور لإقامتهم حيث كان يُوفر لهم فيها كافة أسباب الراحة والعيش حتى يتفرغوا للعبادة وطلب العلم بعيداً عن مشاغل الحياة، وكان مُنشئوها يوقفون بعض الأوقاف للصرف عليها وعلى من ينزل بها من الصوفية.

أ ـ في حلب: أشارت المصادر إلى العديد من الخوانق التي كانت قائمة بحلب في العهد الزنكي من أشهرها:

ـ **خانقاه البلاط**: ذكر ابن شداد أن مُنشئها هو شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضوان ابن تاج الدولة تُتُش السلجوقي، وهي أول خانقاه بنيت بحلب، وذلك سنة (509هـ/ 1115م)[4].

ـ **خانقاه ابن العجمي**: تنسب هذه الخانقاه لشمس الدين أبي بكر بن العجمي أخو الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمٰن المتوفى سنة (561هـ/ 1166م)، وكان موقع هذه الخانقاه داراً يسكنها شمس الدين بن العجمي فلما تُوفي سنة (531هـ/ 1136م) أوقفها أخوه شرف الدين أبو طالب على الصُوفيّة، وجعل لها وقفاً يدرّ عليها[5].

ـ **خانقاه القديم**: أنشأها نور الدين محمود، وتولى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسي[6].

(1) الحياة العلمية، ص: 135.
(2) الباهر، ص: 171، الحياة العلمية، ص: 135.
(3) الحياة العلمية، ص: 135.
(4) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 409.
(5) المصدر نفسه، ص: 409.
(6) المصدر نفسه، ص: 410.

ـ **خانقاه ابن المقدم**: تُنسب هذه الخانقاه لعز الدين عبد الملك المقدم منشىء المدرسة المقدمية الحنفية المتقدم ذكرها.

ـ **خانقاه النفر**: وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد زنكي، وسميت بهذا الاسم؛ لأنه كان في مكانها قصر من بناء شجاع الدين بن فاتك، وكان مبدأ عمارته لها سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة[1].

ـ **خانقاه مجد الدين ابن الداية**: تُنسب هذه الخانقاه لنائب حلب في عصر نور الدين محمود وأخيه من الرضاعة مجد الدين أبي بكر محمد ابن الداية المتوفى سنة (565هـ/ 1170م)[2].

خوانق النساء: إلى جانب الخوانق الخاصّة بالرجال، أنشئت في العهد الزنكي خوانق مخصّصة لإقامة النساء، يتعبّدون فيها ويتلقين دروساً في الوعظ الديني، ومن أشهر هذه الخانقاهات في حلب خانقاه نور الدين، حيث ذكر ابن شداد أن الملك نور الدين أنشأ خانقاه للنساء سنة (553هـ/ 1158)م على الأرجح[3]، ولكنه لم يُحدد موقع هذه الخانقاه، كما أنه لم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر. هذه أهم الخوانق التي كانت قائمة في حلب في العهد الزنكي، وقد كان لهذه المؤسسات مشاركة فعّالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد، نظراً لما كان يُعقد فيها من دروس وحلق ووعظ، إلى جانب قيامها بالوظيفة الأساسية التي أنشئت من أجلها وهي إيواء المتصوفة للانقطاع فيها للعبادة، ومجاهدة النفس والبعد عن الدنيا[4].

ب ـ **في دمشق**: وجدت دمشق خلال العهد الزنكي العديد من الخوانق والرّبط، وكان له مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في هذا العهد، فقد كان ميداناً للتعليم إلى جانب ممارسة التصوُّف بها كنشاط أساسي أنشئت تلك الدور من أجله، وكانت أبرز هذه المنشآت ما يأتي:

ـ **الخانقاه السُميساطية**: تُنسب هذه الخانقاه للسُميساطي أبي القاسم علي بن محمد ابن يحيى السُلمي الحُبَيْشبيّ المتوفى سنة (453هـ / 1061م)، كان من أكابر الرؤساء في دمشق[5]، وكان أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه في العهد الزنكي الوزير أبو المظفر الفلكِيّ

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 411.
(2) المصدر نفسه، ص: 411.
(3) المصدر نفسه، ص: 411.
(4) المصدر نفسه، ص: 412.
(5) المصدر نفسه، ص: 451.

فقد قدم دمشق زمن الملك نور الدين محمود فارتبطه عنده، وأنزله هذه الخانقاه وجعله شيخها وساهم أبو المظفر في زيادة عمارتها[1].

ـ **خانقاه القصر**: ذكر كل من ابن شداد والإربلي أن هذه الخانقاه تُنسب لشمس الملوك وذكر الحُسيني[2]، أنه إسماعيل بن تاج الملوك بُوري المتوفى سنة (529هـ/ 1135م)، أما ابن جبير السابق لهما فقد نسب هذه الخانقاه للملك نور الدين محمود حيث شاهدها في زيارته لدمشق سنة (580هـ/ 1184م) ووصفها بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (يعني الصوفية) موضع يعرف: بالقصر، وهو صرح عظيم مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشرافاً منها، وهو من البلد بنصف الميل له بستان عظيم يتّصل به، وكانت متنزّهاً لأحد الملوك الأتراك فيقال: إنه كان في إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فأهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوعبه من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم، فطال العجب من السماحة بمثله، وبقي أثر الفضل فيه مخلداً لنور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3].

ـ **الخانقاه الأسدِيّة**: تنسب هذه الخانقاه للأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة (564هـ/ 1168م)[4]، منشىء المدرسة الأسدية المشتركة بين الحنفية والشافعية بالشرف القبلي ظاهر دمشق[5]، وكانت هذه الخانقاه داخل باب الجابية، بدرب الهاشميين المعروف: بباب الوزير[6].

ـ **خانقاه الطاحُون**: تُنسب هذه الخانقاه للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وهي خارج البلد بالوادي[7].

ـ الرباط البياني: جاء ذكر هذا الرباط عند ابن شداد: رباط أبي البيان بناء بحارة درب الحجارة[8]. وذكر السبكي أن هذا الرباط يُنسب إليه إنما أنشىء بعد موته بأربع سنين اجتمع أصحابه على بنائه، وقد أعانهم الملك نور الدين وأوقف عليه مكاناً بحُرّين[9].

ج ـ في الموصل: كان في الموصل في العهد الزنكي ربُطُ عديدة شاركت في نشاط

---

(1) الوافي بالوفيات (15/ 224)، الحياة العلمية، ص: 453.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 454.
(3) الرحلة، ص: 257، الحياة العلمية، ص: 454.
(4) الحياة العلمية، ص: 455.
(5) المصدر نفسه، ص: 455.
(6) المصدر نفسه، ص: 455.
(7) المصدر نفسه، ص: 455.
(8) المصدر نفسه، ص: 456.
(9) طبقات الشافعية (7/ 319)، الحياة العلمية، ص: 456.

الحياة العلمية في ذلك العهد، حيث كانت مراكز للتعليم والتثقيف والتأليف إلى جانب قيامها بوظائف التصوف التي أنشئت من أجلها، ومن الملاحظ هنا أنه لم يفرق بين الخانقاه والرّباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد[1]، وكان من أشهر الربط التي كانت قائمة بالموصل:

ـ **رباط الملك سيف الدين غازي**: أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين (541 ـ 544هـ/ 1146 ـ 1149م) وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته[2].

ـ **رباط الوزير جمال الدين الأصفهاني**: يُنسب هذا الرّبَاط للوزير الموصلي جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف: بالجواد المتوفى سنة (559هـ/ 1164م)[3]، وقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى الرّبط بالموصل، وسنجار ونصيبين وغيرها[4].

ـ **الرّباط الزيني**: لم يقتصر بناء الرّبط على الملوك الزنكيين بل تبعهم في ذلك أمراؤهم ووزرائهم فأنشأوا الكثير من الرّبط في الموصل وغيرها، كما أنشأوا دُور التعليم الأخرى، وكان ممن أنشأ رباطاً بالموصل الأمير زين الدين علي بن بُكتكين المتوفى سنة (563هـ/ 1167م) منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) والمدرسة الزينية، فقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى مدارس ورُبُطاً بالموصل وغيرها[5].

ـ **رباط بن الشهرزوري**: أشار إليه ابن خلكان في ترجمته للشيخ عز الدين أبو القاسم ابن عقيل بن نصر الإربلي المتوفى سنة (619هـ/ 1222م) حيث ذكر أنه ساكن ظاهر الموصل في رباط الشهرزوري، وقرر له صاحب الموصل راتباً، ولم يزل هناك حتى توفي[6].

وقد قامت الخوانق والربط في عهد نور الدين بدور كبير في الجهاد وجمع المعلومات وتحريك العامة والدعاء للجيوش الإسلامية، ومقاومة التشيُّع الرافضي، وتعليم الجهّال أمور دينهم، وكانت الدولة النورية تشرف علىٰ ذلك وتوظف هذه الطاقات لخدمة مشروع النهوض. وكان للخانقاه عادة شيخ يتولى نظارتها والإشراف عليها يُسمى: شيخ الشيوخ، وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه المناصب شروط عدة وآداب تؤهله لذلك منها ما ذكره السبكي من أنه

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 384.
(2) الباهر، ص: 63 مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 384.
(3) الحياة العلمية، ص: 384.
(4) التاريخ الباهر، ص: 129، الحياة العلمية، ص: 385.
(5) الحياة العلمية، ص: 385.
(6) معيد النعم، ص: 97، الحياة العلمية، ص: 137.

لا بد أن يتمتع بقسط وافر من العلم والحلم، وأن يتحمل الأذى والضيم على نفسه، وأن يكون حسن التلفظ، حريصاً على الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يحرص على تعليم مريديه العلم النافع، متدرجاً بهم بالأهون فالأهون، مبتعداً بهم عن الألفاظ التي يصعب عليهم معرفتها[1]. وكان الملك نور الدين قد عهد هذا المنصب للفقيه عماد الدين عمر بن علي بن حموية المتوفي سنة (577هـ/ 1181)م[2]. وكان قد قدم دمشق في أيامه، ولم يلبث أن آنس منه نور الدين علماً وزهداً، ففوض إليه سنة (563هـ/ 1167م) مشيخة الخوانق والرُبُط في كل من دمشق، وحمص وحماه، وحلب، وبعلبك[3]، ومنذ أن تولى الشيخ عمر بن حموية هذا المنصب أطلق عليه لقب شيخ الشيوخ وهو اللقب الذي عرف به شيخ الصوفية أو ناظر الخوانق منُذ ذلك الوقت[4].

6 ـ الكَتَاتيب:

الكَتَاتِيب أو الكُتَّاب: يطلق على المحل الذي يتعلم به الصبيان، وكانت تقوم مقام المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر، وقد اتخذ المعلمون في العهد الزنكي زوايا بالمساجد وغرفاً ملاصقة لها لتعليم الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، في شتى المدن الزنكية من ذلك الحلقة الكوثريّة والمجتمع السُبعي وكلاهما في الجامع الأموي[5]، ويبدو أن السبب في اتخاذ المساجد أمكنة لتعليم الصبيان يعود إلى أن كثيراً من مُعلميهم كانوا يعتكفون في هذه المساجد، وكانوا يحترفون هذه المهنة ليضمنوا منها كسب عيشهم، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد فلزم حضور الصبية إليهم، وبجانب هذه الكتاتيب قامت أخرى مستقلة عنها، وقد أنشئ هذا النوع لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم بأجر، أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم، وقد اهتم روّاد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب وأكثروا منها في بلادهم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبة في الأجر، وحرصاً على نشر العلم، وقد أطلق على هذا النوع من الكتاتيب: (مكاتب الأيْتام)، أو مكاتب السَبيْل، وقد خصّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية فقال: ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم، وعليهم بقدر ما يكفيهم[6]، كما تحدث ابن جبير

---

(1) العبر الذهبي (3/ 74)، الحياة العلمية، ص: 137.
(2) الدارس (2/ 153، 154)، الحياة العلمية، ص: 137.
(3) الحياة العلمية، ص: 138.
(4) المصدر نفسه، ص: 119.
(5) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 120.
(6) الرحلة، ص: 245.

عن واحد من هذه الكتاتيب في دمشق، ووصفه بقوله: وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما نقوم بهم وبكسوتهم[1]. كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس وبجانبها مكاتب الأيتام حتى إذا أتمَّ الصبي تعليمه في الكُتَّاب، انتقل إلى المدرسة إن رغب في مواصلة دراسته وله الجراية المستمرة أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قَايْمَاز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة (595هـ/ 1199م) إذ أنشأ مكتباً للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة[2]، وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية حيث وجد العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس، أو قريبة منها[3]، وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانباً من العلوم الإسلامية المُتفقة مع قدراتهم لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلامية متينة[4]. وهكذا نرى أن للأطفال نصيب في المشروع الإسلامي النهضوي الذي قاده نور الدين للتصدي للأخطار الباطنية والغزو الخارجي، والسير على نهج الإحياء الإسلامي السني الكبير.

7 ـ المكتبات:

تعدُّ المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان المعيار الذي يُحكم به على تقدم هذا المجتمع أو ذلك العصر، وقد كانت المكتبات بمثابة دور التعليم في شتى العصور الإسلامية، وهيئات ينفق عليها الملوك والأمراء، والأثرياء، والعلماء، لنشر العلم بين الناس، خصوصاً في وقت لم يكن للطباعة أي وجود، وكانت الكتب تُنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في هذا العمل، فكان يتعذَّر على الكثيرين من طلاب العلم اقتناء الكتب لقلّة عدد نسخها وارتفاع أسعارها، لأنها تُنسخ باليد، ومن هنا نشأت فكرة جمع الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الاطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عُرف بـ (خزائن الكتب أو المكتبات)[5]، وقد اهتم الزنكيون ـ كغيرهم ـ بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، وغيرها من دور التعليم القائمة في ذلك العهد وقلّما نجد داراً تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب والباحثون في مختلف التخصُّصات تبعاً لحجم تلك الدار، والأوقاف التي

(1) وفيات الأعيان (4/ 82، 83)، الحياة العلمية، ص: 121.
(2) الحياة العلمية، ص: 121.
(3) المصدر نفسه، ص: 121.
(4) المصدر نفسه، ص: 121.
(5) المصدر نفسه، ص: 154.

أوقفت عليها، ولا أدل على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيّمة، وجعل عليها وقفاً كبيراً يصرف منه على المكتبة والمشتغلين بها[1]. وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: إنه حصّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة[2].

8 ـ الإنفاق على الأيتام والأرامل:

كان طبيعة المجتمع جهادي، واشتبك المسلمون مع الصليبيين في معارك كثيرة، وترتب على ذلك تزايد أعداد من الشهداء وخرجت للوجود ظاهرة الترمُّل ووجدت النساء المترملات اللاتي فقدن أزواجهن في ساحات الوغى. وأشرفت الدولة النورية على تزويج الأرامل والاهتمام بهن، ووجد الأطفال اليتامى الذين فقدوا آباءهم في ساحات الهيجاء العناية والاهتمام، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرصت على علاج أوضاعهم من خلال صرف مخصصات لهم من مال وكساء[3]، ففي سنة (569هـ/ 1173م) استدعى نور الدين محمود ابن زنكي رؤساء دمشق ومشايخها ومقدّمي حاراتها ودروبها، وقال: أريد منكم أن تكشفوا عن أحوال مجاوريكم فعرّفوني باليتامى والأرامل ومن انقطع عن التكسب، ومن اختلت أحواله لأنظر في حالهم، ففعلوا ذلك فبعث إليهم بالغلات والكسوات ووظف لهم الوظائف[4]، وكان نور الدين محمود يعتني بعائلات الذين ماتوا في ميادين المعارك أو موتاً طبيعياً، فإن توفي أحد أجناده وله ولد يقره على إقطاع أبيه، وإن كان الولد صغيراً رتب معه رجلاً يوثق به إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد من الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب[5].

9 ـ الإنفاق على الحصون والخانات و«المجال العمراني»:

كان نور الدين محباً للبناء والعمران ولكن ليس لبناء القصور وأماكن اللهو، فقد كان أبعد الناس عن هذا المعنى، إنما العمران الذي يقضي الحاجة، ويخدم مصالح الأمة، كأسوار المدن والقلاع والحصون الضرورية لحماية السكان وصدّ هجمات العدو، وإسكان الجند، وحفظ المؤن والأسلحة اللازمة للقتال، الأمر الذي كانت تقتضيه ظروف المواجهة مع الغزاة

---

(1) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 154.

(2) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 154.

(3) زبدة الحلب (2/ 39)، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 261.

(4) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الخدمات العامة في بغداد، ص: 80.

(5) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 191.

الفرنجة، ثم المساجد والمدارس ودور الأيتام والغرباء الضرورية لتربية الأجيال على الخير والصلاح، والمستشفيات والأسواق والخانات والحمامات والقنوات والقناطر والجسور لتسهيل العمل بالزراعة والتجارة، من أجل تحقيق الكفاية وتحسين المعيشة وزيادة موارد الدولة، هذا هو العمران الذي أحبه نور الدين، وأنفق القسم الأكبر من خزينة الدولة في سبيل تحقيقه[1]، فقد بنى أسوار مدن بلاد الشام جميعها وأصلح القلاع والحصون بعد الزلازل التي حصلت عام (552هـ/ 1157م)، وكذلك بعد الزلازل التي وقعت عام (566هـ/ 1171م)[2]، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة يقول ابن الأثير في ذلك: فمن ذلك أنه بنى أسوار الشام جميعها وقلاعها فمنها حلب وحماه وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس[3]، وكنا قد تحدثنا بنوع من التفصيل عن المدارس والمستشفيات ودور الأيتام والمساجد، ومن مظاهر العمران التي استحدثها نور الدين بناء الأبراج على الطرق بين الإمارات الفرنجية وما جاورها من بلاد الشام حتى المدن الرئيسية (دمشق، حلب، حماه، حمص) ووضع فيها حاميات صغيرة ومعهم الزاجل لينذروا من يليهم من بلاد المسلمين عن حركات الفرنجة، فيستعد المسلمون للقائهم، فكانت هذه الأبراج تعمل كنقاط مراقبة دائمة لتمرير المعلومات عن العدو[4] وأما ما يتعلق بالمرافق العامة كالخانات والحمامات، والأسواق ودور الوضوء فقد تميزت مدن الشام بكثرتها وترتيبها ونظامها، فقد وصف ابن جبير دمشق بقوله: وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلّها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة وأسواق هذه البلدة من أفضل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً ولاسيما قيسارياتها، وهي مرتفعة كأنها الفنادق مشققة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور[5]. ويصف ابن جبير مدينة حلب بقوله: أما البلد فموضوعه ضخم جداً جميل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة أخرى إلى أن تفرّغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مشقف بالخشب فسكانها في ظلال وارفة وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة، وتخلّلتها شُرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم، وهذا الجامع

---

(1) سنا البرق الشامي، ص: 27.

(2) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة.

(3) الباهر، ص: 170، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(4) الباهر، ص: 171، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(5) رحلة ابن جبير، ص: 235 ، 236.

من أحسن الجوامع وأجملها وحسنه أكثر من أن يوصف، ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة[1]، واتسعت مدن بلاد الشام وتضاعف عدد سكانها عدة مرات خلال عهد نور الدين[2]. فقد كانت بنايات مدينة دمشق ـ أحياناً ـ من ثلاثة طبقات تحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن. وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة وصارت تعاني من كثرة العالم وامتدت بساتين دمشق من حولها إلى مسافة خمسة عشر ميلاً، ولم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مُغل، ومع أن نور الدين كان يركز في البناء والعمران على البساطة والمتانة، إلا أنه كان يميل إلى تجميل البناء وتحسينه ليكون البناء متناسقاً حسن الصورة مع عدم المبالغة في الزخرفة والتزيين، فقد أحضر للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب قطعاً من الرّخام الشفاف من مدينة أفاميه، وأمر بتجميل محراب المدرسة العمادية في دمشق بفصوص من الذهب وبنى في قلعة دمشق داراً عامّة سمّاها: دار المسرّة، وأوقف بعض البساتين في دمشق على تطييب جوامعها ومدارسها[3]. لقد شكلت الإنجازات الباهرة المتعددة التي حققها نور الدين أركان نهضة الأمة. والجدير بالملاحظة والاعتبار أن نور الدين حقق هذه الإنجازات في ظل ظروف بالغة الصعوبة، فقد كان في حالة حرب مستمرة مع الغزاة الفرنجة[4].

10 ـ فك الأسرى:

وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين، لقد فرّق الرجل اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى أهل الشام، فكان يقول: هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم[5].

11 ـ في عام 569هـ شهدت خدمات اجتماعية كبيرة:

في عام (569هـ) ـ السنة التي توفي فيها نور الدين ـ شهدت دولته جملة خدمات اجتماعية أخرى، شملت الكثير من القطاعات وتطلبت الكثير من النفقات: فزيدت الأوقاف ووسّعت الصدقات، ووفرت النفقات، ويجمع عدد من المؤرخين على أن تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للإعجاب، وتوضّح لنا إلى أي مدى كان نور الدين

---

(1) رحلة ابن جبير، ص: 203، 204، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 187.

(2) رحلة ابن جبير، ص: 230، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 188.

(3) الكواكب الدرية، ص: 47.

(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 188.

(5) رحلة ابن جبير، ص: 280، نور الدين محمود، ص: 118.

يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة، ملبساً ونفقة وإشباعاً إكساء الأيتام والنسوة وتزويج الأرامل وإغناء الفقراء وختان الأطفال[1]. ويعلق العماد الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله: . . حسبنا ما تصدق به على الفقراء في تلك الأشهر فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهباً وكان إذا مر بصدقة غلّة أو ذهب تقدم إلى خادمه بإحضار جماعة من أماثل البلد وعدوله من أهل كل محلة فيقول لكل واحد: كم تعرف في جوارك من. . وغيرهم ؟ فيقول: أعرف كذا وكذا فيسلم إليه صدقات أولئك الأعداد، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين. ثم يأتيه كل منهم يثبت ما فرّقه[2].

لقد تحقق في عهد نور الدين محمود ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية. إن المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب. . ولكنه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله، المجتمع الذي يمحى فيه الاستغلال، وتضيق الفوارق ويشترك الجميع بالحق والعدل فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية، لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء ذلك الآفاق الواسعة الرحيبة التي جاء الإسلام لكي يقوم الناس إليها. لقد تحقق التعاون الفعّال بين القيادة والقواعد[3]، فنهض الجميع من كبوته واستوعب مشروعه الحضاري وقام بدوره الريادي. وهذه صورة من بين عشرات الصور، التي وصف بها هذا المجتمع يحدثنا عنها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين: . . إن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (580هـ)، خرج الناس لتلقيهم الجمّ الغفير رجالاً ونساءً يصافحونهم. . وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الأطعمة. . وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم ـ إن أحبّ ـ ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى[4]. وفي مكان آخر يقول ابن جبير شاهد العيان هذا ـ مثمناً أخلاقية المجتمع الإسلامي هناك: . . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلّا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء، وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها لكفى بها فضلاً[5].

إن من أبرز المعالم في تاريخنا كله: الإيمان بكرامة الإنسان وفطرة الإنسان، وحرمة

---

(1) زبدة دمشق (2/ 240)، نور الدين محمود، ص: 117.
(2) البرق، ص: 143، نور الدين محمود، ص: 117.
(3) نور الدين محمود، ص: 119.
(4) رحلة ابن جبير، ص: 259، نور الدين محمود، ص: 119.
(5) نور الدين محمود، ص: 119.

الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماله، وحقوق الإنسان: حقه في الحياة، وحقه في الحرية، وحقه في المساواة، وحقه في عيش كريم له ولمن يعول وأصل ذلك: أن الإسلام الذي صنع هذا التاريخ: يكرم الإنسان من حيث هو إنسان من ذرية آدم، الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله في الأرض خليفة قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: 70]. وأكد القرآن مع كتب السماء ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 32]. كما أكد الإسلام: أن البشر جميعاً سواسية كأسنان المشط، لا يفرق بينهم عرق ولا لون ولا لغة ولا إقليم ولا طبقة، وإنما يتفاضلون عند الله بالتقوى قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13].

لهذا كان من أبرز المعاني الإنسانية المرعية والمؤكدة في تاريخنا كله: المساواة بين البشر جميعاً: بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء شرفاء ووضعاء مسلمين وغير مسلمين[1] في إقامة العدل.

ومن المعاني الإنسانية العميقة البارزة في تاريخنا الإسلامي: البر والإحسان بالناس، وبذل المعروف لهم، وإعانتهم في السراء والضراء، وخصوصاً الضعفاء والمحرومين منهم، أياً كان سبب ضعفه، فمنهم من ضعفه بسبب فقد المال كالمسكين، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الوطن كابن السبيل، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الحرية كالأسير والرقيق، وقد أوصى الإسلام بهم جميعاً كما قال تعالى في وصف عباده الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: 8-9]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: 117] وهؤلاء لهم في الإسلام حقوق بعضها واجبة وبعضها مندوبة وبعضها تطالب به الدولة، وبعضها من الصدقات المعتادة، وبعضها من الصدقات الجارية، التي تمثّلت في نظام الوقف الخيري، الذي رسخت جذوره، وسبقت فروعه، وامتدت ظلاله، وآتى ثماره في الحياة الإسلامية وتميّز به تاريخ المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم[2].

ـ ومن أبرز الدلائل على رسوخ المعاني الإنسانية في حضارتنا ووضوحها في تاريخ

---

(1) تاريخنا المفترى عليه، للقرضاوي، ص: 138. (2) تاريخنا المفترى عليه، ص: 141.

أمتنا: كثرة المؤسسات التي تعنى بخير الإنسان والبرية[1]، وإليك هذه الصفحات المشرقة مما كتبها الداعية الكبير والمجاهد الشهير العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه البديع من «روائع حضارتنا» عن هذه المؤسسات ـ فقال: كانت المؤسسات نوعين: نوعاً تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، ونوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء، ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسناً أن نلمّ بأهمها:

ـ **فمن أول المؤسسات الخيرية**: المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها، وحسبنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

ـ **ومن المؤسسات الخيرية**: بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر.

ـ **ومنها**: التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله ﷻ.

ـ **ومنها**: بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.

ـ **ومنها**: السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً.

ـ **ومنها**: المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء (شُربة)، وحلوى، ويقول الدكتور السباعي: ولا يزال عهدنا قريباً بهذا النوع في كل من تكية السلطان سليم، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق.

ـ **ومنها**: بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت وعمّت أرض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج.

ـ **ومنها**: حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قل أن يتعرض المسافرون في تلك الأيام لخطر العطش.

---

(1) تاريخنا المفترى عليه، ص: 144.

ـ **ومنها**: أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر، ويتبع ذلك وقف الخيول وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله ﷻ، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى بلادنا ـ أيام الهدنة ـ ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، (فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالة على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا) ويتبع ذلك أوقاف يُعطى رِيْعها لمن يريد الجهاد وللجيش المحارب، حين تعجز الدولة في الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنة عرضها السمٰوات والأرض. . فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم ـ لا أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم ـ لا أسبوعاً واحداً في العام ـ مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعداداً لصد العدوان وحماية الديار.

ـ ومن المؤسسات الاجتماعية ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور.

ـ **ومنها**: ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

ـ **ومنها**: ما كان أكفاناً للموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

ـ **ومنها**: المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي، لليتامى ولختانهم ورعيتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

ـ وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب، لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم إليها اليوم.

ـ **ومنها**: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحُّصها للخير الخالص لله ﷻ، وقد كان من مبرّات صلاح

الدين: أنه جعل في أحد أبواب القلعة ـ الباقية حتى الآن في دمشق ـ ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر[1].

ومن أطرف المؤسسات الخيرية: وقف الزبادي[2] للأولاد الذين يكسرون الزبادي وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً. وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات: المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى فيه حتى تلاقي حتفها.

أما بعد فهذه ثلاثون نوعاً من المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟ اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتظالم، اللهم إنه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المعذبة أوصابها وآلامها.. فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيادي التي تمسح عبرة اليتيم، وتأسو جراح الكليم، وتجعل من مجتمعنا مجتمعاً متراصاً، ينعم فيه الناس جميعاً بالأمن والخير والكرامة والسلام[3]؟

المبحث السادس
أهمية التربية والتعليم في النهوض الحضاري

أدرك المشرفون على عملية التغيير وفقه النهوض أن عز هذه الأمة وقوتها في تمسكها بدينها وعملها بكتاب ربها وسنة نبيها، وأن الجيل الأول من سلف هذه الأمة ما انتصر على أعدائه إلّا بقوة العقيدة، وأن النصر والتأييد والتمكين لهذه الأمة مقرون بالالتزام بعقيدة التوحيد الخالصة، والعمل بمقتضاها، وأن هذه الأمة تكون هدفاً للسهام وطعمة لسيوف الأعداء بمجرد الزيغ عن هذه العقيدة، والانحراف عن هذا المنهج وأن الهزائم التي حلت بالمسلمين أمام حملات الصليبيين كانت ثمرة طبيعية ونتيجة حتمية للانحراف العقائدي

(1) من روائع حضارتنا مصطفى السباعي، ص: 178.

(2) الزبادي: جمع زبدية، وهي إناء من الفخار عادة، يوضع فيه اللبن حتى يتغمّر.

(3) من روائع حضارتنا، ص: 178، 182، تاريخنا المفترى عليه، ص: 148.

والفساد الفكري الذي أصاب الأمة[1]، وقد ألهم الله قادة الأمة من أمثال نور الدين محمود إلى إدراك دور العقيدة الصحيحة في صناعة النصر وأن الأمة بدونها تتحول إلى قطيع من الأغنام لا تقوى على شيء، ولذلك فإن أول ما بدأت به عملية التغيير والإصلاح والتجديد هو إعادة بناء العقيدة في النفوس، وإعادة صياغة الإنسان المسلم على التوحيد الخالص، بتجديد العقيدة في نفوس الناس وإزالة كل ما علق بالنفوس من بدع وعقائد فاسدة ولذلك راحوا يواجهون التحديات الباطنية في إفساد العقائد الإسلامية بنشر العقيدة الصحيحة عن طريق مؤسسات تجسد العقيدة في النفوس وواقع الحياة اليومية عن طريق التعليم الإسلامي النقي في عدد من المدارس والمساجد تم إنشاؤها وإعدادها لهذا الغرض قام بالتدريس فيها صفوة من علماء الأمة وخيرة مفكريها[2].

وقد كانت بداية حركة الإصلاح والتجديد على يد السلاجقة السنة الذين زحفوا على بغداد واستنقذوا الخليفة العباسي من الأسر والذل الفاطمي الرافضي الشيعي، بعد الانقلاب الذي دبرته الدولة الفاطمية على يد القائد العسكري البساسيري، الذي تشيع وترفض واعتنق المذهب الإسماعيلي، وقد هدى الله قادة تلك الدولة السلجوقية السنية إلى أن السيوف تفل السيوف، وأن الحجة لا تقرع إلا بالحجة، وأن الأفكار والعقائد لا بد من غرسها عن طريق التعليم والتربية والتهذيب لا بالسيف والسنان خصوصاً وأن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الحق ودين الله تعالى الذي بعث به رسوله، فأنشأوا لهذا الغرض ما عرف باسم «المدارس النظامية» نسبة إلى الوزير العظيم نظام الملك، وقد تحدثت عن سيرة نظام الملك والمدارس النظامية في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي» وإلى جانب نظام الملك كان هناك عشرات من الذين تولوا الإدارة والجيش والقضاء والحسبة وآخرون تولوا القيام على المدارس النظامية كالإمام الجويني وأبي إسحاق الشيرازي، وأبي القاسم القشيري والإمام الغزالي، وغيرهم، ولقد واجهت الدولة السلجوقية ورجالها العظام الخطر الفاطمي الباطني الذي انتشر في مختلف البقاع الإسلامية، لقد كانت المدارس النظامية والحركة المباركة التي قادها السلاطين السلاجقة من أمثال ألب أرسلان مع العلماء لمواجهة التحدّي الفاطمي الرافضي الباطني أطيب الأثر في وضع الأمة على الطريق الصحيح الذي سار عليه من بعدهم رجال من القادة السياسيين والعلماء العاملين المخلصين، فكانت لتلك الشجرة الطيبة الكثير من الغصون والثمار التي طابت وأينعت وامتدت ونمت وتفرّعت حتى عمَّ خيرها الجميع[3]، وقد تحدثت عن حركة الإصلاح التي قام بها الإمام

---

(1) لا طريق غير الجهاد لتحرير القدس، ص: 320.
(2) المصدر نفسه، ص: 321.
(3) المصدر نفسه، ص: 322.

الغزالي في كتابي عن دولة السلاجقة وعن جهوده الفذة في مقارعة التشيُّع الرافضي الباطني، وسيأتي الحديث بإذن الله عن المدرسة القادرية وشيخها عبد القادر الجيلاني وجهوده في الإحياء السني ودوره في نهضة الأمة وترشيد التصوف السني، فقد لعبت المدرسة القادرية دوراً مهماً جداً في حركة الإصلاح والتجديد والتغيير الاجتماعي وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله.

وعندما جاء نور الدين للحكم استفاد من الجهود العلمية والتربوية التي سبقته وأدركت دولته أن التعليم هو الدعامة الأساسية في بناء الشخصية المتكاملة من جميع النواحي العقائدية، والثقافية والفكرية... إلخ، واعتبرت الإنسان الكنز الذي لا يُقدّر بأي ثمن، فجعلته مدار اهتمامها، وقطب الرحى في تفكيرها فعمدت إلى بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ودور القرآن والحديث، وأحيت رسالة المسجد ليسهم في عملية البناء والتصحيح الجديدة، وتوجيه وتوعية الأمة وتعبئتها تعبئة عامة شاملة لمواجهة الأخطار ومجابهة التحديات الداخلية الباطنية والخارجية الصليبية، وكونت مجلساً عاماً يشرف على العملية التعليمية والصياغة التربوية يضم أهل الحل والعقد وهيئة كبار العلماء العاملين المخلصين والقادة العسكريين والفقهاء والشيوخ المستنيرين وكان نور الدين أحد أعضاء هذا المجلس الأعلى الذي يشرف على التخطيط العام والشامل، وكان يجلس مع العلماء والشيوخ يتدارسون الأمور إلى ما يحقق المصلحة الإسلامية[1]. ورسم هذا المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق بين السياسات العامة الواجب اتباعها نحو إعداد الأمة الإسلامية كلها إعداداً جديداً، وبنائها بناءً سليماً على طريقة السلف الصالح، فقرروا ضرورة تأسيس مئات المدارس ونشر التعليم الإسلامي في جميع أنحاء البلاد، كما قرروا إقامة مئات المساجد للقيام بواجب التزكية والتحلية بالفضائل، والتخلية من الرذائل، واستقدموا آلاف العلماء والمربين المشهورين للقيام بواجب التدريس في المدارس والتوجيه في المساجد وكانوا من خريجي المدرستين الغزالية والقادرية[2]، ولم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة[3]. وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء القادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة[4] منها فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم كافة المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين من الكبار والصغار والرجال والنساء، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما

---

(1) لا طريق إلا الجهاد، ص: 334.

(2) المصدر نفسه، ص: 334.

(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 257.

(4) المصدر نفسه، ص: 258، 259.

عمدت الخطة الحكيمة على تعرية المذاهب الهدّامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطرها وضررها على النفس والمجتمع والأمة وأن لا خروج من المحنة، ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كانت عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية، لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروِّجيها. لقد التزمت الدولة الزنكية بالإسلام عقيدة وعملاً ومنهجاً، والتزمت بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة للجميع، فأصلحت ما يمكن إصلاحه من أصحاب الاتجاهات والفلسفات كالصوفية المنحرفةِ التي استطاعت الدولة الزنكية أن تنقيها مما علق فيها من أتباع الفكر الإسماعيلي الباطني، فأقامت لشيوخها الزّوايا والأربطة وأنفقت عليهم الأموال، وأمدتهم بالعطايا والهبات، وأخرجت التصوف من أسر الفكر الباطني وبذلك أصبحت المؤسسات الصوفية تؤدي دورها التربوي ونشر السلوك الإسلامي وفق منهج أهل السنة والجماعة إلى جانب المدارس والمساجد في التوجيه والإرشاد والتعليم والتهذيب حسب الخطة العامة للدولة وتحت إشراف المجلس التعليمي الأعلى. لقد وجه التعليم الإسلامي عناية خاصة لإعداد الأمة كلها للجهاد بكافة أنواعه من الإعداد المادي والمعنوي وتربية النفوس ومجاهدتها في ذات الله، ومجاهدة الشيطان والجهاد بالمال والنفس، والتعبئة الروحية العالية، وتربية الإرادة القتالية عند جميع أفراد الأمة دون أن يقتصر ذلك على طائفة دون أخرى بالإضافة إلى طائفة مختصة عنت الدولة بإعدادها إعداداً قتالياً خالصاً، وتدريبها تدريباً عسكرياً متميزاً يجعلها تتفوق على ما عند الأعداء[1].

أولاً: فئات المدرسين في الدولة الزنكية:

1 ـ معلمو الكتاتيب:

الاسم الشائع الذي كان يطلق على معلم الصبيان في العهد الزنكي هو (المعلم) أو (المؤدب). ومعلم الكتاب في ذلك العهد يماثل معلم المرحلة الابتدائية في عهدنا الحاضر، من حيث أنه يتولى تعليم الأطفال العلوم الأساسية، ويشرف على تربيتهم وتوجيههم، وتأهيلهم إلى المرحلة الأعلى وقد اهتم حكام العهد الزنكي بهذه المرحلة من التعليم اهتماماً خاصاً وحظي معلمو هذه المرحلة بمكانة عالية لديهم، فوفّروا لهم كافة سبل العيش المريح للقيام بمهمتهم على أفضل وجه وأداء رسالتهم المهمّة في توجيه اللبنة الأولى في التعليم على

(1) لا طريق غير الجهاد، ص: 335.

النهج السليم الذي رسمته تلك الدولة، هو إعدادهم مُنذ صغرهم ليتخرجوا صَحيحي العقيدة سَليمي الذهن[1] متأثرين بذلك التوجه الإسلامي ليتخذوا مواقعهم في المجتمَع، وليقوموا بالأعمال المنوطة بهم مستقبلاً على التوجه السليم والسياسة المرسومة[2]. وكان من أهم ما يتطلبه تعليم الصبيان في المعلم أن يكون حافظاً لكتاب الله ملمّاً ببعض علوم اللغة وأصول الحساب والخط[3]، وكان يشترط فيمن يقوم بتعليم الصبيان شروط خلقية كثيرة ذلك لأنه كلما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجمُّلاً ورفعة، وفي هذا الصدد يقول الإمام الغزالي المتوفى سنة (505هـ/ 1112م): إن صلاح التلميذ بصلاح معلمه، فإن أعينهم إليه ناظرة، وآذانهم إليه مصغية، فما استحسنه فهو عندهم الحسن وما استقبحه فهو القبيح[4]، كما اشترط المُرَبون في المعلم أن يكون عادلاً بين الصبيان، وأن يكونوا عنده بالمنزلة سواء لا تفريق بينهم، فابن الفقير وابن الغني على حد سواء في التربية والتعليم[5]. هذا إلى جانب كونه من أهل التقوى والورع والعفة، واستحب المربون في معلم الكتّاب أن يكون كبير السن[6]. وقد اشتهر بالتأديب في العهد الزنكي الشيخ علي بن منصور السُرُوجي المتوفى سنة (572هـ/ 1176م)[7] وكان قد ندبه الملك عماد الدين زنكي لتربية أولاده وتعليمهم، وقد اشتهر السروجي ببراعته في الأدب والشعر وحسن الخط[8]. ولقد تمتع معلمو الكتاتيب في ذلك العهد بمركز مالي جيد في الكتاتيب الموقوفة إذ وفر لهم الواقفون رواتب شهرية تُصرف لهم من إيراد الوقف[9]، كما ذكر أبو شامة عن نور الدين أنه بنى في بلاده الكثير من الكتاتيب وأجرى على المعلمين والصبيان رواتب وافرة[10]، وقد دفع هذا التشجيع المادي والمعنوي الكثير من المعلمين إلى الإقبال على التعليم، بطمأنينة وراحة بال[11].

2 ـ المدرسون:

إن نظام التعليم المتبع في العهد الزنكي لا يقل شأناً عن نظام المدارس في العصر

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 166.
(2) المصدر نفسه، ص: 166.
(3) مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة (2/ 317).
(4) إحياء علوم الدين (1/ 63، 64).
(5) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 167.
(6) المصدر نفسه، ص: 167.
(7) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية ص168.
(8) المصدر نفسه، ص: 168.
(9) المصدر نفسه، ص: 169.
(10) كتاب الروضتين نقلا عن الحياة العلمية، ص: 169.
(11) الحياة العلمية، ص: 169.

الحاضر، فإن النظام المتبع آنذاك هو أن يكون لكل مدرسة عدد من المدرسين يختص كل واحد منهم بتدريس مادة أو أكثر، ويشرف عليهم شيخ يسمى: ناظر المدرسة ويشترط أن يكون الناظر من خيار المدرسين وأشهرهم ومن الذين بلغوا درجة عالية من النضج العلمي، والقدرة العالية في مجال التأليف والتدريس وقد عني الزنكيون ومن سار على نهجهم في إنشاء المدارس ودور التعليم المختلفة باختيار العلماء الأفذاذ للتدريس في مراكزهم وحرصوا على استجلاب من أثر عنه العلم الوافر، والسمعة الحسنة بين العلماء وطلاب العلم، كما حرصوا أن يكون المدرس سليم العقيدة حتى يتوافق مع التوجيه الديني الشامل للدولة[1]، وكان المدرسون في العهد الزنكي يتقاضون رواتب، أو معاليم تصرف لهم من الأوقاف التي كانت توقف على المدرسة، وكانت تلك الأجور أو المعاليم تتأثر بظروف مقدار الوقف على المدرسة وما يدرّه شهرياً أو سنوياً وكان هناك من المدرسين من يأنفون من أخذ ما يُخصص لهم من تلك الأوقاف فقد رفض القاسم ابن الحافظ علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة (600هـ/ 1203م)[2] وكان مدرساً بدار الحديث النورية بدمشق، أن يتناول من معلومه شيئاً، فقد تنازل عنه لمن يتردد عليه من الطلبة[3]، وكان يحق للمدرس أن يستنيب من يقوم بالتدريس مكانه في إحدى المدارس، ومن هنا ظهر منصب «نائب المدرس» وهو أعلى من رتبة المعيد، وأقل من رتبة المدرس، ومن ذلك أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون درَّس بالمدرسة الأمينية بدمشق[4]، وأناب عنه في بعض وقته الفقيه أبا الفضائل الدمشقي[5]، المتوفى سنة (561هـ/ 1165م)[6].

3 ـ المعيدون:

من الواضح أن نظام الإعادة الذي نجده منتشراً في جامعتنا في الوقت الحاضر لم يكن وليد نُظم التعليم الحديثة فقد سبقتها المدارس الإسلامية الأولى إلى استعمال هذا النظام، ولم تظهر وظيفة المعيد في تاريخ التعليم عند المسلمين إلا مع ظهور المدارس وتطور وظائفها في منتصف القرن الخامس الهجري[7].

ثانياً: فئات الطلاب:

1 ـ طلاب المرحلة الأولى:

اهتم الحكام الزنكيون وبعض الموسرين في الدولة الزنكية بإنشاء الكتاتيب لتعليم

---

(1) الحياة العلمية، ص: 170.
(2) المصدر نفسه، ص: 176.
(3) المصدر نفسه، ص: 176.
(4) الدارس (1/ 178)، الحياة العلمية، ص: 178.
(5) طبقات الشافعية (7/ 186)، الحياة العلمية، ص: 178.
(6) الحياة العلمية، ص: 178.
(7) المصدر نفسه، ص: 179.

صغار المسلمين القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، وطرقاً من العلوم الأولية البسيطة مثل: الكتابة، والحساب، وما يُستحسن من الأشعار وقد ذكر ابن العربي الذي زار بلاد الشام في بداية القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أن للقوم في التعليم سيرة بديعة، وهو أن الصغير منهم إذ عقل، بعثوه إلى المكتب[1] وقد حدد ابن الجوزي المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) بقوله: ومتى اعتدل المزاج وتكامل العقل، أوجب ذلك يقظة الصبي، فإذا بلغ خمس سنين أخذ يحفظ العلم[2]، وأما المدة التي كان يقضيها الطفل في الكُتّاب فهي أيضاً تختلف باختلاف استعداد الطفل ومدى قابليته للتعلم، وإمكانياته في الانتقال إلى المرحلة التعليمية التالية على أن هناك بعض الإشارات التي تحدد مدة الدراسة بالكتّاب بسن البلوغ فقد أشارت بعض المصادر إلى أن الصبي إذا بلغ سن البلوغ ترك المكتب وهذه تتراوح ما بين الثانية عشر والخامسة عشر[3]، وكانت أيام التعليم في الغالب خمسة أيام ونصف اليوم: السبت والأحد والإثنين والثلاثاء، والأربعاء، وصبحة الخميس حيث كان بقية يوم الخميس، وطوال الجمعة عطلة الراحة، بالإضافة إلى أيام عيد الفطر الثلاثة وأيام عيد الأضحى الخمسة وبعض المناسبات العامة[4]، وأما من حيث منهج الدراسة في المرحلة الأولى فتعلم أقرب المصادر للعهد الزنكي التي توضح منهج التعليم في هذه المرحلة هو كتابة نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمٰن بن نصر الشيزري المتوفى سنة (589هـ/ 1193م) الذي وصف حال تعليم الصبيان في ذلك العهد، وما ينبغي للمعلم اتخاذه تجاه تعليمهم وطريقته ومن ذلك قوله: وأول ما ينبغي للمؤدب أن يعلم الصبي السور القصار من القرآن بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل، ويُدرّجه في ذلك حتى يألفه طبعه ثم يعرفه عقائد أهل السنة والجماعة، ثم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات والأشعار دون سخيفها ومسترذلها[5]. ولم تقتصر الحياة التعليمية في الكتاتيب على تعليم الصبية الكتابة والقراءة وتحفيظهم القرآن فحسب، بل تعداه إلى أن يقوم المعلم بتأديب الصبيان وتعويدهم الآداب الحسنة[6]، وقد شبّه الإمام الغزالي المعلم الذي يُربي الصبية ويهديهم الأخلاق الفاضلة بالرفق واللين، ويبعدهم من السقوط بالمهالك والشرور بالفلاح الذي يقطع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه[7]، وقد تعددت وسائل التحصيل وأساليب التعليم في الكتاتيب على

---

(1) أحكام القرآن (4/ 1895) الحياة الزنكية، ص: 193.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 193.

(3) المصدر نفسه، ص: 195.

(4) التربية والتعليم في الإسلام، ص: 78 محمد أسعد طلس.

(5) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص: 103.

(6) المصدر نفسه.

(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 197.

النحو الآتي: في السنوات الأولى من هذه المرحلة يهتم المؤدب بتعليم الأطفال السور القصار من القرآن الكريم وكانت وسيلته في ذلك أسلوب التلقين، بمعنى أن المعلم كان يقرأ وعلى الصبي أن يكرر ما يقرأه معلمه من فقرات إلى أن يتم حفظها، وهكذا يستمر معه، وقد أكد ابن جبير اشتهار هذه الطريقة في البلاد الزنكية التي زارها بقوله: وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين[1]. ويذكر ابن جبير عند الحديث عن تعليم الصبيان في دمشق أن سور القرآن لم تستعمل في تعليم الأطفال الكتابة، وإنما استعملت أبيات من الشعر لهذا الغرض، وأن تعليم القرآن والكتابة لا يقوم بهما مدرس واحد وإنما يخصص معلم لكل منهما على حدة، فإذا فرغ الصبي من التلقين التحق بالكتّاب الخاص بتعليم الخط، ويستصوب ابن جُبير هذه الطريقة إذ يرى فيها إتقاناً للخط لأن المعلم له لا ينشغل بغيره فهو يستفرغ جهده في تعليم الخط، فيبرع الطفل في ذلك[2].

أما طريقة تدريس الشعر فكانت تتلخص في أن يختار المعلم للأطفال الأشعار السهلة في العبارة واللغة، كي يسهل حفظها وفهمها، كما يراعي في اختياره ما قيل من الأشعار الحسنة والنبيلة دون السخيف والرذيل منها، وكان الطفل يقوم بتكرار هذه الأشعار حتى يتم حفظها[3]. هذه هي أهم وسائل التحصيل وأساليب التعليم في تلك المرحلة المبدئية من التعليم وكانت تتميز بالبساطة، والتدرج في المعلومات ما أمكن، والحرص على تربية الصبية خلقياً إلى جانب تحصيلهم العلمي[4].

2 ـ طلاب المرحلة العليا:

يُطلق على هذه الفئة من الطلبة في بعض الأحيان لقب «الفقهاء» وقد غلب إطلاق هذا اللقب في العهد الزنكي على طلاب المدارس[5]، ويمكن تصنيف هذا النوع من الطلبة إلى صفين: طلبة عارضين، وآخرين منتظمين، فالصف الأول: يشمل أعداداً كبيرة من أصحاب الحرف والعمّال وغيرهم ممن يحضر الدروس بين حين وآخر، ولا سيما مجالس الوعظ والإملاء وحِلَق التعليم العامة، غير أنهم لا يواصلون دراستهم ولا يواظبون على الحضور، وهؤلاء يمثلون أضعاف أعداد الطلاب المنتظمين، أما الصنف الآخر فهم الطلبة المنتظمون، وكانوا يقضون شطراً كبيراً من حياتهم في طلب العلم وحده، ولكن ذلك لا يمنع اشتغالهم بكسب الرزق[6]، وكانت المساجد تقوم بالتدريس ولا يشترط في من يريد التعلم عدد معين،

---

(1) كتاب أدب المعلمين، ص: 76.
(2) الرحلة، ص: 245، الحياة العلمية، ص: 199.
(3) الحياة العلمية، ص: 200.
(4) المصدر نفسه، ص: 200.
(5) المصدر نفسه، ص: 201.
(6) المصدر نفسه، ص: 201.

ويختلف الوضع بالنسبة للمدارس، إذ كان يجلس أمام المدرس فيها عدد معين من الطلاب لا يصح تجاوزه في الغالب، ثم إن هذا العدد قليل جداً إذا قيس بأعداد طلاب الحلق في المساجد، وكان مما جرت عليه العادة في المدارس أن يعين منشيء المدرسة أو واقفها مدرساً لها، ويُحدد في الوقت نفسه عدد الطلاب الذين يسمح لهم الالتحاق بها كما حصل في المدرسة النورية بالموصل، حيث حدد واقفها نور الدين أرسلان شاه عدد الطلاب بستين طالباً من فقهاء الشافعية[1]، وكذلك في المدرسة العصرونية بدمشق والتي شرط فيها واقفها ألا يزيد عدد طلبتها على عشرين طالباً من الشافعية وغيرهم[2].

وكان طلاب العلم يحصلون على مرتبات ونفقات تحصل في الغالب من موارد الوقف المخصص للحلقة أو المدرسة، وقد اشتهرت بعض مدارس العهد الزنكي بوفرة ما يناله منسوبوها من الأموال، والمأكولات والملابس، والهدايا في المناسبات، كما كانت عليه المدرسة العُزية بالموصل والحلاوية بحلب والنورية الكبرى في دمشق[3] وغالباً ما يزدحم الطلبة على مثل هذه المدارس لغنى مخصصاتها[4]. كما حرص واقفو المدارس في العهد الزنكي على توفير كافة احتياجات الطلبة الدارسين فيها وبالأخص المسكن الملائم لهم كي يجد الطلبة الغرباء والفقراء المناخ المناسب لتلقي العلم، فكان من مكملات المدارس: إنشاء مرافق تُلحق بها تخصّص لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء، وقد حدثنا الرحالة الأندلسي ابن جُبير عما شاهده في دمشق من التسهيلات المغرية لطلاب العلم، ومنها هذه المرافق فقال: ومرافق الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء ولاسيما لحفاظ كتاب الله ﷻ، والمنتمين للطلب. . .وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم، لكن الاحتفال بهذه البلدة أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المُعينات كثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمّها[5] وقد حرص المربون في العهد الزنكي وبعده أن يسدوا الوصايا والتوجيهات التربوية للطلبة أثناء تلقيهم العلم وكان من أهم تلك الوصايا والتوجيهات ما يأتي:

ـ أن يخلص الطالب نيته في طلب العلم وذلك بأن يقصد بعلمه وجه الله تعالى والعمل بما يعمل، وأن يحذر أن يكون هدفه الأصلي من علمه طلب الرئاسة والمال والجاه[6].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 202.
(2) المصدر نفسه، ص: 202.
(3) المصدر نفسه، ص: 204.
(4) المصدر نفسه، ص: 204.
(5) الرحلة، ص: 227، 228، الحياة العلمية، ص: 205.
(6) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 68، ابن جماعة.

ـ أن يحرص الطالب على وقته بأن يبادر باغتنام فرصة الشباب لاكتساب العلم، وأن يعلم بأن كل ساعة تمضي من عمره لابد لها، ولا عوض، لذلك يجب على طالب العلم أن يقلل من الانشغال عن الدراسة قدر الإمكان[1].

ـ كما ينبغي لطالب العلم أن يصبر ويثبت على أستاذ وعلى كتاب، حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشتغل بفن آخر قبل أن يُتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كله يفرق الأمور، ويشغل القلب، ويُضيّع الأوقات ويؤذي المعلم[2].

ـ وعلى الطالب أن يلتزم بالورع في جميع شؤونه، وأن يتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه... وذلك ليستنير قلبه ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به[3].

وفيما يتصل بالعلاقة بين الطالب وأستاذه، فإن هناك جملة آداب كفلت للمدرس حق الاحترام والطاعة من طلابه إذ كان على الطالب أن يُوفيه تلك الحقوق كاملة من غير نقص ويمكن اختصارها في الأمور الآتية:

ـ من آداب الطالب مع أستاذه إذا دخل عليه أن يكون كامل الهيئة متطهر البدن والثياب، يستأذنه في الدخول وكذلك في الانصراف، وأن يكون دخوله لقاعة الدرس قبل حضور المدرس[4].

ـ أن يجلس بين يدي أستاذه بأدب مصغياً إليه بانتباه، وألا يتشاغل أثناء الدرس ولا يكثر حركة يديه، ولا رجليه ولا يعبث بشيء، أو يكثر الكلام بغير حاجة إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة[5].

ـ كما يلزم على الطالب أن يُحسن مخاطبة شيخه، وألا يقاطعه، أو يخالفه، وأن يتلطف في سؤاله، وأن يحذر من تكرار السؤال، وألا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره[6].

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 70، الحياة العلمية، ص: 205.

(2) تعليم المتعلم، ص: 49، الحياة العلمية، ص: 206.

(3) تعليم المتعلم، ص: 75، الحياة العلمية، ص: 206.

(4) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 95.

(5) الحياة العلمية، ص: 207.

(6) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 101، 102.

وإذا ناول الشيخ شيئاً ناوله باليمين، وإذا ناول الشيخ كتاباً ناوله إياه لفتحه والقراءة فيه[1].

ـ وينبغي للطالب أن يدعو لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه بعد وفاته.. ويستغفر له ويتصدق عنه[2] إلى غير ذلك من الواجبات التي كفلت للأستاذ حق الاحترام والتقدير من طلبته حتى تدوم العلاقة الحسنة بين ركني التعليم: المدرس والطالب على الحب والمودة والتقدير من كلا الجانبين لتكتمل الفائدة[3].

3 ـ تعليم الإناث:

بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الدين الإسلامي الصحيح لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث الشريف تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية، ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة، وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئة في العهد الزنكي حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات، والمحدثات والفقيهات، والأديبات، والنحويات، إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى، كما دأب الكثير منهن على التنقل بين الأقاليم الإسلامية مع محارمهن طلباً للعلم على أكابر العلماء والمحدثين، وقد حصلن على إجازات علمية من كبار مشايخ العصر في مختلف المدن[4]، وحسبنا دليل على نشاط المرأة في هذا الميدان أن الذين ترجموا لابن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م) أجمعوا على أنه أخذ العلم عن بضع وثمانين امرأة[5]، وهذه الإشارة تدل على كثرة النساء المشتغلات بالعلم في ذلك العهد، بحيث أن عالماً واحداً من علماء العصر سمع ما يزيد على ثمانين امرأة، هذا فضلاً عن كثير من عدد النساء اللاتي ترجم لهن ابن عساكر في تاريخه[6] ويبدو من خلال بعض الإشارات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخه الكبير أن المنزل كان المدرسة الأولى التي تتلقى فيها المرأة علومها، ويلاحظ على النساء اللاتي اشتهرن بالعلم في ذلك العهد أنهنّ نشأن في بيوت العلماء، وأنهن درسن على آبائهن أو أحد ذويهن من أولي العلم، أو أنهن كنّ يستفدن من الدروس التي كانت تعقد في بيوتهن لتعليم الطلاب حيث كنّ يستمعن إلى ما كان يُلقى في

---

(1) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 108.

(2) المصدر نفسه، ص: 90.

(3) الحياة العلمية، ص: 207.

(4) الحياة العلمية، ص: 212.

(5) معجم الأدباء (13/ 76) سير أعلام النبلاء (2/ 556).

(6) ترجم ابن عساكر في تاريخه لمائة وست وتسعين امرأة من النساء.

منازلهن من دروس، وهو ما أطلق عليه «التعليم داخل منازل العلماء»[1]، فابن عساكر عندما يُترجم لأم أولاده وابنة خالته ـ عائشة بنت علي بن الخضر بن عبد الله السّلِمّية المتوفاة سنة 564هـ 1168م يقول عنها: أسمعتها الحديث من فاطمة بنت علي بن الحسين بن سهل بن بشر بن أحمد الإسفرائيني المدعوة سِت العجم، والمعروفة بالعالمة الصغيرة، يقول ابن عساكر: سمعت أباها أبا الفرج[2].

كما أن أبواب المساجد كانت مفتوحة لمن أراد أن يتلقى تعليمه من النساء، حيث كن يترددن لحضور الحِلق التي كانت تعقد فيها في أماكن مخصصة لهنّ ومعزولة عن أماكن الرجال لا يكون هناك سبيل للاختلاط[3] ولم يكن للمرأة الحق في التعليم فقط بل كان لها أيضاً الحق في نشر التعليم، وقد شاركت المرأة في ذلك وإن لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس التخصصية بالشكل الذي نراه اليوم، فقد أشار ابن عساكر لمثل هذه المشاركة في ترجمته لفاطمة بنت سهل بن بشر المدعوة سِت العجم من أنها: كانت تعظ النساء في المساجد[4] وممن اشتهر من النساء بالتدريس في هذا العهد: العالمة فاطمة الفقيهة[5]، المعاصرة للملك العادل نور الدين محمود، فقد تصدرت للتدريس في حلب وألّفت مؤلفات عديدة في الفقه والحديث، كما استشارها الملك نور الدين في بعض أموره، واستفتاها في بعض المسائل الفقهية، وكان دائماً يبذل لها ويعينها على مواصلة نشاطها العلمي[6]، وما حدث بين الملك نور الدين والعالمة فاطمة الفقيهة يؤكد حرص المرأة المسلمة في ذلك العهد على الالتزام التام بالحجاب الإسلامي حيث أن المحادثات بينهما كانت تتم بواسطة امرأة تُندب لهذا الأمر، وفي هذا الصدد يورد القُرشي قصة مفادها: أن علاء الدين الكاساني زوج العالمة فاطمة الفقيهة عزم الرحيل من حلب إلى بلاده بإيعاز من زوجته فاطمة، فاستدعى الملك نور الدين الإمام علاء الدين الكاساني، وسأله أن يقيم في حلب، فعرفه علاء الدين دواعي سفره وأنه لا يمكن أن يخالف زوجته ابنة شيخه، فأرسل الملك إلى زوجته فاطمة خادماً يخاطبها عن الملك في ذلك، فلم تأذن للخادم واحتجبت منه، وأرسلت إلى زوجها من يقول له: بعد عهدك بالفقه إلى هذا الحد أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إليّ هذا الخادم، وأيُّ فرق بينه وبين الرجال في عدم النظر، فعاد الخادم، وذكر ذلك لزوجها بحضرة الملك، فأرسلوا إليها امرأة برسالة الملك فخاطبتها وأجابته إلى ذلك وأقامت بحلب إلى أن توفيت،

---

(1) الحياة العلمية، ص: 214.
(2) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 214.
(3) الحياة العلمية، ص: 215.
(4) تاريخ ابن عساكر، تراجم النساء، ص: 288، الحياة العلمية، ص: 215.
(5) المصدر نفسه، ص: 215.
(6) المصدر نفسه، ص: 216.

وتوفي زوجها الكاساني بعدها سنة (587هـ/ 1191م) ودفن عندها بحلب[1]، وقد تحدث الدكتور محمد بن عزوز عن جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف بنوع من التفصيل.

4 ـ أساليب التقويم:

لم يُعرف في العهد الزنكي ما يشير إلى أنه يطلب من المتعلمين تأدية امتحان بعد الانتهاء من الدراسة ـ كالامتحانات التي تُعقد في عصرنا هذا ـ ولكن الأساتذة كانوا يمنحون طلبتهم الأكفاء شهادات أو إجازات ينصون فيها على أن الطالب قد أتم دراسة منهج معين، إشراف الشيخ الفلاني دون أن يؤدي الطالب امتحاناً، والغرض من الإجازة الإقرار بكفاية الطالب واجتهاده، وانكبابه على العلم، وتفرغه للدراسة والبحث، وكانت الإجازات العلمية شهادات شخصية يمنحها الشيوخ لمن يرون فيه الكفاية ولا علاقة لها بمنظمة تعليمية معينة ـ كما هي عليه الحال في الوقت الحاضر ـ وإذا كانت الإجازة إقرار بأن الطالب قد أتم دراسة كتب معينة، أو إقرار له بصلاحيته للتدريس، أو الفتوى بناء على مجهود علمي قام به فهي بذلك تعُد أحد أساليب التقويم، كذلك إذا كانت ألقاب العلماء تعني المكانة العلمية التي بلغها العالم أو المدرس بالنسبة لعلماء عصره فهي أيضاً تُعد من أساليب التقويم، وقد انحصرت أساليب التقويم في العهد الزنكي في هذين المعيارين: الإجازات العلمية، والألقاب العلمية، كالإمام والحافظ والشيخ والفقيه والمحدث والمقرئ[2].

ثالثاً: ميادين العلوم في العهد الزنكي:

شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها، وإن كانت الصيغة العامة لمدارس الزنكيين والدراسات التي قامت بها، هي الاهتمام بدراسة مذهب أو أكثر من المذاهب السُنّية، لكون هذا جزءاً من الأهداف التي أنشئت من أجلها هذه المدارس وتلك الدور التي ركزت اهتمامها على نشر المذهب السني ومقاومة المذهب الشيعي الذي كان منتشراً في بعض المناطق في مدة سابقة على حكم الزنكيين للمنطقة، وبخاصة في بلاد الشام، وبعض مناطق الجزيرة إبان فترة خضوعها للدولة الفاطمية الشيعية[3] في مصر. ولكن هذا لا يعني بكل الأحوال اقتصار التعليم في ذلك العهد على تدريس الفقه أو غيره من فروع العلوم الشرعية وما يتصل بها من العلوم

---

(1) الجواهر المضيئة (4/ 123 ، 124)، الحياة العلمية، ص: 216.

(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 220ـ 331.

(3) المصدر نفسه، ص: 237.

اللغوية والأدبية، وإنما كانت هناك مدارس علمية تُدرّس فيها مختلف التخصصات العلمية إلى جانب ذلك التخصص الموجه من الدولة، الذي يتوافق مع مصالح الأمة وعقيدتها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة، وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم، حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، إضافة إلى تدريس الطب في كثير من البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر[1]، واتساع أفق التفكير الإسلامي في هذا العدّ وتنوُّع الدراسات والبحوث التي قدمت فيه نتيجة واضحة للنشاط العلمي الذي شهدته المدن الزنكية خلال ذلك العهد وإليك أهم تلك العلوم.

1 ـ العلوم الشرعيّة:

كانت الغلبة في ميادين العلوم في العهد الزنكي للعلوم الشرعيّة من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصول ثم علوم اللغة العربية وآدابها، وهذا الأمر يتفق مع ترتيب العلماء للعلوم حسب أهميتها، فقد رتبوها إلى علوم شرعية وعلوم أخرى تخدمها وتوضحها، وفي هذا المجال ذهب الإمام الماوردي المتوفى سنة (405هـ/ 1058م) إلى أن أفضل العلوم هي علوم الدين إذ قال: «إنه لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولها، وأفضلها، وأولى العلوم وأفضلها علم الدين، لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون، إذاً لا يصلح أداء عبادة جَهل فاعلها صفات أدائها، ولم يعلم شروط أجزائها»[2]، وهذا رأي ابن جماعة أيضاً عندما قال: «إذا تعددت الدروس قُدِّم الأشرف فالأشرف، والأهم فالأهم، فيقدم تفسير القرآن، ثم الحديث، ثم أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم المذاهب ثم الخلاف، أو النحو أو الجدل»[3]، وتشتمل العلوم الشرعية على فروع عديدة من أهمها:

أ ـ علم القرآن: وقد نشط علم القراءات في العهد الزنكي وكان من العلوم التي تُدرّس في دور التعليم المختلفة، كما ظهر عديد من علماء القراءات الذين كانت لهم مصنفات مهمة في القراءات في العهد الزنكي:

---

(1) الحياة العلمية، ص: 237.

(2) أدب الدنيا والدين، ص: 44.

(3) تذكرة السامع والمتكلم، ص: 35، 36.

ـ **عبد العزيز بن علي بن محمد بن سلمة أبو حميد وأبو الأصبغ السماني الإشبيلي** المعروف: بأبي الصحّان المتوفى بحلب سنة (560هـ/ 1164م) أستاذ كبير وإمام محقق بارع مجوّد ثقة ولد سنة (498هـ/ 1104م) تنقل بين البلاد طلباً للعلم، ودخل الشام ومات بحلب بعد الستين وخمس مئة[1] وكانت له مصنفات مهمّة في القراءات منها كتاب «الوقف والابتداء» وكتاب: «مرشد القاري إلى تحقيق معالم المقاري» الذي قال عنه ابن الجزري: لا يعرف قدره إلا من وقف عليه[2].

ـ **كما برز من مُقرئي العهد الزنكي**: أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمّام بن محمد الأزدي المتوفى بالموصل سنة (567هـ/ 1172م)[3] من أهل قرطبة، سكن دمشق والموصل أحد أئمة اللغة والقرآن وله يد قوية في النحو والقراءة بروايات مصر والعراق، تنقل بين البلاد يطلب العلم حتى وصل الموصل، وأقام بها إلى أن مات، وأقرأ الناس القرآن الكريم بالقراءات، وانتفع به خلق عظيم، قال عنه ياقوت: شيخ فاضل عارف بالنحو ووجوه القراءات[4]. وقال الذهبي: وبرع في العربية والقراءات وتصدر فيهما مدة[5].

ب ـ **علم التفسير**: كانت حركة التفسير نشطة في العهد الزنكي حيث كان التفسير مادة أساسية في بعض دور التعليم في هذه العهد، وبرز فيه علماء أجلّاء تركوا أثراً زاخراً في هذا العلم كان من أبرزهم:

ـ **الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلّي** المتوفى سنة (565هـ/ 1169م) وذكر له ياقوت من التصانيف في التفسير: «كتاب التفسير الكبير» وينبوع الحياة[6].

ـ **ومن المفسرين المبرزين: علي بن إبراهيم الغزنويّ** المتوفى في حلب (سنة 582هـ 1186م) وكان قد تلقى تعليمه في بغداد على إمام التفسير في عصره محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المتوفى سنة (538هـ/ 114م) صاحب الكشاف في التفسير، فلما عاد إلى حلب تولى التدريس فيها وألّف فيها مصنفات عديدة في التفسير والفقه واللغة والأصول، وكان أشهر ما ألفه في التفسير كتاب «تقشير التفسير»[7] وقد فرغ من تصنيفه في حلب سنة (572هـ/ 1176م)[8].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 240.
(2) غاية النهاية في طبقات القراء (1/ 395).
(3) المصدر نفسه (1/ 395).
(4) معجم البلدان (20/ 14، 15).
(5) المصدر نفسه (20/ 14).
(6) العبر (3/ 53).
(7) كشف الظنون (1/ 466)، الحياة العلمية، ص: 245.
(8) بغية الوعاة (2/ 140)، الحياة العلمية، ص: 245.

ج ـ **الحديث**: ازدهر علم الحديث في العهد الزنكي حتى أنه يمكن أن يعد هذا العهد من العصور الذهبية لدراسات الحديث والتأليف، ففيه أنشئت أول دار للحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق. ولعل من أبرز عوامل الاهتمام بعلم الحديث ودراسته والتأليف فيه في هذا العهد: اهتمام الملك العادل نور الدين محمود نفسه بهذا العلم، فقد أثر عنه أنه كان مهتماً بدراسة الحديث الشريف وفهمه[1]، كما كان له إجازات عديدة في هذا العلم من عدة شيوخ[2]، وبلغ من حرصه على هذا العلم أن صنّف كتاباً في فضائل الجهاد وأحاديثه وهو بدمشق[3]، كما كان الاهتمام بعلم الحديث لوناً من ألوان التوجيه الذي فرضه الوجود الصليبي على الدراسات في تلك الفترة، فقد شارك الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة (571هـ/ 1176م) في هذا المجال بجمع أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد وأهداه إلى الملك نور الدين محمود[4]، كما صنف ابن الجوزي المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) مصنفاً جمع فيه أحاديث الجهاد وفضائله في كتاب أسماه: «البحر النوري»[5]، وقد زاد الاهتمام بهذا العلم، حيث ظهر في العهد الزنكي عدد كبير من رجال الحديث الذين أفنوا أعمارهم في جمعه وتصنيفه وضبطه وتنقيحه، ومنهم علماء جمعوا تراجم مُستفيضة لرجال الحديث في جميع العصور، وكان لهؤلاء العلماء فضل لا ينكر في الكتابة والتصنيف في هذا الفرع من العلوم الشرعية[6]، ومن أبرز علماء الحديث في العهد الزنكي:

ـ الإمام الحافظ أبو القاسم علي بن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف: بابن عساكر الدمشقي، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله مستقلاً.

ـ وممن برز في علم الحديث في هذا العهد: الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك ابن الأثير الجزري المتوفى سنة (606هـ/ 1209م)، وقد اشتهر مجد الدين ابن الأثير في علوم عديدة كان منها: علم الحديث، حيث صنف فيه مصنفات هامة كان من أبرزها: جامع الأصول في أحاديث الرسول[7]. ذكر ياقوت أنه جمع فيه بين البخاري ومسلم والموطأ وسنن أبي داود وسنن النسائي والترمذي، عمله على حروف المعجم، وشرح غريب الحديث

---

(1) التاريخ الباهر، ص: 165، الحياة العلمية، ص: 248.
(2) تاريخ دمشق، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 248.
(3) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 248.
(4) معجم البلدان (13/ 78)، الحياة العلمية، ص: 249.
(5) مرآة الزمان، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 249.
(6) الحياة العلمية، ص: 249.
(7) معجم الأدباء (17/ 76)، الحياة العلمية، ص: 252.

ومعانيها وأحكامها، ووصف رجالها، ونبّه على جميع ما يُحتاج إليها منها، ثم قال: أقطع قطعاً أنه لم يُصنّف مثله قط ولا يصنف[1]. وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في القاهرة سنة (1368هـ/ 1949م) في اثني عشر جزءاً بعناية عبد المجيد سَليم، وحامد الفقي، وهي طبعة ناقصة، ثم أعيد نشره كاملاً بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط وطبع في دمشق سنة (1394هـ/ 1974م) في إحدى عشر جزءاً وهي طبعة جديدة مشتملة على مقدمة وفهارس[2]. وقد قام صاحب كتاب السنة النبوية الشريفة في القرن السادس الهجري بدراسة موسعة عن الحديث في هذا العهد.

د ـ **الفقه وأصوله**: عمل العلماء في العهد الزنكي على جمع آثار من سبقهم كلٌ بحسب مذهبه الذي ينتمي إليه من المذاهب السنية الأربعة: الحنفي، والشافعي، والحنبلي، والمالكي، ورجحوا بين الروايات وخرّجُوا على الأحكام، وبنوا فتاويهم على شتى المسائل والفروع من أصول أئمتهم وقواعدهم وفتاويهم[3]، وكانت الدولة الزنكية تدعم المذاهب السنية الأربعة، واستطاعت تلك المذاهب السنية أن تضيق الخناق على الفكر الشيعي الرافضي في الدولة الزنكية، وأصبح الفكر السني هو المذهب السائد في بلاد الشام.

وقد برز خلال العهد الزنكي علماء أجلاء في الفقه وأصوله كان لبعضهم أبحاث رائعة ودراسات جليلة، ونظرات صائبة في دراسة الفقه الإسلامي وأصوله، ومن أشهر أولئك العلماء[4]:

5 ـ في المذهب الشافعي:

وممن برز في هذا المذهب: الإمام القاضي أبو الفضل كمال الدين محمد بن أبي عبد الله ابن أبي المظفر القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (572هـ/ 1176م)[5] وقد وصف بأنه كان: فقيهاً أديباً شاعراً كاتباً فكِه المجالسة، يتكلّم في الخلاف والأصول[6]. هذا بالإضافة إلى شهرته في السياسة وأصول الحكم والكرم، كما كان كثير الصدقات والمعروف، وأوقف أوقافاً كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق على أعمال الخير وطلب العلم، وقد اشتهرت مدرسته بالموصل «الكمالية القضوية» وكان رأس المدرسين فيها، حيث خصصها لتدريس الفقه الشافعي[7].

---

(1) معجم الأدباء (17/ 76)، الحياة العلمية، ص: 252.
(2) الحياة العلمية، ص: 252.
(3) المصدر نفسه، ص: 254.
(4) المصدر نفسه، ص: 254، 255.
(5) المصدر نفسه، ص: 255.
(6) وفيات الأعيان (4/ 242).
(7) طبقات الشافعية (6/ 117، 121)، الحياة العلمية، ص: 256.

ـ ومن علماء الشافعية البارزين في هذا العهد: الإمام قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري المتوفى سنة (578هـ/ 1182م)[1]، قال عنه السبكي: كان إماماً في المذهب الشافعي والخلاف والأصول والتفسير والوعظ أديباً مناظراً[2]، أما أبرز جهوده في علم الفقه، فتمثل في مصنفه الكبير «كتاب الهادي» في الفقه، والذي قال عنه ابن خلكان: وهو مختصر نافع لم يأتِ فيه إلا بالقول الذي عليه الفتوى[3].

ـ **ومن برز في علم الفقه الشافعي أيضاً**: الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة (585هـ/ 1189م) وكان من أعيان الفقهاء في ذلك العهد، شارك في تدريس الفقه الشافعي في العديد من المدارس الزنكية، وصنّف كُتباً كثيرة منها: «صفوة المذهب من نهاية المطلب» وهو في سبع مجلدات، وكتاب «الانتصار» لمذهب الشافعي في أربع مجلدات، وكتاب المرشد في مجلدين، وكتاب «الذريعة في معرفة الشريعة» في مجلد واحد، وكتاب «مآخذ النظر» وكتاب «الإرشاد المُغرّب في نصرة المذهب» ولم يكمله، وذهب فيما ذهب له بحلب[4].

ـ **المذهب الحنفي**: وممن برز في هذا المذهب: الشيخ عبد الغفار بن لقمان بن محمد أبو المفاخر الكُردي الملقب: تاج الدين المتوفى سنة (562هـ/ 1166م)[5]، إمام الحنفية في حلب، كان على غاية من الزهد والورع، تولى قضاء حلب للملك نور الدين محمود بن زنكي، وخلّف آثاراً جمة في الفقه وأصوله، ففي الفقه شرح الجامع الصغير في الفروع للإمام المجتهد محمد بن الحسن الشيباني الحنفي المتوفى سنة (187هـ/ 803م) وكان يذكر لكل باب أصلاً ثم يخرّج عليه المسائل[6]، وجمع المسائل التي يتحيَّر في حلها العلماء في كتاب سمّاه (حِيرة الفقهاء)[7]، وفي أصول الفقه شرح كتاب أستاذه ركن الدين عبد الرحمٰن بن محمد الكرماني الحنفي المتوفى سنة (543هـ/ 1148م) الموسوم بالتجريد في كتاب سمّاه «المفيد والمزيد»[8].

ـ ومن فقهاء الحنفية البارزين في العهد الزنكي الإمام رضي الدين محمد بن محمد السرخسي المُلقب: بُرهان الإسلام المتوفى بحلب عام (571هـ/ 1175م)[9]، قدم حلب في

---

(1) الحياة العلمية، ص: 256.
(2) المصدر نفسه، ص: 256.
(3) وفيات الأعيان (5/ 196).
(4) الحياة العلمية، ص: 257.
(5) الجواهر المضيئة (2/ 443، 444) الحياة العلمية، ص: 258.
(6) كشف الظنون (1/ 561) الحياة العلمية، ص: 258.
(7) الحياة العلمية، ص: 258.
(8) طبقات الفقهاء، ص: 101، طاش كبرى زاده، الحياة العلمية، ص: 258.
(9) الحياة العلمية، ص: 259.

عصر نور الدين محمود ودرَّس بالمدرسة النورية والحلاوية بعد الإمام علاء الدين الغزنوي المتوفى سنة (564هـ/ 1169م)، وقد اشتهر الإمام رضي الدين بمصنفه الكبير «المحيط» وهو في أربع مصنفات «المحيط الكبير» وهو نحو من أربعين مجلداً، والمحيط الثاني، عشر مجلدات، والمحيط الثالث، أربع مجلدات، والرابع مجلدين[1].

وممن اشتهر بالفقه الحنفي: الإمام أبو بكر علاء الدين بن مسعود بن أحمد الكاساني ملك العلماء المتوفى بحلب سنة (587هـ/ 1191م) قدِم إلى نور الدين محمود بحلب رسولاً من ملك الروم فولاه نور الدين التدريس بالمدرسة الحلاوية بعد أن عُزل منها الإمام رضي الدين السّرخسي المتوفى سنة (571هـ/ 1175م)، وقد استمر علاء الدين الكاساني مدرساً في الحلاوية حتى وفاته[2]، تفقه علاء الدين على أبي منصور محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي صاحب «تحفة الفقهاء» وزوّجه شيخه ابنته فاطمة الفقيهة، وجعل مهرها شرح كتاب التحفة في كتاب أسماه البدائع فقال الفقهاء في عصره: «شرح تُحفته وزوّجه ابنته»[3] واشتهر علاء الدين الكاساني وزوجته فاطمة الفقيهة في مذهب أبي حنيفة في بلاد الشام، وكانت تحفظ مصنّف والدها «التُحفة»[4] وكان كتاب «البدائع» أشهر مصنفات الإمام علاء الدين الكاساني وهو من الكتب المعتبرة في الفقه الحنفي وسُمي: «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع»[5].

ـ **المذهب الحنبلي**: وممن برز في المذهب في العهد الزنكي الشيخ الزاهد أبو الحسن علي بن عمر أحمد بن عمّار بن أحمد بن علي بن عبدوس الحرّاني الفقيه الحنبلي، ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة (1116 ـ 1117م) وسمع ببغداد، وتفقه وبرع في الفقه، والتفسير والوعظ، ثم قدم حرّان وأمّ الناس بجامعها، له مصنفات حسنة في التفسير والفقه الحنبلي أبرزها: «المذهب في المذهب» وكانت وفاته في آخر نهار يوم عرفة سنة (559هـ/ 1164م) بحرّان[6].

ـ **ومنهم**: أبو العلاء نجم الدين بن عبد الوهاب بن شرف الإسلام عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي الأصل الدمشقي، شيخ الحنابلة بالشام في وقته، والمتوفى عام (586هـ/ 1190م)، ولد سنة (498هـ/ 1104م) سمع وأفتى ودرّس وهو ابن نيف وعشرين سنة إلى أن مات[7]، وغيرهم.

---

(1) الجواهر المضيئة (4/ 25، 28).
(2) الحياة العلمية، ص: 260.
(3) المصدر نفسه، ص: 260.
(4) كشف الظنون (1/ 371).
(5) شذرات الذهب (4/ 183، 184).
(6) الحياة العلمية، ص: 261.
(7) المصدر نفسه، ص: 263.

لقد ظهر في هذا العهد كبير من علماء الفقه والأصول، وبخاصة على المذهب الشافعي، والحنفي والحنبلي[1]. ولا عجب في ذلك ـ الاهتمام الكبير بالفقه والفقهاء ـ فقد كان الفقه مصدر التشريع، وعليه يعتمد الحكّام فيما يصدرونه من أحكام، وكان الملك قبل أن يصدر حكماً مهماً يحرص بأن يظفر أولاً بموافقة الفقهاء بمختلف مذاهبهم على هذا الحكم، كما جرى في دمشق حينما عقد الملك العادل نور الدين محمود مجلساً مع الفقهاء للتشاور فيما ينوي اتخاذه في أمر الأوقاف والمصالح المتعلقة بالمساجد، والمدارس و. . . ومصارف الأوقاف وجواز نقلها إلى مصالح أخرى أهم من الأولى، ولم يتخذ نور الدين حكماً إلا بعد أن استمع لمشورة جميع الفقهاء وحظي بموافقتهم، وناقشهم فيما ينوي القيام به، وكُتِب في ذلك محضر في صورة ما جرى في ذلك المجلس، ووقّع عليه جميع الحاضرين[2].

وقد اهتم العلماء بفروع أخرى من العلوم، وركزوا فيه دراساتهم وكان أشهر هذه الفروع «الفرائض» الذي يُعد باباً من أبواب الفقه نال اهتماماً خاصاً من العلماء في هذا العهد لأهميته وكثرة الاحتياج إليه، حتى أصبح علماً قائماً بذاته، وموضوعه: البحث عن أحوال قسمة التركة بين مستحقيها على فروض مقدّرة في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه محمد ﷺ وهذا الباب من أصعب أبواب الفقه[3]، وممن برز في علم الفرائض في العهد الزنكي: الإمام الحافظ حجة الله أبو عبد الله محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر المكي الصِقلّي المتوفى سنة (565هـ/ 1169م) وكان قد صنف تصانيف كثيرة في علوم عديدة كان منها أرجوزة في الفرائض[4].

كما خصّ كثير من العلماء جهودهم في العهد الزنكي بعلمي الخلاف والجدل وصنّفوا فيها المؤلفات الحسنة[5].

وقد جدّ العلماء في العهد الزنكي في دراسة وتحصيل علوم العربية وآدابها فلا يكاد يوجد عالم من المشتغلين بالعلوم الشرعية إلّا وقد عني بدراسة هذه العلوم باعتبارها أساساً من أهم الأسس التي تقوم عليها العلوم الشرعية، وقد حظيت العلوم العربية وآدابها بعناية فائقة من الزنكيين حيث حرص الحكام وأمراء هذه الأسرة على اختيار العلماء الأفذاذ في هذا المجال لتولي مناصب الكتابة والإنشاء، وكانوا يستقدمون لهذه الوظائف من ذاع صيته وشأنه في هذه

(1) الحياة العلمية، ص: 261.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الحياة العلمية، ص: 263.
(3) الحياة العلمية، ص: 264.
(4) معجم الأدباء (19/ 49)، الحياة العلمية، ص: 264.
(5) الحياة العلمية، ص: 265.

العلوم، واجتمع في المدن الزنكية خلال تلك الفترة طائفة كبيرة من اللغويين والنحاة والأدباء وبرز منهم علماء أجلاء خلفوا تراثاً مهماً في علوم العربية وآدابها على اختلاف فروعها والتي من أهمها: اللغة والنحو والصرف والبلاغة والنقد الأدبي، والأدب والعروض والقافية ومن أراد التوسع فليرجع إلى كتاب الحياة العلمية في العهد الزنكي للدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزني[1].

والرسالة التي نريد أن تصل للقارىء أن النهوض عندما يحدث للأمة يكون في الغالب شاملاً وليس عسكرياً أو سياسياً كما يظن البعض ممن يطلقون الأحكام بدون دراسة واعية، أو بحث عميق، ثم يعمّمون هذه الأحكام الناقصة في جلساتهم ومحاضراتهم ومقالاتهم وبالتالي يساهمون في تسويق ثقافة مغلوطة عن تاريخ أمتنا ظالمة لأجدادنا البواسل الذين استوعبوا فقه النهوض ومارسوه في دنياهم.

2 ـ العلوم التاريخية والجغرافية:

ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي، وبخاصة في ميدانَي الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، كما اشتهر عدد من علماء الجغرافيا والرحالة الذين آثروا هذا الجانب بتآليف جديدة مهمة، وإذا كان التأليف في فضائل الجهاد والاهتمام بالدراسات الشرعية والأدبية المتعلقة به يجد تفسيره في الوجود الصليبي في المنطقة، فإن الاهتمام بالدراسات التاريخية والجغرافية يرجع للسبب نفسه، وقد تمثل هذا الأثر في ظهور دراسات متخصصة لها طابع الجهاد الإسلامي ضد العدوان الصليبي في المنطقة، حيث وجد المتخصصون ـ بهذا الفرع من العلوم ـ في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن، وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، كما ظهر ذلك الأثر في كتابات الرحالة الذين زاروا المنطقة ووصفوا الأوضاع العامة التي كان يعيشها المسلمون إلى جانب الصليبيين فيها، كما اهتموا بتحديد البلدان وخططها، وقد أصبحت المنطقة الزنكية بسبب الوجود الصليبي فيها مركز الاهتمام السياسي والاقتصادي والفكري في العالم الإسلامي، حيث كانت تلك الدولة تمثل مركز اليقظة الإسلامية في مواجهة العدوان الصليبي في المنطقة، إضافة إلى استقطاب قادة هذه الدولة العديد من العلماء الأعلام من كافة المناطق الإسلامية مما كان له

(1) الحياة العلمية، ص: 268، 316.

أثر في تطور العلوم ونشاطها[1]، وكانت أبرز الجهود التي بُذلت في ميدانَي الدراسات التاريخية والجغرافية في هذا العهد تتمثل فيما يأتي:

ـ **التراجم والطبقات**: يُعد هذا النوع من أهم أنواع الكتابة التاريخية في هذا العهد، فقد عني به المؤرخون عناية فائقة فما أن يظهر أحد من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وتناولته كتب التراجم بالكتابة عن تفصيلات حياته ودراسته وتنقلاته وشيوخه وتلامذته وإسهاماته العلمية في مجال التأليف والتدريس، وتعد هذه المؤلفات من المصادر المهمّة للتاريخ الإسلامي، إذ أنها تزود الباحث في التاريخ بمادة تاريخية خصبة[2]. ويعُد الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المعروف: بابن عساكر من أبرز العلماء الذين اهتموا بالكتابة على هذا المنهج في هذا العهد، إذ كان اهتمامه مُنصبًا على الحديث، وتراجم العلماء وبخاصة رجال الحديث طوال حياته، ومع أن كتابه «تاريخ دمشق» قد شمل التاريخ العلمي والثقافي لمدينة دمشق، فإنه يُعد واحداً من أشهر كتب التراجم بعد كتاب «تاريخ بغداد» للحافظ أبي بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي المتوفى سنة (463هـ/ 1070م) وكان ابن عساكر قد سار على نهجه[3].

ـ وممن برز في الكتابة التاريخية على هذا المنهج في العهد الزنكي: أبو عبد الله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبو الفرج المعروف: بالعماد الأصفهاني الكاتب المتوفى سنة (597هـ/ 1201م) الذي صنف الموسوعة المشهورة عن أدباء وشعراء العصر أي كتاب «خريد القصر وجريدة العصر» والذي أرّخ فيه لشعراء وأدباء زمانه في كافة الأقطار الإسلامية[4].

ـ **وممن كتب في التراجم**: المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني المعروف: بابن الأثير المتوفى سنة (630هـ/ 1233م)[5]، فقد كان ابن الأثير مؤلفاً نشيطاً بارعاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين عن طريق مصنفاته التي من أشهرها: كتاب «الكامل في التاريخ»، وكتاب «اللباب في تهذيب الأنساب» وكتاب «التاريخ الباهر في الدولة الزنكية» وكتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة»[6]، الذي أورد فيه ما يربو على سبعة آلاف وخمس مئة ترجمة، واستدرك على ما فاته ممن تقدمه من مؤلفي التراجم وبيّن أوهامهم[7].

---

(1) الحياة العلمية، ص: 317.

(2) المصدر نفسه، ص: 319.

(3) المصدر نفسه، ص: 320.

(4) المصدر نفسه، ص: 322.

(5) سير أعلام النبلاء (22/ 353، 356).

(6) وفيات الأعيان (3/ 349).

(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 324.

ـ **التاريخ المحلي (الخاص)**: تخصص فريق آخر من المؤرخين بالتأليف المحلي والذي يُعد تعبيراً صادقاً عن ارتباط المؤرخ بإقليمه، واعتزازه بوطنه. وقد لقي هذا الاتجاه إقبالاً كبيراً من المؤرخين في العهد الزنكي[1] وقد ظهر في هذا العهد عدد من المؤلفات المهمة في هذا الإطار، ومن أبرز ممن كتب في هذا المنهج خلال العهد الزنكي:

ـ **ابن القلانسي**: أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي المتوفى سنة 555هـ/ 1160م[2] العميد الأديب الشاعر المؤرخ، كان من أعيان دمشق، ومن أفاضلها المبرزين، وكانت له عناية بالحديث، وكان أديباً له خط حسن ونظم ونثر، ولي رئاسة ديوان الإنشاء بدمشق مرتين، عُمّر بضعاً وثمانين سنة، وتوفي سنة (555هـ/ 1160م) وقد استفاد ابن القلانسي من عمله في ديوان الإنشاء بدمشق، فاطّلع على الوثائق الرسمية بمختلف أنواعها مما أكسب تاريخه أهمية خاصة بالنسبة لأحداث عصره، ولابن القلانسي: كتاب «تاريخ دمشق» بدأ به سنة (360هـ/ 971م) وانتهى إلى سنة وفاته (555هـ/ 1160م) وهو أول تاريخ لدمشق صنف حسب الحوادث والحوليات، ثم هو المصدر الأساسي لتاريخ الشام أيام الفاطميين والسلاجقة، فيه أقدم سيرة لدمشق وأهلها من النواحي العمرانية والاجتماعية والعقدية والسياسية وذلك خلال قرنين حاسمين، ولم يقتصر به هذا الكتاب على تاريخ دمشق بل عالج فيه مؤلفه كثيراً من الحوادث السياسية التي وقعت في الشام، والعراق والجزيرة، ومصر، ولكنها بصورة مقتضبة، فضلاً عن اهتمامه بأحوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام وما كان يدور بينها وبين القوى الإسلامية في المنطقة من نزاع مستمر[3].

ـ **ومن المؤرخين في التاريخ المحلي**: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن الأثير الجزري المتوفى سنة (630هـ 1233م) وقد صنف كتاب «تاريخ الموصل» وهو الموسوم «بالتاريخ الباهر في الدولة الأتابيكية» وهو تاريخ للدولة الزنكية بالموصل عرض فيه ابن الأثير بالإضافة إلى الأخبار السياسية تفاصيل منوعة اقتصادية واجتماعية وثقافية عن الموصل من مطلع عماد الدين زنكي سنة (521هـ/ 1127م) حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه سنة (607هـ/ 1210م)[4].

ـ **التاريخ العالمي (العام)**: وهو الكتابة التاريخية التي يتناول فيها المؤرخ الأحداث

---

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 325.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 388، 389)، الحياة العلمية، ص: 325.

(3) الحياة العلمية، ص: 326.

(4) المصدر نفسه، ص: 328.

مُنذ بدء الخليقة حتى عصره دون الارتباط بإقليم واحد، وأهم كِتاب في ذلك العصر «الكامل في التاريخ» لعز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المتوفى سنة (630هـ/ 1233م)، فلقد نال ابن الأثير شهرته بين مؤرخي القرن السادس الهجري بسبب تأليفه لهذا الكتاب، وكان قد ألفه على طريقة الحوليات، ابتدأ فيه بأول الزمان حتى وصل به إلى سنة (628هـ/ 1231م)، وقد تحرى ابن الأثير الحقيقة والدّقة فيما كتب، وحاول الابتعاد عن الإسهاب وتكرير الروايات، ثم إنه راعى التوازن في كتابه لتاريخه بين أقاليم العالم الإسلامي، فلم تصرفه الأحداث التي ألمّت بالمشرق عما كان يجري بالمغرب من تطورات[1]، وقد تابع ابن الأثير في كتابه «الكامل» المعلومات التاريخية التي أوردها الإمام محمد بن جرير الطبريّ في تاريخه متابعة دقيقة إلى حد بعيد فلخّصها ثم أضاف إليها الكثير من المعلومات، وبخاصة تلك التي تتعلق بالفترة التالية لتوقف الطبري عن الكتابة، وبذلك احتل ابن الأثير مكانة مرموقة بين المؤرخين المسلمين، واتخذ كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام غيره[2].

ـ **التاريخ المعاصر والمذكرات**: وممن عاصر الأحداث في عهد الدولة الزنكية وكتب عنها بأسلوب المذكرات أبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد الشيزري المتوفى سنة 584هـ/ 1180م[3]، وله كتاب «الاعتبار» وهذا الكتاب قلّ أن يوجد ما يشابهه من كتب التاريخ في ذلك العهد، إذ يضعنا أسامة بن منقذ في هذا الكتاب أمام مذكرات في الأدب التاريخي تتضمن خلاصة تجارب أسامة وما صادفه أسامة في حياته من حوادث، وتعكس صور الحياة في العصر من حروب وفروسية، وملامح من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي[4].

ـ **وممن كتب بأسلوب المذكرات** العماد الأصفهاني الكاتب المؤرخ المتوفى سنة 597هـ/ 1201م ومن أهم ما كتب في هذا المجال: «البرق الشامي»؛ وهو أشبه بالمذكرات الشخصية؛ لأنه بدأه بذكر نفسه وحياته وانتقاله من العراق إلى الشام وأخباره مع نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي؛ وتاريخ دولتهما مع ذكر بعض الفتوح بالشام[5].

ـ **الجغرافيا والرحلات** تعدُّ الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية، وقد اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل: ابن حوقل، والمسعودي،

---

(1) الحياة العلمية، ص: 328.
(2) المصدر نفسه، ص: 329.
(3) المصدر نفسه، ص: 330.
(4) المصدر نفسه، ص: 330.
(5) المصدر نفسه، ص: 330.

والمقدسي، والإدريسي وابن جُبير وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، حيث فاق المسلمون في ميدان الرّحلة والكشف الجغرافي غيرهم من الشعوب، وساعد على الرّحلات الإسلامية أمور عديدة منها: اتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، وانطلاق المسلمين إلى مراكز العلم المنتشرة في سائر أقطار العالم الإسلامي، كذلك رحل الناس للتجارة بين الأقطار الإسلامية في المشرق والمغرب، أو لأداء فريضة الحج إلى بيت الله، أو القيام بمهمة كأن يكون الرّحالة سفيراً للخليفة أو السلطان[1]. وكان معظم الرحالة المسلمين يحرصون على تدوين مشاهداتهم، وتسجيل أخبارهم، والمسالك والطرق التي ساروا فيها والمسافات التي قطعوها في تنقلاتهم، كما كانوا يصفون المدن التي يمرّون بها ويذكرون الصعوبات التي واجهتهم في رحلاتهم، ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة في كل بلد طرقوه، كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة، كما أن بعضهم كان يصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار المختلفة التي يمرُّ بها[2] فكانت تلك الرحلات وما تقدمه من معلومات مبنية على المشاهدة والاطلاع من أبرز عوامل تقدم وتطور المعارف الجغرافية عند المسلمين[3].

ولقد كان لعدد من علماء العهد الزنكي أثر في الدراسات الجغرافية، وبخاصة ما له صلة بالرحلات الجغرافية من أشهرهم: أبو الحسن علي بن أبي بكر بن علي الهروي الموصلي المتوفى سنة 611هـ/ 1215[4] الذي قضى معظم حياته بالتجوال والرحلات حتى لقب بالسائح، وأبو الحسن الهروي أصله من هراة ولكنه ولد بالموصل، ومنها انطلق برحلاته إلى الشام، والعراق، واليمن والحجاز، ومصر، وبلاد الروم وبعض جزر البحر المتوسط مثل: صقليّة، وقد تنقّل خلال رحلاته في أرجاء المدن المختلفة وتكلّم عن مشاهدها ومساجدها وخالط أهلها، والتقى بالعلماء وأخذ عنهم، ولم يكن في تجواله مقتصراً على طلب العلم فقط، بل إنه وثّق علاقاته مع عدد من الجغرافيين المعروفين في عصره[5]، قال عنه ابن خلكان: طاف البلاد وأكثر من الزيارات، وكاد يطبق الأرض بالدوران، فإنه لم يترك براً ولا بحراً، ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها[6]، وقد ألف الهروي عن رحلاته هذه كتابه: «الإشارات إلى معرفة الزيارات»[7].

(1) التاريخ والمؤرخون العرب، ص: 211، الحياة العلمية، ص: 331.
(2) التاريخ والمؤرخون العرب، ص: 213، 214.
(3) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 332.
(4) وفيات الأعيان (3/ 346، 348)، الحياة العلمية، ص: 332.
(5) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، ص: 333.
(6) وفيات الأعيان (3/ 346)، الحياة العلمية، ص: 333.
(7) الحياة العلمية، ص: 333.

3 ـ علوم الرياضيات والفلك:

اهتم المسلمون في ذلك العهد بشتى فنون العلوم المختلفة، ومن ذلك علوم الرياضيات والفلك حيث نالت تلك التخصصات قدراً كبيراً من اهتماماتهم، فبرعوا في علم الحساب وصنفوا فيه المصنفات، بحثوا فيها الأعداد وأنواعها وخواصها وتوصلوا إلى إضافات ونتائج أثارت إعجاب علماء الغرب ودهشتهم، فاعترفوا بفضلهم وأسبقيتهم في هذا المجال، وترجموا كثيراً من كتب المسلمين مما كان له أثر كبير في تقدم هذا العلم، كما اشتغل عدد من العلماء بعلم الجبر وأتوا فيه بالعجب العجاب، حتى أن (كاجوري) قال: إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر[1]. وقد نبغ في العهد الزنكي عدد من علماء الرياضيات والفلك مما كان لدراساتهم ومصنفاتهم أثر واضح في إثراء الدراسات الرياضية والفلكية، وقد تمثَّلت أبرز الجهود في الآتي:

ـ **الرياضيات**: كانت العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة من العلوم التي كانت تدرس في بعض المدارس الزنكية، كما أن هناك تنقلات ورحلات بين المناطق الزنكية لتحصيل هذه العلوم من العلماء البارعين في هذا المجال، ومما ساعد على تشجيع هذا الفرع من العلوم حاجة الفقهاء الماسة إلى علمي الحساب والجبر في تقسيم المواريث أو ما يسمى: بعلم الفرائض، وكذلك الحاجة إلى هذه العلوم في معرفة المواقيت واتجاه البلدان لإقامة الصلاة، كما ظهرت الحاجة إليها في حسابات الدواوين، وفي بعض الأمور الإدارية الأخرى. ومن علماء العهد الزنكي البارزين في ميدان الرياضيات: كمال الدين أبو الفتح موسى بن أبي الفضل يونس بن محمد بن منعة الموصلي المتوفى سنة (639هـ/1242م) ولما ذاع صيته في علم الرياضيات أخذت الرسائل تنهال عليه من علماء الرياضيات المعاصرين له، يقول ابن خلكان: كنت بدمشق سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وبها رجل فاضل في علوم الرياضة، فأشكلت عليه مواضع في مسائل الحساب الجبر والمقابلة والمساحة وإقليدس، فكتب جميعها في درج وسيّرها إلى الموصل، ثم بعد أشهر عاد جوابه، وقد كشف عن خفيها وأوضح غامضها، وذكر ما يعجز الإنسان عن وصفه[2]، ولكمال الدين بن منعة مصنفات جليلة في الرياضيات ذكر منها بروكلمان: شرح الأعمال الهندسية، وهو محفوظ في مكتبة أيا صوفيا بإسطنبول رقم 2753، وله رسالة في البرهان على المقدمة التي أهملها أرخميدس في كتابه «تسبيع الدائرة» وكيفية اتخاذ ذلك، وهو محفوظ في مكتبة بودليانا برقم (8/ 987)[3].

---

(1) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص: 61.

(2) وفيات الأعيان (5/ 315)، الحياة العلمية، ص: 336.

(3) تاريخ الأدب العربي (4/ 222، 223)، الحياة العلمية، ص: 337.

ـ **الفلك**: يعرف قديماً بعلم الهيئة وموضوع الأجرام السماوية من النجوم والكواكب وأحوالها وأبعادها وحركاتها وحساب الأيام والشهور والسنين والفصول على أساس تلك الحركات، وتحويل السنين من القمرية إلى الشمسية وبالعكس، وأطوال البلاد وعروضها، والرياح والأمطار، وكسوف الشمس، وخسوف القمر، وما إلى ذلك من مباحث كثيرة منها نظرية وأخرى عملية، وبعض هذه المباحث تدخل الآن في علم الفضاء[1] وكانت أبرز الجهود التي بذلت في العهد الزنكي قد تركزت في الموصل، وكان الشيخ كمال الدين موسى بن يونس بن منعة في مقدمة العلماء الذين نشطوا في هذا الميدان، فقد قام بتدريس أصول هذا العلم لطلابه في المدارس التي درّس بها، وصنف في هذا العلم ووردت إليه ـ أيضاً ـ مسائل في مشكلات هذا العلم قام بتفسيرها، وحلّ رموزها، ونبّه على براهينها بعضها من بغداد، وأخرى وردت إليه من بعض ملوك أوروبا[2]، ومما ينسب إلى كمال الدين في هذا العلم، أنه قد عرف أشياء كثيرة في قوانين تذبذب الرقاص[3]، ويذكر طوقان أن كمال الدين قد سبق العالم الإيطالي غاليليو المتوفى سنة (1052هـ/ 1624م) في هذا المجال[4]. وقد كانت الموصل مركزاً له أهمية خاصة في علوم الرياضيات والفلك في العهد الزنكي[5].

4 ـ علوم الطب والصيدلة:

ـ **الطب**: علم الطب يبحث فيه عن بدن الإنسان، من جهة أنه يصح ويمرض لحفظ الصحة وإزالة المرض، وفائدته بيّنة لا تخفى وكفى بهذا العلم شرفاً وفخراً: قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: العلم عِلمان: علم الطب للأبدان، وعلم الفقه للأديان[6]. وقد تقدم وارتفع شأن الطبّ في العهد الزنكي وتقدمت وسائل دراسته، ولعل من انتشار البيمارستانات في المدن الزنكية واهتمام الحكام والأمراء بإنشائها ووقف الكتب الطبية في ذلك العهد والتي كانت من نتائجها بروز عدد كبير من الأطباء الذين أثروا المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات الطبية التي كان لها مع ما سبقها من دراسات أثر كبير في إثراء الدراسات الطبية في العصور التي تلتها، استمراراً حتى العصر الحاضر، وممن برز في هذا الميدان: الطبيب أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم المتوفى سنة (570هـ/ 1174م)[7]، الذي اشتهر بالتدريس

---

(1) الحياة العلمية، ص: 339.
(2) المصدر نفسه، ص: 339.
(3) الرقّاص: أو رقّاص الساعة، يسمى باسم البندول.
(4) تراث العرب العلمي، ص: 398.
(5) الحياة العلمية، ص: 341.
(6) مفتاح السعادة (1/ 303)، الحياة العلمية، ص: 342.
(7) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 343.

بالبيمارستان النوري بدمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود، وكان نور الدين قد أوكل إليه مهمة التطبيب في ذلك البيمارستان بعد إنشائه، وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة كيف كان ابن أبي الحكم يتفقد المرضى بنفسه، وطريقته في تدريس الطب في ذلك البيمارستان، ومناقشاته مع طلابه، ولكنه لم ينسب إليه أي كتاب ألّفه في الطب[1]، وممن اشتهر بالطب في هذا العهد: أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي المتوفى سنة خمس أو ست وسبعين وخمس مئة (1179 ـ 1180م)[2]، وكان فاضلاً خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وله حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها، أقام بدمشق سنين كثيرة، وكانت له دكّان عطر بدمشق يجلس فيها ويعالج من يأتي إليه، أو يستوصف منه، وكان له عناية بالكتب الطبية والنظر فيها، وتحقيق ما ذكره المتقدمون من صفة الأمراض ومداواتها، وكانت له مع ذلك عناية بعلم الحديث وله شعر كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحول، وعُمّر ابن البذوخ عمراً طويلاً، وضعف عن الحركة حتى إنه كان لا يأتي إلى دكانه إلا محمولاً، وعمي في آخر عمره حتى توفي[3]، ولابن البذوخ من الكتب الطبية «شرح كتاب الفصول لأبقراط» وشرح كتاب «تقدمة المعرفة لأبقراط» أيضاً، وله كتاب «ذخيرة الألباء» و«المفرد في التأليف عن الأشياء» وله حواشي وضعها على كتاب «القانون لابن سينا»[4].

ـ الصيدلة: ويقصد بها علم الأدوية وتركيباتها وهي متصلة بعلم الأعشاب «النبات» وبعلمَي الحيوان والمعادن وبالكيمياء، فإن الأدوية نباتية وحيوانية ومعدنية، ثم هي تحتاج إلى معالجة وإلى نسب في التركيب تقتضي المعرفة بالكيمياء[5]، ونظراً لعدم توفر المعرفة التامّة بطرق التحاليل الكيميائية في تلك العصور، فقد نظم المسلمون مهنة الصيدلة، فجعلوا على الصيادلة نقيباً يسمى: رئيس العشّابين، وأخضعوا تلك المهنة لرقابة عريف الحسبة، حتى يحولوا دون غش الدواء[6]، وقد برع الأطباء المسلمون في تركيب الأدوية بنسب معينة، وبرز خلال العهد الزنكي عدد من المتخصصين في تركيب الأدوية «الصيدلة» كانوا في الأصل أطباء فقد ذكر ابن أبي أصيبعة على الطبيب ابن البُذوخ المغربي المتوفى سنة (575هـ أو 576هـ/ 1179م ـ 1180م)[7]، كان خبيراً بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، وكانت له دكان عطر بدمشق

(1) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 343.
(2) المصدر نفسه، ص: 343.
(3) المصدر نفسه، ص: 343.
(4) المصدر نفسه، ص: 343.
(5) تاريخ العلوم عند العرب، ص: 294، الحياة العلمية، ص: 345.
(6) نهاية الرتبة، ص: 42 للشيرزي، الحياة العلمية، ص: 345.
(7) الحياة العلمية، ص: 346.

يجلس فيها، ويعالج من يأتي إليه أو يستوصف منه، وأنه كان يهيئ عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، يبيع منها وينتفع الناس بها[1]، كما ذكر أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي المتوفى سنة (610هـ/ 1213م) في كتابه «المختارات في الطب» كثيراً من أنواع المأكولات وأثرها على الصحة، وأنواع العلاجات والأدوية وكيفية استخراجها[2].

لقد ركزت السلطة القائمة في العهد الزنكي على إحياء العلوم الشرعية والعناية بها بالدرجة الأولى لأسباب كثيرة من أبرزها: الحرص على الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الحركات الفكرية والسرّية الهّامة، والتي كانت تستهدف تشكيك المسلمين في العقيدة الإسلامية توطئة للسيطرة عليهم، وعلى رأس هؤلاء فرقة الباطنية، لذا تقلصت الدراسات الفلسفية ودراسة المنطق التي تخدم الفكر الشيعي الباطني، وتحقّق لعلماء الشريعة فرصة الوصول إلى مراكز التوجيه الفكري والثقافي في هذا العهد، كما صاحب هذا النشاط في ميدان العلوم الشرعية نشاط آخر في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية، والتاريخية والجغرافيا، كما قُدِّمت دراسات علمية راقية في ميدان الرياضيات بفروعها المختلفة، وفي علم الفلك والميقات، إضافة إلى الاهتمام بالدراسات الطبية والصيدلة والتي كان مجالهما داخل البيمارستانات المنتشرة في المدن الزنكية، وبرز من بين العلماء المشتغلين بتلك العلوم علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصّة، والتي ظلت مرجعاً للبحوث العلمية حتى الوقت الحاضر[3].

رابعاً: ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين:

قال عنه الذهبي: هو الإمام العلاّمة الحافظ الكبير المجوِّد، محدِّث الشام، ثقة الدين، أبو القاسم الدمشقي الشافعي صاحب «تاريخ دمشق»[4]، وهو علي بن الشيخ أبي محمد الحسن ابن هبة الله ابن عبد الله بن الحسين[5]، صنَّف الكثير ـ من الكتب ـ وكان فهماً حافظاً متقناً ذكياً بصيراً بهذا الشأن، لا يُحلّقُ شأوه ولا يشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه[6]، كان مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كل جمعة، ويختم في رمضان

(1) عيون الأنباء، ص: 628، الحياة العلمية، ص: 346.
(2) المختارات (2/ 210، 336).
(3) الحياة العلمية، ص: 346.
(4) سير أعلام النبلاء (20/ 554).
(5) المصدر نفسه (20/ 555).
(6) المصدر نفسه (20/ 556).

كل يوم، ويعتكف في المنارة الشرقية، وكان كثير النوافل والأذكار.. ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة[1]، وقد لزم طريقة واحدة مدة أربعين سنة من لزوم الجماعة في الخمس في الصفّ الأول إلا من عذر، والاعتكاف في رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلع إلى تحصيل الأملاك وبناء الدور، وقد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب في الإمامة والخطابة، وأباها بعد أن عرضت عليه وقلّة التفاته إلى الأمراء، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم[2].

وكان له نظم من الشعر منه قوله:

ألا إنَّ الحديث أجلُّ علم ... وأشرَفُهُ الأحاديث العوالي
وأنفع كل نوع منه عندي ... وأحسنه الفوائدُ والأمالي
فإنك لن ترى للعلم شيئاً ... تحقِّقُهُ كأفواه الرِّجال
فكن يا صاح ذا حِرْصٍ عليه ... وخذه عن الشيوخ بلا مَلالِ
ولا يأخُذْهُ من صُحُفٍ فترمى ... من التصحيف بالداء العضال[3]

ومن شعره أيضاً:

أيا نفس ويحك جاء المشيب ... فماذا التصابي وماذا الغزلْ
تولّى شبابي كأن لم يكن ... وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غِرّةٍ ... وخطبُ المنون بها قد نَزَلْ
فيا ليت شعريَ ممن أكون ... وما قدَّر الله لي في الأزل[4]

قال عنه رفيقه أبو سعد السمعاني: كثير العلم، حافظ متقن ديِّن خيِّر، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، صحيح القراءة، متثبت محتاط رحل في طلب الحديث، وتعب في جمعه، وبالغ في الطلب[5]. وقال ابن النجار: إمام المحدثين في وقته، ومن انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان وبه ختم هذا الشأن[6]. وقال السيوطي: الإمام الكبير، حافظ الشام، بل حافظ الدنيا، الثقة الثبت الحجة، ثقة الدين.. وكان من كبار الحفّاظ المتقنين، ومن أهل

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 562).
(2) المصدر نفسه (20/ 565).
(3) المصدر نفسه (20/ 569).
(4) سير أعلام النبلاء (20/ 570).
(5) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (1/ 59).
(6) المصدر نفسه (1/ 59).

الدين والخير، غزير العلم، كثير الفضل، جمع بين معرفة المتن والإسناد[1] وقال عنه السبكي: سمع الحديث وعمره ست سنين، ثم طلبه بنفسه ورحل في هذا الشأن عشرين سنة.. وأبعد الرحلة وجمع، وكتب الكثير في العراق وخراسان وأصفهان وغيرها، ومن جملة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة حتى أصبح: إمام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائه[2].

1 ـ مساندته الفكرية والعقائدية لنور الدين محمود:

برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في معاضدته على الوحدة والجهاد، حيث اندفع يطلب منه إلى التطبيق العملي في تأليف «الأربعون حديثاً في الحث على الجهاد» قال ابن عساكر: وأحب أن أجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين الأجلاء[3].

وكان هدف ابن عساكر هو تثقيف المجتمع الإسلامي آنذاك والقيام بواجب الوقت، وهو الوقوف إلى جانب نور الدين محمود ضد الخطر الصليبي، وبسبب قناعة آل زنكي بأن الأعمال العسكرية والسياسية لا تكن ناجحة مؤثرة إلا بدعم فكري وعقائدي وعاطفي وديني، واستجاب ابن عساكر لطلب نور الدين، وقال في مقدمته: . . . فسارعت إلى امتثال ما التمس من المراد وجمعت له ما يرتضيه أهل المعرفة والانتقاد، واجتهدت في جمعها غاية الاجتهاد، رجاء أن يحصل لي أجر التبصير والإرشاد، والله الموفق للصواب في الإصدار والإيراد، والمسدد في الأقوال في الإسهاب والاقتصاد[4] وقد خصص ابن عساكر العشرة الأولى منها في توضيح منزلة الجهاد بعد منزلة الإيمان بالله مباشرة؛ لتحريض المسلمين لمواجهة الخطر الصليبي[5] ومن هذه الأحاديث:

ـ سُئل رسول الله ﷺ، أي الإيمان أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ﷻ**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**ثم الجهاد في سبيل الله ﷻ**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»[6].

ـ قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمان بالله وجهاد في سبيله**» قلت: يا رسول الله فأي الرقاب أفضل؟ قال: «**أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمناً**» قال: فإن لم أجد؟

---

(1) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق (1/ 60).

(2) طبقات السبكي (4/ 273).

(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 102.

(4) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 108.

(5) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 103.

(6) مسلم رقم: 83.

قال: **«تعين ضائعاً أو تصنع لأخرق»** قال: فإن لم أستطع؟ قال: **«تكف أذاك عن الناس فإنها تصدق بها عن نفسك»**[1].

ـ قلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحب إلى الله ﷻ؟ قال: **«أن تصلي الصلوات لمواقيتها»** قلت: ثم أي؟ قال: **«بر الوالدين»** قلت: ثم أي؟ قال: **«الجهاد في سبيل الله»** ولو استزدته لزادني[2]. وفي الأحاديث الأخرى حاول ابن عساكر أن يذكِّر الناس بمنزلة المجاهد في سبيل الله، فمثلاً في الحديث الحادي عشر قال الرسول ﷺ: **«يا أبا سعيد الخدري، من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً وجبت له الجنة»** قال: فعجب لها أبو سعيد، قال: أعدها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ: **«وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»** قال: وما هي يا رسول الله قال: **«الجهاد في سبيل الله ﷻ»**[3].

ـ وفي الحديث الثاني عشر: قال الرسول ﷺ: **«في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله»**[4]. وهناك الكثير من الأحاديث التي ذكرها ابن عساكر فهي لا تدعو ولا تذكر الجهاد مباشرة، ولكنها تدعو إلى القتال في سبيل الله.

ـ كما هو الحال في الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس؟ إن من خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت وهو على ذلك»**[5]. كما أورد أحاديث في الرباط في سبيل الله، مثلاً كالحديث الواحد والعشرين.

ـ قال رسول الله ﷺ: **«كل ميت يختم على عمله، إلا المرابط في سبيل الله، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة»**[6].

ـ وفي الحديث الثالث والعشرين قال رسول الله ﷺ: **«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها»**[7]. كما ذكر الخيل وضرورته في القتال، مثلاً في الحديث السابع والعشرين.

---

(1) البخاري رقم: 2518.

(2) صحيح ابن حبان رقم: 1476، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 111.

(3) مسلم في الإمارة رقم: 1884.

(4) البخاري رقم: 2790.

(5) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب: فضل من عمل في سبيل الله (6/ 11، 12).

(6) سنن سعيد بن منصور، رقم: 2414، قال الترمذي: حسن صحيح.

(7) البخاري رقم: 2892.

ـ قال الرسول ﷺ: **«من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بِوَعده، فإنَّ شِبَعه وريِّه وروثه وبوله حسنات في ميزانه يوم القيامة»**[1].

ـ وفي الحديث الخامس والثلاثين: قال الرسول ﷺ: **«طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله»**[2].

وأحاديث أخرى في صناعة الأسلحة في الحديث التاسع والعشرين.

ـ مثلاً يقول الرسول ﷺ: **«إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه الذي يحتسب في صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبيل الله»**، قال: **«ارموا واركبوا وإن ترموا خير من أن تركبوا»**[3]. وليس ذلك فقط، بل وذكر فضل أولئك الذين يوجهون أسلحتهم لأعداء الإسلام.

ـ قال رسول الله ﷺ: **«من تقلد سيفاً في سبيل الله قلده الله ﷻ يوم القيامة وشَاحين من الجنة لا تقوم لهما الدنيا وما فيها»**[4]. وفي أحاديث أخرى ساوى بين الإنفاق في الحج والإنفاق في سبيل الله في الحرب، مثلاً في الحديث الثلاثين: قال رسول الله ﷺ: **«النفقة في الحج مثل النفقة في سبيل الله الدرهم بسبعمائة»**[5].

إن نظرة سريعة للأحاديث التي ذكرها ابن عساكر نلاحظ أنه اختارها بدقة كبيرة من بين الأحاديث الكثيرة التي تطرقت إلى الجهاد، وبصورة عامة فهو اختار أحاديث تتحدث عن منزلة الجهاد في الإسلام، وفضل المجاهد على غيره من المسلمين، وعن أولئك المسلمين الذين يجهزون للقتال أدوات الحرب آنذاك كالخيول والسلاح والمرابطة في سبيل الله.. إلخ وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئته الفكرية والدينية التي كرس حياته لها وقد آتت ثمارها في مواجهة الغزو الصليبي، فقد ساندتها السلطة السياسية العسكرية المتمثلة في شخص نور الدين محمود، والتي اعتمد عليها كقاعدة استند عليها في صراعه الطويل مع الصليبيين.

إن تحالف العلماء مع القادة السياسيين العسكريين، كتحالف ابن عساكر ونور الدين

---

(1) البخاري رقم: 2853.

(2) البخاري رقم: 2887.

(3) صححه الحاكم (2/ 86) ووافقه الذهبي.

(4) حديث موضوع فيه عبد العزيز بن عبد الرحمن البالسي، المجروحين (2/ 139).

(5) إسناده ضعيف، عطاء بن السائب اختلط، التاريخ الكبير (3/ 63).

خير مثال على أهمية وحدة الصف في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية ضد الإسلام والمسلمين[1].

2 ـ تأليف ابن عساكر فضائل المدن:

ووجد ابن عساكر أن استمرارية الغزو الصليبي للشرق الإسلامي لا بد أن تواجهه استمرارية في الجهاد ضده، ولذلك أكّد على فكرة الجهاد كما برزت الأحاديث التي ذكرها والتي كانت جزءاً من منهجه الجهادي المحرض للمسلمين، وليس ذلك فحسب وإنما أيضاً من خلال تأكيده على فضائل المدن الإسلامية داعياً المسلمين إلى استعادتها والدفاع عنها، حيث ألف العديد من الكتب التي تشيد بذلك منها «فضائل القدس» و«فضائل عسقلان» و«فضائل المدن الإسلامية» و«الزهادة في بذل الشهادة»، وغيرها من الكتب التراثية العديدة التي تشير إلى مدى تركيزه واهتمامه بذكر فضائل المدن الإسلامية، وتذكير المسلمين لدور تلك المدن في التاريخ الإسلامي التي لا بد من التشبث بها والدفاع عنها[2]، ولم يكن ابن عساكر الوحيد مَن ألف في فضائل المدن الشامية آنذاك، بل اتجه العديد من الفقهاء للتذكير بهذا الجانب، مثل «فضائل الشام» للفقيه الحافظ عبد الكريم السمعاني (ت562هـ) و«فضائل الشام» للفقيه محمد عبد الواحد منصور السعدي الحنبلي (ت643هـ)، وكتاب «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام» للفقيه عز الدين السلمي (ت660) وغيرهم الكثير[3]، وذلك لأن الغزو الصليبي ـ كما أشار السلمي وابن عساكر ـ لم يستهدف الإسلام كفرد أو عقيدة، وإنما أيضاً كان يستهدف القضاء على حضارته وتراثه المتكامل، ووجد أولئك الفقهاء أنه خير وسيلة لحفظ تراث تلك المدن الإسلامية، ومكانتها التاريخية من خطر زوالها، ولربما تغيير ملامحها الحضارية من قبل الصليبيين هو التاريخ لها، وتدوين أخبارها[4].

وبتشجيع من الملك العادل نور الدين محمود تمّ تأليف أكبر مصنف عن تاريخ دمشق، وهو تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر، وقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: ورقى خبر جمعي له إلى حضرة الملك القمْقام الكامل العادل الزاهد المجاهد المرابط الهمام، أبي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الإمام. . . وبلغني تشوقه إلى الاستنجاز

---

(1) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 108.
(2) المصدر نفسه، ص: 108.
(3) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (2/ 399).
(4) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 108.

والاستمام ليلمّ بمطالعة ما تيسَّر منه بعض الإلمام، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتمام، شاكراً لما ظهر منه من حسن الاهتمام[1]، مما يوضح للباحث حرص نور الدين محمود على الاطلاع على تاريخ عاصمته «دمشق» وتشوقه إلى ذلك، كما أنه يؤرخ لنا زمن تصنيف ابن عساكر لهذا الكتاب، ويعد هذا العمل من الآثار العلمية المجيدة التي تبناها نور الدين محمود[2]. وبذلك كان ابن عساكر أحد أولئك الذين استخدموا التراث كوسيلة لتحريض البلاد الإسلامية للوقوف في وجه الخطر الذي يحيق بها، فقد استخدم التاريخ والأدب مع فكرة الجهاد، كمنهج متكامل من أجل بعث الحياة الثقافية في بلاد الشام التي أثقلها الضعف والصراع السياسي والديني[3].

3 ـ ابن عساكر يحث نور الدين على مواصلة الجهاد:

عرف عن ابن عساكر تديُّنه وتعففه واعتكافه وبعده عن إغراءات الدنيا وعزوفه عن المناصب، بالإضافة إلى اعتداده بمكانة العلماء ودورهم الثقافي والسياسي، فلم يتردد ابن عساكر في مخاطبة نور الدين بعد أن أعفى الأخير أهل دمشق من المطالبة بالخشب، وبعد فتح مصر في أن يوجه إلى السلطان قصيدة يوجهه فيها إلى ما يجب أن يفعله في المستقبل فيقول:

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً ... للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه ... خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد ... وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل ... لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته ... حتى ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة ... عِليَّةً فأقصد العالي من القرب
فالجد والجد مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والإدراك في الطلب
وطهِّر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والإشراك والصلب

(1) تاريخ مدينة دمشق في المقدمة، ص: 4.
(2) الحياة العلمية في العهد الزنكي، ص: 79.
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها، ص: 109.

عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن منقلب[1]

كان نور الدين محمود قائداً متميزاً يملك نظرة قيادية استراتيجية في بناء الدولة، فقد جعلها قادرة على تحمل أعباء الجهاد والتحرير، فبمجرد مجيئه للحكم، بدأ ببناء الدولة من جميع جوانبها الإدارية والعمرانية والثقافية والسياسية، فقد كانت مداركه الحضارية واسعة، فأقام صروحاً كبيرة فبنى المستشفيات وأقام دار العدل واهتم بالحياة الثقافية وتنشيطها، ومن هنا كان اللقاء بين الحافظ ابن عساكر والقائد نور الدين[2]، واهتم نور الدين بالبناء الداخلي، وكان العلماء عوناً له على ذلك، واستطاع أن ينقل نور الدين الموقف بالنسبة للحرب في مواجهة الصليبيين من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم، حتى أنه بدأ يعد العدة لخوض المعركة الفاصلة معهم، فعمل أولاً على أن يحول دون سيطرتهم على مصر، فعندما أيقن الصليبيون أن وجودهم أصبح مهدداً، فتوجهوا بأنظارهم صوب مصر وهيؤوا لذلك، فأدرك القائد نور الدين ذلك، فتدخل على هذه الجبهة بنظرة استراتيجية وأرسل ثلاث حملات متواليات تمكنت من إحباط خططهم وإنهاء الوضع المتردي في مصر، ومن ثَمَّ إسقاط الدولة الفاطمية وتوحيدها مع الشام ـ كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

وكان ابن عساكر في هذه الفترة مواكباً لنور الدين ومحفزاً له وداعياً للجهاد والتحرير، وكان يقول داعياً للوحدة: لم يمكّن الله أهل فرقة على جماعة أبداً[3]، وخطط نور الدين لجولة فاصلة مع الصليبيين تستخدم فيها طاقات الشام والجزيرة ومصر، والمغرب، وبلاد إسلامية أخرى، وبات متيقناً بالنصر، وتسامع الناس أخبار ثقته بالنصر، فقد كان لنور الدين نجاراً بحلب يعرف: «بالأختريني» من ضيعة قريبة من حلب تعرف «بأخترين» اشتهر ببراعته ودقة صنعه التي لا تجارى، فأمره أن يصنع منبراً لبيت الله المقدس، ولبى الرجل ما ندب له، وبذل النجارون الصناع في صناعته سنين وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين[4]، واستطاع نور الدين من خلال وسائله وخططه وتواصله مع العلماء أن يقلب موازين الصراع لصالحه، فالمعارك قبل نور الدين كانت تخوضها قوات محترفة تابعة للحكام المسلمين، ومُنذ أيام نور الدين بدأ عنصر المتطوعة يكثر ويندفع في المعارك، وباتت مع الأيام أعداد المتطوعة أكبر من

---

(1) الخريد للعماد الأصفهاني (1/ 277)، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 53.

(2) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 46.

(3) المصدر نفسه، ص: 48.

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن دوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 48.

أعداد الجند المحترفة، وكان ذلك كله، نتيجة تعبئة مشاعر الناس وتحريضهم على الجهاد، وندبهم إلى حمل السلاح، وهو ما كان يتولاه الولاة والوعاظ، ويأتي ابن عساكر كبير علماء الشام ومحدثها الأول في مقدمة هؤلاء. وفي هذا المجال لا بد من ملاحظة هامة وهي أن المتطوعة لم يقتصروا على سكان العراق وبلاد الشام أو مصر، بل تعداه إلى سكان المغرب والأندلس، فلقد كان المغاربة يأتون للجهاد والحج فيجاهدون ويحجون أو يحجون ويجاهدون، أو يجاهدون، وتكتب لهم الشهادة، وكلنا يعلم أن أحد أهم أحياء دمشق هو حي (المغاربة) الذي يعود إنشاؤه إلى تلك المرحلة[1]، ولقد تحدث عن المغاربة والأندلسيين ومشاركتهم في الجهاد ضد الصليبيين والعلاقات الثقافية والفكرية بين المغرب والأندلس وبين بلاد الشام والتأثيرات الفكرية بين العلماء وعدد من مؤرخي تلك الفترة وما بعدهم منهم: ياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وابن العماد في «شذرات الذهب»، وابن جبير في «رحلته»، والمقري في «نفح الطيب»، ومحمد بن عبد الملك المراكشي في «الذيل والتكملة» والسبكي في «الطبقات»، وكذلك ابن سعيد المغربي في «المغرب في حلي المغرب»، وينقل عنه المقري، كما ترجم ابن عساكر لعديد من العلماء والقراء والشعراء المغاربة والأندلسيين الذين قدموا إلى دمشق[2].

4 ـ وفاة ابن عساكر:

توفي ابن عساكر رحمه الله في رجب سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ليلة الاثنين، حادي عشر الشهر، وصلى عليه القطب النيسابوري، وحضره السلطان صلاح الدين، ودفن عند أبيه في مقبرة باب الصغير[3].

رحم الله ابن عساكر فقد كان له دور هام في إيجاد صحوة إسلامية ساعدت بدورها في تدعيم المواجهة الأيديولوجية مع الصليبيين، وقد تمكن نور الدين بفضل الله، ثم جهود العلماء والمخلصين من أبناء الأمة بإعداد جبهة واحدة متماسكة عقائدياً، على نحو أدى في النهاية إلى تدعيم فكرة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، ولا نزاع في أن الدولة النورية قد نجحت في تحقيق أهدافها بصورة كبيرة، ودل ذلك على إدراكها لأهمية العوامل العقائدية والفكرية في إيجاد كيان داخلي متماسك في مواجهة الغزو الصليبي[4].

---

(1) ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ص: 48.

(2) المصدر نفسه، ص: 48.

(3) موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق، ص: 70.

(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 276، 277.

المبحث السابع
الإمام عبد القادر الجيلاني وجهوده في الدعوة الشعبية والإصلاح العام

الدعوة الشعبية والإصلاح العام:

من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي الأول، وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاً في عهد يحيى بن هبيرة، وسيأتي الحديث عن ذلك في محله بإذن الله تعالى، وفي هذا المبحث سنوضح بإذن الله تعالى جهود عبد القادر الجيلاني في الدعوة الشعبية والإصلاح العام، فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين محمود، وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، لقد كانت عامّة الجماهير في حاجة شديدة إلى شخصية روحية رفيعة، تكون على تواصل بالشعب وطبقاته وجماهيره لكي يؤثر في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته[1]، وتوقظ في النفوس الإيمان وتثير عقيدة الآخرة، وتحرك في القلوب الحب لله والحنين إليه، وتحث على الطموح وعُلوِّ الهمّة وبذل الجهد في الحصول على علم الله الصحيح وعبادته ونيل رضوانه والمسابقة إلى سبيله وتدعو إلى التوحيد الكامل، والدين الخالص[2].

ولقد وجد هذا المصلح الشعبي في شخص الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي ظهر في بغداد في آخر القرن الخامس، وتسلّم الزعامة الدينية وعاش نحو قرن فرداً فريداً في الدعوة إلى الله، وأثر في العالم الإسلامي تأثيراً كبيراً[3]، واستطاع أن يؤسس مدرسة ساهمت مع الزنكيين في تحمل المسؤولية ومواجهة التحديات العقائدية والفكرية، والاقتصادية والاجتماعية ساهمت في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية[4]، فقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود من سبقوه وتعاليمهم وخصوصاً الإمام الغزالي الذي قام بدور عظيم في تاريخ الإصلاح والتجديد ـ وقد فصّلت ذلك في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة الغزو الصليبي». وكان الرجل المطلوب للدفاع عن الإسلام عند هجوم الفلسفة اليونانية وإلحاد الباطنية، وانحراف العلماء[5]، وقد استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الغزالي وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء.

---

(1) رجال الدعوة والفكر (1/ 235).
(2) المصدر نفسه (1/ 237).
(3) المصدر نفسه (1/ 239).
(4) لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد، ص: 325.
(5) رجال الفكر والدعوة (1/ 235).

يقول الدكتور ماجد الكيلاني: والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبّقه عبد القادر الجيلاني يكشف عن تأثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة المريدون[1]. وتعتبر شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني ومدرسته وتعاليمه ذات أثر ملموس في نهوض الأمة في عهد الزنكيين الأيوبيين ولذلك بإذن الله تعالى سنسلط الأضواء على شخصيته ومدرسته وتعاليمه.

أولاً: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم وشيوخه:

1 ـ اسمه:

هو عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض، ويلقب أيضاً: بالمجل بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ[2]. وبعض الناس ينكر نسبته إلى علي بن أبي طالب[3]، ويبدو أن الصحيح صحة انتسابه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لضعف أدلة الطاعنين وندرتهم وقوة أدلة المثبتين وكثرتهم[4].

2 ـ كنيته ولقبه:

تكاد تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته: أبو محمد، ونسبته: الجيلاني أو الجيلي[5]. وأما الألقاب التي أطلقت عليه فهي كثيرة توحي بدلالات متعددة وهي تشبه في عصرنا الإجازات العلمية والأوسمة التي تمنح للعلماء والعظماء إقراراً بفضلهم وبياناً لعلوّ منزلتهم، فمن الألقاب التي أُطلقت عليه لقب: «الإمام»، أطلقه عليه السمعاني فقال: إمام الحنابلة وشيخهم في عصره. نقله عنه ابن رجب[6]. ومنها لقب: «شيخ الإسلام» أطلقه عليه الذهبي[7].

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، نقلاً عن لا طريق غير الجهاد، ص: 339.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 439)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 27.

(3) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 290).

(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني، ص: 28.

(5) المصدر نفسه، ص: 28.

(6) المصدر نفسه، ص: 28.

(7) سير أعلام النبلاء (20/ 439).

3 ـ ولادته:

ولد الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ويقال لها: إكيل وكيلان، والنسبة إليها جيلي وجيلاني كيلاني، وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة[1] وقيل: إنه ولد سنة سبعين وأربعمائة هجرية[2].

4 ـ طلبه للعلم ورحلاته:

رحل الشيخ عبد القادر الجيلاني من بلده ومسقط رأسه جيلان إلى بغداد حيث دخلها سنة (488هـ) وعمره آنذاك ثماني عشرة سنة، والتقى في بغداد بمجموعة من مشاهير العلماء الذين نهل من مناهلهم واستفاد من معارفهم حتى أصبح عالماً في مختلف العلوم، إذ يصفه الذهبي في ترجمته له بأنه: الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ومحيي الدين[3]، وكما يصفه ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة بأنه: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف[4]، وقد أمضى في طلب العلم اثنين وثلاثين سنة درس فيها مختلف علوم الشريعة ثم جلس للتعليم والوعظ سنة 520هـ[5]. وكان خلال فترة طلبه للعلم رغم طولها يعاني من ضيق العيش ويكابد مرارة الحرمان إلا أن ذلك لم يفت في عزيمته ولم يعوقه عن المثابرة في طلب العلم[6]، وقد نقل ابن رجب ما يصوّر لنا تلك المعاناة من كلام الشيخ نفسه حيث يقول: وكنت أقتات الخرنوب[7] والشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد أن بقيت أياماً لم آكل طعاماً بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها يوماً من شدة الجوع لعلي أجد ورق الخس أو البقل أو غير ذلك، فأتقوت به فما ذهبت إلى موضع إلّا وغيري قد سبقني إليه، وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياءً، فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلا وقد سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك فدخلت إليه ووقعت في جانب منه، وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صاف وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع حتى أنكرت ذلك على نفسي، فقلت: ما هذا؟ وقلت: ما ههنا إلّا الله أو ما قضاه عليّ من الموت، إذ التفت إليّ الأعجمي فرآني فقال:

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 439).

(2) بهجة الأسرار للشطنوفي، ص: 88.

(3) سير أعلام النبلاء (20/ 439).

(4) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 290).

(5) المصدر نفسه (1/ 291).

(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 32.

(7) الخرنوب: شجر بري ذو شوك ذو حمل كالتفاح لكنه بشع.

بسم الله يا أخي، فأبيت فأقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً، فأخذ يسألني ما شغلك، ومن أين أنت وبمن تُعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر، فقلت: أنا هو، فاضطرب وتغير وجهه، وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلّا مما كان لك معي، وقد حلّت لي الميتة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي، فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجّهت لك معي ثمانية دنانير فاشتريت منها هذا للاضطرار فأنا معتذر إليك، فسكّنته وطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة فقبله وانصرف[1].

5 ـ شيوخه: ونتحدث عن بعضهم:

أ ـ أبو سعيد: المبارك بن علي المخرمي شيخ الحنابلة، تفقه بالقاضي أبي يعلى وبنى مدرسة باب الأزج، درّس بها بعده تلميذه الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن طوّرها وأدخل عليها بعض التوسعة والتجديد، وكان نزيهاً عفيفاً، وقد فتحت عليه الدنيا، فبنى داراً وحماماً وبستاناً، مات سنة (513هـ).

ب ـ أبو الوفاء علي بن عقيل بن عبد الله البغدادي: الإمام العلامة البحر شيخ الحنابلة الحنبلي المتكلم صاحب التصانيف ولد سنة (431هـ) وكان يتوقد ذكاءً وكان بحر معارف وكنز فضائل لم يكن له في زمانه نظير[2]. وقد نقل عنه الذهبي قوله: عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة وقصر محبتي على العلم وما خلطت لعاباً قط، ولا عاشرت إلّا أمثالي من طلبة العلم، وأنا الآن في عشر الثمانين أجد من الحرص على العلم أشد مما كنت أجده وأنا ابن العشرين وبلغت لاثنتي عشرة سنة وأنا اليوم لا أرى نقصاً في الخاطر والفكر والحفظ وحدَّة النظر بالعين لرؤية الأهِلَّة الخفيَّة إلّا أن القوة ضعيفة[3]. قال ابن الجوزي: كان ابن عقيل ديّناً حافظاً للحدود توفي له ابنان فظهر منه من الصبر ما يُتعجب منه، وكان كريماً ينفق ما يجد، وما خلّف سوى كتبه وثياب بدنه توفي سنة 513هـ[4]، وينقل الذهبي عن أبي المظفر سبط ابن الجوزي قول ابن عقيل: حججت فالتقطت عقد لؤلؤ في خيط أحمر فإذا شيخ أعمى ينشده ويبذل لملتقطه مائة دينار فرددته عليه، فقال: خذ الدنانير، فامتنعت وخرجت إلى الشام وزرت القدس وقصدت بغداد ثم إلى حلب، فأويت بحلب إلى مسجد وأنا بردان جائع

---

(1) الذيل عن طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 298).
(2) سير أعلام النبلاء (19/ 428).
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 38.
(4) سير أعلام النبلاء (19/ 446).

فقدموني فصليت بهم فأطعموني وكان أول رمضان، فقالوا: إمامنا توفي فصلِّ بنا هذا الشهر، ففعلت، فقالوا: لإمامنا بنت فهل ترغب في الزواج منها، فقبلت، فتزوجت بها وأقمت معها سنة، وأولدتها ولداً ذكراً فمرضت في نفاسها، فتأملتها يوماً فإذا في عنقها العقد بعينه بخيطه الأحمر، فقلت لها: لهذا قصة، وحكيت لها، فبكت وقالت: أنت هو، والله لقد كان أبي يبكي ويقول: اللهم ارزق ابنتي مثل الذي رد العقد عليَّ، وقد استجاب الله منه، ثم ماتت، فأخذت العقد والميراث وعدت إلى بغداد[1].

ج ـ **حماد بن مسلم الدباس**: كان الشيخ عبد القادر من تلامذته[2]، وقد أثنى ابن تيمية على الجيلاني وشيخه حماد، حيث قال: فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة ﷺ: بأنه لا يريد السالك مراداً قط وأنه لا يريد مع إرادة الله ﷻ سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق[3].

د ـ **أبو محمد جعفر بن أحمد البغدادي السراج**: الشيخ البارع المحدث المسند بقية المشايخ، كتب بخطه الكثير وصنَّف الكتب كان صدوقاً ألَّف في فنون شتَّى وكان ممن يفتخر برؤيته ورواياته لديانته ودرايته، ثقة مأمون عالم صالح، ولد سنة (417هـ) وتوفي سنة (500هـ)[4].

هـ ـ **أبو عبد الله يحيى بن الإمام أبو علي الحسن بن أحمد بن البناء البغدادي الحنبلي**: كان الحافظ عبد الله بن عيسى الأندلسي يثني عليه ويمدحه ويطريه ويصفه بالعلم والفضل وحسن الأخلاق وترك الفضول وعمارة المسجد وملازمته ولد سنة (453هـ) وتوفي سنة 531هـ[5]. هؤلاء من أشهر شيوخه الذين أخذ عنهم وكان لهم الأثر الكبير في حياته[6].

6 ـ مكانته العلمية:

ويكفي في معرفة مكانة الشيخ عبد القادر الجيلاني العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بأنه من الشيوخ الكبار[7]. ثم شهد له بأنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء، فيقول: والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر، من أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية[8]. وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي، قال: سمعت شيخنا موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة (561هـ) فإذا الشيخ الإمام محيي

---

(1) سير أعلام النبلاء (19/ 447).
(2) المصدر نفسه (19/ 449).
(3) فتاوى ابن تيمية (10/ 455).
(4) سير أعلام النبلاء (19/ 228).
(5) المصدر نفسه (20/ 6).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني للقحطاني، ص: 43.
(7) فتاوى ابن تيمية (10/ 463).
(8) المصدر نفسه (10/ 488).

الدين عبد القادر ممن انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءً وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثرة ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر وكان ملء العين، وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء[1]. وكان يبذل أوقاتاً كثيرة في سبيل تعليم الناس الذين كانوا يحرصون على حضور دروسه على اختلاف مستوياتهم يقول ابنه عبد الوهاب: كان والدي رحمه الله يتكلم في الأسبوع ثلاث مرات بكرة الجمعة وعشية الثلاثاء وبالرباط بكرة الأحد، وكان يحضره العلماء والفقهاء والمشايخ وغيرهم ومدة كلامه على الناس أربعون سنة أولها (521هـ) وآخرها (561هـ) ومدّة تصدره للتدريس والفتوى بمدرسته 33 سنة أولها (528هـ) وآخرها (561هـ)، وكان يكتب ما يقول في مجلسه أربعمائة محبرة[2].

وأما ذكاؤه وفطنته وقدرته على حل المعضلات من الحوادث والمسائل فيشهد لذلك ما ذكره ابنه عبد الرزاق بقوله: جاءت فتوى من العجم إلى بغداد فلم يتضح لأحد منهم فيها جواب شافٍ، وصورتها: ما تقول السادة العلماء في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بدَّ له أن يعبد الله عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها فيما يفعل من العبادات؟ قال: فأتى بها إلى والدي فكتب عليها على الفور: يأتي مكة ويخلي له المطاف ويطوف أسبوعاً ـ أي سبعاً ـ وحده وتنحل يمينه، قال: فما بات المستفتي ببغداد[3]، وعندما ترجم له ابن رجب في الذيل على طبقات الحنابلة، قال: شيخ العصر وقدوة العارفين وسلطان المشايخ وسيد أهل الطريقة في وقته محيي الدين أبو محمد صاحب المقامات والكرامات والعلوم والمعارف والأحوال المشهورة[4]، ويقول ابن الجوزي عنه: تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير[5].

ثانياً: منهجه في توضيح العقيدة:

بيَّن رحمه الله عقيدته بوضوح وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[6] ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها ـ خصوصاً قضايا العقيدة ـ يمكن تلخيصه فيما يلي:

---

(1) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 294).

(2) بهجة الأسرار، للشطنوفي، ص: 95.

(3) الذيل على طبقات الحنابلة (1/ 294).

(4) المصدر نفسه (1/ 290).

(5) المصدر نفسه (1/ 291)، الشيخ عبد القادر، ص: 69.

(6) سير أعلام النبلاء (20/ 442)، الشيخ عبد القادر، ص: 62.

1 ـ عرضه للعقيدة بأسلوب بيان بليغ سهل العبارة: تجنح حركة الإيقاع فيه إلى التوازي والتوازن وهو توازن مبعثه توازن حركة النفس والرغبة في الإيضاح بعيداً عن التعقيد والغموض ومثال ذلك تعريفه للإيمان(1): ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع(2).

2 ـ حرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ: يدل على ذلك قوله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكِل الكيفية في الصفات إلى علم الله ﷻ(3).

3 ـ يذكر الشيخ عبد القادر باستمرار أن عقيدته عقيدة السلف ويطلب من الله أن يميته على مذهب إمام أهل السنة والجماعة مثال ذلك قوله: قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل الشيباني رحمه الله وأماتنا على مذهبه أصلاً وفرعاً وحشرنا في زمرته(4) ويقول: عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح امشوا في الجادة المستقيمة(5).

4 ـ رفض تأويل المتكلمين: وهذا واضح من كلامه رحمه الله حيث يقول في صفة الاستواء: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى القعود والمماسة كما قالت المجسمة والكرامية ولا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية ولا على معنى الاستيلاء الغلبة كما قالت المعتزلة لأن الشرع لم يرد بذلك(6).

5 ـ الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من إثبات أو نفي(7): وهذا واضح جلي في قوله رحمه الله: ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله ﷺ(8).

6 ـ إعراضه عن علم الكلام: من قواعد منهج الشيخ عبد القادر في إيضاح العقيدة إعراضه عن علم الكلام وعدم اعتماده عليه لأنه يرى أنه منشأ الضلالات التي وقع فيها القول، ولذا نقل في كتابه الغنية قول الإمام أحمد رحمه الله: لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلّا ما كان في كتاب الله ﷻ أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم عن

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، للقحطاني، ص: 70.
(2) الغنية للجيلاني (1/ 62).
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، للقحطاني، ص: 72.
(4) الغنية للجيلاني (1/ 55).
(5) الفتح الرباني، المجلس العاشر، ص: 35.
(6) الغنية للجيلاني (1/ 56).
(7) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 78.
(8) الغنية للجيلاني (1/ 57).

التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود فلا يقال في صفات الرب ﷻ: كيف ولم؟ ولا يقول ذلك إلا شاك[1].

فهذه هي أهم الجوانب البارزة في منهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في إيضاح العقيدة[2].

ثالثاً: من آراء الشيخ عبد القادر الجيلاني الاعتقادية:

1 ـ الإيمان:

قال الشيخ عبد القادر: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان[3]. وقال في موضع آخر: الإيمان قول وعمل: فالقول دعوى والعمل هو البينة، والقول صورة والعمل روحها[4].

ـ **زيادة الإيمان ونقصانه**: ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[5]، وقد استدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: 31][6].

ـ **الفرق بين الإيمان والإسلام**: قال الشيخ عبد القادر: وأما الإسلام فهو من جملة الإيمان وكل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]، وبحديث مجيء جبريل إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان، والإحسان[7].

2 ـ حكم مرتكب الكبيرة:

نَحَى الشيخ عبد القادر منحى أهل السنة والجماعة من أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الملة وأنه فاسق بمعصيته واقع تحت المشيئة في الدار الآخرة إن شاء الله عذّبه، وإن شاء

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 56).
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، للقحطاني، ص: 82.
(3) الغنية للجيلاني (1/ 62).
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 89.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 62).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 92.
(7) البخاري رقم: 50 (1/ 62).

رحمه، وأنه لا يكفر بها إذا مات على التوحيد[1] حيث يقول: ونعتقد أن من أدخله الله النار بكبيرته مع الإيمان فإنه لا يخلد فيها بل يخرجه منها؛ لأن النار في حقه كالسجن في الدنيا يستوفي منه بقدر كبيرته وجريمته ثم يخرج برحمة الله تعالى ولا يخلد فيها[2]. ويقول في موضع آخر: ونعتقد أن المؤمن وإن أذنب ذنوباً كثيرة من الكبائر والصغائر لا يكفر بها وإن خرج من الدنيا بغير توبة إذا مات على التوحيد والإخلاص، بل يرد علمه إلى الله ﷻ إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة وإن شاء عذبه وأدخله النار فلا يدخل بين الله وبين خلقه ما لم يخبرنا الله بمصيره[3].

3 ـ توحيد الربوبية:

أشار الشيخ عبد القادر إلى أن معرفة الله فطرية وأن النفس مقرة له بعبوديتها، وأن ذلك الإحساس نابع من داخل النفس البشرية[4]. قال رحمه الله: النفس بأجمعها تابعة لربها موافقة له إذ هو خالقها ومنشؤها وهي مفتقرة له بالعبودية[5]، وأشار إلى النظر إلى الآيات الكونية المبثوثة في الأنفس والآفاق والذي يأتي في المرتبة الثانية بعد المعرفة الفطرية[6] فيقول: أما معرفة الصانع ﷻ بالآيات والدلالات على وجه الاختصار فهي أن يعرف ويتيقن أن الله واحد أحد، فرد صمد ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، [الإخلاص: 2 ـ 4] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] لا شبيه له ولا نظير، ولا عون ولا ظهير، ولا شريك ولا وزير، ولا ندّ ولا مشير[7]. والمسلم وإن كان في فطرته معرفة الله ﷻ لكنه بالنظر والتفكر في مخلوقاته سبحانه يزيد إيمانه ويقوى يقينه في خالقه ﷻ[8]، والشيخ عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يؤكد هذا المعنى في مكان آخر فيقول: استدل بصنعة الله عليه، تفكر في الصنعة، وقد وصلت إلى الصانع، المؤمن الموقن العارف له عينان ظاهرتان، وعينان باطنتان، فيرى بالعينين الظاهرتين من خلق الله في الأرض، ويرى بالعينين الباطنتين ما خلق الله في السمٰوات[9]. ويقول كذلك: أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ثم في جميع المخلوقات والمبدعات، فيستدل بذلك على خالقها ومبدعها؛ لأن في ذلك دلالة على الصانع، وفي القدرة المحكمة آية على الحكيم.

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 65) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 105.
(2) المصدرنفسه (1/ 65)، المصدر نفسه، ص: 105.
(3) المصدر نفسه (1/ 65).
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 116.
(5) فتح الغيب للجيلاني، المقالة العاشرة، ص: 21.
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 116.
(7) الغنية للجيلاني (1/ 54).
(8) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 116.
(9) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثالث، ص: 16.

4 ـ توحيد الألوهية:

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني لهذا النوع من التوحيد، ذكر أن الواجب على من أراد الدخول في دين الإسلام أن يتلفظ بكلمة التوحيد، وأن يتبرأ من كل دين غير الإسلام معتقداً بقلبه وحدانية الله[1]، فيقول: والذي يجب على من يريد الدخول في دين الإسلام أولاً أن يتلفظ بالشهادتين لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، ويتبرأ من كل دين غير دين الإسلام ويعتقد بقلبه وحدانية الله تعالى[2]، وفي مكان آخر يتحدث عما دعا الله خلقه إليه من توحيده وطاعته وما حذّرهم منه وخوَّفهم وزجرهم من الشرك به والوقوع في معصيته[3] فيقول: وقد دعا الله خلقه إلى توحيده وطاعته بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب فحذّر وأنذر وخوّف وزجر إعذاراً لهم وتأكيداً للحجة عليهم[4]. وبيَّنَ الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ أن مجرد النطق بكلمة التوحيد من غير امتثال الأمر وترك النهي غير مقبول ولا يستفيد منه الإنسان، فيقول: إذا قلت: لا إلٰه إلّا الله فقد ادعيت. فيقال لك: ألك بينة؟ والبينة امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات، والتسليم إلى القدر، هذه بيِّنة الدعوى[5].

5 ـ شروط قبول العبادة:

وقد قرّر الشيخ عبد القادر الجيلاني ضرورة توفر الإخلاص والمتابعة في العبادة، وبيَّن أن مجرد النطق بالشهادتين وأداء الأعمال التي تقتضيها لا يكفي إلا بعد تحقق الشرطين[6]، يقول: إذا عملت هذه الأعمال ـ يعني الإتيان بالأوامر وترك النواهي ـ لا تقبل منك إلا بالإخلاص، فلا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة[7].

ويقول في موضع آخر: وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية والعبادات، من الصلاة والأذكار وغير ذلك مما سنذكر ـ إن شاء الله ـ لا يقبل إلا بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة[8]. ثم يستشهد على وجوب الإخلاص بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ

---

(1) فتوح الغيب للجيلاني، مقالة 74، ص: 113.
(2) الشيخ عبد القادر، ص: 128.
(3) الغنية للجيلاني (1/2).
(4) عبد القادر الجيلاني للقحطاني، ص: 129.
(5) الغنية للجيلاني (1/146) عبدالقادر الجيلاني، ص: 129.
(6) الفتح الرباني المجلس الثاني، ص: 10.
(7) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 134.
(8) الفتح الرباني للجيلاني، ص: 134.

ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]. ثم ساق بعض أقوال أهل العلم في تعريف الإخلاص فنقل عن سعيد بن جبير قوله: الإخلاص أن يخلص العبد دينه لله وعمله لله تعالى، ولا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله أحداً، كما نقل عن الفضيل بن عياض قوله: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[1]، وقد حذّر كثيراً من الرياء والعجب وذلك لخطورته على دين العبد ولسهولة وقوع الإنسان فيه فقال: ينبغي لكل متعبد عارف أن يحذر في جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعُجب فإن النفس خبيثة وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق ﷻ. ثم ساق الأدلة على تحريم الرياء منها: قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ [الماعون: 4-7]، وبوصفه ﷻ للمنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝﴾ [النساء: 142، 143] كما استشهد من السنة بأحاديث صحيحة منها قوله: **«يلقى الرجل في النار فتندلق أقتاب بطنه فيدار به كما تدور الرحى بصاحبها فيقال له: أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه»**[2].

6 ـ من أنواع العبادة:

أ ـ الدعاء: من أعظم أنواع العبودية الدعاء والالتجاء لله تعالى؛ لأن معاني العبادة والخضوع والتذلل والفقر والاحتياج تبدو واضحة جلية في الدعاء، والدعاء لا يكون إلا لله وحده، ولذلك توعّد الله المستكبرين عن دعائه بالدخول في النار وبئس القرار[3]، قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60][4]، وقد ذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله بعض الآداب التي يجب مراعاتها عند الدعاء، فقال: والأدب في الدعاء أن يمد يديه ويحمد الله ويصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته[5].

ب ـ التوكل: وهو أصل من أصول العبادة وهو من سمات المؤمنين الصادقين قال ﷻ:

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 66)، الشيخ عبد القادر، ص: 134.
(2) الغنية للجيلاني (2/ 67)، الشيخ عبد القادر، ص: 135.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 138.
(4) مسلم رقم: 2989، الغنية للجيلاني (2/ 68).
(5) الغنية للجيلاني (1/ 40).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2] وقد عرَّف الشيخ عبد القادر حقيقة التوكل بقوله: حقيقته الإخلاص، وحقيقة الإخلاص ارتفاع الهمة عن طلب الأعواض على الأعمال، وكذلك التوكل هو الخروج من الحول والقوة مع السكون إلى رب الأرباب[1]، وهو يعني بذلك عدم الاعتماد على حول الإنسان وقوته وإمكانياته وإنما يعتمد ويسكن إلى ربه تبارك وتعالى وحوله وقوته ولكن لا يعني بذلك ترك الأسباب وعدم الأخذ بها، بل يدعو إلى إعطاء الأسباب حقها وذلك بالأخذ بها وعدم تجاهلها، ثم التوكل بعد ذلك على الله سبحانه حيث يقول: أعط السبب حقه وتوكل واقعد على باب العمل[2].

وذلك أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله ﷻ، فإن الله ﷻ كما أمر بالاعتماد عليه والتوكل عليه وحده أمر بالأخذ بالأسباب فقال مخبراً عن عيسى ابن مريم وهو يخاطب أمه: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: 25] إذ كان في قدرته سبحانه أن ينزل الرطب من غير أن تقوم مريم بهز الجذع[3]، وأيضاً أخبر ﷻ أن يعقوب عليه السلام قال لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67]، فمع توكله على الله ﷻ أمر أولاده بالأخذ بالسبب وهو التفرق عند الدخول حتى لا يصابوا بالعين الحاسدة[4]، أو يلفتوا الانتباه عند دخول مصر. وعند الترمذي من حديث أنس بن مالك، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال ﷺ: **«اعقلها وتوكل»**[5].

ج ـ **الخوف والرجاء**: وهذان من أنواع العبادة التي أمر الله بها وأثنى على المؤمن المتحلي بها قال ﷻ في الخوف: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: 46]، وقال في الرجاء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]. وقد تحدث الشيخ عبد القادر عن الخوف والرجاء فقال: من غلب رجاؤه خوفه تزندق، ومن غلب خوفه رجاؤه قنط، والسلامة في اعتدالهما[6]، وهذا الاعتدال يوافق ما قاله الإمام أحمد بن حنبل: ينبغي للمؤمن أن يكون رجاؤه وخوفه

---

(1) بهجة الأسرار للشطنوفي، ص: 122.
(2) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخمسون ص: 167.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 141.
(4) المصدر نفسه، ص: 141.
(5) سنن الترمذي رقم: 2519، وقد حسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم: 1068.
(6) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخامس والعشرون، ص: 91.

واحداً[1]، وأما حجم الخوف وقدره فيحدده ابن القيم بأنه: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، ويذكر أنه سمع ابن تيمية يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله[2]، وعن الرجاء يؤكد ابن القيم: أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور: **الأول**: محبة ما يرجوه، **والثاني**: خوفه من فواته، **والثالث**: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان، وأن الرجاء الذي لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن[3].

د ـ ما ينقض التوحيد: ولقد دعا الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى التوحيد وحذر من الوقوع في الشرك في جملة وصاياه، فقال: وحِّدوا ولا تشركوا[4]، وقال في توجيه آخر: أخلصوا ولا تشركوا وحِّدوا الحق ﷻ، وعن بابه لا تبرحوا سلوه ولا تسألوا غيره، واستعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره[5].

7 ـ توحيد الأسماء والصفات:

وأشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى هذا التوحيد بقوله: انفوا ثم أثبتوا، انفوا عنه ما لا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به، وهو ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله ﷺ إذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم[6]، وقال رحمه الله: ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيهما ونكل الكيفية إلى علم الله[7]. فاشتمل كلامه رحمه الله على الأسس الثلاثة التي يقوم عليها منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء والصفات وهي:

ـ إثبات الأسماء والصفات.

ـ تنزيه الله ﷻ عن مشابهة خلقه.

ـ الاعتراف بالعجز عن إدراك الكيفية[8].

---

(1) مسائل الإمام أحمد لابن هاني، تحقيق الشاويش (2/ 178).

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 144، مدارج السالكين (1/ 511).

(3) الجواب الكافي لابن القيم، ص: 46.

(4) فتوح الغيب، المقالة الثانية، ص: 10.

(5) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السابع والأربعون، ص: 151.

(6) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السابع والأربعون، ص: 62.

(7) الغنية للجيلاني (1/ 57).

(8) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 167.

أ ـ **الصفات الذاتية**: وهي الصفات المتعلقة بذات الباري سبحانه، ولا تتعلق بالمشيئة والاختيار بل لا تنفك عن الرب ﷻ بحال من الأحوال باعتبارها من لوازم الذات الإلٰهية ومنها[1]:

ـ **اليدان**: من الصفات الثابتة لله ﷻ وقد أشار الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى ثبوت هذه الصفة لله سبحانه، فقال: له يدان وكلتا يديه يمين قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: 67]، وروى نافع عن ابن عمر ﵄ أنه قال: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ **يرمي بها كما يرمي الغلام بالكرة ثم يقول: أنا العزيز**، فلقد رأيت رسول الله يتحرك على المنبر حتى كاد يسقط[2].

ـ **صفة القَدَم**: من الصفات الذاتية التي وردت بها الأدلة الصحيحة صفة القدم لله ﷻ، والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت لله هذه الصفة فيقول: ويضع قدمه في جهنم فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط[3]، وهو بهذا يشير إلى الأحاديث الصحيحة التي جاء ذكر القدم فيها منها عن أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول: قط قط وعزتك ويزوي بعضها إلى بعض**»[4]. وقد تلقى علماء أهل السنة والجماعة هذه الأحاديث الصحيحة بالقبول كما جاءت ولم يخوضوا في الكيفية[5].

ـ **صفة الأصابع**: يثبت الشيخ عبد القادر الجيلاني الأصابع لله ﷻ لورود الأدلة الصحيحة بشأنها، فيقول: وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء[6]. وعلى هذا الإثبات درج علماء أهل السنة والجماعة كعادتهم في إثبات ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات على ما يليق بجلال الله ﷻ من غير تكييف ولا تمثيل[7].

ـ **صفة العلو**: من صفات الكمال للذات الإلٰهية صفة العلو وهي فرع من توحيد الأسماء والصفات والله سبحانه متصف بالعلو المطلق من جميع الوجوه ذاتاً وقدراً وقهراً[8]، والشيخ عبد القادر الجيلاني يثبت هذه الصفة فيقول: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 180

(2) البخاري رقم 7412، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 180.

(3) الغنية للجيلاني (1/ 55).

(4) البخاري رقم 7339، مسلم رقم 2846.

(5) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 183.

(6) الغنية للجيلاني (1/ 55).

(7) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 185.

(8) المصدر نفسه، ص: 187.

محتوي على الملك محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: 10] ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: 5][1].

ب ـ **الصفات الفعلية**: وهي التي تتعلق بمشيئة الله وإرادته سبحانه، بحيث إن شاء الرب ﷻ فعلها وإن شاء لم يفعلها، وكل صفة فعلية فهي صفة ذاتية من جهة قدرة الرب ﷻ على فعلها في أي وقت شاء ومن هذه الصفات:

ـ **الاستواء**: أخذ الشيخ عبد القادر الجيلاني في مسألة الاستواء بالمعنى الذي أثبته النص القرآني من غير تأويل ولا تعطيل[2]، حيث قال: وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش لا على معنى العلو والرفعة كما قالت الأشعرية، ولا على معنى الاستيلاء والغلبة كما قالت المعتزلة؛ لأن الشرع لم يرد بذلك ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث بل المنقول عنهم حمله على الإطلاق[3]، وقد استدل رحمه الله على ذلك بما روي عن أم سلمة زوج النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، قالت: الكيف غير معقول والاستواء غير مجهول والإقرار به واجب والجحود به كفر. وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبي ﷺ في صحيحه[4]، وكذلك في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه[5].

ـ **صفة النزول**: من الصفات الثابتة لله ﷻ صفة النزول من غير تكييف ولا تمثيل بل على وجه يليق بجلال الله لا يعلمه إلا هو القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

والشيخ عبد القادر الجيلاني كعادته في إثبات الصفات يثبت هذه الصفة وينفي أن تكون نزول رحمته وثوابه[6]... فيقول: وأنه تعالى ينزل في كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف يشاء، وكما شاء فيغفر لمن أذنب وأخطأ وأجرم وعصى لمن يختار من عباده ويشاء، تبارك وتعالى العلي الأعلى لا إله إلّا هو له الأسماء الحُسنى لا بمعنى نزول رحمته وثوابه على ما

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 54).

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 194.

(3) الغنية للجيلاني (1/ 56).

(4) هذا لم يرد في شيء من الكتب الستة ولا المسند وإنما ورد في كتب أخرى، رواه اللالكائي رقم: 663 موقفاً عليها.

(5) هذا القول منقول عن جماعة من السلف كربيعة الرأي ومالك.

(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 203.

ادعته المعتزلة، والأشعرية[1]. وقد استدل أهل السنة على ذلك بالأدلة الصريحة الصحيحة والتي منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجب له؟ من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له؟**»[2].

صفة الكلام:

صفة الكلام صفة ذات باعتبار نوع الكلام، وصفة فعل باعتبار تعلقها بإرادة الله ﷻ ومشيئته، فهو سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء يتكلم بصوت يُسمع، يسمعه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة، وسمعه من أذن له من ملائكته ورسله وسيسمعه المؤمنون في الآخرة ممن سبقت لهم من الله الحسنى نرجو أن نكون منهم، والشيخ عبد القادر الجيلاني يقرر ثبوت هذه الصفة لله سبحانه ويصف من ينكر ذلك بالابتداع فيقول وهو يخاطب المبتدعة[3]: يا مبتدع، ما يقدر أن يقول أنا الله إلا الله، ربنا ﷻ متكلم ليس بأخرس، ولهذا أكَّد الله ﷻ الأمر في كلامه لموسى فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: 164][4].

8 ـ عقيدة الشيخ عبد القادر الجيلاني في القرآن الكريم:

لقد قرّر الشيخ الجيلاني عقيدته في هذه المسألة الهامة من مسائل العقيدة ببيان أن القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله ﷺ حيث يقول: ونعتقد أن القرآن كلام الله وكتابه وخطابه ووحيه الذي نزل به جبريل على رسول الله ﷺ كما قال الله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]، هو الذي بلغه رسول الله ﷺ أمته امتثالاً لأمر رب العالمين يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 67][5].

وفي وصاياه التي كان يوجهها لطلابه كان يؤكد على وجوب التأدب مع كتاب الله بعدم القول بخلقه فيقول: احترموا كتاب الله وتأدبوا معه هو الوصلة بينكم وبين الله، لا تجعلوه

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 57).
(2) البخاري رقم: 1145، مسلم رقم: 758.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 206.
(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الستون، ص: 209.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 58).

مخلوقاً، يقول الله ﷻ هذا كلامي، وتقولون أنتم: لا؛ من رد على الله جعل القرآن مخلوقاً كفر بالله وبرىء منه. هذا القرآن المتلو، هذا المقروء، هذا المسموع، هذا المنظور، هذا المكتوب في المصاحف كلامه ﷻ[1].

9 ـ رؤية الله ﷻ عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

ذهب الشيخ عبد القادر الجيلاني إلى إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الجنة في الدار الآخرة حيث يقول: وينظر أهل الجنة إلى وجهه ويرونه لا يضامون في رؤيته. قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] قيل: الحسنى: هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 23][2].

10 ـ القضاء والقدر عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

يقول الشيخ عبد القادر: ينبغي أن يؤمن بخير القدر وشره، وحلو القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب، وأن جميع ما كان في سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور. وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور[3].

11 ـ عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بنعيم القبر وعذابه، فيقول: والإيمان بعذاب القبر وضغطته واجب لأهل المعاصي والكفر وجميع الخلق سوى النبيين ثم يُخفف عن المؤمنين برحمة الله. وكذلك النعيم فيه لأهل الطاعة والإيمان[4]، كما يقرر وجوب الإيمان بمنكر ونكير وأنهما يسألان الميت في قبره. ونؤمن بأن منكراً ونكيراً إلى كل أحد ينزلان سوى النبيين، ويسألانه ويمتحنانه عما يعتقده من الأديان، وهما يأتيان القبر، فيرسل فيه الروح ثم يقعد فإذا سئل سُلَّت روحه[5]. وقد استدل أهل السنة والجماعة بعذاب القبر ونعيمه بنصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة منها؛ قول الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 27]. وقد فسَّرها النبي ﷺ قال: «**إذا أقعد المؤمن في قبره أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن**

---

(1) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر، ص: 41.
(2) الغنية (1/ 55) الشيخ عبد القادر، ص: 241.
(3) الغنية (1/ 65)، الشيخ عبد القادر، ص: 262.
(4) الغنية للجيلاني (1/ 66).
(5) المصدر نفسه (1/ 66).

محمداً رسول الله، فذلك قوله: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت». نزلت في عذاب القبر[1].

12 ـ الشفاعة:

يقرر الشيخ عبد القادر وجوب الإيمان بشفاعة النبي ﷺ فيقول: والإيمان بأن الله تعالى يقبل شفاعة نبينا محمد ﷺ في أهل الكبائر والأوزار واجب قبل دخول النار عاماً للحساب لجميع أمم المؤمنين وبعد دخولها لأمته خاصة فيخرجون منها بشفاعته ﷺ وغيره من المؤمنين حتى لا يبقى في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ومن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله مرة واحدة في عمره مخلصاً لله ﷻ[2].

13 ـ الحوض:

ويذكر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن عقيدة أهل السنة هي الإيمان بوجود حوض النبي ﷺ، فيقول: وأهل السنة يعتقدون أن لنبينا محمد ﷺ حوضاً في القيامة يسقى منه المؤمنون دون الكافرين، ويكون ذلك بعد جواز الصراط قبل دخول الجنة، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، عرضه مسيرة شهر ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، حوله أباريق على عدد نجوم السماء، فيه ميزابان يصبان من الكوثر، أصله في الجنة وفرعه في الموقف[3]. وقد قال رسول الله ﷺ: **«أنا فرطكم على الحوض من ورده ـ شرب منه ـ لم يظمأ بعده أبداً، ليردنَّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم»**[4].

14 ـ الصراط:

وأكد الشيخ عبد القادر الجيلاني في تعاليمه على وجوب الإيمان بالصراط فقال: والإيمان بالصراط على جهنم واجب وهو جسر ممدود على متن جهنم يأخذ من يشاء الله إلى النار ويجوز من يشاء، ويسقط في جهنم من يشاء، ولهم في تلك الأحوال أنوار على قدر أعمالهم فهم بين ماشٍ وساعٍ وراكب وزحف وسحب[5]. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: 71، 72] ووردت أحاديث من السنة تضمنت ذكر الصراط وصفاته وصفة المرور عليه[6].

---

(1) البخاري رقم: 1369، مسلم رقم: 2871.
(2) الغنية للجيلاني (1/ 69).
(3) المصدر نفسه (1/ 71).
(4) البخاري رقم: 6583، مسلم رقم: 2290.
(5) الغنية (1/ 70).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 371.

15 ـ الميزان:

وردت النصوص الشرعية التي تؤكد وزن الأعمال يوم القيامة، والشيخ عبد القادر يذكر أن الإيمان به هو عقيدة أهل السنة فيقول: ويعتقد أهل السنة أن الله تعالى ميزاناً يزن فيه الحسنات والسيئات يوم القيامة له كفتان ولسان: وقد أنكرت المعتزلة مع المرجئة والخوارج ذلك، فقالت: إن معنى الميزان: العدل دون موازنة الأعمال، وفي كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تكذيبهم قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 6-9]، والعدل لا يوصف بالخفة والثقل[1]. وقال رسول الله ﷺ: **«كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**[2].

هذه بعض المسائل العقدية التي كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يربي عليها تلاميذه ويبثها في الجمهور العام في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وكان لها تأثير كبير في رجوع الناس إلى الله والالتزام بدينه، وساهمت على العموم في نهضة الأمة حتى استطاعت التصدي للتغلغل الباطني والغزو الخارجي.

رابعاً: البدعة وموقف الشيخ عبد القادر منها:

1 ـ أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة:

مدار سعادة الإنسان في الدارين وفوزه وفلاحه في الحياتين يعتمد على مدى اعتصامه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأنهما النوران اللذان يضيئان للإنسان طريقه وهو يعبر دروب الحياة ومجاهيلها[3]، والشيخ عبد القادر يقرر ذلك في قوله: لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة[4] ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبداً[5].

2 ـ ذم البدع والتحذير منها:

والشيخ عبد القادر الجيلاني يحذر دائماً من الابتداع في الدين ويوصي بالاتباع ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك حيث يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولا

(1) الغنية للجيلاني (1/ 72).
(2) البخاري رقم: 6406، مسلم رقم: 2694.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 411.
(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس التاسع والثلاثون، ص: 128.
(5) المصدر نفسه، ص: 128.

تمرقوا، ووحدوا ولا تشركوا[1] ويقول في موضع آخر: اتبعوا ولا تبتدعوا، وافقوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا، أخلصوا ولا تشركوا[2]. وبَيَّن أن أساس الخير في متابعة النبي ﷺ، فيقول: أساس الخير متابعة النبي ﷺ في قوله وفعله[3]، ثم بين أن الأولى للمؤمن العاقل أن يتبع السنة فيقول: والأولى للعاقل المؤمن الكيس أن يتبع ولا يبتدع ولا يغالي ويعمق ويتكلف لئلا يضل ويزل ويهلك[4].

وقد استدل أهل السنة والجماعة على ذم البدع ومحاربتها بالأدلة الكثيرة من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]. وقال ﷺ: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[5]، وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني أيضاً: فعلى المؤمن اتباع السنة والجماعة، فالسنة ما سنه رسول الله ﷺ والجماعة ما اتفق عليه أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين المهديين رحمة الله عليهم أجمعين. ثم بعد هذا التعريف لأهل السنة والجماعة يحذر من أهل البدع فيقول: وألا يكاثر أهل البدع ولا يدانيهم ولا يسلم عليهم؛ لأن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: من سلم على صاحب بدعة فقد أحبه[6]، ولقول النبي ﷺ: «**أفشوا السلام بينكم تحابوا**»[7]. ولا يجالسهم ولا يقرب منهم ولا يهنيهم في الأعياد وأوقات السرور ولا يصلي عليهم إذا ماتوا ولا يترحم عليهم إذا ذكروا بل يباينهم ويعاديهم في الله ﷻ معتقداً ومحتسباً بذلك الثواب الجزيل والأجر الكثير[8].

وقال: واعلم أن لأهل البدع علامات يعرفون بها؛ فعلامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. وعلامة الزنادقة: تسميتهم أهل الأثر بالحشوية. وعلامة القدرية: تسميتهم أهل الأثر مجبرة. وعلامة الجهمية: تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة الرافضة: تسميتهم أهل الأثر ناصبة، وكل ذلك عصبية وغياظ لأهل السنة ولا اسم لهم، إلا اسم واحد وهو أصحاب الحديث، ولا يلتصق بهم ما لقبَهم به أهل البدع، كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار مكة له ساحراً، وشاعراً، ومجنوناً، ومفتوناً، وكاهناً، ولم يكن اسمه عند الله وعند ملائكته وعند إنسه وجنه وسائر خلقه إلا رسولاً نبياً بريئاً من العاهات كلها[9].

---

(1) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثانية، ص: 10.

(2) الفتح الرباني للجيلاني المجلس السابع والأربعون، ص: 151.

(3) الغنية للجيلاني (1/ 79).

(4) مسلم رقم: 1718.

(5) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 431.

(6) مسلم رقم: 54.

(7) الغنية للجيلاني (1/ 80)، الشيخ عبد القادر الجيلاني ص431.

(8) الغنية للجيلاني (1/ 80)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 432.

(9) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 477.

3 ـ طاعة أولي الأمر:

يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني طاعة أولي الأمر حيث يقول: وأهل السنة أجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين واتباعهم والصلاة خلف كل بر منهم وفاجر، والعادل منهم والجائر ومن ولّوه ونصبوه واستنابوه[1].

خامساً: مفهوم التصوُّف عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

رسم الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً متكاملاً للتصوُّف يجمع بين العلم الشرعي المؤسّس على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع[2]، فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: انظر لنفسك نظر رحمة وشفقة واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيهما واعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس، قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: 17] ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به ولا تخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال الله ﷻ في حق قوم ضلوا سواء السبيل ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: 27][3] وقال: يا قوم انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة، عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم واعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية[4].

1 ـ تعريف التصوف عند الشيخ:

قال: التصوف: هو الصدق مع الحق وحسن الخُلُقُ مع الخَلْق[5]. وقال: هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى، وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق، وملازمة الإيثار ومجانبة الادّخار، وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا. وبيَّن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التصوف يقوم على ثمان خصال:

أ ـ السخاء: ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمٰن إبراهيم عليه السلام الذي اشتهر صلوات الله وسلامه عليه بذلك.

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 507.
(2) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة السادسة والثلاثون، ص: 65.
(3) الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الحادي عشر، ص: 41.
(4) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة السابعة والخمسون، ص: 166.
(5) زاد المعاد في هدي خير العباد (1/ 71).

ب ـ **الرضا**: ويجعل القدوة فيه إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وكأنه بهذا يشير إلى أنه هو الذبيح وأن استسلامه لأمر ربه ورضاه كان أبرز صفاته وهذا القول مرجوح عند أهل السنة والجماعة، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله الخلاف في هذه المسألة ورجَّح بالأدلة القاطعة والبراهين القوية أن الذبيح هو إسماعيل عليه وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأزكى السلام[1].

ج ـ **الصبر**: والقدوة في التخلق بهذا الخُلُق العظيم أيوب عليه السلام فقد أثنى الله عليه بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]. وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده[2].

د ـ **الإشارة**: ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام، وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام، فإنه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز وجل وعدم ارتباطها بالأسباب، وأن الله قادر على أن يرزقه ولداً ولو كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه واشتعل بالشيب رأسه مع كبر امرأته فدعا الله وناداه وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: 38][3].

هـ ـ **التصوُّف**: والقدوة في ذلك موسى بن عمران عليه السلام. ولعله أراد بذلك الإشارة إلى الاصطفاء الذي وقع عليه من الله بقوله عز وجل: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: 144].

و ـ **السياحة**: ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

ز ـ **الفقر**: ولا شك أن أعظم الناس اتصافاً بهذا الوصف وهو الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه هو خير البشر وسيد ولد آدم محمد ﷺ والشواهد على هذا كثيرة جداً في سيرته العظيمة[4].

والصوفي عند عبد القادر الجيلاني هو من تحقق من معاني التصوُّف حتى صار أهلاً

---

(1) تفسير ابن كثير (4/ 39).

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 511.

(3) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الخامسة والسبعون، ص: 166.

(4) الغنية للجيلاني (2/ 160).

لأن يطلق عليه صوفي في وصفه: صوفي مأخوذ من المصافاة يعني: عبد صافاه الله ﷻ، أو من كان صافياً من آفات النفس خالياً من مذموماتها سالكاً لحميد مذاهبه ملازماً للحقائق غير ساكن إلى أحد من الخلائق[1]، ويضع ضابطاً دقيقاً للصوفي فيقول: «الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[2] ويقول: الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سوى مولاه ﷻ، وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخُلق وتعفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق ﷻ والزهد في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه ﷻ[3].

2 ـ العوامل التي أدت إلى تصوفه:

هناك عوامل عدة أثّرت في تكوين شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني منها:

أ ـ نشأته في أحضان أسرة صالحة: تتألف من والده الذي كان مشهوراً بالصلاح والعبادة وحسن السيرة، ووالدته فاطمة أم الخير بنت أبي عبد الله الصومعي المعروف بالتقوى والورع، وعمته التي كانت على جانب كبير من الخير والصلاح[4] وقد وصف الشيخ عبد القادر الجيلاني بقوله: أهلّني الله ﷻ ببركات متابعتي للرسول ﷺ وَبِري بوالدي ووالدتي رحمهما الله ﷻ، والدي زاهد في الدنيا مع قدرته عليها، ووالدتي وافقته على ذلك ورضيت بفعله، كانا من أهل الصلاح والديانة والشفقة على الخلق[5].

ب ـ اتصاله بالصوفية في بغداد: فقد شكّل انتقاله إلى بغداد تطوراً جديداً في حياته لما واجهه من تغيُّر كبير في البيئة العامة والحياة الخاصة حيث اختلط بالعلماء والفقهاء، ومشايخ الصوفية، وذلك في قاعات الدروس ومجالس العلم ووقف على انتماءاتهم ونشاطاتهم وتأثر بذلك تأثراً كبيراً، وقد بدأ وقائع دراسته بدراسة الفقه الحنبلي وقراءة القرآن الكريم ثم اتجه بعد ذلك إلى دراسة التصوف وعلومه، وكان لصحبته للشيخ حماد الدباس الأثر الكبير في تحديد توجيهاته الصوفية[6].

ج ـ عدم ارتياحه إلى سلوك بعض الفقهاء والوعاظ في زمانه والذين كانت تحكمهم

---

(1) الفتح الرباني، المجلس التاسع والخمسون، ص: 207.

(2) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الخامس والعشرون، ص: 90.

(3) بهجة الأسرار، ص: 88، قلائد الجواهر، ص: 3.

(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الواحد والستون، ص: 224.

(5) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (1/ 298).

(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 517.

الأهواء والمنافع الشخصية، وكانوا يثيرون الخلافات المذهبية ويغيرون انتماءاتهم طبقاً لمصالحهم الذاتية ممّا عمق قناعته بأن انحراف بعض الفقهاء وتكسبهم بدينهم هو نتيجة حتمية لفراغ قلوبهم من التقوى ومراقبة الله ﷻ، وجعله يسلك طريق التصوف لكن ثقافته الفقهية التي تستمد أصولها من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح كان لها الأثر الكبير في سلامته وعبوره ساحل النجاة وعدم تأثره بالفلسفات وعلوم الكلام[1].

د ـ المكانة العالية والمنزلة الرفيعة التي كانت للتصوف في زمانه إثر الجهود الكبيرة التي بذلها الإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة الشيخ عبد القادر، ويظهر تأثر الشيخ عبد القادر به في كتابه «الغنية» حيث يظهر التشابه بينه وبين كتاب الإحياء للغزالي[2]، وفي نظري أن الشيخ عبد القادر بسط تعاليم الغزالي ونقّحها وزاد عليها وكوّن تياراً إسلامياً متماسكاً وحوّل هذا التيار إلى عمل جماعي منظم منضبط، واستطاع تكوين صف قيادي مساعد له، ساهموا في تشكيل التيار الإسلامي العريض.

3 ـ موقفه من العلم والعمل:

اهتم الشيخ عبد القادر الجيلاني بجانبي العلم النظري والعملي، وفي هذا المجال قال في نصيحة وجهها إلى بعض طلّابه: إن أردت الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله ﷻ وعلمه يعلمك ويؤدبك ويعرفك الطريق إلى الله ﷻ. ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بها فما تفلح أبداً[3]، وكان الجانب العلمي موضع عناية الشيخ عبد القادر الجيلاني، فمن وصاياه التي كان يوجهها إلى طلأبه ومريديه قوله: يا غلام تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسوله ﷺ ولا تعمل بها. فلأي شيء تفعل ذلك تأمر الناس وأنت لا تفعل وتنهاهم وأنت لا تنتهي، قال ﷻ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3]. لم تقولون وتخالفون أما تستحون، لم تدّعون الإيمان ولا تؤمنون[4]. ويؤكد على التشبيه السيىء للعالم الذي لا يعمل بعلمه بقوله: مثّل الله العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: 5] الأسفار: هي كتب العلم هل ينتفع الحمار بكتب العلم؟ ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب، من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربّه ﷻ وطواعيته له. يا مدعي العلم، أين بكاؤك من خوف الله ﷻ؟ أين

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 518.
(2) المصدر نفسه، ص: 518.
(3) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس التاسع والثلاثون، ص: 127.
(4) الفتح الرباني للجيلاني المجلس العاشر، ص: 35.

حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ أين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله ﷻ؟ أين تأديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعداوتها فيه؟ أنت همك القميص والعمامة والأكل والنكاح والدور والدكاكين والقعود مع الخلق والأنس بهم[1]. وكان اهتمام الشيخ عبد القادر الجيلاني بالجوانب التربوية كبيراً إذ أن معظم توصياته لها علاقة مباشرة بالسلوك العملي التربوي ومن الأمثلة على ذلك تلك الخصال الحميدة التي وصَّى بها، والتي تحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يمكن الإنسان الاتصاف[2] بها وهي:

أ ـ ألّا يحلف بالله ﷻ لا صادقاً ولا كاذباً ولا عامداً ولا ساهياً؛ لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه وعوّد لسانه دفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهياً وعامداً، فإذا اعتاد ذلك فتح الله عليه باباً من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه ورفعة درجته وقوة في عزمه وفي صبره، والثناء عند الإخوان والكرامة عند الجيران حتى يأتمّ به من يعرفه ويهابه من يراه.

ب ـ أن يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً؛ لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه شرح الله تعالى به صدره وصفا به علمه، كأنه لا يعرف الكذب وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيَّره به في نفسه، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواب.

ج ـ أن يحذر أن يَعِدَ أحداً شيئاً فيخلفه ويقطع العِدَةَ البتة فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه؛ لأن الحلف من الكذب، فإذا فعل ذلك فُتح له باب السخاء ودرجة الحياء، وأعطى مودة في الصادقين ورفعة عند الله جلَّ ثناؤه.

د ـ أن يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق أو يؤذي ذرة فما فوقها؛ لأنها من أخلاق الأبرار والصديقين وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدنيا مع ما يُدَّخر له من الدرجات ويُستَنقَذ من مصارع الهلاك ويسلمه من الخلق ويرزقه رحمة العباد ويقربه منه ﷻ.

هـ ـ أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق وإن ظلمه فلا يقطعه بلسانه ولا يكافئه بقول ولا فعل فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى وإذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة والمحبة والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد، وعزٌ في الدنيا في قلوب المؤمنين.

و ـ ألّا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق فإنه أقرب للرحمة وأعلى في الدرجة، وهي تمام السنة وأبعد عن الدخول في علم الله، وأبعد من مقت

---

(1) الفتح الرباني للجيلاني المجلس العاشر، ص: 51. (2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 520.

الله وأقرب إلى رضاء الله تعالى ورحمته فإنه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين[1].

ز ـ أن يجتنب النظر إلى المعاصي ويكف عنها جوارحه فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً في القلب والجوارح في عاجل الدنيا مع ما يدخره الله له من خير الآخرة.

ح ـ أن يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق مؤنة صغيرة ولا كبيرة بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما احتاج إليه واستغنى عنه، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة، فإذا كان كذلك نقله الله إلى الغنى واليقين والثقة به ﷻ، ولا يرفع أحداً سواه ويكون الخلق عنده في الحق سواء ويقطع بأن هذه أسباب عز المؤمنين وشرف المتقين وهو أقرب باب الإخلاص.

ط ـ ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم، فإنه العز الأكبر والغنى الخاص والملك العظيم والفخر الجليل واليقين الصافي والتوكل الشافي الصريح، وهو باب من أبواب الثقة بالله ﷻ وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نسكه، وهو من علامات المنقطعين إلى الله ﷻ.

ي ـ **التواضع**: لأن به يُشيِّد محل العابد وتعلو منزلته، ويستكمل العز والرفعة عند الله سبحانه وعند الخلق ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة وهذه الخصلة أصل الخصال كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في السراء والضراء وهي كمال التقوى والتواضع، هو ألّا يلقى العبد أحداً من الناس إلا رأى له الفضل عليه، ويقول: عسى أن يكون عند الله خيراً مني وأرفع درجة فإن كان صغيراً قال: هذا لم يعص الله تعالى وأنا قد عصيت فلا شك أنه خير مني وإن كان كبيراً قال: هذا عَبَدَ الله قبلي، وإن كان عالماً قال: هذا أعطى ما لم أبلغ ونال ما لم أنل وعلم ما جهلت وهو يعمل بعلمه، وإن كان جاهلاً قال: هذا عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم، ولا أدري بما يختم لي وبما يختم له. وإن كان كافراً[2] قال: لا أدري عسى أن يُسْلم فيختم له بخير العمل وعسى أن أكفر فيختم لي بسوء العمل[3].

---

(1) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون، ص: 117.

(2) هذه العبارة بها نظر، لأن المسلم لا يمكن أن يرى أن الكافر أفضل منه أو أنه عند الله خير منه وأرفع درجة، ولعلها خرجت من الشيخ مخرج المبالغة في التواضع.

(3) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الثامنة والسبعون، ص: 117.

سادساً: آداب الشيخ والمريد والصحبة عند عبد القادر الجيلاني:

1 ـ واجبات المريد:

وضع الشيخ عبد القادر جملة من الواجبات التي يلتزم بها المريد المبتدئ يمكن حصرها فيما يلي:

أ ـ الاعتقاد الصحيح هو الأساس ويكون على عقيدة أهل السنة والجماعة والسلف الصالح.

ب ـ التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما أمراً ونهياً أصلاً وفرعاً.

ج ـ الصدق والاجتهاد والإخلاص مع الله والوفاء بوعده وامتثال أمره والاستمرار في عبادته ومرضاته ومحبته وكل ما يؤدي إلى قربه.

د ـ الحذر من التقصير ومخالطة المقصرين أبناء القيل والقال أعداء الأعمال والتكاليف المدعين للإسلام.

هـ ـ الاتصاف بصفة الكرم مع اليقين والاعتقاد أن الله لم يخلق ولياً بخيلاً.

و ـ الرضا بعدم الشهرة وخمول الذكر وترك الغرور وقتل الشهوات والرضا بالجوع والحرمان.

ز ـ الإيثار وتقديم أقرانه عند الشيخ وفي مجالس العلم، وعند العلماء وأصحاب الفضل فيجوع هو ويشبع الباقون، ويرضى بالذل لعز الجماعة وكرامتهم.

ح ـ أن يطلب من الله الستر ومغفرة ما سلف من الذنوب والعصمة فيما بقي من العمر والتوفيق لما يحبه الله سبحانه من الأعمال الصالحة والرضا عنه في حركاته وسكناته.

ط ـ أن يتحبب إلى الشيوخ وإلى جميع الصالحين وأن يعفو ويصفح عن زلات الغير وإساءات الناس إليه.

ي ـ أن يزهد في الملذات وأن يقاوم الرغبة في التوسع في الشهوات[1]. هذه هي مجمل الواجبات التي ينبغي على المريد أن يقوم بها، وهي كفيلة بطبعه على الاستقامة وكريم الأخلاق ونبل الصفات[2].

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 163) بتصرف يسير.
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 530.

2 ـ آداب المريد مع الشيخ:

نظراً لأهمية صلة المريد بالشيخ فقد وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني آداباً خاصة بالمريد تجاه شيخه الذي سيصحبه وهي:

أ ـ طاعته وعدم مخالفته في الظاهر أو الاعتراض عليه في الباطن مع الإكثار من قراءة ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: 10]. وإذا ظهر من شيخه ما يكرهه في الشرع استخبر عن ذلك بضرب المثل والإشارة ولا يصرح به لئلا ينفر منه الشيخ بسببه.

ب ـ أن يستر ما قد يرى من عيوب الشيخ ويتهم نفسه، فربما وقع ذلك لعدم فهمه مراد الشيخ، فإذا لم يجد للشيخ عذراً استغفر له ودعا له بالتوفيق، ولا يخبر أحداً بما حدث منه ولا يعتقد أن الشيخ معصوم، وإنما حصل منه وإنما هو عن غفلة.

ج ـ ملازمة الشيخ وعدم الانقطاع عنه وإذا حدث وأن عبس في وجهه أو غضب عليه أو ظهر إعراض فليفتش في نفسه وما عسى أن يكون قد وقع منه من سوء أدب أو تفريط بترك أمر الله أو فعل نهيه وعليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والعزم على عدم العودة إليه في المستقبل.

د ـ أن يلتزم بالآداب أمام شيخه وأن يتخير أفضل الأساليب عند التخاطب معه، وأن يفعل معه ما يسره.

هـ ـ أن يحظى الشيخ بثقة مريده ويقينه بأنه أهل لأن يُتلقى العلم والمعارف على يديه.

و ـ أن يحذر من مقارفة الذنوب؛ لأنها تذهب ببركة العلم وتغير الحال كما حدث لآدم حينما أخرج من الجنة بسبب الذنب.

ز ـ ألا يتكلم أمام شيخه إلّا للضرورة، وأن يسكت إذا دارت مسألة عند شيخه، ولو كان الجواب عنده بل ينتظر ما يقوله شيخه ولا يعارض[1].

والذي ننبه إليه أن تكون الطاعة في المعروف، فإذا أملى الشيخ ما يوافق الكتاب والسنة فلا شك في لزوم طاعته، أما إذا أملى الشيخ ما يخالف الكتاب والسنة فالواجب عدم طاعته هذا إذا كان الشيخ معروفاً بالدين والإيمان والاستقامة والصلاح، أما من عرف بالابتداع

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 164).

والفجور فيجب الإنكار عليه، وبيان بدعته وفجوره وتحذير الناس منه فضلاً عن أن يُطاع فيما يأمر به[1].

3 ـ الآداب المتعلقة بالشيخ تجاه مريده:

لكي تتم عملية التربية السلوكية بنجاح ولأنها مسؤولية مشتركة تتم من طرفين هما المريد والشيخ، فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني يضع آداباً وواجبات لا بدَّ أن يراعيها الشيخ أثناء تعامله مع المريد وهي:

أ ـ أن يقبله لله تعالى ويتعهده بالنصيحة والرفق واللين فيكون معه كأبيه وأمه شفقة ورحمة وألّا يحمله ما لا يطيق، بل يتدرج معه حتى ينقله من موافقة الطبع إلى أوامر الشرع ومن الرخص إلى العزائم.

ب ـ إذا علم منه صدق المجاهدة فلا يتهاون معه بل يلزمه بأوامر الله ويزجره عن نواهيه ابتغاء مرضاته سبحانه دون النظر إلى عائد.

ج ـ أن يثبته على الطريق وألّا يعمل ما من شأنه التنفير لأن القصد هو الله وما كان لله دام واتصل.

د ـ أن يراقب سلوكه فإذا رأى مخالفة للشرع وعظه وزجره وحذّره من العودة ورغبة في التوبة إلى الله.

هـ ـ أن يحرص على تلقينه مبادئ الخير ويتجنب الفاحش من القول والخلق؛ لأنه محل القدوة والرحمة يرعى مصالحه وكل مشاكله ويحمل عنه عبئه[2].

4 ـ آداب صحبة الإخوان:

بدأ الشيخ عبد القادر الجيلاني تلك الآداب ببيان آداب صحبة الإخوان وما ينبغي مراعاته في التعامل معهم. من ذلك:

أ ـ الإيثار والصفح عنهم والقيام معهم في شؤونهم وتقديم الخدمة الممكنة لهم.

ب ـ ألا يرى له على أحد حقاً ولا يطالب أحداً بحق بل يرى أن لكل منهم عليه حقاً ثم يجتهد في أداء حقوقهم.

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 531. (2) الغنية للجيلاني (2/ 168) بتصرف يسير.

ج ـ أن يظهر لهم الموافقة في جميع ما يقولون أو يفعلون، وهذا محمول بالطبع على قول الحق والفعل الحسن، وأن يتأول لهم ويعتذر عنهم.

د ـ أن يجتنب مجادلتهم ومخالفتهم ويتعامى عن عيوبهم، فإن خالفه أحد منهم في شيء سلّم له ما يقول في الظاهر، وإن كان الأمر عنده بخلاف ما يقول[1]، وهذا أيضاً محمول على كون الخلاف في الأمور العادية والحياتية، أما إذا كان الخلاف في شيء من الشرع فلا بُد من بيان الحق بدليله وعدم الموافقة على الباطل.

هـ ـ أن يجتنب فعل ما يكرهونه من حق أو أذية أو غيبة[2].

و ـ أن يكون المعيار لعلاقات الإنسان بالآخرين هو الحب في الله ﷻ والبغض فيه، يقول في هذا المعنى: إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبّه فاعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة وأنت تبغضه، فأبشر بموافقتك لله ﷻ ولرسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى تبغضه بهواك ظالماً له ببغضك إياه وعاصٍ لله ﷻ ولرسوله مخالف لهما، فتب إلى الله ﷻ من بغضك واسأله ﷻ محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده، لتكون موافقاً له ﷻ، وكذلك افعل بمن تحبه يعني أعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحببه، وإن كانت مبغوضة فأبغضه كيلا تحبه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: 26][3]. وهكذا ومن خلال تلك الآداب فإننا نرى أن الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يجعل من التصوف حالة انفصال عن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان؛ لأن كماله وسمو أخلاقه لا تبرز بمجرد حصوله على معارف العلوم وإنما تظهر في حالة احتكاكه ومخالطته وتعامله بمن يعيش معهم في المجتمع بمختلف فئاته وطبقاته وهو المحك الذي يُظهر الإنسان على حقيقته، ولذا كان لا بد من مراعاة تلك الآداب حتى تنصلح الأحوال وتتقارب القلوب[4].

سابعاً: الأحوال والمقامات:

1 ـ التوبة:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: التوبة النصوح هي الندم بالقلب، والاستغفار باللسان والإقلاع،

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 534، الغنية للجيلاني (2/ 169).

(2) الغنية (2/ 169)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 535.

(3) فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الحادية والثلاثون، ص: 75.

(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 535 ، 536.

بالبدن والإضمار على ألا يعود[1]، كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يركز عليها ويهتم بشأنها؛ قال العلامة أبو الحسن الندوي: ظهر في بغداد رجل قوي الشخصية قوي الإيمان قوي العلم قوي الدعوى قوي التأثير هو الشيخ عبد القادر الجيلاني فجدَّد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي والعبودية الخالصة وحارب النفاق وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه يدخل منه المسلمون يجددون العهد والميثاق مع الله تعالى[2]. والشيخ عبد القادر الجيلاني يعتبر التوبة باب الدخول على الله سبحانه لنيل رضوانه في الدنيا والآخرة فينبغي اغتنامها وعدم تفويت فرصتها يقول: اغتنموا باب التوبة وادخلوا ما دام مفتوحاً لكم[3]، ويبين أن المهم ليس التوبة فحسب ولكن المهم هو الاستمرار والثبات عليها فيقول: تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك، الشأن في ثبوتك عليها، وليس الشأن في غرسك الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته[4]. قد جعلها بمنزلة الماء الذي تزول به نجاسة الذنوب وقذارة المعاصي إذ يقول: يا غلام لا تيأس من رحمة الله بمعصية ارتكبتها بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها[5].

وعن التائبين يصنف الشيخ عبد القادر الناس في التوبة إلى ثلاثة أصناف: توبة العوام وتوبة الخواص، وتوبة خاص الخاص، ويجعل لكل صنف منهم توبة تخصه فيقول: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة، وتوبة خاص الخاص من ركون القلب إلى ما سوى الله ﷻ، ثم يوضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] بأن هذا: خطاب للعموم بالتوبة، وأن حقيقة التوبة في اللغة الرجوع يقال: تاب فلان من كذا أي رجع عنه، فالتوبة هي الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود في الشرع، والعلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات مبعدات من الله ﷻ ومن جنته وتركها مقرب إلى الله ﷻ وجنته فكأنه ﷻ يقول: ارجعوا إليَّ من هوى نفوسكم ووقوفكم مع شهواتكم عسى أن تظفروا ببغيتكم عندي في المعاد وتبقوا في نعيمي في دار البقاء والقرار وتفلحوا وتفوزوا وتنجوا وتدخلوا رحمتي الجنة العليا المعدة للأبرار[6]، كما يقرر الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة من سائر الذنوب واجبة بإجماع الأمة، وأنها تكون من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها[7].

ثم يعرف الكبائر بأنها: ما توعَّد الله عليه بالنار أو ما أوجب عليه الحد في الدنيا. وأن

---

(1) التعريفات للجرجاني، ص: 95.
(2) رجال الفكر الدعوة، نقلاً عن الشيخ عبد القادر، ص: 597.
(3) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الرابع، ص: 18.
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 597.
(5) الفتح الرباني، المجلس الثالث عشر، ص: 48.
(6) الغنية للجيلاني (1/ 116).
(7) المصدر نفسه (1/ 116).

بعض العلماء حصرها في سبع عشرة كبيرة: أربع في القلب؛ وهي: الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربع في اللسان وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاث في البطن وهي: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنتان في الفرج وهما: الزنا، واللواط. واثنتان في اليدين، وهما: القتل والسرقة. وواحدة في الرجلين وهي الفرار من الزحف. وواحدة في جميع البدن وهي: عقوق الوالدين[1].

وتحدث عن صدق التوبة، وصحتها ووضع لها شروط ثلاثة:

أولها: الندم على ما عمل من المخالفات.

وثانيها: الإقلاع وترك الزلات في جميع الحالات والساعات.

وثالثها: العزم على ألّا يعود إلى ما اقترف من المعاصي والخطيئات[2]. ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني للتوبة معياراً دقيقاً هو: توجّع القلب عند علمه بفوات محبوبه فتطول حسراته وأحزانه وبكاؤه ونحيبه وانسكاب عبراته فيعزم على ألّا يعود إلى مثل ذلك لما تحقق عنده من شؤم ذلك[3]. ويجعل أيضاً مقياساً آخر يمكن بواسطته معرفة التوبة الصادقة وهو أربعة أشياء:

- أن يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب.
- ألّا يرى لأحد في قلبه حسداً ولا عداوة وأن يفارق إخوان السوء.
- أن يكون مستعداً للموت نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه مجتهداً في طاعة ربه[4]. ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوبة على وجهين:

أحدهما: في حق العباد بعضهم تجاه بعض وهذا لا يتحقق إلّا برد المظالم والتحلل من الحقوق بإعادتها إلى أصحابها.

والثاني: يتعلق بحق الله تعالى فتكون التوبة منه بالاستغفار الدائم باللسان والندم بالقلب والإضمار على ألّا يعود إليه في المستقبل[5]. هذه هي التوبة عند الشيخ عبد القادر الجيلاني ونظراته إليها وتوجيهاته للتائبين وقد أوردها بعبارات جميلة وترقيقات بديعة تدل على حساسية مرهفة لمعنى التوبة وموقف العبد منها[6].

---

(1) الغنية للجيلاني (1/ 117).
(2) المصدر نفسه (1/ 122).
(3) المصدر نفسه (1/ 122).
(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 600.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 126).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 600.

2 ـ الزهد:

والشيخ عبد القادر الجيلاني يفرق بين الزاهد الحقيقي والمتزهد الصوري فيقول: المتزهد يُخرج الدنيا من يديه، والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه[1] ويقول: الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه فيناولها ويلبس ظاهره بها قلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها[2]، ويقول: وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها يملكها ولا تملكه تحبه ولا يحبها تعدو خلفه ولا يعدو خلفها يستخدمها ولا تستخدمه يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله ﷻ فلا تقدر الدنيا أن تفسده فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه[3]، ويقول: المؤمن له نية صالحة في جميع تصرفاته لا يعمل في الدنيا للدنيا يبني في الدنيا للآخرة يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط ويهذب طرق المسلمين، وإن بنى غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء وما لا بدَّ له منه يفعل ذلك حتى يبني له في الآخرة[4].

وبيَّن الشيخ عبد القادر أن الزهد ليس أمراً سهلاً يمكن الاتصاف به دون تعب أو معاناة، كما أنه ليس في قدرة كل واحد أن يكون زاهداً، لأن الزهد على حد تعبير الجيلاني: منة صالحة وإلّا فما يقدر أحد أن يزهد في قسمه. المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشره ولا يستعجل. زهد في الأشياء قبله وأعرض عنها سِرّه واشتغل بما أمر به وعلم أن قسمه لا يفوته فلم يطلبه ترك الأقسام تعدوا خلفه وتدل وتسأله قبولها[5] وقال: يا غلام هذا الزهد ليس صنعة تتعلمها ليس هو شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل.

والشيخ عبد القادر الجيلاني يربط بين العلم والزهد، ويرى أنه لا بُدّ من تلازمهما للوصول إلى الله ﷻ وهذا واضح من قوله: ما وصل من وصل إلّا بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها، بالقلب والقالب[6]. وقال: من صَحَّ زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر فيه[7]. والشيخ عبد القادر الجيلاني على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، الذي قال في الزهد: الزهد على ثلاثة أوجه:

---

(1) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثلاثون، ص: 106.
(2) المصدر نفسه، المجلس الخامس والعشرون، ص: 89.
(3) المصدر نفسه، المجلس الرابع والثلاثون، ص: 113.
(4) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس السادس عشر، ص: 59.
(5) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثامن والعشرون، ص: 98.
(6) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثلاثون، ص: 107.
(7) المصدر نفسه، ص: 106.
(8) المصدر نفسه، المجلس الثاني والستون، ص: 232.

الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. **والثاني**: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. **والثالث**: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين، وعلق ابن القيم على كلام الإمام أحمد فقال: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ مع زيادة تفصيله وتبيين درجاته وهو من أجمع الكلام وهو يدل على أنه ﵁ من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد الشافعي ﵀ بإمامته في ثمانية أشياء أحدها الزهد[1]. وهكذا يتبين موافقة الشيخ عبد القادر الجيلاني لأهل السنة والجماعة في مفهوم الزهد[2].

3 ـ التوكل:

تناول الشيخ عبد القادر الجيلاني مسألة التوكل وتعرَّض لأربع مسائل:

المسألة الأولى: الأصل في مشروعيته وتعريف حقيقته:

فقال: الأصل فيه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3] وقوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]. وحقيقته تفويض الأمور إلى الله ﷻ والتنقي من ظلمات الاختيار والتدبير والترقي إلى ساحات شهود الأحكام والتقدير فيقطع العبد ألَّا تبديل للقسمة فما قسم له لا يفوته، وما لم يقدَّر له لا يناله، فيسكن قلبه إلى ذلك ويطمئن إلى وعد مولاه[3].

المسألة الثانية: اقسام التوكل ودرجاته:

يرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التوكل ينقسم إلى ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل: يسكن إلى وعد ربه، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه[4] ولكن ابن القيم يرى أن التوكل ينقسم إلى سبع درجات:

الأولى: معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه صدورها عن مشيئته وقدرته، وهي أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل.

الثانية: إثبات الأسباب والمسببات.

الثالثة: رسوخ القلب في مقام توحيد المتوكل، فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكل معلول، مدخول وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ

---

(1) مدارج السالكين لابن القيم (2/ 12).
(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 606.
(3) الغنية للجيلاني (2/ 189).
(4) المصدر نفسه (2/ 189).

ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن هنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلّا برفض الأسباب، وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح.

الرابعة: اعتماد القلب على الله واستناده وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب ولا سكون إليها؛ علامة هذا ألا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه عند إدبار ما يحب وإقبال ما يكره منها؛ لأن اعتماده على الله وسكونه إليه، ومثل حاله كحال الطفل الرضيع في اعتماده وسكونه وطمأنينته بثدي أمه لا يعرف غيره، وليس في قلبه التفات إلى غيره. كذلك المتوكل لا يأوي إلّا إلى ربه سبحانه.

الخامسة: حسن الظن بالله ﷻ، فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسّر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق أن حسن الظن بالله يدعو إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به ولا التوكل على من لا ترجوه.

السادسة: استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه، ولهذا فسّره من قال: أن يكون العبد بين يدي الله، كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف أراد لا يكون له حركة ولا تدبير.

السابعة: التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه وتمام كفايته وحسن تدبيره، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويض أموره كلها إلى أبيه[1].

المسألة الثالثة: ثمرات التوكل:

ويرى الشيخ عبد القادر الجيلاني أن للتوكل ثمرات فقد قال: من أحب القوة في دين الله ﷻ فليتوكل على الله ﷻ؛ لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب، لا تتوكل على درهمك ودينارك وأسبابك، فإن ذلك يعجزك ويضعفك وتوكل على الله ﷻ، فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب[2].

وهذا ما أكّده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو يوضح معنى ما نقل عن الشيخ

---

(1) مدارج السالكين (2/ 112).

(2) الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الثاني والأربعون، ص: 134.

عبد القادر الجيلاني من أنه رؤي في المنام وهو يقول إخباراً عن الحق سبحانه: مَن جاءنا تلقيناه من البعيد، ومن تصرف بحولنا ألنَّا له الحديد، ومن اتبع مرادنا أردنا ما يريد، ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد. فقال فالأوَّلتان: العبادة والاستعانة، والآخرتان الطاعة والمعصية. فالذهاب إلى الله هي عبادته وحده، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**من تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[1]، والتقرب بحوله هو الاستعانة والتوكل عليه، فإنه لا حول ولا قوة إلّا بالله، وفي الأثر: «مَن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[2]. وعن سعيد بن جبير قال: التوكل جِماع الإيمان[3]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3]، وقوله: ومن اتبع مرادنا؛ يعني المراد الشرعي،كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: 28]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 6]، وفي الحديث الصحيح: «لئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»[4]. وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الشورى: 26] وقوله: ومن ترك من أجلنا أعطيناه فوق المزيد يعني: ترك ما كره الله من المحرم والمكروه لأجل الله؛ رجاءاً ومحبة وخشية أعطيناه فوق المزيد لأن هذا مقام الصبر[5]، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

المسالة الرابعة: الأسباب:

بيَّن الشيخ عبد القادر الجيلاني اعتقاده حولها والمتضمن ضرورة الأخذ بها مع عدم الاعتماد عليها، فقال: اعتقاد المتبعين لكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ: أن السيف لا يقطع بطبعه بل الله ﷻ يقطع به، وأن النار لا تحرق بطبعها بل الله ﷻ المحرق بها، وأن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله ﷻ يشبع به، وأن الماء لا يروي بطبعه بل الله ﷻ المروي به. وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله ﷻ المتصرف فيها وبها وهي آلة بين يديه يفعل ما يشاء[6]، وهذا لا يعني دعوته إلى ترك الأسباب أو أن هناك تعارضاً بين التوكل والأخذ بالأسباب، بل إن التوكل الصحيح في مفهوم الشيخ الجيلاني هو الأخذ بالسبب والتوكل على

---

(1) البخاري رقم: 7536، مسلم رقم: 2675.
(2) الشيخ عبد القادر، ص: 612.
(3) السنة، عبد الله بن أحمد رقم: 776.
(4) المصدر نفسه، رقم: 776.
(5) البخاري رقم: 7536.
(6) فتاوى ابن تيمية (10/ 549)، الشيخ عبد القادر، ص: 613.

مسبب الأسباب إذ يقول في هذا الصدد: أعط نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب[1].

4 ـ الشكر:

تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الشكر من خلال ثلاث مسائل:

الأولى: حقيقة الشكر: فقال رحمه الله: وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع[2].

وأما أقسامه: فإنه رحمه الله قد قسم الشكر إلى ثلاثة أقسام فقال: ثم الشكر ينقسم أقساماً: إلى شكر باللسان: وهو اعترافه بالنعمة مبعث الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان: وهو اتصاف بالوفاء والخدمة، وشكر بالقلب: وهو اعتكاف على بساط الشهور بإدامة حفظ الحرمة[3]. وفي موضع آخر يصف الشيخ عبد القادر الجيلاني كيفية الشكر فيقول: أما كيفية الشكر فيكون باللسان بالاعتراف بالنعمة وأنها من عند الله ﷻ، وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحولك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها. وأن قاسمها ومجريها وموجدها والسبب لها هو الله ﷻ والقاسم هو الله والمجري هو، فهو أحق بالشكر من غيره. وأما الشكر بالقلب فبالاعتقاد الدائم والعقد الوثيق الشديد المبرم أن جميع ما بك من النعم والمنافع واللذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله ﷻ لا من غيره، ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك، وأما شكر الجوارح: فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله ﷻ دون غيره من الخلق فلا تحب أحداً من الخلق فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأماني وسائر الخليقة بحيث تجعل طاعة الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً، وما عداها فرعاً وتابعاً ومأموماً[4].

وأما أصناف الشاكرين: فقد جعلهم ثلاثة أصناف:

الأولى: من وصفهم بالعالمين وهم: السواد الأعظم من العباد، وشكرهم يكون من جملة أقوالهم.

والثاني: من وصفهم بالعابدين وهم: المؤمنون على وجه العموم، والمباشرون للعبادات المفروضة عليهم، يكون نوعاً من أفعالهم.

---

(1) فتاوى ابن تيمية (10/ 549)، الشيخ عبد القادر، ص: 167.

(2) الغنية للجيلاني (2/ 193).

(3) الغنية للجيلاني (2/ 194).

(4) فتوح الغيب للجيلاني، ص: 134.

والثالث: من وصفهم بالعارفين والمقربين، وشكرهم باستقامتهم لله ﷻ في سائر أحوالهم، واعتقادهم أن جميع ما هم فيه من الخير وما يظهر منهم من الطاعة والعبودية والذكر لله ﷻ بتوفيقه سبحانه[1].

5 ـ الصبر:

تحدث الشيخ عبد القادر الجيلاني عن الصبر، فقال الأصل في مشروعية الصبر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: 127]، وقوله ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[2]، وأما أنواع الصبر فقد ذكر الشيخ عبد القادر أنه على ثلاثة أضرب:

الأول: صبر لله ﷻ وهو على أداء أمره وانتهاء نهيه.

الثاني: صبر مع الله وهو الصبر على جريان قضائه وأفعاله فيك من سائر الشدائد والبلايا.

الثالث: صبر على الله وهو الصبر على ما وعد من الرزق والفرج والكفاية والثواب في الدار الآخرة[3]. وقال عن أصناف الصابرين بأنهم ثلاثة أصناف: متصبر وصابر وصبار[4].

وأخيراً فإن الشيخ عبد القادر الجيلاني عند تمييزه للصبر يرى أنه على قسمين:

أحدهما: صبر على ما هو كسب من فعل أوامرِ الله وترك نواهيه.

والثاني: صبر على ما ليس بكسب له مما يقدر الله عليه من قضاء فيه مشقة وألم فيصبر على ذلك[5]. وبالجملة فإن معاني الصبر تكاد تكون محصورة في الصبر على أداء الواجبات وترك المنهيات والرضى بالمقدورات وهو واضح في كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[6].

6 ـ الرضا:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له، وقضاء الله ﷻ خير من قضاء المرء لنفسه، وما قضاه الله لك يا ابن آدم فيما تكره خير

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 194)، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 621.
(2) البخاري رقم: 1702، مسلم رقم: 926.
(3) الغنية للجيلاني (2/ 195).
(4) المصدر نفسه (2/ 195).
(5) المصدر نفسه (2/ 195).
(6) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 625.

لك مما قضى الله ﷻ لك فيما تحب، فاتق الله تعالى، وارض بقضائه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]. يعني ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، فالله ﷻ طوى عن الخلق مصالحهم وكلفهم عبوديته من أداء الأوامر وانتهاء المناهي والتسليم في المقدور والرضا بالقضاء فيما لهم وعليهم في الجملة، واستأثر هو ﷻ بالعواقب والمصالح فينبغي للعبد أن يديم الطاعة لمولاه ويرضى بما قسم الله له ولا يتهمه[1]، وقال: واعلم أن تعب كل واحد من الخلق على قدر منازعته للقدر والمقدور وموافقته لهواه وترك رضاه بالقضاء، فكل من رضي بالقضاء استراح وكل من لم يرضَ به طالت شقوته وتعبه ولا ينال من الدنيا إلّا بما قسم له[2].

7 ـ الصدق:

والأصل فيه عند الشيخ عبد القادر الجيلاني قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]، وما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرّى الصدق حتى يُكتب عند الله صدّيقاً، وإيّاكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً**»[3].

والشيخ عبد القادر يحدثنا عن صدقه في أحلك الظروف، فقد كان مثالاً للصدق مُنذ شبابه وهذه القصة تبين مدى صدقه حيث قال: عندما استأذنت والدتي للسفر إلى بغداد طلباً للعلم، سلمتني أربعين ديناراً وخاطتها تحت إبط قميصي وأوصتني بالصدق، وفي أثناء سفرنا خرج علينا ستون فارساً فأخذوا القافلة ولم يتعرض لي أحد، فاجتازني أحدهم وقال لي: كم معك يا فقير؟ فقلت: أربعون ديناراً فقال: وأين هي؟ فقلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي. فظنني أستهزئ به فتركني وانصرف. ومرَّ بي آخر، فقال لي: مثل ما قال الأول؛ فأجبته كما أجبت الأول، فتركني وانصرف، وتوافيا عند مُقَدَّمِهم فأخبراه بما سمعاه مني فقال: عليَّ به فأُتِيَ بي إليه، وإذا هم على تَلٍّ يقتسمون أموال القافلة، فقال لي: ما معك؟ قلت: أربعون ديناراً، فقال: وأين هي؟ قلت: مخاطة في قميصي تحت إبطي، فأمر به فَفُتِقَ فوجد فيه الأربعين ديناراً، فقال: ما حملك على الاعتراف؟ قلت: إن أمي عاهدتني على الصدق، وإني لا أخون عهدها. فبكى المقدم. وقال: أنت لم تَخُنْ عهد أمك، وأنا لي كذا وكذا سنة أخون

(1) الغنية للجيلاني (2/ 197).
(2) المصدر نفسه (2/ 197).
(3) البخاري رقم: 6094، مسلم رقم: 2607، الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 633.

عهد ربي، فتاب على يديَّ، فقال له أصحابه: أنت كنت مقدماً في قطع الطريق، وأنت الآن مقدمنا في التوبة، فتابوا كلهم على يدي وردوا على القافلة ما أخذوا منهم[1].

وللصدق عند الشيخ عبد القادر الجيلاني منزلة عالية فهو عماد الأمر وفي ذلك يقول: واعلم بأن الصدق عماد الأمر وبه تمامه وفيه نظامه، وهو ثاني درجة النبوة وهو قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: 69]. وقد فرّق الشيخ عبد القادر الجيلاني بين الصادق والصدِّيق بقوله: والصادق هو الاسم اللازم من الصدق، والصدِّيق هو المبالغة منه وهو من تكرر فيه الصدق فصار دأبه وسجيته وصار الصدق غالبه، فالصدق استواء السر والعلانية والصادق هو الذي صدق في أقواله، والصدِّيق من صدق في أقواله وجميع أفعاله وأحواله[2].

وهكذا يتبين اهتمام الشيخ عبد القادر وتأكيده على أهمية التخلق والاتصاف بهذه الصفات الحميدة التي تكسب العبد سعادة الدنيا وفلاح الآخرة[3].

ثامناً: تاسيس الطريقة القادرية:

تنتسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي والمنظم والقائم على جمع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني، والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني[4]، والمطّلع على سيرة الشيخ عبد القادر يرى في توجيهاته ووصاياه التي وصّى بها أتباعه الحرص على التمسك بالكتاب والسنة، والالتزام بالأخلاق الحميدة وفيما يلي عرض لأبرز معالم الجانب النظري لهذه الطريقة:

1 ـ **التأكيد على التمسك بالكتاب والسنة** يقول رحمه الله وهو يوجِّه وصيته إلى ولده عبد الرزاق: أوصيك بتقوى الله وطاعته ولزوم الشرع وحفظ حدوده، وتعلم يا ولدي ـ وفقنا الله وإياك والمسلمين ـ أن طريقتنا هذه مبنية على الكتاب والسنة وسلامة الصدر وسخاء اليد وبذل الندى وكف الجفا وحمل الأذى والصفح عن عثرات الإخوان[5]، ويقول

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 64.
(2) الغنية للجيلاني (2/ 200).
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 634.
(4) المصدر نفسه، ص: 636، 637.
(5) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 639.

في موضع آخر: أدخل الظلمة بالمصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإن خطر خاطر[1]، أو جدَّ إلهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم الزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك واهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين[2]. ومن تركيز الشيخ الجيلاني على أهمية التمسك بالكتاب والسنة أن جعلهما المقياس في ربط العلاقات الشخصية بالآخرين بقوله: إذا وجدت في نفسك بغض شخص أو حبه فاعرضه على الكتاب والسنة ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[3].

2 ـ **خلو طريقته من الأفكار والفلسفات التي كانت سائدة في عصره** نتيجة ترجمة المعارف اليونانية وتأثيرها على العقول والأفهام، حتى وقع في حبائلها كثير من المتصوفة فاستخدموا ألفاظها ومصطلحاتها مثل: الهيولى[4]، والعرض، والجوهر[5].

3 ـ **تركيزه على الاهتمام بالجوانب العملية**: وتجنب الإغراق في الأمور النظرية والمقدمات الجدلية العقيمة دليل ذلك ما طبقه في حياته وما ربّى عليه أتباعه وما وضعه من أصول لطريقته التي تعتمد على سبعة أصول هي: المجاهدة، التوكل، حسن الخلق، الشكر، الصدق، الرضا، الصبر[6]. وقد تحدثنا عن هذه الأصول بالتفصيل في مبحث المقامات والأحوال.

4 ـ **وضعه لمجموعة من الآداب والتعاليم التي يجب أن يتعامل بها المنتسب لطريقته** سواء مع النفس أو مع الشيخ أو مع الناس، وقد تكلمنا عن ذلك.

5 ـ **تأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها والبعد عن نواهيه واجتنابها والرضا بأقدار الله والاستسلام لها، يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: لابد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أَمْرٌ يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به، فأقل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي أن يلزم همها قلبه، ويحدث بها نفسه ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله[7].

وقد شرح ابن تيمية كلام الشيخ عبد القادر واستحسنه بقوله: هذا كلام شريف جامع

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 640.
(2) فتوح الغيب، الجيلاني، ص: 6.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 640.
(4) الهيولى: لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة وهو جوهر في الجسم.
(5) الجوهر: ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع،/ وهو مختصر في خمسة أشياء هيولي وصورة وجسم ونفس وعقل.
(6) الغنية للجيلاني (2/ 182).
(7) فتوح الغيب للجيلاني المقالة الأولى، ص: 6.

يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد وهي مطابقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: 120]، ولقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]، فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحظور والصبر يتضمن الصبر على المقدور فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله وهو أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به في ذلك الوقت. وطاعة الله ورسوله هي عبادته التي خلق لها الجن والإنس كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]. والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36]، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45] ثم مضى رحمه الله في توجيه كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني وشرح مراده من تلك العبارات[1].

هذه هي أهم الأسس التي أوصى بها الشيخ عبد القادر وأتباعه المنتسبين لطريقته[2]. وقد أثنى ابن تيمية على الشيخ عبد القادر الجيلاني واعتبره من ضمن أئمته، فقد قال: .. والذي نختار قول أئمتنا.. ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلاني.

تاسعاً: الخطوط العريضة لدعوته الإصلاحية:

ـ بدء الدعوة وأسلوبه في ذلك: يُعيد المؤرخون ظهور عبد القادر إلى عام 521هـ/ 1127م[3]. والواقع أن عبد القادر بدأ دعوته قبل ذلك، فهو يذكر أنه سبق جلوسه للوعظ فترة التهيؤ النفسي وتشجيع الأصحاب والمحبين، وأنه بدأ مجلسه بالرجلين والثلاثة، ثم تزاحم الناس حتى صار مجلسه يضم سبعين ألفاً[4]، ثم تزايد الإقبال حتى ضاقت المدرسة فخرج

---

(1) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (10/ 456).

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 643.

(3) نشأة القادرية د. ماجد الكيلاني، ص: 79.

(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.

إلى سور بغداد بجانب رباطه، وصار الناس يجيئون إليه ويتوب عنده الخلق الكثير[1]، ومُنذ ذلك الوقت بدأ عبد القادر دعوته والتي تميزت بأمور منها:

1 ـ اعتماد التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة:

كان الشيخ أبو سعيد المخرمي قد أسس مدرسة صغيرة في باب الأزج (حي من أحياء بغداد) فلما توفي آلت إلى تلميذه عبد القادر الجيلاني، فعمد إلى توسيعها وإعادة بنائها، كما أضيف إليها عدد من المنازل والأمكنة التي حولها ولقد بذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم[2]. وروى لنا المؤرخون ـ أثناء ذلك ـ صوراً من البذل والتضحية يكشف عن مدى تعلُّق الأتباع بالشيخ، من ذلك، امرأة فقيرة قررت المساهمة في عمارة المدرسة فلم تجد شيئاً. وكان زوجها من العمال، فجاءت إلى الشيخ عبد القادر تصحب زوجها، وقالت: هذا زوجي ولي عليه من المهر قدر عشرين دينار ذهباً، ولقد وهبت له النصف بشرط أن يعمل في مدرستك بالنصف الباقي، ثم سلَّمت الشيخ خط الاتفاق الذي وقعته مع زوجها، فكان الشيخ يشغله في المدرسة يوماً بلا أجرة ويوماً بأجرة، لعلمه أنه فقير لا يملك شيئاً، فلما عمل بخمسة دنانير أخرج له الخط ودفعه له، وقال له: أنت في حِلٍّ من الباقي[3]. ولقد اكتمل بناء المدرسة عام (528هـ/ 1133م)، وصارت منسوبة إلى الشيخ عبد القادر حيث جعلها مركزاً لنشاطات عديدة منها: التدريس والإفتاء والوعظ[4]، وأما تمويل المدرسة فقد أوقف الأتباع والأغنياء عليها أوقافاً دائمة للصرف على الأساتذة والطلاب[5]. ومنهم من أوقف الكتب لمكتبتها[6]، وكان لها خدم مهمتهم العناية بأمورها وخدمة الأساتذة والطلاب[7].

وكرّس الشيخ عبد القادر معظم أوقاته للمدرسة فكان لا يخرج منها إلا يوم الجمعة إلى المسجد أو الرباط، ولقد قام أسلوبه في التدريس والتربية على مراعاة استعدادات كل طالب والصبر عليه، وكان يعتز بمهنة التدريس هذه ويعتبرها أشرف منقبة وأجل مرتبة. وأن العالم محبوب من أهل الأرض، وأنه سيُميَّزُ يوم القيامة عمن سواه ويعطى درجات أسمى من غيره[8]. لقد أمضى الشيخ عبد القادر في التدريس ثلاثاً وثلاثين سنة بدأها عام (528هـ/

(1) المنتظم (10/ 219).
(2) المنتظم (10/ 219)، طبقات الحنابلة (1/ 291).
(3) طبقات الحنابلة (1/ 291)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(5) شذرات الذهب، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(6) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 186.
(7) المصدر نفسه، ص: 187.
(8) سر الأسرار، لعبد القادر الجيلاني، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 188.

1133م) حتى وفاته عام (561هـ/ 1166م)[1]، ولا تزال المدرسة باقية إلى اليوم[2]، ولها مكتبة فيها مخطوطات شهيرة وتعرف باسم المكتبة القادرية[3]، والواقع أن التحليل الدقيق للنظام التربوي الذي طبقه عبد القادر، يكشف عن تأثر كبير بالمنهاج الذي اقترحه الغزالي، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهاجاً متكاملاً يستهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف: باسم الشيخ عبد القادر حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات الصوفية ويقيم الطلبة والمريدون[4]، وإليك تفاصيل البرنامج المذكور:

أ ـ **الإعداد الديني والثقافي**: يتحدد هذا الإعداد بحسب عمر الطالب أو المريد وحاله، فإذا كان ممن يقصدون تصحيح العبادة كالكبار من الناس والعامة، درّسه الشيخ عقيدة أهل السنة وفقه العبادات اللذين تضمنهما كتابه: «الغنية لطالبي طريق الحق» الذي صنّفه على طريقة كتاب «إحياء علوم الدين للغزالي» واقتفى الموضوعات نفسها التي عالجها الغزالي في كتابه المذكور. ويضاف إلى ذلك دراسات تستهدف إعداد النابه من الدارسين ليكون داعية بين الناس مثل أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووسائله وأساليبه، ودراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة والفرق السائدة[5]، بالإضافة إلى التدريب على الوعظ والخطابة والتدريس[6]، وأما إذا كان الدارس طالباً من طلبة المدرسة، فإنه يتلقى إعداداً أوسع يتضمن حوالي ثلاثة عشر علماً تشمل على التفسير والحديث والفقه الحنبلي، والخلاف والأصول والنحو والقراءات بالإضافة إلى ما سبق ذكره، على أنه كان يستبعد علم الكلام والفلسفة وينهى عن مطالعة كتبها السائدة[7]، وكان الجمع بين الفقه والتصوف السني شرطاً أساسياً للمريدين، فقد روى ابن تيمية ـ في مجلدي التصوف وعلم السلوك ـ من الفتاوى كيفية تقيد منهج عبدالقادر بالأصول الواردة في القرآن الكريم والسنة، والتزامه تزكية النفس في منهاجه التربوي[8].

ب ـ **الإعداد الروحي**: يستهدف الإعداد الروحي تربية إرادة المتعلم أو المريد حتى

---

(1) قلائد الجوهر، ص: 32، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 188.
(2) مدارس بغداد في العصر العباسي، ص: 154.
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 188.
(4) المصدر نفسه، ص: 189.
(5) الغنية للجيلاني (1/ 71، 84).
(6) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 435.
(7) قلائد الجوهر، ص: 3.
(8) الفتاوى، علم السلوك ج 10، كتاب التصوف ج 11.

يصبح صفاء بلا كدر ويصير مع النبي ﷺ في عقله ومشاعره ومعناه ويكون دليل قدوته[1].

ولكي يصل المتعلم إلى ذلك، عليه أن يلتزم السنة في كل شيء وأن يتصف بصفات أساسها المجاهدة والتحلي بأعمال أولي العزم، وقد بينت تلك الصفات عند حديثي عن موقفه من العلم والعمل. وكان يرافق الممارسات العملية التي دعا إليها الشيخ دراسات نظرية حول مقصود المجاهدات والعبادات التي يمارسها المريد في حياته اليومية، وبذلك أقام التزكية الروحية على قاعدة فكرية تستهدف إقناع المريد بما يمارسه، فكان هناك دراسات حول الأوراد والأذكار[2]، ودراسات عن التقوى والورع، ودراسات عن أحوال النفس ومداخل الشيطان ودراسات عن الأخلاق التي يجب أن يكون المريد عليها، ويحتوي كتابا «الغنية» «وفتوح الغيب» فصولاً مطولة مما اعتمده الشيخ عبد القادر في ذلك[3].

ج ـ **الإعداد الاجتماعي**: ويستهدف هذا الإعداد توثيق العلاقات بين الأفراد والجماعات، والقضاء على أسباب التفكك الاجتماعي الذي ساد المجتمع في عصره، والميدان الذي كان يتم به هذا الإعداد هو المدرسة القادرية نفسها، حيث يتدرب المريد على ما يجب أن يتحلى به الفرد خارج المدرسة في المجتمع الكبير. ويشمل هذا الإعداد تنظيم حياة المريد الخاصة؛ وعلاقات المريدين بالقيادة المتمثلة بالشيخ؛ وعلاقاتهم ببعضهم البعض؛ وعلاقاتهم بالمجتمع المحيط، أما عن حياة المريد الخاصة، فقد حدد المنهاج القادري آداباً تنظم دقائق السلوك اليومي للفرد، كاللباس والنوم والدخول والخروج والزينة والجلوس والسير والطعام والشراب، ومعاملة الزوجة والأبناء والوالدين، والإقامة والسفر، وفي جميع هذه الآداب يسترشد بما ورد في السنة النبوية. كذلك حرص الشيخ عبد القادر أن يبتعد بالمريد عن كل ما ينزل من مكانته الاجتماعية كالبطالة والعيش على هبات المحسنين، وسؤال الناس، وحثه على الاشتغال بالكسب والتجارة مع مراعاة قواعد الأخلاق والأمانة[4]. وأما عن تنظيم علاقة المريد والطالب بالشيخ، فقد أوجب عبد القادر على المريد طاعة الشيخ في الظاهر والباطن، وأن لا ينقطع عنه وأن يستشيره في جميع شؤونه، وفي المقابل أوجب على الشيخ أن يعامل مريديه بالحكمة والشفقة، وأن يؤدبهم ابتغاء مرضاة الله، وأن يكون لهم ملجأً وسنداً وراعياً، فإذا لم يكن في هذه المنزلة فليترك شيخه وليعد إلى شيخ يؤدبه[5].

وحدد القاعدة التي يعتمدها المريد في صحبة الأغنياء والفقراء بما يلي: أن تصحب

---

(1) الفتح الرباني، ص: 206، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 190.

(2) الغنية للجيلاني (2/ 81/ 86)، الفتح الرباني، ص: 85.

(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 192.

(4) المصدر نفسه، ص: 193.

(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 194.

الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل. . . وعليك بصحبة الفقراء والتواضع وحسن الأدب والسخاء. . وعلى المريد أن يحذر من الضعف أمام عطاء الأغنياء، أو يطمع بنوالهم، لأن تملقهم من أخطر الأمور على دين المرء وعلى خلقه، شريطة أن لا يحقد عليهم، وأن يحسن الظن بهم وأن لا يتعالى عليهم[1].

2 ـ الوعظ وموضوعاته:

بالرغم من اشتغال عبد القادر بالتدريس وإعداد المربين، فإنه لم ينقطع عن مجالس الوعظ العامة التي استهدفت إيصال دعوته إلى عامة الناس، فخصص لذلك ثلاثة أيام في الأسبوع: صباح الجمعة، ومساء الثلاثاء في المدرسة، وصباح الأحد في الرباط[2]، ويذكر التادفي أن الحضور كانوا يدونون هذه المواعظ حتى عُد في مجلسه مقدار أربعمائة محبرة[3]. وقد جُمع قسم كبير من هذه المواعظ ـ أو المجالس كما كانت تسمى ـ في كتاب يُعرف باسم «الفتح الرباني» مع تحديد تواريخها وأمكنة إلقائها، كان الشيخ عبد القادر ـ في مواعظه ـ شديد الحماسة للإسلام مشفقاً لما آلت إليه تعاليمه في حياة الناس، ويود لو استطاع استنفار الخلق جميعاً لنصرة الإسلام، يقول في أحد مجالسه: دين محمد ﷺ تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه، هلموا يا أهل الأرض نُشيِّد ما تهدم ونقيم ما وقع، هذا شيء ما يتم، يا شمس، ويا قمر، ويا نهار تعالوا[4]. ويقول في موعظة أخرى: سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي. إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء. آخرتي قد حصلت لي عند ربي ﷻ. ما أنا بطالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة، ولا سوى الحق ﷻ. فرحي بفلاحكم، وغمي لهلاككم إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعت وارتويت واكتسبت، وفرحت كيف خرج من تحت يدي[5]، ومن أقوله كذلك: ألا إني راع لكم، ساق لكم، ناطور لكم ما ترقيت ها هنا وأرى لكم وجود الضر والنفع بعد ما قطعت الكل بسيف التوحيد. ألزمت هذا المقام. حمدكم وذمكم وإقبالكم وإدباركم عندي سواء. كم من يذمني كثيراً ثم ينقلب ذمه حمداً. كلاهما من الله لا منه، إقبالي عليكم لله، أخذي منكم لله، لو أمكنني دخلت مع كل منكم القبر، وجاوبت عنه منكراً ونكير رحمة وشفقة عليكم[6].

بهذا الحماس، انطلق الشيخ عبد القادر يستنفر المسلمين إلى الالتفاف حول الإسلام،

---

(1) الغنية للجيلاني (2/ 128، 154) فتوح الغيب، ص: 75 ، 167.
(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 195.
(3) قلائد الجوهر، ص: 18.
(4) الفتح الرباني، ص: 295.
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 196.
(6) الفتح الرباني نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 197.

ويدعوهم إلى العودة إلى تعاليمه وحمل رسالته. وكان يرى أن صلاح دين الفرد لا يتم إلا بإصلاح القلب، وفك إساره من حب الدنيا والأخلاق الذميمة، ومن كل ما يشغل عن الله، ومن هنا كثرت في مواعظه دعوة الناس إليه للتربية والتزكية[1]، وكانت مواعظه وخطبه بعضها موجه لنقد العلماء والحكام والدعوة لإنصاف الفقراء والعامة.

أ ـ انتقاد العلماء: كان الغالبية من العلماء في عهده يتنافسون فيما بينهم على اعتلاء منابر الوعظ والخطابة في الأماكن المشهورة، ويسعون في إيذاء بعضهم بعضاً عند الخليفة والوزراء والحكام، ومنهم من عُرف بسوء الخلق، ومنهم من اشتغل بالخصومات المذهبية، شاهد الشيخ عبد القادر عن كثب كل ذلك وأمثاله فشن حملة شديدة على هذا النوع من العلماء واعتبرهم تجاراً يتاجرون بالدين، ويساهمون في ارتكاب المحظورات، ومن مواعظه العامة في ذلك قوله: يا سلّابين الدنيا بطريق الآخرة من أيدي أربابها. يا جهالاً بالحق، أنتم أحق بالتوبة من هؤلاء العوام، أنتم أحق بالاعتراف بالذنوب من هؤلاء؛ لا خير عندكم[2]، وقال في موعظة ألقاها في المدرسة في 9 رجب سنة (546هـ/ 1151م): لو كانت عندك ثمرة العلم وبركاته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها، العَالِم لا رِجْلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق، والزاهد لا يَدَيْن له يأخذ بهما أموال الناس، والمحب في الله لا عينين له ينظر بهما إلى غيره[3].

وحذّر عامة الجماهير من حضور مواعظهم والاستماع إلى أحاديثهم فقال: يا عباد الله. . . لا تسمعوا من هؤلاء الذين يُفرحون نفوسكم. يذلون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر لا يأمرونهم بأمر ولا ينهونهم عن نهي. إن فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً وتكلفاً طهّر الله الأرض منهم ومن كل منافق، أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه. إني أغار إذا سمعت واحداً يقول: الله الله وهو يرى غيره[4].

وهاجم المتعصبين للمذاهب ومن ذلك قوله: دع عنك الكلام فيما لا يعنيك. اترك التعصب في المذاهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة[5]. ولم تنقطع حملات عبد القادر على العلماء والفقهاء[6]. المنحرفين على هدي المصلحين والعلماء الربانيين، وكان هجوم الشيخ عبد القادر على العلماء المنحرفين يريد به: تصحيح الوضع السائد، والمساهمة في تخريج جيل من العلماء الربانيين الذين يقومون بوعظ الناس وهدايتهم وتزكيتهم ونشر

---

(1) الفتح الرباني، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 197.
(2) المصدر نفسه، ص: 198.
(3) المصدر نفسه، ص: 202.
(4) المصدر نفسه، ص: 199.
(5) المصدر نفسه، ص: 199.
(6) المصدر نفسه، ص: 201.

التعاليم الصحيحة في أوساط الأمة حتى يخرج جيل النصر المنشود الذي يتحقق على يديه وعد الله بالنصر للمؤمنين، وقد حالف الشيخ عبد القادر الكثير من النجاح بحمد الله في تحقيق هذه المهمة.

ب ـ انتقاد الحكام: وخص الشيخ عبد القادر الحاكمين بانتقاداته وحذر الناس من الانصياع لهم بما يخالف الشريعة، يقول في أحد مجالسه: صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة. قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوة آلهة، وَيْحكم جعلتم الفرع أصلاً، المرزوق رازقاً، والمملوك مالكاً، الفقير غنياً، العاجز قوياً، الميت حياً، .. إذا عظَّمت جبابرة الدنيا وفراعينها وملوكها وأغنياءها ونسيت الله ﷻ ولم تعظمه، فحكمك حكم من عبد الأصنام، تصيّر مَنْ عظمت صنمك[1]، وانتقد الولاة والموظفين الذين يجتهدون في تنفيذ أوامر السلاطين دون تحرز: يقول في إحدى مواعظه: يا غلام.. اخدم الحق ﷻ ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاطين الذين لا يضرون ولا ينفعون أيش يعطونك؟ يعطونك ما لم يقدَّم لك؟ أو يقدرون أن يقسموا لك شيئاً لم يقسمه الحق ﷻ؟ لا شيء مستأنف من عندهم، إن قلت: إن عطاءهم مستأنف من عندهم كفرت[2]. ولم تتوقف انتقادات عبد القادر للحكام عند المواعظ العامة، وإنما تناولت المواقف الخاصة التي تبرز فيها انحرافات أو مظالم، ففي عام 541هـ/ 1146م ولَّى الخليفة المقتفي يحيى بن سعيد المعروف: بابن المرجم القضاء، فمضى الأخير في ظلم الرعايا ومصادرة الأموال وأخذ الرشاوي، فكتبت ضده المنشورات وألصقت في المساجد والشوارع دون أن يستطيع أحد أن يجهر بمعارضته. ويذكر سبط ابن الجوزي أن الشيخ عبد القادر اغتنم وجود الخليفة في المسجد، وخاطبه من على المنبر قائلاً: ولَّيت على المسلمين أظلم الظالمين، وما جوابك غداً عند رب العالمين، فعزل الخليفة القاضي المذكور[3] ولقد تكررت هذه المواقف مع الوزراء والرؤساء والحجاب، وتذكر المصادر التاريخية أن هؤلاء كانوا يستمعون لملاحظات عبد القادر لاعتقادهم بصلاحه وصدق أغراضه وكراماته[4]، فلقد حرص عبد القادر على أن يبقى بعيداً عن مواطن الشبهات أو التقرب للحكام، فقد ذكر عنه أنه ما ألمّ بباب حاكم قط وأنه تناولها يده[5].

ج ـ انتقاده للأخلاق الاجتماعية السلبية في عهده: نظر الشيخ عبد القادر إلى المجتمع

---

(1) الفتح الرباني، نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 201.

(2) المصدر نفسه، ص: 201.

(3) مرآة الزمان (8/ 265)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 202.

(4) طبقات الحنابلة (1/ 292).

(5) قلائد الجوهر، ص: 19-30، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 203.

المعاصر له على أنه مجتمع: الرياء والنفاق والظلم، وكثرة الشبهة والحرام. وهذه صفات أحالت كل شيء فيه إلى مظاهر خاوية فيها ولا معنى[1]، يستوي في ذلك المتدينون وغيرهم. يقول في إحدى مواعظه: هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق. قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي، ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار معظم الناس بلا خالق. كلكم موتى القلوب أحياء النفوس والأهوية طالبون للدنيا[2]، وقال في إحدى المواعظ: ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء. أكل فلان، واستغنى فلان، افتقر فلان، كل هذا هوس ومقت وعقوبة، وتوبوا واتركوا ذنوبكم، وارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره[3].

د ـ الدعوة لإنصاف الفقراء والعامة: ركز الشيخ عبد القادر على نصرة الطبقة العامة والفقراء خاصة، فجعل الاهتمام بشؤونهم من شروط الإيمان، وشن حملة شديدة على الولاة الذين يظلمونهم وعلى الأغنياء الذين يخصون أنفسهم دون إخوانهم من الفقراء «بأطيب الأطعمة وأحسن الكسوة وأطيب المنازل وأحسن الوجوه وكثرة الأموال» فأفتى بأن انتسابهم للإسلام دعوى كاذبة وذريعة لحقن دمائهم بالشهادتين[4]. ولقد جعل عدم التفرقة بين الغني والفقير من شروط تقدم المريد في مقامات التزكية، أو نجاة المسلم من عقاب الله[5]. وشدّد في وصيته المشهورة لولده عبد الرزاق على خدمة الفقراء وحسن صحبتهم والتعامل معهم، حسبك من الدنيا شيئان: صحبة فقير، وحرمة ولي. وعليك يا ولدي أن تصحب الأغنياء بالتعزز والفقراء بالتذلل[6]، ولم يقف اهتمام الشيخ عبد القادر بالفقراء عند حد الوعظ، وإنما ترجمه لعمل واقع؛ فكان يفتح بابه للفقراء والغرباء، ويقدم لهم المنام والغذاء، ويحضرون الدرس ويعطيهم ما يحتاجون[7]. كان يرى هذا الأسلوب من أفضل الأعمال، فلقد نقل عنه قوله: فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، ولا أشرف من الخُلُق الحسن، أودُّ لو كانت الدنيا بيدي أطعمها الجائع، كفي مثقوبة لا تضبط شيئاً، لو جاءني ألف دينار لم تَبت عندي[8]. لهذا كله، أقبلت العامة والفقراء على عبد القادر إقبالاً شديداً

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 203.
(2) المصدر نفسه، ص: 203.
(3) المصدر نفسه، ص: 203.
(4) الفتح الرباني، ص: 64 ، 65، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 204.
(5) المصدر نفسه، ص: 52، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 205.
(6) الفيوضات الربانية، ص: 35، 37.
(7) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 205.
(8) المصدر نفسه، ص: 205.

وتحمسوا له[1]. وتاب على يديه أعداد كبيرة من أهل بغداد، فقد روي عنه قوله: وتاب على يدي من العيّارين والمسالحة أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير[2].

3 ـ التصدي للتطرف الشيعي الباطني وللتيارات الفكرية المنحرفة:

تعرض الشيخ عبد القادر الجيلاني لعقائد الفرق الإسلامية المختلفة، ويلاحظ على مناقشته لهذه الفرق أمران: **الأول**: إنه لم يطمس أقوالها عن فرقة السنة التي ينتمي إليها، من ذلك قوله: إن المعتزلة تسمي السنة مجبرة لقولها: إن جميع المخلوقات بمشيئة الله وقدرته وإرادته وخلقه، وأن المرجئة تسميها شكاكية لقول واحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، وكان يذكر أقوال الفرق المختلفة في السنة، ثم يرد عليها ويحذر منها؛ لأن السنة هم الفرقة الراشدة الناجية[3] **والثاني**: أن مناقشته لفرق المعتزلة[4]، والمرجئة والخوارج والقدرية والجهمية، وما انقسموا إليه من فروع تدل على اطلاع واسع على تاريخ هذه الفرق وعقائدها ومقارنتها بعقائد أهل السنة[5]... وناقش عقائد الشيعة ففصل في ذلك تفصيلاً واضحاً مستعرضاً تاريخ الشيعة وفرقهم، ثم ناقش عقائدهم سواء ما يتعلق بالقضايا السياسية والمجتمع، أو القضايا العقائدية الغيبية، وأصدر أحكاماً عليها من حيث الإسلام أو الكفر، وهو في مناقشته لعقائد الشيعة حاول أن يتتبع أصولها فجعل لبعض هذه العقائد جذوراً يهودية من ذلك قوله: قالت اليهود: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من ولد علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال، وينزل بسبب من السماء وقالت الروافض: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وينادي منادٍ من السماء، وتؤخر اليهود صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم وكذلك الروافض يؤخرونها... واليهود يبغضون جبريل عليه السلام ويقولون: هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الروافض يقولون غلط جبريل عليه السلام بالوحي إلى محمد ﷺ وإنما بعث إلى علي رضي الله عنه[6]، وأنكر على الشيعة قولهم بعدم إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان[7]، وبين أن علياً رضي الله عنه بايعهم[8]، وكان الشيعة يقصدون مجالس الشيخ عبد القادر، وكان يناقشهم في عقائدهم[9]، ويظهر الدور الكبير الذي لعبته الحركة القادرية

---

(1) المنتظم (10/ 219).
(2) قلائد الجواهر، ص: 19 للتادفي.
(3) الغنية (1/ 84) نشأة القادرية، ص: 126.
(4) نشأة القادرية، ص: 126.
(5) المصدر نفسه، ص: 127.
(6) المصدر نفسه، ص: 128 الغنية (1/ 79).
(7) المصدر نفسه، ص: 128 الغنية (1/ 68).
(8) المصدر نفسه، ص: 128.
(9) القلائد، ص: 30 للتادفي، نشأة القادرية، ص: 128.

في مقاومة التشيع المتطرف ـ أو التيار الفاطمي ـ الباطني ومساهمتها الفعّالة في تقويض دولة الفاطميين العبيديين في مصر والتمهيد لدخول جيوش نور الدين محمود، كما سيأتي بيانه في محله بإذن الله. وكان دور الشيخ عبد القادر الجيلاني في التصدي للشيعة الرافضة الباطنية كبيراً، ولذلك كان موقف الشيعة الرافضة من الشيخ عبد القادر عنيفاً ومليئاً بالحقد والبغض على المستوى السياسي والفكري، فقد كانت مدرسة عبد القادر وضريحه وآثاره وأسرته أولى الأهداف التي تعرضت للتنكيل في كل مرة يدخل فيها أمراء الشيعة الرافضة إلى بغداد، ففي عام (914هـ/ 1508م) احتل الشاه إسماعيل الصفوي بغداد، فخرب المدرسة ونكل بالأسرة الكيلانية تنكيلاً شديداً وفرقهم في البلاد[1]، حتى إذا فتح السلطان سليمان القانوني العثماني بغداد أعاد للمدرسة هيبتها القديمة وأمر بإصلاحها. . وعمّر الرباط وعين لها أوقافاً كثيرة[2]، ثم توالت الإصلاحات والإضافات من قبل الولاة أمثال الوند زاده علي باشا وسنان[3] باشا، وفي أثناء الاحتلال الإيراني الثاني سنة (1033هـ/ 1623م) قام صفي قولي بهدم مشهد الشيخ عبد القادر وخرّب مدرسته ونكّل بأسرته. وبقي الاحتلال حتى قيام مراد الرابع العثماني بفتح بغداد عام (1048هـ/ 1638م) وقيامه على تعمير المكان[4]. وأما موقف الكتّاب الشيعة الروافض من الشيخ عبد القادر فيمثله مؤرخهم الكبير ومرجعهم في السير الخوانساري لترجمة الشيخ عبد القادر، فقال: وضعته العامة العمياء في أرفع مكان، وفتحوا له في سوق التصنع والمخادعة للعوام دكاناً فوق دكان، بل جعلوا مكمن جسده كصنم من الأصنام العظام، وأن الرجل عدل عن دائرة العدل، وغفل عن قاعدة الشرع إلى ما هنالك من السباب والشتائم، وأنكر كراماته وطعن في نسبه[5].

4 ـ إصلاح التصوف:

أعطى الشيخ عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف، وإعادته إلى مفهوم «الزهد» ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع، ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان:

أ ـ تنقية التصوف مما طرأ عليه: من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية، هدفها الأساسي في غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح. ويمثل كتاباه: «الغنية لطالبي طريق الحق» و«فتح الغيب» خلاصة أفكاره في هذا المجال. ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى

---

(1) نشأة القادرية، ص: 129.
(2) المصدر نفسه، ص: 129.
(3) العراق بين احتلالين للعزاوي (4/ 33، 119).
(4) المصدر نفسه (4/ 234)، نشأة القادرية، ص: 129.
(5) روضات الجنان (5/ 85، 89)، نشأة القادرية، ص: 129.

«كتاب السلوك» وقدّمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث والوعظ وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه[1].

ب ـ الحملة على المتطرفين من الصوفية: حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على من تلبَّسوا بالتصوف أو شوّهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان: بتغيير الخرق، وتصفير الوجوه، وجمع الأكتاف، ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين، وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق ﷻ، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عمّا سوى مولاه ﷻ[2]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة، وقرّر أن المريد الصادق لا يهيِّجه كلامٌ غير كلام الله، وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدعين، وشركاء الشياطين ركاب الأهوية، مطايا النفوس والطباع، أتباع كل ناعق وزاعق[3].

ج ـ محاولة التنسيق بين الفرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها: في الفترة الواقعة بين عامي (546هـ ـ 550هـ/ 1151م ـ 1155م) جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ولتحقيق هذا الهدف عقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة على المستوى التنظيمي والمستوى النظري، وتصدَّر الشيخ عبد القادر الزعامة وكان أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة اجتماع عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني ـ خلال موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر الكيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب[4] ـ في (ذاك العصر) كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم[5]. وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ رسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام[6]. ثم تلا ذلك

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 209.
(2) المصدر نفسه، ص: 209.
(3) المصدر نفسه، ص: 209.
(4) طبقات الحنابلة (1/ 306) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 245.
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 245.
(6) المصدر نفسه، ص: 245.

اجتماع موسع، حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار هامة منها:

ـ وحدة العمل لدى مدارس الإسلام عامة، فقد أصبح للزعيم الشيخ عبد القادر اجتماعات متوالية مع كبار الشيوخ، يناقشون ما تحيله إليهم المدارس والأربطة في العالم الإسلامي من قضايا ومشكلات.

ـ إن المدارس والرباطات المختلفة أخذت ترسل إلى المدرسة القادرية النابهين من طلابها والمتقدمين من مريديها الذين ترى فيهم مؤهلات المشيخة في المستقبل، كما فعل الشيخ أبو مدين المغربي حين أرسل أحد مريديه ـ صالح بن ويرجات الزركالي ـ إلى بغداد حيث أكمل علوم الفقه وسلوك الزهد على يد الشيخ عبد القادر لإكمال سلوك الزهد وعلوم الإرادة[1].

ـ إن إحكام الربط بين تعليم الفقه وسلوك الزهد أدى إلى خفة ـ بل ربما اختفاء ـ معارضة الفقهاء وإلى التعاون بين الطرفين، بل صار الفقهاء يجمعون بين الفقه والزهد ويسمّون ذلك تكامل الشريعة والطريقة. وهذا الأمر جعل ابن تيمية يعتبر عبد القادر وأقرانه من قيادة مدارس الإصلاح نماذج فريدة في الجمع بين الفقه والزهد، فأطلق عليهم اصطلاح «الشيوخ الكبار المتأخرين» ونوّه في فتاويه بمزاياهم وتجردهم، واستقامتهم[2].

ـ الاتفاق على رؤية مشتركة للعمل والتعاون على تحقيق الأهداف المتفق عليها، وتقليل مساحة القضايا المختلف فيها مع وضع الخلاف في إطاره الطبيعي.

ـ خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف، وإسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحرّان وجبال هكار ودمشق، ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين فصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد ورباطاتها، وبَنَيا لها فروعاً جديدة وأوقف عليها الأوقاف في

---

(1) بهجة الأسرار، ص: 107، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 247.
(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 247.

المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعّالة ناجحة[1].

5 ـ النهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يرى الشيخ عبد القادر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضرورة أساسية لبقاء المجتمع وسيادة الخير فيه، فإن تُرك تطرق الفساد إليه. وهو واجب على كل مسلم ولكل حسب مستواه ودوره، فالسلاطين: إنكارهم باليد، والعلماء: إنكارهم باللسان، والعامة: إنكارهم بالقلب[2]، والعلماء: هم الفئة التي تقرر ما هو معروف مباح، وما هو منكر محرم، أما السلاطين والعامة فعملهم تنفيذ ما يقرره العلماء في هذا المجال، وللعلماء الذين يتسنمون هذه المنزلة صفات تحددهم في العلماء السالكين طريق الزهد دون سواهم، هذه الصفات هي:

ـ أن يكون القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عالماً.

ـ أن يكون عالماً بالمنكر الذي ينهى عنه على وجه قطعي، لما في ذلك من خوف الوقوع في الظنون والإثم. فالواجب إنكار ما ظهر وعدم بحث ما ستر؛ لأن الله تعالى نهى عن ذلك[3].

ـ أن يكون قادراً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجه لا يؤدي إلى فساد عظيم وضرر في نفسه وماله وأهله[4].

وحدّد الشيخ عبد القادر لأساليب الأمر بالمعروف شروطاً، وهي كما يلي:

ـ أن يستعمل اللين والتودد، لا الفظاظة والغلظة. وعليه أن يتحلى بالشفقة على الخلق لوقوعهم في مصايد الشيطان.

ـ أن يكون صبوراً متواضعاً زائل الهوى قوي اليقين حكيماً يعرف كيف يعالج الأمور.

ـ أن يأمر العاصي وينهاه في خلوة لِمَا في ذلك من إمكانية قبول النصيحة، فإن لم ينفع استعان عليه بأهل الخير، فإن لم ينفع فبأصحاب السلطان[5].

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 247.
(2) الغنية للجيلاني (1/ 44، 45).
(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 216.
(4) المصدر نفسه، ص: 216.
(5) نشأة القادرية، ص: 168.

ـ عدم الخوض في مسائل الاختلاف أمام من يعتقدونها، فمثلاً في مذهب الحنابلة ينكرون اللعب بالشطرنج بينما يجيزه الشافعية، فالدخول في مثل هذه القضايا يثير تصلب المخالفين من المذاهب الأخرى، ويفتح باباً للجدل والخصومة، فالحكمة هنا واجبة وأدب العالم أولى من علمه[1].

6 ـ مدارس النواحي والأرياف والبوادي:

تعتبر مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد من المدارس المركزية في عاصمة الدولة العباسية في عهد نور الدين زنكي ،ويعتبر الشيخ عبد القادر أحد رواد المدارس الإصلاحية التي أثرت في حركة النهوض ومقاومة الغزاة، إلا أن هناك كانت مدارس متعددة ساهمت في دعم الدولة الزنكية والأيوبية ومن أهمها:

أ ـ المدرسة العدوية: أسس هذه المدرسة الشيخ عدي بن مسافر الذي أدرجه ابن تيمية في قائمة (كبار الشيوخ المتأخرين) وأضاف أنه كان رجلاً صالحاً وله أتباع صالحون[2]، ونشأ عدي في قرية يقال لها: «بيت فار» في منطقة البقاع غربي دمشق، تتلمذ على الشيخ عقيل المنيحي، ثم رحل إلى بغداد حيث صحب الشيخ حماد الدباس وغيره، واجتمع هناك بالشيخ عبد القادر الكيلاني وأبي الوفاء الحلواني، وأبي نجيب السهروردي، ثم ركز على خاصة نفسه، بأنواع المجاهدات والتهذيب زمناً طويلاً، ولذلك كان الشيخ عبد القادر يثني عليه كثيراً ويقول: لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لنالها الشيخ عدي بن مسافر[3].

قضى الشيخ عدي زمناً في مجاهدة «خاصة نفسه» بالتزكية، ثم عاد للمجتمع واستقر في منطقة «جبال هكار» في شمال العراق بين قبائل الأكراد الهكارية، حيث بنى له مدرسة وأقبل عليه سكان تلك النواحي إقبالاً هائلاً، لما رأوه من زهده وصلاحه وإخلاصه في إرشاد الناس[4]، ويصف ابن خلكان أثر الشيخ عدي في مجتمع الأكراد الهكارية فيقول: سار ذكره في الآفاق، وتبعه خلق كثير، وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد[5]، ويذكر الذهبي أن من الآثار التي أحدثها الشيخ عدي بين الأكراد الهكارية انتشار الأمن في تلك المنطقة، وارتداع مفسدي الأكراد وتوبتهم حتى صار لا يخاف أحد في تلك المنطقة الجبلية التي لم تكن آمنة قبل ذلك، وأنه انتفع به خلق كثير وانتشر ذكره.

لقد وصف الحافظ عبد القادر الرهاوي شخصية الشيخ عدي ومكانته فقال: ساح سنين كثيرة وصحب المشايخ، وجاهد أنواعاً من المجاهدات ثم سكن بعض جبال الموصل في

---

(1) نشأة القادرية، ص: 168.
(2) فتاوى ابن تيمية، كتاب التصوف (11/ 103).
(3) النجوم الزاهرة (5/ 362).
(4) وفيات الأعيان (3/ 254)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 225.
(5) المصدر نفسه، ص: 225.

موضع ليس به أنس، ثم آنس الله تلك المواضع به وعمّرها ببركاته، حتى صار لا يخاف أحد بها بعد قطع السبل، وارتدع جماعة من مفسدي الأكراد ببركاته وعمّر حتى انتفع به خلق، وانتشر ذكره، وكان معلماً للخير، ناصحاً متشرعاً، شديداً في الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، عاش قريباً من ثمانين سنة، ما بلغنا أنه باع شيئاً ولا اشترى ولا تلبس بشيء من أمر الدنيا، كانت له غليلة يزرعها بالقدوم من الجبل ويحصدها ويتقوت، وكان يزرع القطن ويكتسي منه، ولا يأكل من مال أحد شيئاً، وكانت له أوقات لا يُرى فيها محافظة على أوراده، وقد طفت معه أياماً في سواد الموصل، فكان يصلي معنا العشاء ثم لا نراه إلى الصبح. ورأيته إذا أقبل إلى قرية يتلقاه أهلها من قبل أن يسمعوا كلامه تائبين رجالهم ونساؤهم إلا من شاء الله منهم، ولقد أتينا معه على دير رهبان فتلقانا منهم راهبان، فكشفا رأسيهما وقبّلا رجليه وقالا: ادع لنا فما نحن إلا في بركاتك، وأخرجا طبقاً فيه خبز وعسل فأكل الجماعة، وخرجت إلى زيارة الشيخ أول مرة، فأخذ يجادلنا ويسأل الجماعة ويؤانسهم. . وكان يواصل الصوم الأيام الكثيرة على ما اشتهر عنه، حتى أن بعض الناس كان يعتقد أنه لا يأكل شيئاً قط، فلما بلغه ذلك أخذ شيئاً وأكله بحضرة الناس، واشتهر عنه الرياضات والسير والكرامات والانتفاع به ما لو كان في القديم لكان أحدوثة. ورأيته قد جاء إلى الموصل فخرج إليه السلطان وأصحاب الولايات والمشايخ والعوام حتى آذوه مما يقبّلون يده، فأُجلس في موضع بينه وبين الناس شباك بحيث لا يصل إليه أحد إلا رؤية، فكانوا يسلمون عليه وينصرفون ثم رجع إلى زاويته[1].

قال عنه الذهبي: الشيخ الإمام الصالح القدوة، زاهد وقته[2]. وقد ظهرت الآثار العلمية والعملية لمدرسة عدي بن مسافر في الدور الكبير الذي لعبه أكراد جبل هكار ـ فيما بعد ـ في جيش صلاح الدين حيث شكّلوا أهم فرقة، واحتل عدد منهم منزلة الأمراء والقادة الذين حققوا الانتصارات وأنجزوا الفتوح[3]. توفي الشيخ عدي بن مسافر في بلدة الهكارية ودفن بها عام 557هـ[4].

ب ـ **مدرسة عثمان بن مرزوق القرشي**: أسس هذه المدرسة الشيخ عثمان في «مصر» وكان يُعتبر من أعيان المشايخ الذين جمعوا بين الشريعة والزهد. كان حنبلي المذهب، وكانت له علاقات مع الشيخ عبد القادر الكيلاني. لقد لعب ـ فيما بعد ـ دوراً هاماً في تمهيد الأجواء لحملات نور الدين على مصر. استمر الشيخ عثمان في عمله بالقاهرة حتى وفاته عام (564هـ) عن عمر يناهز السبعين ودفن بجانب قبر الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5].

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 342، 343).

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 342).

(3) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 256.

(4) قلائد الجواهر، ص: 85، 90.

(5) المصدر نفسه، ص: 113، 114.

ج ـ مدرسة أبو مدين المغربي: اشتهرت هذه المدرسة في «المغرب» وعرفت باسم: الشيخ أبي مدين شعيب بن حسين الأندلسي الذي نشأ في منطقة أشبيلية في الأندلس ودرس فيها على مذهب الإمام مالك بن أنس، ثم سلك طريق الزهد وجال في المغرب واستوطن مدة في مدينة (بجاية) إلى أن استقر به الطواف في مدينة «تلمسان»، وبدأ في الإرشاد والتدريس حيث تخرج على يديه الكثير من شيوخ المغرب وزهادها[1]، ويصف الذهبي الشيخ أبا مدين بأنه كان من أهل العمل والاجتهاد والانقطاع للعبادة والنسك والتربية[2]. كذلك اعتبره ابن تيمية من كبار الشيوخ المتأخرين الذين كانوا على طريقة صالحة ومنهج مستقيم[3]. واستمر أبو مدين مواظباً على التدريس والعبادة حتى وافاه الأجل حوالي عام 590هـ، وكان آخر كلامه: الله الحي، ثم فاضت نفسه[4].

د ـ مدرسة أبو السعود الحَريمي: درس في المدرسة القادرية وتربّى على الشيخ عبد القادر، وصار المشار إليه بعده وصار له القبول التام عند الخاص والعام، وأسس مدرسة خاصة به ونجح نجاحاً قوياً بين جماهير الفقراء وفتح لهم بابه[5].

هـ ـ مدرسة ابن مكارم النعال: تُنسب هذه المدرسة إلى محمود بن عثمان بن مكارم النعال البغدادي الذي كان يُشرف على رباط الوافدين من خارج بغداد والعراق إلى المدرسة القادرية، ثم استقل بعد وفاة عبد القادر، وصار يخرج بأصحابه لينكروا المنكر ويريقوا الخمور ويتعرضوا للأذى في سبيل ذلك[6].

و ـ مدرسة عمر البزاز: تنسب هذه المدرسة إلى عمر بن مسعود البزاز الذي وُصف بأنه من أعيان أصحاب عبد القادر. شاع ذكره وأقبل عليه الأتباع، وتاب على يده خلق كثير من مماليك الخليفة، ويذكر ابن النجار أنه كان يحضر مجالسه[7].

ز ـ مدرسة الجبائي: أسسها عبد الله الجبائي الذي كان في الأصل مسيحياً من قرية «جبة» في جبل لبنان سُبي وهو فتى ثم نُقل إلى دمشق حيث أسلم هناك، فاشتراه علي بن إبراهيم بن نجا أحد أصحاب عبد القادر، فأعتقه ثم أرسله إلى بغداد عام (540هـ/ 1145م) حيث لازم الشيخ عبد القادر، وصحب ابن قدامة في الدراسة، وتدل أخباره أن الشيخ عبد

(1) قلائد الجواهر، ص: 108 ، 109، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 237.
(2) سير أعلام النبلاء (21/ 219، 220).
(3) فتاوى ابن تيمية ، كتاب التصوف (11/ 604).
(4) سير أعلام النبلاء (21/ 220).
(5) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 237.
(6) المصدر نفسه، ص: 237.
(7) نشأة القادرية، ص: 194، 212.

القادر كان يرعاه ويوده. نال الجبائي منزلة عالية في بغداد وظل يعمل مع الشيخ حتى وفاته، فرحل إلى أصبهان حيث درس وأفتى حتى وفاته عام (605هـ/ 1208م) عن أربع وثمانين سنة[1].

ح ـ **مدرسة الشيخ ماجد الكردي**: أسس هذه المدرسة ماجد الكردي في منطقة «قوسان» في العراق، وكان قد اشتهر أمره في تلك المنطقة وقصده المريدون والأتباع من مختلف أرجائها. وكان على علاقة وطيدة بالشيخ عبد القادر الذي كان يجله ويثني عليه، ولقد استمر في عمله حتى وفاته عام 562هـ[2].

ط ـ **مدرسة حياة بن قيس الحراني**: الشيخ القدوة الزاهد العابد، شيخ حرّان، وزاهدها، حياة بن قيس بن رَجَّال بن سلطان الأنصاري الحراني، صاحب أحوال وكرامات وتألُّه وإخلاص وتعفف وانقباض، كان الملوك يزورونه، ويتبرَّكون بلقائه، وكان كلمة وفاق بين أهل بلدهِ. وقيل: إن السلطان نور الدين زاره، فقوَّى عزمه على جهاد الفرنج ودعا له، وإن السلطان صلاح الدين زاره وطلب منه الدعاء[3]. وقد تخرج على يد الشيخ حياة الجُم الغفير من الأتباع والمشايخ الذين استأنفوا منهجه في الدعوة والإصلاح، وانتمى إليه أعداد عظيمة من الناس وأشار إليه العلماء بالاحترام والتقدير. وكان أهل حران وما حوله يجلّونه ويقصدونه بالزيارة وطلب الدعاء للاستسقاء. لقد استمر في عمله حتى وفاته في حران نفسها عام (581هـ)[4].

وقد ذكر الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مدارس أخرى كمدرسة الشيخ رسلان الجعبري، ومدرسة عقيل المنيحي، ومدرسة الشيخ علي بن الهيتي، ومدرسة الحسن بن مسلم، ومدرسة الجوسقي، ومدرسة الشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، ومدرسة مولى الزولي، ومدرسة محمد بن عبد البصري، ومدرسة القيلوي، ومدرسة علي بن وهب الربيعي، ومدرسة الشيخ بقا بن بطو[5]، ومما يكمل الصورة للمدارس التي تناولها البحث في مدارس النواحي والأرياف والبوادي أن نقول: إنها كانت تطبق منهاجاً موحداً في التربية والتدريس يتطابق إلى حد كبير مع التعاليم والمبادئ التي دعا لهما الغزالي والجيلاني، وأنها كانت امتدادات أصغر في الأرياف والجبال والبوادي بحيث يمكن القول: إنها بلغت المئات، لأن الأمر لم يتطلب أكثر من استقرار أحد الخريجين في مسجد من مساجد الريف مثلاً، أو الإقامة في رباط أو زاوية وتكريس الوقت للتدريس وسلوك الزهد[6].

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة (2/ 45، 47).
(2) قلائد الجوهر، ص: 107.
(3) سير أعلام النبلاء (21/ 181، 182).
(4) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 230.
(5) المصدر نفسه، ص: 224، 238.
(6) المصدر نفسه، ص: 238.

7 ـ التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية:

تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل لمواجهة الخطر الصليبي في البلاد الشامية[1]. وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصرة الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدو مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي:

أ ـ الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي: قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة. ولقد كان هؤلاء الطلاب يُعرفون: «باسم المقادسة» نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس. وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد من ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول: إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمران: **الأول**: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين. **والثاني**: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولا بد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة[2]، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية[3]، وكانت المدرسة القادرية والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا طريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية، ويذكر سبط ابن الجوزي في كتابه: «مرآة الزمان» أن والد موفق الدين بن قدامة حين نزح من بلاده إلى دمشق كان يقوم بنشاط دائب لحشد الطاقات في مواجهة الاحتلال الصليبي، وأن داره في دمشق كانت ملتقى القيادات الفكرية والسياسية، وأن نور الدين زنكي نفسه كان يداوم على حضور هذه اللقاءات[4].

---

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 275.
(2) المصدر نفسه، ص: 187.
(3) الشيخ عبد القادر الجيلاني الإمام الزاهد القدوة، ص: 275.
(4) مرآة الزمان (8/ 313، 314).

ب ـ هجرة العلماء والعمل في المدارس النورية: تداعى العلماء وخريجو المدارس الإصلاحية من كل قطر للعمل في المدارس التي أنشأها نور الدين وصلاح الدين. ومن ذلك ما قام به خريجو المدرسة القادرية حيث كان على رأس المهاجرين إلى هناك موسى بن الشيخ عبد القادر الذي قدم إلى دمشق واشتغل بالتدريس حتى وفاته عام (618هـ/ 1221م)[1]. كذلك بنى نور الدين مدرسة في حرّان وأسلمها إلى أسعد بن المنجا بن بركات المتوفى سنة (606هـ/ 1209م) والذي درس على الشيخ عبد القادر ثم عاد إلى الشام، كذلك أسند نور الدين إليه التدريس في المدرسة المسمارية، وأسند إليه القضاء[2]، ولقد استمرت ذريته تتناوب التدريس في مدرسته فيما بعد[3]، كذلك بنى نور الدين مدرسة أخرى في حرّان أسلمها إلى حامد بن محمود المتوفى عام (570هـ/ 1174م) الذي لازم الشيخ عبد القادر ودرس عليه، وكان نور الدين يقبل عليه وله فيه حسن ظن[4].

ج ـ المشاركة في الجيش والجهاد العسكري: وأبرز المدارس التي رفدت هذا الميدان هي المدرسة العدوية وفروعها، التي أسسها الشيخ عدي بن مسافر في جبال هكار، فقد شكل خريجو هذه المدارس من الأكراد الهكارية والروادية جمهرة أمراء الجيش وقادة الفتح وجنوده، ويأتي على رأس هذه الجماعات أسرة صلاح الدين الأيوبي، وهي من الأكراد الروادية، وأصلهم من بلدة «دوين» من أعمال أذربيجان والروادية قبيلة كبيرة. ولقد وُلد أيوب والد صلاح الدين في البلدة المذكورة، ومنها خرج والده شاذي مع ولديه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت حيث مات الوالد شاذي، وولد الحفيد صلاح الدين، ثم لم يلبث الأخوان أن رحلا والتحقا بخدمة عماد الدين زنكي[5]، وأما الأكراد الهكارية فقد شكّلوا فيما بعد أمراء جيش صلاح الدين وقادته، ومن أشهرهم الأمير سيف الدين المشطوب الهكاري الذي لم يكن في أمراء الدولة أحد يضاهيه في المنزلة، وكانوا يسمونه الأمير الكبير، توفي في القدس عام (588هـ)، وقد وصف القاضي الفاضل موته بأنه: تهدم به بنيان قوم، والدهر قاض ما عليه لوم[6]، ويأتي تفصيل ذلك عند حديثنا عن الدولة الأيوبية بإذن الله تعالى.

---

(1) شذرات الذهب (5/ 199)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 276.

(2) العبر(5/ 17)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 277.

(3) الدارس في أخبار المدارس (2/ 115).

(4) طبقات الحنابلة نقلاً عن هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 277.

(5) وفيات الأعيان (7/ 139، 143).

(6) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 279.

د ـ **المشاركة في ميادين السياسة**: اشتغل نفرٌ من تلاميذ المدرسة القادرية مع نور الدين ثم صلاح الدين في السياسة، ولعب بعضهم أدواراً في غاية الخطورة، ومن الأمثلة على ذلك: أسعد بن المنجا بن بركات، فقد أشار ابن رجب بالإضافة إلى عمله في التدريس والقضاء أنه كان له اتصال بالملوك وخدمة السلاطين[1]، وكذلك علي بن برداون بن زيد الكندي الذي حظي عند السلطان نور الدين[2]، ويشابههما حامد بن محمود الحراني الذي صحب عبد القادر ودرس عليه، وعندما انتهى من الدراسة ذهب إلى دمشق حيث اتصل بنور الدين فولّاه التدريس والقضاء والمظالم في حران، ويذكر ابن رجب أنه رحل إلى بغداد ونزل بمدرسة الشيخ عبد القادر، وجاء إلى دمشق في حوائج إلى نور الدين[3]، وكذلك زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي وصف لقاءه بالشيخ عبد القادر فقال: فاشتغلت عليه بالعلم، ففتح الله ﷻ عَلَيَّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد[4]، ولقد قُدّر لابن نجا هذا أن يكون من رجال صلاح الدين ومستشاريه، وقد أرسله الشيخ عبد القادر الجيلاني للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السنية بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية في مصر، وقد قام ابن نجا بدور خطير وهام في زحف جيش نور الدين إلى مصر انتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام، فلو تتبعنا مسيرة ابن نجا هذا بعد أن استأذن عبد القادر بالرحيل إلى مصر لوجدناه يتوجه إلى دمشق، ويستقر بها مدة ليست قصيرة حيث اشتغل بالوعظ والتدريس، ثم وفد إلى بغداد عام 564هـ/ 1168م رسولاً لنور الدين حيث خلع عليه الخليفة، وبعد ذلك مباشرة يدخل مصر ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكّام الدولة الفاطمية[5]، ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر، وسأله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر. فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لابد وأن تفشل فجرى الأمر كما ذكر[6].

وكان الشيخ عثمان يرى أن يسبق غزو شيركوه لمصر مزيد من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله، بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه، وأما عن خطوة بن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط

(1) طبقات الحنابلة (2/ 49)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 279.
(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 280.
(3) المصدر نفسه، ص: 280.
(4) قلائد الجواهر، ص: 33.
(5) مرآة الزمان (8/ 515)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 281.
(6) طبقات الحنابلة (1/ 308)، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 281.

الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة الفكرية التي كان يقودها أمثال الشيخ عثمان بن مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية[1]، وتبدو أهمية الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام (569هـ/ 1173م)، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله عن بيان فقه نور الدين زنكي في إسقاط الدولة الفاطمية.

8 ـ صفاته ووفاته:

وصف موفق الدين ابن قدامة المقدسي الشيخ عبد القادر فقال: كان الشيخ عبد القادر نحيف البدن ربع القامة عريض الصدر، عريض اللحية وطويلها، أسمر مقرون الحاجبين أدعج العينين، ذا صوت جهوري وسمت وقدر[2]، وكان وافر النشاط دائم الحركة يرى في الشتاء وكأنه في الصيف يتصبب العرق من جسده[3]، وكان يلبس هيئة مخصوصة ويتطليس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديه[4]. وقد أطنب المؤرخون الذين ترجموا لعبد القادر في وصف أخلاقه، فذكروا أن سكوته كان أكثر من كلامه، فإذا تكلم كان كلامه على الخواطر، وكان دائم البشر شديد الحياء، لين الجانب، وكانت له عناية بالفقراء والمساكين، فقد كان يجالس الفقراء ويغلي لهم ثيابهم، ويقف مع الصغير، ولكنه يحرص على أن لا يقوم لأحد من العظماء وأعيان الدولة، وكان لا يرد سائلاً، وكان يكرم جليسه بحيث لا يظن أن أحداً أكرم عليه منه، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم ويحفظ ودهم ويعفو عن سيئاتهم ويُصدق مَن حلف له، ويخفي علمه فيه، وكان يأمر كل ليلة بمد السماط، ويأكل مع الأضياف والفقراء، وكان إذا أهديت له هدية فرقها أو بعضها على مَن حضر، ويكافىء عليها مهديها[5]، مع أنه لم يكن يخرج من مدرسته إلا للمسجد أو الرباط فقد كان سريع الذهاب لمشاركة الناس أحزانهم، فلو راجعنا ما كتبه ابن الجوزي، وابن رجب، وسبط ابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، وابن العماد الحنبلي لوجدنا الكثير من المتوفين المشهورين من العلماء وأرباب الخير يقال عن واحدهم: صلى عليه الشيخ عبد القادر[6]، وكان كثير الإقبال على الطاعة والخضوع إلى الله وكان كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة[7]، وكان له حنطة مرباة من الحلال بيد بعض أصحابه من الرستاق يزرعها له كل سنة، وكان بعض أصحابه يطحنها ويخبز له منها ويكون غذاؤه[8] منها، وكان لا يمس الذهب بيده فإذا جاء أحد بذهب

(1) هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: 282.
(2) مرآة الجنان، لليافعي (3/ 352).
(3) طبقات الحنابلة (1/ 299).
(4) عوارف المعارف، ص: 356، نشأة القادرية، ص: 131.
(5) نشأة القادرية، ص: 132.
(6) المنتظم (10/ 85، 122)، نشأة القادرية، ص: 132.
(7) طبقات الحنابلة (1/ 292)، نشأة القادرية، ص: 133.
(8) نشأة القادرية، ص: 133.

قال له: ضعه تحت السجادة، فإذا جاء خادمه قال له: ما تحت السجادة أعطه الخباز والبقال[1].

وفاته:

أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبد القادر الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد توفي عام 561هـ[2]، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة[3]، وقيل: إنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط[4]. وقد سأله ابنه عن مرضه فقال له: لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلّب في علم الله ﷻ، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهو مع الله ﷻ، وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت. وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: «استعنت بلا إله إلا الله سبحان مَن تعزّز بالقدرة، وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وقد تعذر عليه التلفظ بكلمة: تعزز فظل يرددها حتى تلفظ بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه، ثم خرجت روحه الكريمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[5]. وقبل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب الوصية، فقال له: عليك بتقوى الله ﷻ وطاعته ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترج أحداً سوى الله، وَكِلِ الحوائج كلها إلى الله ﷻ، واطلبها جميعها منه، ولا تثق بأحد سوى الله ﷻ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، وعليك بالتوحيد، التوحيد، جماع الكل التوحيد. ثم قال: مرّوا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير، والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ[6]. وقد تمّ دفنه ليلاً في مدرسته، ولم يتمكن أهله وأصحابه من دفنه في النهار من كثرة الزحام، إذ خرج أهل بغداد وامتلأت الحلبة والأسواق والدروب، وقد ولد له تسع وأربعون ولداً، سبعة وعشرون ذكراً، والباقي إناثاً وتزوج أربع زوجات، وفيما يتعلق بزواجه قال الشيخ عبد القادر: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا أتجرأ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله ساق الله

---

(1) بهجة الأبرار، ص: 104 نشأة القادرية، ص: 133.

(2) الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: 265 للكيلاني.

(3) نشأة القادرية، ص: 133

(4) الشيخ عبد القادر الجيلاني لعبد الرزاق الكيلاني، ص: 265.

(5) المصدر نفسه، ص: 266.

(6) الفتح الرباني، ص: 373، فتوح الغيب، ص: 130.

تعالى إليّ أربع زوجات، ما منهن إلّا من تنفق عليّ إرادة ورغبة[1]. ومن أقواله: الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربّك[2]، وقال عنه الذهبي: ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة[3].

وقال عنه ابن كثير: وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً وقد صنّف كتاب «الغنية» «وفتوح الغيب» وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار، قدّس الله روحه ونوّر ضريحه[4].

---

(1) قلائد الجواهر، ص: 41، أي أنهن بنات أغنياء أو يعرفن صنعة.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 450).

(3) المصدر نفسه (2/ 450).

(4) البداية والنهاية (16/ 420).

الفصل الثالث

سياسة نور الدين الخارجية

المبحث الأول
علاقته مع الخلافة العباسية

عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر الله سنة (530هـ ـ 555هـ/ 1136 ـ1160م)، والمستنجد بالله سنة (555 ـ 566هـ/ 1160 ـ 1170م) والمستضيء بالله سنة (566 ـ 575هـ/ 1171 ـ 1180م) إذ اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك، كافة البقاع الإسلامية الأخرى[1]، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين يحيى بن هبيرة، وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض، فقد ساهمت مؤسسة الخلافة في المقاومة للغزو الصليبي متمثلاً ذلك في دعم نور الدين في أرض الثغور ببلاد الشام دينياً واقتصادياً وسياسياً. . إلخ متوازياً ذلك الدعم مع الضخ الكبير لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات وجماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها، وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض، عديدة منها: روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله ساهمت في تقوية المقاومة للصليبيين، وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة وتحقيق التوازن العسكري ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون والعسكريون والعلماء الربانيون.

أولاً: الخليفة المقتفي لأمر الله: هو:

أمير المؤمنين، أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله عبد الله

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 58.

ابن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله بن القادر بالله أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر، الهاشمي العباسي البغدادي الحبشيُ الأم، وقد بويع بالخلافة في سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمس مئة[1].

كان المقتفي عاقلاً لبيباً، عاملاً مهيباً، صارماً، جواداً، محباً للحديث والعلم، مكرماً لأهله، وكان حميد السيرة، يرجع إلى تدين وحسن سياسة، جدّد معالم الخلافة، وباشر المهمات بنفسه، وغزا في جيوشه[2]، وأقام حشمة الخلافة وقطع عنها أطماع السلاطين السلجوقيين وغيرهم، وكان من السلاطين خلافته صاحب خراسان سنجر بن ملكشاه، والملك نورالدين صاحب الشام، وأبوه قسيم الدولة[3]. ولقب: بالمقتفي؛ لأنّه يقال: إنه رأى النبي ﷺ وهو في المنام وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك فاقتف بي، فصار إليه بعد ستة أيام فُلقِّبَ بذلك لذلك[4].

1 ـ سياسته الحكيمة:

لم يكن الخليفة المقتفي لأمر الله أكثر حظاً من سلفه من حيث معاملة السلاجقة له إلا أنه كان دون شك أكثر قابلية ودهاء من الخليفة الراشد بالله، لقد حاول الخليفة المقتفي لأمر الله سياسة اقتناص الفرص من أجل تأكيد سلطة الخلافة، والقضاء على النفوذ السلجوقي، كما أنه لم يذعن لطلبات السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه بن أرسلان، وقال له عندما أرسل وزيره يطلب منه مائة ألف دينار: ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أن المسترشد سار إليك بأمواله فجرى ما جرى، وإن الراشد ولي ففعل ما فعل ورحل وأخذ ما تبقى ولم يبق إلا الأثاث فأخذته كله! وتصرفت في دار الضرب، وأخذت التركات والجوالي، فمن أي وجه نقيم لك هذا المال؟ وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونُسلمها فإني عاهدت الله لا آخذ من المسلمين حبة ظلماً، فترك السلطان الأخذ من الخليفة، وعندما نشب الخلاف بين أمراء السلاجقة استغله الخليفة لصالحه، واستطاع أن يحصل على موافقة السلطان مسعود السلجوقي بإنشاء جيش في بغداد تابع للخلافة مباشرة، وكان ذلك إنجازاً كبيراً للخليفة المقتفي، ثم جاءت وفاة السلطان السلجوقي مسعود سنة 547هـ فارتفعت معنويات أهل العراق وأطلقت يد الخليفة لكي يثبت مركزه ويوسع دائرة نفوذه الذي امتد ليشمل الحلة والكوفة وواسط والبصرة ثم تكريت، وتفرغ الخليفة لأحوال العراق الداخلية، فأصلح سور بغداد، ورمم مواضعها الدفاعية، واسترد الإقطاعات السلجوقية، وخرج بنفسه يُقاتل مَن عاداه،

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 398).
(2) المصدر نفسه (20/ 400).
(3) المصدر نفسه (20/ 401).
(4) البداية والنهاية (16/ 310).

يساعده في ذلك وزيره المعروف: عون الدين بن هبيرة[1]، فنجح الخليفة الذي دام حكمه 24 سنة في إزالة الكثير من النفوذ السلجوقي في العراق، وعمل على تقوية الجيش، وحفظ الأمن والاستقرار، وأصبح هو الذي يختار من يشاء من الأمراء للسلطة[2]، ويقول ابن الأثير أن الخليفة المقتفي أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن (زمن القائل) وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه[3].

ومن هنا يتضح أن الخليفة أصبحت بيده السلطة الحقيقية وأن الخلافة علت مكانتها وهيبتها، وزاد احترام الأمراء وولاة الأقاليم لها[4] ومن أراد التوسع في جهود المقتفي لإنهاء التسلط السلجوقي واقتلاعه من العراق وإرجاع الهيبة والقوة والسطوة لمؤسسة الخليفة، فليراجع كتاب الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية للأستاذ محمد حسون الجبوري[5].

2 ـ وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله:

قال ابن كثير في أحداث سنة 555هـ: فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأمه نسيم، المدعوة: ستّ السادة، سمراء من خيار الجواري؛ مرض بالتراقي، وقيل: بدُمَّل خرج من حَلْقِه. فمات ليلة الأحد ثاني ربيع الأوّل من هذه السنة عن سِتّ وستين سنة إلا ثمانية وعشرين يوماً، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ودفن بدار الخلافة ثم نقل إلى التراب، وقد كان شجاعاً مقداماً، يباشر الحروب بنفسه، وشاهد الحروب ويبذل الأموال الكثيرة لأصحابه الأخيار، وهو أوّلُ من استبدّ بالعراق منفرداً عن السلاطين، من أوّل أيام الديلم إلى أيامه، وتمكن من الخلافة وحكم على العسكر والأمراء[6].

ثانياً: الوزير يحيى بن هبيرة:

الوزير الكامل، الإمام العالم العادل عون الدين، يمين الخلافة، أبو المُظفَّر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد بن الحسن بن جهم، الشيباني الدوريُّ العراقي الحنبلي صاحب التصانيف. ولد عام 499هـ ودخل بغداد في صباه، وطلب العلم، وجالس الفقهاء، وتفقه بأبي

---

(1) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، ص: 14، نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن سياسة الخليفة الناصر لدين الله، ص: 14.
(3) المصدر نفسه، ص: 14.
(4) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، ص: 14.
(5) الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية، محمد الجبوري، ص: 17 إلى 31.
(6) البداية والنهاية (16/ 393).

الحسين بن القاضي أبي يعلى والأدباء، وسمع الحديث، وتلا بالسَّبع وشارك في علوم الإسلام ومهر في اللغة، وكان يعرف المذهب والعربيّة والعروض، سلفياً أثرياً، ثم أمضّه الفقر، فتعرض للكتابة، وتقدّم وترقّى، وصار على مشارف الخزانة، ثم ولي ديوان الزّمام للمقتفي لأمر الله ثم وزر له في سنة (544هـ)، واستمر، ووزر من بعده لابنه المستنجد[1]، وكان ديناً خيّراً متعبداً عاقلاً وقوراً متواضعاً، جزيل الرأي بارًا بالعلماء، مكباً مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير الشأن، حسنة الزمان[2].

1 ـ سعيه لتقوية مؤسسة الخلافة:

كان مبالغاً في تحصيل التعظيم للدولة، قامعاً للمخالفين بأنواع الحيل، وحسم أمور السلاطين السَّلجوقيين[3]. وقد أورد المؤرخون عدة أسباب لتولي ابن هبيرة الوزارة منها: أن الخليفة المقتفي لأمر الله كان معجباً بكفايته وشهامته وإخلاصه في أداء عمله[4]، ومنها أن الخليفة أمر ابن هبيرة ـ وكان يتولى ديوان الزمام ـ أن يكتب للسلطان السلجوقي مسعود شكوى في شحنكة بغداد الذي لم يكن على وفاق مع الخليفة، فكتب ابن هبيرة رسالة طويلة للسلطان السلجوقي ذكر فيها ما عرف عن سلاطين السلاجقة من حسن الطاعة، والتأدب مع الخلفاء، والحرص على الذب عنهم ممن يحاول النيل منهم، وأشار إلى شكوى الخليفة المقتفي لأمر الله بألا يؤدي أي مبلغ من المال لمحمد شاه بن السلطان محمود، مقابل رفع حصاره عن بغداد، لأن هذا سيكون حافزاً للسلاجقة للمطالبة بالمزيد، وأشار بصرف المبلغ المطلوب، وقدره ثلاثين ألف دينار، في إعداد جيش للخلافة من الترك والأكراد وأهل بغداد وأعمال العراق لصد قوات محمد شاه، فقبل الخليفة رأي ابن هبيرة وفوضه في إعداد هذا الجيش، فلم تمض أيام قليلة حتى اجتمع عسكر كثير، فخرج به ابن هبيرة لقتال محمد شاه وأصحابه، فهزمهم، فلما أيقن الخليفة بحسن رأي ابن هبيرة استدعاه وولاه الوزارة سنة (544هـ/ 1149م)[5].

قال ابن الجوزي: كان يجتهد في اتباع الصواب، ويحذر من الظلم ولا يلبس الحرير، قال لي: لما رجعت من الحِلَّة، دخلت على المقتفي، فقال لي: ادخل هذا البيت، وغيّر ثيابك، فدخلت فإذا خادم وفرّاش معهم خلع الحرير، فقلت، والله ما ألبَسُها. فخرج الخادم، فأخبر الخليفة، فسمعت صوته يقول: قد والله قلتُ: إنه ما يلبسه. وكان المقتفي

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 426).
(2) المصدر نفسه (20/ 427).
(3) المصدر نفسه (20/ 428).
(4) ذيل طبقة الحنابلة (2/ 253)، نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص: 160.
(5) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص: 161.

معجباً به[1]، وقام هذا الوزير بدور كبير في تخليص الخلافة العباسية من النفوذ السلجوقي واستعادة سلطة الخلفاء العباسيين في الدولة، وقد استطاع بمساعدة الجيش الذي أعده تخليص العراق وجميع أعماله من سيطرة السلاجقة[2].

2 ـ خوفه من ظلم العباد:

وسأل الوزير ابن هبيرة يوماً الشريف مجد الدين أحمد بن علي الحسيني نقيب نقباء الطالبيين عرض رقعة له على الخليفة، وأن لايهملها، وأن يراجعه فيها فقال: والله ما أهملت لأحد قط رقعة ولا حاجة حضرني ذكرها مُنذ وقفت على ما رواه أبو علي مسكويه أنه رفعت رقعة عن بعض المتظلمين إلى أبي الفضل بن العميد، فوعد رافعها بالنظر في ظلامته فمطله، ثم عاوده، فمطله ثم عاوده فَسوَّفَه، فقال له المتظلم: هذا كلام مَن لا يعرف دبيب الساعات في انخرام الدول، فارتاع أبو الفضل بن العميد لذلك واتعظ به ولان قلبه، وقال: لله درك كيف قلت؟ فأعاد عليه القول، فوقع له بما أراد وآلى أن يرفع ظلامات المتظلمين، وقال: لله درك يا فلان فما نصح لي غيرك، وإنما مثلنا فيما نحن فيه من الأمور السلطانية وما عمر فيها من أهوالها الملهية التي رانت على قلوبنا وأشغلتنا عن حظوظنا مثل مريض ملكته العلة وقسمت قلبه ومنعته عن النظر لنفسه، فيحتاج إلى طبيب حاذق يعنف في موضع العنف ويرفق في موضع الرفق، فقد قالت الحكماء والأطباء: إذا رأيت صاحب الخواطر والهموم وقد استفرغه الهواجس، فَصِحْ به صيحة تزعجه وتلهيه عما اجتمع له من المواد السوداوية[3] وقال: العجب ممن ينظر قبل أن يفعل في النجوم، ويحك انظر وما ترومه فإن كان طلب دنيا فهو فانٍ، وإن كان طلب آخرة فهو باقٍ، وإن كان حسنة فثمرتها السلامة، وإن كان سيئة فثمرتها الندامة[4]. وقال: شدة الغضب إنما تكون لقوة ذكاء الحواس لأن الذكي يدرك الأسباب الموجبة للغضب بسرعة، فيحتاج إلى زيادة قهر لنفسه في الغضب، وعدم الغضب على الإطلاق عيب؛ لأن الإنسان يجب أن يغضب لله ﷻ[5]. قال عنه ابن كثير: كان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة وأبعدهم عن الظلم، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد[6]، وقال عنه ابن العماد: وكان شامة بين الوزراء لعدله ودينه، وتواضعه ومعرفته[7]، وقال عنه ابن الأثير: كان حنبلي المذهب، ديِّناً خيراً، عالماً، يسمع حديث النبي ﷺ، وله في التصانيف الحسنة وكان ذا رأي سديد[8].

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 427).
(2) نظام الوزارة في الدولة العباسية، ص: 161.
(3) أخبار الدول المنقطعة، ص: 359.
(4) المصدر نفسه، ص: 359.
(5) المصدر نفسه، ص: 359.
(6) المصدر نفسه، ص: 359.
(7) شذرات الذهب (4/ 191).
(8) الكامل في التاريخ، نقلاً عن جهود علماء السلف، ص: 638.

3 ـ جهوده في خدمة العلم والعلماء:

قام الوزير ابن هبيرة بعمارة مدرسة بناها بباب البصرة تكاملت في سنة 557هـ وأقام فيها الفقهاء ورتب لهم الجراية، وكان مدرّسهم أبو الحسن البراندسي[1]، وكان يكثر مجالسة العلماء والفقراء ويبذل لهم الأموال فكانت السنة تدور وعليه ديون، وقال: وما وجبت عليَّ زكاة قط، وكان إذا استفاد شيئاً من العلم، قال: أفادنيه فُلان فكان ينسب العلم لأهله، وهذا من بركة العلم ومن الأمانة العلمية. قال ابن الجوزي: وقد أفدته معنى حديث، فكان يقول: أفادنيه ابن الجوزي، فكنت أستحي، وجعل لي مجلساً في داره كل جمعة، ويأذن للعامة في الحضور، وكان بعض الفقراء يقرأ عنده كثيراً، فأعجبه، وقال لزوجته: أريد أن أزوّجه بابنتي، فغضبت الأمُ. وكان يُقرأ عنده الحديث كل يوم بعد العصر، فحضر فقيه مالكي، فذكرت مسألة فخالف فيها الجمع، وأصرَّ، فقال الوزير: أحمار أنت أما ترى الكُلَّ يخالفونك؟ فلما كان من الغد، قال للجماعة: إنه جرى مني بالأمس في حق هذا الرجل ما لا يليق، فليقُل لي كما قلت له، فما أنا إلا كأحِدكم فضجّ المجلس بالبكاء، واعتذر الفقيه، قال: أنا أولى بالاعتذار، وجعل يقول: القِصاصَ القِصاصَ فلم يزل حتى قال يوسف الدِّمشقي: إذ أبى القصاص فالفداء، فقال الوزير: له حكمه. فقال الفقيه: نِعمك عليَّ كثيرة، فأي حكم بقي لي؟ قال: لابُدَّ. قال: عليَّ دين مئة دينار. فأعطاه مئتي دينار، وقال: مئة لإبراء ذِمَّتِه، ومئة لإبراء ذمَّتي[2].

قال ابن الجوزي: كان الوزير يتأسّفُ على ما مضى، ويندم على ما دخل فيه، ولقد قال لي: كان عندنا بالقرية مسجدٌ فيه نخلة تحمل ألف رطل، فحدثتُ نفسي أن أقيم في ذلك المسجد، وقلت لأخي مجد الدين: أقعُدُ أنا وأنت وحاصلها يكفينا، ثم انظر إلى ما صِرتُ[3]، وكانت لابن هبيرة جهود علمية ومن أشهرها: تأليفه كتاب الإفصاح عن معاني الصحاح شرح فيه صحيحي البخاري ومسلم، ومن شروحه الجميلة في هذا التصنيف شرحه للحديث القدسي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»**[4]. فقد قال في قوله: **«ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته»**؛ لأن

---

(1) جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري ص117.

(2) سير أعلام النبلاء (20/ 429).

(3) المصدر نفسه (20/ 429).

(4) البخاري، كتاب الرقائق، باب: التواضع (7/ 190).

التقرب بالنوافل يكون تلو أداء الفرائض، بدليل أنها ذكرت بعد ذكر الفرائض، يعني إذا أدام العبد التقرب بالنوافل أفضى ذلك إلى أن يحبه الله. ثم قال سبحانه: «فإذا أحببته كنت سمعه» وهذا لا أراه إلا أنه علامة، وأنه لمن يكون الله قد أحبه أن يكون هو سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وتصوير ذلك أنه لا يسمع ما لم يأذن الشرع في سماعه، ولا يبصر ما لم يأذن الشرع في إبصاره، ولا يمد يداً إلى ما لم يأذن الشرع له في مدها إليه، ولا يسعى برجل إلا فيما أذن الشرع له في السعي بها إليه، فهذا هو الأصل، إلا أنه قد يغلب على عبد ذكر الله حتى يعرف بذلك، فإذ خوطب بغيره لم يكد يسمع لمن خاطبه حتى يتقرب إليه بذكر الله، غير أهل ذكر الله؛ توصلاً إلى أن يسمع لهم، وكذلك المبصرات والمتناولات والسعي إليها وتلك طبقة عالية نسأل الله أن يجعلنا من أهلها[1].

4 ـ تواصله مع نور الدين زنكي:

كان ابن هبيرة مهتماً بدعم نور الدين في جهوده ضد الصليبيين، وكان يتابع عن كثب المشروع النوري لفتح مصر، وقد حكى ابن المارستانية في سيرة ابن هبيرة الوزير قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين: أنه رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمس مئة كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُّ أدنى نسيم فيحرِّكُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النّاس بإمامهم. قال الرجل: قد استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًا تقيًا، واستيقظ الرّجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يُسْتبدل به، وتكون لبني العباس لمكان اللّحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدِّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده[2].

5 ـ وفاته وهو ساجد:

كان ابن هبيرة يسأل الله الشهادة ويتعرض لأسبابها، وفي ليلة ثالث عشرة جُمادى الأولى سنة ستين وخمس مئة استيقظ وقت السَّحَر، فقاء، فحضر طبيبُهُ ابن رشادة، فسقاه شيئاً، فيقال: إنه سمّه فمات، وسُقي الطبيب بعده بنصف سنة سُمًّا، فكان يقول: سَقَيْتُ

---

(1) الإفصاح عن معاني الصحاح (7/ 303، 304). (2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 201).

فسُقيت[1]. قال ابن الجوزي: . . ورأيتُ أنا وقت الفجر كأني في دار الوزير وهو جالس، فدخل رجل بيده حربة، فضربه بها، فخرج الدم كالفوّارة، فالتفتُّ فإذا خاتم ذهب، فأخذته، وقلت: لمن أُعطيه؟ أنتظر خادماً يخرج فأسلِّمهُ إليه، فانتبهت فأخبرت مَن كان معي، فما استتممت الحديث حتى جاء رجل، فقال الرجل: هذا محال، أنا فارقته في عافية أمس العصر، فنفَّذوا إليّ، وقال لي ولده: لا بد أن تغسله فغسلته، ورفعت يده ليدخل الماء في مغابنه، فسقط الخاتم من يده حيث رأيت ذلك الخاتم، ورأيت آثاراً بجسده ووجهه تدلُّ على أنه مسموم، وحُملت جنازته إلى جامع القصر، وخرج معه جمع لم نره لمخلوق قط وكثر البكاء عليه لما كان يفعله من البرّ والعدل، ورثته الشعراء[2]. وذكر أبو شامة بأنه توفي وهو ساجد في صلاة الصبح[3]. وقال عنه: وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب[4]. وقال ابن كثير في أحداث سنة إحدى وستين وخمسمائة: وفيها أظهر الرّوافض سبَّ الصحابة وتظاهروا بأشياء منكرة ولم يكونوا يتمكّنون منها في هذه الأعصار المتقدِّمة؛ خوفاً من ابنِ هبيرة[5]. رحم الله ابن هبيرة وَكَثَّر الله من أمثاله في عصرنا. . . آمين.

ثالثاً: الخليفة المستنجد بالله:

الخليفة أبو المظفَّر يوسف ابن المقتفي لأمر الله محمد ابن المستظهر ابن المقتدي العباسي، عقد له أبوه بولاية العهد في سنة سبع وأربعين، وعمره يومئذ تسع وعشرون سنة[6]. ولما توفي أبوه بويع له في صبيحة يوم الأحد ثاني ربيع الأوّل من سنة خمس وخمسين وخمسمائة، بايعه أشراف بني العباس، ثم الوزير والقضاة والعلماء والأمراء وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة، وكان رجلاً صالحاً، وكان ولي عهد أبيه مدة متطاولة ثم عُمل عزاء أبيه، ولمَّا خطب له يوم الجمعة نُثرت الدّراهم والدنانير على الناس، وفرح المسلمون به بعد أبيه، وأقرَّ الوزير ابن هبيرة على منصبه ووعده بذلك إلى الممات، وعزل قاضي القضاة ابن الدامغانيَّ وولّى مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي[7]، قال ابن النجار: حكى ابن صفية: أنَّ المقتفي رأى ابنه يوسف في الحرّ، فقال: أيش في فمك، قال: خاتم يَزْدَن عليه أسماء

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 429).

(2) المصدر نفسه (20/ 430)، المنتظم (1/ 217).

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 440).

(4) المصدر نفسه (1/ 441).

(5) البداية والنهاية (16/ 418).

(6) سير أعلام النبلاء (20/ 412).

(7) البداية والنهاية (16/ 394).

الاثني عشر، وذلك يسكّن العطش. قال: ويلك يريد يَزْدَن أن يصيرك رافضياً، سيد الاثني عشر الحسين ﷺ، ومات عطشان.

ومن شعر المستنجد قوله:

عيّرتني بالشيب وهو وَقار ... ليتها عيّرتني بما هو عار

إن تكن شابت الذُّوائب مني ... فالليالي تزينها الأقمار[1]

وقال ابن الجوزي: حدثني الوزير ابن هبيرة، حدثني المستنجد، قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم مُنذ خمس عشرة سنة، فقال لي: «**يبقى أخوك في الخلافة خمساً وعشرين سنة**»، فكان كما قال، فرأيته قبل أبي بأربعة أشهر، فدخل بي من باب كبير، ثم ارتفعنا إلى رأس جبل، وصلى بي ركعتين، وألبسني قميصاً، ثم قال لي: قل اللهمّ اهدني فيمن هديت[2]، وقال ابن الجوزي: أقرّ المستنجد أرباب الولايات، وأزال المكوس والضرائب[3]، وكان موصوفاً بالعدل والرفق، وأطلق المكوس بحيث إنه لم يترك بالعراق مُكساً وكان شديداً على المفسدين[4]، وقد شفع بعض أصحابه في رجلٍ شرير، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وائتني بمثله لأُريح المسلمين من شرّه[5].

وفاته:

توفي في ثامن ربيع الآخر سنة ستٍّ وستين وخمس مئة[6]، وكان سبب موته أن خافه أستاذ الدار عضُد الدولة ابن رئيس الرؤساء وقايماز المُقتفوي كبيرا الأمراء، فواضعا الطبيب على أذيّته فوصف له الحمّامُ، فامتنع لضعفه، ثم أدخل الحمام، وأغلق عليه، فتلف[7]، وصُلِّي عليه يوم الأحد، ودفن بدار الخلافة، ونقل إلى التُراب من الرُصافة[8].

رابعاً: الخليفة المستضيء بالله:

الخليفة أبو محمد الحسن ابن المستنجد بالله يوسف ابن المقتفي محمد ابن المستظهر

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 413).
(2) المنتظم (10/ 193).
(3) المصدر نفسه (10/ 193)، سير أعلام النبلاء (20/ 414).
(4) سير أعلام النبلاء (20/ 414).
(5) البداية والنهاية (16/ 444).
(6) سير أعلام النبلاء (20/ 418).
(7) المصدر نفسه (20/ 414).
(8) البداية والنهاية (16/ 445).

أحمد ابن المقتدي الهاشمي العباسي بويع بالخلافة وقت موت أبيه في ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مئة، وقام بأمر البيعة عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء فاستوزره يومئذ[1]، وكان ذا حل وأناة ورأفة وبرّ وصدقات[2]. قال ابن الجوزي: بويع، فنودي برفع المكوس، ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نراه من أعمارنا، وفرّق مالاً عظيماً على الهاشميّين[3] وفي خلافته زالت دولة العبيدية بمصر، وخُطب له بها، وجاء الخبر فغلقت الأسواق للمسرّة[4]، وخطب له باليمن، وبرقة، وتوزَرَ وإلى بلاد الترك، ودانت له الملوك، وكان يطلب ابن الجوزي ويأمره أن يعظ بحيث يسمع، ويميل إلى مذهب الحنابلة، وضعُف بدولته الرّفض ببغداد، وبمصر وظهرت السنة وحصل الأمن ولله المنّة[5].

وفاته:

كان ابتداء مرضه في أوائل شوّال من هذه السنة فأرادت زوجته أن تكتم ذلك فلم يمكنها، ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ونهبت العوامُ دُوراً كثيرة وأموالاً جزيلة، فلمّا كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوّال خُطب لولي العهد أبي العباس أحمد ابن المستضيء وهو الخليفة الناصر لدين الله، وكان يوماً مشهوداً نُثر الذهب فيه على الخطباء والمؤذّنينَ ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه[6]، فلما كان يوم السبت سلخ شوّال مات الخليفة المستضيء بأمر الله، وكان مرضه بالحُمى ابتدأ بها في يوم عيد الفطر، ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكمل في مرضه شهراً، فمات رحمه الله سلخ شوال، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً، وغُسّل وصُلّي عليه من الغد[7]، وكان من خيار الخلفاء أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكوسات والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمصائب، وكان حليماً وقوراً كريماً، فرحمه الله تعالى، وبلّ ثراه وجعل الجنة مأواه، وبويع بالخلافة من بعده لولده الناصر[8]. وقد كتب ابن الجوزي كتابه المصباح المضيء في خلافة المستضيء ووجهه إلى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله بهدف التذكير والوعظ والنصيحة باعتباره الشخص الأول في الدولة العباسية[9].

---

(1) سير أعلام النبلاء (21/ 68).
(2) المصدر نفسه (21/ 68).
(3) المصدر نفسه (21/ 68).
(4) المصدر نفسه (21/ 70).
(5) المصدر نفسه (21/ 70).
(6) البداية والنهاية (16/ 540).
(7) المصدر نفسه (16/ 540).
(8) المصدر نفسه (16/ 541).
(9) المصباح المضيء في خلافة المستضيء، ص: 9.

خامساً: تعاون نور الدين محمود مع الخلفاء العباسيين:

خالف نور الدين محمود سياسة والده عماد الدين زنكي بخصوص العلاقة مع الخلافة العباسية، فقد ساءت علاقة عماد الدين زنكي بالخلافة العباسية في أغلب سنوات حكمه، ونشبت الحرب بين الطرفين أكثر من مرّة، ولكن نور الدين محمود وطّد علاقته بالخلافة العباسية مُنذ بداية حكمه، وتوثقت هذه العلاقة على مرّ السنين حتى نهاية حكمه، ويرجع الاختلاف في هذه السياسة بين نور الدين محمود ووالده إلى عدة أمور أهمها:

ـ **طبيعة تقاسم السلطة بين نور الدين وأخيه سيف الدين بعد موت والدهما**، فقد تولى سيف الدين غازي (الأكبر) حكم الموصل، فورث ما كان لوالده من علاقات مع الخلافة العباسية وسلطنة السلاجقة بسلبياتها وإيجابياتها، بينما تولى نور الدين محمود حكم حلب فورث عن والده الجانب المتعلق بالجهاد ضد الفرنجة، الأمر الذي يعتبر مصلحة مشتركة بينه وبين الخلافة العباسية على حد سواء، وكان أمر سلاطين السلاجقة قد ضعف خاصة بعد موت السلطان مسعود بن محمد عام (547هـ/ 1152م) وبدأت الخلافة العباسية تستعيد نشاطها في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله سنة (531هـ ـ 555هـ/ 1139 ـ 1160م)[1].

ـ **والأمر الثاني**: هو أن نور الدين كان يعتبر الخلافة العباسية رمزاً لوحدة المسلمين التي وضعها على رأس قائمة أهدافه الاستراتيجية وهو يدرك ما للخلافة من أثر في نفوس المسلمين، ولذلك سعى لنيل تأييد الخلافة ليضفي على أعماله العسكرية شرعية دينية تساعده في تحقيق وحدة بلاد الشام ومصر وشمال العراق، وفي تحرير سواحل بلاد الشام من الفرنجة المحتلين. من جهة أخرى كانت الخلافة العباسية ترى في نور الدين محمود الذي اشتهر بحرصه الشديد على تطبيق الشريعة الإسلامية على أصول منهج أهل السنة والجماعة ناصرها وأملها في القضاء على الدولة الفاطمية[2]، وقد مرت العلاقات بين الجانبين بعدة أطوار على المستويات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية والثقافية[3].

1 ـ الصعيد السياسي:

يلاحظ أن كلاً من الطرفين وجدت لديه دوافع لتوطيد علاقته السياسية بالآخر، وإذا احتاجت الدولة النورية من الخلافة تأييد حكمها للمناطق الخاضعة لها في بلاد الشام والجزيرة، إذ أن تأييد الخلافة لذلك يدعم حكم نور الدين، ويكسبه صفة المشروعية أمام

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 163.
(2) الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص: 290.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 62.

رعاياه في تلك المناطق، ولذلك فقد حرص أشد الحرص على الحصول على تقاليد سيادته السياسية، ومن جهة الخلافة العباسية رأت في الدولة النورية قوة سياسية فعالة في المنطقة، من الممكن أن تجني من ورائها الكثير بتوطيد علاقاتها معها، وحيث إنها صارعت الصليبيين، فإن تأييد الخليفة العباسي لنور الدين كان يجعله محط تقدير بالغ لرعاياه في العراق وخارجه، وعملت الدولة النورية على توطيد علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية عن طريق السفارات الدبلوماسية المتبادلة، وقد حرص نور الدين على اختيار السفراء الذين توافرت فيهم بعض الشروط العقلية والجسمانية، خاصة من عناصر أرباب الأقلام من الفقهاء والعلماء، ومنهم من كان من أصل عراقي، لكي يدعم أكثر من غيره الصلات بين الجانبين، وقد حمل أولئك السفراء الرسائل والهدايا لمخاطبة ود خليفة بغداد، واحتوت الرسائل على بعض المطالب أو إظهار الولاء أو التهنئة بمناسبة تولية الخليفة إلى نحو ذلك، ولدينا العديد من أسماء السفراء الذين ترددوا بين العراق والشام، وهؤلاء جميعاً مثلوا عدداً من قيادات الدولة النورية لاسيما في جهازها الإداري[1].

ومن وراء تلك الاتصالات الدبلوماسية، قام ديوان الإنشاء النوري بدور كبير في إعداد الرسائل المناسبة لكل موقف، ولا نزاع أن ذلك الديوان تزايد دوره تعاظماً من خلال خدمته للسياسة الخارجية للدولة، ووجود شخصية مثل: العماد الكاتب الأصفهاني على رأسه يدل على مدى نشاطه[2]، ومن أمثلة الاتصالات الدبلوماسية بين الجانبين أن نور الدين عندما أخضع دمشق لسيطرته عام (549هـ/ 1152م) محققاً بذلك أحد أكبر انتصاراته العسكرية بعث الخليفة إليه عهداً بالسلطة وإقراراً بسيادته عليها[3]، ولا شك أن العباسيين اعتقدوا أن الأسرة البورية السابقة لم تكن تفعل شيئاً معبراً عنهم بفضل مهادنتها لمملكة بيت المقدس الصليبية، كذلك حثَّ الخليفة العباسي نور الدين على السير إلى مصر، لانتزاعها من الفاطميين[4]، أعداء أهل السنة التقليديين، وذلك في وقت كانت فيه مصر في وهن بالغ من جراء سياسة الوزراء العظام الخرقاء، ويقرر البعض أن الخليفة المقتفي ووزيره ابن هبيرة أرسل إليه عهداً بتولية مصر وأعمالها في وقت كانت فيه الدولة الفاطمية لا تزال قائمة[5]، ومنطقيّ أن الخلافة العباسية أدركت أن سيطرة نور الدين على حلب ودمشق، تمكنه من تحقيق أهدافها في القضاء على الفاطميين، ومعنى ذلك أن بلاد الشام نفسها كانت ميداناً رحباً لاختبار قدرة الدولة النورية على التغيير السياسي في المنطقة، خاصة في مصر، ولا مراء في أن النجاحات النورية

---

(1) من أمثلتهم ، العماد الأصفهاني، وكمال الدين الشهرزوري.
(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 63.
(3) حسن المحاضرة (2/ 3)، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 64.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 64.
(5) العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 66.

هناك أكدت للعباسيين أن تلك الدولة الفتية، بإمكانها أن تحقق طموحات خلفاء بغداد في تقويض حكم زعماء القاهرة[1]، ومن بعد ذلك استمرت العلاقات السياسية قوية بين الجانبين، واهتبل نور الدين فرصة انتصاره على الصليبيين في عام (552هـ/ 1157م)، فأرسل إلى بغداد تحفاً وهدايا ورؤوس قتلى الصليبيين وأسلحتهم[2]، إشارة إلى تأديته لدوره القتالي ضد أعداء المسلمين لكسب دعم العباسيين، وفي أعقاب الظفر على أعدائه في حارم عام (559هـ/ 1164م)، أرسل إلى الخليفة أخبار انتصاره[3]، وتكرر ذات الأمر عندما سقوط الخلافة الفاطمية عام (567هـ/ 1171م)[4].

وقد عكس الإنجاز الأخير مدى نجاح التحالف النوري ـ العباسي في تحقيق الإنجازات الكبرى ضد أعداء العباسيين، وقد استفاد العباسيون من نور الدين محمود، عندما سعوا إلى إعلام دولته بأخبار تولية الخلفاء الجدد، من أجل الحصول على مبايعته لهم، فعندما تولى المستضيء أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ويطلب مبايعته[5]، وحرص نور الدين على الحصول على تقليد توليه على أملاك مصر والشام وبلاد الجزيرة وتم له ما أراد، فالوضع السابق دل على علاقة الدولة النورية الوثيقة بالعباسيين، وتدعم ذلك من خلال النقوش، إذ وردت على جدران الآثار التي شيدت في عهد الدولة النورية، بعض التعبيرات الدالة على قوة الصلات بين الحليفين، إذ وصف نور الدين في نقش يرجع إلى شوال 543هـ فبراير ـ مارس 1149م في المدرسة الحلاوية بحلب بأنه «رضي الخلافة»، وكذلك وصف بأنه «خليل أمير المؤمنين» من نقش يرجع إلى عام (559هـ ـ 560هـ/ 1163 ـ 1164م) على باب شرق من أبواب مدينة دمشق[6]. ووجه تعبير «نصير أمير المؤمنين» في نقش على جامع بمدينة الرقة يرجع إلى عام (561هـ/ 1165م)[7] وكذلك تعبير «ناصر أمير المؤمنين» في نقش على قلعة حلب[8]. وأيضاً في المدرسة النورية بدمشق، يرجع إلى عام (569هـ/ 1173م)، وفي قلعة جعبر[9].

واستمرت العلاقة السياسية بين الدولة النورية والخلافة العباسية نحو ثلاثين عاماً دون خصومه، بل توطدت باستمرار فأفاد كل طرف من الآخر، ولم تكن لنور الدين تطلعات إلى أملاك الخلافة[10]، وتبلورت العلاقات النورية ـ العباسية في تحالف سياسي قوي أكده بصورة جلية توجيه الخلافة العباسية للسياسة الخارجية النورية، وهذا ما نجده ممثلاً في إسقاط

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 64.
(2) المنتظم (9/ 176).
(3) سنا البرق الشامي، ص: 75.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 65.
(5) مرآة الزمان، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 65.
(6) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 65.
(7) المصدر نفسه، ص: 65.
(8) المصدر نفسه، ص: 65.
(9) المصدر نفسه، ص: 65.
(10) المصدر نفسه، ص: 67.

الخلافة الفاطمية، إذ أرسل المستنجد بالله إلى نور الدين في عام (565هـ/ 1169م) يستحثه على الإسراع في القضاء عليها[1]، وقد تكرر ذات الموقف من جانب المستضيء[2]، ثم دعم العباسيون التوسعات النورية[3].

ويلاحظ أن ذلك التحالف بين القوتين كان أمراً ضرورياً، ولم يحدث عشوائياً بل إن بغداد وجدت في سلطان حلب أكبر قوة سياسية مسلمة مجاورة لها يمكن أن تحقق أهدافها، خاصة مع عدم تواجد تطلعات مشرقية له، وأفادت الدولة النورية من ذلك التحالف كما أفاد العباسيون، واستمر التحالف بين الجانبين على امتداد نحو الثلاثين عاماً مع تعدد الخلفاء العباسيين، وذلك لا يخلو من دلالة هامة، وهي أنه كان حيوياً لهم، وأن نورالدين لم يجد منهم ما يجعله ينقض ذلك التحالف بل عمل على دعمه طالما أن الخلافة ساعدته على توسعاته الخارجية، وأنه صار رجل الدولة العباسية في المنطقة[4].

كان السعي لوحدة بلاد الشام ومصر أمراً مقرراً في خطط نور الدين وواضحاً في ذهنه مُنذ بداية حكمه، بل إن توجهات نور الدين وأفكاره كانت تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد كان هدفه الاستراتيجي الأكبر إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في هداية البشر وتحقيق الحياة الكريمة لجميع الناس[5]، وحتى يتحقق هذا الهدف فلا بد من تحقيق الهدف الإستراتيجي الأقرب وهو تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وحتى يتحقق هذا الهدف الثاني لابد من تحقيق هدف ثالث استراتيجي أيضاً، وهو توحيد الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة في دولة واحدة. هكذا رتَّب نور الدين محمود أهدافه وأخذ ينفذها حَسب أولوياتها وكانت الأولوية بطبيعة الحال لهدف تحقيق الوحدة، ولكن سعيه لتحقيق الوحدة في المقام الأول لم يمنعه من شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنجة في الوقت نفسه[6].

2 ـ الصعيد العسكري:

على المستوى العسكري أفاد نور الدين محمود من نفوذ العباسيين للضغط على أمراء المشرق الإسلامي لمعاونته ضد أعدائه الصليبيين، فمعلوم أن الجيش النوري اعتمد أساساً على الدعم الحربي المقدم من أمراء المشرق[7]، لاسيما في العراق، ويلاحظ أن الثقل السياسي للخلافة أجبر أولئك الأمراء على المبادرة بتقديم عونهم الحربي، كما أن نور الدين

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 68.
(2) المصدر نفسه، ص: 68.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 68.
(4) المصدر نفسه، ص: 68.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 164.
(6) المصدر نفسه، ص: 138.
(7) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 68.

نفسه اتجه إلى مراسلة الفقهاء والمتصوفة في تلك الأقاليم من أجل الدعاية السياسية، وتوضيح حاجته إلى العون الحربي من أولئك الأمراء على نحو مثَّل «ضغطاً شعبياً» عليهم[1]، ونجد في كافة المعارك الحربية الكبرى التي خاض غمارها الجيش النوري، أشارت المصادر إلى مقدم قوات المشرق وعلى رأسها الأمراء حكام أربيل، وسنجار، ومنبج وغيرهم[2]، فالدور العباسي في استقدام جيوش المشرق وحث أمرائه على دعم نور الدين لا يستهان به[3].

2 ـ الصعيد الاقتصادي:

ارتبط الجانبان بعلاقات طيبة، فمعلوم أن العالم الإسلامي توقف ازدهاره على مدى سيطرته على محاور التجارة العالمية كذا منافذها، إذ شكلت التجارة معظم دخل العالم الإسلامي، ومن الثابت أن معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب وقعت في مناطق خاضعة لسيادة العباسيين، إذ قدمت التجارة من الشرق الأقصى وتدفقت سلعها عبر الخليج العربي إلى شمال العراق ومنه إلى شمال الشام ثم الإمبراطورية البيزنطية[4] وأوروبا، كذلك ارتبط شمال الشام بشمال العراق بطرق تجارية[5] عديدة، لاسيما بين حلب والموصل، وعملت الدولة النورية على انتعاش حركة التجارة بين العراق والشام، من خلال إزالة جانب من المكوس على التجار المسافرين بين الإقليمين لتشجيعهم على المتاجرة[6]، فقد اهتمت الدولة النورية بإنعاش التجارة مع مناطق العباسيين والإفادة من ثراء التجار العراقيين، وتشجيعهم على المتاجرة مع الأسواق الشامية، ولا شك أنها جنت من وراء ذلك مكوساً وفيرة[7].

ومن جهة أخرى، اتجهت الدولة النورية في بعض الأحيان إلى طلب المساعدة المالية من الخلافة العباسية للإنفاق على مرافق البلاد، ونجد مثالاً دالاً على ذلك عندما وقعت أحداث زلزال عام (565هـ/ 1170م)، والذي اجتاح بلاد الشام، خاصة مدن حلب، وبعلبك، وحمص وحماه، وشيزر، وبعرين، وتهدمت أسوارها وقلاعها، وتأثرت به مدينة حلب أكثر من غيرها بمظاهر الخراب والدمار[8]، وعلى الرغم من أن نور الدين أخرج من الأموال ما لايقدر بقدر[9]، من أجل ترميم ما تهدم، إلا أن ذلك لم يكف، فاتجه إلى طلب عون الخلافة، ففي نص أورده ابن الفرات، شرح نور الدين للخليفة المستنجد بالله ما حل بمناطق

---

(1) زبدة الحلب (2/ 319).
(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 69.
(3) المصدر نفسه، ص: 69.
(4) المصدر نفسه، ص: 69.
(5) الرحلة لابن جبير، ص: 210.
(6) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 70.
(7) المصدر نفسه، ص: 70.
(8) الباهر، ص: 155، دول الإسلام (1/ 78).
(9) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 71.

دولته من دمار بالغ على نحوٍ أثّر على دفاعاتها في مواجهة الصليبيين، واستصراخه أن يقدم له العون المالي اللازم[1]، ولا ريب في أن الخلافة العباسية كانت تحرص على دعم الدولة النورية مالياً، لتواجه أعداءها من الصليبيين، ولذلك فإنها بادرت بتقديم مساعدتها، والمرجح أن ذلك تم بسرعة واضحة لتدارك خطر تهدم أسوار وقلاع مدن الدولة النورية، خوفاً من هجوم صليبي مفاجئ عليها اغتناماً للموقف[2].

ومن جهة أخرى قدمت الدولة النورية للخلافة العباسية الأموال اللازمة التي كانت بدورها تطلبها، كدليل على الولاء، ونجد أنها عندما أقدمت في بعض الأحيان على إنقاص المكوس المفروضة على النشاط التجاري، راسل نور الدين محمود الخليفة ليوضح له الأمر، وليطلب منه تقليل ما كان يحصل عليه من قبل[3].

إن تلك العلاقات المالية تدل بوضوح على خصوصية علاقة الخلافة العباسية بالدولة النورية في بلاد الشام والجزيرة، وحرص الخلافة على دعمها وحمايتها من الخطر الخارجي بتوفير الدعم المالي لها عندما احتاجت إليه[4].

4 ـ الصعيد الثقافي والمذهبي:

كان الهدف المشترك الكبير بين نور الدين والدولة العباسية إعادة نشر المذهب السني في بلاد الشام ومصر والوقوف أمام المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي الذي كانت تتبناه الدولة الفاطمية في مصر، وكذلك الوقوف أمام المذهب الشيعي الإمامي، وكانت نظرة نور الدين محمود الإستراتيجية تعتبر وحدة العقيدة ركناً أساسياً في وحدة المسلمين السياسية، ولتحقيق وحدة العقيدة في بلاده سلك طريق العلم والإقناع بالمنطق وإقامة الحجة والبرهان، فأنشأ المدارس التي تدرس الشريعة على حسب مذاهب السنة مُركزاً على المذهبين الشافعي والحنفي، واستقدم أشهر العلماء والفقهاء للتدريس فيها، ولتتولى الحوار مع علماء الشيعة على أساس الكتاب (القرآن الكريم) والسنة الشريفة، ولكنه لم يتردد في اتباع طريق الحزم لوقف التجاوزات والمخالفات التي دأب الشيعة الرافضة على ارتكابها بحق بعض الصحابة، فأمر بمنع شتم أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، وكان ذلك شائعاً في مجتمع الشيعة الرافضة في حلب، كما أمر بوقف الأذان حسب الصيغة التي استحدثها الشيعة (أضافوا فقرة حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)[5]، وإعادته حسب الصيغة الصحيحة التي عرفت في

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص72.
(2) المصدر نفسه، ص: 72.
(3) المصدر نفسه، ص: 72.
(4) المصدر نفسه، ص: 72.
(5) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 116.

زمن الرسول ﷺ، وعندما حاول زعماء الشيعة في حلب عدم الامتثال لأوامر نور الدين عاقبهم ونفى بعضهم خارج حلب[1]. فرضخوا وامتثلوا وتحوّل مجتمع حلب مع مرور السنين إلى مجتمع سني بالكامل، وكذلك باقي مدن بلاد الشام وإنما كان التركيز على مدينة حلب؛ لأنها كانت مركزاً للشيعة الرافضة في بلاد الشام.

أما في مصر، فقد بدأت عملية التغيير من خلال الدولة النورية ـ مباشرة بعد الاستيلاء عليها ـ وكانت توجيهات نور الدين في هذا المجال واضحة لصلاح الدين لتغيير نظام القضاء من المذهب الإسماعيلي الشيعي الرافضي إلى المذهب السني، وإنشاء المدارس السنية، وكان التغيير تدريجياً حتى بداية عام (567هـ/ 1172م) عندما أعلنت نهاية الدولة الفاطمية، وأقيمت الدعوة للخلافة العباسية، فصار التغيير سريعاً وشاملاً، فكانت المصالح المشتركة بين نور الدين والخلافة العباسية قربت بينهما وأثمرت علاقتهما الطيبة بما عاد عليهما وعلى المسلمين بالخير والفائدة العظيمة، فحركة الإحياء السني التي تبناها نور الدين محمود، لقيت الدعم العباسي الكامل، ومن الممكن تصور أن الإنجاز الذي حققته حركة الإحياء السني في عهد الدولة النورية لم يكن من الممكن أن تتحقق بتلك الصورة من النجاح، بدون المساعدة الرسمية الكاملة من العباسيين، ومن الصلات التي وجدت بين الجانبين استمرار اتصال المتصوفة العراقيين بالشاميين، وقد ارتحل العديد من زعماء التصوف بين الإقليميين لينضم إليهم الأتباع والمريدون[2]، وقد بينا ذلك فيما سبق ولله الحمد.

ويتصل بالصلات المذهبية الاهتمام المشترك من جانب الخلافة العباسية والدولة النورية بالحج، والإعداد لموكبه وتأمين خطوط سيره. وقد كان هناك موكب للحجاج الشاميين وآخر للعراقيين اتخذ كلٌ طريقه الخاص إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، وحَرص نور الدين محمود على أن يظهر أمام خلفاء بغداد بمظهر الراعي لتلك الأماكن، إذ عمل على تأمين طريق الحجاج الشاميين عن طريق تقديم الإقطاعات للقبائل العربية التي سكنت نواحي الأردن وشمال الجزيرة حتى لا تتعرض للحجاج، وساهم في تعمير المسجد النبوي وعمل خندقاً حول الحجرة النبوية مملوءاً بالرصاص عام (557هـ/ 1162م) وكان هذا الاتجاه هدفاً مشتركاً بين الخلافة العباسية والدولة النورية، وقال عنه ابن الجوزي: وكان سيرته أصلح من كثير من الولاة والطرق في أيامه آمنة والمحامد له كثيرة، وكان يتدين بطاعة الخلافة[3].

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 74.
(2) المصدر نفسه، ص: 75.
(3) المنتظم (18/ 210).

المبحث الثاني
تصدي نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية وسياسته في ضم دمشق

كان نور الدين محمود مُنذ توليه الحكم وهو في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والهدف مُنذ أن تسلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرّب كل منهما يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرّر إمارة الرها التي تشكل تداخلاً مع الأراضي الإسلامية، فتمكّن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمَّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً. وكان التوحيد في نظره يتضمن توحيد الصف والهدف في آن واحد، فأما توحيد الهدف فهو جمع المسلمين تحت راية مذهب واحد، وهو مذهب أهل السنة، وكان كلما توغل في خضمّ الجهاد وتقدم به الزمان يزداد اقتناعاً بصوابية هذه السياسة، وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية ـ والنشاط الثقافي العلمي التربوي ـ التي تخدم توحيد الصف والهدف[1].

أولاً: القضاء على تمرد ثورة الرهاويين:

أتاحت وفاة عماد الدين زنكي وتقسيم مملكته بين ولديه فرصة طيبة لأعدائها للإقدام على غزوها، ففي الجنوب تطلع معين الدين أنر، صاحب السلطة الفعلية في دمشق إلى السيطرة على بعلبك وحمص وحماه، وفي الشرق، حاول الملك ألب أرسلان السلجوقي فرض سيطرته على الأملاك الزنكية، غير أنه باء بالفشل، واستردَّ الأراتقة المدن التي سبق أن ضمّها عماد الدين زنكي من ديار بكر، وفي شمال الشام، مضى ريموند بواتييه، أمير أنطاكية، في غاراته حتى بلغ أسوار حلب، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عدداً كثيراً من المسلمين، وتمادى في غاراته حتى بلغ صلدى ونهبها، ولما وصل الخبر إلى حلب خرج أسد الدين شيركوه على رأس قوة عسكرية للتصدي له، فأدرك فرقة صليبية استاقت بعض الأسرى،

(1) صلاح الدين بين التاريخ والملحمة الأسطورية، ص: 285، ص: 286، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 252.

فاصطدم بها وحرّر الأسرى، ثم شنَّ الغارة على أرتاح[1]، قبل أن يعود إلى حلب[2]. وظل جوسلين الثاني أمير الرها قابعاً في تل باشر، إلا أنه أعدّ خطة لإعادة احتلال الرها[3]. ولعل جوسلين الثاني هذا، كان أشد أعداء الدولة الزنكية خطراً عند وفاة عماد الدين زنكي، لأن استرداد الرها من الصليبيين كان أهم ما قام به عماد الدين في حياته وهو العامل الرئيسي الذي أضفى عليه وعلى دولته أهمية خاصة في التاريخ، فكان نجاح الصليبيين في استرداد الرها إذا ما حصل يُعد ضربة قاسية لأبنائه الذين سيفقدون المجد الذي حقَّقه والدهم[4].

والأهم من ذلك الأثر المعنوي السلبي الكبير في نفوس المسلمين لم يكن بقلعة الرها سوى حامية قليلة العدد، فاستغل الأرمن هذه الفرصة، وكانوا شديدي الميل للصليبيين ودبَّروا مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي، وطرد المسلمين من المدينة، ووقف جوسلين الثاني على تلك النزعة فيهم فشجَّعهم على التمرد وتسليم البلد إليه، ووعدهم بتقديم المساعدة[5]، وخرج جوسلين الثاني على رأس قوة عسكرية ميمِّماً وجهه شطر الرها وهو عازم على استعادتها وسانده بلدوين حاكم مرعش[6] وكيسوم في حين رفض ريموند بواتييه ـ حاكم أنطاكية ـ تقديم المساعدة[7]. ويبدو أن رفضه ناتج عن التخطيط غير السليم للحملة[8]، وكان جوسلين الثاني يأمل في مباغتة الحامية الإسلامية ويهاجمها على حين غفلة من أمرها، إلا أنها تلقَّت إنذاراً مبكراً بهذا الهجوم، فاستعدَّت لصدِّه.

وصل جوسلين الثاني إلى أسوار المدينة، شهر ربيع الآخر عام 541هـ شهر أيلول عام 1146م ونجح في دخول البلدة، لكن امتنعت عليه القلعة وقد احتمت بها الحامية الإسلامية[9]. وجد جوسلين الثاني نفسه أسيراً، هو ورجاله، داخل المدينة، ولما كانت قواته قليلة العدد لا يمكنها اقتحام القلعة، استنجد بأميري: أنطاكية وطرابلس والوصية على عرش مملكة بيت المقدس، وأرسلت الحامية من جهتها تطلب مساعدة نور الدين محمود في حلب، وكان جيشه آنذاك في مهمة جهادية في أنطاكية، عدّ صاحب نور الدين محاولة جوسلين الثاني هذه تحدياً له، ورأى ضرورة القضاء عليه قبل وصول النجدات الصليبية، فخرج من حلب في شهر جمادى الآخرة/ شهر تشرين الثاني على رأس جيش كثيف بلغ

(1) أرتاح: اسم حصن منيع، كان من العواصم من أعمال حلب.
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 253.
(3) المصدر نفسه، ص: 253.
(4) المصدر نفسه، ص: 253.
(5) المصدر نفسه، ص: 253.
(6) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، معجم البلدان (5/ 107).
(7) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 253.
(8) المصدر نفسه، ص: 253.
(9) المصدر نفسه، ص: 254.

تعداده عشرة آلاف فارس غير المشاة والطلائع، وظهر أمام أسوار المدينة[1]، وقع جوسلين الثاني بين شقي الرحى؛ الحامية من الداخل وجيش نور الدين محمود من الخارج، فلم يقو على ملاقاة هذه الجموع داخل الرها وخارجها، فأسقط في يده، وأدرك أن لا سبيل إلى النجاة إلا بالهرب، فتسلَّل أثناء الليل إلى خارج المدينة، واتخذ طريقه صوب الفرات[2]. لكن هذه العملية لم تتم بسهولة فقد طارده نور الدين محمود واقتفى أثره، واشتبك معه في اليوم التالي وتغلَّب عليه، إلا أنه استطاع الفرار إلى سميساط بصعوبة بالغة بعدما أصيب في رقبته، وكان بلدوين حاكم مرعش من بين القتلى، كما قتل باسيل أسقف اليعاقبة، ووقع يوحنا أسقف الأرمن في الأسر[3].

خرج الأرمن من الرها بعد أن أدركوا ما ينتظرهم إذا ظلوا فيها، وقد أضرموا النيران في كثير من البيوت، لكن أكثرهم لم يتمكن من النجاة، ووقعوا تحت ضربات المسلمين[4]، وكان من الطبيعي أن يحل العقاب بمن بقي من أهل الرها كالنصارى الذين غدروا بالمسلمين بعدما تخلَّى جوسلين الثاني عنهم[5]، فقد أراد نور الدين أن يجعل من عصيان الرها وتمردها درساً للآخرين، فأباحها لجيشه وسبى أهلها وأجلى من كان بها من الفرنج، وكانت الأخبار قد وصلت إلى الموصل بعصيان الرها وعودة جوسلين إليها، فأرسل سيف الدين غازي جيشاً لاستعادتها، ولكن هذا الجيش رجع قبل وصوله للرها عندما علم باستعادة نور الدين للمدينة، وأقر سيف الدين غازي أخاه نور الدين في عمله[6].

وكانت حادثة عصيان الرها واسترجاعها من قبل نور الدين محمود مع ما رافق ذلك من نهبها وسبي أهلها، وقتل الغالبية من جيش جوسلين أثناء هربه منها، ثم سكوت سيف الدين غازي عن احتلال أخيه نور الدين محمود للمدينة، كان كل ذلك بمثابة خيبة أمل كبيرة للفرنجة الطامعين في اندلاع الحرب بين الأمراء المسلمين، الذين فرحوا بوفاة عماد الدين زنكي وزوال خطره، ولكنهم أدركوا أن ابنه نور الدين محمود لا يقل خطورة عن أبيه، ثم تعززت خيبة الأمل لدى أولئك الأعداء بعد التقاء سيف الدين غازي بأخيه نور الدين محمود واتفاق الأخوين على التعاون فيما بينهم ضد الطامعين بملك أبيهم وملكهم[7].

وهذا أول فتح لنور الدين رحمه الله، وفيه يقول ابن منير من قصيدة:

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 254.

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 254.

(3) تاريخ الزنكيين، ص: 254.

(4) المصدر نفسه، ص: 255.

(5) المصدر نفسه، ص: 255.

(6) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 92.

(7) الباهر، ص: 87، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 92.

تلك بكر الفتوح فالشام منها شامه والعراق بعد عِراقُهُ

وقال ابن القيسراني:

فإن يك فتح الرُّها لُجّة فساحلها القدس والساحل

فهل علمت علم تلك الديار أن المقيم بها راحل[1]

ـ مساندة نور الدين لحاكم دمشق في حوران: في عام (541هـ/ ربيع عام 1147م) خرج التونتاش أمير بصرى وصرخد في إقليم حوران على حكمه، وأعلن استقلاله عن دمشق، وحتى يدعم موقفه التفت إلى مملكة بيت المقدس في محاولة لاستقطاب حكامها. وكان الذي شجعه على ذلك اعتقاده بأن سياسة المسالمة التي اتبعها الملك فولك نحو دمشق قد انتهت بوفاته في «شهر تشرين الثاني عام 1142م» وأن الحكام الجدد سوف يلتزمون سياسة مغايرة وبخاصة أنه قدّم إليهم في شهر ذي الحجة عام (541هـ/ شهر آيار عام 1147م) عرضاً سخياً يتضمَّن التنازل لهم عن بصرى وصرخد مقابل مساعدتهم له في الاستقلال بحوران[2]، وتردَّد بارونات بيت المقدس وحكامها في قبول هذا العرض المغري الذي سيتيح لهم استغلال إقليم حوران، كما أن السيطرة على هذا الإقليم تجعل دمشق تحت رحمتهم، ويبدو أنهم أدركوا المخاطر الناتجة عن تفكيك عرى التحالف مع دمشق في ظل تربص نور الدين محمود، وللخروج من هذا المأزق تصرفوا على محورين:

الأول: أنهم أمروا بحشد الجيش في طبرية استعداداً لمساعدة التونتاش عند الضرورة[3].

الثاني: أنهم أرسلوا إلى أنر يطلبون منه إعادة التونتاش إلى حاكمية حوران.

استشاط أنر غضباً من هذا التدخل السافر في شؤونه الداخلية غير أنه أراد أن يتجنَّب نقض التحالف مع الصليبيين خشية من قوة نور الدين محمود، فأرسل يذكِّر حكام بيت المقدس بالحلف المعقود بينهم وبين حكّام دمشق، والذي يعود على الجانبين بالفائدة ويحذِّرهم أن سياستهم هذه ستؤدي به إلى محالفة نور الدين محمود مما يعرِّضهم لخطر جسيم، وعرض أن يؤدي نفقات الحملة التي جُهِّزت لمساندة التونتاش. والواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين رغم ما فيه من المهانة لكرامته في أعين المسلمين، أسلم عاقبة من بقائه وحيداً أمام نور الدين محمود[4]. إلا أن الصليبيين لا عهود لهم ولا مواثيق، فقد هدد

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 177).

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 257.

(3) المصدر نفسه، ص: 257.

(4) المصدر نفسه، ص: 257.

الفرنج دمشق ووصل جيشهم بقيادة ملك القدس إلى أطراف حوران، فاضطر معين الدين أنر مقدم العساكر في دمشق والحاكم الفعلي إلى الاستنجاد بنور الدين الذي بادر بنفسه للمساعدة، وتقابل مع أنر بالقرب من بصرى للتصدي للفرنجة الذين فوجئوا بظهور نور الدين محمود مع معين الدين أنر، واضطروا للانسحاب جنوباً ـ ومؤخرات جيشهم تتعرض لغارات المسلمين ـ حتى عبروا نهر الأردن[1]، وتحسنت العلاقات بين نور الدين محمود ومعين الدين أنر بعد ذلك، وتوثقت أكثر بزواج نور الدين محمود من ابنة معين الدين، ورافق هذا الزواج إعادة مدينة حماة التي كان معين الدين أنر احتلها بعد مقتل عماد الدين زنكي إلى نور الدين محمود[2].

في السنة التالية 542هـ/ 1148م تمكن نور الدين محمود من الاستيلاء على عدة حصون ومواقع تتبع لإمارة أنطاكية منها أرتاح وباراه، وكفر لاثا[3]، وجميع هذه المواقع والحصون كانت من أعمال حلب سابقاً استولى عليها الفرنجة خلال فترة مدينة حلب وتوسع الإمارات الفرنجية في بداية القرن، ويلاحظ أن نور الدين محمود وضع في قمة أولوياته إبعاد الخطر الفرنجي عن مدينة حلب، وهذا يعني التركيز على إمارة أنطاكية وتجريدها من كل ما استولت عليه في الماضي من الحصون والمواقع والبلدان التابعة لحلب حسب منهجه في ترتيب أولوياته، فقد أخذت الأخبار تتوارد من القسطنطينية وآسيا الصغرى عن تقدم جيوش فرنجية كبيرة جداً تتجه نحو المشرق الإسلامي لدعم وتعزيز الإمارات الفرنجية القائمة فيه، واستعادة مدينة الرها التي كان عماد الدين زنكي استولى عليها عام (539هـ/ 1144م)[4]، واحتلال ما يقدرون على احتلاله من بلاد المسلمين. وأخذت الدول والإمارات في المنطقة سواء كانت إسلامية أم فرنجية تعد نفسها وتضع في حسابها الصدام الكبير المقبل[5].

ثانياً: الحملة الصليبية الثانية:

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي وباعثاً على السرعة في إرسال حملة صليبية جديدة، بعد أن أثار سقوطها الرعب في النفوس، لا بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها هذه المدينة في تاريخ النصرانية فحسب، بل لأنها كانت أيضاً أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الأدنى، فجاء سقوطها إيذاناً بتزعزع البناء الكبير الذي شيده الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى في الشرق الأدنى، وأدرك الغرب الأوروبي أنه إذا

---

(1) عيون الروضتين (2/ 202 ، 203).
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 289.
(3) زبدة الحلب (2/ 291)، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 93.
(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 93.
(5) المصدر نفسه، ص: 93.

لم يسارع إلى ترميم ذلك البناء فإنه لن يلبث أن ينهار[1] وكانت نداءات الاستغاثة قد وصلت إلى البابا يوجنيوس الثالث من فرنج الشرق، فقد بعثت ملكة بيت المقدس بوفد رفيع المستوى إلى البابا لطلب النجدة بعد سقوط الرها[2]، وأرسل البابا رسلاً إلى إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا يحثهما على الإسراع لنجدة فرنج الشرق من خطر المسلمين، وفي الوقت نفسه كلف أحد رجال الدين المشهورين في فرنسا اسمه: برنارد بالدعوة للحرب ضد المسلمين في الشرق، فقام هذا القس بالدور الذي قام به البابا أوربان الثاني عام (490هـ/ 1095م) أثناء الدعوة للحملة الفرنجية الأولى[3]، لبى الإمبراطور كونراد الثالث ولويس السابع ملك فرنسا، دعوة البابا وخرجا كلٌ بجيشه عبر أوروبا باتجاه القسطنطينية، ومن هناك عبرا مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى[4].

1 ـ السلاجقة في آسيا الصغرى يقضون على الجيش الألماني:

كان الجيش الألماني يتقدم الجيش الفرنسي عدة أيام، وعندما بلغ منطقة دوريليوم شرق مدينة نيقيه نفس الموقع الذي انتصر فيه فرنج الحملة الأولى على السلاجقة بقيادة قلج أرسلان قبل خمسين عاماً، وقع الجيش الألماني في قبضة جيش السلطان مسعود أمير سلاجقة الروم في آسيا، فقد تراجع السلطان مسعود وفق خطة عسكرية ذكية حتى واصل الجيش الألماني تقدمه إلى قلب فريجيا، وكان السلطان مسعود قد نشر قواته على قمم الجبال المحيطة بهم ولمّا وصل الجنود الألمان إلى نهر باتيس قرب دوريليوم داهمهم الجيش السلجوقي، وكان قد استبد بهم التعب والظمأ فاختلت قيادتهم، وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال، لكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام، وفقد الجنود الألمان ميزة استعمال السهام لإبعاد الأتراك في حين افتقرت خيالتهم إلى العلف، عندئذ قرّر كونراد الثالث الانسحاب والعودة من حيث أتى، لكن السلاجقة لم يتركوه وشأنه فهاجموا مؤخرة جيشه ومقدمته وقلبه، فدبّت الفوضى في صفوفه وتعرّض أفراده لأفدح الخسائر بين قتل وأسر، والواقع أن القتال لم يكن سوى مذبحة مروعة، قتل فيها تسعة أعشار الجيش، وأصيب كونراد الثالث نفسه بجرحين أحدهما في رأسه[5]، وقد حاول كونراد الثالث، عبثاً جمع شتات جيشه إلا أنه ترك ساحة المعركة عند المساء ممعناً في الفرار مع من تبقّى من رجاله، وقليل ما هم، عائدين إلى نيقيه،

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 171.

(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 94.

(3) المصدر نفسه، ص: 94.

(4) المصدر نفسه، ص: 94.

(5) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.

في حين غنم السلاجقة كميات لا حصر لها من الغنائم[1]، فقد غنموا كل ما في معسكرهم من مواد وخيول وأسروا أعداداً كبيرة منهم، وظلت الغنائم تباع في أسواق المدن الإسلامية عدة شهور.[2] وبهذه الهزيمة الساحقة يمكننا التأكيد بأن الجيش الألماني قد فشل في تحقيق الغاية التي أتى من أجلها إلى الشرق، مما سيكون له أثر سيىء على الحملة الصليبية الثانية[3].

2 ـ سلاجقة الروم يعرقلون تقدم الجيش الفرنسي:

خرج الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع متأخراً عن الجيش الألماني، وكانت القوات الفرنسية مساوية في العدد تقريباً للجيش الألماني إنما كان أكثر تنظيماً، واصطحب لويس السابع معه زوجته إليانور[4]، وفي الوقت الذي كان يجري فيه القتال بين السلاجقة والقوات الألمانية، عبرت القوات الفرنسية البوسفور إلى آسيا الصغرى، ووصلت إلى نيقيه، وعلم الملك الفرنسي بهزيمة الإمبراطور الألماني، فأسرع لمواساته ومساعدته[5] وعلى الرغم من الاحتياطات التي اتَّخذها الملك الفرنسي، فقد فاجأه السلطان السلجوقي مسعود في مدينة ديكيرفيوم قرب أنطاكية وراح يناوئ الصليبيين حتى بلغ الجسر المقام على النهر، ونشبت في هذا المكان ـ رحى ـ معركة قاسية استطاع الصليبيون خلالها شق طريق لهم على الجسر. عند ذاك تراجع مسعود إلى داخل أسوار المدينة، وتمكَّن الصليبيون بعدها من متابعة طريقهم، ولم يغامر مسعود بالهبوط إلى السهل لمطاردتهم، إلا أن القبائل التركمانية البدوية الضاربة في المناطق الحدودية، تصدَّت لهم وأمطرتهم وابلاً من السهام، كما طاردتهم وتخطَّفت بالقتل جنود المؤخرة والشاردين والمرضى، ولم يُنجِ الجيش الصليبي من الفناء الشامل سوى هبوط الظلام حيث انسحب التركمان[6]، ولم يصل الجيش الفرنسي إلى أنطاكية إلا بعد أن تكبَّد خسائر هائلة، وبعد أن شفي الإمبراطور الألماني من مرضه أكمل رحلته إلى فلسطين بحراً على سفن الأسطول البيزنطي[7]، والتقى الإمبراطور الألماني والملك الفرنسي في القدس مع الملك بلدوين الثالث ملك القدس وأمه مليزاند وكبار القادة ورجال الدين في مملكة القدس، وبحث الجميع موضوع الهدف الذي ستتوجه الحملة لاحتلاله وقرروا أن يكون هدفهم الأول دمشق[8].

---

(1) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 297.
(3) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 146.
(4) المصدر نفسه، ص: 147.
(5) المصدر نفسه، ص: 147.
(6) تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص: 147.
(7) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 95.
(8) المصدر نفسه، ص: 95.

3 ـ الهجوم الصليبي على دمشق:

توجهت الجيوش الفرنجية المتحالفة نحو دمشق التي كان يحكمها آنذاك معين الدين أنر أتابك الملك مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، الذي كان أكثر الأمراء المسلمين قرباً من الفرنج وتعاوناً معهم[1]، ولذلك لم يكن يتوقع أن يكون الضحية الأولى لهذه الجيوش الفرنجية الضخمة، لكنه لما علم بنوايا الفرنجة ومسيرهم نحو دمشق اتخذ جميع الإجراءات اللازمة للدفاع عن المدينة، وأرسل يسأل المساعدة من نور الدين محمود وسيف الدين غازي[2]. كان من عادة نور الدين محمود تحليل الأوضاع الدولية والإقليمية ومتابعة الأحداث الجارية وتحليلها بعمق، ثم يخرج بالدروس والعبر التي تفيده في تقرير سياسته المستقبلية، وقد شكلت الحملة الصليبية الثانية الحدث الأكبر في المنطقة والعالم كله عام (543هـ/ 1148م) وكانت بالنسبة لنور الدين محمود الحدث الأول من نوعه بعد توليه الحكم عام (541هـ/ 1146م) والذي يمارس عليه سياسته المذكورة، فقد كان نور الدين يتوقع أن تكون إمارته (حلب) الهدف الأول لهذه الحملة، لأنها تشكلت وتوجهت للشرق على خلفية سقوط مدينة الرها عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام (539هـ/ 1144م)، على يد عماد الدين، ولكن الذي حصل أن الحملة غيَّرت هدفها المتوقع وتوجهت إلى دمشق وحاصرتها محاولة احتلالها، وكان هذا التغيير مفاجأة كبيرة لنور الدين، ومفاجأة أكبر لمجير الدين آبق حاكم دمشق وأتابكه معين الدين أنر المدبر الحقيقي لشؤون إمارة دمشق، كانت مفاجأة نور الدين معروفة الأسباب، أما مفاجأة حكام إمارة دمشق فلأنهم كانوا أصدقاء الفرنجة الوحيدين من المسلمين في المنطقة وجرى بين الطرفين تعاون وثيق ضد عماد الدين زنكي عندما كان يحاول الاستيلاء على دمشق، ولم يكن متوقعاً من الفرنجة مهاجمة أصدقائهم في دمشق وترك عدوهم الأول في حلب، ولكن نور الدين محمود استفاد من هذا التغيير المفاجئ في هدف الحملة الذي لم يحصل ارتجالاً ولم يكن حماقة كما يذكر بعض المؤرخين[3] بل جاء بعد دراسة وتحليل للأوضاع في المنطقة قام بها قادة الحملة في اجتماعات مكثفة اشترك بها ملك بيت المقدس وقادته في مدينة عكا قبل الهجوم على دمشق[4].

لقد تأكد لنور الدين محمود المغزى الحقيقي لغزو الفرنجة السابق في الحملة الأولى، والحالي في الحملة الثانية، والذي لا يمت بصلة إلى استرجاع قبر المسيح ﷺ من المسلمين

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 96.
(2) المصدر نفسه، ص: 96.
(3) تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، ص: 523.
(4) نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، ص: 212، 213.

وتأمين طريق الحج إلى القدس على طوال الساحل شمالاً إلى القسطنطينية، كما كان يزعم زعماء الدين المسيحي الذين خططوا لهذه الحروب، كما أن الهدف الحقيقي للحملة الفرنجية الثانية أبعد ما يكون عن الانتقام لسقوط الرها؛ لأن الحملة توجهت إلى دمشق حليف الفرنجة في المنطقة، ولم تتوجه إلى حلب أو الرها حيث يوجد من يتوجَّب الانتقام منه، فقد أدرك نور الدين محمود أن هدف الفرنجة الحقيقي هو احتلال المشرق الإسلامي والسيطرة عليه، كما كانت الإمبراطورية الرومانية تسيطر عليه قبل الإسلام، وأنهم لا يميِّزون في عملهم لتحقيق هذا الهدف بين إمارات ودول المسلمين، فالحليف المتعاون معهم سواء عندهم مع المقاوم لسيطرتهم وتوسعهم، والمجاهد لتحرير البلاد من احتلالهم، فهم يقصدون احتلال بلاد الجميع والسيطرة على الجميع، وعلى هذا الأساس فإنه من الأفضل لهم البدء بدمشق التي تعتبر قلب بلاد الشام وأكثر الإمارات الإسلامية فيها مساحة وموارد، ولكونها الأضعف عسكرياً، ثم يتم بعد ذلك التحول إلى حلب والرها والموصل وغيرها.

فالأمر إذن حرب شاملة لن يسلم منها المراقب عن بعد ظناً منه أن الخطر بعيد عنه، فدوره قادم ولو بعد حين، وإذا كان الأمر كذلك فإن نور الدين بما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر، لا بد أن يخوض هذه الحرب من بدايتها فدمشق بالنسبة له كحلب تماماً، وهي في الوضع الراهن تشكل الخط الأول للدفاع عن حلب والموصل وباقي بلاد المسلمين، ولذلك نراه يحشد جيشه إلى جانب جيش أخيه سيف الدين غازي أمير الموصل بالقرب من حمص وبعلبك لإجراء التنسيق اللازم مع حكام دمشق حول العمل المشترك لمواجهة الغزو الأجنبي، وكان لهذا الحشد الأثر الرئيسي في فشل الهجوم الصليبي على دمشق.

وقد خرج نور الدين محمود من هذا الحدث الكبير بدروس مهمة تؤكد قناعاته وتوجهاته السابقة. من هذه الدروس: الأهمية القصوى للوحدة بين الإمارات الإسلامية لمواجهة الخطر الفرنجي وتحرير البلاد من احتلالهم، ثم الأهمية الإستراتيجية لإمارة دمشق في المواجهة مع الفرنجة، وضرورة الاستيلاء عليها بأي ثمن، ومنها وضع التدخل الأوروبي في الصراع مع الإمارات الفرنجية في الاعتبار[1].

4 ـ موقف رجال الدين المسيحي من الحملة الصليبية الثانية:

أما عن موقف رجال الدين المسيحي من خروج الحملة الصليبية الثانية إلى الشرق، فإنه لم يكد نبأ سقوط الرها ـ في يد عماد الدين زنكي سنة (539هـ/ 1144م) ـ يتردد في عواصم غرب أوروبا حتى أثار مخاوفَ وقلقاً شديدين، وأدرك الصليبيون أن ذلك يمثل بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الأراضي المقدسة تحتاج مراجعة المسؤولين عن إمارة

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، : ص151.

أنطاكية، واستقر الرأي على إرسال وفد إلى البابا يوجنيوس الثالث (540هـ ـ 548هـ/ 1145 ـ 1153م) ليدعو إلى حملة صليبية جديدة، فقامت بالفعل في أوروبا حركة كبيرة تدعو بكل حماس إلى سرعة القيام بهذه الحملة لإعادة إمارة الرها إلى المسيحيين، وبادر البابا يوجنيوس الثالث بدعوة لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ليتزعما تلك الحملة.

وقد رحب لويس السابع بطلب البابا، ودعا أتباعه للاجتماع به للنظر فيما يتخذ من الترتيبات، ولما لم يبد هؤلاء أي حماس للاشتراك في هذه الحملة، قرر الملك لويس السابع تأجيل تنفيذ دعوة البابا لمدة ثلاثة شهور، ولجأ إلى أحد أعلام الدين المسيحي في مملكته، وهو القديس برنارد، رئيس دير كليرفو الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة ويفوق الملك في السلطة ـ على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي رانسيمان ـ فقد كان له قدرة عظيمة على الإقناع والتأثير في الناس، ولم يكد الملك لويس السابع والبابا يوجنيوس يطلبان منه القيام بالدعوة للحملة الصليبية حتى أسرع القديس برنارد لتلبية هذا الطلب والعمل بكل قواه من أجل إنجاح هذا المسعى[1]، وكما وقف البابا أوربان الثاني في كليرمونت يدعو للحملة الصليبية الأولى قبل ذلك بخمسين سنة، وقف القديس برنارد خارج كنيسة فيزيليه في شوال سنة (540هـ/ مارس 1146م) يدعو للحملة الصليبية الثانية، ونفذ ببلاغته إلى قلوب متعطشة للحرب والمغامرة فتشتعل ناراً، فلما استمع الناس لسحر بيانه وبلاغته وفصاحته، أخذوا يصيحون طالبين الصلبان، وعندئذ خلع القديس برنارد أرديته الخارجية فقطعت وحيكت صلباناً، وظل هذا القديس ومساعدوه يخيطون الصلبان لكل الذين تطوعوا للاشتراك في هذه الحملة[2].

وبعد عدة أيام كتب القديس برنارد رسالة إلى البابا يتضح منها مدى تأثير رجال الدين المسيحيين في الناس ومدى طاعة الناس لهم ـ في ذلك الوقت ـ فيقول فيها: «لقد أمرتم، فأطعت، وما كان لمن أصدر الأمر من سلطة، جعلت طاعتي مثمرة، فلم أكد أفتح فمي وأتحدث حتى تكاثر الصليبيون، فلا حصر لعددهم، فالقرى والمدن هجرها سكانها، فلا تكاد تجد رجلاً واحداً لكل سبع نساء ويصادفك في كل مكان الأرامل اللائي لا زال أزواجهن أحياء»[3]. وبعد ذلك أخذ الحماس يزداد عند القديس برنارد بعد النجاح الذي أحرزه في فرنسا، فأخذ يطوف أقاليم ألمانيا مؤملاً أن يجتذب الألمان للاشتراك في هذه الحملة، وقد نجح إلى حد كبير في التأثير على كونراد الثالث ملك ألمانيا للانضمام إلى الحرب المقدسة، ويطلب منهم أن يقوموا بشرح الإعلان البابوي الذي بعث به البابا إلى

---

(1) تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان (2/ 407، 409).

(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 254.

(3) المصدر نفسه، ص: 255.

كافة مدن أوروبا من أجل أن يتحمل الجميع مسؤولية مساعدة الأرض المقدسة بفلسطين والعمل على تحريرها[1].

واستقر رأي المشاركين في هذه الحملة على مهاجمة دمشق واحتلالها، واشترك رجال الدين المسيحي جنباً إلى جنب مع الجند في حصار دمشق، فكان مع الملك الألماني كونراد قسيس عجوز يدعى: إلياس، طويل اللحية، يعتقدون به، فلما حاصروا دمشق، ركب هذا القسيس حماره وعلق على عنقه صليباً وحمل في يده صليباً وجمع القساوسة بالصلبان وركب الملوك والفرسان بين يديه، ولم يتخلف من الصليبيين المشاركين في الحصار أحد إلا من تركوه لحفظ الخيام. ووقف هذا القسيس أمام الجميع وهو يتقدمهم قائلاً: لقد وعدني المسيح أني أفتح اليوم دمشق ولا يردني أحد. ولكن باءت نبوءته بالفشل إذ هاجمه أحد شباب المجاهدين فقتله وقتل حماره[2].

5 ـ انتصار دمشق على الحملة الصليبية الثانية:

في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة نازلت الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون في دمشق للمصاف فكانوا مائة وثلاثين ألف رجل وعسكر البلد، فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير، فلما كان في اليوم الخامس وصل غازي بن أتابك، وأخوه نور الدين في عشرين ألف إلى حماه، وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرّع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجَّ الناس والنساء والأطفال، مكشوفي الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله، فأغاثهم[3]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62]، وكان من أسباب الله التي جعل فيها النصر لأهل دمشق: وصول جيوش الموصل وحلب في الوقت المناسب، فقد اتصل كل من سيف الدين غازي وأخوه نور الدين بمعين الدين أنر لتنسيق التعاون بينهم ضد الفرنجة، وكان معين الدين أنر حاكم دمشق لم يكن يرغب بدخول سيف الدين ونور الدين دمشق، وكان في الوقت نفسه يهدد الفرنجة بتسليم دمشق لسيف الدين أو لنور الدين إذا حاولوا اقتحامها، وراسل حكام القدس ووعدهم بتسليم حصن بنياس لهم إذا أقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بالانسحاب عن دمشق، وترافقت هذه الاتصالات مع حدوث خلاف بين الفرنجة أنفسهم حول من سيحكم دمشق بعد احتلالها[4]، قبلَ حكامُ القدس عرضَ معين الدين أنر، وأقنعوا الإمبراطور كونراد والملك لويس بضرورة الانسحاب عن دمشق خوفاً من تسليمها لسيف الدين غازي «ملك الشرق»[5]، الذي إن تسلمها طمع باحتلال القدس وباقي الإمارات الفرنجية

---

(1) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 255.
(2) المصدر نفسه، ص: 255.
(3) شذرات الذهب (6/ 219).
(4) تاريخ الحروب الصليبية (2/ 255).
(5) الباهر، ص: 89، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 96.

فيما بعد، فيزول الوجود المسيحي كله من الشرق، انسحبت جيوش الفرنجة إلى فلسطين ومنها غادر الإمبراطور كونراد عن طريق البحر إلى القسطنطينية في طريق عودته لألمانيا، بينما تأخر الملك لويس عدة أشهر ثم غادر بطريق البحر إلى فرنسا[1].

وهكذا انتهت أكبر حملة فرنجية إلى الفشل الذريع بسبب تضامن الإمارات الإسلامية، كالموصل وحلب مع دمشق وسلاجقة الروم في وجه العدوان، وبسبب توفر إرادة المقاومة والقتال في نفوس القادة، بعكس الوضع الذي حصل خلال الحملة الفرنجية الأولى التي حققت أهدافها باحتلال معظم بلاد الشام بسبب اختلاف هذه الإمارات وعدم توفر إرادة القتال وضعف روح المقاومة في نفوس الحكام.

كان نور الدين محمود المستفيد الرئيسي من فشل الحملة الفرنجية الثانية «بعد حاكم دمشق» فقد برزت أهمية الدور الذي قام به وأخوه سيف الدين غازي في إرغام الفرنجة على الانسحاب عن دمشق خائبين، وظهرت بالتالي أهمية التعاون والتضامن بين الإمارات الإسلامية في حمايتها من أطماع الفرنجة، وهذا ما كان نور الدين محمود يسعى لتحقيقه باعتباره الخطوة الأولى على طريق الوحدة التي كانت تمثل الهدف الإستراتيجي له في سبيل تحرير البلاد من الاحتلال الفرنجي، أدرك نور الدين محمود بعد فشل الحملة الفرنجية الثانية الأهمية الكبيرة لدمشق في مواجهة الفرنجة، سواء من حيث موقعها الجغرافي المواجه الأكبر وأقوى الإمارات الفرنجة (مملكة القدس) أم من حيث إمكانياتها وكثرة مواردها وقوتها البشرية، فترسخت فكرة الاستيلاء عليها في نفسه وأخذ يسعى لتحقيق ذلك معتمداً الوسائل السلمية ومستفيداً من تجربة والده في هذا المجال[2].

6 ـ مشاركة فقهاء المغاربة للدفاع عن دمشق:

لم تقتصر المشاركة الفعلية للفقهاء في القتال على فقهاء مدن بلاد الشام وحدهم، إذ تشير بعض الروايات إلى مشاركة أولئك الفقهاء المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يقيمون ببلاد الشام في تلك المعارك، فعندما تعرضت مدينة دمشق عام (543هـ/1147م) للغزو الصليبي شارك أولئك الفقهاء جيوش مدينة دمشق لمواجهة ذلك الغزو؛ وكان منهم الفقيه المغربي حجة الإسلام أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي، والشيخ عبد الرحمٰن الحلحوني[3] وكان الشيخ الفندلاوي كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً، فرآه معين الدين ـ حاكم دمشق ـ فقصده وسلّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوّة على القتال، فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نستقيله. يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111] وتقدّم فقاتل الفرنج

(1) نور الدين محمود، حسين مؤنس، ص: 96.
(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 97.
(3) موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، ص: 125.

حتى قتل رَحِمَهُ اللهُ شهيداً[1]. واستشهد الشيخ الحلحوني بعد قتال واستبسال[2]. ورؤي الشيخ الفندلاوي في المنام بعد استشهاده فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سُرر متقابلين[3].

7 ـ ما قيل من شعر:

قال أبو الندى حسان بن نمير الكلبي في مدح مجير الدين صاحب دمشق:

عَرِّجْ على نَجْدٍ لعلَّكَ مُنْجِدي ... بنسيمها وبذكر سُعْدى مُسْعِدي

من قاتل الإفرنج ديناً غيره ... والخيلُ مثل السيل عند المشهد

ردَّ الأمانَ بكلِّ نِدْب باسل ... ومن الجياد بُكلِّ نهد أجْرَدِ

ومن السيوف بكلِّ عَضْب أبيض ... ومن العَجَاج بكلِّ نقع أسود

حتى لوى الإسلام تحت لوائه ... وغدا بحمد من شريعة أحمد[4]

ثالثاً: نتائج الحملة الصليبية الثانية:

هناك مجموعة من النتائج تمخضت عنها الحملة الصليبية الثانية منها:

1 ـ **أججت العداء الغرب أوروبي:** تجاه الإمبراطورية البيزنطية، إذ أن المعاناة التي لقيها الإمبراطور الألماني كونراد الثالث وكذلك الملك الفرنسي لويس السابع من خلال الطريق البري الذي مر بمناطق بيزنطية أكد العداء المتأصل بين الطرفين، وهو عداء سيتراكم طوال القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري حتى يصل إلى ذروته مع مطلع القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري.

2 ـ **أثرت تلك الحملة على طبيعة الوجود الصليبي في الشرق،** فالملاحظ أن الحركة الصليبية ارتبطت بحلف دفاعي إستراتيجي مع الغرب الأوروبي، الذي وفر لها كل دعم مادي ومعنوي من أجل القيام والنمو والازدهار، بل وفر لها كل حماية ممكنة وسط المحيط الإسلامي المعادي، والآن بعد المصير الذي وصلت إليه الحملة الثانية بكل الآمال التي علقت على نجاحها، اتضح لنا بجلاء أن اعتماد الصليبيين على الدعم الأوروبي الخارجي خلال تلك

---

(1) أخبار الروضتين (1/ 190).
(2) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى، ص: 117.
(3) أخبار الروضتين (1/ 191).
(4) المصدر نفسه (1/ 193).

الحملة الفاشلة، لم يغنيهم شيئاً، بل لم يضمن لهم الاستمرار بقوة من احتلال مناطق المسلمين طالما أن أطماعهم لا تحد، وجشعهم ليس له حدود، لقد ظل الوجود الصليبي في الشرق أشبه شيء برضيع لم يكتب له النمو الطبيعي من خلال ارتباطه المرضي بالوطن الأم في أوروبا، وظل الاعتماد على ذلك الوطن نقطة ضعف لذلك الوليد ليس لها حل حقيقي في آلية الصراع الصليبي الإسلامي[1]. وهذا ما ينطبق على الكيان الصهيوني في فلسطين في هذا العصر.

3 ـ **عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية** عن تغيير واقع عام (539هـ/ 1144م)، وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة، أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء فقاموا بالإنجاز وراء الآخر حتى تم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم إلى المنطقة.

4 ـ **بروز نجم نور الدين محمود**: فالحملة المذكورة دعمت وجود نور الدين محمود في حلب إلى حد كبير، فعلى الرغم من خشية الدماشقة من تطلعاته السياسية، إلا أنهم صاروا على علاقات ودية معه أفضل من قبل تلك الأحداث[2]، وتدعم وضعه السياسي في شمال الشام، بصورة أقوى، فقد اعترف الدماشقة ضمنياً بقوة نفوذه السياسي، وطلبوا منه العون ضد مملكة بيت المقدس، حليفة الأمس[3].

5 ـ **ضعف حكام دمشق**: والحملة المذكورة تلقي الضوء على مدى الضعف الذي وصلت إليه أتابكية دمشق، إذ أنها لم تتمكن من مواجهة الزحف الصليبي عليها، ولذلك طلبت العون العسكري الخارجي، ولا ريب في أن ذلك الوهن أدركه نور الدين محمود بصورة مؤكدة على نحو جعله يخطط أكثر من ذي قبل من أجل توحيد الجبهة الإسلامية وضم دمشق[4].

6 ـ **تدمير حصن العريمة**: استغل نور الدين محمود أول فرصة سنحت له للعمل المشترك مع معين الدين أنر، فقد استعان رايموند أمير طرابلس بنور الدين ومعين الدين ضد أحد أمراء الفرنجة الذين حضروا مع الحملة الفرنجية الثانية من ضمن الجيش الفرنسي هو برتراند كونت تولوز، لم يرجع هذا الأمير مع الجيش الفرنسي إلى فرنسا بعد انتهاء الحملة،

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 184.
(2) المصدر نفسه، ص: 184.
(3) المصدر نفسه، ص: 185.
(4) المصدر نفسه، ص: 185.

وإنما توجه إلى الشمال في البحر محاذياً للشاطئ حتى صار بمحاذاة إمارة طرابلس، نزل إلى البر ومعه فرسانه، فاقتحم حصن العريمة التابع لإمارة طرابلس، وتحصن فيه، وأعلن نيته في الاستيلاء على طرابلس معتبراً نفسه أحق بها من أميرها رايموند، ولم يتمكن رايموند أمير طرابلس من التغلب عليه، فحاول الاستعانة بباقي الإمارات الفرنجية، وعندما لم يجد منهم استجابة بعث يستنجد بنور الدين ومعين الدين اللذين بادرا بسرعة لحصار الحصن بقواتهما واستوليا عليه، وأسرا كل مَن كان فيه، ثم دمرا الحصن حتى استوى مع الأرض، وعاد كل منهم إلى مدينته[1]، وتدل هذه الحادثة على مدى الأثر السيىء الذي أحدثه فشل الحملة الفرنجية الثانية على وضع الإمارات الفرنجية في المشرق الإسلامي[2].

7 ـ **كسر هيبة الصليبيين في نفوس المسلمين**: يعتبر العديد من المؤرخين فشل الحملة الصليبية الثانية تلك نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي ـ المسيحي، فبالإضافة إلى أنها أدت إلى انحطاط هيبة الصليبيين في الشام مما شجع القوى الإسلامية على الغارة بجرأة على الإمارات الصليبية، ثم إنها كانت المناسبة التي ظهر فيها نجم آخر من نجوم الجهاد الصليبي هو نور الدين محمود زنكي، الذي أحيا مشروع أبيه لتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين وهو المشروع الذي سيستكمله صلاح الدين، فينجح في التمهيد لإنهاء الحروب الصليبية، ولقد نجح نور الدين في استغلال الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية الثانية في توحيد الشام تحت قيادته هذه المرة على حساب حاكم دمشق، ثم استأنف جهاده للصليبيين بنجاح مما شجع القوى الإسلامية الأخرى مثل سلاجقة الروم والأراتقة والتركمان على التقدم لمواجهة الصليبيين خاصة في الرها وأنطاكية، بل وتحالفوا أيضاً في جهودهم حتى استطاع نور الدين زنكي أن يوحد بلاد الشام كلها تحت قيادته من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، فقامت دولة إسلامية موحدة مركزها دمشق، وكانت هذه هي الخطوة الأولى نحو تكوين الجبهة التي ستمتد من الفرات إلى النيل للتصدي بحق لهذا الخطر الصليبي[3] هذه هي أهم النتائج.

رابعاً: سياسة نور الدين محمود في ضم دمشق:

كان نور الدين يحاول التقرب من أهل دمشق وكسب ثقتهم ويستغل كل فرصة تحقق له ذلك؛ سعياً منه لتحقيق هدفه الرئيسي بضم دمشق دون حرب، وقد وصلته أخبار في نهاية عام (544هـ/ 1149م) عن أعمال نهب وتخريب يقوم بها الفرنجة في مناطق حوران التابعة لدمشق دون أن يردعهم أحد[4]، وكان المطر قد انحبس حتى ذلك الوقت، وعانى الناس من

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 97.
(2) المصدر نفسه، ص: 98.
(3) السقوط، ص: 136.
(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 100.

القحط، فتوجه نور الدين بجيشه حتى وصل بعلبك، وراسل مجير الدين آبق حاكم دمشق، يقول له: إنني ما قصدت بنزولي هنا طلباً لمحاربتكم، وإنما دعاني لهذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران بأن الفلاحين أخذت أموالهم، وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله تعالى، وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال، أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتي وبذلك لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية، ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله ولا أحداً من المسلمين، ولا بد من المعونة بألف فارس تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة[1].

فهذه الكلمات خرجت من قلب مكلوم، يرى الفرنج يتداعون على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها، وأولو الأمر يقفون مكتوفي الأيدي، فلا يذبون عن أمتهم، ولا يدافعون عن رعيتهم، بل ويصل الأمر إلى أنهم يبذلون أموال المسلمين لأعداء الإسلام، مع أنه لا يجوز إعطاء الكافرين أموال المسلمين وأرضهم، فكان لا بد وأن يتحرك الأبرار الشرفاء.

إن نور الدين في هذه الرسالة غير حريص على قتال إخوانه في الإسلام، وأن الذي دفعه إلى الخروج، والنزول حول دمشق، هو إغاثة المكلومين الذين ابتلوا بالفرنج، ولا طاقة لهم في دفعهم، مع قعود مجير الدين صاحب دمشق عن نصرتهم، ابتغاء مرضاة الله، وقياماً بواجب عجز حكام دمشق عن القيام به، كما أنه لا يحل لمسلم أعطاه الله القدرة على نصرة المسلمين وجهاد أعدائهم، ولا ينصرهم، وفي هذه الرسالة يرسي نور الدين معالم على طريق التحرير لعل حكام المسلمين يَعون ما فيها، حينما يذكر أن التمكين في الأرض نعمة، وكثرة المال، وكثرة الرجال نعمة، تستحق الشكر لله ﷻ، وتوظيفها في طاعة الله ﷻ، أي لا بد هنا من توظيفها في الجهاد في سبيل الله، ولا يحل لمسلم أعطاه الله ﷻ هذه النعم أن يقعد عن نصرة إخوانه في الإسلام ومجاهدة الأعداء، لهذا قرر نور الدين محمود أن يهب لنجدة إخوانه سكان دمشق[2].

كان الجواب الذي تسلمه نور الدين من حاكم دمشق: ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوفنا من الفرنج ما يُعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا[3]، وهنا قرّر نور الدين التوجه إلى دمشق ومحاصرتها، ولكن أمطاراً غزيرة جداً سقطت واستمرت أسبوعاً، فغير رأيه حقناً لدماء المسلمين، ولهج أهل دمشق وحوران بالدعاء له واعتبروا نزول المطر ببركته[4]، وقرّر نور الدين أن يستولي على المدينة بطريقة سلمية، وكان هذا القرار يتناسب مع عقيدة نور

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 100.
(2) الطريق إلى بيت المقدس، د. جمال عبد الهادي، ص: 83.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 308، 309.
(4) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين، ص: 100.

الدين محمود وطبيعته، فهو يكره سفك دماء المسلمين، ويبذل قصارى جهده ليتجنب قتال المسلمين وعُرف عنه قوله: إني أرفّه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة أعدائهم. كانت خطة نور الدين محمود للاستيلاء على دمشق سلمياً تقتضي العمل على ثلاثة محاور:

المحور الأول:

يتمثل العمل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء، وبالمقابل إبراز ما ينتظرهم من نور الدين محمود، وكانت القواعد والأسس اللازمة لمثل هذه الحملة متوافرة وموجودة أصلاً من خلال الواقع الذي يعيشه أهالي مدينة حلب وغيرهم، من رعايا نور الدين محمود، ومن خلال ما تناقله الناس عن عدله وحسن سيرته وجهاده، ولكنه أراد أن يخصَّ أهل دمشق بمزيد من الاهتمام والرعاية في هذا المجال، فكان يوصي جنوده في كل مرّة يدخل فيها أراضي الإمارة أن يحسنوا معاملة الفلاحين ومن يلقونهم من أهالي دمشق وألا يُحدِثوا أية أضرار في الممتلكات والمزارع، وعندما علم باعتداءات الفرنجة على حوران (جنوب دمشق) وقَتْلهم للمسلمين وسَبيهم للنساء والأطفال ونَهْبهم للمواشي، دون خروج حاكم دمشق لدفعهم، بادر بالتوجه بجيشه إلى دمشق، وعندما اقترب من المدينة. . . أرسل إلى حاكمها الرسالة الآنفة الذكر وعندما علم نور الدين أن حاكم دمشق طلب مساعدة الفرنجة، أجرى تعديلاً على توزيع مواقع قواته للتعامل مع الموقف الجديد.

التقى مجير الدين آبق مع قادة الفرنجة وأكد معهم اتفاقه القديم، ولكن أدرك فيما بعد عزم نور الدين وتصميمه على احتلال المدينة، فأرسل إليه يطلب الاجتماع به وإعلان الطاعة له، وذكر اسمه في الخطبة وصك اسمه على النقود مقابل بقائه حاكماً على المدينة، فقبل نور الدين بهذا العرض، وتم الاجتماع في معسكر نور الدين، وخرج أغلب أهل دمشق إلى معسكر نور الدين ليملؤوا عيونهم من طلعة نور الدين[1] وانتهز نور الدين محمود الفرصة فحرص على لقاء العلماء وطلبة العلم وقُراء القرآن، وأكرمهم كما أحسن إلى الفقراء والضعفاء وشملهم بعطفه، مما ترك أحسن الأثر في نفوس الناس، ومع أن مجير الدين آبق نقض اتفاقه مع نور الدين وأعاد علاقته بالفرنجة كما كانت في السابق، إلا أن نور الدين كان قد تملك قلوب الرعية في دمشق وحقق نجاحاً كاملاً على المحور الأول من خطته.

المحور الثاني:

كان العمل يشتمل على الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 309، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 141.

والقضاة والعلماء وبعض قادة الجند، وقادة التنظيمات الشعبية[1]، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب، وكان من أشهر العاملين على هذا المحور القائد المشهور أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين)، فقد كان الأخير من سكان دمشق ومن أشهر وجهائها[2]، بينما كان أسد الدين من أكبر القادة العسكريين العاملين مع نور الدين محمود، فاستغل نور الدين هذا الوضع وأوعز إلى قائده أسد الدين بمراسلة أخيه نجم الدين وتحريضه على الإطاحة بمجير الدين آبق، وتسهيل تسليم المدينة لنور الدين بدون قتال في الوقت المناسب، فاستجاب نجم الدين وبذل في هذا المجال جهوداً كبيرة أثمرت في نهاية الأمر حتى أخذ أعيان دمشق يراسلون نور الدين يطلبون حضوره معلنين عن استعدادهم لحصر مجير الدين آبق في قلعة دمشق، وتسليم المدينة له دون قتال[3]. وهكذا كان النجاح على هذا المحور كاملاً كما هو على المحور الأول.

المحور الثالث:

كان المحور الثالث من اختصاص نور الدين نفسه، فقد استطاع بخبرته ومقدرته على تحليل النفوس البشرية، النفاذ إلى شخصية مجير الدين آبق وتحليلها، ومعرفة ميوله ورغباته وتعامل معه على هذا الأساس، فأخذ يراسله ويستشيره في أمور المسلمين ويتقرب إليه بالهدايا حتى أطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يوقع بينه وبين قادته وأمرائه، فيكتب له عن بعض أمرائه وقادته بأنهم يراسلونه[4]، (أي يراسلون نور الدين) فيقبض مجير الدين عليهم أو يجرّدهم من مناصبهم أو يقتلهم، حتى لم يبق من كبار قادته وأمرائه مَن يعتمد عليه في ضبط أمور الجيش وإدارة القتال[5]، وأصبح مكروهاً من الرعية معزولاً عن الأعيان والوجهاء مجرداً من القادة الأكفاء، عندها حانت الفرصة المناسبة، وأصبحت دمشق كالثمرة الناضجة، فسار نور الدين محمود إليها بجيشه وأوعز إلى أنصاره فيها لتنفيذ ما اتفق عليه، فثاروا وهاجموا أبواب المدينة من الداخل وفتحوها أمام جيش نور الدين بينما تحصّن مجير الدين آبق مع مَن بقي معه من الجند في قلعة المدينة وطلب النجدة من الفرنجة الذين سارعوا إليها، ولكن نور الدين كان أسرع منهم فرجعوا خائبين، ثم أرسل نور الدين إلى مجير الدين يؤمنه على نفسه وعلى مَن معه من الجند، ويعده بإقطاعه مدينة حمص إذا استسلم وخرج من القلعة، فقبل وحقق له نور

---

(1) الباهر، ص: 107، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 141.

(2) الكواكب، ص: 122، المصدر نفسه، ص: 141.

(3) الباهر، ص: 107، المصدر نفسه، ص: 141.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 325، المصدر نفسه، ص: 142.

(5) المصدر نفسه، ص: 142.

الدين وعده ولكن أبدله بحمص مدينة بالس على نهر الفرات في الشرق[1]. وهكذا نجحت خطة نور الدين في ضم دمشق إلى دولته بدون قتال نجاحاً كاملاً ـ بفضل الله ـ ثم حنكته السياسية ومقدرته على تأليف القلوب واستمالتها بالإضافة إلى قوة عزمه وتصميمه على الهدف وصبره وَتَرَوِّيه في التعامل مع الأمراء المنحرفين عن جادة الصواب[2].

ولقد تمكن نور الدين من ضم دمشق في صفر عام (549هـ/ أبريل 1154م)[3]، ويعد ضم دمشق من أهم إنجازات السياسة الخارجية النورية، وبذلك تحقق حلماً طالما راود الزنكيين، وقد عده البعض أعظم إنجازاته على الإطلاق، وأنه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية[4]، حيث غدت بلاد الشام والجزيرة تحت سيطرته، وصار الصليبيون بذلك يواجهون عدواً خطيراً[5]، وإذا كان بلدوين الثالث بإسقاطه عسقلان عام (548هـ/ 1153م) أكمل مد النفوذ الصليبي على كافة أنحاء الساحل الشامي من الإسكندرية شمالاً إلى غزة جنوباً؛ فإن استيلاء نور الدين على دمشق جعل داخلية بلاد الشام من الفرات حتى بردى في قبضة قوة إسلامية موحدة[6]، وتلك هي المرة الأولى التي تتوحد فيها الشام مُنذ العهد السلجوقي، وصار بإمكان نور الدين محمود أن يوجه ضرباته لأعدائه في الشمال صوب أنطاكية، وفي الجنوب صوب منطقة الجبل الأعلى والحدود الشمالية للمملكة اللاتينية، كذلك أدى إسقاط دمشق إلى فتح الطريق نحو القاهرة، التي غدت محط أطماع متبادلة من جانب نور الدين والصليبيين على حد سواء[7].

خامساً: أهم نتائج ضم دمشق:

ترتب على ضم دمشق عدة نتائج كانت لصالح المسلمين لعل أهمها:

1 ـ قضى نور الدين محمود على الأسرة البورية التي حكمت دمشق مُنذ عام (497هـ/ 1103م) وآلت هذه الأتابكية بجندها وإقطاعاتها إليه، فكان ذلك فتح الفتوح وأضحت الدولة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب.

2 ـ صفت الممالك بالشام لنور الدين محمود، وألقى الإسلام بدمشق جرانه، وثبَّت أوتاده، وذلك إشارة إلى أن دمشق كانت في ظل حكم الأسرة البورية تحت حماية الصليبيين.

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص: 327، 328.
(2) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 142.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 114.
(4) الشرق الأوسط للعريني، ص: 299، الجهاد ضد الصليبيين، ص: 280.
(5) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 115.
(6) المصدر نفسه، ص: 115.
(7) المصدر نفسه، ص: 115.

3 ـ قامت لأول مرة في بلاد الشام مُنذ أن وطئها الصليبيون دولة إسلامية متحدة مركزها دمشق، وقد أفزع هذا الصليبيين، فعلّق المؤرخ وليم الصوري قائلاً: كان هذا التغير مشؤوماً بالنسبة لمصالح مملكة بيت المقدس؛ لأنه وضع الصليبيين في مواجهة خصم عنيد في شدته محل رجل مسلوب الإرادة ـ إشارة إلى مجير الدين أبق ـ قد جرَّده ضعفه من أن يكون مصدر أذى عليهم، كما أنه ظلَّ حتى ذلك الوقت يدفع لهم الجزية سنوياً شأنه في ذلك شأن التابع لهم[1]. وفي رأينا أن التغيير المشؤوم بالنسبة لمملكة بيت المقدس هو نفسه التغيير المبارك بالنسبة للمسلمين هو توحد عدة مدن كانت دويلات في دولة واحد قوية، وتوحيد جيوشها المبعثرة في جيش واحد قوي على رأسه قيادة ربانية كنور الدين زنكي استطاعت أن تعطي هيبة وقوة للدولة.

4 ـ شَكَّل ضمُّ دمشق إلى حلب نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحول وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود، فمن الرها شمالاً حتى حوران جنوباً امتدت دولة إسلامية واحدة مركزها دمشق، فقبل ذلك الوقت كان المسلمون في الشرق الأدنى الإسلامي منقسمين إلى قسمين منفصلين، قسم في الجنوب أي مصر، وقسم في الشمال أي شمال الشام والعراق، وقد استطاع الصليبيون بفضل موقف حكام دمشق توجيه الضربات لكل قسم من هذين القسمين على انفراد دون أن يتمكَّن القسم الآخر من دفع خطرهم[2].

5 ـ حقَّق ضم دمشق نوعاً من التوازن بين المسلمين والصَّليبيين في بلاد الشام، بل فاق في كفة المسلمين رجحانه، فإذا كان الصليبيون قد حقّقوا السيطرة على جميع ساحل بلاد الشام من الإسكندرونة إلى غزة، فإن ضمَّ نور الدين محمود لدمشق جعل بلاد الشام الداخلية من الفرات حتى نهر بردى في قبضة إسلامية واحدة، وإذا كان الصليبيون في الشمال قد نجحوا في الاستيلاء على حارم، وعلى الضفة الشرقية لنهر العاصي، فإن ضياع هذه القلعة من المسلمين لا يعادل بأي حال الأهمية العسكرية والمعنوية لدخول نور الدين محمود دمشق[3].

6 ـ تحقَّق بضمِّ دمشق جانب كبير من أهداف نور الدين محمود الرامية إلى توحيد الجبهة الإسلامية، وكان قد أمَّن المركز المسيطر على طريق وادي العاصي المؤدي إلى

---

(1) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار (2/ 815).
(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 289.
(3) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 289.

أنطاكية، فأضحى بإمكانه عند نشوب الحرب بينه وبين الصليبيين أن يسدِّد ضرباته وفق رغبته إلى الشمال والجنوب بعد أن انهار الحاجز المنيع الذي كان يفصل حلب عن بيت المقدس، وبعبارة أخرى، أضحت بيت المقدس في متناول يده.

7 ـ على الرغم من أن ممتلكات الصليبيين تفوق في المساحة وفي الثروة ممتلكات نور الدين محمود، فقد كان له ميزة توحيد الممتلكات تحت زعامة واحدة يقلُّ عن سائر أمراء الصليبيين المتشرذمين، فيما يتعرض له من مناوأة من قِبل أتباعه الطموحين[1].

8 ـ أخذ نجم نور الدين محمود في الصعود، غير أنه كان شديد الحذر، مما منعه في المضي في استكمال انتصاراته، لذلك أكَّد من جديد ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس، فقد جدَّد في عام (551هـ/ 1156م) الهدنة لمدة سنتين[2]. لم تأخذ نور الدين نشوة الانتصار وعاطفة العوام ولم يتأثر بغرور الانتصار، وإنما عالج الوضع بعقلية القائد المحنك واهتم نور الدين بالأمور الإدارية والحضارية والسعي لتعزيز المذهب السني بدمشق وعمارة الاستحكامات وأسوار المدن[3].

ـ **ما قيل من الشعر في حصار دمشق عام 546هـ:** في عام 546هـ حاصر نور الدين محمود دمشق فمدحه ابن المنير بقصيدة يحرضه على حكام دمشق فقال:

أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ ... تصديقَ واصفهِ سَراةُ المِنْبَرِ
لا المستطيل بمصر ظلُّ قُصُوره ... والمستطال إليه شُقَّة صَرْصَرِ
يا نور دين الله وابن عِماده ... والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفِّر بحدِّ السَّيْف دار أشائب ... عقلوا جيادك عن بنات الأصفر
هم شَيَّدُوا صرح النِّفاق وأوقدوا ... ناراً تُحَشُّ بهم غداً في المحشر

إلى أن قال:

يا أيها الملك المنادي جُودُه ... في سائر الآفاق هل من معسر
إن القصائد أصبحت أبكارُها ... في ظل ملكك غاليات الأمهر[4]

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 290.
(2) المصدر نفسه، ص: 290.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 261.
(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 260، 261).

المبحث الثالث
العلاقات مع القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة والأناضول:

أولاً: الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية من بلاد الشام:

إن حرص الدولة النورية على ضم وسط الشام إلى حلب لم يجعلها تتناسى أهمية إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، إذ أن ذلك يُعَدُّ تدعيماً حقيقياً لسلطانها في حلب ذاتها[1].

1 ـ العلاقة مع شيزر:

كان نور الدين قبل سنة 552هـ لا يهاجم شيزر؛ لانشغاله عنها لجهاد الإفرنج وخوفاً من أن يسلمها صاحبها إلى الصليبيين، ولكنه أصيب في هذا العام سنة (552هـ) بزلزلة وانهدم الحصن، وقتل جميع آل منقذ الموجودين[2] فيه، فبادر إليها بعض أُمراء نور الدين، وقصد إليها وجدد أسوارها فعادت جديدة[3]، ودخلت شيزر في دولة نور الدين وحقق ضمها مكاسب تجارية وسياسية واستراتيجية للزنكيين، فقد كانت تقع على خطوط التجارة بين حلب ودمشق وحمص، بحيث جعلت لمن يحكم قبضته عليها حق جباية المكوس، ومن جهة أخرى صار إخضاعها أمراً تمليه الأحداث بعد أن طمع الصليبيون في الاستيلاء عليها، حيث أنهم بادروا إلى ذلك في نفس العام[4]، ولا شك في أن محاولة الصليبيين قد جعلت الدولة النورية تدرك أكثر من أي وقت مضى أهمية إخضاع شيزر، لأن استيلاءهم عليها يشكل خطراً داهماً خاصة على مدينة حلب قلب الدولة النورية في مرحلتها الباكرة[5].

إن نجاح الدولة النورية في السيطرة على شيزر، بمثل تلك السهولة التي توردها المصادر دلالة واضحة على أن النفوذ السياسي لبني منقذ حينذاك، انتهى بصورة فعلية على نحو لم يشكلوا معه أية معارضة حقيقية للسياسة الخارجية النورية، ولذا جاءت أحداث الزلازل المذكورة لتعطي لنور الدين الحافز القوي للإجهاز على كيان سياسي محلي متلاشٍ[6]، وهذا يذكرنا بسنة من سنن الله في خلقه وهي: إذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه، وقد تحدث الأمير أسامة بن منقذ عن ما حدث لقومه من زَلزلة عظيمة في شيزر، ودمرت حصنها على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ وقتل عدد كثير من بني منقذ في هذه الزلزلة، وقد حزن أسامة كثيراً على وفاة أقاربه فقال في رثائهم:

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 115.
(2) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، ص: 235.
(3) المصدر نفسه، ص: 235.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 116.
(5) المصدر نفسه، ص: 116.
(6) المصدر نفسه، ص: 116.

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم ... ولا تخرَّمهم مثنى ووحدانا
فكنت أصبرُ عنهم صبر محتسب ... وأحمد الخطب فيهم عَزَّ أوهانا
وأقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا ... أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا
ماتوا جميعاً كرجع الطرف وانقرضوا ... هل ما ترى تارك للحين إنسانا
ما يتركِ الدهر لي من بعد فقدهم ... قلباً أُجَشِّمه صبراً وسلوانا
فلو رأوني لقالوا مات أسعدُنا ... وعاش للهمِّ والأحزان أشقانا
هذي قصورهم أمست قبورهم ... كذاك كانوا بها من قبل سكانا
بنو أبي وبنو عمي دمي دَمهم ... وإن أروني مناواة وشنآنا
يُطيِّبُ النفس عنهم أنهم رحلوا ... وخلفوني على الآثار عجلانا[1]

ورثى أسامة كذلك ولده عتيق وبكاه في أكثر من قصيدة، وكان حزنه لموته شديداً فمما قال فيه:

غالَبتْني عليك أيدي المنايا ... ولها في النفوس أمر مطاع
فتخليت عنك عجزاً ولو أغنى ... دفاعي لطال عنك الدفاع
وأرادت جميل صبري فرامت ... مطلباً في الخطوب لا يُستطاع[2]

ونلاحظ في رثاء الشاعر لأهله وولده أنه كان متأثراً إلى حد بعيد بفاجعته فيهما، وكانت قصائده تصور هذا الحزن العميق، والفاجعة الأليمة، وحيث أن رثاءه كان صادقاً ومعبراً عن حقيقة ما يُشعر به تجاه هؤلاء الأقارب، فإن كلمته كانت صادقة ومؤثرة، وبعيدة عن التصنع والتكلف[3].

2 ـ الأسرة الجندلية في بعلبك:

وامتداداً لسياسة تحجيم الأسر الحاكمة المحلية وإضعافها، حتى لا تنافس الدولة النورية في حلب ودمشق، سعت الدولة النورية إلى مواجهة الأسرة الجندلية التي سيطرت على

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 337، 338).
(2) الديوان، ص: 526.
(3) شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، ص: 301.

بعلبك، وترأسها الضحاك بن جندل البقاعي، ودانت بالمذهب الدرزي، ولا شك أن الأقليات الدينية خاصة الدرزية شعرت بصفة مستمرة برغبة في التكتل من خلال تواجدها وسط محيط سني متحمس للكتاب والسنة والعقيدة الصحيحة، ومناوىء للبدع الشيعية الرافضية الباطنية. وكان الضحاك بن جندل تابعاً لأتابكية دمشق، وأدرك خطورة سيطرة الدولة النورية على دمشق عام (549هـ/ 1154م)، وأعلن عصيانه على نور الدين، وقد خشي الأخير أن يصطدم به حتى لا يطلب عون الصليبيين، خاصة ما عرف عنه من مناورات سياسية، حيث تأرجح بين الولاء للمسلمين السنة تارة، والصليبيين تارة أخرى[1]، ليضمن بقاء كيانه السياسي بمنأى عن الاندحار وسط كيانات أكبر من أن يواجهها منفرداً[2].

ولا مراء في أن الدولة النورية السنية نظرت بارتياب إلى وجود كيان محلي درزي في تلك المنطقة المهمة في سهل البقاع بالقرب من الوجود الصليبي، وعلى الرغم من أن الأسرة الجندلية لم تكن تمثل قوة سياسية كبيرة، فإن نور الدين محمود حاذر من تصعيد الصدام مع الضحاك البقاعي، ولا أدل على ذلك من أنه أخذه بالملاينة لنحو ثلاث سنوات، حتى تمكن من إخضاع بعلبك لسيطرته عام (552هـ/ 1157م)[3]، وكان ذلك بعد المهادنة والاتفاقية بين نور الدين والملك الصليبي، ولم يُظهر الضحاك مقاومة، وأجاب أمر نور الدين، وهكذا شهد عام (552هـ/ 1157م) تأميناً لحلب في شمال الشام بإخضاع شيزر، ثم بتدعيم السيادة النورية في سهل البقاع بانتزاع بعلبك من السيطرة الدرزية، وبالتالي صار الطريق من دمشق إلى بعلبك مهيأ أكثر من ذي قبل لشن هجمات حربية تجاه المناطق الصليبية، ولم يعد سهل البقاع يحوي قوة تمثل موضعاً مضاداً للنفوذ النوري[4].

3 ـ ضم حرّان:

اتجهت السياسة الخارجية النورية إلى ضم حران بعد أن خضعت للأخ الأصغر لنور الدين نصرة الدين أمير ميران[5] ومن المعروف أنه اتخذها مقراً له، وقد اتسمت العلاقات بين الجانبين بالود في بادئ الأمر، حتى أن نور الدين عندما وقع فريسة للمرض عام (552هـ/ 1157م) أوصى أن يكون نصرة الدين خليفته على عرش الدولة النورية، غير أن العلاقات تدهورت بعد أن غدت حران أقل من الطموحات السياسية الجامحة لنصرة الدين الذي تطلع إلى حلب ذات الثراء التجاري العريض، ولذا اغتنم فرصة مرض أخيه ليستولي على السلطة ويبدو أنه تحصّل على دعم من الشيعة الإسماعيلية وأنهم عاونوه على تحقيق مراميه، وطبيعي

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 117.
(2) المصدر نفسه، ص: 117.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 331، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 118.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 118.
(5) المصدر نفسه، ص: 118.

أن سبب دعمهم لحركته عداء الدولة النورية لهم وحرمانهم من النفوذ السياسي الذي تمتع به السنة، ويبدو أنهم وجدوا فيه ورقة رابحة لضمان نفوذهم في الدولة النورية، وتمكن نصرة الدين من الاستيلاء على المدينة غير أن قلعتها استعصت عليه، ويبدو أن ذلك مَثَّل أهم عوامل فشل المحاولة، على الرغم من وجود تنسيق بين المتآمرين في كل من حلب ودمشق من أجل السيطرة على المركزين الرئيسين للدولة سياسياً واقتصادياً، وضمان إخضاع باقي الأقاليم بلا عناء كبير، ومن الواضح أن شرطة الدولة النورية تمتعت بيقظة كبيرة، إذ المتآمرين سعوا إلى الاتصال وتنظيم المحاولة بالرسائل، غير أنها سقطت في أيدي الشحنكية، وأدى ذلك إلى إلقاء القبض عليهم، وقد مثلوا عناصر فعالة في الجهاز الإداري للدولة[1]، وأمام تلك الأحداث، قرر نور الدين إخضاع حران لسيادته نهائياً وإقصاء أخيه عنها، وحاصرها بالفعل لمدة شهرين وأسقطها عام (554هـ/ 1159م)[2]، ولاذ نصرة الدين بالفرار، ولا نزاع في أن الاستيلاء على حران دعم قبضة الدولة النورية في مناطق الجزيرة، وأفادها داخلياً بتحجيم خطر الشيعة الإسماعيلية بالقضاء على نفوذ نصرة الدين وإيقاف دعمه لهم، ومع ذلك فإن نور الدين أدرك بثاقب بصره إمكانية الإفادة من مهارات أخيه الحربية بالرغم مما حدث، فتحسنت العلاقات بينهم[3]، بعد انقشاع سحب النزاع السابق واشترك معه في بعض المعارك المهمة ضد الصليبيين في حارم عام (559هـ/ 1164م)[4]، وبانياس عام (560هـ/ 1165م)[5].

4 ـ منبج:

حاول الأمير غازي بن حسان المنبجي الاستقلال بمنبج، وهي التي آلت إليه، بعد وفاة والده، وأمام ذلك لم يكن بوسع نور الدين محمود إلا إرجاع الأمور إلى نصابها بالتدخل العسكري، لقمع حركته حتى لا تستشري عدوى الاستقلال لدى الأمراء المقطعين على حدود الدولة النورية، وفي مناطق الحدود والأطراف بين العراق وشمال الشام، وبالفعل أخمد حركته في عام (562هـ/ 1167م)[6]، وأقطع منبج لأخيه قطب الدين ينال بن حسان، وتدل سياسة نور الدين تجاه منبج، ومن قبل حران، على أن الاهتمام بالتوسع والسيطرة لم يكن يقتصر على مناطق وسط الشام وشماله، بل أيضاً الجزيرة الفراتية والمنطقة الواقعة فيما بين العراق وشمال

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 119.
(2) المصدر نفسه، ص: 119.
(3) زبدة الحلب (2/ 321) فن الصراع الإسلامي، ص: 120.
(4) البستان الجامع للأصفهاني، ص: 145، فن الصراع، ص: 120.
(5) شذرات الذهب، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 120.
(6) الباهر، ص: 134، 135، فن الصراع الإسلامي، ص: 120.

الشام، وقد دفعه إلى الاهتمام بتلك المناطق بعض الدوافع، فهو بالإضافة إلى رغبته في تجنب امتداد مثل ذلك الصراع إلى عقر داره في داخل بلاد الشام، فإنه أيضاً لم يشأ أن يجعل نفوذاً لبعض القوى السياسية المحلية المسلمة بجوار الخلافة العباسية في العراق، على نحو يثير له المتاعب من جهة، ويضعف من هيبة حكمه لدى بغداد من جهة أخرى، وطبيعي أنه سار وفق خطة قائمة على توحيد المدن الإسلامية، ولم تكن مجهوداته في هذا الصدد بصورة عشوائية[1].

وقال العمال الأصفهاني في فتح منبج عام 563هـ قصيدة جاء فيها:

بشرى الممالكِ فتحُ قلعةِ منبج ... فليُهنِ هذا النصرُ كل متوَّج

أُعطيت هذا الفتحَ مفتاحاً به ... في الملك يفتح كلَّ باب مُرْتجِ

وافى يُبَشِّرُ بالفتوح وراءه ... فانهض إليها بالجيوش وعَرِّجِ

أبشر فبيتُ القدسِ يتلو منبجاً ... ولمنبجٌ لسواه كالأنموذَج

ما أعجزَتْكَ الشُّهبُ في أبراجها ... طلباً فكيف خوارجٌ في أبْرُجِ

ولقدرُ من يعصيك أحقر أن يَرى ... أثر العُبوسِ بوجهكَ المُتَبلِّجِ

لكن تهذُبُ من عصَاكَ سياسة ... في ضمنها تقويمُ كلِّ مُعَوَّج

فانهد إلى البيت المقدس غازياً ... وعلى طرابُلس ونابُلس عرِّج

قد سِرتَ في الإسلام أحسنَ سيرة ... مأثورة وسلكت أوضح منهج

وجميع ما استقريت من سُننَ الهُدى ... جَدَّدت منه كلَّ رسم منهَجِ[2]

5 ـ فتح قلعة جعبر:

وأما سياسة الدولة تجاه قلعة جعبر، فإنها لم تشأ أن تجعل من مناطق الحدود بين العراق والشام مراكز قوية قد تعاديه يوماً، فقد كانت قلعة جعبر تقع على نهر الفرات وامتازت بحصانتها المنيعة، وقد اهتم عماد الدين زنكي بفتحها، وقد قتل وهو يحاصرها عام (541هـ/ 1146م) وقد استخدم نور الدين محمود الطرق السلمية مع شهاب الدين العقيلي، فبعد أن أسره على أيدي أعراب بني كلاب، عمل على إكرامه في أسره وملاينته

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 121.

(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 33).

لتسليم القلعة غير أنه رفض[1]، وعندما أدرك عدم جدوى الملاينة سعى إلى حصارها، بَيْد أنه عجز عن ذلك، فعاد مرة أخرى لملاطفته وعوضه عنها بمناطق سروج وأعمالها ومنطقة الملاحة من أعمال حلب وباب بزاغة[2]، وهي مناطق ثرية بمواردها الزراعية، كذلك أسال لعابه عندما وهبه عشرين ألف دينار، وهكذا تمكّن من الاستيلاء عليها (عام 564هـ/ 1168م)[3].

وهكذا فإن لكل ولاية نهاية، يؤتي الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، وكان آخر أمر بني مالك حكام قلعة جعبر، وكان آخر أمرائهم شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقيلي من آل عقيل من بني المسيِّب، وكانت بيده ويد آبائه من قبل من أيام السلطان ملكشاه[4]. وقيل لشهاب الدين: أيما أحب إليك وأحسن مقاماً، أسروج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه[5] وقال العماد الأصفهاني قصيدة أنشدها لنور الدين لقلعة جعبر جاء فيها:

أسلم لبكر الفتوح مُفتَرِعا ... وَدُمْ لمُلك البلاد منتزِعا

فإنَّ أولى الورى بها مَلِكٌ ... غدا بعبء الخُطُوب مضطلِعا

إن ضاق أمر فغير همته ... لكشفِ ضيقِ الأمور لن يَسَعا

يا محيي العدل بعد مِيْتتِه ... ورافع الحقّ بعدما القَنَعا

ونور دين الهدى الذي قمع ... الشرك وعفَّى الضَّلال والبِدَعا

أنت سليمان في العفاف وفي ... الملكِ وتحكي بزهدك اليَسَعا

وحُزت التُّقى والحياء والكرم ... المحضَ وحُسنَ اليقينِ والوَرَعا

أسقطت أقساط ما وجدت ... من المَكْسِ بعدلٍ والقاسطُ ارتدعا

إلى أن قال:

ومالك حين رُمت قَلْعَتَهُ ... غدا مطيعاً للأمر مُتَّبِعا

عنا خشوعاً لربِّ مملكةٍ ... لغير ربِّ السماء ما خشعا[6]

وفي سابع عشر صفر من سنة 564هـ توفي بها عمر أخو مجد الدين ابن الدّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة:

---

(1) نهاية الأرب، نقلاً عن فن الصراع، ص: 122.
(2) البستان الجامع، نقلاً عن فن الصراع، ص: 122.
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 42).
(4) المصدر نفسه (1/ 41، 42، 43).
(5) المصدر نفسه (1/ 43).
(6) المصدر نفسه (1/ 44).

أنـتـم لـمـحـمـودٍ كـآلِ مـحـمـدٍ	مـتـصـادفـي الأفـعـال والأسـمـاء
يـتـلـو أبـا بـكـر عـلـى حـسـنـاتـه	عُـمـر الـمـمـدَّحُ فـي سـنـاً وسـنـاء
ويـلـيـه عـثـمـانُ الـمـرجَّـى لـلـعُـلا	وعـلـيٌّ الـمـأمـولُ فـي الـلأواء
ويـقـبِّـلُ الـحـسـنَ الـمـمـجَّـدَ مـجـدهـم	فـهـمُ ذوو الإحـسـان والـنَّـعـمـاء
فـرعـت بـمـجـد الـديـن إخـوتـه الـذُّرى	دون الـورى فـي الـمـجـد والـعـلـيـاء
مـن سـابـق كـرمـاً وشـمـس سـيـادةٍ	شـرفـاً وبـدر دُجُـنَّـةٍ وبـهـاء
سُرُجُ الهدى سُحُبُ النَّدى شُهُب النُّهى	أسـدُ الـحـروب ضـراغـمُ الـهـيـجـاء

يريد سابق الدين عثمان، وشمس الدين علياً، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى[1].

ثانياً: ضم الموصل:

انتهت بوفاة قطب الدين مودود في شهر ذي الحجة عام (565هـ/ شهر آب عام 1170م) مرحلة مهمة من مراحل التعاون بين إمارتي الموصل وحلب. فقد كان قطب الدين مودود حسن الاتفاق مع أخيه، وعلى تفاهم معه، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله، حضر معه المصاف بحارم وفتحها، وفتح بانياس، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف[2]، وأوصى قطب الدين مودود بالملك من بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، إلا أن نائبه فخر الدين عبد المسيح استطاع بالاتفاق مع زوجته الخاتون أن يحول دون توليته، وأخذ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني[3]، ويبدو أن النائب خشي من تأثير نور الدين محمود على ابن أخيه عماد الدين زنكي نظراً لطول إقامته عنده وزواجه من ابنته. وكان نور الدين محمود يكرهه: لظلم كان فيه، ويلوم أخاه قطب الدين مودوداً على توليته الأمور[4]. وفعلاً استقر الأمر لسيف الدين غازي الثاني، وأضحى فخر الدين عبد المسيح المتصرف في أمور البلاد، وليس للأتابك من الأمر إلا الاسم[5]. أدَّت التغييرات التي شهدتها دولة الموصل، بعد وفاة قطب الدين مودود، وردة الفعل المناهضة لها من قبل نور الدين محمود إلى ما يلي:

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين 02/ 45).
(2) الباهر، ص: 149، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 183.
(3) المصدر نفسه، ص: 146، تاريخ الزنكيين، ص: 183.
(4) الباهر، نقلاً عن تاريخ الزنكيين، ص: 183.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 183.

ـ خضوعها لنفوذ نور الدين محمود المباشر.

ـ تقلص رقعتها بسبب اقتطاع بعض أجزائها.

والواقع أن نور الدين محمود أَنِف من ازدياد نفوذ عبد المسيح وتحكُّمه بأمور الموصل على حساب ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني الذي نازع أخاه الأكبر على الحكم، وشقّ عليه إبعاد عماد الدين زنكي عن خلافة والده، وقال: أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم[1]. لذلك قرَّر التوجه إلى الموصل لتسوية المشكلة وفقاً لمصلحته، وأرسل إلى الخليفة العباسي الحسن أبي محمد المستضيء بأمر الله سنة (566هـ ـ 575هـ/ 1170 ـ 1180م) يشرح له الهدف من هذا التوجه مؤكداً شرعيته، وقال: «إني قصدت بيتي وبيت والدي، فأنا كبيره ووارثه» وأوصى رسوله إليه بأن يأخذ له إذناً في ذلك، وأنه ممتثل لما يرد عليه منه[2].

وعبر نور الدين محمود الفرات عند قلعة جَعْبَر في شهر محرم عام (566هـ/ شهر أيلول عام 1170م) قاصداً الرقة، وكانت من أملاك أخيه سيف الدين غازي الأول، فأذعن نائبها له، وسلمه إياها[3]. ثم تابع زحفه نحو الموصل، فانتزع الخابور كله، وأخذ نصيبين، فأقام بها يحشد العساكر من الأطراف، وانضمَّ إليه نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا، ثم توجه إلى سنجار، وبها حامية من الموصل، فحاصرها، وأقام المجانيق عليها. ووفد عليه أثناء الحصار عدد من أمراء الموصل يستحثونه على القدوم عليه حتى سقطت في يده، فأعطاها إلى ابن أخيه عماد الدين زنكي الذي كان يرافقه في هذه الحملة، ووصلت إليه أثناء الحصار خلعة الخليفة والإذن له بدخول الموصل والجزيرة، وتابع نور الدين محمود زحفه باتجاه الموصل، فوصل إلى بلده وعبر دجلة إلى الجانب الشرقي، ألقى نفسه عند حصن نينوى شرقي الموصل بحيث أضحى لا يفصله عنها سوى النهر. وحتى يبرِّر تقدمه، أرسل إلى ابن أخيه سيف الدين غازي الثاني يوضِّح له أن الهدف من حملته حفظ المدينة، وإبعاد فخر الدين عبد المسيح عن ولاية المسلمين بوصفه نصرانياً، بالإضافة إلى أن تصرفاته الخشنة نفَّرت منه الأمراء[4].

والواقع أن عبد المسيح كان عاجزاً عن الوقوف في وجه نور الدين محمود، كما أنه وقف على مؤامرة دبَّرها أمراء الموصل ضده لإبعاده عن الحكم، وتسليمه الموصل، فأراد

(1) الباهر، ص: 152، تاريخ الزنكيين، ص: 183.
(2) البرق الشامي، ص: 94.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 184.
(4) المصدر نفسه، ص: 184.

تقوية موقفه، فاستنجد بالأتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب بلاد الجبل، وأذربيجان، الذي أرسل بدوره رسولاً إلى نور الدين محمود، وكان حينئذ بسنجار، ينهاه عن التعرض للموصل، لكن نور الدين محمود أهمل الرسالة، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أرفق ببني أخي منك، فلِمَ تُدخل نفسك بيننا؟ ثم هدّده بالزحف على بلاده وانتزاعها منه؛ لأنه أهمل حفظ البلد من تعديات الكرج[1]، واضطر عبد المسيح أخيراً للجنوح إلى السلم، واشترط على نور الدين محمود أن:

- تبقى الموصل بيد سيف الدين غازي الثاني.

- يعطيه لنفسه وأهله.

- يمنحه إقطاعاً.

وقد استجاب نور الدين محمود لطلب الصلح، إلا أنه أصرّ على خروج عبد المسيح من الموصل، ومرافقته إلى البلاد الشام[2]، ودخل صاحب حلب الموصل في شهر جمادى الأولى (عام 566هـ شهر كانون الثاني عام 1171م) من باب السر[3]، واتخذ عدة إجراءات تنفيذية لترتيب أوضاعها منها:

- أقرّ سيف الدين غازي الثاني على الموصل وجزيرة ابن عمر.

- ولّى مملوكه سعد الدين كمشتكين نائباً عنه في القلعة.

- أمر سيف الدين غازي الثاني بالعودة إليه في تدبير الأمور.

- أهدى ابن أخيه خلعة الخليفة المستضيء وألبسه إياها وزوّجه ابنته.

- أبطل المكوس من البلاد.

- أمر ببناء الجامع النوري.

- انتزع حرّان ونصيبين والخابور والمجدل، من إمارة الموصل، وأقطعها لأمراء

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 185.
(2) المصدر نفسه، ص: 185.
(3) المصدر نفسه، ص: 185.

عسكره، ثم عاد إلى بلاد الشام مصطحباً معه فخر الدين عبد المسيح وغيّر له اسمه، وسمّاه: عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً[1].

غيَّرت هذه الترتيبات الإدارية التي نفّذها نور الدين محمود، في الوضع الجغرافي لدولة الموصل كما تراجع نفوذها القيادي بعد أن خسرت سنجار لصالح عماد الدين زنكي، ونصيبين والخابور اللذين تولاهما نور الدين محمد بن قرا أرسلان الأرتقي، فخضعت خضوعاً تاماً لنور الدين محمود، وأضحى سيف الدين غازي الثاني مجرد حاكم تابع له، يعمل تحت إشراف نائبه كمشتكين صاحب السلطة الفعلية. وتدليلاً على هيمنته على الإمارة فقد أعلنت الخطبة في جميع مساجد الموصل وأعمالها لنور الدين محمود وضربت السكة باسمه[2]، وأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة المستضيء بأمر الله يطلب تقليده ما بيده من بلاد مصر والشام والجزيرة والموصل، والبلاد التي دخلت في طاعته في ديار بكر وخلاط وبلاد قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، فوافق الخليفة على ذلك وأرسل له التقليد بحكم هذه البلاد جميعها[3]، وحرص نور الدين محمود على أن تسود العلاقات الطيبة بينه وبين ابن أخيه في الموصل. ففي عام (569هـ/ 1173م) أرسل إليه هدية نفيسة هي عبارة عن تحف نادرة كان صلاح الدين الأيوبي قد انتخبها من خزائن القصر الفاطمي، بالإضافة إلى هدايا أخرى تشتمل على منسوجات وعود وعنبر[4].

حين دخل نور الدين الموصل خرج إليه ابن أخيه، فوقف بين يديه، فأكرمه وأحسن إليه، وألبسَه خِلعة جاءته من الخليفة، فدخل بها إلى البلد في أبهة عظيمة، ولم يدخل نور الدين الموصل حتى قوِي الشتاء، فأقام بها أربعة وعشرين يوماً، فلما كانت آخرُ ليلة أقام بها رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له: «طابت لك بلدُكَ وتركت الجهاد وقتال أعداء الله». فنهض من فوره إلى السّفر، وما أصبح إلّا وهو سائر إلى الشام واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان معه على سنجار ونصيبين والخابور، فاستناب بها ابنُ أبي عصرون نوّاباً وأصحاباً[5].

2 ـ بشرى لنور الدين من رسول الله ﷺ:

قال أبو شامة: وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ عليه جُزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يَتبسَّم لتتم السلسلة

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 185.
(2) المصدر نفسه، ص: 186.
(3) المصدر نفسه، ص: 186.
(4) المصدر نفسه، ص: 186.
(5) البداية والنهاية (16/ 447).

على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج[1]. وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: **«أَعْلِمْ نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة»**، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدِّقني، فاذكر لي علامة يعرفها فقال: **«قل له بعلامة ما سجدت على تل حارِم، وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر»**. قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغلس، ولا يزل يتركّع فيه، حتى يصلِّي الصبح، قال: فتعرَّضتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها فبكى رَحِمَهُ اللَّهُ وصدَّق الرؤيا، وأُرّخت تلك الليلة، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك[2] الليلة.

وجاء في رواية سبط ابن الجوزي: حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج لما نزلت على دمياط، ما زال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهيباً، ما يجسر أحد يخاطبه في ذلك، فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: **«يا يحيى بشّر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط»**. فقلت: يا رسول الله، ربمّا لا يصدّقني فقال: قل له: **«بعلامة يوم حارم»**. وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو، هابه يحيى، فقال له: يا يحيى أنا أُحدِّثُك، رأيتَ النبي ﷺ هذه الليلة، وقال لك كذا وكذا. قال: نعم فبالله يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال: لمّا التقينا العدو، خفت على الإسلام، فانفردت، ونزلت، ومرّغت وجهي على التراب، وقلت: يا سيدي: اللهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً «يعني نفسه» ومن هو محمود الكلب حتى ينصر؟ الدين دينُك، والجند جندُك، وهذا اليوم افْعَلْ ما يليق بكرمك، قال: فنصرنا الله عليهم[3].

3 ـ رؤية نور الدين المتعلقة بالقبر الشريف:

هناك قصة شائعة على ألسنة الناس، وهي أن نور الدين رأى فيما يرى النائم النبي ﷺ يطلب منه أن ينقذه من رجلين أشقرين ـ وأشار إلى شخصين تجاهه ـ فاستدعى نور الدين وزيره فعبَّره له بأن في المدينة المنورة حدثاً، فخرج نور الدين إلى المدينة واستعرض سكانها للصدقة، فأتى كلهم إلا رجلين مجاورين من أهل الأندلس، فأمر بإحضارهما، فإذا هما

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 143).
(2) المصدر نفسه (2/ 143، 144).
(3) مرآة الزمان (8/ 199/ 200)، من أجل فلسطين مواقف عبر التاريخ الإسلامي، حسني أدهم جرار، ص: 39.

اللذان رآهما في منامه، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فأقرّا بأنهما من الفرنجة، وصلا لكي ينقلا النبي ﷺ من الحجرة الشريفة، ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد، فضرب أعناقهما، ثم أحرقهما بالنار، وركب عائداً إلى الشام، فاستغاث به أهل المدينة أن يبني لهم سوراً حولها، فأمر ببنائه، فبني سنة (558هـ)، وكتب اسم نور الدين على باب البقيع[1].

وقد علق الأستاذ إبراهيم الزيبق على هذه القصة في تحقيقه لكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية ـ والصلاحية» فقال: وهذه القصة لا تثبت لدى المنهج العلمي، إذ إن أول من رواها هو محمد بن أحمد المطري، مؤذن الحرم النبوي، المتوفى سنة (741هـ) في كتابه «التعريف بما أنستِ الهجرة من معالم دار الهجرة»، وبينه وبين نور الدين مئة واثنتان وسبعون سنة، ثم إن إسناد هذه القصة مسلسل بالمجاهيل، فقد سمعها المطري من طالب علم من المجاورين، وهو يعقوب بن أبي بكر ـ وكان أبوه فراشاً من قوام المسجد الشريف ـ وقد سمعها يعقوب ممن حدَّثه من أكابر مَن أدرك، ولم يجزم المطري بصحتها، فقال: هكذا حدَّثني عمن حدثه، وروى نحوها جمال الدين الأسنوي المتوفى سنة (772هـ) في رسالة له دون إسناد نقلها عنه السمهودي في «وفاء الوفاء»[2]، وهذا يعني أن القصة قد ذاعت بعد وفاة نور الدين، إذ لم يذكرها أحد ممن عاصر نور الدين من المؤرخين الملازمين له، كابن عساكر وابن منقذ، والعماد الأصفهاني الكاتب، ولا من المتتبعين لسيرته كابن الأثير وأبي شامة مع شدة حرصهم على استقصاء أخباره وتحليتها بكل جميل، بل إنه لم يذكرها من أرخ للمدينة المنورة ممن عاصر تلك الفترة كابن النجار في «الدرة الثمينة»، وقد نقلها عن المطري من جاء بعده من المؤرخين كالمراغي في «تحقيق النصرة»، وابن قاضي شهبة في «الكواكب الدرية»، والسمهودي في «وفاء الوفاء»، وابن العماد في «شذرات الذهب»، والبرزنجي في «نزهة الناظرين»[3]. ثم إن المطريَّ ذكر أن القصة وقعت سنة (557هـ) ولم يذكر أحد من المؤرخين أن نور الدين زار المدينة في تلك السنة، بل لم يذكروا أنه زارها في أي من سني حكمه، بل إنهم لم يذكروا أنه حج أبداً، فقد شغله جهاد الفرنج عن الحج، كما شغل صلاح الدين بعده، ولا عبرة بما ذكره الفاسي في شفاء الغرام[4] من أن نور الدين حجَّ سنة (556هـ) فقد وهم في ذلك، إذ أن الذي حج هو أسد الدين شيركوه، وقد خرج نور الدين إلى لقائه يوم رجوعه[5].

وقد يتساءل المرء: ما الباعث لهذه القصة؟ فأقول: ربما أثارت تكملة نور الدين لسور المدينة وكتابة اسمه عليه فكرة قدومه للمدينة، ثم اختلط هذا مع ما سيأتي ـ بإذن الله ـ من

---

(1) شذرات الذهب (6/ 380) الوجيز في الشام، ص: 52.
(2) وفاء الوفاء (2/ 648، 650).
(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 317).
(4) المصدر نفسه (2/ 317).
(5) كتاب الروضتين أخبار الدولتين (2/ 317).

محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة وذلك سنة (578هـ) فقد أشيع وقتها أنهم كانوا يريدون نقل الجسد الشريف إلى فلسطين فيما ذكر ابن جبير في رحلته والمقريزي في خططه، فدمج الخيال بين الحدثين في حدث واحد؛ ليكشف عن هاجس أقلق بال المسلمين وقتئذ وهو أن ما فشل الصليبيون في تحقيقه في العلن سيحاولونه في الخفاء، فكانت هذه القصة والله أعلم[1].

ثالثاً: سياسة نور الدين مع سلاجقة الروم:

كان نور الدين محمود يتابع الأحداث الجارية في المنطقة ويستغل الفرصة المتاحة لتحقيق أهدافه، من ذلك ما حدث عام (568هـ/ 1173م) عندما هاجم قلج أرسلان سلطان السلاجقة في آسيا الصغرى إمارة ذي النون بن دانشمند التي تتألف من ملطية وسيواس جنوب شرق الأناضول واحتلها، فلجأ ذو النون إلى نور الدين مستنجداً، فأرسل نور الدين إلى قلج أرسلان يطلب منه رد بلاد ذي النون عليه فرفض، فسار بجيشه إلى المنطقة واحتل مدنها مما أجبر قلج أرسلان لطلب الصلح بالشروط التي يفرضها نور الدين، فأرسل إليه نور الدين رسالة منها: إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: **أحدها**: أنك تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإنني لا أعتقدك مؤمناً، **والثاني**: إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة تُسيّره، فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فإمّا أن تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الإفرنج، وإما أن تجاهد مَن يجاورك من الروم وتبذل الوسع في جهادهم، **والثالث**: أن تزوج ابنتك بسيف الدين غازي ولد أخي، فلما سمع قلج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة عليَّ بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله[2].

واستقر الصلح بعد أن عادت بلاد ذي النون إليه مع بقائها تحت حماية نور الدين، وما يهمنا من هذه الحادثة هو ما يظهر في ثناياها من سعي نور الدين لتحقيق هدفه الإستراتيجي الأكبر الذي سبق وذكرناه، وهو إقامة الدولة الإسلامية الكبرى التي تعيد للإسلام دوره في تحقيق الهداية والعدالة والحياة الكريمة لجميع الناس[3]، ومع أنه لم يكمل بعد تحقيق هدفه الإستراتيجي الثاني المتمثل بالقضاء على الفرنج، وتحرير سواحل بلاد الشام من احتلالهم إلا أنه حقق هدفه الإستراتيجي الأول، وهو وحدة الدول والإمارات الإسلامية

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 317).

(2) الباهر، ص: 160، 160، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 153.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 153.

المواجهة للفرنجة، وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط، فلا بأس إذن من استغلال فرصة سانحة للسير، ولو بضع خطوات باتجاه الهدف الإستراتيجي الأكبر المذكور أعلاه، وما يدلنا على قصد نور الدين في هذا المعنى طلبه من قلج أرسلان في رسالته إليه تجديد إسلامه على يد رسول نور الدين ليحلَّ لنور الدين إقراره على بلاد الإسلام، ويفرض عليه إما مجاهدة الروم المجاورين له، أو إرسال جنده إليه ليجاهد بهم الإفرنج، في هذا الموقف يجعل نور الدين من نفسه مسؤولاً عن جميع المسلمين وعن بلادهم، ويتوجب عليه بناءً على هذه المسؤولية ألا يسمح بتولي حاكم غير مؤمن على بلاد المسلمين، ويجدر بنا أن نوضح هنا أن نور الدين كان يصدر في هذا الإحساس بالمسؤولية عن فهمه الصحيح للشريعة الإسلامية، فهو يعتبر نفسه جندياً في خدمة الدين، وروي عنه قوله: نحن شحنٌ لها «للشريعة» نُمضي أوامرها[1]. وهذا القول ينطبق مع تفسير الإمام أبي حامد الغزالي للعلاقة بين الملك والدين حيث يقول: «الملك والدين توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع»[2].

وقد تقدم أن نور الدين كان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ، ولكن الأمر لا يقتصر على إحساس نور الدين بالمسؤولية، وقد عبّر عن ذلك في رسالته لمجير الدين آبق حاكم دمشق بقوله: «. . ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها»[3]. فهو يعتبر أن توافر القدرة والإمكانية لديه يفرض عليه نصرة المسلمين والدفاع عنهم أينما كانوا، ويتكرر مثل هذا الموقف عام (566هـ/ 1171م) في رسالته لشمس الدين إيلدكز صاحب بلاد الجبل وأذربيجان[4].

يتبين من هذه المواقف الثلاثة التي وقعت في تواريخ مختلفة ومتباعدة خلال فترة حكم نور الدين، الحادث **الأول**: مع حاكم دمشق عام (544هـ/ 1149م)، **والثاني**: مع حاكم أذربيجان وأصفهان عام (566هـ/ 1171م)، **والثالث**: مع سلطان سلاجقة الروم آسيا الصغرى عام (568هـ/ 1173م)، أنه وضع أهدافه وقرر سياسته مُنذ بداية حكمه، ولم يغيّرها حتى نهاية حكمه، وأنه كان يسير حسب خطة محكمة تتألف من مراحل منسّقة، لكل مرحلة هدفها، وأنه كان يتابع الأحداث الجارية، ويقتنص الفرصة المتاحة دون أن يؤثر ذلك على خطته الرئيسية وأهدافه الإستراتيجية[5].

---

(1) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 154.

(2) إحياء علوم الدين (1/17).

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 154.

(4) المصدر نفسه، ص: 154.

(5) المصدر نفسه، ص: 155.

المبحث الرابع
سياسة الدولة النورية تجاه القوى المسيحية

أولاً: العلاقات مع مملكة بيت المقدس:

عاصر عهد الدولة النورية اثنان من أقوى ملوك بيت المقدس، بلدوين الثالث سنة (539هـ ـ 557هـ / 1144م ـ 1162م)، وعموري الأول سنة (568هـ/ 1162/ 1174م) ويعد بلدوين الثالث أول الملوك الصليبيين الذين ولدوا على أرض المملكة، وقد سيطرت عليه والدته ميلزندا، وتمكن من توسيع حدود المملكة وأمكنه الاستيلاء على عسقلان عام (548هـ/ 1153م) وَأَمَّن بالتالي حدوده الجنوبية، كذلك عمل على تشييد عدة قلاع وحصون من أجل تدعيم مناطق سيادته في مواجهة أعدائه المسلمين، وأيضاً سعى إلى حماية إمارتي طرابلس وأنطاكية من خطر الفوضى الداخلية[1] والأخطار الخارجية، وهدف إلى كسب عون الإمبراطورية البيزنطية لتساعده في مواجهة الأحداث في شمال الشام.

أما الملك عموري الأول، فإنه أراد توسيع حدود المملكة هو الآخر وعمل على غزو مصر وإخضاعها لسيطرته دون جدوى، وسعى إلى طلب العون البيزنطي في مشاريعه التوسعية خاصة ضد مصر[2]، وقد عمل نور الدين محمود للتصدي لمشاريع مملكة بيت المقدس التوسعية، وكان دافعه المحرك في ذلك هو عقيدة الجهاد في سبيل الله لا كما يزعم بعض الباحثين، لاسيما من الغربيين الذين أنكروا ذلك الاتجاه لأسباب استشراقية تعصبية لا تخفى على أحد، وفي مقدمتهم المؤرخ الأمريكي جون لامونت الذي أنكر الطابع الديني لحروب نور الدين محمود، وفضل الأخذ بالدوافع السياسية، ورأى أنه لم يكن مهتماً بالحروب الدينية اهتماماً خاصاً، وأنه حارب الصليبيين على أساس أنهم وجدوا في مجال توسعه الطبيعي[3]، وأن رغبته في توسيع رقعة مملكته في الاتجاه الوحيد الممكن هي التي أملت عليه السياسة التي اتبعها في علاقاته مع جيرانه اللاتين، ويذكر أنه لم يكن للدين دخل في ذلك، وأن مراجعة أعماله الحربية توضح أن دافعه الرئيسي كان سياسياً[4].

والواقع أن الرغبة في القضاء على عقيدة الجهاد الإسلامي التي ازدهرت في مرحلة الحروب الصليبية كان أحد الأهداف الأساسية للمستشرقين الذين تناولوا بالدراسة تلك المرحلة، وذلك من أجل القضاء على النماذج التاريخية لفكرة الجهاد الإسلامي، واقتلاعها

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 137.
(2) المصدر نفسه، ص: 138.
(3) الحروب الصليبية والجهاد، لامونت، نقلاً عن فن الصراع، ص: 139.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 139.

من أساسها، خاصة أنها فكرة محورية في الإسلام[1]. ولا شك أن عقيدة الجهاد وتحرير المقدسات من الاحتلال الصليبي كان المحرك لحركة المقاومة للمسلمين في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك، وما يجري اليوم في أفغانستان والعراق وفلسطين.

وقد كان تحرك نور الدين محمود ضد مملكة بيت المقدس يستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري، بالقتال أحياناً وبالمفاوضات أحياناً أخرى.

ـ **المجال الاقتصادي**: فقد وصفت الدولة النورية بأنها دولة داخلية حبيسة دون نطاق ساحلي، والمنافذ البحرية على امتداد الساحل الشامي، تمّ إخضاعها للسيادة الصليبية حيث أدرك الصليبيون أهميتها الكبيرة لاستمرار اتصالهم بأوروبا وحصولهم على الدعم البشري والمالي والمعنوي، وكان تصريف قسم مهم من تجارة الدولة النورية يتم من خلال موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية، كذلك أرادت تلك الدولة الحفاظ على سلامة الطرق التجارية بين دمشق ذات الأهمية التجارية ومنطقة الجبل الأعلى في شمال فلسطين بوصفها حلقة وصول إلى الساحل الشامي البالغ الحيوية[2].

ـ **المجال السياسي**: مثّل الصراع مع تلك المملكة أهمية خاصة للدولة النورية، ولا نزاع في أن مواصلة الصراع الحربي معها كان ضرورياً، من أجل أن يقوم نور الدين محمود بدوره في مجاهدة الكفار، ومثل هذا واجباً شرعياً ضرورياً لدعم حكمه وتوفير الاستقرار السياسي له وعدم قدرة المعارضة على كسب أعوان لها طالما أنه يقوم بتأكيد هذا الدور الشرعي الحيوي، أضف إلى ذلك؛ أن الدولة النورية بعد نجاحها في توحيد بلاد الشام والجزيرة بقبضة واحدة مثلت مملكة بيت المقدس منافساً سياسياً خطيراً لها، فإذا أضفنا إلى ذلك أن ذلك المنافس كان كياناً دخيلاً وافداً على المنطقة ـ ولا يملك وجوده أصلاً ـ أدركنا حتمية الصراع بين الطرفين لكافة الدوافع السابقة سواء الدينية أو السياسية أو الاقتصادية[3].

ـ **المجال العسكري**: فقد أدركت الدولة النورية أن تجييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الاستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً، ولتأمين حدود الدولة النورية، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 139.
(2) الرحلة، لابن جبير، ص: 253.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 140.

مستقبلاً إلى ما هو أبعد من هذا في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي[1].

1 ـ المشكلة الحورانية:

تعد المشكلة الحورانية من أهم الأحداث السياسية التي جعلت نور الدين محمود يواجه بدعمه العسكري مملكة بيت المقدس ومطامعها في دمشق؛ إذ تمرد الأمير الأرمني الأصل التونتاش[2]، وهو غلام أمين الدولة كمشتكين التركي، والذي تولى حكم بصرى وصرخد[3]، تمرد على سيده معين الدين أنر أتابك دمشق[4]، وقد تحدثت عن جهود نور الدين في دعم حاكم دمشق ضد هذا المتمرد الذي استعان بالصليبيين في بيت المقدس، وطلب منهم العون الحربي، وأن يستولوا على بصرى وصرخد في حالة تدخلهم العسكري في مقابل أن يكون سيداً على إقليم حوران[5]، فقد تصاهر نور الدين محمود من ابنة معين الدين أنر أتابك دمشق، وجعلت منه هذه الزيجة بمثابة عون سياسي وعسكري لدمشق، وفي نفس الحين حرصت أتابكية دمشق على التحالف مع الصليبيين لخوفها من طموحاته الكبيرة، ورغبته في ضمها إلى أملاكه في شمال الشام، بل إن دمشق عقدت هدنة مع المملكة الصليبية وأمام دعم الصليبيين للتونتاش أرسل معين الدين أنر يطلب مساعدة صهره ضدهم، وقد تقدم نور الدين وما معه من قوات حتى بلغ دمشق[6]، وتوجه إلى صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعُدّته ووفور عِدَّته، واجتمع العسكران، وأرسل مَن بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلُمُ المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى بوصول من أخبر لتجمع الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدّين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى، فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين، فانهزم الكُفَّار وولّوا الأدبار، وتسلّم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السّابع والعشرين من المحرّم، وفي هذا الوقت وصل التونتاش ـ الذي خرج من صَرْخَد

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 140.

(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 140.

(3) تبعد بصرى مسافة 141كلم عن دمشق، وعُدّت قصبة إقليم حوران أما صرخد فبعدت عن السويداء بنحو 31 كلم.

(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 141.

(5) المصدر نفسه، ص: 141.

(6) مرآة الزمان، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 143.

إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهُماً منه أن يُكرم ويصطنع بعد الإساءة القبيحة، فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص، فسُمل كما سَمَل أخاه، وأطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها[1].

وتعتبر المشكلة الحورانية هي التي جعلت نور الدين محمود يواجه لأول مرّة خلال تلك المرحلة من حكمه في حلب مملكة بيت المقدس، كذلك أثبتت الأحداث مدى أهمية دعمه العسكري لأتابكية دمشق، إذ لم تكن لتستطيع صد الهجوم الصليبي بدون عونه الحربي، وأظهره ذلك على مسرح الأحداث السياسية بصورة أكبر من ذي قبل على نحو دعم مركزه أمام رعاياه خلال تلك المرحلة الأولى من حكمه، وعلى المستوى الصليبي؛ كشفت المشكلة الحورانية أن القيادة الصليبية بدأت عهدها بإظهار عدم الحنكة السياسية، إذ أنها اتجهت إلى محاربة أحد حلفائها من أجل أمير شق عصا الطاعة عليه، وأوضح موقفها أن مطامعها السافرة في إقليم حوران التابع لدمشق كانت أكبر من أية تحالفات سياسية معها، ولا شك في أن تلك الأحداث وجهت لطمة قوية للتحالف الدمشقي الصليبي، وجاءت أحداث الحملة الصليبية الثانية لتوجيه لطمة مجهزة لذلك التحالف الهش[2].

2 ـ الحملة الصليبية الثانية:

وعلى الرغم من العلاقات القائمة بين أتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس، إلا أن الصليبيين قرروا غزوها، وقد تحدثت عن الحملة الصليبية الثانية فيما مضى من الصفحات ودعم نور الدين وأخيه سيف الدين غازي لدمشق، ويمكننا أن نقول: إن نور الدين اتجه إلى مقاتلة مملكة بيت المقدس عن طريق دعم دمشق[3].

3 ـ سقوط عسقلان:

حدث تطور كبير على جانب كبير من الأهمية وقع جنوب بلاد الشام لا سيما على الساحل في صورة عسقلان التي تمكّن الصليبيون في عهد الملك الطموح بلدوين الثالث من إسقاط عسقلان في عام (548هـ/ 1153م)[4]، وجاء ذلك في وقت ضعفت فيه الدولة الفاطمية في ظل تغلب الوزراء العظام، وحقق الصليبيون بذلك انتصاراً مزدوجاً على نور الدين محمود

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ص: 181.

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 144.

(3) المصدر نفسه، ص: 145 إلى 127.

(4) فن الصراع الإسلامي، ص: 148، الباهر، ص: 106.

والفاطميين وانتصارهم على نور الدين تفوق على انتصارهم على الدولة الفاطمية، لأن الأخيرين كانوا قد وهنوا، ولم تعد دولتهم تمثل خطراً بالغاً على الوجود الصليبي، بينما نور الدين مثّل قوة سياسية وحربية متوثبة في شمال الشام تطمع في دمشق[1]، وتأتي أهمية الانتصار الصليبي من خلال إدراك أهمية عسقلان نفسها، فقد مثلت مركزاً تجارياً هاماً على الساحل الفلسطيني، وقاعدة للأسطول الفاطمي، وبسقوطها سقطت آخر المعاقل الفاطمية في الشام، وبذلك امتدت السيادة الصليبية على طول الساحل الشامي من الإسكندرية حتى غزة جنوباً، ومهد بذلك السبيل أمام الصليبيين لغزو مصر[2].

وعلى أية حال لم يكن لنور الدين محمود زنكي أن يقف دون أن يحرك ساكناً أمام التحرك الصليبي في الجبهة الجنوبية، وسرعان ما أتى الرد دون تأخير، فتمكن نور الدين محمود بالفعل من الاستيلاء على دمشق عام (549هـ/ 1154م) أي في العام التالي مباشرة وبذلك حقق مكاسب أكبر من أن تحصى، فقد مد حدوده إلى الجنوب، ولم يعد منعزلاً في الشمال، وقد تمكن بذلك الإنجاز من تهديد حدود مملكة بيت المقدس ذاتها، ولم يعد أمامه إلا نطاق جغرافي ضيق محدود لكي يوجه ضرباته إلى الجليل بصورة لم تكن متوافرة له من قبل، وشتان بين توجيه الضربات في الأطراف والوصول إلى قرب القلب الصليبي[3]، ولا تغفل أنه بإخضاع دمشق؛ صار نور الدين محمود يسيطر بصورة أو بأخرى على ثلاثة مدن رئيسية يمكن أن توصف بأنها مدن الظهير الإسلامي في الجزيرة وبلاد الشام وهي: الموصل ـ التي دانت له بالولاء ـ وحلب ودمشق، وهي مدن ذات كثافة سكانية فاعلة وأهمية اقتصادية حيوية من خلال وقوعها على خطوط التجارة الدولية، فإذا لم يغب عن ذهننا أننا أمام قائد للجهاد نذر نفسه له، أدركنا كم كانت المكاسب كبيرة للمسلمين بضم عاصمة الأمويين من قبل دمشق، خاصة مع عدم إغفال أنها المرة الأولى التي اتحدت فيها حلب ودمشق مُنذ العصر السلجوقي تحت سيطرة سيد واحد[4].

ومن الزوايا ذات الأهمية البالغة: إدراك أن توجيه ضربات فاعلة للصليبيين تؤثر على قلبهم في بيت المقدس، لن يكون إلا بإخضاع المدن الأربعة المؤثرة في قبضة الدولة النورية، وهي: الموصل، حلب، دمشق، والقاهرة وهكذا لم تعد هناك إلا مدينة واحدة هي القاهرة، قلب الوجود الفاطمي الذي بلغ من الكبر عتياً، ويلاحظ أن ضمها لشقيقاتها الثلاثة سيتأخر من خلال اعتبارات عديدة[5] يأتي بيانها وتفصيلها في محله بإذن الله تعالى. على أية حال من

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 148.
(2) التنظيمات الدينية، مؤنس عوض، ص: 148.
(3) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 186.
(4) المصدر نفسه، ص: 187.
(5) المصدر نفسه، ص: 187.

الممكن تناول قضية مهمة وهي أيهما حقق مكاسب سياسية حربية أخطر: بلدوين الثالث باستيلائه على عسقلان عام (548هـ/ 1153م) أم نور الدين محمود باستيلائه على دمشق عام (549هـ/ 1154م)؟ إن إسقاط عسقلان كان بمثابة إسقاط إحدى المدن الشامية الساحلية وربما كان له تأثيراته الكبيرة في حالة عدم تمكن ذلك الحاكم المسلم من انتزاع دمشق من قبضة البوريين، إذ أنه اكتسب العديد من المميزات، وأدى ذلك إلى نقله لمجال جديد أرحب من ذي قبل، ويلاحظ أنه إذا كان الصليبيون باستيلائهم على عسقلان انفتحت أمامهم الأبواب نحو مصر، على اعتبار أن عسقلان عدت بوابتها، إلا أن الاستيلاء على دمشق فتح الطريق هو الآخر أمام نور الدين محمود نحو ذات الهدف، ومن ثم سيحدث فيما بعد التسابق بينه وبين الصليبيين لإسقاط مصر الفاطمية، وهكذا نصل إلى حقيقة مفادها: أن استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان، كان من الممكن أن يكون على أكبر قدر من المكاسب في حالة استمرار الوضع القائم في صورة ارتباط نور الدين محمود بحلب في شمال الشام، أما الآن بعد الاتجاه جنوباً نحو دمشق، تأكد للصليبيين أن سيد حلب صار سيد حلب ودمشق معاً. ويكفي أن نطالع ما سطره مؤرخ الصليبيين البارز وليم الصوري كي ندرك كيف أن إخضاع عاصمة الشام عُدّ أحد مظاهر الخطر الإسلامي القادم في الأفق على نحو ينذر بأوخم العواقب على الصليبيين والمسلمين يؤدي إلى مرحلة جديدة اتسمت باحتدام الصراع بينهما، والتسابق على مناطق نفوذ جديدة بقوة عسكرية أكبر، وكأننا أمام استعراض عسكري للقوة من كل من الطرفين المتنافسين، وواقع الأمر أن التسابق على ضم مصر لأحد الجانبين لم يكن ليبدأ دون تلك الخطوة التكتيكية المحورية في صورة إسقاط الصليبيين لعسقلان، والرد من جانب نور الدين بالاستيلاء على دمشق[1].

4 ـ معركة بانياس:

شهدت العلاقات بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس نشوب معركة بانياس عام (552هـ/ 1157م)، والتي وقعت في وقت كانت تنفذ فيه معاهدة سلمية بين الجانبين، إلا أن الملك بلدوين الثالث خرقها، وتتجلى بوضوح أهمية ثروات المنطقة من الناحية الزراعية والرعوية وميزتها الإستراتيجية، كعوامل دفعت بالصليبيين إلى نقض شروط المعاهدة، وإعلان الحرب على الدولة النورية، فقد توافرت في بانياس المراعي الغنية بقطعان الماشية[2]، كذلك عرفت بأهمية إنتاجها الزراعي حيث وجد الفلاحون والرعاة الذين طمع الصليبيون في أسرهم

---

(1) الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، ص: 188.

(2) المصدر نفسه، ص: 188.

واسترقاقهم للإفادة من طاقاتهم الإنتاجية، وهذا يفسر عمليات الاسترقاق التي حرص الصليبيون عليها عندما هاجموا المنطقة، كذلك احتلت بانياس أهمية استراتيجية متميزة إذ وقعت بالقرب من دمشق وفي المنطقة الواقعة بينها وبين الجليل الأعلى بشمال فلسطين، وإذا اعتبرنا عسقلان بوابة مصر فإن بانياس عدت بوابة دمشق[1]، ولا شك أن كافة تلك المغريات لعبت دورها في إغراء الملك بلدوين الثالث على شن هجومه على بانياس، وكان الرعاة والفلاحون المسلمون في المنطقة قد ارتكنوا إلى وجود معاهدة السلام مع الصليبيين، وبينما هم منهمكون في عملهم هاجمت القوات الصليبية المنطقة بالقرب من بحيرة الحولة، وقد قتل وجرح العديدون، وتم سلب قطعان الماشية وأسر العديدين ويبدو أن الصليبيين أرادوا تحقيق انتصار كبير في حملتهم بدليل إشراكهم لأكبر العناصر لديهم قوة ونعني بهم الإسبتارية والداوية[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن مؤرخ المملكة الرسمي وليم الصوري، أقر واعترف صراحة بأن حملة بلدوين الثالث على بانياس كانت خرقاً للاتفاقية المعقودة مع نور الدين، وأن الأمر كان أبعد من أن يكون مجداً عسكرياً للمملكة الصليبية[3]، ولم يكن هناك مفر من الرد العسكري النوري، وقد قام المسلمون بنصب كمين للقوات الصليبية كُلل بالنجاح، وقتل منهم الكثيرون، وعلى حد قول ابن القلانسي: صاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير وطريح[4] وغنائم وفيرة، وأمكنهم احتلال بانياس[5]، غير أن بلدوين الثالث تمكن من استردادها في نفس العام[6]، وعاد نور الدين وفرض سيطرته عليها عام (560هـ/ 1164م)[7] وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذِن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل مَن بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجدًا إلى بانياس لعلمه بقلَّة مَن فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيَّق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نُصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى[8]، ولما فتح نور الدِّين حِصن بانياسِ، كان ولد معين الدين أنُر الذي سلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذاك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جلدة والدك من نار جهنم[9].

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 149.
(2) المصدر نفسه، ص: 149.
(3) المصدر نفسه، ص: 151.
(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 339.
(5) الحركة الصليبية، عاشور (2/ 668).
(6) المصدر نفسه (2/ 668).
(7) شذرات الذهب، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 152.
(8) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 437).
(9) المصدر نفسه (1/ 440).

5 ـ اتفاقيات وهدنة قصيرة:

وعلى الرغم من تلك المعارك شبه المستمرة، لاحت في الأفق أضواء باهتة لسلام شاحب متمثل في اتفاقيات هدنة قصيرة تراوحت بين الثلاثة أشهر والعامين وقعت بين الطرفين، ومن الأهمية بمكان دراسة دوافع السياسة السلمية التي اتبعها نور الدين محمود في بعض الأحيان تجاه مملكة بيت المقدس، وتتمثل في أبعاد اقتصادية وعسكرية واستراتيجية. وكانت الدولة النورية تهتم بالعلاقات التجارية مع القوى الصليبية في بلاد الشام لعدة اعتبارات منها: أن بعض المواد الخام وجدت في أرض أعدائها وكانت في حاجة إليها من أجل عمليات التصنيع، ثم إن بعض الطرق التجارية الدولية التي مرت ببلاد الشام كانت منافذها في المناطق الساحلية الصليبية، وكان تصريف الدولة النورية يحتّم ضرورة وجود صلات ما، من أجل ضمان وصول السلع إلى شاطئ البحر المتوسط ومنه إلى أوروبا، كذلك فإن المتاجرة مع مملكة بيت القدس كانت تدر على الدولة أرباحاً طائلة من عائد ـ العشور ـ على نحو يدعم ميزانيتها، وتوجد إشارات إلى وجود علاقات وثيقة بين الجانبين على المستوى التجاري، ويقرر ابن جبير أن: اختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق إلى مكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض.

ويضيف أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين[1]. وإذا كان نص ابن جبير المذكور يرجع إلى العصر الأيوبي، فإنه يعد امتداداً طبيعياً لما هو موجود بصورة فعلية من قبل في عهد الدولة النورية[2]، ومن جهة أخرى، فبالنسبة للصليبيين، نعرف أنهم كانوا يدخلون إلى دمشق وغيرها من المدن المسلمة من حين لآخر من أجل «قضاء حوائجهم»[3]، وطبيعي أن من بينها عمليات الشراء والمتاجرة مثلما حدث عام (546هـ/ 1151م)[4]. ولا شك في أن الدولة النورية عندما كانت تهادن القوى الصليبية، كانت تضع نصب عينيها المصالح التجارية، بل إن تلك المصالح هي التي حددت ـ في بعض الأحيان ـ موقفها السياسي من أعدائها[5].

وأما الجانب العسكري، فتمثل في أن الحروب التي خاض غمارها الجيش النوري ضد مملكة بيت المقدس كانت حروباً موسمية في الغالب، ولم يكن يستطيع أن يواصل الحرب على مدى العام بأكمله، واحتاج إلى أن تكون هناك بضعة أشهر لإراحة القوات من عناء القتال، ثم إن الحرب نفسها ضد الصليبيين كانت باهظة التكاليف من حيث الأسلحة،

---

(1) الرحلة لابن جبير، ص: 253.
(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 154.
(3) ذيل تاريخ دمشق، ص: 314.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 155.
(5) المصدر نفسه، ص: 155

وإعداد الجند وتوفير التموين اللازم وإعداد الدواب إلى غير ذلك، ثم إنها مثلت استهلاكاً لموارد الدولة على نحو هددها اقتصادياً، وأمام تلك الاعتبارات كان الاتجاه السلمي مطلباً ضرورياً من وجهة النظر النورية، ولا نغفل أيضاً أنها اتجهت إلى مهادنة مملكة بيت المقدس لكي تتفرغ للحرب في الجبهة الشمالية حيث إمارة أنطاكية أو لكي تواجه سلاجقة الروم، وكان أخوف ما تخافه أن تقع بين شقي الرحى: إمارة أنطاكية، وهي تشن هجماتها الحربية على مركز الدولة التجاري في حلب، ومملكة بيت المقدس تهاجم مركزها التجاري والصناعي في الجنوب أي في دمشق، إذ أن ذلك كان يعني استهلاكاً أكبر لطاقاتها البشرية والمادية على نحو أدى إلى تشتيت قدراتها وعدم تحقيقها لإنجازات كبيرة على أي من الجبهتين[1].

ونجد أن نور الدين اتجه إلى مهادنة المملكة سنة (550هـ/ 1155م) لمدة عام وفي العام التالي (551هـ/ 1156م)[2]، تجددت الموادعة حيث تم إرسال قطيعة للصليبيين قدرها ثمانية آلاف من الدنانير الصورية[3]، وفي نهاية المعاهدة خرقت عندما هاجم بلدوين الثالث مراعي بانياس، كذلك عقدت معاهدة بين الطرفين لمدة عامين في عام (556هـ/ 1160م) وعلى أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام عام (566هـ/ 1170م) اتجه نور الدين إلى عقد هدنة مع عموري الأول، ويضاف إلى ذلك أنه تم عقد هدنة قصيرة مدتها ثلاثة أشهر في عام (568هـ/ 1173م)[4] تركزت المعاهدات والهدنات التي وقعتها الدولة النورية مع المملكة اللاتينية في المدة من عام (550هـ/ 1155م) وعام (568هـ/ 1173م) وطبيعي أن عقد الهدنات تطلب جهداً دبلوماسياً مكثفاً[5].

كان هدف نور الدين توحيد القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة ومصر ضد الصليبيين، وكانت سياسته قائمة على إيجاد توازن حقيقي في القوى مع أعدائه، على أن يكون القضاء عليهم في مرحلة تالية، وقد تكفل بها الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، ويظهر دهاء نور الدين في استخدام عقد الهدنات مع الصليبيين حتى يريح قواته من عناء الحرب ويدعم قواته في آن واحد، ولم تشهد ساحات الصراع بينه وبين مملكة بيت المقدس الصليبية معارك مندفعة يقضي فيها على قواته قضاء مبرماً، وحق للمؤرخ السرياني المجهول، ووليم الصوري أن يصفاه بالدهاء والحكمة[6]، ويلاحظ أنه لم يسع إلى نقل الصراع مع المملكة اللاتينية إلى نطاق النشاط الاقتصادي لاسيما التجاري، إذ قصر الحرب على ساحاتها دون مجال التبادل السلعي، وأفاد من حركة القوافل الصليبية في فرض العشور على نحو دعم اقتصاديات دولته

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 156.
(2) ذيل تاريخ دمشق، نقلاً عن فن الصراع الإسلامي، ص: 156.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 291.
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 157.
(5) المصدر نفسه، ص: 158.
(6) المصدر نفسه، ص: 159.

وأمدها بالأموال اللازمة لاستمرار صراعها مع الصليبيين[1]. وهناك من تصور أن نور الدين قد عجز عن تحقيق نتائج حاسمة في صراعه ضد الصليبيين، ووجد من المستشرقين من تحامل عليه فهاجمه ـ سمايل ـ واتهمه بانعدام نشاطه المضاد لهم، وأرجع ذلك إلى جُبْنه وانعدام روح المبادرة لديه، وخوفه من التدخل البيزنطي لصالح الدول اللاتينية، وأن الغزوات في عهده لم تكن تتسم بالطموح، والواقع أن استعراض مراحل صراعه مع المملكة الصليبية تعكس لنا صورة مغايرة لذلك، فالاستيلاء على دمشق عام (549هـ/ 1154م)، حسم أمرها تماماً لصالح السيادة الإسلامية، ولم تستطع المملكة اللاتينية أن تفرض سيطرتها عليها، لذلك فإن إخضاع مصر عام (567هـ/ 1171م) لسيادته حسم الصراع حولها والذي استهلك جهداً كبيراً من الجانبين المتحاربين، وكان نور الدين يحارب في جبهات عديدة في وقت واحد سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين، ثم إن المرحلة نفسها كانت مرحلة الصراع من أجل توازن القوى بينه وبين المملكة الصليبية، وقد ساهمت جهود نور الدين محمود وصراعه مع مملكة بيت المقدس لتمهيد السبيل لصلاح الدين الذي استطاع إسقاط مملكة بيت المقدس عام (583هـ/ 1187م)، وقد امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس، وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد، وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي وحافظ على طاقاته وإنجازاته[2].

6 ـ الرصيد الأخلاقي في قتال نور الدين للأعداء:

يُروى أنه لما بلغ نعي الملك بلدوين مسامع القادة المسلمين وهم يعدون العدة لغارات جديدة، عقدوا مجلساً للمداولة في ما بينهم، وقالوا لنور الدين: إننا نستعد لمهاجمة ميناء عسقلان التي هي من المملكة بمثابة الرئة من الجسد، فالفرصة سانحة الآن للقيام بهجوم خاطف على المدينة، ثم لمواصلة الزحف نحو الموانئ الأخرى ونحو بيت المقدس والحصون الجبلية للاستيلاء عليها قبل أن تجف دموع الصليبيين وقبل أن يصحوا من ذهولهم، فلنضربهم ضربة قاضية، وهم في هذه الحالة من التضعضع والضعف، إن حزنهم وحدادهم حليفان لنا في هذه الحرب؛ فلم يشاطرهم نور الدين الرأي وقال لهم: إن مهاجمة الصليبيين وهم على هذه الحالة من الخور والقلق، عمل لا يليق بي وبكم، بل يلحق بنا جميعاً وصمة عار لن تمحوها الأيام المقبلة، فلو فعلنا لكان هجومنا عليهم أشبه بعمل فارس جبان يجهز على خصم سقط عن جواده مثخناً بالجراح، إن أعداءنا لا يقوون اليوم على الدفاع عن

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 159. (2) المصدر نفسه، ص: 159، 160.

أنفسهم، وقد أحاط قوادهم بجثة مليكهم يبكونه ويترحمون عليه، وعندما يصبحون من جديد قادرين على الدفاع سنهاجمهم ونخرجهم من أرض نعدّها ملكاً لنا، ونرفع عليها أعلامنا. أما اليوم، فإني سأبعث إليهم بوفد من أبطالنا، لا للتحدي ولكن للتعزية. وما لبث أن أرسل إلى القدس وفداً من خيرة فرسانه فقابل الملكة الأرملة[1]، معزياً إياها بوفاة العاهل الراحل، وقدم إليها رسول نور الدين عقداً ثميناً كان الإمبراطور البيزنطي قد أرسله هدية لها، فوقع في يد نور الدين مع غنائم أخرى فحزنت على ضياعه كثيراً، وأكد لها الرسول أن نور الدين لن يشرع في وجوه الصليبيين سلاحاً، ما دامت مملكة القدس بلا ملك وما دامت جيوشها بلا قائد، فتأثرت الملكة الحزينة لشهامة نور الدين وبعثت إليه مع رسوله منديلها الحريري مبللاً بدموعها اعترافاً بجميله[2] ومروءته.

ثانياً: العلاقات مع الإمارات الصليبية:

من المعروف أن الحملة الصليبية الأولى نجحت في إقامة ثلاث إمارات: هي الرها في أعلى نهر الفرات، وأنطاكية في أقصى شمال الشام، وطرابلس على الساحل اللبناني، وقد ارتبطت تلك الإمارات ارتباطاً وثيقاً مع بعضها البعض، وكذلك مع مملكة بيت المقدس اللاتينية[3].

1 ـ إمارة الرها:

حاول جوسلين الثاني استرداد إمارته المفقودة في عام (542هـ/ 1147م) وذلك بعد مقتل زنكي، بمساعدة العناصر الأرمينية بداخلها[4]، وأمكنه عبور نهر الفرات في ربيع الثاني من عام (542هـ/ أكتوبر 1147م) وساعده الأرمن على فتح أبوابها والاستيلاء عليها، وإن عجز عن قلعتها[5]، نظراً لمناعتها وتجهيزاتها بالمعدات والرجال، وعدم جلبه لآلات الحصار اللازمة لاقتحامها[6]، أمام ذلك الموقف، هب نور الدين إلى إنقاذ الرها، وعندما اقتربت قواته منها لاذ جوسلين بالفرار، وقد تمكن الجيش النوري من إلحاق الهزيمة بالصليبيين، وأصيب

---

(1) هي الأميرة البيزنطية تيودورا، وكانت قد زفت إلى بلدوين الثالث سنة 553هـ/ 1185م وهي في الثالث عشر من عمرها، وقد بلغت يوم وفاة زوجها سن السابعة عشرة.

(2) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، ص: 113، الجنة في ظلال السيوف، ص: 75، 77 حبيب جاماتي.

(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 161.

(4) المصدر نفسه، ص: 164.

(5) المصدر نفسه، ص: 165.

(6) المصدر نفسه، ص: 165.

جوسلين نفسه وقتل فيمن قتل بلدوين صاحب مرعش[1]، وقام الأول بعبور الفرات مسرعاً حتى بلغ سميساط وفرَّ من كان معه في اتجاهات متفرقة، وقامت القوات النورية بسلب المدينة ونهبها، كعقاب لأهلها على تمردهم وغنمت من وراء ذلك الغنائم الوفيرة[2]، ووجدت لدى نور الدين محمود عدة اعتبارات دفعته إلى الإسراع نحو القضاء على محاولة جوسلين الثاني استرداد الرها، إذ أنه أراد إنقاذ الإنجاز الكبير الذي حققه والده زنكي بإخضاع أولى الإمارات الصليبية وما غنمه المسلمون من وراء ذلك من مغانم إستراتيجية كبرى، كذلك أراد أن يوقف أية توسعات صليبية في المنطقة الممتدة في شمال العراق، كذلك فإن عودة السيادة الصليبية للرها كان من شأنه توجيه ضربة قوية لخط الدفاع الاستراتيجي القائم بين المدينتين، والذي حرص نور الدين على عدم خضوعه لسيطرة الصليبيين بأية صورة[3].

أ ـ هزيمة نور الدين: سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع الواقعة شمالي حلب، منها: تل باشر، وعين تاب، وَعزَاز وغيرها من الحصون، فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار[4] كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وأقصر وغيرهما من تلك الأعمال، وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره[5].

ب ـ أعمال نور الدين للحيلة ووقوع جوسلين في الأسر: عظمت هذه الحادثة على نور الدين وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً وإما أسراً، فاتُّفق أن جوسلين خرج في عشرة، وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأة منهم فخلا معها تحت شجرة، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً.. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملّة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره،

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 166.
(2) المصدر نفسه، ص: 166.
(3) المصدر نفسه، ص: 166.
(4) سلاح دار: معناه ممسك السلاح.
(5) كتاب الروضتين (1/ 246).

وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده، وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غدره، وحاق به مكره، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]. فلما أسر تيسّر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب، وعزاز، قُورُس والرّاوندان، وحصن البارة، وتل خالد، وكفر لاثا، وكفر سود، وحصن بسرفوت بجبل بني عُليم ودُلُوك، ومرعش، ونهر الجوز، وبرج الرصاص[1]. وكان نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء[2].

لقد رغب نور الدين محمود زنكي في تأمين خطوط التجارة بين حلب والموصل، وبين حلب ودولة سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية، ووقوعها غرب نهر الفرات له أهمية كبيرة، إذ أنها على ما يبدو فرضت نوعاً من السيطرة على حركة التجارة بين شرق الفرات وغربه، وبالذات في الجزء الشمالي لبلاد الشام، أما الدوافع الإستراتيجية العسكرية فتمثلت في رغبة نور الدين الأكيدة في تأمين الخط الدفاعي الحربي الواقع بين الموصل وحلب، إذ أن خضوع تلك القلاع والحصون في أيدي الصليبيين هدد ذلك الخط تهديداً كاملاً، ويمكن تلخيص سياسة نور الدين تجاه إمارة الرها، تمثلت في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعي أن ندرك أن دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة أنطاكية مثلاً، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده[3]، ولقد أصبحت انتصارات نور الدين يتغنى بها الشعراء فقال ابن منير:

لقد أشعرت دين الله عِزًّا ... تتيه له المشاعر والحجونُ
وقام بنصره والناسُ فوضى ... قويٌ منك في الجُلَّى أمين
رجعت ملوكهم وهم خيوف ... أسير في صفادك أو كنين
فَبَرنَشتَ البرنسَ لقاع خسف ... وجُرِّعَ مُرَّ جوسك جوسلين[4]

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 246).
(2) المصدر نفسه (1/ 247).
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 169.
(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 270، 271).

2 ـ إمارة أنطاكية:

تولى حكم إمارة أنطاكية خلال عهد نور الدين محمود ثلاثة من الأمراء: ريموند دي بواتيه سنة (519 ـ 543هـ/ 1136 ـ 1149م) وقد اتجه إلى محاولة طلب عون الحملة الصليبية الثانية عندما قدمت إلى الشام من أجل مساعدته في استرداد أملاكه المفقودة شرق نهر العاصي. ورينو دي شاتيون أو أرناط في المصادر العربية سنة (548 ـ557هـ/ 1153 ـ 1162م)، فقد شن هجماته على الأعمال الحلبية ووصف بالاندفاع والتهور، وجرّت تصرفاته على الصليبيين في بلاد الشام بصفة عامة أوخم العواقب، وقد عمل نور الدين على أسره، وتمكّن بالفعل من ذلك، ومكث في السجن سبعة عشر عاماً خرج بعدها يقاتل المسلمين بضراوة. وتولى بوهيمند الثالث سنة (558 ـ 595هـ/ 1163 ـ 1200م) عرش الإمارة تحت وصاية الأميرة كونستانس أرملة ريموند دي بواتيه، ويلاحظ أنه أسر في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م)[1] وقد كانت سياسة نور الدين محمود تجاه إمارة أنطاكية، قد امتازت بتعدد المعارك الكبيرة التي خاضها ضدها على نحو لم تجده بالنسبة لغيرها من الإمارات الصليبية الأخرى[2]، ومن أشهر هذه المعارك:

أ ـ معركة يغرى: في سنة 543هـ سار نور الدين إلى يَغْرى، وقد اجتمع بها الفرنج وقد جاؤوا بقضّهم وقضيضهم، وقد عزموا على الاستيلاء على بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال ثم أنزل الله نصره على المسلمين وانهزم الفرنج، وكانوا بين قتيل وأسير، وفي هذه الوقعة قال القيسراني:

وكيف لا نُثني على عيشنا	المحمود والسلطان محمود
فليشكر الناسُ ظلالَ المنى	إن رِواقَ العدل ممدود
ونيِّرات الملك وقاجة	وطالع الدولة مسعود
وصارمُ الإسلام لا ينثني	إلا وشِلْوُ الكُفر مقدود
مناقب لم تك موجودة	إلا ونور الدين موجود
مُظَفَّر في درعه ضَيْغَمُ	عليه تاج الملك معقود
نال المعالي حاكماً مالكاً	فهو سليمان وداود
ترتشِفُ الأفواه أسيافهُ	إنَّ رُضاب العِزِّ مورود
وكم له من وقعة يومها	عند ملوك الشرك مشهود

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 169. (2) المصدر نفسه، ص: 170.

والـقـوم إمـا مُـزهَـقٌ صُـرَعَـةٌ أو مُـوثَـقٌ بـالـقـدِّ مَـشْـدُودُ

حـتـى إذا عـادوا إلـى مـثـلـهـا قـالـت لـهـم هـيـبـتـه عـودوا

والـكـر والـفَـرُّ سِـجـال الـوغـى فـطـار وطـوراً ومـطـرود

وإنـمّـا الإفـرنـج مـن بـغـيـهـا عـادٌ وقـد عـاد لـهـا هُـودُ

قـد حـصـحـص الـحـق فـمـا جـاحـد فـي قـلـبـه بـأسـك مـجـحـود

فـكـل مِـصـرٍ بـك مُـسـتـفـتِـحٌ وكـل ثَـغـر بـك مـسـدود[1]

ب ـ معركة إنب: وقعت معركة إنب في (صفر 544هـ/ يونيو ـ حزيران 1149م) وقد حقق الجيش النوري فيها انتصاراً كبيراً، وتم قتل ريموند دي بواتيه، وعدد كبير من كبار قادة الصليبيين، ويلاحظ أن الشيعة الإسماعيلية النزارية وقفوا خلال المعركة إلى جانب الصليبيين؛ مما كشف بجلاء عن حقيقة دورهم خلال تلك المرحلة، ولقي قائدهم علي بن وفا مصرعه على نحو دلّ على التواطؤ والتعاون مع أعداء الإسلام[2] والارتماء في أحضان الصليبيين ضد القيادة السنية المجاهدة[3]. وقد قال ابن منير في مدح نور الدين قصيدة جاء فيها:

تـفـي بـضـمـانـهـا الـبـيـضُ الـحِـدادُ وتـقـضـي دَيْـنَـهـا الـسُّـمْـرُ الـصِّـعـاد

وتـدركُ ثـارهـا مـن كـلِّ بـاغ فـوارس مـن عـزائـمـهـا الـجـلاد

ويَـغـشـى حَـوْمـةَ الـهـيـجـا هُـمـامٌ تَـشُـدُّ بـضـبـعِـهِ الـسُّـبْـعُ الـشِّـداد

أظـنُّـوا أنَّ نـارَ الـحـرب تـخـبـو ونـور الـديـن فـي يـده الـزِّنـادُ

وجُـنـدٌ كـالـصـقـور عـلـى صـقـور إذا انـقـضـوا عـلـى الأبـطـال صـادوا

إذا أخـفـوا مـكـيـدتـهـم أخـافـوا وإن أبـدوا عـداوتـهـم أبـادوا

ونـصـرة دولـة حـامـيـت عـنـهـا وهـل تـخـشـى وأنـت لـهـا عـمـاد

وإن نُـثْـلِ الـقـوافـي مـا تُـلَـتْـهُ بـإنَّـب مـا يُـؤَبِّـنُـهـا سِـنـادُ

جـرت بـالـنـصـر أقـلام الـعـوالـي ولـيـس سـوى الـنـجـيـع لـهـا مِـدَاد

وطـالـت أرؤس الأعـلاج خـصـبـاً فـنـادى الـسـيـف قـد وقـع الـحـصـاد

أحـطـت بـهـم فـكـان الـقـتـل صـبـراً ولا طـعـن هـنـاك ولا طِـراد

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 200).

(2) الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب، ص: 175.

(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 171.

وللإبرنز فوق الرمح رأس ... توسّد والسّنان له وساد

إلى أن قال:

وأذعنتِ الممالك واستجابت ... مُلبّيةً لدعوتكَ العبادُ[1]

ومما قال ابن القيسراني:

هذا العزائمُ لاما تدَّعي القضبُ ... وذي المكارم لا ما قالت الكُتُبُ

وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خَطُبت ... تعثّرت خلفها الأشعار والخُطَبُ

صافحت يا ابنَ عماد الدين ذُرْوَتَها ... براحة للمساعي دونها تعب

وهي قصيدة طويلة جاء فيها:

أبناء ملحمةٍ لو أنها ذكرت ... فيما مضى نسيت أيامها العَرب

من كان يغزو بلاد الشِّرك مكتسباً ... من الملوك فنور الدين مُحْتَسِبُ

ذو غرة ما سمت والليل معتكر ... إلا تمزق عن شمس الضحى الحُجُبُ

أفعاله كاسمه في كل حادثةٍ ... ووجهه نائبٌ عن وصفِهِ اللَّقبُ

في كلِّ يوم لفكري من وقائعه ... شغل فكل مديحي فيه مُقْتَضَبُ

من باتتِ الأُسدُ أسرى في سلاسله ... هل يأسر الغُلْبَ إلا من له الغَلَبُ[2]

إلى أن قال:

هذا وهل كان في الإسلام مكرمة ... إلا شهِدتَ وعُبَّادُ الهوى غُيَبُ

وقيل فيه قصائد كثيرة من شعراء عصره بسبب فتوحاته ومعاركه التي خاضها مع الصليبيين. وعلى أثر مقتل ريموند دي بواتيه، اضطربت الأوضاع السياسية في أنطاكية، وحلّت الفوضى بها واستولى الهلع على كافة الناس، وصارت الأرض ممهدة أمام قوات نور الدين، لأن الحرب أخذت زهرة الجيش، وأمير البلاد، ولم يعد هناك من يقدم حماية قوية ضد الأخطار التي هددتهم، وطبيعي أن سعى نور الدين إلى الإفادة من انتصاره فعمل على الاستيلاء على عدد من الحصون الأنطاكية في كل الوادي الأوسط لنهر العاصي، ومنها أزمان وإنب، وعم، واجتاح سهل أنطاكية حتى بلغ ميناء السويدية (سان سيمون)، وبذلك قضى على المراكز

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 201).

(2) المصدر نفسه (1/ 175).

الصليبية الأمامية الواقعة بين حلب وأنطاكية، بل إنه هدد أنطاكية نفسها وحاصرها، واتفقت معه المدينة على الاستسلام في حالة عدم مقدم الملك الصليبي بلدوين الثالث، وبالفعل حضر وفرض حصاره على حصن حارم، ولما باء بالفشل، عاد أدراجه إلى أنطاكية وعقد هدنة مع نور الدين[1]. واتجه نور الدين محمود إلى أسر أمير أنطاكية رينو دي شاتيون مثلما فعل ذلك من قبل مع جوسلين الثاني، وبالفعل تم أسره حوالي عام (558هـ/ 1162م) على نحوِ بَعَثَ الاضطراب في تلك الإمارة الصليبية، وبصورة عكست أسلوب أسر حكام الإمارات الصليبية، مثل أفضل الأساليب حينذاك التي من خلالها يتم إضعاف ذلك الكيان الصليبي وبعث الاضطراب والفوضى في صفوف أبنائه بصورة أو بأخرى[2].

ج ـ الاستيلاء على أفاميه: سار نور الدين إلى حصن أفاميه سنة 544هـ وكان حصناً منيعاً على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشيزر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نور الدين إليه، وحصره وضيّق عليه، ومنع مَن به من الفرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها وساروا نحوه ليزحزحوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوْا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ، ومدحه الشعراء وأكثروا[3].

د ـ حصار حارم: في عام 557هـ جمع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم وحصرها وجَدَّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج وشجعانهم، واجتمع الفرنج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحّلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافّ، فلم يجيبوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغَزَاة: الأمير مُؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج، فلما دخله يومئذ كتب على حائطه[4]:

لك الحمدُ يا مولاي كم لك مِنّةً ... عليّ وفضل لا يحيط به شُكري

---

(1) إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطية، ص: 236.

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 174.

(3) كتاب الروضتين (1/ 217).

(4) المصدر نفسه (1/ 396).

نـزلـتُ بـهـذا الـمـسـجـد الـعـام قـافـلاً   مـن الـغـزو مـوفـورَ الـنَّـصـيـب مـن الأجـر
ومـنـه رحـلـت الـعِـيـسـى فـي عـامـي الـذي   مـضـى نـحـو بـيـت الله ذي الـرُّكـن والـحِـجـر
فـأديـت مـفـروضـي وأسـقـطـت ثـقـل مـا   تـحـمـلـت مـن وزر الـشَّـبـيـبـة عـن ظـهـري

قال أبو شامة: أذكرني هذا ما كتبه أسامة بمدينة صور، وقد دخل دار أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها، فكتب على لوح من رخام:

أحـــذر الـــدنـــيـــا ولا   تـــغـــتـــر بـــالـــعـــمـــر الـــقـــصـــيـــر
وانـــظـــر إلـــى آثـــارِ مَـــن   صَـــرَعـــتْـــهُ مـــنَّـــا بـــالـــغُـــرورِ
عـــمـــروا وشـــادوا مـــا تـــراه   مـــن الـــمـــنـــازل والـــقُـــصُـــور
وتـــحـــوّلـــوا مـــن بـــعـــد   ســكــنــاهــا إلــى سُــكــنــى الــقــبــور[1]

هـ ـ معركة حارم: وفي سنة 559هـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنج وقَصَدهم، واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصافَّ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية، وقومص طرابلس وابن لجوسلين ودُوك الروم، وذلك في رمضان[2]. وقد اشترك في هذه الغزوة ضد نور الدين، القوى الصليبية والبيزنطية والأرمينية[3] وسبب الانتصار لنور الدين أنه لما عاد منهزماً في معركة حصن الأكراد، أقبل على الجد والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وثأر الإسلام، وغزو العدوِّ في عقر داره، ليرتق ذلك الفتق، ويمحو سِمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن ـ أي حصن كيفا ـ ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف، فأما قطب الدين أتابك جمع عساكره، وسار مجداً، وعلى مقدِّمة عسكره زين الدين نائبه. وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصّه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصَّوْم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا ! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدَّها ! فقال: إن نورالدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد من يدي، فإنه كاتب زُهّادها وعُبّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنّهب، ويستمد منهم الدعاء ويطلب منهم

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 397).
(2) المصدر نفسه (1/ 416).
(3) فن الصراع البيزنطي الإسلامي، ص: 175.

أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلابدَّ من إجابة دعوته، ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم، فنزل عليها وحاصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل ممن لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، فقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك معهم وهو رئيس الرُّوم ومقدَّمُها، وجمعوا من الرَّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، ملؤوا الأرض وحجَبُوا بقسطهم السماءَ، فحرَّض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح[1] وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه.

فساروا حتى نزلوا على عِمّ[2]، وتيقَّنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولَّوا الأدبار وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الضَرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بالعدو مكروه، وهو أن يبعد عن راجلهم، فيميل عليهم من بقي من المسلمين، ويضعوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دبَّروا، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيَّالتهم ولم يُمعِنوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرَّجين، فسقط في أيديهم، ورأوا أنَّهم قد ضلُّوا، وخضعت رقابهم وذلُّوا، فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَاة الطيور، فمزَّقوهم بدَداً وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف[3].

وقال الذهبي: .. ثم التقاهُم في سنة (559هـ) فطحنهم وأسر ملوكهم، وقتل منهم

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 417).

(2) المصدر نفسه (1/ 418).

(3) المصدر نفسه (1/ 418).

عشرة آلاف بحارم[1]. وأما ما أسروا وهم الذين من قبل ذُكروا[2]. وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوُّها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها، فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلُموها إليه، ومجاورة بوهيمند أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الروم وبث سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء وغير ذلك وعادوا سالمين، ثم إن نور الدين أطلق بوهيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم[3].

تلك كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها في حارم، ومع ذلك لم تسفر عن تغير حاسم، وكأن الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الإمبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم، غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها[4].

3 ـ إمارة طرابلس:

عاصر نور الدين محمود اثنان من أمراء طرابلس، ريموند الثاني سنة (532هـ ـ 547هـ/ 1137 ـ 1151 ـ 1152م)، وريموند الثالث سنة (547 ـ 583هـ/ 1187م) في وقت اتسمت الدولة النورية تجاه إمارة طرابلس بصراع عنيف لإسقاط حصونها وقلاعها، واحتلت تلك الإمارة الصليبية أهمية متميزة لديها نظراً لتصريف التجارة الشامية عبر موانيها إلى عالم البحر المتوسط، ودخلت إمارة طرابلس في صراع مصالح مع الشيعة الإسماعيلية بسبب وقوع قلاع الدعوة الشيعية الإسماعيلية في مناطق إمارة طرابلس، وحيث أن الاغتيال كان سلاح الشيعة الإسماعيلية الرهيب الذي أشهرته في وجوه خصومها، فإن أمير طرابلس ريموند الثاني لم يسلم منه، فقد تمَّ اغتياله[5].

أ ـ حصن أنطرسوس: ورد الخبر في المحرّم من عام سبع وأربعين وخمس مئة بنزول نور الدين على حِصن أنطرسوس في عسكره وافتتاحه وقتل مَن كان فيه من الإفرنج، وطلب

---

(1) سير أعلام النبلاء (20/ 415).
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 4198).
(3) المصدر نفسه (1/ 419).
(4) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 177.
(5) المصدر نفسه، ص: 179.

الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه وملك عِدَّة من الحصون بالسَّبْي والسَّيف والإخراب والإحراق والأمان[1]. وقال ابن المنير قصيدة يمدح نور الدين ويهنِّئه بفتح أنطرْسوس وغيرها فقال:

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكاً ... وتؤوب منه مؤيداً منصورا

تُذني لك الأمل البعيد سَواهُم ... مُجِفَت أهِلَّتُها وكنَّ بُدُورا

وجاء فيها:

هَتَمتْ طرابلساً فأصبح ثَغرُها ... البسَّامُ من عِزِّ الثغور تغيرا

ضحكت لك الأيام واكتأب العِدَى ... قلقاً فجئت مبشراً ونذيرا

لا مُلك إلا ملك محمود الذي ... اتَّخذَ الكِتابَ مظاهراً ووزيرا

تمشي وراء حُدُودِه أحكامه ... تأتُمهنَّ فَيُحكِمُ التقديرا

يقظان ينشر عدله في دولة ... جاءت لمطويِّ السَّماحِ نشورا[2]

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة اخترت منها هذه الأبيات:

مَلكٌ تكنَّف دين أحمد كِنُّه ... فأضاء نيرهُ وصاب شهابه

فالعدل حيث تصرَّفت أحكامه ... والأمن حيث تصرَّمت أسرابه

متهلِّلٌ والموت في نَبَراته ... يُرجى ويُرْهَبُ خوفه وعقابه

طَبَع الحديدَ فكان منه جَنَانُه ... وسِنَانُه وإهابه وثيابُهُ

ويهش إن كَبَتِ الوجوه كأنَّما ... أعداؤه تحت الوغى أحبابه

نُشِرت بمحمود شريعة أحمد ... وأرى الصَّحابة ما احتذاه صحابه[3]

ب ـ حصن الأكراد: في عام (558هـ) جمع نور الدين عساكره، ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم، فلم يطيقوا، فانهزموا،

---

(1) كتاب الروضتين (1/ 280).

(2) المصدر نفسه (1/ 282).

(3) المصدر نفسه (1/ 282).

ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هنالك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رجْله شِبْحة[1] فنزل إنسان من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلّصي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُوقة والغِلمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على بحيرة قَدسَ على فرسخ من حمص وبينهما وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً، ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُّ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدَّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر وفرّق ذلك جميعه على من سَلم، وأما من قُتل فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد.

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوّة أن يمنعنا، وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر ـ العطايا ـ إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مئتي ألف دينار، سوى غيرها من الدوابّ والخيام، والسلاح وغير ذلك؛ وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه، فأعاد الجواب: لا تكدِّروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره[2]. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدراراتٍ كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُّوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بأولئك: فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم. كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني، وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن مَن يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا[3]. ومما يذكر في هذه الهزيمة موقف الشيخ

(1) هي التي تربط يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 399).
(3) المصدر نفسه (1/ 399).

البرهان البلخي حيث قال: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا.... وكلاماً مع هذا، فلما سمع نور الدين ذلك، قام ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الفرنج[1].

ج ـ **فتح حصن المنيطرة وبعض الحصون**: اتجه الجيش النوري إلى الاستيلاء على حصن المنيطرة في عام (561هـ/ 1165م) وغنم الغنائم الوفيرة وفي العام التالي (562هـ/ 1166م) تمت مهاجمة المناطق المحيطة بحصن الأكراد، وسلب الغنائم، كذلك تمَّ الاستيلاء على حصن صافيتا والعريمة وهما من حصون الإمارة المنيعة، ووقع صدام بين الجيش النوري، وجيش إمارة طرابلس سنة (565هـ/ 1169م) فيما عرف بمعركة اللبوة، وبعد عامين أي في عام (567هـ/ 1171م) واصل نفس السياسة وتم إرسال القوات لمحاصرة حصن عرقة، واستولت عليه عام (567هـ/ 1171م) واحتوى على جميع ما فيه وغنم الناس غنيمة عظيمة[2]. كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تتمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها، ولم تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس كالتي حدثت في مواجهة أنطاكية[3]، ومما تجدر الإشارة إليه أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري، معارك كبيرة مثل: يغرى، وإنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون، مثل: المنيطرة، وأنطرطوس، وغيرها[4]. وكانت المعارك جميعها برية ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية، خاصة إمارتَي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا ساحلاً ممتداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونيه جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية (سان سيمون) باءت بالفشل، بسبب تصدي مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه، وأدى ذلك إلى عدم تملك الدولة النورية أية مواني[5].

ثالثاً: العلاقات النورية ــ البيزنطية:

عاصر عهد نور الدين محمود في بلاد الشام عهد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين سنة (540 ـ 575هـ/ 1145 ـ 1180)[6]، الذي تولى عرش الإمبراطورية خلفاً لحنا كومتين، وقد

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (1/ 380).
(2) المصدر نفسه (1/ 224).
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 183.
(4) المصدر نفسه، ص: 184.
(5) المصدر نفسه، ص: 184
(6) المصدر نفسه، ص: 184.

كان مانويل إمبراطوراً يؤمن بفكرة السيادة العالمية، وساعده على تحقيق ذلك أنه كان دبلوماسياً ماهراً ورجل دولة قديراً، وقد كانت له سياسته في الشرق والغرب معاً، ورغب مثل أسلافه في فرض سلطته على روما سواء إذا كان ذلك عن طريق القوة أو بالاتفاق والتعاون مع البابوية[1]، وأراد القضاء على الإمبراطورية الغربية التي نظر إليها البيزنطيون على أنها مغتصبة لحقوقهم، ولذا فقد اتخذ موقفاً عدائياً من الإمبراطور الألماني فردريك بارباروسيا، وقد توجهت سياسة الدولة النورية نحو الإمبراطورية البيزنطية من خلال دوافع اقتصادية وسياسية واستراتيجية عسكرية[2].

ـ **أما الدوافع الاقتصادية**: فتمثلت في رغبة نور الدين محمود في استمرار الصلات التجارية بين الطرفين، فمعلوم أن الإمبراطورية البيزنطية عُدت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق التي دخلت الدولة النورية طرفاً هَاماً في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية ومنها الإمبراطورية البيزنطية، وقد دعم الصلات التجارية بين الجانبين مرور أحد الطرق التجارية الدولية المهمة بمناطقها، ونعني به طريق الشرق الأقصى ـ الخليج العربي ـ الشام، وقد بدأ من رأس الخليج العربي إلى البصرة ثم بغداد واتخذ اتجاهين صوب الشمال نحو ديار بكر والثاني باتجاه غربي نحو دمشق، ومنها إلى موانئ شرق البحر المتوسط مثل: اللاذقية، وطرطوس، وعكا، وغيرها، ومن تلك الموانىء شرق البحر المتوسط مثلت دور الوسيط التجاري بين الدولة النورية والإمبراطورية البيزنطية[3].

ـ **وأما الدوافع السياسية**: حاول نور الدين محمود استثمار الخلافات القائمة بين الجانبين من أجل محاولة إيجاد توازن في علاقات الإمبراطورية البيزنطية بدولته وبالكيان الصليبي في بلاد الشام، وساعده على ذلك أن تلك الإمبراطورية احتاجت إلى قوته من أجل استمرار الصراع مع الصليبيين وإلحاق الخسائر بهم، على نحو يجعلهم يطلبون عون البيزنطيين ولا تغيب سطوتهم عن بلاد الشام وهذا ما هدفوا إليه. ومن أجل تحقيق سياسة توازن القوى في المنطقة، وعدم ارتماء بيزنطة بثقلها في دعم الصليبيين، نجد أن نور الدين عمل على تبادل السفارات مع الإمبراطور البيزنطي، وكذلك الهدايا، ثم لم يجهر بالعداء تجاه تلك الإمبراطورية، بل حاول أن يكسب صداقتها بقدر الإمكان، ونجد ذلك واضحاً بالنسبة للغة المصادر الرسمية، فعلى حين أشارت بالعداء الكامل تجاه الصليبيين، فإنها كانت أقل حدة عندما أشارت إلى الروم أي البيزنطيين[4]، ولا مراء في أن الدولة النورية نجحت في تحقيق

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ص: 186.
(2) المصدر نفسه، ص: 188.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 188.
(4) المصدر نفسه، ص: 189، ذيل تاريخ دمشق، ص: 357.

تلك السياسة التي مارستها أيضاً الإمبراطورية البيزنطية، وهي التي رأت أن دبلوماسيتها ينبغي أن تقوم على أساس شغل القوى السياسية المجاورة بصراعاتها لإضعافها، من أجل أن تقوى الإمبراطورية نفسها، ولا شك في أنها هدفت إلى استمرار صراع الدولة النورية مع الصليبيين[1].

ـ **وأما الدوافع الاستراتيجية العسكرية**: فيمكن ملاحظاتها من خلال أن الإمبراطورية البيزنطية شكلت قوة عسكرية كبيرة في المنطقة، وقد فاقت قوة الدولة النورية بصورة كبيرة ويمكن إدراك ذلك من خلال إشارات المصادر عن حجم الهلع الذي انتشر في الأعمال الإسلامية الشامية[2] خلال مقدم مانويل كومنين بقواته مشاركاً الصليبيين، لقد حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحييدها وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام وفي الاتجاه الجنوبي الغربي صوب الدولة الفاطمية[3].

1 ـ تجديد التحالف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية:

كانت الخطة التي وضعها بلدوين الثالث لاستقطاب مانويل هي المصاهرة، فأرسل لهذا الغرض سفارة إلى البلاط البيزنطي في منتصف عام (552هـ/ صيف عام 1157م) برئاسة أرتارد رئيس أساقفة الناصرة، الذي توفي في الطريق، وعضوية كل من همفري الثاني سيد تبنين[4]، وجوسلين بسيليوس ووليم دي باري، لطلب يد الأميرة تيودورة ابنة إسحاق أخي الإمبراطور[5]، أحسن مانويل استقبال السفارة، وكان أن تمّت الصفقة على أن تكون هدية الزواج التي يقدمها بلدوين الثالث لعروسه مدينة عكا وما يتبعها من أراضٍ، والراجح أن المفاوضات تطرقت إلى أوضاع الصليبيين المتردية مقابلة بتعاظم قوة نور الدين محمود، وما يمكن أن يقدمه الإمبراطور من مساعدة. ومن الواضح أن مانويل استغل هذه الزيجة التي تمت في شهر رجب عام (553هـ/ شهر آب عام 1158م) للقيام بمحاولة أخرى يسترد بها حقوق الإمبراطورية في كيليكية وأنطاكية، ويبدو أنه وعد الملك الصليبي بالاشتراك في حلف لمناهضة نور الدين محمود وتأديب رينولد شاتيون صاحب أنطاكية، وكان هذا الأخير قد

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 189.
(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 357، فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 190.
(3) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 190.
(4) تبنين: بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 307.

حالف ثوروس الثاني صاحب أرمينية الصغرى ضد سلاجقة الروم والدولة البيزنطية معاً، في الوقت الذي اتخذ فيه الإمبراطور البيزنطي من سلاجقة الروم حاجزاً يقي أملاكه في آسيا الصغرى من تضخُّم نفوذ الأمير الأرميني[1].

2 ـ مانويل يغزو كيلكية:

لم تكد الأميرة البيزنطية تيودورة تغادر القسطنطينية في صيف عام (553هـ/ 1158م) متوجهة إلى بيت المقدس، حتى خرج مانويل على رأس جيش يقدر بخمسين ألف جندي، متوجهاً إلى كيلكية ليسترد حقوق الإمبراطورية، ومن ثمّ سيتوجه إلى أنطاكية لإخضاعها وتأديب حاكمها رينولد شاتيون[2]، وكان أن عبر مانويل آسيا الصغرى من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي متظاهراً بمحاربة السلاجقة حتى يُموِّه على أهداف حملته، واتسم خروجه بالسرية التامة، وكان الأمير الأرميني ثوروس الثاني آنذاك في طرسوس، ولم يساوره أي شك في إمكانية حصول غزو بيزنطي لأراضيه، حتى علم فجأة ذات يوم من شهر رمضان/ شهر تشرين الأول بأن العساكر البيزنطية شوهدت على مسيرة يوم واحد من طرسوس، فهرب إلى الجبال ثم دخل مانويل سهل كيليكية واحتلّ بعض المدن والقلاع الكبرى مثل: طرسوس، وتل حمدون وعين زربة والمعيصة التي اتخذ مقامه فيها، وأضحت كيليكية في قبضته، ولاذ ثوروس بالفرار من مكان إلى آخر[3]، وأرسل مانويل إلى رينولد شاتيون في أنطاكية يستدعيه لمحاسبته على ما فعل بجزيرة قبرص، ويبدو أن حاكم أنطاكية انزعج لقدوم الإمبراطور الذي رابط على حدود إمارته إذ أدرك أنه ليس بوسعه أن يتصدّى للجيش الإمبراطوري الكثيف، فطلب مساعدة بلدوين الثالث متجاهلاً أن ملك بيت المقدس لا يقلُّ استياء على الإمبراطور، وأخّر مثوله أمام الإمبراطور بانتظار وصوله إلى أنطاكية حيث كان في طريقه إليها، لكن بطانته نصحوه بالإذعان، وعرض على مانويل تسليمه قلعة أنطاكية، ورأى الإمبراطور أن ذلك ليس كافياً، وأصرّ على أن يحضر رينولد شاتيون إلى مجلسه ليقدم خضوعه وولاءه، فاضطر إلى إجابة الطلب فعجّل بالمسير إلى معسكر الإمبراطور خارج أسوار مدينة المعيصة وأعلن خضوعه له[4].

3 ـ مانويل في أنطاكية:

ما إن علم بلدوين الثالث باقتراب مانويل من أنطاكية، حتى عجّل بالمسير نحو الشمال

---

(1) وليم الصوري (2/ 859)، تاريخ الزنكيين، ص: 307.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 308.

(3) المصدر نفسه، ص: 308، وليم الصوري (2/ 862، 861).

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 308.

يرافقه أخوه عموري والبطريرك إيمري، فبلغ المدينة عقب عودة رينولد شاتيون إليها، وإذ أظهر ملك بيت المقدس شيئاً من الامتعاض عندما سمع بنبإ العفو عن رينولد شاتيون، بادر فوراً إلى طلب الاجتماع بالإمبراطور، ونتيجة للمباحثات التي جرت بينهما تمَّ الاتفاق على ما يلي:

أ ـ عقد تحالف بين الطرفين.

ب ـ تسوية علاقات بلدوين الثالث برينولد شاتيون، وحصل الأول بالمقابل على وعد من الإمبراطور بالعفو عن ثوروس الثاني، دخل مانويل بعد ذلك مدينة أنطاكية في شهر ربيع الآخر عام (554هـ شهر نيسان/ 1159م) وأجرى مفاوضات أخرى مع بلدوين الثالث ورينولد شاتيون اتسمت بالسرية التامة، اتفق فيها الأطراف الثلاثة على القيام بحملة كبرى ضد المسلمين على أن تكون وجهتها مدينة حلب[1]، ولم تذكر المصادر المعاصرة أن بلدوين الثالث اعترف في تلك المباحثات بسيادة الإمبراطور البيزنطي على الصليبيين في بلاد الشام[2]. والواضح أنَّ ما طرأ من أحداث ترجع على ما يبدو إلى إلحاح الصليبيين على مانويل بهدف القضاء على القوة الإسلامية المتعاظمة التي يقودها نور الدين محمود الذي كان آنذاك يعمل على تقوية نفوذه في بلاد الشام، وأصبح يشكل خطراً على الإمارات الصليبية، وربما كان ما قام به وقتذاك من الموافقة على الدعوة لمهاجمة أملاك نور الدين محمود إنما قصد به صرف أنظار الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية[3].

4 ـ مانويل في بلاد الشام:

وبدأت الحشود الصليبية والبيزنطية تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين، فكتب إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم[4]. ثم مضى إلى حلب والمناطق الشامية الأخرى يشحذ الهمم ويبعث الطمأنينة في نفوس السكان[5]، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الإمبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير، مع استعداده في نفس الوقت للحرب وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم، ومع هذه

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 308، 309.

(2) المصدر نفسه، ص: 309.

(3) المصدر نفسه، ص: 309.

(4) ذيل تاريخ دمشق، ص: 540، 541، تاريخ الزنكيين، ص: 309.

(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 309.

الكثرة العددية إلا أن نور الدين استهدف العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده، وحتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب والبيزنطيين في الشمال، واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية، ومعلوم أن البيزنطيين كان لهم باعهم الطويل في شأن الدبلوماسية، وكذلك الحال بالنسبة للدولة النورية التي اتصلت دبلوماسياً بالعباسيين، والفاطميين ومملكة بيت المقدس الصليبية، أي بكافة القوى الكبرى في المنطقة سواء الإسلامية أو المسيحية[1]. والملاحظة المهمة في فقه نور الدين زنكي المثابر في المفاوضات مع الاستعداد الكبير لحشد الجيوش والاستعداد للقتال واستنفار الأمة للتصدي، وقد تخلل الاتصالات الدبلوماسية تبادل هدايا ومحاولة توطيد الصلات السياسية بين حلب والقسطنطينية[2] ومهما يكن من أمر، فإن الاتفاق بين الطرفين احتوى على:

أ ـ إطلاق نور الدين محمود سراح ستة آلاف من الأسرى النصارى الذين كانوا معتقلين بسجونه مُنذ الحرب الصليبية الثانية[3].

ب ـ تعهده بمساندة مانويل في حروبه ضد سلاجقة الروم[4]. وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية والصليبية الشرط الثاني[5]، وقد فرح المسلمون بهذا الاتفاق وبرحيل الإمبراطور بعد الصلح إلى بلاده، مشكوراً محموداً ولم يؤذ أحداً من المسلمين[6] وقد ترتب على هذا الصلح نتائج إيجابية منها:

ـ أنها أنهت التحالف البيزنطي الصليبي، وكان على الصليبيين أن يعتمدوا على أنفسهم أو على مساعدات أوروبا في صراعهم مع الزنكيين.

ـ أنها حفظت وحدة الشام، والتي تعد الأساس الهام لأي وحدة بينها وبين مصر.

ـ أنها أعادت التوازن بين الصليبيين والزنكيين بخروج البيزنطيين من الساحة ومن ثَمَّ عاد النزاع بينهما على مصر متوازناً مرة أخرى[7].

لقد استطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبي

---

(1) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 196.
(2) المصدر نفسه، ص: 197.
(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 310.
(4) المصدر نفسه، ص: 310.
(5) المصدر نفسه، ص: 310.
(6) ذيل تاريخ دمشق، ص: 310، تاريخ الزنكيين، ص: 310.
(7) الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط، ص: 137.

وهذا لم يأتِ بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم السلاجقة، ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين، فإنه وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية، وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الإمبراطور البيزنطي ضد السلاجقة، فقبل الإمبراطور وانسحب من الحلف الصليبي، فأوقف الحملة وزال الخطر، وكان من أعظم النتائج التي ترتبت على هذه الخطوة أن تم استبعاد السلاجقة الروم من الصراع الدائر في المشرق، ذلك أن الإمبراطور البيزنطي سرعان ما قام بحملة ضد السلاجقة وتعرض قلج أرسلان الثاني لضغط ثلاثي من ياغي أرسلان الدشمند والزنكيين والدولة البيزنطية، ولما لم يكن باستطاعته أن يحارب على جميع الجبهات جنح إلى السلم وبدأ بالجانب الإسلامي، وتمّ الصلح أولاً بينه وبين نور الدين محمود[1].

وقد أحسن نور الدين في الأداء السياسي مع مانويل، وقد تمثل دهاء نور الدين محمود السياسي في عدم إثارته للصراع مع الإمبراطورية البيزنطية، واتجاهه إلى عقد اتفاق سلمي معها، وذلك من أجل تجنب تحالف صليبي ـ بيزنطي ضد دولته على نحو يؤدي إلى خسائر فادحة تلحق بهما، ولا شك أنه استغل خبرة دولته الدبلوماسية من أجل إجراء تلك المفاوضات، واستطاع تحجيم خطرها من خلال الاتصالات الدبلوماسية، وقد ساند النجاح السياسي الكبير قوة عسكرية ضارية استطاعت مواجهة التحالف العسكري البيزنطي ـ الصليبي ومعه الأرمن في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م)[2].

إن مقاومة الغزاة تحتاج لمشروع نهضوي إسلامي على أصول أهل السنة يستوعب طاقات الأمة ويكون للقيادة القدرة على الاستفادة من إمكانياتها الكبيرة في المجال العسكري والسياسي، والاقتصادي والتربوي والاجتماعي، والعلمي، والإعلامي. . إلخ.

رابعاً: أهم الدروس والعبر والفوائد:

في هذا الفصل كثير من الدروس والعبر والفوائد منها:

1 ـ التفكير الاستراتيجي عند نور الدين:

بعد أن تولى نور الدين الحكم كرّس جهوده وإمكانيات دولته لحرب الصليبيين وجعل

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 312.

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 206.

القضاء على ممالكهم وإماراتهم وتحرير البلاد من احتلالهم من أهدافه الاستراتيجية، وسعى لتحقيق ذلك بكل ما يملك من قوة، وخاض ضدهم معارك عديدة قتلوا وأسروا خلالها أمراءهم وقادتهم وعشرات الآلاف من رجالهم، واستعاد أكثر من خمسين موقعاً وبلدة ومدينة منهم، ونور الدين محمود لم يكن قائداً عسكرياً فقط، بل كان زعيماً سياسياً يعلم أن للسياسة الدور الأكبر في مواجهة العدو، وأن استخدام القوة العسكرية وخوض العمليات العسكرية إنما يكون لتحقيق الأهداف السياسية، فإذا أمكن تحقيق هذه الأهداف دون الحاجة إلى استخدام القوة العسكرية أو باستخدامها، كتهديد فقط دون التورط في القتال، فإن ذلك أفضل وأوفر للرجال والمال، ومع أن تطبيق هذا المبدإ على حالة المسلمين مع الفرنجة لا يستقيم، لأن النزاع بينهما في بلاد الشام هو نزاع وجود، فلا تتحقق أهداف المسلمين إلا بالقضاء على الفرنجة، وهذا لا يتم إلا باستخدام القوة العسكرية في نهاية الأمر، إلا أن النزاع طويل ولابد أن تتخلّله فترات هدوء يتم فيها الاستعداد والتحضير للجولات القادمة، أو التحول من جبهة إلى أخرى، كانت فترات الهدوء تحصل في بعض الأحيان بالاتفاق بين الطرفين على هدنة محددة المدة، لسنتين أو ثلاث سنوات، لا تجري فيها عمليات عسكرية بين الطرفين.

وكان نور الدين لا يوافق على هدنة مع إحدى الإمارات الفرنجية إلا إذا كان ينوي التركيز على المواجهة مع إمارة أخرى، أو التفرغ لمعالجة بعض القضايا الداخلية، ففي عام (543هـ/ 1148م) اضطر إلى منح جوسلين أمير تل باشر هدنة لمدة عامين، لأنه لجأ إلى معسكره رافعاً الرايات البيض مستجيراً وطالباً حماية نور الدين واعتبر نفسه تابعاً له[1]، كان الموقف محرجاً لنور الدين فهو لا يرغب منح جوسلين حمايته واعتباره أحد أتباعه، ولا يستطيع ردّه خائباً عملاً بآداب العقيدة السمحة وتقاليد الفروسية التي كان يتمثل بها ويحرص عليها، فكانت الهدنة لمدة سنتين حلاً وسطاً بين الحالتين.

وفي عام (544هـ/ 1149م) حاصر نور الدين مدينة أنطاكية وطال الحصار دون أن يتمكن من فتحها، فعرض عليه الفرنجة أموالاً وهدايا وطلبوا منه مهلة يقررون خلالها أمرهم، فأمهلهم وسار إلى حصن أفاميا القريب من أنطاكية، وكانت تحت الحصار أيضاً فافتتحه وعاد إلى أنطاكية يطلب من أهلها الاستسلام ويعرض عليهم الأمان لأنفسهم إذا استسلموا، ولكنّهم تحصّنوا بالمدينة ورفضوا العرض، وكان نور الدين قد علم بقدوم جيش الفرنجة من الجنوب لنجدة المدينة، كما وصلته أخبار عن معارك بين جوسلين أمير تل باشر وقلج أرسلان سلطان سلاجقة آسيا الصغرى، فاضطر إلى الاتفاق مع فرنجة أنطاكية على أن تكون المواقع القريبة

(1) نور الدين، د. حسين مؤنس، ص: 230.

من المدينة فقط تابعة لهم، وأن تكون باقي المناطق باتجاه الشرق تابعة لحلب، ورفع الحصار عن المدينة متوجهاً نحو الشرق ليراقب الأحداث الجارية على الحدود الشرقية لمملكته[1].

وفي عام (549هـ/ 1154م) بعد استيلائه على دمشق التزم نور الدين بالهدنة التي كانت قائمة بين مجير الدين آبق حاكم دمشق وملك بيت المقدس وحدّدها عام (551هـ/ 1156م) لمدة عامين آخرين ليتفرغ لعلاقاته مع جيرانه في الشمال سلاجقة آسيا الصغرى والأراتقة في الجزيرة الفراتية[2]. ولكن ملك بيت المقدس نقض الهدنة في العام التالي واعتدى على بعض المواقع والبلدان التابعة لدمشق ونهبها، فانتقم منه نور الدين وانتصر عليه في عدة مواقع[3].

وفي عام (554هـ/ 1159م) وَقَّع نور الدين هدنة طويلة الأجل مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين الذي وصل على رأس جيش كبير إلى أنطاكية وحاول أمراء الفرنجة معه من أجل توريطه غزو حلب، فراسله نور الدين واتفق معه على هدنة طويلة الأجل، وأطلق سراح بعض الأسرى النصارى، الذين أسرهم نور الدين وأرسل الإمبراطور لنور الدين هدايا كثيرة وثمينة، الأمر الذي أغاظ أمراء الفرنجة، وأفشل مساعيهم وجهودهم للتحالف مع الإمبراطور ضد نور الدين[4].

وفي عام (567هـ/ 1172م) كان تركيز نور الدين على الجبهة الجنوبية مع مملكة بيت المقدس، فقد كان يعتقد أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة القاضية لها، بعد ضم مصر واستقرار الأوضاع فيها، فوقَّع هدنة مع إمارتَي طرابلس وأنطاكية ليتفرغ لأمر مملكة القدس... ولكن توفي قبل أن يحقق ذلك[5].

كان الدور السياسي لنور الدين محمود أهم الأدوار في حياته، فقد حقّق من خلاله أعظم إنجازاته بتوحيد المشرق الإسلامي، بلاد الشام ومصر وشمال العراق وشبه جزيرة العرب في دولة واحدة بزعامته، فكان هذا الإنجاز المرحلة الأساسية في مقاومة غزو الفرنجة والقضاء عليهم فيما بعد، وقد بذل نور الدين جهوداً مضنية في سبيل تحقيق هذا الإنجاز. ظهرت من خلالها حكمته ومهارته السياسية، لقد كان واضح الرؤية مُنذ بداية حكمه حتى نهايته، فقرَّر أهدافه الإستراتيجية الرئيسية وحدّد أولوياتها، ووضع الخطط المحكمة لتنفيذها فكان كما قيل: عبقرياً في التخطيط والتنفيذ[6]، قضى أولاً على إمارة الرها التي كانت تشكل

---

(1) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 167.

(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 167.

(3) المصدر نفسه، ص: 167.

(4) المصدر نفسه، ص: 167.

(5) الباهر، ص: 154، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 168.

(6) الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين، هادية الدجاني، ص: 283.

تهديداً خطيراً لدولته من جهة الشرق، فلا يستطيع أن يتوجّه غرباً أو جنوباً دون أن يحسب حسابها، ثم ركّز على إمارتي أنطاكية وطرابلس فجردها من جميع المواقع شرق نهر العاصي، وحصرهما في شريط ضيق على البحر، وأصبحا لا يشكلان خطراً كبيراً على دولته، وتفرّغ بعد ذلك لضمّ دمشق، فاستولى عليها دون إراقة دماء في خطة رائعة كانت مزيجاً من الدهاء والتهديد والترغيب، ومن بعد ذلك تطلع إلى مصر وأخذ يتهيأ لضمها، وعندما سنحت الفرصة لذلك أظهر من العزم والتصميم والصبر والمرونة ما حقق له الفوز على الفرنجة وحليفهم الوزير المصري شاور، وعندما لاحت الفرصة لضم شمال العراق عام (566هـ/ 1171م) لم يتردد في اغتنامها فاستولى على الموصل دون إراقة دماء أيضاً بفضل ما يكنُه أهلها له من حب واحترام[1].

كان نور الدين حاكماً عظيماً، واكتسب احترام رعاياه وأعدائه على حد سواء[2]، وكان دوره السياسي سلسلة من النجاحات والإنجازات العظيمة المتوالية التي وضعته عن جدارة واستحقاق في مكان الصدارة بين الزعماء السياسيين في زمنه، وجعلت منه مثالاً رائعاً للقيادة السياسية الحكيمة الناجحة على مدى الأزمان من بعده[3].

2 ـ أهمية صلاح أولي الأمر:

ورد ذكر أولي الأمر في القرآن الكريم أكثر من مرة، وفرض طاعتهم على المؤمنين وقرنها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: 59]. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [النساء: 83].

و﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ صنفان: الأمراء والعلماء وقدّمهم على الحكام بقوله: ليس شيء أعز من العلم؛ الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك[4]. ويعتبر العلماء أهل الفكر بينما يعتبر الحكام أهل السياسة، ولابد أن يعمل أهل الفكر وأهل السياسة معاً حتى تتحقق مواصفات القيادة الصالحة للأمة[5]، يقول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المعنى: الملك والدين توأمان، الدين أصل والسلطان حارس، وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع[6]. ونتذكر هنا قول السلطان نور الدين محمود: إنما نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها[7]. وقوله: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طرق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه[8]. وقد رحم الله الأمة بأن هيأ لها قيادة صالحة تمثلت

(1) دور نور الدين محمود في غزو الأمة، ص: 168.
(2) تاريخ الحروب الصليبية (4/ 613)، ستيفن رنسيمان.
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 169.
(4) السياسة الشرعية، ص: 159.
(5) إحياء علوم الدين (1/ 7)، دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 232.
(6) إحياء علوم الدين (1/ 17).
(7) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 232.
(8) الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص: 232.

في السلطان نور الدين محمود الذي جمع من حوله العلماء والفقهاء وأشركهم في السلطة وأعاد لهم اعتبارهم الذي يستحقونه، وسار على طريق الخلفاء الراشدين، فنهضت الأمة من جديد، وتعافت من جراحها واستعادت قوّتها وأرضها ومقدساتها وكرامتها[1]، وصدق الشاعر عندما قال:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتني إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فإن تجمع أوتاد وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا[2]

وحتى تخرج الأمة من أزمتها الراهنة لا بد من صلاح أولي الأمر بصنفيهم: الحكام والعلماء، ولا بد من تعاونهم ليكونوا فريقاً واحداً في قيادة واحدة تسير على نهج السلف الصالح، وللأمة في تاريخها خير عظة وعبرة، ولها العبرة كذلك من الدول المتقدمة في الوقت الحاضر حيث تشكل مراكز البحوث والدراسات الكثيرة المختلفة الأغراض مرجعاً للحكام في تلك الدول، لتنفيذ سياستهم وتحقيق مصالح بلادهم، وفي دولة العدو (إسرائيل) يضع أهل الفكر من العلماء الخطوط العريضة التي تسير عليها حكومتهم في جميع المجالات[3].

3 ـ الاستفادة من المسيحيين:

قال الذهبي في أحداث سنة 567هـ: وفيها هزم مليح بن لاون الأرمني السِّيسِيُّ عسكر صاحب الروم، وكان مصافياً لنور الدين، يبالغ في خدمته ويحارب معه الإفرنج، ولما عوتب نور الدين في إعطائه سِيْسَ، قال: أستعين به على قتال أهل ملته، وأُرِيحُ طائفة من جندي، وهو سدٌّ بيني وبين صاحب قسطنطينية[4]، وفي رواية لابن الأثير توضح بُعد نظر نور الدين وحسن سياسته في هذا المجال فيقول: ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلب انحجز فيها فلا يقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التآلف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج.

وحين توفي نور الدين وسلك مَن بعده غير هذا الطريق، ملك المتولي للأرمن بعد

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 232.
(2) الشهب اللامعة، ص: 237..
(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 233.
(4) سير أعلام النبلاء (21/ 72).

مليح كثيراً من بلاد المسلمين وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه[1]، وبذلك استطاع نور الدين أن يستفيد من الخلاف بين أرمينية وبيزنطة، وحقق كسباً عسكرياً، وكفل للمسلمين حقن دمائهم وجنب المسلمين معارك رآها خاسرة بعد دراستها، فهو ربيب «الموصل» ذات الجغرافية التي تدخل الجبال تضاريسها الشمالية، وحرب الجبال كما هو معروف غاية في الصعوبة، ومن هنا ضن بدماء المسلمين في غير ضرورة[2].

4 ـ شن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج:

أعطى نور الدين محمود الأولوية في أهدافه الاستراتيجية من حيث التنفيذ لهدف تحقيق الوحدة بين الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، مصر وبلاد الشام، لأنه أدرك من خلال تحليله للموقف الدولي والإقليمي أنه لن يتمكّن من القضاء على دول الفرنجة في بلاد الشام، وخاصة مملكة بيت المقدس قبل تحقيق الوحدة مع مصر[3] وإزالة الجسم الغريب في الأمة المتمثل في الدولة الفاطمية الشيعية الرافضية الباطنية، ثم الاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب المصري ومن إمكانياته الكبيرة في المواجهة الأخيرة التي لا بد أن تشترك فيها دول أوروبا إلى جانب الفرنجة في الشام، وقد حصل هذا بالفعل فيما بعد في زمن صلاح الدين، وثبتت صحة الإستراتيجية التي وضعها نور الدين وبدأ بتنفيذها، ولكنه توفي قبل أن يكملها[4].

ولذلك اتخذ نور الدين قراراً سياسياً في منشئه عسكرياً في طبيعة تنفيذه، وهو يقصد من خلاله إضعاف قوّة الإمارات الفرنجية وكسر شوكتها، وتحطيم معنويات قادتها وأفرادها واسترداد ما يمكن استرداده من المواقع والحصون والقلاع منها، وقتل أكبر عدد ممكن من رجالها، وهذا هو مفهوم حرب الاستنزاف والغاية منها، حتى إذا ما تحققت الوحدة بين بلاد الشام ومصر وتوافرت الإمكانيات العسكرية الكافية تم القضاء على الإمارات الفرنجية وإزالتها من الوجود، ومواجهة كل ما يمكن أن يتبع ذلك من تدخل أوروبي. يظهر صحة هذا التحليل من موقف نور الدين بعد انتصاره الكبير في معركة حارم عام (559هـ/ 1164م) حيث تم إبادة وأسر أغلب الجيش الفرنجي، وكان من بين الأسرى قادة الفرنجة الثلاثة: أمير أنطاكية، وأمير طرابلس، وقائد الحامية البيزنطية في المنطقة، وأصبحت أنطاكية بعد المعركة هدفاً سهلاً، فلما طلب قادة نور الدين محمود منه مهاجمتها واحتلالها قال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد حصار طويل، وإذا ضيّقنا عليهم أرسلوا إلى

---

(1) الباهر، ص: 169، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 149.

(2) الحروب الصليبية مواقف وتحديات، ص: 73.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 146.

(4) المصدر نفسه، ص: 146.

صاحب القسطنطينية وملكوه إياها، ومجاورة بوهيموند أمير أنطاكية أحب إليّ من مجاورة ملك الروم[1]، وقبل ذلك عام (544هـ/ 1149م) قضى نور الدين محمود على جيش أنطاكية وقتل أميرها في معركة إنّب[2]، ثم تقدم إلى أنطاكية وحاصرها فامتنعت ولم يضيّق عليها الحصار بل تركها بعد أن جرّدها من أغلب حصونها الشرقية.

وفي عام (554هـ/ 1159م) وصل إمبراطور القسطنطينية بجيشه الكبير إلى أنطاكية في عرض واضح للقوة، وحاول أمراء الفرنجة استغلال وجوده مع جيشه الكبير فحرّضوه على مهاجمة حلب واحتلالها، وكان نور الدين محمود يتابع الأحداث، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور، واتفق معه على هدنة طويلة بين الطرفين، كما تم تبادل الهدايا، وأطلق نور الدين بعض الأسرى النصارى.

وتدل هذه الحوادث الثلاثة على أن نور الدين محمود كان يتجنب إثارة إمبراطور القسطنطينية حتى لا يضطر إلى مواجهة عدوّين في وقت واحد، وأنه كان يسعى لتحييد الإمبراطورية البيزنطية ودول أوروبا جميعها حتى تتغيّر الأوضاع، وتتوافر له الإمكانيات الكافية لمواجهة هذه الأطراف إذا تدخلت، عندها يحوّل حرب الاستنزاف إلى حرب تحرير شاملة يقضي من خلالها على إمارات الفرنجة في بلاد الشام، ويؤكد وجود هذه الاستراتيجية عند نور الدين محمود قوله عندما أرسل له صلاح الدين الأيوبي هدايا من الجواهر والتحف التي استولى عليها من قصور الفاطميين بعد إسقاط دولتهم عام (567هـ/ 1172م) فقد قال: والله ما كان لنا حاجة إلى هذا، وما وصل إلينا عشر معشار ما أنفقناه في العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتوح الساحل[3].

وقد حقق نور الدين فوائد كثيرة وإنجازات كبيرة من خلال حرب الاستنزاف التي شنها على الفرنجة طول فترة حكمه سنة (541هـ ـ569هـ) فقد استرجع منهم أكثر من خمسين مدينة وموقعاً وحصناً[4]، وجرّد إمارتي أنطاكية وطرابلس من جميع المواقع والحصون التي كانت لهما شرق نهر العاصي، وجعلهما شريطاً ضيقاً على امتداد الساحل، واسترد بعض المواقع والحصون من مملكة بيت المقدس أهمها حصن بانياس جنوب غرب دمشق[5]، وألحق بالفرنج هزائم منكرة قتل فيها عشرات الآلاف من رجالهم وقادتهم وأمرائهم وأسر أكثر من ذلك، فانخفضت معنوياتهم، وصار هَمُّهم المحافظة على ما بأيديهم، بعد أن كانوا يطمحون للتوسع على حساب بلاد المسلمين[6]، وكان من أهم الإنجازات القضاء على إمارة الرها

(1) عيون الروضتين، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 146.

(2) ذيل تاريخ دمشق، ص: 304.

(3) سنا البرق الشامي، ص: 65، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 147.

(4) الكواكب الدرية، ص: 213، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 147.

(5) البداية والنهاية، نقلاً عن دور نور الدين محمود، ص: 147.

(6) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 147.

نهائياً، وفي المقابل ارتفعت معنويات المسلمين، وحصل نور الدين على ثقتهم ومحبتهم مما سهل له تحقيق وحدة بلاد الشام وشمال العراق ومصر بسهولة ويسر وبدون قتال، باستثناء ما حصل في مصر[1].

5 ـ اعتماد اللين والمرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة:

كان نور الدين محمود بحكم عقيدته وطبيعته التي تميل إلى الرحمة والرأفة يكره إراقة الدماء على غير طائل، ويسعى لتحقيق أهدافه بأقل الجهد والخسائر، ولا يتردد في أساليب المكر والخداع مع العدو. وصفه المؤرخون بأنه كان في السياسة والدهاء على جانب عظيم[2] وأنه كان يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب[3]، اتبع هذا الأسلوب مع جوسلين الثاني (أمير الرها سابقاً) حتى تمكن من أسره ـ كما مرّ بنا.

وفي عام (561هـ/ 1166م)، شنَّ نور الدين غارة مفاجئة بسرية من الفرسان على حصن المنيطرة شرق طرابلس وتمكن من احتلاله بالرغم من مناعته وقوة الحامية المدافعة عنه، ولكنه بالمفاجأة، ولم يجسُر أمير أنطاكية أو أي من أمراء الفرنجة الآخرين على مهاجمته لتوقعهم أنه احتل الحصن بكامل جيشه وليس بسرية صغيرة فقط[4].

وفي عام (559هـ) عندما حاصر الفرنجة وجيش شاور الوزير المصري أسد الدين وجيشه في بلبيس، اشتد القلق بنور الدين وخشي على قواته في مصر، فأرسل مع بعض جنوده أعلام الفرنجة وسلاحهم وملابسهم مما غنمه في معركة حارم ومعركة طبريا[5]، إلى أسد الدين المحاصر في بلبيس حتى ينشرها في أسواق بلبيس وعلى أسوارها أمام أنظار الفرنجة ليذكرهم بما حل بإمارتهم في بلاد الشام، فلما فعل أسد الدين ذلك اضطر الفرنجة لرفع الحصار والعودة إلى الشام[6]، وكان لسلوك نور الدين مع مجير الدين آبق (حاكم دمشق) على الوجه الذي ذكرناه، أكثر الأثر في تسهيل الاستيلاء على دمشق بدون قتال[7].

6 ـ الاستراتيجية العسكرية لنور الدين:

يعرّف المفكّرون العسكريون في العصر الحديث الإستراتيجية العسكرية بأنها: علم وفن بناء وتطوير واستخدام القوات المسلحة لتحقيق الأهداف الوطنية[8]، فإذا قمنا بتطبيق هذا

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 148.
(2) الباهر، ص: 169، دور نورالدين محمود، ص: 148.
(3) المصدر نفسه، ص: 148.
(4) المصدر نفسه، ص: 148.
(5) المصدر نفسه، ص: 148.
(6) المصدر نفسه، ص: 148.
(7) المصدر نفسه، ص: 149.
(8) المصدر نفسه، ص: 192.

التعريف على ما قام به نور الدين في المجال العسكري خلال فترة حكمه، فإننا نجد بأنه كان من أعظم الاستراتيجيين في زمنه، فقد بدأ حكمه لإمارة صغيرة تتألف من مدينة حلب وضواحيها تواجه تهديداً خطيراً من قبل الغزاة الفرنجة، ومنافسة شديدة من قِبل الإمارات الإسلامية الأخرى في بلاد الشام، وبعد ثماني سنوات سنة (549هـ/ 1154م) وبعد استيلائه على دمشق أصبح الحاكم الأقوى في المشرق الإسلامي، ومن أقوى الحكام في العالم الإسلامي، والعالم كله، فلا بد من قوة عسكرية توفرت لنور الدين، ولا بد من أنه أحسن إدارتها واستخدامها حتى تَمَكَّن من تحقيق إنجازه المذكور[1]. وتظهر ملامح إستراتيجية العسكرية في النقاط التالية:

ـ **التركيز على النوعية والفاعلية**: اعتمد نور الدين على جيش نظامي كان صغير الحجم في بداية حكمه، ولكنه كان منظماً وفعّالاً، إن نور الدين بطبيعته يهتم بالنوعية أكثر من اهتمامه بالكمية، رائده في ذلك الحكمة المأثورة: القوة القليلة المنظّمة أفضل من القوة الكثيرة المبعثرة[2]، فكان يُحسن اختيار قادته وجنوده ويحسن إعدادهم وتدريبهم وتسليحهم، فيعوّض النقص في عددهم بزيادة فعاليتهم، وزاد نور الدين في حوافزهم بزيادة مرتباتهم وإقطاعاتهم وتثبيت الإقطاع في أبنائهم في حالة استشهادهم، فكانوا يقولون: إنما هي أملاكنا نقاتل دونها[3]. وإذا كان أبناء الشهيد صغاراً عيّن لهم رجلاً أميناً يشرف على إقطاعهم حتى يكبروا، مما زاد في إخلاص الجند وحماسهم ـ وولائهم ـ فكان نور الدين يواجه أعداءه بجيشه الصغير غير مبال بكثرتهم وتفوقهم العددي، وينتصر عليهم، فقد انتصر في معركة إنَّب سنة (544هـ/ 1150م) على جيش إمارة أنطاكية، وقتل أميرها بالرغم من تفوق العدو العددي، وكذلك في معركة حارم سنة (559هـ/ 1165م) حقق انتصاراً ساحقاً على تجمع كبير من جيوش عديدة، وكان هذا شأنه في أغلب معاركه مع الفرنجة، وفي سنة (562هـ/ 1168م) انتصر جيشه في مصر بألفين من الفرسان فقط بقيادة أسد الدين شيركوه على جيش الفرنجة بقيادة ملك القدس عموري، وجيش مصر بقيادة الوزير شاور في معركة البابين، وعندما أظهر بعض الجند تردداً أو تخوفاً قبل بدء المعركة بسبب كثرة عدد العدو وقلة عددهم، قام أحد رجال نور الدين المعروفين بشجاعتهم وصاح فيهم: من يخاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة ولا عذر ليأخذن إقطاعكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه منه مُنذ خدمتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم وتسلّمون الديار المصرية يتصرف بها الكفار[4].

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 192.

(2) المصدر السابق، ص: 193.

(3) الباهر، ص: 168، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 193.

(4) الباهر، نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 193.

أ ـ إعلان الجهاد (التعبئة العامة للأمة): دعا نور الدين مُنذ بداية حكمه للجهاد في سبيل الله، وأعلن أن هدفه تحرير بلاد المسلمين ومقدساتهم من الاحتلال الفرنجي، وراسل باقي الحكام المسلمين في بلاد الشام وشمال العراق؛ ليساهموا معه في تحقيق هذا الهدف وتعزّزت دعوته هذه بما حققه من انتصارات على الفرنجة وما عرف عنه من عدل وصدق وتقوى وزهد، فاكتسب مصداقية كبيرة وتحققت له شعبية واسعة بين عامة المسلمين في بلاد الشام والعراق والجزيرة بمختلف طبقاتهم واتجاهاتهم، وصار في أعينهم رائد الجهاد ضد الفرنجة وأمل المسلمين في استعادة أرضهم ومقدساتهم المحتلة، واستقطبت دعوة الجهاد أعداداً كبيرة من المتطوعين، كان نور الدين يستفيد منهم في عملياته العسكرية، وأوجدت رأياً عاماً قوياً وضاغطاً على الحكام والأمراء ليستجيبوا لدعوة نور الدين، فمن يتخلف منهم عن تلبية الدعوة يتعرض للنقد حتى من رعيته ويتهم بدينه ووطنيته، ويخشى خروج الحكم من يده.

ونجح نور الدين في استثمار هذا الشعور إلى أبعد الحدود، فكان يخطط للمواجهة مع الفرنجة في الوقت والمكان المناسبين، ويطلب العون من باقي الأمراء والحكام المسلمين فيبادرون لإرسال القوات إليه، وغالباً ما كانوا يحضرون بأنفسهم ويضعون أنفسهم تحت قيادته فيتحقق له التفوق على العدو ويحقق الانتصارات الباهرة، ويحصلون بدورهم على حقهم من الغنائم ويعودون إلى إماراتهم. أدّى تكرار هذا العمل إلى توافر القوة الكافية لنور الدين في الوقت الذي يريد، دون تحمل عبء نفقات إدامة هذه القوات خلال فترات الراحة والهدوء، كما أدّت هذه الظاهرة إلى تحسين العلاقة بين الحكام والأمراء العرب المسلمين، وتمتينها على أساس الثقة والتعاون والتنسيق ضد العدو المشترك، وزوال الخلاف والنزاع والتنافس الذي كان قائماً بينهم فيما سبق، وأصبح النزاع في المنطقة واضحاً محدداً بين جبهتين فقط هما: الجبهة الإسلامية وجبهة الفرنجة، وصار نور الدين زعيم الجبهة الإسلامية بدون منافس[1].

ب ـ التدرُّج في مواجهة العدو: كان نور الدين يستخدم قواته حسب إمكانياتها ولا يكلّفها فوق طاقاتها، ويتجنب التورط في معركة بدون تحضير واستعداد يجعله مطمئناً إلى تحقيق النصر فيها، ويقدر قوة عدوه تقديراً صحيحاً ودقيقاً، كما يقرّ قوّته بالمقابل بالمعيار نفسه، وهو في هذا المجال يطبق الحكمة المشهورة: «اعرف عدوك واعرف نفسك تستطيع خوض مئة معركة دون هزيمة»[2]، وهذا لا يعني التقدير العددي فقط، بل كان يأخذ بالاعتبار العوامل الأخرى: المعنويات، والكفاءة والقيادة والأسلحة، واستفاد نور الدين من تجربة الحملة الفرنجية الثانية درساً مهماً، ذلك أن قوة الفرنجة في المشرق الإسلامي لا تقتصر على

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 194. (2) المصدر نفسه، ص: 194.

قوة إماراتهم فيه، وإنما تشمل دعم الدول الأوروبية لهم كلما دعت الحاجة، فقرر ألا يخوض معركة فاصلة معهم إلا بعد أن تتوافر لديه القوة الكافية للقضاء على إماراتهم في بلاد الشام ومواجهة احتمالات التدخل الأوروبي، سواء حصل هذا التدخل قبل الفراغ من تدمير الإمارات أم بعد، وقد شكّل هذا القرار السبب الرئيسي في توجّه نور الدين وسعيه الحثيث لضم مصر إلى دولته، للاستفادة من إمكانياتها البشرية والاقتصادية والحصول على القوّة المطلوبة لمواجهة الموقف المذكور[1].

ج ـ **إنهاك العدو واستنزاف قوّته**: إذا كانت القوة اللازمة للقضاء على ممالك وإمارات الفرنجة غير متوفرة لنور الدين قبل استيلائه على دمشق ومن بعد ذلك على مصر، فإن القوة المتوافرة لديه كافية لإيقاع ضربات موجعة بالعدو يتم من خلالها قتل قادته وأفراده وتدمير اقتصاده وتحطيم معنوياته، واسترجاع ما يمكن من الأرض والقلاع والمدن التي اغتصبها من المسلمين، فقرر شن حرب استنزاف ضد الفرنجة يحقق من خلالها ما ذكر أعلاه، بالإضافة إلى رفع معنويات المسلمين وإثارة روح الجهاد في صفوفهم، وما يتحقق من غنائم ومكاسب مادية تحصل من فداء أسرى العدو، تساعد في رفد موارد الدولة وتغطية نفقات الحرب[2].

7 ـ تطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية:

اكتسب نور الدين خبرة واسعة ومهارة فائقة في إدارة الحرب وتطبيق مبادئها قبل تولّيه السلطة، وكان ذلك من خلال مشاركته في جميع المعارك التي خاضها مع والده عماد الدين زنكي على مدى فترة حكمه التي دامت عشرين عاماً (521هـ ـ 541هـ/ 1127 ـ1147م)[3] ومن الطبيعي أن تزداد خبرته ومهارته في هذا المجال بعد تولّيه الحكم من خلال المعارك الكثيرة التي خاضها ضد الفرنجة وغيرهم وحقق فيها انتصارات باهرة، ولعلّ مبادئ الحرب الأساسية لم تكن تحمل نفس الأسماء المعروفة بها في الوقت الحاضر، إلا أن مضمونها لم يتغير مُنذ العصور القديمة، وإنما تغيّرت الوسائل والأسلحة والمعدات وبعض المصطلحات، وما زالت المبادئ نفسها تدرس في المعاهد العسكرية العليا في هذه الأيام، ومن مبادئ الحرب التي طبقها نور الدين:

أ ـ **تحديد الهدف**: كان نور الدين واضح الرؤية مُنذ حكمه، كان هدفه الاستراتيجي الرئيسي في المجال العسكري تحرير بلاد الشام من الاحتلال الفرنجي، وبما أن الهدف

---

(1) الكواكب الدرية، ص: 201.
(2) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 195.
(3) الباهر، ص: 74، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 195.

يتطلب إمكانيات كبيرة جداً لم تكن متوفرة لنور الدين في بداية حكمه، فقد جعل ـ لتحقيق هذا الهدف على مراحل ـ لكل مرحلة هدفها وخطتها المستقلة، والتي تتكامل كلها مع بعضها في سبيل بناء القوة اللازمة لتحقيق هذا الهدف الإستراتيجي وقد فصلنا ذلك فيما مضى.

ب ـ **العمل التعرضي**: يعني هذا المبدأ مهاجمة العدو أولاً والمحافظة على زمام المبادرة، وذلك بضرب العدو باستمرار، وعدم إعطائه فرصة للاستراحة أو إعادة التنظيم ويظهر من سيرة نور الدين أنه كان مبادراً غالباً، وأنه احتفظ بزمام المبادرة في أغلب مواجهاته مع الفرنجة[1].

ج ـ **الحشد**: يعني هذا المبدأ تجميع قوّة ممكنة في المكان والزمان المناسبين لمواجهة العدو والتفوُّق عليه، وقد طبق نور الدين مبدأ الحشد عدة مرات خلال مواجهاته مع الفرنجة[2].

د ـ **المناورة**: قابلية الحركة: يعني هذا المبدأ قدرة القوات على الانتقال بسرعة من مناطق التجمُّع والحشد إلى ميدان المعركة في الزمان والمكان المناسبَين لها، دون أن يتحقق ذلك للعدو، ثم الحركة ضمن ميدان المعركة بالشكل الذي يوفر للقوات فرصة أفضل لضرب العدو والقضاء عليه، وهذا ما كان يفعله نور الدين باستمرار في إطار تطبيقه لمبدإ العمل التعرُّضي، فكان يختار مكان المعركة ويسبق عدوه إليه، وتميز جيشه بسرعة الحركة وسرعة التجاوب لأمر الحركة؛ لأنه كان في حالة استنفار دائمة كما عبّر عن ذلك بنفسه في جوابه لصديقه الزاهد الذي لامه على ممارسته للعبة كرة البولو وتعذيبه الخيل في اللهو واللعب، فكان من ضمن جوابه قوله: إنما نحن في ثغر والعدو منا قريب فربما وقع صوت فتكون الخيل قد أدمنت على سرعة الانعطاف بالكر والفر، فإذا طلبنا[3] العدو أدركناه[4]. وكان الفرنجة في تنقل بين أطراف مملكته لتفقد أحوالها فهو في حركة مستمرة، وتعتبر حملاته على مصر من أروع الأمثلة على المناورة الإستراتيجية السعيدة، كما أنها تميزت بالجرأة والسرعة وحسن التخطيط ودقة التنفيذ، ومن بين الحملات الثلاثة تميزت الثانية بأنها كانت سباقاً بين جيش نور الدين وجيش مملكة القدس على مصر، فكان السبق لجيش نور الدين الذي عبر النيل وجرَّ العدو إلى المكان الذي اختاره للمعركة، فحقق انتصاراً باهراً، بالرغم من أن المسافة التي قطعها أبعد من تلك التي قطعها الجيش الفرنجي. وأما المناورة في ميدان

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 196.
(2) المصدر نفسه، ص: 197.
(3) المصدر نفسه، ص: 198.
(4) الكواكب الدرية، ص: 55، الباهر، ص: 164.

المعركة فقد كان نور الدين يوليها اهتماماً كبيراً، فكان يخطط للمعركة ويديرها ويشرف على القتال، فإذا التحم الجيشان واشتد القتال وحمي الوطيس اندفع لمشاركة رجاله مما يثير حميتهم وحماسهم فيتحقق النصر، وكان ينظم جيشه في المعركة ثلاثة أقسام كما هو معروف عن السلاجقة في هذا الأمر، ميمنة وميسرة وقلب، وعند الاصطفاف للمعركة يكون القلب للخلف في خطة مرسومة فيندفع العدو خلفه إلى مسافة محددة ثم يثبت القلب ويضغط الجناحات على جيش العدو الذي يصبح محاصراً من ثلاث جهات، وعندما يزداد الضغط على جيش العدو تضيق فسحة المناورة له فترتبك صفوفه ويسارع للهرب من الجبهة المفتوحة في الخلف بشكل غير منظم مما يجعله فريسة سهلة للقتل والأسر، نفذ نور الدين هذه المناورة في معركة إنِّب عام (544هـ/ 1150م)، ومعركة حارم عام (559هـ/ 1164م) بينما نفذها جيش نور الدين في معركة البابين بمصر وكان بقيادة أسد الدين شيركوه، ولقد حقق نور الدين من خلال تطبيقه لمبدأ المناورة وقابلية الحركة وسرعة الحركة فائدة عظيمة بالإضافة إلى تفوّقه على العدو وانتصاره عليه، تمثّل ذلك بنقل المعركة إلى أرض العدو، فكان الخراب والدمار يحلّ دائماً في مناطق العدو وعلى أرضه بينما تبقى بلاد نور الدين في أمن وسلام[1].

هـ ـ وحدة القيادة: يؤدي تطبيق هذا المبدإ إلى تجاوز الخلافات وتوحيد الجهود، واختصار الوقت والإجراءات، مما يساعد في تحقيق النصر، جمع نور الدين في شخصه بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، فكان الملك وقائد الجيش في الوقت نفسه، وقاد جيشه إلى النصر في أغلب المعارك التي خاضها ضد الفرنجة، وتمكن من توحيد بلاد الشام وشمال العراق والجزيرة ومصر في دولة واحدة بزعامته، فصارت الجبهة الإسلامية صفاً واحداً متراصاً في وجه الغزاة الفرنجة، بقيادة سياسية واحدة وقيادة عسكرية واحدة فتهيأت الظروف لتحقيق النصر[2].

قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتني إلا على عمد ... ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أوتاد وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا[3].

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 200.
(2) المصدر نفسه، ص: 200.
(3) الشهب اللامعة، ص: 237.

و ـ **عنصر المفاجأة**: حقق نور الدين عنصر المفاجأة في أغلب هجماته على الفرنجة، فكان يربكهم ويفقد سيطرتهم على قوّاتهم ويحتل الموقع حصناً كان أم بلدة، أو يقضي على القوة قبل أن تصل النجدة إليهم، حدث هذا في هجومه السريع على مدينة الرها عام (541هـ/ 1147م) وفي هجومه على حصن أفاميه عام (544هـ/ 1150م)، وفي هجومه على حصن بانياس عام (559هـ/ 1167م)[1].

ز ـ **الخديعة**: كان نور الدين يكثر من أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنجة، وأكثر ما ملكه من بلادهم بهذه الأساليب[2].

ح ـ **الاستخبارات**: كان لنور الدين عيون يثق بصدقهم وأمانتهم في كل مدينة أو حصن ضمن مملكته، وفي الدول والإمارات المجاورة: الفرنجية والإسلامية يزوّدونه بكل ما يستجدّ من أحداث، فيكون باستمرار مُطلعاً على أحوال رعيته وأحوال الدول الأخرى، فيضع خططه على أساس هذه المعلومات، وكان دائم الحركة بين أقاليم مملكته ليتأكد بنفسه من الأوضاع العامة، ومما ساعد في سرعة نقل المعلومات: استخدامه وسيلة اتصالات سريعة جداً، وهي الحمام الزاجل، فقد وضع نظاماً دقيقاً لاستخدام الحمام الزاجل يغطي أطراف مملكته الواسعة ومدنها الكثيرة، فبنى الأبراج على الحدود، وعلى الطرق المؤدية إلى المدن باتجاه الداخل، وركّز على الحدود مع الإمارات الفرنجية ووضع في هذه الأبراج الرجال المدربين على تربية الحمام الزاجل واستخدامه، فكانت الأخبار تأتيه في وقتها، وساعد هذا النظام في كشف تحركات العدو الفرنجي وفي سرعة الإجراءات للرد عليها.

يقول ابن الأثير في هذا المجال: أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، واتخذت في سائر بلاده، وسبب ذلك أنه اتسعت بلاده، وطالت مملكته، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان لا يتخلّلها إلا بلاد الفرنج، وكان الفرنج ـ لعنهم الله ـ ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر البلاد وأجرى الجرايات لها ولمربيّها فوجد بها راحة كثيرة، فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها، فإنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرّحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك[3].

---

(1) دور نور الدين محمود، ص: 200

(2) المصدر نفسه، ص: 200.

(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 202.

كان نور الدين يدرك أهمية المعلومات وأهمية التأكد من صحتها، لأن نجاح خططه التي يضعها على أساس هذه المعلومات يعتمد على مدى دقتها وصحتها، ولذلك لم يعتمد فقط على العملاء (العيون) الذين كانوا يحصلون على مرتبات ومكافآت وافرة مقابل ما يقدمونه، كوظيفة رسمية، بل كان له أصدقاء كثر من التجار والزهاد المتجولين في البلاد وبين الناس وكانوا يراسلونه باستمرار ويزودونه بالأخبار، والأهم من هذا أنه كان يحصل على المعلومات عن الإمارات الفرنجية بطريقة تعرف في العلم العسكري الحديث باسم: **الاستطلاع بالقوة**، فكان يرسل سرايا من جيشه ينتخبهم من الفرسان الأشداء إلى مناطق العدو ينفذون إغارات سريعة على مواقع العدو وحصونه ويتوغلون في بلاده، وربما أقاموا معسكرات متنقلة سرّية كلما اكتشفهم العدو وطاردهم انتقلوا إلى مكان آخر، ثم يعودون بعد فترة بالكثير من المعلومات، وربما كان معهم بعض الأسرى من العدو يمكن الاستفادة من معلوماتهم أيضاً[1]، ويمكن اعتبار حملته الأولى على مصر من باب الاستطلاع بالقوة، للتعرف على أحوال مصر بالإضافة للمهمة الرئيسية التي كلفت الحملة بها[2].

ط ـ **التقرُّب غير المباشر**: طبق نور الدين هذا المبدأ عندما قرّر اتباع سياسة التدرّج في مواجهة العدو، فبدأ بأضعف الإمارات الفرنجية، إمارة تل باشر، بقايا إمارة الرها، وبعد أن فرغ منها توجه بقوته نحو إمارة أنطاكية فجرّدها من جميع الأراضي التي كانت تسيطر عليها شرق نهر العاصي، وتحوّل إلى إمارة طرابلس ففعل بها مثل ذلك، وعندما حان وقت توجيه الضربة القاضية لمملكة بيت المقدس كانت خطته تقضي بالبدء من حصن الكرك الذي كان يعد نقطة ضعف بالنسبة لمملكة القدس، بالرغم من مناعته، كحصن، ولكنه يقع في أطراف المملكة، ولا بد لإنقاذه من توجه الجيش الفرنجي إلى منطقة الكرك مما يسهل على نور الدين اختيار مكان المعركة وجرّ العدو إليها[3]، ويظهر بوضوح تطبيق نور الدين لمبدأ التقرب غير المباشر في تعامله مع الإمارات الفرنجية في بلاد الشام، خلال حملاته الثلاث على مصر، فقد كان يستغل توجه جيش مملكة القدس إلى مصر، ويهاجم إمارة أنطاكية أو إمارة طرابلس أو أراضي مملكة بيت المقدس، ليحقق تخفيف الضغط عن جيشه في مصر من جهة، ويحقق انتصارات ومكاسب في موقف يعتبر العدو فيه ضعيفاً من جهة أخرى.

ففي عام (559هـ/ 1164م) وبينما كان جيش مملكة القدس والجيش المصري يحاصران جيش نور الدين في بلبيس، توجه نور الدين بالقوات التي تجمعت لديه من الموصل والجزيرة

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 202.
(2) المصدر نفسه، ص: 202.
(3) المصدر نفسه، ص: 203.

إلى مدينة حارم وحاصرها، فتجمعت جيوش الفرنجة من أنطاكية وطرابلس بالإضافة إلى الحامية البيزنطية في أنطاكية لإنقاذها، وهذا ما كان يخطط له نور الدين، فسحق هذه الجيوش وأسر جميع الأمراء المشاركين واحتل حارم، ثم استثمر الفوز وتوجه إلى بانياس التي تتبع لمملكة بيت المقدس وحاصرها واحتلّها، فاضطر ملك القدس لرفع الحصار عن جيش نور الدين في بلبيس والإسراع بالعودة إلى مملكته، وكان هذا أيضاً ما خطط له نور الدين وقد حققه بهجوم مفاجئ وسريع على مكان ضعيف وبعيد عن بلبيس حيث يوجد جيش مملكة القدس، وكرّر نور الدين هذه الإستراتيجية عام (562هـ/ 1167م)، عندما حاصر الفرنجة والبيزنطيون مدينة دمياط في مصر، ونجح في المرتين الأخيرتين كما نجح في المرّة الأولى في تحقيق انتصارات باهرة في الشمال وإنقاذ جيشه المحاصر في مصر[1].

ي ـ **الجاهزية القتالية**: كان نور الدين القدوة الحسنة في تطبيق هذا المبدإ، فقد كان كما قيل: أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم وبه كان يضرب المثل في ذلك[2]، وكان يتفقد جنوده باستمرار ويطمئن عن أحوالهم ويتفقد سلاحهم ودوابهم ويقول في هذا المجال: «نحن كل وقت بصدد النفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعُدد دخل الوهن على الإسلام»[3]، وعلق ابن الأثير على كلام نور الدين بقوله: «لقد صدق ﷺ فيما قال وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه علينا»[4]، وقد طبق نور الدين جميع مبادئ الحرب التي لم يرد ذكرها أعلاها كالإدارة والاقتصاد بالجهد، والبساطة والأمن والمعنويات، وقد ورد كثير من هذه المبادئ في ذكر سيرته وصفاته وأدواره السياسية والإدارية[5].

8 ـ الحرب النفسية عند نور الدين:

ركز نور الدين على الحرب النفسية وأحسن استخدامها، فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف، غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين، ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحدّدة

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 203.
(2) الباهر، ص: 169، دور نور الدين محمود، ص: 204.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 204.
(4) الباهر، ص: 169.
(5) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 204.

هي: دين واحد هو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة[1].

وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبثّ هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من العلماء والعبّاد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات وفي مختلف المناسبات، وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً وفعلاً بالمبادئ، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة[2]، وقد أسفرت الحرب النفسية المذكورة عن نتائج إيجابية كبيرة، فقد تحوّلت اتجاهات الرأي العام الإسلامي نحو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة، واكتسب نور الدين ثقة المسلمين ومحبتهم وتعاطفهم، مما كان له أكبر الأثر في الضغط على باقي الحكام والأمراء للاستجابة لدعوته للجهاد والانضواء تحت لوائه[3].

أما الحرب النفسية الموجهة للفرنجة (العدو) فقد كان مضمونها أن المسلمين بقيادة نور الدين لن يتوقفوا عن الجهاد حتى يحرروا بلادهم ومقدساتهم المحتلة، وأن الإسلام يأمر بالعدل والمساواة والإحسان إلى الأسرى ويحرّم الظلم والعدوان، وأن من يعتنق الإسلام يكتسب من الحقوق ما للمسلمين، فكان لهذه الأفكار وما عرف عن نور الدين من ورع وعدل والتزام بالعهود والمواثيق، وما تحقق له من انتصارات، أثر عميق في نفوس قادة الفرنجة وأفرادهم، فصاروا يرهبونه ويحترمونه في الوقت نفسه، وكانوا يعتقدون أن له سراً مع الله، فإذا طلب منه طلباً استجاب الله لطلبه[4].

9 ـ الإنجازات العسكرية:

كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام (541هـ/ 1147م) وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيّر الموقف العسكري فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوُّق العسكري الإسلامي على الفرنجة واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين، حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثّلت بشكل عام من ناحيتين:

الأولى: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة.

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 204.
(2) المصدر نفسه، ص: 205.
(3) المصدر نفسه، ص: 205.
(4) المصدر نفسه، ص: 205.

الثانية: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة، ومن خلال الناحية الأولى تحققت الإنجازات التالية:

ـ تحرير الكثير من المدن والمواقع والحصون الإسلامية من الاحتلال الفرنجي.

ـ تغيير الموقف العسكري في المنطقة لصالح المسلمين والإثخان في الصليبيين، وقتل عشرات الآلاف من رجالهم وأسر أكثر من ذلك وانهيار معنوياتهم.

ـ بث روح الجهاد في نفوس أبناء الأمة ورفع معنوياتهم وتوحيد جهودهم وتوجيهها نحو تحرير الأرض والمقدسات.

ـ الإسراع في تحقيق الوحدة السياسية لبلاد الشام وشمال العراق ومصر وشبه جزيرة العرب.

ـ توفير الأمن والاستقرار، مما هيأ الظروف المناسبة لتحقيق المنجزات الإدارية التي قامت على أساسها نهضة الأمة[1].

10 ـ التشابه في الأسباب بين الغزو الفرنجي والصهيوني:

قد تحدثت فيما مضى عن أسباب الحرب الصليبية من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية في كتابي عن دولة **السلاجقة** وهذه الأسباب تتشابه مع أسباب الاحتلال الصهيوني، فمثلما أفرزت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية أسباب الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، أفرزت الأوضاع نفسها في المنطقة ذاتها أسباب الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي نفسه في بداية القرن العشرين، ومثلما استخدم الغزو الفرنجي الدين لإثارة حماس الشعوب الأوروبية ودفعها للغزو، استخدم الغزو الصهيوني التستّر بلباس الدين، باعتبار فلسطين التي تشكل قلب المشرق الإسلامي الأرضَ المباركة التي منحها الرب ملكاً لبني إسرائيل قبل ألفين وخمسمائة عام، وأنها كانت موطنهم في ذلك التاريخ، مما يجعل لهم فيها حقاً تاريخياً[2] ومع السبب الديني المحرك للجانب العقائدي، هناك أسباب سياسية واقتصادية، واجتماعية، فقد كانت الأسباب السياسية من وجهة نظر الصهيونية إقامة دولة إسرائيل في فلسطين كمقدمة لإقامة دولة إسرائيل الكبرى، في معظم

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 206.

(2) حقائق قضية فلسطين، ص: 120، 121، إسرائيل الكبرى، ص: 20، 21.

مناطق المشرق الإسلامي، وذلك كله مرحلة أولى يتبعها السعي للسيطرة على العالم في المرحلة اللاحقة، أما من وجهة نظر شركاء الصهيونية في الغزو: بريطانيا وفرنسا وأمريكا وغيرها فكانت دوافعهم السياسية هي السيطرة على منطقة المشرق العربي الإسلامي بالتفاهم فيما بينهم، وإقامة دول تتبع لهم وتسهل مواصلاتهم مع مستعمراتهم الأخرى في جنوب شرق آسيا[1]، وتمثلت الأسباب الاقتصادية للغزو الصهيوني الأوروبي المشترك بالسيطرة على موارد البلاد الاقتصادية واستغلالها لإدامة صناعاتها وجعل البلاد سوقاً لاستهلاك منتجاتها الصناعية. وأما الأسباب الاجتماعية فقد تمثّلت في خلاص اليهود المقيمين في أوروبا من حياة البؤس والشقاء والعزلة التي كانوا يحيونها بسبب تمسّكهم بمعتقداتهم العنصرية وأساليبهم الاحتكارية التي كرّهت الشعوب الأوروبية بهم وجعلت الدول الأوروبية تسعى للخلاص منهم[2].

11 ـ التشابه في الأهداف بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني:

كانت أهداف الغزو الفرنجي واضحة محدّدة، فالهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي، وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار[3]. كان هذا الهدف مشتركاً عاماً بين جميع أطراف الغزو: المؤسسة البابوية والقادة والأمراء من الفرنجة والنورمان، أما الأهداف الأخرى الفرعية فهي: **أولاً**: استغلال ثروات الشرق وتحقيق مغانم ومكاسب اقتصادية من التجارة والحروب، وهذا هدف عام مشترك أيضاً لأطراف الغزو جميعهم، شاملاً تجار أوروبا المشهورين في المدن الإيطالية، البندقية، جنوا وبيزا[4]. **ثانياً**: تحقيق سيادة المؤسسة البابوية على العالم المسيحي، وتفوّق مركزها على مركز الإمبراطورية في أوروبا وإقامة كنيسة كاثوليكية في الشرق تتبع كنيسة روما، وتقضي على نفوذ كنيسة القسطنطينية وهذه أهداف خاصة بالمؤسسة البابوية[5]. **ثالثاً**: الاستجابة لطلب إمبراطور بيزنطة ومساعدته في استعادة الأراضي التي احتلها المسلمون الأتراك في الأناضول، ويمكن اعتبار هذا الهدف عاماً للجميع.

من جهة أخرى كانت أهداف الغزو الصهيوني واضحة ومحددة أيضاً، بالرغم من إبقائها طي الكتمان فترة من الزمن لتضليل العرب وخداعهم وكسب مساعداتهم للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، وعندما تكشفت هذه الأهداف بعد الحرب كانت كما يلي: الهدف الرئيسي هو احتلال المشرق العربي الإسلامي وتحويله إلى وطن أوروبي فيما وراء البحار،

---

(1) المقصود الهند وفيتنام وكمبوديا ولاوس.

(2) دولة اليهود، ص: 30، 31، 40.

(3) الحروب الصليبية، سهيل زكار، نقلاً عن دور نور الدين، ص: 221.

(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 221.

(5) الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية، ص: 82، 83.

كان هذا الهدف مشتركاً بين جميع أطراف الغزو الصهيونية العالمية، بريطانيا، فرنسا. أما الأهداف الأخرى فهي: إقامة دولة إسرائيل في فلسطين وتهجير اليهود المقيمين في أوروبا والذين سيهاجرون إلى دولتهم الجديدة في فلسطين، **والجانب الثاني**: هو خلق دولة غربية في قلب المشرق العربي الإسلامي، بل في قلب العالم العربي كله، تكون أداة يستغلها البريطانيون وحلفاؤهم من دول الغرب لمنع قيام الوحدة الإسلامية الكبرى، وإغراق المنطقة كلّها في حروب مستمرة تستنزف طاقاتها، وتسهّل السيطرة الغربية عليها لاستغلال مواردها، علماً بأن الصهيونية كانت وما زالت تعتبر إقامة دولة إسرائيل في فلسطين مرحلة أولى لتتوسّع في المراحل اللاحقة، وتشمل أغلب منطقة المشرق العربي الإسلامي، وقد احتفظت بهذا الهدف لنفسها دون شركائها في الغزو[1].

قال الجنرال اللنبي قائد القوات البريطانية في فلسطين بعد احتلال القدس عام (1917م): «الآن انتهت الحروب الصليبية»[2]. وقال الجنرال غورو قائد القوات الفرنسية التي احتلت لبنان وسوريا عام (1920م) بعد احتلال دمشق: «ها قد عدنا يا صلاح الدين»[3]، ويظهر من كلام القائدين المذكورين أن فكرة غزو المشرق العربي الإسلامي لم تبارح أذهان الأوروبيين وخاصة البريطانيين والفرنسيين مُنذ الحروب الفرنجية في العصور الوسطى، وأن بريطانيا وفرنسا تعتبران احتلالهما للمشرق الإسلامي خلال الحرب العالمية الأولى امتداداً للحروب الفرنجية. ومن الجدير بالذكر أن الفرنجة أطلقوا على مملكة بيت المقدس اسم: فرنسا ما وراء البحار، باعتبارها امتداد للوطن الفرنسي الأم[4] عِلْماً بأن أغلب جيوش الحملة الفرنجية الأولى خرجت من فرنسا، ولا ننسى أن الفرنسيين أطلقوا على مستعمراتهم في الجزائر والشرق اسم فرنسا ما وراء البحار[5]. ولا بد أن الصهيونية العالمية وبريطانيا وفرنسا استلهمت الكثير من تاريخ الصليبية وأحداثها في تخطيط المشروع الإسرائيلي وتنفيذه.

12 ـ التشابه في الأساليب بين الغزو الصليبي والاحتلال الصهيوني:

أقام الفرنجة إماراتهم في المناطق التي احتلّوها بالقوة العسكرية في بلاد الشام وإمارة الرها في أعالي الفرات، وقاموا بتوسيع إماراتهم على حساب الإمارات الإسلامية المجاورة بفعل العسكرية، وكذلك فعل اليهود الصهاينة، فقد هيأت لهم شريكتهم بريطانيا الظروف المناسبة في فلسطين لبناء قوتهم العسكرية التي مكنتهم من احتلال الأرض وتأسيس دولتهم

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.
(2) أبعاد في المواجهة العربية الإسرائيلية، ص: 280.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.
(4) الحروب الصليبية، د. قاسم عبده، ص: 7.
(5) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.

عام 1948م، ثم استمروا ببناء قوتهم العسكرية المتفوقة حتى تمكنوا من توسيع رقعة دولتهم على حساب الدول العربية المجاورة عام (1967م)، ولا يزالون حتى الوقت الحاضر حريصين على تحقيق التفوق العسكري في المنطقة؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن تغيير موازين القوى لصالح الدول العربية يعني زوال دولتهم من الوجود، تماماً كما حصل مع الفرنجة الذين قامت إمارتهم بفعل القوة العسكرية، فلما تغيّرت موازين القوة لصالح المسلمين زالت إماراتهم من الوجود، ولذلك تبذل إسرائيل كل جهودها وتسعى الصهيونية العالمية بكل طاقاتها من خلال نفوذها في الدول العظمى، لحرمان الدولة الإسلامية من امتلاك الأسلحة المتطورة أو بناء قوة عسكرية متفوقة يمكن أن تشكل خطراً على إسرائيل، فإذا ما ظهرت قوة إسلامية يمكن أن تشكل خطراً عليها بادرت إسرائيل بشن الحرب لتدمير هذه القوة قبل اكتمال بنائها، حصل ذلك في حرب عام (1956م) وفي حرب عام (1967م)، وفي قصف المفاعل النووي العراقي[1] عام (1981م) وإذا لم تستطع تدمير هذه القوة العربية بنفسها سخرت القوى العظمى لتحقيق ذلك، كما حصل في حرب الخليج بداية التسعينات عندما شجعت الصهيونية العالمية الولايات المتحدة الأمريكية ودول الغرب الأخرى على شن الحرب ضد العراق، وتدمير قوّته العسكرية المتنامية التي كانت في نظرهم تشكل خطراً كبيراً على إسرائيل[2].

ويحتل مبدأ استخدام القوة العسكرية المتفوقة المقام الأول في الإستراتيجية الوطنية الإسرائيلية، وضع هذا المبدأ أحد روّاد الحركة الصهيونية المشهورين، اسمه: آشر غتربرغ، وأطلق على فكرته التي تحولت مع الوقت إلى عقيدة راسخة في الذهنية الصهيونية اسم: (التجمع والاقتحام)، ويقول: بأنه استلهمها من تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر مع موسى ﷺ وانقضاء فترة التيه في صحراء سيناء، فقد تشبعوا بروح الاقتحام والفتك التي مكنتهم من احتلال فلسطين[3]. وكان جابوتنسكي أول من طبق عقيدة التجمع والاقتحام في فلسطين عام (1920م) باستخدامه الأسلحة النارية في أول صدام بين العرب واليهود في القدس، وهو أول من دعا إلى تشكيل المنظمات الإرهابية اليهودية التي ارتكبت أبشع المجازر بحق العرب في القرى والمدن الفلسطينية ثم تحولت تلك المنظمات بعد قيام الدولة اليهودية عام (1948م) إلى الجيش الإسرائيلي: يقول مناحم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، الذي كان عضواً في عصابة أرغون الإرهابية وتلميذاً لجابوتنسكي: إن المبدأ الرئيسي لكل إسرائيل يجب أن يكون: أنا أحارب فأنا موجود[4].

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 222.
(2) المصدر نفسه، ص: 222، 223.
(3) حرب الخليج وأثرها على العالم الإسلامي، ص: 6.
(4) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 223.

ويقول ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل: سوف نواجه العرب بالقوة، إن النتيجة الوحيدة المتوقعة لهذا الصراع هي النتيجة التي تفرضها القوة، ويقول مائير كهانا أشهر المتطرفين اليهود، وكان عضواً في الكنيست الإسرائيلي: حدود إسرائيل هي حيث يقف الجنود الإسرائيليون[1]، وقد تشابهت أساليب الغزو الصهيوني مع أساليب الغزو الفرنجي في مجالات من أهمها:

أ ـ الاعتماد على المساعدة الخارجية: اعتمدت الإمارات الفرنجية في المشرق العربي الإسلامي في توسعها واستمرارها على الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التي كانت تعتبر الدولة الأم لتلك الإمارات. كانت هذه المساعدة تشتمل المال والسلاح والرجال، وكانت تأتي في بعض الأحيان على شكل جيوش متكاملة بقيادة ملوك وأباطرة أوروبا عندما تواجه الإمارات الفرنجية خطراً، كما حصل بعد تحرير مدينة الرها، عاصمة إمارة الرها الفرنجية عام 1145م[2]. وأما اليهود الصهاينة فقد وضعوا خططهم مُنذ البداية: استغلال قوة ونفوذ الدول العظمى في تحقيق أهدافهم[3]، وها نحن نرى الدعم الأمريكي والغربي لإسرائيل.

ب ـ الهجرة والاستيطان: استقرّت جيوش الحملة الصليبية الأولى في المناطق التي احتلتها من بلاد الشام وأقامت فيها الإمارات الفرنجية المعروفة، بعد ذلك تدفق المهاجرون من أوروبا إلى تلك الإمارات بأعداد كبيرة، ومع أن بعضهم كان يأتي لغرض الحج إلى القدس ويعود بعد إكمال الزيارة إلا أن غالبيتهم كانوا يأتون بقصد الإقامة والاستيطان، كانت هذه الهجرة متواصلة وبأعداد كبيرة زادت في بعض الحالات عن أعداد بعض الحملات المنظمة التي عرفت بأرقام متسلسلة[4]. ساعدت هذه الهجرة على زيادة قوّة الإمارة الفرنجية، وتوسّعها وصمودها في وجه القوة العربية الإسلامية التي كانت تحاول القضاء عليها[5]، على الجانب الآخر كانت هجرة اليهود إلى فلسطين تشكل الركن الأساسي في المشروع الصهيوني لإقامة دولة اليهود فيها، وحظي موضوع الهجرة من حيث الدعاية لها وتنظيمها وتنفيذها بالقسط الأوفر من اهتمام المفكرين الصهاينة الأوائل، ومن أهمهم: تيودور هرتزل أول زعيم للصهيونية العالمية الذي وضع فصلاً خاصاً في كتابه المشهور: «دولة اليهود» عن الهجرة وأهميتها وتنظيمها وباب الهجرة مفتوح على مصراعيه بعد قيام دولة اليهود[6] إلى يومنا هذا.

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 224.
(2) دور نور الدين محمود، ص: 224.
(3) المصدر نفسه، ص: 225.
(4) المصدر نفسه، ص: 225.
(5) المصدر نفسه، ص: 225.
(6) المصدر نفسه، ص: 226.

ج ـ **تضليل الرأي العام وخداعه**: قامت المؤسسة البابوية التي خططت للحروب الفرنجية وأشرفت على تنفيذها بتضليل الرأي العام الأوروبي من خلال الدعاية الكاذبة التي كانت تسبق كل حملة، فقد افتتح البابا أوربان الثاني الحملة الدعائية الكبيرة للحرب الفرنجية في خطابه المشهور عام (1095م) في مجمع كليرمونت، وادّعى فيه: أن المسيحيين في المشرق الإسلامي يتعرضون للاضطهاد والتعذيب والقتل، وأن بيوتهم وكنائسهم تحرق وتُهدم، وأن المسلمين البرابرة المتوحشين، استولوا على مدينة القدس ومنعوا المسيحيين المؤمنين من زيارة قبر السيد المسيح فيها، ولذلك يوجب على مسيحيي أوروبا نجدة إخوانهم مسيحيي الشرق وتخليصهم من الاضطهاد والتعذيب والقتل، وتحرير قبر المسيح من سيطرة البرابرة المسلمين[1].

انتشرت هذه الدعاية الكاذبة المضللة في أوروبا على يد رجال الكنيسة، وكان لها أثر كثير في إثارة الحماس الديني لدى الأوروبيين، فتجمعت حشودهم وتوجهت تحت راية الصليب لحرب المسلمين، وبنفس الأسلوب جرت الدعاية الصهيونية المضلِّلة قبل الغزو الصهيوني للمشرق الإسلامي، فقد قامت وسائل الإعلام الأوروبية الخاضعة لسيطرة الصهيونية العالمية بتصوير المسلمين على أنهم بدو رحّل يعيشون في الصحراء مع مواشيهم، وأن اليهود سيهاجرون إلى تلك البلاد التي تعتبر موطنهم الأصلي لاستصلاح الأراضي وزراعتها وتعميرها ولبناء معبدهم القديم في القدس «هيكل سليمان»[2]. وكانت الدعاية الصهيونية تركز على أوضاع اليهود في مختلف دول العالم باعتبارهم مضطهدين محرومين من أدنى الحقوق الإنسانية، وأن من حقهم أن يعودوا إلى أرض آبائهم «فلسطين» ليقيموا لهم فيها وطناً قومياً كباقي شعوب الأرض[3].

د ـ **الإرهاب والعنف**: ارتكب الفرنجة مجازر بشعة بحق المسلمين في المدن والقرى التي استولوا عليها، وشكّلوا فرقاً عسكرية خاصة من خيرة فرسانهم، وكانت تقوم بشن الغارات على المدن والقرى الإسلامية، وتقوم بأعمال القتل والسلب والتخريب وتُشيع الخوف والرعب بين السكان، فكانوا لا يتورّعون عن قتل النساء والأطفال والشيوخ، حتى أنهم تعرّضوا لقوافل الحجاج بالقتل والنهب[4].

وقد تبنى الصهاينة الأسلوب نفسه في غزوهم لفلسطين، فشكّلوا مُنذ العشرينات قبل قيام دولتهم، عصابات إرهابية كانت مهمتها اقتحام القرى الآمنة، وإبادة سكانها من الرجال والنساء والأطفال بصورة همجية بشعة، لإثارة الرعب والهلع بين السكان المسلمين،

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 226. 227.
(2) دولة اليهود، ص: 49. (4) المصدر نفسه، ص: 227.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص:

وإجبارهم على مغادرة مدنهم وقراهم وأرضهم والهجرة إلى خارج فلسطين[1]، واندمجت العصابات الإرهابية اليهودية بعد قيام دولة إسرائيل لتشكيل الجيش الإسرائيلي، الذي تولى مهمة تنفيذ العمليات الإرهابية ضد السكان المسلمين، وأصبحت هذه العمليات سياسية رسمية لإسرائيل، تنفذها وحدات من الجيش الإسرائيلي الذي أطلق عليه قادة إسرائيل اسم: «جيش الدفاع» زوراً وتضليلاً، بينما هو في الحقيقة أكثر جيوش الأرض عدواناً[2]، ولم تقتصر عمليات الإرهاب والقتل والاغتيال على السكان المسلمين في فلسطين بل تعدّت إلى الدول المجاورة وحتى البعيدة، فقد قامت القوات الخاصة الإسرائيلية بتنفيذ عمليات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في الأردن ولبنان وتونس، وجرت محاولات اغتيال لقادة المقاومة الفلسطينية في مختلف الدول العربية والأجنبية[3].

المبحث الخامس
فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية

أولاً: جذور الشيعة الإسماعيلية والدولة الفاطمية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين ممن نسبوا أنفسهم إلى جعفر الصادق: فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثني عشرية. وفرقة: نفت عنه الإمامة، وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل، وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية[4]. قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل[5]. وقال الشهرستاني: الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثني عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر. قالوا: ولم يتزوج الصادق رحمه الله على أمه ـ أم إسماعيل ـ بواحدة من النساء ولا تسرى بجارية كسنة رسول الله في حق خديجة رضي الله عنها، وكسنة علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها[6].

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب الإسماعيلية منها: الباطنية، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم: بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويل، ومنهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان: التعليمية الملحدة وهم لايحبون أن

---

(1) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 227.
(2) المصدر نفسه، ص: 228.
(3) المصدر نفسه، ص: 228.
(4) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلابي، ص: 35.
(5) الفرق بين الفِرَق، ص: 62.
(6) الملل والنحل (1/ 191).

يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم[1]. وقد قامت الدولة الفاطمية الرافضية عام (296هـ/ 909م) في الشمال الأفريقي على يدي أبو عبد الله الشيعي بعد سقوط القيروان أمام قواته، وهروب زيادة التغلبي إلى مصر في جمادى الآخرة عام 296هـ[2] وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام (297هـ/ 910م) وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين[3].

1 ـ عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول:

هو عبيد الله أبو محمد أول من قام من الخلفاء العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُعاة يستغوون الجبليّة والجهلة[4]، وذكر الذهبي ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دعيٌّ بحيث إنَّ المعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طَبَاطَبا عن نسبه، قال: غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمة من الذهب، ثم جَذبَ نِصْف سيفه من غمدِه فقال: هذا نسبي، وأمرهم بنهب الذهب، وقال: هذا حسبي[5].

وأما مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة سنة (260هـ) واختبأ في بلدة سلميّة بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سلميّة كان يعرف باسم: سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح، وفي منطقة سَلَميّة مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي[6]، ثم قال: هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيديين المنسوبين إليه[7]. ويذكر أن عبيد الله الشيعي عندما دخل إفريقيا «يعني تونس»: أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبي ﷺ وأزواجه حاشا علي بن أبي طالب والمقداد وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري، وزعم أن أصحاب النبي ﷺ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين ذكروا[8].

---

(1) الملل والنحل (1/ 192).
(2) موسوعة المغرب العربي (2/ 60).
(3) المرجع السابق (2/ 70).
(4) سير أعلام النبلاء (15/ 141).
(5) المصدر نفسه (15/ 142).
(6) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: 253.
(7) الدولة الفاطمية العبيدية للصّلابي، ص: 47.
(8) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 291.

وكان أهل السنة بالقيروان أيام بني عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة[1] تجري عليهم في كثير من الأيام محن شديدة، ولما ظهر بنو عبيد أمرهم ونصَّبوا حسيناً الأعمى السباب في الأسواق للسب بأسجاع لُقِّنها يتوصل منها إلى سب الرسول ﷺ في ألفاظ حفظها[2]. مثل: العنوا الغار وما وعى، والكساء وما حوى... وغير ذلك. والغار المقصود منه: غار ثور الذي اختفى فيه الرسول ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه عن أعين المشركين التي كانت تطاردهم في قصة الهجرة، وهذا اللفظ فيه سب للنبي ﷺ وأبي بكر على حد سواء، وكذلك فيه سب لآل البيت الذين حواهم الكساء[3]. وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس معلقة مكتوب عليها أسماء الصحابة، واشتد الأمر على أهل السنة، فمن تكلم أو تحرك قتل ومثِّل به[4].

2 ـ من جرائم العبيديين في الشمال الأفريقي:

ارتكب الشيعة الرافضة الإسماعيلية جرائم نكرة منها:

أ ـ غلو بعض دعاتهم في عبيد الله المهدي: حتى أنه أنزله منزلة الإلٰه وأنه يعلم الغيب، وأنه نبي مرسل، يقول بدر الدين بن قاضي شهبة: وكان له (أي المهدي) دعاة بالمغرب يدعون الناس إليه، وإلى طاعته، ويأخذون عليهم العهود ويلقون إلى الناس من أمره بحسب عقولهم، فمنهم من يلقون إليه: أن المهدي ابن رسول الله وحجة الله على خلقه، ومنهم من يلقون إليه أنه الله الخالق الرازق[5]. وأما زعمهم بأنه إلٰه فيظهر من أفعال دعاته وأقوالهم وأشعارهم، فقد كان هناك رجل يدعى: أحمد البلوي النحاس، يصلي إلى رقادة أيام كان عبيد الله بها، وهي منه إلى المغرب، فلما انتقل إلى المهدية وهي منه إلى الشرق صلى إليها[6] باعتبار أنها مكة المكرمة شرفها الله، وهذا الاعتقاد كان سائداً عند كثير من الناس يومها، فهذا أحد شعراء بني عبيد يقول في المهدية بعد انتقال المهدي إليها:

ليهنك أيها الملك الهمام ... قدوم فيه للدهر ابتسام

لقد عظمت بأرض الغرب دار ... بها الصلوات تقبل والصيام

---

(1) ترتيب المدارك (2/ 318).

(2) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 291.

(3) المصدر نفسه، ص: 291.

(4) الكواكب الدرية في السيرة النورية، ص: 204، 205.

(5) البيان المغرب (1/ 258، 259).

(6) المصدر نفسه (1/ 221).

هـي الـمـهـديـة الـحـرم الـمـوقـى كـمـا بـتـهـامـة الـبـلـد الـحـرام
كـأن مـقـام إبـراهـيـم فـيـه تـرى قـدمـيـك إن عـدم الـمـقـام
وإن لـثـم الـحـجـيـج الـركـن أضـحـى لـنـا بـعـراص قـصـركـم الـتـثـام
لـك الـدنـيـا وسـلـك حـيـث كـنـتـم فـكـلـكـم لـهـا أبـداً إمـام[1]

ومن الشعر أيضاً في تأليهه ما مدحه به محمد البديل حيث يقول:

حـل بـرقـادة الـمـسـيـح حـل بـهـا آدم ونـوح
حـل بـهـا أحـمـد الـمـصـطـفـى حـل بـهـا الـكـبـش والـذبـيـح
حـل بـهـا الله ذو الـمـعـالـي وكـل شـيء سـواه ريـح

وأما زعمهم أنه كان يعلم الغيب، فيظهر من إيمان بعضهم حيث كان إذا أقسم يقول: وحق عالم الغيب والشهادة مولانا الذي برقادة[2]. ومعرفة الغيب من خصوصيات الألوهية ولا يعلم الغيب إلا الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: 65] وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: 59]. كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**». وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بالآباء[3].

ب ـ **التسلط والجور**: وإعدام كل من يخالف مذهبهم، هذا بالإضافة إلى كل ما ذكرناه آنفاً على لسان القاضي عياض في طعنهم في الصحابة وتعليق رؤوس الأكباش الدالة ـ في زعمهم ـ على أسماء الصحابة وغير ذلك من الأفعال القبيحة والشنيعة التي كانوا يقومون[4] بها، وكانوا يُجبرون الناس على الدخول في مذهبهم بوسيلة التخويف بالقتل، وقد نفذوا حكم الإعدام في أربعة آلاف رجل مرّة واحدة.

قال القابسي: إن الذين ماتوا في دار البحر ـ سجن العبيديين ـ بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عالم وعابد ورجل صالح[5]. هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن، ويُمثَّل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة

---

(1) البيان المغرب (1/ 221).
(2) كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب، ص: 90.
(3) جهود علماء المغرب، ص: 312.
(4) مدرسة الحديث بالقيروان (1/ 76).
(5) رياض النفوس (2/ 56).

العلمية، ومع ذلك فإن هذه المحنة لم تزد أهالي المغرب الإسلامي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بالكتاب والسنة.

ج ـ تحريم الإفتاء على مذهب الإمام مالك: حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: هذا جزاء من يذهب مذهب مالك، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم، كما فعلوا بالفقيه المعروف بالهزئي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد المتوفى في عام تسع وعشرين وثلاثمائة[1].

د ـ إبطال بعض السنن المتواترة والمشهورة: والزيادة في بعضها كما فعلوا في زيادة: حي على خير العمل: في الأذان، وإسقاط صلاة التراويح[2]، بعد أن تُرك الناس يصلونها عاماً واحداً، ولهذا ترك أكثر الناس الصَلاة في المساجد، ويا ويح مَن يُسقط عبارة: حي على خير العمل من الأذان، من ذلك ما روي أن عروسى المؤذن ت 317هـ، كان مؤذناً في أحد المساجد، شهد عليه بعض الشيعة أنه لم يقل في أذانه: حي على خير العمل، فكان جزاؤه أن قطع لسانه ووضع بين عينيه، وطيف به في القيروان ثم قتل[3]، إلا أن بعض العلماء فطن لكيد العبيديين وأغراضهم الخبيثة من وراء ذلك، وهو إخلاء المساجد من المصلين، ودفعاً لهذه المفسدة أذنوا للمؤذنين أن يزيدوا حي على خير العمل: لأن تركها يؤدي إلى مفاسد أعظم، ومن هؤلاء العلماء: أبو الحسن علي بن محمد بن مسرور العبدي الدباغ ت 359هـ[4]، الذي كان من أهل الورع والعبادة والخشوع، فقد فطن لغرض العبيديين، فكان أن قال للمؤذنين: أذنوا على السنة في أنفسكم، فإذا فرغتم فقولوا: حي على خير العمل، فإنما أراد بنو عبيد إخلاء المساجد لِفعلكم هذا ـ وأنتم معذورون ـ خير من إخلاء المساجد[5].

هـ ـ منع التجمُعات: حرصت الدولة الفاطمية الرافضية على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم، ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وُجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة مَن يموت من العلماء[6]،

---

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 309.
(2) البيان المغرب (1/ 182، 183).
(3) ترتيب المدارك (2/ 525، 528).
(4) المصدر نفسه (2/ 526).
(5) رياض النفوس (2/ 29).
(6) المصدر نفسه (2/ 423).

وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا ترى إلا ما يراه حاكمها وطاغوتها وفرعونها ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: 29].

و ـ إتلاف مصنفات أهل السنة: أتلفوا مصنفات أهل السنة، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجبي ت 346هـ توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها، ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه[1].

ز ـ منع علماء أهل السنة من التدريس: منعوا علماء أهل السنة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السنة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد، فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر ابن اللباد شيخ السنة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد[2]. وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه على شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

ح ـ عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس، ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً داباً على يديه ورجليه فيقول لهم: (بَح) ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، ولا وضوء ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوباً فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم: بَح، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر[3].

ط ـ إجبار الناس على الفطر قبل رؤية الهلال: وكانوا كثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال[4]، بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال، كما فعلوا بالفقيه ابن الحُبلى قاضي مدينة برقة. قال الذهبي في ترجمته: الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد بن الحُبُلى أتاه أمير برقة، فقال: غداً العيد، قال: نرى الهلال، ولا أُفطر الناس، وأتقلّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور ـ وكان هذا من رأي العبيدية يفطّرون

---

(1) مدرسة الحديث بالقيروان (1/ 76).
(2) رياض النفوس (2/ 504).
(3) مدرسة القيروان (1/ 73).
(4) سير أعلام النبلاء (15/ 374).

بالحساب، ولا يعتبرون رؤية ـ فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: تَنصَّلْ، وأعفو عنك، فامتنع، فأمر، فُعلّق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله على الظالمين[1].

ي ـ إزالة آثار خلفاء السنة: عمل حكّام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السنيين، فقد أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد وجعل اسمه بديلاً منهم، واستولى هذا الشيعي الرافضي الباطني على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العبّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح[2].

ك ـ دخول خيولهم المساجد: من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خيله دخلت المسجد، فقيل لأصحابها: كيف تدخلون المسجد؟ فقالوا: إن أرواثها وأبوالها طاهرة؛ لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى: وامتحن عبيد الله في آخر حياته بِعِلَّةٍ قبيحة: دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك[3].

إن المسلمين المعاصرين يقرؤون تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة، ولكن القليل من يذكر بطش هؤلاء الباطنية بالعلماء من أهل السنة، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون المعز لدين الله الفاطمي وكأنه بطل من أبطال التاريخ، وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن بعض المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثّروا بمدارس الاستشراق، أو بالفكر الشيعي الرافضي، وبُذِلت لهم الأموال لطمس الحقائق وتزوير التاريخ، ولا زال الصراع الباطني والإسلامي ممتداً إلى يومنا هذا، فالأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح وإن أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة الصحيحة التي تلقتها الأمة من الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه الغر الميامين وأهل بيته الطيبين الطاهرين رضي الله عنهم أجمعين.

---

(1) رياض النفوس (2/ 29).

(2) أيعيد التاريخ نفسه، محمد عبده، ص: 39.

(3) مقدمة حسين مؤنس، على رياض النفوس، ص: 17.

3 ـ أساليب المغاربة في مواجهة الدولة الفاطمية العبيدية:

لقد سلك علماء السنة المغاربة في مقاومة التشيع أساليب عديدة، منها المقاومة السلبية، والمقاومة الجدلية والمقاومة المسلحة، وكانت هناك أنواع أخرى من المقاومة، مثل المقاومة عن طريق التأليف وعن طريق نظم الشعر.. إلخ.

أ ـ المقاومة السلبية: أولى الوسائل التي استعملها علماء المغرب السنة التي قاطع بها علماء المغرب كل ما له صلة بالتشيع، أو بالحكم القائم، وتمثلت تلك المقاطعة في مقاطعة قضاة الدولة وعمالها، ورفض من استطاع منهم دفع الضرائب لها[1]. ومن مظاهر هذه المقاومة مقاطعة حضور صلاة الجمعة التي كانت مناسبة للعن أصحاب رسول الله على المنابر: فتعطلت بذلك الجمعة دهراً بالقيروان[2]، ومنهم من اكتفى بالدعاء عليهم كما فعل الواعظ عبد الصمد[3]، وكما كان يفعل أبو إسحاق السبائي الزاهد إذا رقى رقية يقول بعد قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وببغضي في عبيد الله وذريته، وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته اشف كل من رقيته[4]. ومن مظاهر المقاومة السلبية أيضاً: مقاطعة كل من يسير في ركب السلطان واعتزاله، وكل مَن كانت له صلة بهذا السلطان أو سعى إلى تبرير وجوده عملاً بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]. فهذا خلف ابن أبي القاسم البراذعي (ت نحو 400هـ)[5] قام عليه فقهاء القيروان لصلته بملوك بني عبيد وقبوله هداياهم وتأليفه كتاباً في تصحيح نسبهم، وزادت النقمة عليه عندما وجدوا بخطه الثناء على بني عبيد متمثلاً ببيت[6] الحطيئة:

أولـئـك قـوم إن بـنـوا أحـسـنـوا الـبـنـا ... وإن عـاهـدوا أوفـوا وإن عـقـدوا شـدوا

لذلك كله أفتى فقهاء القيروان بطرح كتبه وعدم قراءتها وإزاء ذلك اضطر هو إلى الهجرة إلى صقلية حيث حصلت له حظوة كبيرة عند أميرها[7].

---

(1) البيان المغرب (1/ 277).

(2) معالم الإيمان (3/ 237).

(3) المصدر نفسه (3/ 71).

(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 324.

(5) المصدر نفسه، ص: 324.

(6) المصدر نفسه، ص: 324.

(7) ترتيب المدارك (2/ 517، 524)، شجرة النور الزنكية (1/ 95، 96).

ب ـ **المقاومة الجدلية**: كانت المقاومة الجدلية هي أقوى وأوسع أنواع المقاومة التي قام بها علماء السنة المغاربة ضد الشيعة الرافضة المنحرفين، وقد سطع في سماء هذه المساجلات العلمية والمناظرات العقدية عدد كبير من العلماء، وكانوا لسان أهل السنة الناطق والذاب عن بيضة هذا الدين، وممن لمع نجمه في ميدان المناظرة لبني عبيد حتى ضربت إليه أكباد الإبل من الأمصار المختلفة لعلمه بالذب عن مذهب أهل السنة، وكان هذا الإمام ـ فضلاً عن براعته في الجدل والمناورة ـ شجاعاً مقداماً لا يهاب الموت، من ذلك ما ذكره المالكي والدباغ من أن عبد الله المعروف بالمحتال[1] صاحب القيروان قد شدد في طلب العلماء، فاجتمعوا بدار ابن أبي زيد القيرواني فقال لهم ابن تبان: أنا أمضي إليه، أبيع روحي لله دونكم، لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن عظيم[2]. وفعلاً ذهب إليه وأقام عليه الحجة هو وجماعته الذين جاء بهم ليناظروه، وبعد أن هزمهم في مجلس المناظرة لم يخجلوا أن يعرضوا عليه أن يدخل في نحلتهم، ولكنه أبى وقال: شيخ له ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنتين وسبعين فرقة يقال له هذا؟ لو نشرتموني في اثنتين ما فارقت مذهبي[3]، ولما خرج من عندهم بعد يأسهم منه تبعه أعوان الدولة الفاطمية العبيدية وسيوفهم مصلتة عليه ليخاف من يراه من الناس على تلك الحال، فإذا به وهو تحت الضغط يهدي الناس ويقدم لهم النصيحة، ويقول لهم دون خوف ولا وجل: تشبثوا، ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام، فإن فارقتموه هلكتم[4]. وكان يخشى على العامّة من فتنة بني عبيد ويقول: والله ما أخشى عليهم الذنوب، لأن مولاهم كريم، وإنما أخشى عليهم أن يشكوا في كفر بني عبيد فيدخلوا النار[5].

وممن اشتهروا بالذب عن الإسلام وأشهروا حجج الحق وبراهين العدل وإقامة الحجة على دعاة الدولة الفاطمية: أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت 302هـ) لسان أهل السنة وابن حنبل المغرب قال عنه السلمي: كان فقيهاً صالحاً فصيحاً متعبداً أوحد زمانه في المناظرة والرد على الفرقة[6]. وقال عنه الخشني: كان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة وله في ذلك مقامات مشهودة وآثار محمودة ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب، حتى مثله أهل القيروان بأحمد ابن حنبل[7]. وقال عنه المالكي: وكانت له مقامات في الدين مع الكفرة

---

(1) أحد عمال دولة بني عبيد.
(2) معالم الإيمان (3/ 113).
(3) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 327.
(4) المصدر نفسه، ص: 327.
(5) معالم الإيمان (3/ 91).
(6) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 328.
(7) طبقات الخشني، ص: 199، معالم الإيمان (2/ 209).

المارقين أبي عبد الله الشيعي وأبي العباس أخيه وعبيد الله أبان فيها كفرهم وزندقتهم وتعطيلهم[1]، حاولت الدولة الفاطمية بالمغرب إخبار الناس على مذهبهم بطريقة المناظرة وإقامة الحجة مرة والتهديد بالقتل مرة أخرى، فارتاع الناس من ذلك ولجؤوا إلى أبي سعيد وسألوه التقية، فأبى وقال: قد أربيت على التسعين، وما لي في العيش حاجة، ولا بد لي من المناظرة عن الدين أو أن أبلغ في ذلك عذراً ففعل وصدق، وكان هو المعتمد عليه بعد الله في مناظرة الشيعة[2]، ومن أشهر هذه المناظرات:

ـ **التفاضل بين أبي بكر وعلي ﵄** : وأول هذه المناظرات كما يذكر صاحب المعالم حول التفاضل بين أبي بكر وعلي ﵄ فبعد الاجتماع بين ابن الحداد وأبي عبيد الله الشيعي؛ سأل أبو عبد الله الشيعي ابن الحداد: أنتم تفضلون على الخمسة أصحاب الكساء غيرهم؟ يعني بأصحاب الكساء: محمداً ﷺ وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ﵃، ويعني بغيرهم: أبا بكر ﵁ فقال أبو عثمان: أيهما أفضل؟ خمسة سادسهم جبريل ﵇؟ أو اثنان الله ثالثهما؟[3] فبهت الشيعي.

ـ **موالاة علي ﵁** : في هذه المناظرة أراد عبيد الله الشيعي أن يثبت أن الموالاة في قوله عليه الصلاة والسلام: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**»[4]. بمعنى العبودية: قال له: فما بال الناس لا يكونون عبيداً لنا، فقال ابن الحداد: لم يرد ولاية رق وإنما أراد ولاية الدين، ونزع بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: 79، 80] فما لم يجعله الله لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي ﵁ لم يكن نبياً وإنما كان وزيراً للنبي ﷺ[5]. هذه إشارات عابرة وهي جزء صغير من مجموع المناظرات التي دارت بين الفريقين.

ج ـ **المقاومة المسلحة**: لم يكتف علماء المغرب بالمقاومة السلبية والمقاومة الجدلية، بل منهم من حمل السلاح وخرج ليقاتلهم، فهذا جبلة بن حمود الصدفي ترك سكن الرباط

---

(1) رياض النفوس (2/ 75).

(2) معالم الإيمان (2/ 298)، جهود علماء المغرب، ص: 329.

(3) سنن الترمذي، وتحفة الأحوذي رقم 3797 حسن غريب.

(4) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 331.

(5) معالم الإيمان (2/ 185) جهود علماء المغرب، ص: 337.

ونزل القيروان، فلما كلم في ذلك قال: كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر، والآن حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك، وقال: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد أهل الشرك[1]. واستدل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: 123] ومنهم الإمام: أبو القاسم الحسن بن مفرج (ت 309هـ) الذي كان من أوائل من خرج على الشيعة ومات شهيداً، قتله عبيد الله المهدي وصلب هو ورجل يدعى: أبا عبد الله السدري الذي كان من الصالحين، وكان قد بايع على جهاد عبيد الله وجعل يحث الناس على جهاده فبلغ خبره عبيد الله، فأمر بقتله[2].

ثم إن العلماء خطوا خطوة أكبر بإصدار فتوى بوجوب قتال الدولة الفاطمية العبيدية وكان ذلك بعد اجتماع وتشاور بين علماء السنة وتحالفوا مع أهل القبلة ضد الفاطميين الذين حكموا عليهم بالكفر لمعتقداتهم الفاسدة. قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني: خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد مع أبي يزيد، فكان أبو إسحاق يقول ـ ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة ـ يريد عسكر ابن عبيد ـ فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من «هو» على غير القبلة فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله ﷻ يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا. والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان نصروات وأبو إسحاق السجائي وأبو الفضل وأبو سلمان ربيع بن القطان[3] وغيرهم كثير[4].

وفي الموعد المحدد خرج العلماء ومن ورائهم وجوه القوم وعامتهم في أعداد غفيرة لا يحصيهم عد، ولم يتخلف من العلماء والصلحاء أحد إلا العجزة، ومن ليس عليهم خروج، وكان ربيع القطان في طليعة الصفوف راكباً فرسه، وعليه آلة الحرب متقلداً مصحفه وهو يقول: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك وأعداء نبيك[5]. وقد أبلى العلماء في تلك المواجهة بلاءً حسناً، وقدموا صوراً حقيقية للجهاد في سبيل الله لأعداء الإسلام، واستشهد منهم ما لا يقل على الثمانين عالماً، منهم ربيع القطان والمميس وغيرهما، وأظهروا شجاعة نادرة وتفانياً لا مثيل له في قتال عدوهم، وحققوا انتصاراً باهراً وكادوا يستولون على المهدية، لولا أن ساعة الغدر حلّت ورجعت الكرة عليهم، حين خدعهم أبو يزيد وأسفر عن وجهه القبيح المناوئ لأهل السنة وأمر جنده أن ينكشفوا عنهم بقوله: أعداؤكم من قتلهم لا نحن فنستريح منهم[6]. وكان غرضه من تلك الفعلة

---

(1) رياض النفوس (2/ 169، 172).
(2) الدولة الفاطمية العبيدية للصَّلاَّبي، ص: 78.
(3) المصدر نفسه، ص: 78.
(4) معالم الإيمان (3/ 37، 42).
(5) البيان المغرب (1/ 218).
(6) المصدر نفسه (1/ 218).

الشنيعة والخدعة المنكرة: الراحة منهم لأنه فيما ظن إذا قتل شيوخ القيروان وأئمة الدين تمكن من أتباعهم فيدعوهم إلى ما شاء الله فيتبعونه[1] فهزم شر هزيمة حيث انضم عدد غير قليل من جنده إلى صفوف عدوه ولم يبق له من الجند إلا القليل، وقتل شر قتلة، وكانت نهايته يوم 30محرم سنة (336هـ)[2].

وقد أثرت هذه المواجهة بين السنة والشيعة على الساحة المغربية فيما بعد، حيث استمرت المقاومة فيمن جاء بعدهم حتى بعد خروج بني عبيد من المغرب، فكانوا يبحثون عن مراكز وجود الشيعة، فإذا عثروا عليهم قتلوهم ونهبوا أموالهم، فقد ذكر ابن عذارى في البيان المغرب أنه: كان بمدينة القيروان قوم يتسترون بمذهب الشيعة من شرار الأمة انصرفت العامة إليهم من فورهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً رجالاً ونساءً وانبسطت أيدي العامة على الشيعة وانتهبت دورهم وأموالهم[3]، ويصف القاضي عياض هذه الحادثة: وكان ابتداء ذلك اليوم الجمعة منتصف المحرم، قتلت العامة الرافضة أبرح قتل بالقيروان وحرقوهم وانتهبوا أموالهم، وهدموا دورهم وقتلوا نساءهم وصبيانهم، وجروهم بالأرجل، وكانت صيحة من الله سلطها عليهم، وخرج الأمر من القيروان إلى سائر بلادهم فقتلوا وأحرقوا بالنار، فلم يترك أحد منهم في إفريقية إلا من اختص[4]. وهكذا كان هذا النوع من المقاومة هو أشد الأنواع وأنكاها، طهر الله به أرض المغرب من بدعة التشيُّع الباطني الرافضي.

د ـ **المقاومة عبر التأليف**: وكانت المقاومة عبر التأليف من الوسائل المجدية والنافعة في مقاومة الشيعة والتي كان لها أثر طيب في إقلاقهم وقضّ مضاجعهم وإعلانهم الحرب على من يفعل ذلك، كما كان لها أثر في تبصير العامة بالحق وإرساء دعائم السنة. وكانت هذه المؤلفات تنقسم إلى نوعين:

ـ **المؤلفات التي تتناول مسائل العقيدة** جملة وفق منهج أهل السنة والجماعة، ومن بين المسائل: تناولها مسألة الإمامة عند أهل السنة، وأفضلية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، وشرعية خلافة الثلاثة خلافاً للشيعة الرافضة، والترضي عن أصحاب رسول الله جميعاً من غير تفريق بينهم، واعتبارهم جميعاً عدولاً، خلافاً للشيعة الذين يكفّرونهم ويفسّقونهم عدا نفر قليل منهم، فهذا النوع من التأليف كان له أثر عميق في تبصير الناس

---

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 344.

(2) البيان المغرب (1/ 268).

(3) ترتيب المدارك (2/ 625).

(4) المصدر نفسه (2/ 625).

بدينهم ونشر المذهب الحق فيهم، حتى أصبحوا يعتبرون كل من خالف هذه العقيدة مخالفاً للإسلام وخارجاً عن جماعة المسلمين يجب فيه كل ما يجب في الكافر من المعاداة والقتال والمقاطعة وغير ذلك من المعاملة، لعله يرتدع ويرجع ويتوب[1].

والنوع الثاني: المؤلفات التي أُلِّفت للرد على الشيعة خاصة وعلى عقائدهم الباطلة: وهذا النوع من التأليف ـ كما سبق الحديث عنه ـ جاء نتيجة ظروف خاصة أوجبت على أهل السنة الرد عليهم، وتفنيد شبههم ودحض باطلهم، من هذا الصنف من المؤلفات نذكر كتابيْ «الإمامة» اللذين ألفهما الإمام محمد بن سحنون، وقد سبق الحديث عنهما، وهما أعظم ما ألّف في هذا الفن، يقول عيسى بن مسكين: وما ألف في هذا الفن مثلهما[2]، وكتاب «الإمامة» للإمام إبراهيم بن عبد الله الزبيدي، وكتاب «الرد على الرافضة» له أيضاً، واللذان كانا السبب في محنته وسجنه وضربه من قبل الدولة الفاطمية العبيدية، فهذا النوع كان له أثره في المقاومة[3].

هـ ـ مقاومة شعراء أهل السنة: إلى جانب وسيلة التأليف كانت هناك وسيلة نظم الشعر لهجو بني عبيد وذمهم، وقد برز في هذا الميدان كثير من الشعراء منهم: أبو القاسم الفزاري، فقد وصفهم ووصف سلوكهم فقال:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في ... أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن الأسود نابحاً ... وأبا قدارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ... عمن أصارهم الإله نجوما
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم هم ... دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابئين أم من عصبة ... عبدوا النجوما وأكثروا التنجيما
أم هم زنادقة معطلة رأوا ... أن لا عذاب غداً ولا تنعيما
أم عصبة ثنوية قد عظموا ... النورين عن ظلماتهم تعظيما
سبحان من أبلى العباد بكفرهم ... وَبِشِركهم حقباً وكان رحيما

---

(1) جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ص: 349.
(2) المصدر نفسه، ص: 349.
(3) المصدر نفسه، ص: 349.

يــا رب فــالــعــنــهــم ولــقــهــم ... بــأبــي يــزيــد مــن الــعــذاب ألــيــمــا[1]

ومن أشهر ما قاله قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان والتي قال فيها:

عــجــبــت لــفــتــنــة أعــمــت وعــمــت ... يــقــوم بــهــا دعــي أو كــفــور
تــزلــزلــت الــمــدائــن والــبــوادي ... لــهــا وتــلــونــت مــنــهــا الــدهــور
وضــاقــت كــل أرض ذات عــرض ... ولــم تــعــن الــمــعــاقــل والــقــصــور
فــنــجــى الــقــيــروان وســاكــنــيــهــا ... إلــه دافــع عــنــهــا قــديــر
أحــاط بــأهــلــهــا عــلــمــاً وخــبــراً ... ومــيّــز مــا اكــتــنــه الــصــدور
وجــلــلــهــم بــعــافــيــة وأمــن ... وأســبــل فــوقــهــا ســتــر ســتــيــر
وأثــبــت جــلــة الــعــلــمــاء فــيــهــا ... بــحــار لا تــعــد ولا بــحــور
ومــنــهــا ســادة الــعــلــمــاء قــدمــا ... إذا عُــدوا ولــيــس لــهــا نــظــيــر
وفــيــهــا الــقــوم عــبــاد خــيــارا ... فــقــد طــاب الأوائــل والأخــيــر
هــم فــتــكــوا ســبــايــا كــل أرض ... وفــادوا مــا اســتــبــد بــه الــمــغــيــر
كــفــيــنــاهــم عــطــائــمــهــا جــمــيــعــاً ... فــزالــت عــنــهــم تــلــك الــشــرور
وســكّــنّــا قــلــوبــاً خــافــقــات ... أمــات عــروقــهــا ضــر ضــريــر
وأويــنــا وآســيــنــا وكــنــا ... لــهــم أهــلاً وأكــثــرهــم شــطــيــر
فــبــات طــعــامــنــا لــهــم طــعــامــاً ... هــنــاك ودُورنــا لــلــقــوم دور
وكــان لــنــا ثــواب الله ذُخــراً ... وقــام بــشــكــرنــا مــنــهــم شــكــور
ولــولا الــقــيــروان وســاكــنــوهــا ... لــغــاب طــعــامــهــم والــمــخ ريــرُ[2]
ولــيــس لــنــا كــمــا لــهــم حــصــون ... ولا حــيــل أعــالــيــه وعــور
ولا ســور أحــاط بــنــا ولــكــن ... لــنــا مــن حــفــظ رب الــعــرش سُــورُ
ولا نــأوي إلــى بــحــر وإنــا ... إذا قــضــى الــقــضــا تُــتــحَــى الــبــحُــورُ
ولــكــنــا إلــى الــقــرآن نــأوي ... وفــي أيــمــانــنــا الــبــيــض الــذكــور

(1) رياض النفوس (2/ 494، 495).
(2) المصدر نفسه (2/ 493).

عقائق كالبوارق مرهفات ... بها تحمي الحرائم والثغور
وسُمر في أعاليهن شهب ... بها ظمأ مواردها النحور

إلى أن قال:

وإنا بعد من خوف وأمن ... نحبُ إذا تشعبت الأمور
رسول الله والصديق حبا ... به ترجى السعادة والحبور
وبعدهما نحب القوم طُرًا ... وما اختلفوا فربهم غفور
ألا بأبي وخالصتي وأمي ... محمد البشير لنا النذير
سأهدي ما حييت له ثناء ... مع الركبان ينجد أو يغور[1]

4 ـ المعز لدين الله الفاطمي ودخوله مصر:

كان يتابع أحوال حكام وأمراء مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة 355هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي، وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السنة في خمس عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السنة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية فرمى بسهامه المسمومة، ودفع إليها جيوشه المحمومة طلباً من أعوانه وسعياً للقضاء على الدولة العباسية، وفي جمادى الآخرة سنة (358هـ) استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين، وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناؤه سنة (361هـ) ليكون محضناً لإعداد دعاة المذهب الإسماعيلي الباطني، وبعد أن مهِّدت مصر للمعز الفاطمي العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر ليتولى أمرها فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين بن زيري وضم المعز إلى مصر كُلًا من طرابلس وسرت وبرقة، وكان معه شاعره الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:

---

(1) رياض النفوس (2/ 494).

فكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار
ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً ... حقًّا وتُخمد أن تراه النار

ومن شعره في المعز:

النور أنت وكل نور ظلمة ... والفوق أنت وكل فوق دون
فارزق عبادك فضل شفاعة ... وأقرب بهم زُلفى فأنت مكين

ومنه:

تدعوه منتقماً عزيزاً قادراً ... غفاراً موبقة الذنوب صفوحا
أقسمت لولا أن دُعيت خليفة ... لدُعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمفخرك السموات العلا ... وتنزل القرآن فيك مديحا

ومنه:

وعلمت من مكنون سر الله ما ... لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته ... لم يخلق التشبيه والتأويلا

وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في سنة (362هـ)، وقتل ابن هانئ في برقة في رجب سنة (362هـ) وهو في الثانية والأربعين من عمره، ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة وتأسف المعز على قتله، وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك[1]، واستمر المعز في سيره حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم 23 من شعبان سنة 362هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر، وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي، وبقي المعز في مصر سنتين ونصف وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة (365هـ)، ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة[2].

قال الذهبي: ظهر في هذا الوقت الرفض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والمغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بويه وضعف بدنه ثم أصابه فالج وخَرَسٌ فعزلوه، وأقاموا ابنه الطائع لله، وله السكة والخطبة، وقليل من الأمور، فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن[3].

---

(1) الفتح العربي في ليبيا، ص: 362.
(2) المصدر نفسه، ص: 362.
(3) سير أعلام النبلاء (15/ 113، 114).

5 ـ زوال الدولة الفاطمية من شمال إفريقيا:

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر، وأثروا في بعض الوزراء والأمراء، الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة، واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية في ذي الحجة سنة (406هـ)، وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الرافضة، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة ومبغض للمذهب الشيعي الباطني، واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تمّ على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي.

وقد وصف الذهبي المعز بن باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً، وسريًا شجاعاً عالي الهمة، محباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمدة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه[1]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذي هدده فيه وقال له: هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخّروهم لتقدموا بأسيافهم[2]، وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر، وظهر ذلك في عام (435هـ) عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسبِّ أصحاب رسول الله ﷺ، فأوعز للعامة وللجنود بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه، وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله، وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز، فقد قال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وســوف يــقــتــلــون بــكــل أرض   كــمــا قــتــلــوا بــأرض الــقــيــروان

وقال آخر:

---

(1) سير أعلام النبلاء (18/ 140).

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي، ص: 289.

يا معز الدين عش في رفعة ... وسرور واغتباط وجذل
أنت أرضيت النبي المصطفى ... وعتيقاً في الملاعين السفل
وجعلت القتل فيهم سنة ... بأقاصي الأرض في كل الدول[1]

واستمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السنة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته، وأعلن انضمامه للخلافة العباسية، وغيَّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وحرم أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين، والتي استمر الناس يتعاملون بها 145سنة، وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السنة من الصفرية والنكارية والمعتزلة، والإباضية، وفي سنة 443هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له. وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته: أبو الحسن المتوفى عام 432هـ[2].

6 ـ جهود السلاجقة في حماية العراق من التشيع الرافضي الباطني:

كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، فأرسل الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله الدعاة إلى بغداد سنة 425هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس[3]، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر. ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الشيعي الإسماعيلي الفاطمي: المؤيد في الدين، هبة الله الشيرازي، وعُرِف أحياناً بالمؤيد فقط، وقد نجح هذا الداعية في التأثير على البساسيري أحد القادة العسكريَين في الدولة العباسية، وقد استطاع البساسيري أن يستولي على بغداد ويزيح الخليفة القائم بأمر الله وإقامة الخطبة فيها للفاطميين، وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي

(1) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزاوي، ص: 289.
(2) المصدر نفسه، ص: 290 ، 291.
(3) دولة السلاجقة للصَّلاَّبي، ص: 54.

فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد ـ الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر[1]. وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي ـ صاحب حديثة ـ بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى حديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام[2]، ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه[3]، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، وكان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار الخلافة العيّارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة، ونهب أهل الكرخ ـ الشيعة ـ دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدّمغاني، وهلك أكثر السِّجلاَّت والكتب الحكيمة وأبيعت للعطارين، ونهبت دور المتعلقين بالخليفة وأعادت الروافض الأذان بحيَّ على خير العمل، وأُذِّن به في سائر جوامع بغداد في الجُمعُات والجماعات، وخطب ببغداد وضربت له السِّكةُ على الذهب والفضة وحُوصرت دار الخلافة واعتقل رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المُسلمة، ووبخه البساسيري ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً واعتقله مهاناً عنده، ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصى ما أخذوا منها من الجواهر والنّفائس والدِّيباج والأثاث والثياب وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يوُصف، وفي يوم عيد الأضحى في سنة 450هـ ألبس البساسيري الخطباء والمؤذّنين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر صاحب مصر، والشيعة الرّافضة في غاية السرور، والأذان في سائر العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقاً ممَّن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا. ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة الملقّبُ برئيس الوزراء وعليه جُبَّة صوف وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً[4]، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلقان المداسات وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه، وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في

---

(1) أخبار الدول المنقطعة (3/ 0.43).

(2) الخطط للمقريزي (1/ 439).

(3) الشباك : هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.

(4) البداية والنهاية (15/ 459).

ذلك يتلو: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26] فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلّق بكلّوب في شدقيه ورفع إلى الخشبة حيًا، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً[1].

من الخصائص النفسية للشيعة الرافضة الباطنية الثابتة عبر التاريخ اتباع أسلوب التذلل والتمسكن والتودد عند الضعف ولكن متى استشعروا القوة، فإنهم يمارسون أشد أنواع الطغيان والنهب والبطش والانتقام. وكان طغرل بك السلطان السلجوقي الذي أزاح البويهيين كان خارج العراق بجيوشه يحارب المنشقين عنه ويمكن لدولته، ولما قضى على الفتن كرّ بجيوشه على بغداد وأعاد الخليفة العباسي إلى الخلافة بعد فكاكه من أسره، واستطاع ملاحقة البساسيري وقتله، وعادت العراق إلى الخلافة العباسية السنية من جديد، وقد فصلت هذه الأحداث التاريخية في كتابي «دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي». وقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية[2] ودعاتها بالحزم والشدة، فتعقبوا دعاة الفاطمية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس، كما قاموا بإقصاء المتشيعين للمذهب الإسماعيلي عن دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم[3].

7 ـ المدارس النظامية ودورها في الإحياء السني والتصدي للفكر الشيعي الرافضي:

بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام 455هـ، فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان[4]، فقد كانت الدولة الفاطمية تقوم بإعداد الدعاة من خلال جامع

(1) دولة السلاجقة للصَّلّابي، ص: 82.
(2) المصدر نفسه، ص: 68.
(3) المصدر نفسه، ص: 68.
(4) المصدر نفسه، ص: 91، 92.

الأزهر الذي جعلوا منه مؤسسة تعليمية تُعنى بنشر مذهبهم في عام 378هـ[1].

هذا بالإضافة إلى البرامج التعلمية التي كانت تعد بعناية خاصة في عاصمة الدولة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثر في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الدعوة[2]. لذلك كله فكّر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومع ذلك رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً[3]، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحي الإلهي، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التى نُسبت إليه، فهو الذي جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقات الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة[4].

وقد وفق الله نظام الملك توفيقاً قَلَّ نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً وعلى الخصوص نظامية بغداد التى طاولت الزمن زهاء أربعة قرون إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروزأبادي المتوفى سنة (817هـ) حيث زالت فى نهاية القرن التاسع الهجري[5] وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي، وزوُدت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء، وهي أهم وظائف الدولة في ذلك العصر. وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية فى مصر وبلغوا الشمال الإفريقي ودعموا الوجود السني بها، ولقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا منها يرحلون الى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعي والحديث الشريف وينشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية الهامة في دواوين الدولة.

وينقل السبكي عن إسحاق الشيرازي ـ أول مدرس بنظامية بغداد ـ بقوله: خرجت إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلا كان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي[6]، وقد ساهمت هذه المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة وكان أبرز آثارها أيضاً تقلص نفوذ الفكر الشيعي، وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي على قمة المفكّرين الذين شَنُّوا حرباً شعواء على الشيعة

---

(1) دولة السلاجقة للصَّلابي، ص: 291.
(2) التاريخ السياسي والفكري، ص: 179.
(3) المصدر نفسه، ص: 179.
(4) المصدر نفسه، ص: 179.
(5) نظام الملك، ص: 401.
(6) دولة السلاجقة للصَّلابي، ص: 390.

الرافضة[1]. وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين، حتى يكملوا المسيرة التي من أجلها أنشئت النظاميات وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح، وخاصة في المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة في تلك المرحلة كالشام ومصر وغيرها ـ إن الأخطاء العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المشروع الباطني الجديد النشط في أنحاء المعمورة، وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها فهل نستلهم الدروس ونستخرج الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ فيكون من حكّامنا مثل ألب أرسلان في شجاعته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همته وغيرته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي والبغوي والجيلاني في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة وقضايا الفكر الإسلامي الصحيح، وتوظيف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات و المؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله والدار الآخرة ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين جهود الإمام في دحر الشيعة الباطنية إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني كان من أبرز آثارها أيضاً نفوذ الفكر الشيعي، وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس. وكان الإمام الغزالي ـ العالم السني ـ على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة الباطنية إذ يذكر هو أنه ألف في ذلك كتباً عدة أشهرها: «فضائح الباطنية» الذي كلف بتأليفه في سنة (487هـ) من قبل الخليفة المستظهر[2] على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الإمام الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية، حيث جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع وهددوا أمن الناس وسلامتهم وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة المفكرين، وقاموا وعلى رأسهم نظام الملك نفسه، والغزالي قام بهذه الحملة بتوجيه من السلطة مع رغبة الغزالي العالم السني في القيام بواجبة في الدفاع عن الإسلام الحقيقي، ـوهذا شيء جميل عندما تلتقى جهود السلطة السياسية مع علمائها في تحقيق أهداف الإسلام من خلال مؤسسات نافعة للمجتمع والدولة، كالذي قامت به المدارس النظامية في مقاومة الفكر والنفوذ الشيعي الباطني، فقد كانت الدولة الفاطمية قد تدرعت بالفلسفة والعقيدة الباطنية وظهرت في مظهر ديني سياسي، فكانت كما يقول الأستاذ الندوي ـ أشد خطراً على الإسلام من الفلسفة، فقد كانت الفلسفة تعيش في برجها العاجي بعيداً عن الشعب والجمهور[3]. وأما الباطنية، فكانت تتسرَّب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكان

---

(1) رجال الفكر والدعوة (1/ 204)، الغزالي للقرضاوي، ص: 57.
(2) الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، ص: 147.
(3) المصدر نفسه، ص: 60.

لها الإغراءات المادية القوية، ولم يكن في العالم الإسلامي في آخر القرن الخامس أحد أجدر بالرد عليها والكشف عن أسرارها ونقض ما تبني عليه دعوتها من الغزالي. وكان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني، وقال فيهم كلمته التي طار بها الركبان وسارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة من شيء وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام[1]. ومما يذكر للغزالي: استمراره على نقد هذه الطائفة وكشف اللثام عن تناقض أفكارها وفضائح أعمالها وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك، وكان الشيعة الباطنية تهدد كل من يرونه خطراً عليهم من رجال الملك أو رجال العلم بالانتقام في صورة طعنة في خنجر، أو سم يدس في طعام أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها ونفذوها بكل دقة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة ولن يصيبه إلا ما كتب الله له[2]. وهذا درس وتذكير للعلماء المعاصرين أن يصدقوا الله في مقاومة الباطنيين الجدد، وقد رأيت بعض المحسوبين على العلماء يخشونهم، ويخافون من القتل والاغتيال أو تهمة الطائفية، وبعضهم وقع تحت تأثير إبر التخدير الباطنية ومجاملات لا وزن لها في ميزان الشريعة أو حسابات دنيوية زائلة، ولذلك تركوهم يعبثون بعقائد الأمة ومقدساتها وساعدهم بعض علماء الأمة في تخدير الجمهور العريض من أبناء المسلمين مع علم هؤلاء العلماء بخطر هؤلاء القوم على عقائد الأمة وأخلاقها، أما يخشى هؤلاء الناس من يوم تقلب فيه القلوب والأبصار، ويسأل الله فيه الصادقين عن صدقهم.

ثانياً: الحملات النورية العسكرية على مصر:

قام الوزير الفاطمي «ابن السلار» السني المذهب بمحاولة الاتصال بنور الدين من أجل شن عمليات حربية مشتركة على أساس أن يتقدم نور الدين بقواته من الشمال ويقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة المدن الساحلية الشامية الصليبية، وتوسط أسامة بن منقذ بين الجانبين وعرض عليه ابن السلار أن يأخذ الأموال والهدايا لسلطان حلب عارضاً عليه القيام بمنازلة طبرية، وفي نفس الحين يقوم الأسطول الفاطمي بمهاجمة غزة، وفي حالة موافقة نور الدين على ذلك يقدم له ابن منقذ الأموال لمساعدته، فإن رفض فعلى الأخير أن يجند بالأموال عدداً من الفرسان لقتال الصليبيين عند عسقلان، غير أنه عندما بلغ بصرى وقابل نور الدين أوضح

---

(1) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص: 60. (2) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، ص: 62.

له مدى انشغاله بأمر دمشق، وأنها تقف سداً منيعاً دون التعاون المشترك مع الفواطم إذ أنها لم تكن حينذاك قد سقطت بعد في قبضته[1]، ويلاحظ أن ابن السلار استمر في صراعه مع الصليبيين فجهز في عام (546هـ/ 1151م) أسطولاً أنفق عليه مالاً وفيراً وهاجم به المدن الساحلية الصليبية، وقد تحدث الذهبي عن ابن السلار فقال: وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنيًا، ليس على دين العُبيدية، احتفل بالسِّلَفي، وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف[2] وجبروت وتجددت المحاولات السابقة في عهده وزار طلائع بن رزيك الذي اتصل بنور الدين محمود عن طريق أسامة بن منقذ، غير أن نور الدين لم يتعجل، وكان يرى أن الفرصة المناسبة لم تأتِ بعد، وكانت بين أسامة بن منقذ والملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رُزيك مسجلات شعرية منها ما قاله طلائع بن رُزيك:

فقولوا لنور الدين لا فُلَّ حدُّه	ولا حَكَّمت فيه الليالي الغواشمُ
تجهز إلى أرض العدو ولا تَهِن	وتُظهر فتوراً إن مضت منك حازم

ومنها مما كتبه إلى أسامة بن منقذ:

يا سَيِّداً يسمو بهِمَّته	إلى الرُّتب العَليَّه
فينال منها حين يُحرم	غيره أو في مَزِيَّه
أنت الصديق وإن بعدت	وصاحب الشِّيَم الرَّضيه
نُنبيك أن جيوشنا	فعلت فِعال الجاهليَة
سارت إلى الأعداء من	أبطالها مِنّا سَرِيَّه
فتُغيرُ هذي بُكرةً	وتُعاوِدُ الأخرى عَشِيَّه
فالويل منها للفرنج	فقد لقوا جهد البَليَّه
جاءت رؤوسهمُ تلوح	على رؤوس السَّمهَرِيَّه
وقلائع قد قُسِّمت	بين الجنود على السَّويَّه
وخلائقٌ كثرت من	الأسرى تُقادُ إلى المنيَّه
فانهض فقد أنبيت مجد	الدين بالحال الجَلِيَّه

(1) كتاب الروضتين (1/ 370).

(2) فن الصراع الإسلامي الصليبي، ص: 84.

والـمـم بـنـور الـديـن واعـلـمـه ... بـهـاتـيـك الـقـضـيّـة
فـهـو الـذي مـا زال يـخـلـص ... مـنـه أفـعـالاً ونـيَّـه
ويُـبـيـد جـمـع الـكـفـر بـالـبـيـض ... الـرِّقَّـاق الـمـشـرفـيـه
فـعـسـاه يـنـهـض نـهـضـة ... يـفـنـي بـهـا تـلـك الـبـقـيَّـه
إمـضـا لـنُـصـرة ديـنـه ... أو مـلـكـه أو لـلـحـمـيَّـه

وكتب إلى أسامة بن منقذ أيضاً فقال:

قـل لابـن مـنـقـذ الـذي ... قـد حـاز فـي الـفـضـل الـكـمـالا
فـلـذلـك قـد أضـحـى الأنـام ... عـلـى مـكـارمـه عِـيـالاً
كـم قـد بـعـثـنـا نـحـوك ... الأشـعـار مـسـرعـة عـجـالاً
وصـددت عـنـهـا حـيـن رامـت ... مـن مـحـاسـنـك الـوِصَـالا
هـلا بَـذَلْـتَ لـنـا مـقـالا ... حـيـن لـم تـبـذُل فـعـالا
مـع أنّـنـا نُـولـيـك صـبـراً ... فـي الـمـودة واحـتـمـالا
ونـبـئـت الأخـبـار إن ... أصـخـت قـصـاراً أو طِـوالا
سـارت سَـرايـات لـقـصـد ... الـشـام تـعـتـسـف الـرِّمـالا
تُـزجـي إلـى الأعـداء ... جُـرد الـخـيـل أتـبـاعـاً تَـوالَـى[1]

إلى أن قال:

فـلـو أنَّ نـور الـديـن ... يـجـعـل فـعـلـنـا فـيـهـم مـثـالا
وَيُـسَـيِّـرُ الأجـنـاد جـهـراً ... كـي يـنُـازِلَـهـم بَـزالا
ووفـى لـنـا ولأهـل دولـتـه ... بـمـا قـد كـان قـالا
لـرأيـت لـلإفـرنـج طُـرًّا ... فـي مـعـاقـلـهـا اعـتـقـالا
وتـجـهَّـزوا لـلـسّـيـر نـحـو ... الـغـرب أو قـصـدوا الـشـمـالا
وإذا أبـى إلّا اطّـراحـاً ... لـلـنـصـيـحـة واعـتـزالا

(1) كتاب الروضتين (1/ 368).

عُدنا بتسليم الأمور ... لحكم خالقنا تعالى[1]

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يا أشرف الوزراء أخلاقاً ... وأكرمهم فعالا
نَبَّهت عبداً طالما ... نَبَّهته قدراً وحالا
وَعَتَبْتَه فأَقَلْتَهُ ... فخراً ومجداً لن يُنالا
لكن ذاك العَتْبَ يُشعِلُ ... في جوانحه اشتعالا

إلى أن قال:

واشدُد يديك بودِّ ... نور الدين والقَ به الرِّجالا
فهو المحامي عن بلاد ... الشام جمعاً أن تُذَالا
ومُبيدُ أملاكِ الفرنج ... وجمعهم حالاً فحالا
مَلِكٌ يتيه الدهر ... والدنيا بدولته اختيالا
جمع الخِلال الصَّالحات ... فلم يَدَع منها جلالا
فإذا بدا للنَّاظرين ... رأت عيونهم الكمالا
فبقيتما للمُسلمين ... حِمًى وللدُّنيا جمالا[2]

ولم يدخل نور الدين في تحالف عسكري مع طلائع بن رُزيك إلا أنه اهتم بالاتصالات الدبلوماسية وقد وصلت في عام (552هـ/ 1157م) سفارة من جانب نور الدين وتكرر ذات الأمر في العام التالي أي (553هـ/ 1158م) وردت الدولة الفاطمية على تلك السفارة بأن تم إعادة السفير النوري إلى بلاده، ومعه هدايا وأسلحة تُقدر بثلاثين ألفاً من الدنانير، وعينيات تقدر بسبعين ألفاً من أجل دعم صراع نور الدين مع الصليبيين[3]. ونجد سفارة أخرى من نور الدين في عام (554هـ/ 1159م) ومن جهة أخرى أظهرت الدولة الفاطمية ودها له، فأرسل العاضد في عام (555هـ/ 1160م) بالخلع إليه، والواقع أن التعليل المنطقي لذلك أن الفاطميين بعد أن فقدوا عسقلان عام (548هـ/ 1153م) أدركوا من ذي قبل؛ خطورة الصليبيين عليهم ضرورة الاستفادة من قوة الدولة النورية وثقلها السياسي والعسكري[4].

(1) كتاب الروضتين (1/ 369).
(2) الجهاد والتجديد، ص: 195.
(3) المصدر نفسه، ص: 196.
(4) المصدر نفسه، ص: 197.

1 ـ دوافع فتح مصر عند نور الدين:

كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رَحِمَهُ اللهُ، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، فهي التي أعانت الصليبيين في احتلال بلاد الشام بتحالفها وتآمرها معهم، وهي التي تبنت المذهب الباطني ونشرته في ديار المسلمين، وعندما سادت الفوضى وإدارة الحكم فيها، وتحكم الوزراء بالأمر دون الخلفاء، طمع الصليبيون بغزو مصر فهاجموها المرة تلو المرة، وعندها جرد نور الدين محمود حملاته العسكرية لتخليص مصر من مطامعهم، ولإعادة أرض الكنانة إلى منهج أهل السنة والجماعة، وجمع كلمة المسلمين[1]، ويمكن تلخيص أبرز الدوافع التي أدت إلى غزو مصر ما يأتي:

الدافع الأول: حالة الفوضى التي سادت مصر آخر أيامها، فقد أصبحت الدولة تعاني كثيراً من مظاهر الانحلال والفساد، حتى صار من الأمور الشائعة أن يصبح الخليفة أو الوزير مقتولاً خلال الصراع الدائر بين الوزراء أنفسهم، أو بين الوزراء والخلفاء، فقد قتل الظافر على يد وزيره، وتحكم الوزراء فيمن جاء بعده وفي اختيار من يشاؤون، وقتل الوزراء بعضهم بعضاً، فقد تولى الوزارة في عام واحد ثلاثة وزراء: العادل بن رزيك، وشاور، وضرغام، فضعفت الدولة وسادت الفوضى في البلاد. ومن أواخر هذا الصراع خروج شاور من مصر، بعد أن طرده «ضرغام» ومن ثم استنجاده بنور الدين محمود، الذي وجد الفرصة مواتية لتحقيق الوحدة الإسلامية في بلاد الشام ومصر.

الدافع الثاني: إن مطامع الصليبيين شجعت القائد المجاهد نور الدين على التفكير جدياً بضم مصر إلى الجبهة الإسلامية، كما أن تلقيه العهد من الخليفة العباسي بإطلاق يده في بلاد الشام ومصر عام 549هـ شد من عزيمته لإنجاز هذا الأمر[2].

الدافع الثالث: من أقوى الأسباب التي أدّت إلى القضاء على الخلافة الفاطمية العبيدية، العامل العقدي، فقد كانت دولة باطنية المعتقد، إسماعيلية المذهب فرقت وحدة المسلمين وتآمرت مراراً مع أعدائهم[3]. فكان لابد من إقامة وحدة قوية في عقيدتها، شرعية في توجهها تضم إلى الخلافة العباسية أرض الكنانة مع بلاد الشام[4].

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 197.
(2) المصدر نفسه، ص: 195.
(3) المصدر نفسه، ص: 196.
(4) مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص: 13.

وفي هذه الظروف التي كان نور الدين الشهيد يتطلع فيها إلى غزو مصر وصل إلى دمشق عام 559هـ الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، طالباً النجدة منه، ضد من سلب منه منصبه قهراً، كما وعد شاور مقابل مساعدة نور الدين له: بثلث دخل البلاد المصرية سنوياً، بعد دفع رواتب الجند، وأن يكون نائباً عن نور الدين بمصر إذا ساعده في التغلب على ضرغام عدوه، ويكون أسد الدين شيركوه مقيماً بعسكره بمصر ويتصرف مع شاور في شؤون البلاد بأمر نور الدين(1). لكن نور الدين كان متردداً متريثاً: يقدم إلى هذا الغرض رِجْلاً، ويؤخر أخرى، حتى استخار الله في الأمر، على ما هنالك من أخطار جسيمة ممثلة في الصليبيين بالساحل وبيت المقدس، إضافة إلى شكه في إخلاص شاور السعدي(2). ثم جهز نور الدين الحملات المتوالية، ووجهها نحو مصر مُنذ عام (559هـ حتى 564هـ) بقيادة أسد الدين شيركوه(3).

2 ـ الحملة النورية الأولى: 559هـ:

قرّر نور الدين محمود إرسال حملة عسكرية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه لتحقيق هدفين مبدئيين:

ـ الوقوف عن كثب على أوضاع مصر الداخلية تمهيداً لضمِّها، وبخاصة أن شاور وعده إن هو عاد إلى منصبه سيتحمَّل نفقات الحملة ويؤمن إقامة أسد الدين شيركوه وجنده في مصر.

ـ إعادة شاور، الوزير الفاطمي المخلوع إلى منصبه.

وعلم ضرغام بالاستعدادات التي تجري في دمشق لتجهيز حملة لمساعدة شاور، فاحتاط للأمر، واستنجد بعموري الأول في محاولة منه للدخول في لعبة توازن القوى، وعقد معه اتفاقاً لمساعدته ضد نور الدين محمود، وتعهد له بالمقابل أن يدفع جزية سنوية يقررها الملك، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأجبر الخليفة الفاطمي العاضد على توقيع هذا الاتفاق(4)، وكان طبيعياً أن يقبل عموري الأول هذا العرض الذي سيتيح له فرصة لا تُعوَّض لدخول مصر، وهو الأمل الذي سعى إليه الصليبيون مُنذ أكثر من نصف

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 198.

(2) المصدر نفسه، ص: 198.

(3) الجهاد والتجديد، ص: 198.

(4) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 328.

قرن، فأعدَّ على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر، وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى إلى مصر في شهر جمادى الآخرة 559هـ/ شهر نيسان 1164م بصحبة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان يناهز السابعة والعشرين من عمره، وسار على الطريق المحدّد للحملة، والذي يمر عبر أراضي يسيطر عليها الصليبيون[1] وحتى يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأميناً على حياة أفرادها تصرف نور الدين محمود على محورين:

الأول: أنه رافق الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق للحيلولة دون التعرض لأفرادها.

الثاني: راح يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق لتحويل أنظار الصليبيين عن مصر[2]، وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه الكثيف عبر الصحراء، بصحبة شاور، فعبر الكرك ومر بالشوبك ثم أيلة، فالسويس ومنها إلى القاهرة وقد بلغ من السرعة في سيره أنه أجتاز برزخ السويس قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل صرغام قوة عسكرية بقيادة أخ له يدعى: ناصر الدين، للتصدي لزحفه، أسفر لقاء الطرفين في بلبيس عن انتصار واضح لأسد الدين شيركوه، وتراجع ناصر الدين مهزوماً إلى القاهرة، فطارده أسد الدين شيركوه ووصل في أواخر جمادى الآخرة إلى العاصمة المصرية، فخرج إليه ضرغام بكل ما يملك من قوة لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة وجرى اللقاء تحت أسوار القاهرة: اتسمت المعركة بالعنف وانتهت بانتصار أسد الدين شيركوه بعد أن تخلّى الجيش والناس والخليفة عن ضرغام، وقتل أثناء محاولته الفرار قرب مشهد السيدة نفيسة ـ المزعوم ـ (في شهر رجب 559هـ/ شهر حزيران 1164م) كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة منتصراً وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[3].

وبعد أن ضمن شاور عودته إلى منصب الوزارة عاد إلى طبيعته التي اتصف بها ـ من المكر والخداع ـ ليدخل في صراع جديد مع أسد الدين شيركوه، فأساء معاملة الناس وتناسى وعوده لنور الدين محمود بل سرعان ما ظهرت عليه إمارات الغدر فنقض اتفاقيته معه، وطلب من شيركوه الخروج من مصر وأن يعود فوراً مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، وردَّ على موقفه المتقلب، فسارع إلى الاستيلاء على بلبيس وحكم البلاد الشرقية[4]، ولم يَسَعْ شاور إلا أن يستنجد بالملك عموري الأول الذي كان يتأهب للزحف على مصر، وأخذ يُخوِّفه من نور الدين محمود وعرض عليه أن:

---

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص: 76.

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 329.

(3) المصدر نفسه، ص: 329.

(4) الباهر، ص: 121، 122، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 330.

ـ يؤدي له مبلغ ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من بيت المقدس إلى نهر النيل البالغ عددها سبعاً وعشرين مرحلة.

ـ يمنح هدية لكل من يصحبه مَن فرسان الأسبارتية الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، في محاولة منه لإغراء فرسانها بالاشتراك بالحملة.

ـ يتكفَّل بنفقات علف أفراسهم، مقابل مساعدته لإخراج أسد الدين شيركوه من مصر[1] وهكذا انغمس شاور في اللعبة السياسية بين الأعداء الكبار محاولاً بذلك إثارتهم لمصلحته الخاصة، ولا شك بأن عموري الأول كان آنذاك يراقب تطورات الموقف السياسي والعسكري في مصر، فلما علم بزحف أسد الدين شيركوه ازدادت مخاوفه، ولما وصلت إليه دعوة شاور رحَّب بها، وبذلك لم يُضع الفرصة عليه لدخول مصر، وإن اختلف الحليف، الأمر الذي لا يهمه في شيء، فكل ما يعنيه هو دخول مصر[2].

3 ـ حملة عموري الثانية على مصر:

فشلت حملة عموري الأول على مصر واضطر إلى الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس، وكانت في عام (558هـ/ 1163م) وعندما أتيحت الفرصة مرّة أخرى لدخول مصر بادر عموري الأول، فور تلقيه دعوة شاور، إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره بارونات المملكة، وتقرَّر فيه تلبية دعوة شاور بعد أن أوضح للمجلس أنَّ في قدرته تجهيز حملة لغزو مصر دون أن يضعف من دفاعات المملكة، وبخاصة أنه وصل وقتئذٍ من أوروبا عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس يمكن الاستفادة منهم في المجهود الحربي، وأمل في أن يتمكَّن من احتلال مصر لحساب الصليبيين، وقرَّر بأن يتولى بوهميوند الثالث، أمير أنطاكية، إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[3]، وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر رمضان عام (559هـ / شهر آب عام 1164م) واتصل فور وصوله إلى فاقوس[4] بشاور، واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين شيركوه خلالها عن مواقعه[5]، وفجأة قرَّر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر، فما الذي حدث في الأفق

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 330.
(2) المصدر نفسه، ص: 330.
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.
(4) فاقوس: مدينة في جوف مصر الشرقي وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى الحموي (4/ 232).
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.

السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ ـ وهنا تبرز عبقرية نور الدين العسكرية وقيادته الفذة ـ فقد تلقَّى عموري الأول أنباء مزعجة من بلاد الشام بتعرض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود، ففضَّل العودة للدفاع عنها، وأدرك في الوقت نفسه أن حملته مَقْضي عليها بالفشل في ظل امتناع أسد الدين شيركوه في بلبيس. وكان موقف أسد الدين شيركوه صعباً أيضاً، فالمؤن بدأت بالنفاذ فضلاً عن تفوق القوات الصليبية الفاطمية المشتركة في العدد، وأن الوضع العسكري ليس في صالحه، لذلك قبل الدخول في مفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[1].

وفعلاً تمّ الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، شهر تشرين الأول، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[2]. وكان شاور الفائز الحقيقي في هذا الصراع الذي انتهى لمصلحته، فتخلَّص من الجيوش الإسلامية الشامية والصليبية على السواء، كما تخلصَّ من ضرغام وأضحى طوال العامين التاليين صاحب الأمر والنهي والمتحكِّم في مقاليد البلاد[3]، ووضع أسد الدين شيركوه نفسه بعد عودته من مصر تحت تصرُّف نور الدين محمود، وأصبحت مصر محور تفكير أسد الدين شيركوه وحديثه في مجالسه ومحور أفكاره، ولم ينقطع عن تبادل الآراء مع أصدقائه فيها الذين كانوا يزوّدونه بأخبارها، وأرسله نور الدين محمود في تلك الأثناء بمهمة إلى بغداد، فاستغل وجوده في عاصمة الخلافة ليثير حماس الخليفة المستنجد بالله، حيث راح يقص عليه أخبار مصر وأحوالها، وما شاهده وخبره بنفسه، فتأثر الخليفة بما سمعه وشجَّعه على العودة إليها[4].

وعلى الرغم من أن حملة أسد الدين شيركوه لم تحقق أهدافها في مصر، إلا أن النتيجة النهائية هي أن أملاك نور الدين محمود قد تدعَّمت في بلاد الشام، وارتفع شأنه في العالم الإسلامي، بينما تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل واستبد اليأس بهم[5]، ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر، وقد وقف كل منهما على أوضاعها السياسية المتردية وسوء أحوالها الاقتصادية، بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة وموارد بشرية هائلة ترجّح كفة من يضع يده عليها. وانتهز شاور فرصة خروجهما فعاد إلى سيرته الأولى، يظلم ويقتل، ويصادر أموال الناس، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 331.
(2) المصدر نفسه، ص: 331.
(3) المصدر نفسه، ص: 331.
(4) المصدر نفسه، ص: 332.
(5) المصدر نفسه، ص: 332.

العاضد معه أمر ولا نهي، ولما ثقلت وطأته عليه كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلِّصه منه[1].

4 ـ الحملة النورية الثانية:

أعدّ نور الدين محمود القوات اللازمة وأرسلها إلى مصر (في شهر ربيع الأول عام 562هـ/ شهر كانون الثاني عام 1167م) بقيادة أسد الدين شيركوه وصحبة ابن أخيه صلاح الدين وسيَّر معه جماعة من الأمراء[2]، وبلغ تعداد هذه القوات ألفي فارس[3]، ورافقه نور الدين حتى أطراف البلاد خوفاً من تعرُّض الصليبيين له[4]، وسار أفراد الحملة في طريق محفوفة بالأخطار، فالصليبيون الذين كانوا على طريقهم رابضين في الكرك والشوبك قد ينقضُّون عليهم وينكِّلون بهم، وهم بعيدون عن مناطقهم، والبدو يلاحقونهم وينقلون أخبارهم إلى الصليبيين، وكان عليهم أن يغيِّروا طريق سيرهم أحياناً للتّخفي، كما عرقلت الطبيعة زحفهم، إذ أن عاصفة رملية عنيفة هبَّت عليهم وقضت على عدد من الرجال وبعض الزاد وعلى الرغم من ذلك واصلوا رحلتهم إلى مصر، وتوافر لشاور من الوقت ما جعله يستنجد مجدَّداً بعموري الأول، إذ أيقن من استقراء الأحداث، أن أسد الدين شيركوه إذا قدم إلى مصر هذه المرة، فإنه سوف يبقى فيها ولا يغادرها، لذلك، فإنه لم يتوان عن الاتصال بملك بيت المقدس والتفاوض معه، موضحاً له الخطر، الذي يمثله نور الدين محمود على مملكة بيت المقدس لو نجح في امتلاك مصر.

رحَّب عموري الأول بدعوة شاور طمعاً في امتلاك مصر وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكَّن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[5] وقبل أن تستكمل الاستعدادات وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل ما تيسر الحصول عليه من الجند لعرقلة تقدمه، غير أن هذا التدبير جاء[6] متأخراً. وعلى الرغم من أن جيش أسد الدين شيركوه تعرَّض لعاصفة رملية عرقلت تقدمه، وكادت تقضي على أفراده، فإنه وصل سالماً إلى برزخ السويس (في شهر ربيع الآخر/أوائل شهر شباط) وعلم أسد الدين شيركوه بأن جيشاً صليبياً شرع في الزحف باتجاه مصر، عندئذٍ اجتاز الصحراء باتجاه الجنوب الغربي ليتفادى مواجهة مبكرة مع

---

(1) النجوم الزاهرة (5/ 348).

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 342.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 13).

(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 342.

(5) مفرِّج الكروب (1/ 149)، تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.

(6) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.

الصليبيين، حتى بلغ نهر النيل عند إطفيح على مسافة أربعين ميلاً جنوبي القاهرة[1] ثم عبر على الضفة الغربية والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة وعسكر بمواجهة الفسطاط، وتصرَّف في البلاد الغربية وحكمها نيفاً وخمسين يوماً[2].

أ ـ حملة عموري الثالثة على مصر والمفاوضات الصليبية الفاطمية: خرج عموري الأول من بيت المقدس (في شهر ربيع الأول عام 562هـ شهر كانون الثاني عام 1167م) متوجهاً إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس، وارتاع شاور من ظهوره المفاجىء وساوره القلق لعدم التنسيق معه، ويبدو أنه لم يكن على علم بوصول شيركوه إلى إطفيح، ولم يطمئن إلا عندما أرسل كشافته إلى الصحراء للوقوف على حقيقة الوضع، عندئذ خرج لاستقبال الملك الصليبي والتقى به، وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[3]، وأجرى مع شاور مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يجري دفع نصف هذا المبلغ على الفور، ثم يبذل النصف الآخر فيما بعد، واشترط أن يُقسم عموري الأول على هذا[4]، ولدعم هذه الاتفاقية، وإعطائها صيغة رسمية، أرسل عموري الأول كلاً من: هيو، سيد قسارية، وجفري، مقدم فرسان الداوية، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، فاستُقبل الرسولان استقبالاً حافلاً في القصر الفاطمي وتمَّ التصديق على المعاهدة[5]. وكان من الطبيعي أن يرحِّب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة لمصر والخلافة الفاطمية، وتُبعد أسد الدين شيركوه بوصفه المنافس الوحيد لهم في السيطرة على هذا البلد[6].

ب ـ معركة البابين: كان أسد الدين والعسكر النُوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرف بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى. وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدِّهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم، إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه

---

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 343.
(2) المصدر نفسه، ص: 344.
(3) وليم الصوري (2/ 896).
(4) المصدر نفسه (2/ 899) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 344.
(5) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 344.
(6) المصدر نفسه، ص: 344.

أقرب من السَّلامة لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم، فاستشارهم فكلُّهم أشار عليه بعبور النِّيل إلى الجانب الشَّرقي والعوْد إلى الشَّام وقالوا له: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لا شك فيه ـ فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي، وكل في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟ وحُقَّ لعسكر عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارهم ونأى ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات الألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له: شرف الدين بُرْغُش ـ وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ـ وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النِساء في بيته. والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلبة وبلاء تُعذرون فيه؛ ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرّف فيها الكُفَّار؟

قال أسد الدين: هذا رأي وبه أعمل. ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج ـ وهو على تعبئة ـ وهنا برزت عقلية أسد الدين شيركوه وخبرته العسكرية، فقد جعل الأثقال في القلب يستكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على مَن تخلَّف من الفرنج الذين حملوا على القلب ـ من المسلمين والفرنج ـ فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج في أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً وكان هذا من أعجب ما يؤرِّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل[1].

ج ـ **حصار الإسكندرية**: ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرى والسواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلَّمها أهلها إليه فاستناب بها صلاح الدِّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملّكه وجبى أمواله وأقام به حتى

---

(1) الباهر، ص: 132، 133 ، كتاب الروضتين (2/ 13).

صام رمضان، وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية، وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتد الحصار وقَلّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُلح[1].

د ـ المفاوضات النورية ـ الصليبية بشأن الجلاء عن مصر: وبعد مفاوضات بين الطرفين تمّ عقد صلح على الأسس التالية:

ـ رفع الحصار عن الإسكندرية.

ـ تبادل الأسرى.

ـ إطلاق سراح الجند النوري داخل الإسكندرية.

ـ يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.

ـ عدم التعرض لهم في الطريق من قِبل القوات الصليبية.

إن قراءة متأنية لسير الوقائع، كما جرت على الأرض، والعروض المتبادلة بشأن عقد الصلح، وما حدث بعد إبرام الاتفاقية يمكن رصد الملاحظات التالية: فقد وافق الجانبان النوري، والصليبي ـ الفاطمي على:

ـ خروج القوات النورية والصليبية من مصر.

ـ تبادل الأسرى.

ـ يتعهد شاور بألّا يُعاقب رعاياه في الإسكندرية وفي غيرها من الجهات الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[2].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل عموري الأول مدينة الإسكندرية (في شهر شوال/ شهر آب)، في حين غادرها صلاح الدين في موكب عسكري حافل على الرغم مما أصاب السكان من ضيق لرحيله، والتقى الرجلان، وأعجب كل منهما بالآخر، حتى لقد قام ملك بيت

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 14).

(2) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 350.

المقدس بإمداد صلاح الدين ببعض المراكب لنقل الجرحى المسلمين إلى بلاد الشام[1]. على أن متاعب السكان لم تنته، فلم يكد أتباع شاور يدخلون المدينة حتى ألقوا القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين، وقد احتج هذا الأخير لدى عموري الأول الذي نصح شاور بأن يطلق سراح الأسرى[2]. وكانت هذه هي المرّة الثانية التي يغدر فيها شاور وقد علّمت صلاح الدين درساً قاسياً، حتى إنه لم يتركها تتكرر، واقتصَّ بنفسه من شاور عندما عادت القوات الشامية إلى مصر عام (564هـ/ 1168م)[3].

هـ ـ الحماية الصليبية على مصر: غادر كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين مصر في شهر (ذي القعدة / شهر أيلول) في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مرَّ بالقاهرة ليثبِّت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور، وكانت أهم مظاهرها:

ـ دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.

ـ بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرَّر محاولة الهجوم.

ـ إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة يشارك في شؤون الحكم[4].

ـ والراجح أن فكرة تملُّك مصر كانت ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو ينوي العودة بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعاً في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[5]. وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتَّب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري[6].

5 ـ الحملة النورية الثالثة على مصر (عام 564هـ):

سبب هذه الحملة أن الفرنجة كانوا قد جعلوا لهم شحنة في القاهرة، وتسلَّموا أبوابها، وحكموا المسلمين حكماً جائراً، فلما رأوا أنه ليس في البلاد من يردهم، أرسلوا إلى ملكهم ـ عموري ـ في القدس، يستدعونه ليملك مصر، وهوَّنوا عليه أمرها، فتردد خوفاً من سوء العاقبة، ثم سار مع فرسانهم على كره منه حتى وصلوا بلبيس مستهل صفر ونهبوها، وقتلوا

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 351.
(2) تاريخ الفاطميين، ص: 494.
(3) المصدر نفسه، ص: 495.
(4) المصدر نفسه، ص: 495.
(5) النجوم الزاهرة (5/ 349).
(6) تاريخ الفاطميين، ص: 495.

وأسروا من فيها، ثم ساروا إلى «الفسطاط» فأمر شاور بإحراقها، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد خوفاً من أن يملكها الإفرنج، فنهبت المدينة وبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، ثم حاصر الفرنجة القاهرة وضيقوا على أهلها، وكان شاور هو المتولي للعساكر والقتال، فضاق به الأمر وضعف عن ردهم، فأخلد إلى الحيلة وراسل ملكهم عموري ووعده بمال عظيم ألف ألف دينار مصرية يُعجل بعضها الآن، ودفع لهم منها «مائة ألف دينار» وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً، وجعل يجمع لهم المال فلم يستطيع أن يجمع إلا خمسة آلاف دينار حيث أن المصريين كانوا قد احترقت دورهم، ونهبت أموالهم[1].

أ ـ العاضد يستنجد بنور الدين محمود: كان حاكم مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرِّفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنقِذهُنَّ من الفرنج[2]، وعرض على نور الدين مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين:

ـ منحه ثلث بلاد مصر.

ـ منح قادته الإقطاعات.

ـ يسمح لشيركوه بأن يقيم في مصر[3].

ب ـ أسد الدين شيركوه يزحف إلى مصر ويدخل القاهرة: شرع نور الدين في تجهيز الجيوش وإعدادها إعداداً قوياً، وأعطى قائد الحملة (شيركوه) مائتي ألف دينار، سوى الثياب والدواب والأسلحة، وحكمه في العسكر والخزائن، يأخذ حاجته، فاختار من العسكر ألفي فارس، وجمع من فرسان التركمان ستة آلاف، وسار نور الدين وشيركوه إلى باب دمشق، ورحلوا إلى رأس الماء[4]، وأعطى نور الدين كل فارس منهم عشرين ديناراً، معونة غير محسوبة وأضاف إلى شيركوه جماعة أخرى من الأمراء، منهم صلاح الدين الأيوبي[5]، وسار أسد الدين مجدًا، فلما قارب مصر رحل الفرنجة إلى بلادهم بخفي حنين، خائبين مما أملوا،

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 202.

(2) المصدر نفسه، ص: 202.

(3) تاريخ الفاطميين محمد سهيل طقوس، ص: 504.

(4) الجهاد والتجديد، ص: 202، رأس الماء في منطقة حوران.

(5) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 202.

وسمع نور الدين بعودتهم فسرَّه ذلك، وأمر بضرب البشائر في بلاده، ولما وصل أسد الدين القاهرة، دخلها واجتمع بالعاضد، الذي خلع عليه وفرح به أهل مصر، وأجريت على عساكره الجرايات الكثيرة[1].

ج ـ **مقتل شاور**: وأما شاور فلم يفصح عما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين فيما وعد به من المال، ورواتب الجند، وعزم على الغدر أيضاً، فقرر أن يقيم وليمة لأسد الدين وأمرائه ثم يغدر بهم ويقتلهم، فنهاه ابنه الكامل عن ذلك، وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل لنقتلن جميعاً. فقال: صدقت، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بين المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ويملكون البلاد،فترك ما كان عزم عليه[2]، وأخيراً اتفق صلاح الدين وبعض الأمراء على التخلص من هذا الخائن المراوغ شاور فأسروه، وسمع العاضد بذلك، فأرسل إلى شيركوه يطلب رأسه، وأذن أسد الدين بقتله فقتل، وأرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخرة، عام 643هـ[3].

د ـ **تولي أسد الدين الوزارة للعاضد**: ودخل أسد الدين القاهرة، وقصد قصر العاضد فخلع عليه الوزارة، ولقبه الملك المنصور، وأمير الجيوش، واستعمل على الأعمال مَن يثق به من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره، وقد مدح الشعراء أسد الدين شيركوه لما حقق من الانتصارات فقال العماد:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر	ونلت ما عجزت عن نيله القُدَر
أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً	فقل لنا: أعليّ أنت أم عمر
افخر فإن ملوك الأرض أذهلهم	ما قد فعلت، فكلٌّ فيك مفتكِرُ
سهرت إذ رقدوا بل هُجْتَ إذ سكنوا	وصُلت إذ جبنوا، بل طُلت إذ[4] قصروا

هـ ـ **وفاة أسد الدين**: ولم تطل وزارة شيركوه، حيث توفي في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة (564هـ) فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام رحمه الله رحمة واسعة، وخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين[5]، وكان أسد الدين من أكبر قادة نور الدين، وقد

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 55).

(2) المصدر نفسه (2/ 56).

(3) الجهاد والتجديد، ص: 203.

(4) كتاب الروضتين، ص: 203 ، 204.

(5) الجهاد والتجديد، ص: 204.

ادخره الملك العادل للخطوة الكبرى التي كان يمهِّد لها، وهي ضم مصر إلى بلاد الشام، وكان رحمه الله كريماً على جنده، صارماً يعرف كيف يقر النظام في عسكره، فهابه جنده وأحبوه، وركبوا معه المخاطر في حملات عظيمة[1] نفع الله بها الإسلام والمسلمين وساهمت في تقوية المشروع المقاوم للغزو الصليبي الذي كان يقوده نور الدين ثم من بعده صلاح الدين، وسيأتي التفصيل بإذن الله عن أسد الدين شيركوه وبني أيوب في حديثنا عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة صلاح الدين الأيوبي بإذن الله تعالى.

ثالثاً: وزارة صلاح الدين في مصر والمهام التي انجزها:

كان صلاح الدين قد أظهر كفاءة خلال صحبته لعمه أسد الدين شيركوه أثناء حملاته على مصر، فتولى الوزارة بعد وفاة عمه، وهو في الحادية والثلاثين من عمره، اختاره العاضد لأنه كان أصغر الأمراء سناً، ولعله يكون أكثر طواعيةً له، إلا أن الملك الناصر ـ كما لقبه العاضد ـ خيَّب ظن الفاطميين، فشرع يستميل قلوب الناس إليه كما بذل لهم من الأموال التي قد جمعها عمه، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة[2]، وكانت المهام التي أنجزها صلاح الدين في عهد نور الدين عظيمة وضخمة، واستطاع القضاء على مراكز القوة.

1 ـ مؤامرة مؤتمن الخلافة:

جرى من الأحداث في مصر بعد تولية صلاح الدين منصب الوزارة، أن البلاد كانت تجتاز مرحلة خطيرة في تاريخها، فالدولة الفاطمية، لا زالت موجودة يساندها الجيش الفاطمي وكبار الدولة، والخطر الصليبي لا يزال جاثماً على مقربة من أبواب مصر الشرقية، فكان عليه أن يثبت أقدامه في الحكم؛ ليتفرغ لمجابهة ما قد ينشأ من تطورات سياسية. ولم يلبث أن ظهر مقدرة كبيرة في إدارة شؤون الدولة، وهو عازم على الاستئثار بكافة الاختصاصات حتى التي تخصّ منصب الخلافة، ونفَّذ عدة تدابير كفلت له الهيمنة التامة منها:

ـ استمال قلوب سكان مصر بما بذل لهم من الأموال فأحبوه.

ـ أخضع مماليك أسد الدين شيركوه، وسيطر بشكل تام على الجند بعد أن أحسن إليهم.

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 204.
(2) المصدر نفسه، ص: 205.

ـ قوّى مركزه بما كان يمده به نور الدين محمود من المساعدات العسكرية، وقد وصل أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب مع إحدى هذه المساعدات العسكرية[1]. وقد أدّت التدابير التي نفَّذها صلاح الدين إلى تقوية قبضته على مقدرات الدولة، وزادت من تراجع نفوذ العاضد، وبالتالي مركز الإمامة، وأثارت استياء كبير الطواشية، مؤتمن الخلافة، وهو نوبي، وقائد الجند السودان، وقد أدرك أن نهج صلاح الدين في الحكم سوف يقضي في حال استمراره على الدولة الفاطمية إن عاجلاً أو آجلاً، ويبدو أنه كان من بين الطامعين في خلافة شاور، ولما لم يفلح راح يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين، وحاول الاتصال بعموري الأول ملك بيت المقدس، لتحريضه على مهاجمة مصر، آملاً في حالة الاستجابة أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض هو على مَن يبقى من أصحابه في القاهرة، ويثبت على منصب الوزارة، ويتقاسم البلاد مع الصليبيين؛ غير أن صلاح الدين علم بخيوط المؤامرة حين ارتاب أحد أتباعه في شكل الخفين اللذين اتّخذهما رسول مؤتمن الخلافة إلى عموري الأول، فأخذهما ونزع خياطتها، فاكتشف الرسالة بداخلها، فقبض على مؤتمن الخلافة، وانتهز الفرصة للتخلص منه، غير أن أنباء اهتزاز مركزه في مصر شجعت النصارى على القيام بمحاولة أخرى لمهاجمة مصر[2]. وقد قام صلاح الدين بإبعاد جميع الخدم من السودان عن قصر الخلافة واستعمل على الجميع في القصر، بهاء الدين قراقوش، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بحكمه وأمره[3].

2 ـ وقعة السُّودان:

وذلك أنه لما قتل الطَّواشي[4]، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشيُّ، وعزل بقية الخُدَّام؛ غضبوا لذلك واجتمعوا قريباً مِن خمسين ألفاً، فاقتتلوا هم وجيش الملك صلاح الدين بين القَصْرَين، فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قُذِفَ الجيشُ الشاميُّ من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهامٌ، فقيل: كان ذلك بأمر العاضد، وقيل: لم يكن بأمره، ثم إن أخا الناصر صلاح الدين ـ شمس الدولة تورانشاه ـ وكان حاضراً للحرب ـ قد بعثه نور الدين إلى أخيه ليشُدَّ أزره ـ أمر بإحراق منظرة العاضد، ففتح الباب ونُودِي: إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السُّودان من بين أظهركم، ومن بلادِكم

---

(1) تاريخ الفاطميين، ص: 509، البداية والنهاية (16/ 433).

(2) الكامل في التاريخ، نقلاً عن تاريخ الفاطميين، ص: 510.

(3) البداية والنهاية (16/ 434).

(4) الطواش: جمع طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكة وفي الحريم السلطاني وكانت لهم حرمة وافرة.

فقوي الشاميون وضعف جأش السودان جدًا، وأرسل الملك الناصر إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة التي فيها دورُهم وأهلُوهم بباب زويلة، فأحرقها فولُوا عند ذلك مُدبرين، وركبهم السيف فقتل خلقاً كثيراً، ثم طلبُوا الأمان من الملك صلاح الدين، فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمسُ الدولة تورانشاه أخو الملك صلاح الدين فقتل أكثرهم، ولم يبق منهم إلا القليل ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: 52][1] ويبدو أن حاكم مصر الفاطمي كان في ذلك الوقت على علم بمؤامرة مؤتمن الخلافة، لأنه ليس من المتصور أن يجري ذلك في قصره وبدون علمه، ويؤكد ذلك أن قوات صلاح الدين يوسف ابن أيوب تعرضت، وهي تصفي أطراف المؤامرة، لهجمات بالحجارة والسهام صادرة من قصر الحاكم، بل إن العاضد كان يراقب المعركة من القصر[2].

كان اكتشاف المؤامرة من مسؤوليات ديوان الإنشاء، وبالذات القاضي الفاضل الذي كان العقل المفكر للقضاء على النفوذ الفاطمي في مصر وتثبيت المذهب السني، وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله في حديثنا عن الدولة الأيوبية.

كان القاضي الفاضل يراقب كتّاب ديوان الإنشاء والمسرّحين منهم بصورة خاصة، وكانت العيون مبثوثة في كل ناحية ومنطقة وزاوية، في القصور وبين العساكر، وعلى الحدود، وعلى كل محطة من محَطات البريد أو محطّات الاتصال بين مصر والفرنج، وقد كانت هذه العيون على اتصّال مباشر بالقاضي الفاضل تزوّده بتقريرها بواسطة الرسل، وعلى أجنحة حمام الزاجل[3].

3 ـ القضاء على الأرمن:

ولم يتوقف نصر صلاح الدين بالقضاء عل شوكة السودان، بل أتبعه بفلّ شوكة الأرمن، وهم الفرقة التالية للسودان قوة وعدداً، فأحرق داراً للأرمن بين القصرين وفيها عدد كبير من الجنود الأرمن، معظمهم من الرماة ولهم رواتب من الحكومة، وكان هؤلاء قد حاولوا أن يعرقلوا حركة قوات صلاح الدين في أثناء المعركة مع السودان برميهم بالنشّاب، فلقوا جزاءهم، وأما مَن تبقّى منهم فنفاهم صلاح الدين إلى الصعيد[4]. أضعف صلاح الدين

---

(1) البداية والنهاية (16/ 435).

(2) الطريق إلى القدس، ص: 91.

(3) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، ص: 130، 131.

(4) المصدر نفسه، ص: 133.

بقضائه على شوكة السودان والأرمن الدولة الفاطمية إلى حد بعيد، بحيث أصبح من الواضح أن القضاء على الدولة الفاطمية نفسها لم يعد بعيداً[1].

4 ـ اهتمام صلاح الدين بتقوية جيوشه:

أخذ صلاح الدين يعمل حال تولّيه الوزارة على إعداد جيش أيوبي ليكون نواة لجيش مصري جديد، يدافع به عن حكمهم وعن مصر من الغزو الإفرنجي، ولم يَخف عليه تدهور وضع الجيش الفاطمي؛ لأنه خبره في أثناء رحلاته الثلاث إلى مصر بين (سنة 559هـ وسنة 564هـ/ 1163م ـ 1168م) وعرفه معرفة جيدة من حيث مصادره البشرية والمالية والحربية، ومن حيث تنظيمه وفِرقه المبنية على أساس عرقي، مثل السودان، والأرمن، والمصريين والديلم والأتراك والعربان. وكان يعرف بالتفصيل وضع كل فرقة من هذه الفرق[2]، وكان القاضي الفاضل قد عمل في إدارة هذه القوات في عهد رزيك بن الصالح، وساهم معها في بعض وقائعها الحربية خلال الحملة الفرنجية الشامية الثانية على مصر ـ كما أشرنا سابقاً ـ وشاهد قادة الفرق المختلفة من هذه القوات وهم يتنافسون في شأن السلطة الأمر الذي أنهك القوات وأضعف مصر إلى حد أصبحت تعجز معه عن الدفاع عن استقلالها، أو حتى عن بقائها. وعرف القاضي الفاضل الكثير عن القوات المصرية عن طريق عمله معها في ديوان الجيش وفي ديوان الإنشاء الذي كان يتعامل مع ديوان الجيش ويشرف على العيون والرسل، فألمّ بهذه القوات وعرف دخائلها واطّلع على كل فرقة منها، وعلى نيات كل قائد من قوّادها، ولم يضنَّ بمعلوماته عنها على صلاح الدين، بل وجهه في تنظيم جيشه الأيوبي وإدارته، وظل طول عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويراقب إعدادها وتنظيمها ومواردها المالية ويصحبها من مصر إلى الشام لتحارب مع صلاح الدين، ومن الشام إلى مصر لتستعد وتتجهز لحملات مقبلة ضد الفرنج، وقد أنشأ صلاح الدين في بداية عهده في الوزارة جيشاً كبيراً ازداد عدداً وعدّة بمرور الوقت واتسعت عملياته الحربية ضد الفرنج، وكان قوام هذا الجيش في مصر الحرس الخاص، والجيش النظامي في مصر، ثم الجيوش الشعبية التي تكوّنت من أمراء الإقطاع وجنودهم، ولاسيما في الشام والجزيرة بعد سنة (570هـ/ 1174م)، والبدو[3]. ويأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى مفصلاً في الحديث عن الدولة الأيوبية وصلاح الدين.

---

(1) القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، ص: 133.
(2) المصدر نفسه، ص: 126.
(3) المصدر نفسه، ص: 127.

رابعاً: التصدي للحملة الصليبية البيزنطية المشتركة وحصار دمياط 565هـ:

أدرك الإفرنج خطورة موقفهم بعد فتح مصر وتولي صلاح الدين وزارتها، فاتفق ملك القدس «عموري» مع إمبراطور بيزنطة على غزو مصر بأساطيلهم، وحاصروا دمياط تنفيذاً لذلك التحالف[1]، وأرسل صلاح الدين قواته بقيادة خاله شهاب الدين محمود، وابن أخيه تقي الدين عمر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول: إن تأخرت عن دمياط ملكها الإفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج أمامي؛ فلا يبقى لنا باقية[2]، وقد قام نور الدين بالدور المتوقع منه، واتخذ القرار السليم فعيّر العساكر ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الإفرنج الشامية، وقام بشن الغارات على حصون الفرنجة وقلاعهم، ووصلت سراياه إلى المدى الذي لم تصِله من قبل في بلادهم ليخفف الضغط عن مصر، وفي ذلك تعزيز ودعم لصلاح الدين، حتى يتمكن من إحكام السيطرة على مصر ثم ليتفرَّغ بعد ذلك للمساعدة في تحقيق الهدف الإستراتيجي الكبير المتمثل في تحرير سواحل بلاد الشام من الاحتلال[3] الفرنجي. وقامت حامية دمياط بدور بطولي في الدفاع عن المدينة وألقت سلسلة ضخمة عبر النهر، منعت وصول السفن اليونانية إليها، وأنزل المسلمون المدافعون الخسائر بالأسطول البيزنطي اليوناني، وهطلت أمطار غزيرة حَوَّلت المعسكر الصليبي إلى مستنقع فتهيؤوا للعودة، وغادروا دمياط بعد حصار دام خمسين يوماً، وعندما أبحر الأسطول البيزنطي، هبَّت عاصفة عنيفة، لم يستطع البحَّارة الذين كادوا أن يهلكوا جوعاً، من السيطرة على سفنهم فغرق معظمها، ونصر الله المسلمين، نصراً مؤزراً[4].

1 ـ أسباب فشل الحملة على دمياط:

يعود فشل الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط إلى عوامل تتعلق بالمسلمين والصليبيين والبيزنطيين، وبالجانبين الصليبي والبيزنطي معاً:

أ ـ فيما يتعلق بالجانب الإسلامي يمكن رصد العوامل التالية:

ـ صمود سكان دمياط في وجه المعتدين.

ـ سرعة إمداد صلاح الدين المدينة بالمؤن والسلاح، مما رفع معنويات سكانها المحاصرين.

(1) الجهاد والتجديد، ص: 207.
(2) المصدر نفسه، ص: 207.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 160.
(4) الجهاد والتجديد، ص: 208.

ـ التعاون الصادق بين القوات الإسلامية في كلٍ من بلاد الشام ومصر بهدف التصدي للمعتدين.

ـ القدرة القتالية للقوات الإسلامية، وحسن تخطيطها وتنظيمها الدقيق(1).

ـ موقف نور الدين محمود الداعم، فقد أرسل بعوث كثيرة يتبع بعضها بعضاً، ثم إن نور الدين اغتنم غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليهم في جيوش كثيرة فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقَتل من رجالهم، وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئاً كثيراً، وعندما بلغ الفرنج بدمياط ما فعله نور الدين اضطروا لترك دمياط(2).

ـ استغلال المسلمين الجيد للفرص التي أتيحت لهم فقد استغلوا فرصة معاناة البيزنطيين من الجوع، فشنوا هجوماً عليهم جاء فعّالاً، كما استغلوا هبوب الرياح الجنوبية لإشعال النار في الأسطول البيزنطي بواسطة حرّاقة(3) والأهم من هذا كله توفيق الله وحفظه ومعيته وإنزال نصره على عباده المجاهدين.

ب ـ فيما يتعلق بالجانب الصليبي: لقد أخّر الملك عموري الأول الهجوم على المدينة مدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطي، مما أعطى فرصة طيبة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والعتاد(4).

إحجام القوات الصليبية عن إمداد القوات البيزنطية بالمؤن عندما تعرّضت لهجوم المسلمين، حيث وقفت موقف المتفرج(5).

ج ـ فيما يتعلق بالجانب البيزنطي فيمكن تدوين العوامل التالية:

ـ عدم استخدام القائد كونتوستيفانوس الأسطول البيزنطي استخداماً عسكرياً، وبدا كأنه قائد بري، وليس قائداً بحرياً.

ـ اقتصر دور الأسطول البيزنطي على نقل القوات حتى ساحل دمياط.

ـ افتقر القائد البيزنطي إلى النظرة العسكرية السليمة عندما ترك السفن البيزنطية متلاصقة في النيل مما سهّل مهمة القوات الإسلامية في إشعال النار في عدد منها.

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 380.

(2) البداية والنهاية (16/ 440).

(3) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 379.

(4) المصدر نفسه، ص: 380.

(5) المصدر نفسه، ص: 381.

ـ تراخي القيادة البيزنطية في تطبيق القواعد العسكرية التي تكفل أمن سفنها حين تركت البحارة يبيتون خارج سفنهم أيام العمليات العسكرية.

ـ انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية.

د ـ هناك أسباب مشتركة تتعلق بالجانبين الصليبي والبيزنطي، منها:

ـ سوء اختيار توقيت خروج الحملة، وتنفيذ الحصار الذي جرى في فصل الشتاء، حيث تعرّضت القوات المتحالفة للسيول التي أغرقت معسكراتها، وللعواصف التي كانت تُبْعِد قطع الأسطول عن الشاطئ.

ـ سوء اختيار المكان الذي عسكرت فيه القوات المتحالفة، وهي المنطقة التي تمتد بطول الساحل، والبالغة حوالي الميل الواحد فلم تستوعب أفراد الحملة البالغ عددهم خمسين ألفاً، حيث حشروا في هذا المكان الضيق، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للدخول في معركة ناجحة.

ـ أدّى سوء اختيار المكان أن أصبحت القوات المتحالفة هدفاً سهلاً لمرمى المسلمين وهجماتهم.

ـ عدم وجود قيادة موحدة، وافتقرت القيادتان الصليبية والبيزنطية إلى التنسيق فيما بينهما، مما تسبّب في فشل عمليات الهجوم على المدينة، وتفشي الشائعات داخل معسكراتها، واتهام كل جانب الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة[1].

2 ـ نتائج الحملة على دمياط:

يُعدُّ فشل الحملة الصليبية ـ البيزنطية المشتركة على دمياط نقطة تحوُّل هامة في تاريخ الشرق الأدنى؛ لأنه لو نجح التحالف النصراني في تحقيق غايته؛ لكان من الممكن أن يمنع اتحاد بلاد الشام ومصر، الذي يشكل خطراً مباشراً على أوضاع الصليبيين في بلاد الشام، ويعرقل جهود المسلمين في التصدي للصليبيين، وإخراجهم من المنطقة.

كما يُعدُّ فشل الحملة النصرانية نقطة تحول هامة، في مستقبل صلاح الدين، الذي ظهر بمظهر المتمكِّن في حماية مصر، وأقنع الدولة الفاطمية المتداعية، بأنه يستطيع حماية البلد من غارات المعتدين بالإضافة إلى حماية مركزه من دسائس المتآمرين، وبذلك حاز على إعجاب الكثير.

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ص: 381.

ـ بات المسلمون يهدِّدون، بشكل مباشر، الإمارات الصليبية بحيث شعر الصليبيون يوماً بعد يوم بازدياد تضييق المسلمين عليهم، وبعد أن كانوا يحصرون نشاطهم ضد خطر نور الدين محمود من ناحية الشمال، أضحوا يوزعون قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين محمود وصلاح الدين[1].

ـ إذا كانت تولية صلاح الدين منصب الوزارة بداية النهاية للدولة الفاطمية، فإن هزيمة النصارى أمام دمياط، شكّلت خطوة أخرى نحو القضاء على هذه الدولة حيث تطلع الخليفة العاضد إلى التحرر من نفوذ صلاح الدين، ولكن المصير الفاشل الذي آلت إليه، خيَّبت أمله، وأتاحت لصلاح الدين فرصة الانفراد بالسلطة في مصر، وتوجيه اهتمامه نحو إضعاف المذهب الشيعي الإسماعيلي، وفقدت الدولة الفاطمية الأمل الأخير في التخلص من قبضته القوية وأضحى سيد مصر دون منازع[2].

3 ـ وصول نجم الدين أيوب مصر:

طلب صلاح الدين من نور الدين إرسال والده إليه، فوافق نور الدين على ذلك، وطلب من نجم الدين أيوب أن يستعد للسفر إلى مصر وحمّله رسالة إلى صلاح الدين يأمره فيها بالتعجيل في إلغاء الخلافة الفاطمية، وإعلان الخطبة للخليفة العباسي[3].

وخرج مع القافلة التي سافر فيها نجم الدين أيوب عدد كبير من التجار وأصحاب المصالح في مصر، فخشي نور الدين على القافلة من الفرنجة وسار بجيشه إلى الكرك، وحاصرها حتى اطمأن إلى اجتياز القافلة لمنطقة الخطر فتركها وعاد إلى دمشق[4]. ووصل والد صلاح الدين نجم الدين أيوب إلى القاهرة في الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة وخرج العاضد ـ صاحب القصر ـ لاستقباله وبالغ في احترامه والإقبال عليه واتفق لأيوب مع ولده صلاح الدين يوسف شبيه ما اتفق ليعقوب مع ابنه يوسف عليه السلام حين قدم على ولده ووجده متملكاً للديار المصرية وقال: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: 99]. وذكر أنه لما خرج ولده الملك الناصر صلاح الدين والخليفة العاضد إلى لقائه واجتمعا به قرأ بعض المقرئين: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ [يوسف: 100].

---

(1) تاريخ الزنكيين في الموصل، ص: 381.
(2) المصدر نفسه، ص: 382.
(3) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 115.
(4) المصدر نفسه، ص: 116.

ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوّض إليه الأمر كله، فأبى ذلك عليه أبوه وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له، فلا ينبغي أن تغير مواقع السعادة[1]، فحكّمه في الخزائن بأسرها وأنزله اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة[2]، وفي ما حدث لصلاح الدين من اجتماعه بوالده وأهله قال عمارة اليماني:

من شاكر والله أعظم شاكر	ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا	حسبي فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارها	عزّ القوي وذلة المغلوب
وحلوا عن الإسلام فيها كربة	لو لم يجلّوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها	عُتقاؤهم من نازح وغريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً	وهم اللباب فأنت غيرُ لبيب
صحت به مصر وكانت قبله	تشكو سقاماً لم يغُن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت في عصره	والدهر ولاد لكلّ عجيب
رد الإله به قضية يوسف	نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخوته ووالده إلى	مصر على التدريج والترتيب[3]

وحُكي أنه لما اجتمع صلاح الدين بوالده في دار الوزارة، وقعدا على طراحة واحدة، ذكر نجم الدين أن صلاح الدين ولد ليلة إخراجه من قلعة تكريت قال: فتشاءمت له وتطيرت لما جرى عليّ، وكان معي كاتب نصراني فقال: يا مولاي مَن يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيماً عظيم الصيت جليل المقدار. قال فعطفني كلامه عليه. فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق رحمة الله عليهم أجمعين[4]. وقد توفي نجم الدين أيوب في سنة (568هـ) فقد ركب نجم الدين أيوب، فشبب به فرسه بالقاهرة عند باب النّصر وسط المحجّة يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً وبابه مزدحم بالوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود[5] وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن

---

(1) مفرج الكروب (1/ 186).
(2) المصدر نفسه، ص: (1/ 186).
(3) عيون الروضتين (1/ 301، 302).
(4) المصدر نفسه (1/ 304).
(5) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 248).

السِّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه[1]، وكان صلاح الدين غائباً في بلاد الكَرَك والشوبك على الغزاة، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت في الدَّار السلطانية ثم نقلا بعد سنين إلى المدينة النبوية الشريفة على سكانها أفضل الصَّلاة والسلام، وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل[2] وقد رثاه عمارة اليماني فقال:

صفوُ الحياةِ وإن طال المدى كَدَرُ ... وحادث الموتِ لا يُبقي ولا يَذَرُ

وما يزال لسانُ الدهر يُنذِرُنا ... لو أثَّرَت عندنا الآيات والنُّذُرُ

فلا تَقُل غرَّت الدُّنيا مطامعنا ... فما مع الموت لا غش ولا كدر

كأس إذا ما الرّدى حيّا الحياة بها ... لم ينج من سُكرها أنثى ولاَ ذَكرُ

كما شامخِ العز لاقى الذُّل من يَدِها ... ما أضعف القَدر إن ألْوى به القَدَرُ

في كلِّ جيل وعصر من وقائعها ... شعوا يقطر منها النَّاب والظُّفُرُ

أودى علي وعثمان بمخلبها ... ولم يَفُتها أبو بكر ولا عمر

ومن أراد التأسِّي في مصيبته ... فللورى برسول الله معتبرُ[3]

خامساً: إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية:

وتعتبر هذه الخطوة من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين، فقد كان نور الدين حريصاً كل الحرص على إنهائها ـ فكتب إلى نائبه صلاح الدين يأمر بإقامة الخطبة للخليفة العباسي المستضيء ـ فاعتذر صلاح الدين، بالخوف من قيام أهل مصر ضده لميلهم إلى الفاطميين، وبأنه لم يتهيأ لذلك بعد، إلا أن نور الدين أرسل إلى نائبه: يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة فيه. وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الملك العادل نجم الدين أيوب، وحمّله رسالة فيها: وهذا أمر تجب المبادرة إليه، لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت لاسيما وإمام الوقت ـ المستنجد ـ متطلع إلى ذلك بكليته وهو عنده من أهم أمنيته[4].

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 252).

(2) المصدر نفسه (2/ 249).

(3) عيون الروضتين (1/ 259).

(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 209.

وكان صلاح الدين متهيباً متردداً في إسقاط تلك الخلافة، حيث أن ميراث العبيديين في مصر، كان عمره أكثر من مائتي سنة، وكان نور الدين يعتبر أن فتح مصر نعمة من نعم الله عليه وعلى المسلمين، من أجل توحيد البلاد على منهج أهل السنة وإزالة البدع والرفض[1]، وكان نور الدين متفهماً لظروف صلاح الدين وكان يخاطبه بالأمير (أسفهلار) ولو أراد لأرسل خطاباً بعزله عن مصر وتوليته قطراً آخر، وهذا ما صرح به نجم الدين لولده صلاح الدين في مصر: إن أراد عزلك.. يأمر بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد[2].

ومن دلائل احترام نور الدين لصلاح الدين ما جاء في خطابه لابن أبي عصرون يوليه قضاء مصر ويقول فيه: تصل أنت وولدك حتى أسيركم إلى مصر، وذلك بموافقة صاحبي صلاح الدين، واتفاق منه، وفقه الله فأنا شاكر له كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم[3]. فحقيقة العلاقة بين القائدين احترام متبادل وتقدير عظيم وسيأتي الحديث عن العلاقة بينهما بإذن الله والرد على الكتّاب الذين تلقوا روايات ابن أبي طيء الشيعي الذي حرص على تشويه وتلطيخ العلاقة بين الرجلين والطعن في سيرتهما كلما أمكنه ذلك.

1 ـ التدرج في إلغاء الخطبة للخليفة الفاطمي:

استفاد صلاح الدين من الرجل الكبير القاضي الفاضل، فقد ساعده على إحكام خطة مدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي، وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، وبعد أن هيّأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلّم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة وأزال أصول المذهب الشيعي، ففي سنة (565هـ/ 1169م) أبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر.

ويعلق المقريزي بأن هذه أول وصمة دخلت على الدولة[4]. ثم أمر بعد ذلك، في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة (565هـ/ 1169م ـ 1170م) بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان ثم علي ﷺ وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك[5]. وولىّ القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني، فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السُّنية، وهو في الوقت نفسه يضيّق الخناق على العاضد، فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق، ويمنع رسوم

---

(1) الجهاد والتجديد، ص: 215.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 215.
(3) المصدر نفسه، ص: 215.
(4) المقريزي «اتعاظ» (3/ 317)، القاضي الفاضل، ص: 137.
(5) القاضي الفاضل، ص: 137.

الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش، فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً فشيئاً، ثم قبض عليهم في ليلة واحدة وأنزل أصحابه في دورهم وفرّق إقطاعاتهم عليهم[1].

وكان العاضد يتابع ذلك كله بقلب حزين ونفس كئيبة وقد خابت الآمال التي عقدها على صلاح الدين وانزوى في مخدعه فريسة للهمّ والمرض[2]، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت مؤاتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة، فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوفوها وسألهم الرأي والنصيحة، وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد[3].

وفي بداية سنة (567هـ/ 1171 ـ 1172م) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين وكان قطعها بالتدريج أيضاً، ففي الجمعة الأولى من محرم سنة (567هـ/ 1171 ـ 1172م) حذف اسم العاضد من الخطبة، وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله، وقطعت الخطبة للعاضد لدين الله فانقطعت ولم تعد بعدها إلى اليوم الخطبة الفاطمية[4] والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو أسبوعين، وذلك لأنها ظلت على المذهب السني طوال العصر الفاطمي[5]، وقد توفي العاضد في العاشر من محرم سنة (567هـ/ 1171 ـ 1172م)[6] ويقال: إن صلاح الدين حين علم بوفاة العاضد الفاطمي بعد أيام ندم على أنه تعجل في قطع خطبته، وقال: لو عرفنا أنه، أي الخليفة العاضد، يموت في هذا اليوم ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة، فضحك القاضي الفاضل ورد عليه قائلاً: يا مولاي لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت[7]، فابتسم الحاضرون لهذه المداعبة الكلامية بين الوزير صلاح الدين وكاتبه أو مستشاره التي انطوت فيها آخر صفحة من صفحات تاريخ الدولة الفاطمية العبيدية[8].

2 ـ وفاة العاضد عام 567هـ:

قال ابن كثير: والعاضد في اللغة القاطع: لا يعضد شجرها: فيه قطعت دولتهم

---

(1) الخطط للمقريزي، نقلاً عن صلاح الدين الأيوبي لقلعجي، ص: 161.

(2) صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، ص: 162.

(3) المصدر نفسه، ص: 162.

(4) القاضي الفاضل، ص: 137.

(5) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 59.

(6) القاضي الفاضل، ص: 139.

(7) المصدر نفسه، ص: 139.

(8) المصدر نفسه، ص: 139.

واسمه: عبد الله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أوّل ملوكهم، وكان مولد العاضد في سنة سِتّ وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعياً خبيثاً لو أمكنه قتل كلَّ من قدر عليه من أهل السنة[1].

3 ـ فرح المسلمون بزوال الدولة الفاطمية:

ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام أرسل إلى الخليفة العباسي يعلمه بذلك مع ابن أبي عصرون فزينت بغداد، وغلقت الأبواب وعُملت القباب. وفرح المسلمون فرحاً شديداً، وكانت الخطبة قد قَطعت من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسّي حين تغلب الفاطميُّون عليها أيام المعزِّ الفاطمي، باني القاهرة إلى هذا الأوانِ، وذلك مائتا سنة وثماني سنين[2]. وقد تفاعل الشعراء مع هذا الحدث المدوّي في أرجاء الدنيا، فقد قال العماد الأصفهاني:

توفي العاضد الدعي مما	يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا	يوسفها في الأمور محتكما
قد طفئت جمرة الغواة وقد	داخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شملُ الصلاح ملتئماً	بها وعقد السداد منتظماً
لما غدا مشعراً شعار بني	العباس حقًّا والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتظراً	ومن دعاة الإشراك منتقماً
وظل أهل الضَّلال في ظلل	داجية من غيابه وعمى
وارتبك الجاهلون في ظلل	لما أضاءت منابر العُلما
وعاد بالمستضيء ممتهداً	بناء حق قد كان منُهَدِما
واعتلَت الدّولة التي اضطهدت	وانتصر الدين بعدما اهتُضما
واهتزَّ عطف الإسلام من جَذَلٍ	وافترَّ ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهُدى فرحاً	فليقرعِ الكُفُر سِنَّهُ نَدما
عاد حريمُ الأعداءِ منتهك	الحِمى وفيءُ الطغاة مقتسماً

---

(1) البداية والنهاية (16/ 451). (2) المصدر نفسه (16/ 450).

قصور أهل القصور أخربها عامر بيت من الكمال سَمَا
أزعج بعد السُّكون ساكنها ومات ذُلّاً وأنفه رَغِمَا[1]

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً إستراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعيَّن الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فأتمَّ الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص، وقائده الأمين صلاح الدين، الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة، وحق للأمة الإسلامية وزعمائها أن تفرح بهذه البشرى الكبيرة من إزالة دولة الشيعة الرافضة.

4 ـ اعتبار واتعاظ من زوال الفاطميين من مصر:

كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب وكأن لم يَغْنَوا فيها، وكان أوّل من ملك منهم المهدي، وكان من أهل سَلَمْيَة حدَّاداً اسمه: سعيد، وكان يهودياً فدخل بلاد المغرب وتسمَّى بعبيد الله، وادَّعى أنَّه شريف علوِيّ فاطميّ، وقال: إنه المهديُّ، وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكُبراء كالقاضي أبي بكر الباقلاَّني والشيخ أبي حامد الإسفرايينيّ وغير واحد من سادات الأئمة.... والمقصود أنَّ هذا الدَّعِيَّ المُدَّعِيَ الكذَّاب راجٍ له ما افتراه في تلك البلاد ووازَرهَ جماعة من جهلة العُبَّاد، وصارت له دولة وصولة، فتمكَّن إلى أن بنى مدينة سمّاها المهدية نسبة إليه، وصار مَلِكاً مطاعاً يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم ثم المنصور، ثم المعز ـ وهو أوّل من دخل مصر منهم، وبنيت له القاهرة ـ ثم العزيز ثم الحاكم، ثم الظاهر، ثم المستنصر ثم المستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر مِلِكاً، ومدتهم مائتان ونيِّف وتسعين سنة...

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد وقلَّ عندهم الصالحون من العلماء والعبّاد، وكثر بأرض الشام النُّصيريَّة والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس الشريف ونابلس وعجلون والغَوْرَ وبلاد غَزَّة وعسقلان وكَرَكَ الشَّوبك وطبرية وبانياس وصور وعشليث وصيدا وبيروت وعكا وصَفَدَ وطرابلس وأنطاكية، وجميع ما وَالىَ ذلك في بلاد آياس[2] وسيس[3]،

---

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 195).

(2) أياس: مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر.

(3) سيس: قاعدة بلاد الأرمن، صبح الأعشى (4/ 134).

واستحوذوا على بلاد آمد والرُها ورأس العين وبلاد شَتَّى، وقتلوا خلقاً لا يعلمهم إلا الله وسَبَوا من ذراري المسلمين من النساء والولدان ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن صانها الله بعنايته وسلَّمها برعايته، وحين زالت أيامهم وانتفض إبرامهم أعاد الله هذه البلاد كُلَّها على أهلها من السادة المسلمين، ورد الله الكفرة خائبين، وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين[1].

سادساً: القضاء على محاولة انقلابية لإعادة الدولة الفاطمية:

كانت الدولة والمجتمع في مصر في ذلك الوقت في فترة التحول الكبرى في تاريخها من خلافة ونظم ومؤسسات ورجال حكموا البلاد قرنين من الزمان، وأثَّرُوا في كل جوانب حياة مجتمعها، إلى حكم جديد ودولة جديدة لها نظمها ومؤسساتها ورجالها، والتي بدأت بإجراء التغيير بالتدريج، وحاول صلاح الدين اكتساب عامة الناس إلى جانبه ونجح إلى درجة كبيرة، لكنّ بعض مفكري الدولة الفاطميّة ورجالها، وبعض الجماعات التي فقدت نفوذها وامتيازاتها ظلت على ولائها لما كانت تمثله الدّولة السابقة من أفكار وامتيازات[2]، فعملت تلك القوى الموالية للفاطميين من جنود وأمراء وكتاب وموظفي دواوين، ومن عائلات الوزراء السابقين مثل بني رزيك وبني شاور، راحوا يخططون للقضاء على حكم صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية[3]. وقد وصفهم عماد الدين الأصفهاني بقوله: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المتعصّبة المتشددة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيّة، وعيّنوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير، وبيّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل[4].

ويبدو أن مؤامرتهم كانت في غاية التنظيم إذ عينوا خليفة ووزيراً، ثم كاتبوا الفرنج أكثر من مرّة يدعونهم في إحداها إلى الهجوم على مصر، في وقت كان صلاح الدين غائباً في الكرك، والتفّ هؤلاء حول عمارة اليمني، الفقيه والأديب السنيّ المذهب، الفاطمي الولاء الذي تولى مهمة المراسلة مع الفرنج، وظنّ المتآمرون أن سريَّتهم التامة ستقودهم إلى النجاح، ولكنهم لم يعلموا أن القاضي الفاضل عن طريق ديوان الإنشاء كان يراقبهم مراقبة تامة حتى تحين الفرصة المواتية لكشف سرهم، وتذكر المصادر في كشف مؤامراتهم قصتين تختلفان بعض الاختلاف في التفصيلات.

---

(1) البداية والنهاية (16/ 457).

(2) صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري، ص: 168.

(3) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 282).

(4) المصدر نفسه (2/ 282).

أولاهما: أن أحد الكتاب في الديوان وهو عبد الصمد الكاتب، كان يلقى الفاضل بخضوع زائد، يخدمه ويتقرب إليه ويبالغ في التواضع إليه، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين، فأحضر ابن نجا الواعظ وأخبره الحال، وطلب منه كشف الأمر، فلم يجد من جانب صلاح الدين شيئاً، فقصد الجانب الآخر، فكشف الحال إليه، فأرسله القاضي الفاضل إلى صلاح الدين، وقال له: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه، فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع وذكر الحال، عندئذ استدعاهم صلاح الدين وقرّرهم فأقروا بمؤامرتهم، فاعتقلهم ثم أمر بصلبهم[1].

وتشير الرواية الثانية إلى أن المتآمرين أدخلوا الواعظ زين الدين بن نجا بينهم، فتظاهر بمساندته لهم في البداية ثم أعلم صلاح الدين بأمرهم، وطلب منه أن يعطيه ما لابن كامل من أملاك، فوافق وأمر بمخالطتهم وتعريف شأنهم، فصار يعلمه بما يجدّ من أمرهم، ثم وصل رسول من الفرنج إلى صلاح الدين بهدية ورسالة ظاهرية وبرسالة باطنية للمتآمرين، فوصل خبره إلى صلاح الدين[2]. وقد أشار القاضي الفاضل بنفسه إلى تفصيلات هذه المؤامرة في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى نور الدين بدمشق، وتنمّ عن اطّلاعه الدقيق على المؤامرة، بل اشتراكه في إحباطها، فلعلّه هو الذي دسّ من أعلمه بتفصيلات المؤامرة، كما يشير في رسالته إلى عيون لديوان الإنشاء المصري من الفرنج، وآخرين بينهم على اتصال بالديوان[3]. وجاء في الكتاب الذي كتب بقلم القاضي الفاضل «من صلاح الدين إلى نور الدين» بعدما تمّت التحقيقات التي أجراها صلاح الدين، ولخص الكاتب بتركيز وشمول بدايات المؤامرة وتطوراتها، وكيفيّة كشفها، وصلب رؤوس المتآمرين أمام بيوتهم[4]: أن صلاح الدين كان لا يزال، بعد قضائه على الخلافة الفاطمية يعتبر «جند مصر.. وأهل القصر» الفاطمي أعداء لدولته وضد وجوده ويتوقع منهم القيام بعمل ضده، ولذلك فقد كان متحرزاً منهم، ووضع عليهم من عيونه ورجاله الموثوقين من يراقبهم باستمرار ومع ذلك فقد استمر عملهم سرياً بمختلف الوسائل التي كانت متاحة لهم. وأنهم كانوا من إعلان الخطبة العبّاسية وحتى القبض عليهم لا يمر عليهم شهر ولا سنة إلا وهم يُدبّرون المكائد ويعقدون الاجتماعات ويبعثون الرُسل إلى الصليبيين لموافقتهم على ما يريدون، وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج يوسعون لهم فيها سُبُل

---

(1) القاضي الفاضل، ص: 146.

(2) المصدر نفسه، ص: 146، مفرج الكروب (1/ 244، 245).

(3) القاضي الفاضل، ص: 146.

(4) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 169.

المطامع.. ويزينون لهم الإقدام والقدوم[1]. لكن الفرنج لم يستجيبوا بداية؛ لخوفهم من صلاح الدين، وفي ذات الوقت يؤمِّلونهم بالمساعدة في الوقت المناسب.

ووصل الأمر إلى أنهم كاتبوا ملك الصليبيين عندما قام صلاح الدين بحملته الثانية على بلاد الكرك والشوبك في قسم كبير من قوّاته يطلبون منه القيام بالدور المتفق عليه، وقالوا في كتبهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا تقدم عموري بقواته إلى صَدْر أو أيلة، فإنه سيقطع الطريق على صلاح الدين ويمنعه من العودة، وعند ذلك تثور في القاهرة حاشية القصر، وكافة الجند (الفاطمي السابق في مصر) وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامة الإسماعيلية، تفتك بأهل صلاح الدين ومعاونيه ورجال دولته في العاصمة[2]. لكنّ يقظة صلاح الدين والتكتيكات والمناورات التي قام بها أدرك عموري الذي كان يحاول جاهداً معرفة حركات صلاح الدين في النقب جنوبي الأردن، وجمدته عند مياه الكرمل في جبال الخليل لخوفه من أن يستغل صلاح الدين فرصة حركة الملك الخاطئة، فيتوجه إلى المناطق غربي نهر الأردن والبحر الميت.

ولم ييأس المتآمرون: فعندما وصل المدعو جِرْج (جورج أو جورجيوس)، كاتب الملك عموري، إلى القاهرة في مراسلة إلى صلاح الدين ويبدو أن الرسائل كانت متصلة في أوقات السلم، اتصلوا به، وأرسلوا معه كتاباً إلى الملك عموري: أنّ العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلّاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بعضهم، وإذا بعثت أسطولًا إلى بعض الثغور، ففعلنا ما تقدم ذكره في الثورة[3]. وهذا دليل آخر على محاولة استغلالهم لكل الظروف المناسبة، ذلك أن وقت جمع الغلات من الحقول هو الوقت الذي يذهب فيه الأمراء المقطعين وأجنادهم إلى إقطاعاتهم لأخذ حصتهم من الناتج وتوزيعه، وهذه كانت حالة عادية معروفة في تاريخ المنطقة في العصور الوسطى[4].

أن الملك عموري كان كلما أراد التعرف على الأوضاع في مصر والاتصال بالمتآمرين والتفاوض معهم، كان يبعث بـ «جِرْج» رسولاً إلى صلاح الدين: ظاهراً إلينا، وباطناً إليهم، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه علمنا، ولأهل القصر والمصريين «الجند» في أثناء هذه المُدَد رُسل تتردد، وكتب إلى الفرنج تتجدد[5].

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 287).
(2) المصدر نفسه (2/ 288).
(3) المصدر نفسه (2/ 288).
(4) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 170.
(5) كتاب الروضتين (2/ 287).

كانت سياسة صلاح الدين أثناء هذه الفترة إذا شك أعوانه بأحد من الجماعات المذكورة وقام باعتقاله ولم يتمكنوا من إثبات التهمة ضده، أطلق سراحهم، وخلّى سبيلهم فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرقة عليهم إلا قساوة[1].

واتصل المتآمرون في ذات الوقت «بشيخ الحيل» سنان[2]، زعيم الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام، طالبين مساعدته محتجين: بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، وأنّ ما بين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ولا يجب به، فعود عن نُصرة[3]. وطلبوا منه بصورة خاصة اغتيال «الملوك» كما كانت عادتهم أو نصب المكائد لهم وكان الرسول إليهم خال ابن قرجلة[4]، أحد الدولة الفاطمية السابقين، ويبدو أن الاثنين كانوا عند صاحب الحيل عند اكتشاف المؤامرة فالتجؤوا إلى الصليبيين[5].

ولا نعرف إذا كان المتآمرون اتصلوا بملك صقليّة لإرسال الأسطول مباشرة أم عن طريق ملك الصليبيين، لكنّ الأسطول قدم بعد فشل المؤامرة، إلى الإسكندرية، وكان مكوناً من 200 سفينة ويحمل أعداداً كبيرة من الخيالة والرجالة، فَمُني بخسائر كبيرة خاصة وأن الملك عموري لم يتقدم في البرّ كما كان الاتفاق بسبب القضاء على المتآمرين بحزم[6].

وفي المرّة الأخيرة التي قدم فيها «جِرْج» برسالة إلى ديوان صلاح الدين وصل كتاب إلى الديوان ممن لا نرتاب به من قومه «الصليبيون» يذكرون أنه رسول مخاتلة (خداع) لا رسول مجاملة، فاتخذ رجال صلاح الدين الاحتياطات المناسبة لمراقبته دون أن يشعر، ولم يظهروا له أي شكٍ فيه. وقام «جرج» بالاتصال بجماعة القصر الفاطمي، ومدبري المؤامرة، وأمراء الجند الفاطمي السابقين، وجماعة من النصارى واليهود، عند ذلك توصل رجال دولة صلاح الدين إلى إدخال أحد العيون إليهم من جماعته فَدسّنه إليهم من طائفتهم من داخلهم[7]، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم[8].

وبدأت تنتشر الإشاعات والأقاويل بين الناس حول المؤامرة، وخاف رجال دولة

(1) كتاب الروضتين (2/ 287).
(2) المصدر نفسه (2/ 288).
(3) المصدر نفسه (2/ 289).
(4) المصدر نفسه (2/ 289).
(5) المصدر نفسه (2/ 289).
(6) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 172.
(7) المصدر نفسه، ص: 172.
(8) المصدر نفسه، ص: 172.

صلاح الدين من انكشاف الأمر، وهرب رؤساء الفتنة، فقرروا اعتقالهم، ثم أحضروا واحداً واحداً أمام صلاح الدين: وقَرَّرَهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قُطِعت أرزاقهم وأخذت أموالهم[1].

وقد تبين من التحقيقات والإقرارات أنهم عَيّنوا خليفة ووزيراً، وأنه وقع خلاف بينهم حول الخليفة وحول الوزير (آل رُزيّك أو آل شاور).

استفتى صلاح الدين العلماء في أمرهم، فأفتوا بقتلهم، وعندما تردد صلاح الدين في التنفيذ، طالب أهل الفتوى وأهل المشورة بالإسراع في التنفيذ، فصَدَر الأمر بقتلهم وصلبهم: وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم[2]. وكان المشهورون الذين شنقوا: الشاعر عمارة بن علي اليمني، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العويرس، وداعي الدعاة ابن عبد القوي. وقد حاول القاضي الفاضل صادقاً الشفاعة لدى صلاح الدين في عمارة، على الرغم من العداوة القديمة بينهما، إلا أن عمارة اعتقد أنها خدعة فرفض قبولها، فتم صلبه مثل غيره[3].

وأما أهل القصر فقد اعتقلوا بداية، ثُم نُقلوا إلى أماكن مختلفة وأعطى القصر إلى أخيه العادل، ذلك أن صلاح الدين رأى: أنهم مهما بقوا فيه بقيت مادة لا تنحسم الأطماع عنها، فإنه «القصر» حبالة للضلال منصوب، وبيعة «مقامٌ» للبدع محجوبة[4].

وشُرّدت طائفة الإسماعيلية من بلاد مصر ونُفُوا، أما البقية فقد أعلن في القاهرة: بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصعيد[5].

وكشفت التحريات والبحث في هذه القضيّة عن وجود داعية يُسَمّى: «قُديد القَفّاص» في الإسكندرية، التي كان غالبية أهلها من أهل السنة، وأن دعوته انتشرت في بلاد الشام ومصر، وأن أرباب المعايش (الحرب والصناعات) في ثغر الإسكندرية يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن[6]. كما وُجد لديه كتب ورقاع تدل على الكفر الصريح[7]. وهكذا فقد تمكن صلاح الدين بفضل الله ثم بصبره وقيادته الحازمة من

(1) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 172.
(2) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (2/ 289).
(3) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.
(4) كتاب الروضتين (2/ 290).
(5) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.
(6) كتاب الروضتين (2/ 290).
(7) المصدر نفسه (2/ 290).

القضاء على هذه المؤامرة الفتنة التي دفعته أخيراً إلى اتخاذ القرار الحاسم بالنسبة لكل بقايا الدولة الفاطمية من بيت الخلافة، وكبار رجالها، والحاشية، والجند والسودان[1].

1 ـ عمارة بن علي اليمني الشاعر:

قال عنه الذهبي: أبو محمد، عمارة بن علي بن زيدان الحكميُ المذحجي اليمني الشافعي الفرضي، الشاعر، صاحب الديوان المشهور، ولد سنة خمس عشرة وخمس مئة وتفقَّه بزبيد مدةً، وحج سنة تسع وأربعين ونفّذه أمير مكة قاسم بن فليته رسولاً إلى الفائز بمصر فامتدحه بالشعر. وكان واضح الاعتقاد في أبي بكر وعمر، فقد حكى عمارة أن الصالح بن رُزِّيك فاوضه وقال: ما تعتقد في أبي بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبقَ الإسلام علينا ولا عليكم، وأنّ محبتهما واجبة. فضحك، وكان مُرتاضاً حصيفاً، قد سمع كلام فقهاء السنة، قال الذهبي: هذا حكم من الصالح على رفضه[2].

وقال ابن واصل في سبب موالاة عمارة اليمني للفاطميين: وكان عمارة بن علي اليمني شديد التعصب لهم، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه وخوّلوه، فرعى ذلك ووفى لهم، والإنسان ـ كما قيل ـ صنيعة الإحسان، ولم يكن على مذهبهم وإنما كان شافعياً وسنياً، فلما زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر وذبَّ عنهم باللسان، إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد؛ ولمّا تحرك جماعة في عَوْد الأمر إليهم، كان من جملة المساعدين على ذلك، شكراً لهم على إحسانهم إليه، فأدى به ذلك إلى أن شنق[3] ـ كما مرّ ذكره ـ وقد ذكر عمارة ميوله لمذهب القوم في قصيدة يقول فيها:

أفاعيلهم في الجود أفعال سُنَّةٍ   وإن خالفوني في اعتقاد التشيع[4]

وقد علق الذهبي على هذا البيت فقال: يا ليته تشيَّع فقط، بل يا ليته ترفّض، وإنما يقال: هو انحلال وزندقة[5]. وقد قال عمارة في رثاء الفاطميين والعاضد:

أسفي على زمن الإمام العاضد   أسَفُ العقيمِ على فِراقِ الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من   أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حُجُراتِ قصرِك إذ خَلَت   يا ابن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذي   كانوا كأمواج الخِضم الرّاكد

---

(1) صلاح الدين القائد وعصره، ص: 173.
(2) سير أعلام النبلاء (20/ 594، 595).
(3) مفرج الكروب (1/ 212).
(4) سير أعلام النبلاء (20/ 596).
(5) المصدر نفسه (20/ 596).

قَلَّدْتَ مُؤتَمِنَ الخلافة أمرهم فكبا وقصَّر عن صلاح الفاسد

فعسى الليالي أن تَرُدَّ إليكم ما عوّدتكم من جميل عَوَائِدِ[1]

وله من جملة قصيدة:

يا عازلي في هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصّرت في عزلي

بالله زُرْ ساحة القصرين وابك معي عليهما لا عَلى صفين والجمل

وقل لأهلهما والله ما التحمت فيكم قُروحي ولا جُرحي بمُندمل

ماذا ترى كانتِ الإفرنج فاعلة في نسل آلِ أمير المؤمنين علي[2]

وأنا أستغرب من عمارة اليمني في نعيه لأيام الفاطميين وحنينه إلى بدعهم وأعيادهم وقصورهم وتحديه للدولة السنية الجديدة في مصر ودفاعه عن الفاطميين وأكاذيبهم في زعمهم بأنهم من النسل النبوي الكريم، فهل متاع الدنيا الزائل يفعل بالعقائد الصحيحة ما فعله بعمارة اليماني، وهل العطايا والجاه والمناصب تجعل الإنسان يترك عقيدته الصحيحة ويبكي على أطلال الدولة الفاطمية الشيعية الرافضة؟ وينخرط في بلاد الإسلام؟ إن هذا لشيء عجاب.

2 ـ حصار الإسكندرية:

إن أهل الإسكندرية ساهموا في نجاح المشروع السني بمصر، ودافعوا عن صلاح الدين عندما حوصر بها، وهم يدافعون عن المدينة بشجاعة فائقة ورجولة منقطعة النظير، ومسلمي مصر عموماً وأهل الإسكندرية منهم خصوصاً دائماً وأبداً في الخندق المدافع عن قضايا الأمة قديماً وحديثاً، ولهم من الطاقات الفكرية والإمكانات المادية، والأقلام السيالة وصفاء الفطرة ما يجعلهم في مصاف من يتصدى للمشروع الشيعي الرافضي الباطني، والمشروع الأمريكي الغربي، وقد قاوم المصريون قديماً النفوذ الشيعي الباطني، وتعاونوا مع إخوانهم من أهل السنة، فكرياً وعقائدياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً وإعلامياً حتى تمّ القضاء على المشروع الشيعي الباطني، ولذلك نجد كتّاب الشيعة الرافضة يقولون عن مصر وأهلها: أبناء مصر؛ لعنوا على لسان داود ﷺ، فجعل الله منهم القردة والخنازير[3]، وما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها[4]، وقالوا:

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 293).

(2) المصدر نفسه (2/ 295).

(3) بحار الأنوار (60/ 208)، تفسير القمي، ص: 596.

(4) تفسير العياشي (1/ 304)، البرهان (1/ 456).

بئس البلاد مصر، أما إنها سجن مَن سخط الله عليه من بني إسرائيل[1]، وقالوا: انتحوا مصر ولا تطلبوا المكث فيها لأنه يورث الدياثة[2]، وجاءت عندهم عدة روايات في ذم مصر، وهجاء أهلها، والتحذير من سكناها، ونسبوا هذه الروايات إلى رسول الله ﷺ، وإلى محمد الباقر، وإلى علي الباقر، وهذا رأي الشيعة الروافض في مصر في تلك العصور الإسلامية الزاهرة، وقد عقَّب المجلس الشيعي الرافضي على هذه النصوص بقوله بأن مصر صارت من شر البلاد في تلك الأزمنة، لأن أهلها صاروا من أشقى الناس وأكفرهم[3]، ويبدو أن هذه النصوص هي تعبير عن حقد الرافضة وغيظهم على مصر وأهلها بسبب سقوط إخوانهم الإسماعيليين العبيديين على يد صلاح الدين، الذي طهَّر أرض الكنانة من دنسهم ورجسهم، وأين هذه الكلمات المظلمة في مصر، وأهلها الأحبة من وصية حبيبنا محمد ﷺ بأهل مصر[4].

وإليك أيها القارىء الكريم ما قام به أهالي الإسكندرية للدفاع عن الإسلام وعن دولته السنية الجديدة في مصر، فقد تعرضت الإسكندرية لإنزال صقلي في الأيام الأخيرة من عام (569هـ/ نهاية تموز 1174م)، وكان الأسطول النورماندي يتكون من مئتي[5] سفينة، وقيل: من مائة وثمانين سفينة تحمل خمسين ألف رجل بينهم ثلاثين ألف مقاتل تنفيذاً لمخطط واسع النطاق الذي اتفقت عليه العناصر الموالية للفاطميين مع ملكي بيت المقدس وصقلية بهدف إحياء الخلافة الفاطمية في[6] مصر، ورد الدعوة الشيعية الرافضية إلى ما كانت عليه، وقد وصلت الحملة النورماندية أمام الإسكندرية في 16 ذي الحجة بعدما انكشفت المؤامرة وقضي على المتآمرين في الداخل من جهة، وبعد وفاة عموري الأول ملك بيت المقدس من جهة ثانية. وشرع النورمان في مهاجمة الإسكندرية ونجحوا في إغراق بعض المراكب المصرية التي كانت راسية على الساحل[7]، وقد أبدى الجيش الأيوبي وأهالي الإسكندرية شجاعة فائقة، فأحرقوا دبابات العدو التي نصبت قرب السور «وأحسنوا القتال والصبر». وكان صلاح الدين غائباً عن الإسكندرية، وحين وصلها زال ما بالمحاربين من تعب وألم الجراح، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال مَن يريد أن يشاهد قتاله[8]. فما كان على

---

(1) تفسير العياشي (1/ 305)، البرهان (1/ 457).
(2) بحار الأنوار (60/ 211)، أصول الشيعة (2/ 900).
(3) بحار الأنوار (5/ 208).
(4) مسلم (2/ 2970).
(5) الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ص: 382.
(6) تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص: 80.
(7) المصدر نفسه، ص: 81.
(8) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 383.

الصليبيين سوى التسليم وصاروا بين قتيل وأسير[1]. وهكذا وجه جيش صلاح الدين وأهالي الإسكندرية ضربة ماحقة بأصحاب فكرة غزو مصر، بحيث لم يعودوا يفكرون في إعادة التجربة مرّة ثانية في عهد صلاح الدين، على الرغم من أنهم لم يتخلوا عن الفكرة كلياً، إذ أعادوا الكرة بعد وفاة صلاح الدين بربع قرن[2].

سابعاً: الوسائل التي اتخذها صلاح الدين للقضاء على المذهب والتراث الفاطمي:

ليس من السهل اليسير أن يُقتلع مذهب من المذاهب، بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد ما من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة، وتدابير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب[3]، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية، وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها[4]، وإليك بعض هذه الوسائل:

1 ـ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد:

بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمي العاضد، للقضاء على فكرة «الولاية» التي تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ويستمد منها الحكام الفاطميون قداستهم، فأرغم الخليفة العاضد على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب عند وصوله إلى مصر، رغم ما جرى عليه العرف، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية، من استعلاء الخليفة الفاطمي واحتجابه عن الناس، لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم، بل يذكر أبو شامة، أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس[5]، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد ورسوم الدولة، فمنح صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف، إذ خلع عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا[6]، ثم ما

(1) الكامل في التاريخ، نقلاً عن الجيش الأيوبي، ص: 383.
(2) المصدر نفسه، ص: 383.
(3) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 56.
(4) المصدر نفسه، ص: 56.
(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 56.
(6) المصدر نفسه، ص: 57.

فتيء صلاح الدين يعمل على الاستهانة بالخليفة وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته، فأخذ يستولي على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله، بحجة شدة الحاجة إليها في أمور الجهاد، حتى أن الخليفة في آخر الأمر، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذي لا يملك غيره، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة[1]، ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة للاستهانة به أمام رعيته كان يهدف أيضاً إلى إجبار الخليفة على الاعتزال، وتجنب الظهور في المناسبات العامة، حتى ينساه المصريون[2].

2 ـ وضعه من مكانة قصر الخلافة الفاطمي:

عمل صلاح الدين على وضع مكانة قصر الخلافة الفاطمية بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد، وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية، إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها «بالدولة القصرية»[3] نسبة لسكن خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة، ففي سنة (566هـ/ 1170م) قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلّمها لمملوكه قراقوش الخادم، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج، وقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطان بمصر عن أخيه صلاح الدين[4].

3 ـ قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به:

ما لبث صلاح الدين في سنة (567هـ/ 1171م) أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر، طعنة قاتلة، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر الذي اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الشيعية الإسماعيلية[5]، وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد، كما هو مذهب الإمام الشافعي، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام من ذلك التاريخ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس[6]، وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة، بإزالة الشعائر الشيعية، التي أدخلها الفاطميون إلى مصر، واستمرت بها طوال عصر دولتهم من الآذان، وإبان إقامة الصلوات،

---

(1) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 57.

(2) المصدر نفسه، ص: 57.

(3) المصدر نفسه، ص: 58.

(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 60، 61.

(5) المصدر نفسه، ص: 93.

(6) الخطط للمقريزي (4/ 53).

فأبطل من الأذان قول «حي على خير العمل» واستمر الآذان في مصر على المذهب السني[1]، ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان[2]، وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذاً سنياً يجمع فيه الدعاء للصحابة ﷺ، وللتابعين ومن سواهم، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ، ولعميه حمزة والعباس ﷺ، ويأتي للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية[3]. ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر، الذي ظل طوال العصر الفاطمي أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر[4]، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة ـ وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم ـ وهجرة علماء أهل السنة للتدريس فيه قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر، وفي أغلب أرجاء العالم الإسلامي[5].

4 ـ إتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية:

عمد صلاح الدين إلى الآلآت الملوكية الفاطمية، وكنوز القصر الفاطمي، فعمل على إفسادها وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكي، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسي، ثم طرح باقيها للبيع، بحيث دام البيع فيها مدة عشرة سنين[6]، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين[7]، وتحول إلى كتب الدعوة الإسماعيلية، التي احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمي، فأحرقها وألقاها على جبل المقطم، ثم فرق الكتب غير المذهبية التي صودرت من مكتبة القصر، على كبار علماء وأنصار دولته، مثل: العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل، وأبي شامة الأصفهاني، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين كان إحراق كتب الدعوة الشيعية الرافضية فقط[8]. وفي الحقيقة كانت كتب الدعوة الشيعية الإسماعيلية من أهم وسائل التأثير التي يتّخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم وقامت السلطات الأيوبية بإحراق كتب الإسماعيلية، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند بعد سقوط دولتهم بمصر[9]، هذا في الغالب.

---

(1) الخطط للمقريزي (4/46)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 93.
(2) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 93.
(3) المصدر نفسه، ص: 94.
(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 97.
(5) المصدر نفسه، ص: 97.
(6) كتاب الروضتين (2/210)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 61.
(7) المصدر نفسه، ص: 62.
(8) المصدر نفسه، ص: 62.
(9) المصدر نفسه، ص: 62.

5 ـ ألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين:

لم يغب عن فكر صلاح الدين خطورة أثر الأعياد والمآتم والحسينيات المذهبية للشيعة في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، مما أدى إلى انقراضها من مصر مُنذ ذلك الوقت، وبدهاء سياسي، ومنطلق عقائدي مبني على محاربة البدع الشيعية الرافضية تمّ القضاء على الأعياد المذهبية المخالفة للكتاب والسنة، واستكمالاً لهذه الخطوة، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر بصبغة سنية، بقيت إلى اليوم[1].

6 ـ محو رسوم الفاطمية وعملاتهم:

واقترن بمحو الرسوم الفاطمية بمصر، إبطال التعامل بالعملات الفاطمية، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم في الخلافة: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله علي ولي الله» وكما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين، وصيغ عقائدية فاطمية، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق في المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين، استمالة لهم لعقيدة الدولة[2].

7 ـ الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي:

احتاط السلطان صلاح الدين على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد وقَرَّر لهم ما يكفيهم وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرّق بين الرجال والنساء ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم[3]، فكان من دواعي السياسة وطبائع الملك أن يحتفظ الأيوبيون على جميع أفراد البيت الفاطمي، خشية أن يظهر من دعاتهم مَن يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين في إعادة دولتهم[4].

8 ـ إضعاف العاصمة الفاطمية:

بعد أن نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل، التي كانت عملاً عسكرياً بعيد المدى يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج، انتهزوا هذه الفرصة لابتذال مدينة القاهرة، عاصمة الفواطم، التي ظلت طوال مدة دولتهم مدينة ملكية خاصة بسكن الخلفاء، وطوائف العسكر ورجال البلاد، وأرباب الدواوين، كما كانت في نفس الوقت حصناً عسكرياً

---

(1) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 63 ـ 65.
(2) المصدر نفسه، ص: 66.
(3) كتاب الروضتين (2/ 210).
(4) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 66.

بحيث كان أغلب أهل مصر، يسكنون مدينة الفسطاط[1]، وقد علق المقريزي على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله: فصارت القاهرة مدينة سكنى، بعدما كانت حصناً يعتقل به، ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز، وابتذلت بعد الاحترام، وهذا شأن الملوك، ما زالوا يطمسون آثار مَن قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم[2] ولكن ما فعله صلاح الدين كان في سبيل الله ونصرة لنبيه ﷺ.

9 ـ إحياء الأيوبيين لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي:

ارتبط بإبادة الأيوبيين لجميع التراث الفاطمي، إحياءهم لقضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، وبيان أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودي أو مجوسي، والاستمرار في هدم السند الشرعي ـ المزيف للخلافة الفاطمية، ولقد قام العلماء المعتمدون بجهود مشكورة في فضحهم، مثل: ابن خلكان، وابن أبي شامة، وابن واصل وغيرهم، وأطلقوا على الفاطميين اسم: «بني عبيد» إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القَدّاح المجوسي، بل نجد أبو شامة، يخبرنا بأنه ألف كتاباً منفرداً، يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين[3]، ولقد خصص أبو شامة في كتابه «الروضتين»، صفحات طوال في بيان ادّعائهم للنسب النبوي الشريف[4].

10 ـ الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن:

هكذا قضى أهل السنة بزعامة نور الدين محمود على الدولة الفاطمية، وأبادوا تراثها، وتتبعوا أتباعها في مصر، وانكمش التشيع ودخل في طور التخفي والتَستّر، وبدأ زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر مع استقرار عساكر نور الدين في مصر عام (564هـ/ 1168م) واستمر الأيوبيون بقيادة صلاح الدين بمواصلة القضاء على الدعوة الإسماعيلية في مصر واليمن والشام، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية، ونشر الدعوة السنية في إيران والشام، وظل التشيُع يضعف في مصر شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تدين بمذهب أهل السنة والجماعة[5].

والحقيقة أن التدابير التي اتخذها زعماء أهل السنة، كنور الدين وصلاح الدين في

---

(1) العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص: 324، 326.

(2) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 68.

(3) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 70.

(4) كتاب الروضتين (2/ 214 ـ 223).

(5) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 76.

محاربة المد الشيعي الرافضي آتت أكلها، فانقرض من مصر ذلك المذهب الشيعي الرافضي بشكل كامل، وهو فقه عميق، والأمة بأشد الحاجة إليه. والدرس من ذلك: أن اجتثاث البدع من المجتمعات الإسلامية تحتاج لرؤية شاملة ومشروع متكامل لإحياء الدين الإسلامي الصحيح، والتصدي للفكر الباطني وتربية الأمة على انتزاع حقوقها ومقاومة الغزاة الصليبيين. وفيما مضى تحدثنا عن بعض وسائل صلاح الدين في القضاء على المذهب والتراث الفاطمي العبيدي.

وقد استفاد صلاح الدين والأيوبيون من تجارب نور الدين في الإحياء السني والتصدي للتشيع الرافضي، وإعداد الأمة للمقاومة وانتزاع حقوقها من أعدائها، ولذلك لم يبدأ صلاح الدين من الفراغ، وإنما استفاد من الوسائل النورية والتي من أهمها: استحداث المدارس السنية، ودور الحديث، وجعل القضاء على المذهب السني، وبسط إشرافه على المدارس، واستخدام الحسبة لإعادة مذهب أهل السنة، وتشجيع التصوف السني ورصد الأوقاف لمؤسسات المجتمع المدني، ونشر عقائد أهل السنة، وسيأتي تفصيل ذلك بإذن الله عند حديثنا عن الدولة الأيوبية. وقد قام الباحث محمد حمدان خالد القيسي بتقديم رسالة لاستكمال المتطلبات لدرجة الماجستير في جامعة اليرموك بالأردن حول أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغيير واقع المجتمع المصري يمكن الاستفادة منها في هذا الموضوع.

ثامناً: فتوحات صلاح الدين في عهد نور الدين زنكي:

1 ـ جهاد الصليبيين وإخراجهم من بلاد المسلمين:

تحقق هدف نور الدين محمود «المرحلي» وهو الوحدة الكاملة بين شمال العراق وبلاد الشام ومصر، وبعد سنتين أي في عام (569هـ/1174م) شملت مملكة نور الدين السودان والحجاز واليمن، فأصبح المشرق الإسلامي كله دولة واحدة تأمر بأمر زعيم واحد ينظر بشوق ولهفة إلى الهدف الإستراتيجي الذي سعى لتحقيقه، مُنذ بداية حكمه، وهو تحرير بلاد الشام من الفرنجة المحتلين[1]، وقد أصبح هذا الهدف يلوح في الأفق، فأمر بصنع منبر فخم للمسجد الأقصى، لكي يأخذه معه عندما يتوجه لفتح القدس[2]، وكتب إلى صلاح الدين يأمره بالمسير على رأس جيش مصر ليلقاه على قلعة الكرك الفرنجية[3]. سار صلاح الدين كما أمره نور الدين وحاصر قلعة الشوبك «جنوب الكرك»، فلما علم نور الدين بذلك خرج من دمشق نحو الجنوب ليلقى صلاح الدين، ولكنه تلقى رسالة منه قبل وصوله إليه يبلّغه

---

(1) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(2) هكذا ظهر جيل صلاح الدين نقلاً عن دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(3) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

فيها: أن الأمور اضطربت بمصر وأنه يخشى استيلاء المعارضين على الأمور فيها، ولابد له من العودة لضبط الأمور، وأنه سيعود في العام القادم للجهاد مع نور الدين[1]. كان نور الدين مهتماً اهتماماً كبيراً بقلع الكفار من بلاد الشام، وعندما وصله شيء من ذخائر قصور الفاطميين وغرائب المصنوعات من الذهب واللؤلؤ قال: والله ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ولا نسد به خلة الإقلال، فهو ـ صلاح الدين ـ يعلم أنّا ما أنفقنا الذهب في مصر وبنا إلى الذهب فقر.. لكنه يعلم أن ثغور الكفار من بلاد الشام[2]. أي أنه لا يريد من المال والرجال إلا قلع الكفار من سواحل البلاد[3].

وأما صلاح الدين فقد كان يتفق مع نور الدين في الأهداف الإستراتيجية إلا أنه خاف من اضطراب مصر، فكان يهمه ترتيب شؤون مصر أولاً وصرف همه لهذا، ولذلك اضطر للرجوع. ويبدو أن نور الدين فكر بدخول مصر بجيوشه والالتفاف على الصليبيين منها بقيادته، وأحسّ صلاح الدين بنية نور الدين فجمع أهله في مصر وكان من بينهم أبوه نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي[4]، وبعض قادة الجيش وشاورهم فيما سمعه عن نية نور الدين التوجه لمصر وعزله عنها، فأشار عليه أحد أبناء إخوته ويدعى: عمر بأن يتم الاستعداد لمقاتلة نور الدين إذا حضر لمصر، ووافقه بعض الحاضرين على رأيه، فبادر نجم الدين والد صلاح إلى زجرهم واستنكار قولهم وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكننا إلا أن نُقَبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، فما ظنك بغيرنا، وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا، يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما هاهنا من يمتنع عليك[5]، وقال للجماعة كلهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر[6].

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير، وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تَر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرّفونه

---

(1) الباهر، ص: 158، دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(2) كتاب الروضتين نقلاً عن الجهاد والتجديد، ص: 213.

(3) الجهاد والتجديد، ص: 213.

(4) دور نور الدين في نهضة الأمة، ص: 118.

(5) كتاب الروضتين (2/ 228).

(6) المصدر نفسه (2/ 228).

قولي وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده[1].

وكان نجم الدين أيوب شديد الحب والولاء والطاعة لنور الدين رحمه الله تعالى، فلما علم أن الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين[2]. وفي بداية عام (568هـ/ 1173م) وبعد عودة نور الدين من أذربيجان وأرمينية، تسلم منشوراً من الخليفة بالموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر.

وفي شهر شوال من نفس العام خرج صلاح الدين بجيشه إلى الكرك وحاصرها وأعلم نور الدين بخروجه تنفيذاً لما تمّ الاتفاق عليه في العام السابق، فخرج نور الدين من دمشق بدوره ليلقاه، فلما وصل إلى الرقيم (في وسط الأردن) تلقى رسالة من صلاح الدين يبلغه فيها أن والده بمصر مريض، ويخشى عليه الموت، فيستغل المصريون الفرصة ويستولوا على البلاد ويمتنعوا فيها وأنه مضطر للرحيل إلى مصر[3]. وعندما علم نور الدين بذلك قال: إن حفظ مصر أهم عندنا من غيره[4]، ثم لم تلبث أن جاءت الحوادث مصدقة لمخاوف صلاح الدين، فقامت عليه ثورة كبيرة بقيادة مؤتمن الخلافة جوهر، كما قامت بعدها مؤامرة ضخمة شارك فيها عمارة اليمني، وبقية أنصار المذهب الشيعي الرافضي، وقد بينت ذلك فيما مضى.

وفي عام (568هـ) شن نور الدين الغارات على الصليبيين وكان العماد الأصفهاني راكباً مع الملك العادل، وهو يقول له كيف تصف ما جرى؟ فمدحه بقصيدة: وكان ذلك في دفاع نور الدين عن حوران فقال:

عُـقِـدت بـنـصـرك رايـة الإيـمـان ... وبَـدَت لِـعَـصْـرِكَ آيـة الإحـسـان

يـا غـالـب الـغُـلْـبِ الـمـلـوك وصـائـد ... الـصـيـد الـلـيُـوث وفـارس الـفُـرسـان

يـا سـالـبَ الـتِّـيـجـان مـن أربـابـهـا ... حُـزت الـفـخـار عـلـى ذوي الـتِّـيـجـان

مـحـمـود الـمـحـمـود مـا بـيـن الـورى ... فـي كـلِّ إقـلـيـم بـكـلِّ لـسـان

يـا واحـداً فـي الـفـضـل غـيـر مُـشَـارَكٍ ... أقـسـمـت مـا لـك فـي الـبـسـيـطـة ثـان

أحـلـى أمـانـيـك الـجـهـاد وإنّـه ... لـك مـؤذِنٌ أبـداً بـكـلِّ أمـان

كـم بـكـر فـتـح ولّـدتـه ظُـبـاك مـن ... حـربٍ لـقـمـع الـمـشـركـيـن عَـوَان

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 229).
(2) المصدر نفسه (2/ 229).
(3) الباهر، ص: 159.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة، ص: 120.

كم وقعةٍ لك بالفرنج حديثها ... قد سار في الآفاق والبلدان
قَمَّصت قُومَصهُم رداء من ردًى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رِقَّ ملوكهم وتركتهم ... بالذُّل في الأقياد والأسجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم ... وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تحطمُ السُّمْر القنا ... والبيض تُخضبُ بالنَّجيع القاني
وعلى غِناءِ المشرفيَّة في الطُّلى ... والهام رَقصُ عواليَ المُرَّان
وكأن بين النَّقع لَمْعَ حديدها ... نارٌ تألَّفُ من خلال دُخان
في مأزق وردُ الوريد مُكَفَّلٌ ... فيه بريِّ الصَّارم الظمآن
غطَى العجاج به نجوم سمائه ... لتنوب عنها أنجُم الخُرصان
أو ما كَفاهم ذاك حتى عاودوا ... طُرُق الضَّلال ومركب الطُّغيان

ومنها:

وجلوت نور الدين ظُلمةَ كُفرهم ... لمَّا أتيت بواضح البُرهانِ
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم ... والرأي قبل شجاعة الشُّجعان
أصبحت للإسلام ركناً ثابتاً ... والكُفرُ منك مضعضع الأركان
قَوَّصت أساس الضَّلاَل بعزمك ... الماضي وشِدت مباني الإيمان
قل أين مثلُك في الملوك مجاهدٌ ... لله في سرٍّ وفي إعلان
لم تَلْقَهم ثقة بقوة شوكة ... لكن وَثِقت بنصرة الرَّحمٰن
وبلغت بالتَّأييد أقصى مَبْلَغ ... ما كان في وُسع ولا إمكان
دانت لك الدُّنيا فقاصيها إذا ... حقَّقته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذُرا ... مصر إلى قُوص إلى أُسوان
لم تُلْهُ عن باقي البلاد وإنما ... ألهاك فرض الغزو عن هَمَذان
للرُّوم والإفرنج منك مصائب ... بالترك والأكراد والعربان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت ... لك أوجه الأملاك بالإذعان
أنت الذي دون الملوكِ وجدته ... ملآن من عُرْفٍ ومن عِرفان

في بأس عمرو في بسالة حيدر ... في نطق قُسّي في تُقَى سلمان
سِرٌ لو أنَّ الوحي يَنْزل أُنزلت ... في شأنها سُوَرٌ من القرآن
فاسلم طويلَ العُمرْ ممتدَّ المدى ... صافي الحياة مُخَلَّدَ السُّلطان[1]

2 ـ ضم المغرب الأدنى:

عمل صلاح الدين على تحصين إنجازاته التي حققها في مصر، وذلك بتأمين حدود بلاده حتى لا يؤخذ على غرّة، وأسفرت جهوده عن ضم المغرب الأدنى. فقد كانت شمال إفريقية مرتبطة عضوياً بمصر مُنذ الفتوحات الإسلامية الأولى، فكان من الطبيعي أن تتجه أنظار صلاح الدين إلى ضمِّ بلدانها للاستفادة من ثرواتها من جهة، وبفضل موقعها الجيد في حماية حدود مصر الغربية من جهة أخرى، ففي عام (568هـ/ 1173م) أرسل صلاح الدين قوة عسكرية إلى المغرب الأدنى بقيادة شرف الدين قراقوش غلام المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، فدخل طرابلس وبرقة وبعض بلاد المغرب الأدنى حتى قابس، باستثناء المهدية وسفاقس، وقفصة، وتونس[2].

3 ـ ضم اليمن:

يدخل ضم اليمن ضمن المخطط النوري الهادف إلى توحيد جهة إسلامية واحدة لمقاومة الغزو الصليبي[3]. وقد حققت سياسة صلاح الدين في ضم اليمن إلى:

أ ـ التضييق على أنصار الفاطميين، وبخاصة أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان شيعياً رافضياً.

ب ـ استطاع صلاح الدين تأمين حدود مصر الجنوبي، لأن ضم اليمن، الذي يُعدُّ مفتاح البحر الأحمر من ناحية الجنوب، يؤمن له السيطرة العسكرية والتجارية على الأقاليم الجنوبية ويُبعد احتمال حدوث تقارب بين الصليبيين الذين يتطلعون للسيطرة على البحر الأحمر وبين الحبشة التي تدين بالديانة النصرانية، حتى لا يقع بين فكي الكماشة الصليبية على سواحل البحر المتوسط في الشمال، والأحباش على سواحل البحر الأحمر في الجنوب.

ت ـ كانت اليمن آنذاك تمر بمرحلة عدم استقرار تتنازعها الأهواء السياسية والدينية

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 243، 244).
(2) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 46.
(3) تاريخ اليمن الإسلامي د. محمد عبده السروري، ص: 211.

والمذهبية وبخاصة بين زبيد وصنعاء، كما ظهر دعيٌّ زعم أنه المهدي المنتظر هو عبد النبي ابن مهدي وتغلّب على اليمن، وخطب لنفسه بعد أن قطع الخطبة للعباسيين، وتسمّى بالإمام، وبنى على قبر أبيه قبّة عظيمة، وأمر أهل اليمن بالحج إليها ومنعهم من الحج إلى مكة.

ث ـ أراد صلاح الدين وضع حد لهذه التجاوزات والمساوئ التي تهدد وحدة المسلمين وبخاصة بعد أن أرسل إليه أهل اليمن يستنجدون به لإنقاذهم[1]. ومهما يكن من أمر، فقد وجه صلاح الدين سرية بقيادة أخيه الأكبر شمس الدولة توران شاه الذي ورد مكة فاعتمر بها وسار منها إلى زبيد، فامتلكها كما سار إلى عدن وامتلكها ومنع الجيش من نهبها وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها، ثم سار إلى بقية الحصون والمخالف والمعاقل فملكها، واستوثق له ملك اليمن بحذافيره وخطب للخليفة العباسي[2]. وقتل الدعي المسمى بعبد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها[3]، وكتب شمس الدولة إلى أخيه الملك الناصر صلاح يخبره بما فتح الله عليه وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك إلى نور الدين، فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة يبشره بفتح اليمن والخطبة بها له[4].

4 ـ فتح بلاد النوبة:

وكانت وقتها مملكة نصرانية عاصمتها مدينة دنقلة تقع في أعالي النيل، وتربطها بمصر روابط متينة بشكل عام مُنذ الفتح الإسلامي، ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أراد صلاح الدين فتح بلاد النوبة لحماية مصر من التعدّي عليها من ناحية الجنوب وأرسل أخاه تورانشاه في (شهر جمادى الآخرة عام 568هـ/ شهر كانون الثاني عام 1173م) إلى بلاد النوبة، ففتح إبريم، وسبى وغنم، ثم عاد إلى قوص، ودخل الإسلام إلى أماكن لم تطرقها سنابك خيل المسلمين من قبل، وعيَّن إبراهيم الكردي والياً عليها[5]، وكان هذا الفتح سبباً في إزالة الحواجز التي كانت تؤول دون انتشار الإسلام[6] فيها.

تاسعاً: حقيقة الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين:

تحدث المؤرخون عن علاقة نور الدين بصلاح الدين، فقد روى ابن الأثير وذكر أبو

---

(1) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلادالشام، ص: 48.
(2) الطريق إلى بيت المقدس، ص: 96.
(3) المصدر نفسه، ص: 96.
(4) المصدر نفسه، ص: 96.
(5) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام، ص: 49.
(6) جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د. فرست، ص: 52.

شامة نقلاً عن ابن أبي طي أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين التي ابتدأت سنة سبع وستين وخمسمائة. وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين[1]، وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طي عدد من المؤرخين[2]، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك أن كل واحد منهما كان يخاف صاحبه، وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين، ويحبذ أن تظل منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكّر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر، ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين إلى ما ذلك[3]، وهذه التصورات الباطلة لا أصل لها إلا عند ابن أبي طيء وابن الأثير:

فأما ابن أبي طيء: فقد حاول بما أتقنه من الدس والكذب أن يطعن في العلاقة بين الرجلين وهو متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به، فإن نور الدين كان قد أَذَلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ كثير التحامل على نور الدين، ويحاول أن يلطخ العلاقة بين الرجلين العظيمين بأكاذيبه النتنة[4].

وأما ابن الأثير: فهو متهم فيما يكتبه عن صلاح الدين، فهو يلتمس المناسبات أحياناً لنقد صلاح الدين وتجريحه، وخاصة عند المقارنة بينه وبين نور الدين[5]، فمؤرخ البيت الزنكي في كِتَابَيْه «الكامل في التاريخ» و«الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية» قد ذكر الآراء في كِتَابَيْه والتي نقلها عنه عدد من المؤرخين، وفحواها: أن صلاح الدين لم يكن وفياً لأستاذه نور الدين، بل كان يجتهد مُنذ استقرار نفوذه في مصر إلى الاستقلال عنه، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام، فكل هذه الآراء[6]، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة الإسلامية الموحدة، التي كان عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين قد أجهدا نفسيهما طويلاً في تكوينها، وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم وترجع الأوضاع إلى ما كانت

---

(1) الباهر، ص: 158، 159، كتاب الروضتين (2/ 227).

(2) نور الدين زنكي في الأدب العربي، ص: 116.

(3) المصدر نفسه، ص: 117.

(4) كتاب الروضتين (2/ 117، 118).

(5) دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص: 62.

(6) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 22.

عليه سابقاً من سوء وتشرذم وضعف، بعد انقسام البيت الزنكي، حزب في دمشق وحزب في حلب، ولم يستطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعادة توحيد مملكة والده[1]، ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي، وإلى ابن نور الدين يخبره أن خروجه للشام هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج[2]، وأغلب الظن أن هذه الأقوال التي رددها ابن الأثير، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكي، والروايات التي قيلت حول هذا الموضوع، قد صاغها المؤرخون وعلى رأسهم ابن الأثير لتعليل مسلك صلاح الدين بعد وفاة نور الدين، وكان وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكي، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين، الذي قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير قد تحامل على صلاح الدين في تاريخه الكامل والباهر، وتلمّس له مواضع الزلل، وأسباب الخطأ[3]. وفي الحقيقة أن صلاح الدين كان نعم الجندي في السمع والطاعة لقائده نور الدين زنكي وإليك الأدلة على ذلك:

1 ـ **قال العماد الأصفهاني**: إن صلاح الدين كان لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين[4].

2 ـ **وأما أبو شامة**، فقد عمد إلى تفنيد اتهامات ابن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين، وفي رأي أبي شامة: أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إلا إسرافه في تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته[5]. ويؤكد أبو شامة رأيه بوثيقة وقف عليها بنفسه، بخط نور الدين، يقرر فيها للقاضي شرف الدين بن أبي عصرون، الذي تولى القضاء له بالشام، ثم لصلاح الدين بمصر إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصرة المذهب السني بمصر، والقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي، ويطلب من أبي عصرون مساندة صلاح الدين في هذا الأمر الجلل[6].

3 ـ والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الدولة الفاطمية بمصر والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها، جاءت بأمر مباشر من نور الدين، ولم

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، ص: 22.
(2) مرآة الزمان (8/ 327، 328)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 22.
(3) التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ص38، 39.
(4) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 23.
(5) المصدر نفسه، ص: 23.
(6) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.

تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر، ليشرف بنفسه ويساعد ابنه للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية[1].

4 ـ وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين وكونه نائباً عنه في حكم مصر من كونه كان يخطب له على المنابر في أرجاء الدولة الفاطمية إبان وزارته للخليفة الفاطمي العاضد[2]، وأثر نقل الخطبة للعباسيين، كان الخطيب بمصر وأعمالها يدعو لنور الدين بعد الخليفة، وقُرِّرت السكة باسم المستضيء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين فنُقش اسم كل منهم في وجه[3].

5 ـ وكان مجيء ابن القيسراني وزير نور الدين إلى مصر (سنة 568 ـ 569هـ) لكشف البلاد وارتفاعها ومراجعة حساباتها لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التي يدفعها صلاح الدين لنور الدين، أمراً طبيعياً يؤكد تبعية مصر لنور الدين[4].

6 ـ لقد أدركت الخلافة العباسية هذه الحقيقة الجوهرية، فميزت بوضوح بين الخِلع الخليفية لنور الدين وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين، وجَعلت خِلع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين في حين قلّدت نور الدين بالسيفين، إشارة إلى تقليده لقطري الشام ومصر، وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خِلع سيّرها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر[5] تأكيداً لتبعيتهم المباشرة له.

7 ـ كان صلاح الدين يراعي التأدّب في رسوم الملك، فلا يساوي نفسه بسيده نور الدين، فقد أرسل الرُسل من القاهرة إلى نور الدين لتخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مداومة إرسال ما قُرِّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة[6].

8 ـ وإذا كانت جميع الإجراءات التي اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية والخطبة لبني العباس، والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر قد تمّت بتوجيه مباشر من نور

---

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.
(2) السلوك للمقريزي (1/ 45)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.
(3) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 24.
(4) مفرج الكروب (1/ 219) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 25.
(5) مفرج الكروب (1/ 47) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 26.
(6) مفرج الكروب (1/ 235) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

الدين، وبعد إرساله لنجم الدين والد صلاح الدين، فإن ضمّ صلاح الدين لليمن تمّ بإذن نور الدين للقضاء على الدعوة الشيعية الإسماعيلية هناك ـ وضم اليمن لجبهة المقاومة ـ بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة بنفسه للخليفة العباسي[1]، وكذلك في ضم المغرب الأدنى وغزو مملكة النوبة، وبُشر الخليفة العباسي بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس[2]. فقد كتب نور الدين إلى الخليفة العباسي: وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمَد الفتوح في مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفاتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام، ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة، ما تيسر في هذه النَوْبَة من افتتاح بعض بلاد النُوبَة، والوصول إلى مواضع منها، لم تَطرُقها سنابك الخيل الإسلامية في العصور الحالية، وكذلك استولى عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها. . حتى بلغوا إلى حدود المغرب[3].

9 ـ ومُنذ استقرار صلاح الدين بمصر، حتى وفاة نور الدين داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمي إلى سيده نور الدين رمزاً للولاء والتّبعية، كما داوم صلاح الدين على اطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر، فنجده مثلاً يرسل إليه كتاباً يتضمن ذكر ثورة بقايا الفاطميين، والتي كان من ضمنها عمارة اليمني[4]، وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين من تفاهمهما الإستراتيجي في قتال الفرنج؛ فيذكر أبو شامة أنه في سنة (568هـ/ 1172م) تولى السلطانان نور الدين في الشام، وصلاح الدين من مصر في هذه السنة جهاد الصليبيين، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ جهاد السُلطانين للفرنج[5]، وهذا ما أكّده صلاح الدين في كتاب له للخليفة العباسي بقوله أنه: كان انعقد بينه وبين نور الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن يتجاذبا طرفيْ الغزاة من مصر والشام، والمملوك (أي صلاح الدين) بعسكره وبرّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[6].

10 ـ ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة (569هـ/ 1173م)، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل، وضرب السكة باسمه[7]، ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين[8]، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول: أنّه حتى وفاة

---

(1) مفرج الكروب (1/ 235)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

(2) مفرج الكروب (1/ 235)، تاريخ مصر الإسلامية، ص: 27.

(3) مفرج الكروب(1/ 248)، المصدرنفسه، ص: 27.

(4) كتاب الروضتين 02/ 239).

(5) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ الشعوب الإسلامية، ص: 27

(6) المصدر نفسه، ص: 27.

(7) السلوك (1/ 55) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

(8) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.

نور الدين، كانت مصر والشام قد توحدتا تحت زعامة نور الدين[1]، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني حين امتدح نور الدين فقال:

بملك مصر أهنىء مالك الأمم فشق وأبشر بنصر الله عن أمم
فملك مصر وملك الشام قد نُظِمَا في عقد عز من الإسلام منتظم[2]

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء، ولا مسوّغ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة، كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب وكل ما هنالك أنّ نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات وسدّ بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية المجاهدة، وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج فوجه اهتمامه إلى بناء جيش قوي، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام[3]، وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال: حفظ مصر أهم عندنا من غيرها[4].

عاشراً: وفاة نور الدين محمود:

قال العماد الأصفهاني: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلقت محالُ دمشق أياماً.

قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عيدان: فطرٌ وطُهر فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه حقاً هناء وأجر
وفيهما بالتهاني رسمٌ لنا مستمر
طهارة طاب منها أصل وفرع وذكر[5]

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله

---

(1) تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.
(2) كتاب الروضتين، نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية، ص: 28.
(3) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية، ص: 119.
(4) زبدة الحلب (2/ 339) نور الدين زنكي في الأدب العربي في الحروب الصليبية، ص: 119.
(5) كتاب الروضتين (2/ 308).

بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد، ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرّاش قاضي العسكر، بعد أن صلّى به وذكّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سِماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخَاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص[1]، . . . وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكّر وركب وجمّل الموكب. . . ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته والي حلب وقد جَرَّب الدهر بحنكته. . فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون هُهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة، فجرى على منطقها ما جرى به القضاء السّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة مع خواصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُشى وقال له: ياش[2]، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله والنّاس من الختان لا هون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلّا بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح[3]. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالقصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين[4]، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها[5].

«وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مئة» ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخوّاصين في الشارع الغربي ﷺ تعالى[6]. وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أُدرِكْ. وقال الذهبي: نور الدين الشهيد[7]، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

---

(1) كتاب الروضتين (2/ 308).
(2) المصدر نفسه (2/ 308).
(3) المصدر نفسه (2/ 309).
(4) المصدر نفسه (2/ 310).
(5) المصدر نفسه (2/ 313).
(6) سير أعلام النبلاء (20/ 537).
(7) المصدر نفسه (20/ 537).

الدِّين في ظُلم لغيبة نوره ... والدهر في غُمم لفقد أميره
فلينْدُبِ الإسلامُ حاميَ أهله ... والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المِقدار في أخطاره ... إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثر المتأسِّفين لفقد من ... قرَّت نواظرُهُم بفقد نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بانياً ... لله طوعاً عن خُلُوصِ ضَمِيره
من ينصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب برُكنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهُدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذلِّلاً لجماحها ... من للزمان مُسهِّلاً لوعُوره
من كاشفٌ للمعاضلات برأيه ... من مُشرقٌ في الدَّاجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عِثاره ... من لليتيم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ... من للجهاد ومن لحفظ أمُوره
من للفتوح محاولاً أبكارها ... برواحه في غزوه وبكوره
من للعُلا وعُهودها من للنَّدَى ... ووفوده من للجِجا ووفوره
من كنت أحسب نورَ دينِ محمدٍ ... يخبو وليلُ الشرك في دَيْجوره
أعزز عليَّ بليث غاب للهُدى ... يخلو الشَّرى من زوره وزئيره
أَعْزِز عليَّ بأن أراه مُغيَّبا ... عن محفل متشرِّفٍ بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنَّها ... مُذ غُيِّبت غاض النَّدى ببحوره
ولقد أتى من كنت تُجري رسمه ... فضع العلامة منك في منشوره
ولقد أتى من كنت تكشف كُرَبَه ... فارفع ظلامته بنصر عشيره[1]
ولقد أتى من كنت تؤمن سِرْبَهُ ... وقِّع له بالأمن من محذُوره
ولقد أتى من كنت تُؤثر قُربَه ... فأدِم له التَّقريبَ في تقريره

(1) كتاب الروضتين (2/ 369).

والجيش قد ركب الغَداة لِعرضِهِ ... فاركب لتُبصِرهُ أوان عبوره

أنت الذي أحييت شرع محمد ... وقضيت بعد وفاته بنشوره

كم قد أقمت من الشَّريعة مَعْلماً ... هو مُنذ غبتَ مُعَرَّضٌ لدثوره

كم قد أمرت بحفر خندق مَعْقِلٍ ... حتى سَكَنت اللَّحْدَ في محضوره

كم قيصرٍ للروم رُمْتَ بقسره ... إرواء بيض الهند من تاوره[1]

أُوتيت فتح حصونه وملكت ... عَقْر بلاده وسبيتَ أهل قصوره

أزَهِدْتَ في دار الفناء وأهلها ... ورَغبت في الخُلْدِ المقيم وحُوره

أوَمَا وعدت القُدْسَ أنك مُنْجِزٌ ... ميعاده في فتحه وظهوره

فمتى تجير القُدْسَ من دَنسِ العِدَى ... وتُقَدِّسُ الرحمن في تطهيره

يا حاملين سريره مهلاً فمن ... عَجَبٍ نهوضكم بحمل ثبيره[2]

يا عابرين بنعشه أنشقتُمُ ... من صالح الأعمال نشر عبيره

نزلت ملائكة السماء لدفنه ... مستجمعين على شفير حفيره

ومِنَ الجفاء له مقامي بعده ... هلّا وفيتُ وسرتُ عند مسيره

حَيَّاك مُغتلُّ الصَّبا بنسيمه ... وسقاك مُنْهَلُّ الحيا بدروره

ولبسْتَ رضوان المهيمن ساحِباً ... أذيال سُندس خزه وحريره

وسكنت علِّيين في فِرْدَوْسِهِ ... حِلْفَ المَسَرَّة ظافراً بأجوره[3]

وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاد تلميذه الذكي وجنديّه المخلص صلاح الدين الأيوبي الذي بنى جهاده على ما أسّسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمّها، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله تعالى في كتابنا القادم عن عصر الدولة الأيوبية وسيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(1) التاور: النفس ومهجتها.

(2) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة.

(3) كتاب الروضتين (2/ 369).

الخلاصة

1 ـ تبلور المشروع الإسلامي المناهض للتغلغل الباطني والغزو الصليبي في عهد السلاجقة السنيين، ونقصد بالسنة فهم الإسلام بفهم رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام وعلى رأسهم الخلفاء الراشدين المهديين، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ.

2 ـ أصبح السلاجقة في عام (447هـ) أكبر قوة في العالم الإسلامي خاصة بعد أن فرضوا سيطرتهم على بلاد فارس وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين، وتوغلوا داخل أراضي الدولة البيزنطية واصطدموا بجيش الروم، وبذلك أعطوا دفعة قوية للجهاد ضد الروم الذين عاثوا فساداً أيام البويهيين الشيعة في أراضي الخلافة العباسية، لعدم قدرة الخلافة ولعدم اكتراث أمراء البويهيين بالجهاد، وقد أكسب هذا العمل وبهذه الصورة السلاجقة شعبية كبيرة وسمعة حسنة بين جماهير الناس التي كانت في الماضي القريب ترى وتسمع عن تغطرس الروم، وتنادي السلطة بضرورة مجابهتهم دون جدوى.

3 ـ ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السنّي بعد أن أوشكت على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي الفاطمي في مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً في عام (447هـ) وتصدّوا للخلافة العبيدية الفاطمية. لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام (447هـ) في بغداد وأن يقضي على الفتن، وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة وقتل شيخ الروافض الشيعة أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض.

4 ـ كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد، ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً، وخلع عليه خلعة سنية وأجلسه إلى جواره وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقبه بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة، ومنذ ذلك الحين حَلَّ السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر ببغداد وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم.

5 ـ كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق، ولذلك قامت بإرسال الدعاة إليها، فقد واصل الحكام الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق، وقد استجاب لهم كثير من الناس في عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي والمستنصر بالله الفاطمي، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد الأخير، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر، فلقيت الدعوة الفاطمية في بلاد الفرس تأييداً كبيراً فاستجاب لهم كثير من الناس.

6 ـ من أشهر دعاة الدولة الفاطمية العبيدية المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وقد تركت جهوده آثاراً خطيرة على الخلافة العباسية في عهد القائم بأمر الله، إذ انضم إليها كثير من قادة الترك والديلم، وهم يمثلون عماد القوة التي تعتمد عليها البلاد في التصدي لأعداء الخلافة فظلوا يشجعون الدعوة الفاطمية ويقربون إليهم أتباعها، وقد استطاع هبة الله الشيرازي أن يشن حرباً ثقافية فكرية عقائدية على منهج الإسلام الصحيح.

7 ـ كان البساسيري من القواد المقربين من الخليفة العباسي إلا أن الدعوة الفاطمية العبيدية تغلغلت بين الناس وأثرت في بعض الأعيان والقواد، وقد تأثر بهذه الدعوة قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري بدعوة هبة الله الشيرازي، وأصبح يكاتب الفاطميين ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية، وتدهورت العلاقات بين الخلافة والبساسيري، وفتنة البساسيري تعطينا درساً بليغاً في أهمية الاعتناء بالقادة العسكريين والوزراء السياسيين وأهل الفكر والرأي العام، وتربيتهم على هدي القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين وفقه الخلافة الراشدة، حتى لا يقعوا ضحايا للدعوات المنحرفة والمناهج الضالة والعقائد الفاسدة.

8 ـ دعم هبة الله الشيرازي حركة التمرد التي قادها قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري، فقد كان هبة الله الشيرازي يتابع أحداث العراق وبخاصة أنه وقف على المكاتبات التي تبودلت بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي، وأدرك مدى خطورتها على الخلافة الفاطمية، فعوَّل على الأستفادة من الموقف المتدهور بين الخلافة والبساسيري وأصحابه، فأنفذ إليهم كتباً تضمنت تأييد الخليفة الفاطمي وحكومته لهم، واستعدادهم لمدهم بالسلاح والمال، فوصلت إليهم هذه الكتب قبيل رحيلهم إلى واسط، فزادت من ثقتهم بأنفسهم وقويت شوكتهم، ورد البساسيري على مكاتبات الفاطميين برسالة بعث بها إلى المؤيد في الدين شكره فيها على اهتمامه بحركتهم وتأييدهم له ولأتباعه،

والتمس منه الإمداد السريع بالمال والخيل والسلاح، لإظهار الدعوة الفاطمية في بلاد العراق، وقد استجابت الدولة الفاطمية لمطالب البساسيري وحصل على دعمها.

9 ـ استفاد البساسيري من انشغال طغرل بك السلجوقي بأَخيه من أمه إبراهيم ينال الذي خرج على طاعة أخيه، فاضطر طغرل بك لمحاربته وترتب على ذلك خلو بغداد من الحامية السلجوقية مما أتاح للبساسيري الفرصة للاستيلاء على حاضرة الخلافة العباسية، وإقامة الخطبة فيها للفاطميين فزحف إليها على رأس أربعمائة فارس حاملاً الرايات الفاطمية التي طرزت باسم «الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين»، والتف حوله أتباع الدعوة الفاطمية الشيعية الرافضية في بلاد العراق. وأقيمت الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي بجامع المنصور في يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة سنة 450هـ وزيد في الأذان حي على خير العمل.

10 ـ انقطعت دولة بني العباس من بغداد وأُخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة، عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي، فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخُطب لبني عبيد الفاطميين في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر وحاول البساسيري أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر إلا أن قريشاً بن بدران تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش بالتحفظ عليه وتأمين حياته بعد أن استنجد به الخليفة قائلاً: عرفت ما استقر عليه العزم من إبعادي عنك وإخراجي من يديك وما سلمت نفسي إليك إلا لما أعطيتني الذمام الذي يلزمك الوفاء به، وقد دخلت إليك ووجب لي ذمام عليك، فالله الله في نفسي، فمتى سلمتني أهلكتني وضيعتني ما ذلك معروف في العرب. وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخلفية القائم بأمر الله بالرحيل إلى الحديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام ـ على حد زعمه ـ ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

11 ـ بدأ البساسيري في حملة انتقام واسعة النطاق من أهل السنة واستخدم عوام الشيعة، ودفع لهم السلاح، ونهب الشيعة دور أهل السنة، وتمّ الاعتداء على الرموز السنية والانتقام من أهل السنة في بغداد وتمّ القبض على رئيس الرؤساء أبو القاسم بن المُسلمة، ولامه البساسيري ووبّخه وضربه ضرباً مبرحاً واعتقله. وفي يوم عيد الأضحى من سنة (450هـ) ألبس البساسيري الخطباء والمؤذّنين البياض وعليه هو وأصحابه كذلك وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، والشيعة

الرَّوافض في غاية السرور، والأذان في سائر بلاد العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيري من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقاً ممن كان يعاديه وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا. ولما كان يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذي الحجة أحضر إلى ما بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة المُلقَّبُ برئيس الوزراء، وعليه جُبَّة صوف، وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مخنقة من جلود كالتعاويذ، فأركب جملاً، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلْقان المداسات، وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه، وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأوقف بإزاء دار الخلافة وهو في ذلك يتلو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]. فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلِّق بكلّوب في شِدقيه، ورفع إلى الخشبة حيّاً، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً.

12 ـ بقي الخليفة القائم بأمر الله العباسي في اعتقاله يدعو الله ويتضرع إليه وأرسل هذا الدعاء مع بدوي وأمره أن يعلقه على الكعبة وهو في أسره، وإليك نص هذا الدعاء: إلى الله العظيم من عبدك المسكين، اللهم إنك العالم بالسرائر، المحيط بمكنونات الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك واطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي، بما أن فيه عبد من عبيدك قد كفر بنعمتك وما شكرها، وألقى العواقب وما ذكرها، أطغاه حلمك وتجبر بأناتك حتى تعدى علينا بغياً وأساء إلينا عتواً وعدواناً، اللهم قَلَّ الناصرون لنا، واغتر الظالم وأنت المطلع العالم والمنصف الحاكم، بك نعتز عليه، وإليك نهرب من يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك يا رب العالمين، اللهم إنا حاكمناه إليك وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، وقد رفعت ظلامتي إلى جرمك ووثقت في كشفها بكرمك، فاحكم بيني وبينه وأنت خير الحاكمين، وأرنا منه ما نرتجيه فقد أخذته العزة بالإثم، اللهم فاسلبه عزه، ومكنّا بقدرتك من ناصيته يا أرحم الراحمين. فحملها البدوي وعلقت على باب الكعبة. فحسب ذلك اليوم فوجد أن البساسيري قتل وجيء برأسه إلى بغداد بعد سبعة أيام من التاريخ.

13 ـ أرسل الخليفة من أسره إلى السلطان طغرل بك يطلب منه معونته ومناصرته ولبّى السلطان دعوة الخليفة، واستطاع السلاجقة أن يفكوا أسر الخليفة وأن يقضوا على البساسيري والوجود الفاطمي بالعراق، فقد أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء انتشار الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية، لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية ودعاتها بالحزم والشدة.

14 ـ حققت دولة السلاجقة انتصارات على المستوى الداخلي وقضوا على البويهيين

والنفوذ الفاطمي بالعراق كما حققوا انتصارات على الجبهات الخارجية ضد الدولة البيزنطية في عهد طغرل بك السلجوقي.

15 ـ تولى ألب أرسلان (محمد) الأسد الشجاع سلطنة السلاجقة بعد وفاة عمه طغرل بك، وكان من عظماء ملوك الإسلام وأبطالهم، ملك بعد عمه طغرل بك وكان عادلاً سار في الناس سيرة حسنة، كريماً رحيماً شفوقاً على الرعية رفيقاً على الفقراء باراً بأهله وأصحابه ومماليكه كثير الدعاء بدوام ما أنعم به عليه، كثير الصدقات يتصدق في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار.

16 ـ كان ألب أرسلان كعمه طغرل بك، قائداً ماهراً مقداماً وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة وضمها إلى دولته، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له، كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركة الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد وحريصاً على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية، لقد بقي سبع سنوات يتفقد أجزاء دولته المترامية الأطراف قبل أن يقوم بأي توسع خارجي، وعندما اطمئن على استتباب الأمن وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية العبيدية، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية ونفوذ السلاجقة، فأعدَّ جيشاً كبيراً اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق.

17 ـ وضع السلطان ألب أرسلان نصب عينيه تحقيق هدفَي السلاجقة وهما: التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية، وطرد الفاطميين من بلاد الشام والحلول مكانهم، ثم استخلاص مصر منهم، وقد أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطة بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني، وهو مهاجمة الفاطميين، والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي من الناحية العسكرية والسياسية أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ أن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدِّد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً عن

قواعده الخلفية واشتدت في هذه الأثناء غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية، وتوغلوا فيها.

18 ـ استطاع ألب أرسلان أن يضم حلب ويوسع نفوذه في بلاد الشام وتوجه الأتراك بزعامة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة إلى دمشق بهدف ضمِّها، فضربوا عليها حصاراً مركزاً وأغاروا على أعمالها وقطعوا الميرة عنها ورعوا زرعها، وغادروها إلى فلسطين، فضموا الرملة وبيت المقدس بعد حصار، وطردوا منها الحامية الفاطمية وانتزعوا طبرية من أيدي الفاطميين وحاصروا يافا، فهرب حاكمها رزين الدولة الفاطمي وألغيت الدعوة للخليفة الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

19 ـ تصدى ألب أرسلان لجيوش ملك الروم رومانوس في معركة ملاذكرد وانتصر عليه في عام (462هـ)، وكان ألب أرسلان في قلة من أصحابه مقارنة لجيوش الروم، فقد كانوا قرابة خمسة عشرة ألف، وجيوش الروم ثلاثمائة ألف جندي، فاحتسب نفسه ومن معه وقال قولته المشهورة: أنا أحتسب عند الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي، ويومي خير من أمسي.

20 ـ تعتبر معركة ملاذكرد من المعارك الفاصلة في التاريخ ويسميها بعض المؤرخين باسم «الملحمة الكبرى» وتعد أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وأصبحت الأراضي البيزنطية تحت رحمة السلاجقة، وبذلك يكون السلاجقة قد تابعوا الجهاد الذي قام به المسلمون ضد الروم.

21 ـ تعتبر هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي البيزنطي فلأول مرة يقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي المسلمين، فهي لا تقل أهمية عن اليرموك ونتائجها، فإذا كانت هذه الأخيرة قررت مصير بلاد الشام، فإن الأولى قد قررت مصير آسيا الصغرى، التي نجح الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، وكانت بذلك لبنة اجتثت من بناء الدولة البيزنطية، فمهدت لسقوطها فعندما فقدت الإمبراطورية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى أصبحت القسطنطينية رأساً حرم من الجسد الذي يسنده، وبذلك غدت آسيا الصغرى برمتها مكشوفة أمام السلاجقة، وهكذا بضربة واحدة دفعت الحدود التقليدية التي طالما فصلت بين الإسلام والمسيحية 400 ميل إلى الغرب، ولأول مرة استطاع الأتراك السلاجقة أن يحرزوا مكاناً ثابتاً في تلك البقاع، ومُنذ ذلك الحين فقد الرؤساء والجنود شجاعتهم، ولم تحرز الإمبراطورية البيزنطية نصراً على الإطلاق.

22 ـ ومن نتائج ملاذكرد أن قضى السلاجقة على التحالف البيزنطي الفاطمي، واضطرت بيزنطة إلى مصالحتهم، أما أرمينية فقد زالت منها الإدارة البيزنطية بعد أن هجرها سكانها وخضعت المدن الأرمينية للسلاجقة، كما انهار نظام الدفاع البيزنطي الذي تولاه أمراء التخوم.

23 ـ تُعد معركة ملاذكرد أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري.

24 ـ أتاحت معركة ملاذكرد سنة (463هـ) للسلاجقة الانسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية التي نشبت بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها وتأسيس سلطنة عرفت في التاريخ باسم سلطنة سلاجقة الروم.

25 ـ ظهرت الدعوة النزارية الإسماعيلية التي تزعمها الحسن بن الصباح في عهد السلاجقة، واستطاع أن يسيطر على قلعة الموت عام (483هـ) في المشرق الإسلامي وجعلها مقراً له ولجماعته وحصّن نفسه وأتباعه في قلاع متناثرة في أقاليم بحر قزوين وثبّت مركزه في قلعة الموت بنواحي قزوين، واعتمد في أسلوبه على العنف والاغتيال، وبث الرعب في نفوس الناس، ويعتبر الحسن الصباح من إفرازات المذهب الشيعي الباطني الرافضي، ومن الموالين للدولة الفاطمية.

26 ـ استخدم دعاة الباطنية أساليب عديدة لخداع الجماهير، مثل التظاهر بالإسلام والانتساب إلى آل البيت والدعوة إليهم، والتقية، واستهداف المسؤولين في الدولة العباسية واستخدام الإرهاب والعنف.

27 ـ ظهر في عهد ألب أرسلان وملكشاه الوزير نظام الملك الذي كان من عباقرة عصره وقدم للأمة مشروعاً سنياً متكاملاً للإحياء السني والتصدي للغزو الباطني من خلال المدارس النظامية، وكان الوزير نظام الملك رجل دولة من الطراز الأول في عهده، فضبط أمور الدولة السلجوقية الاقتصادية والإدارية ومؤسساتها.

28 ـ كان نظام الملك عالماً ديّناً وجواداً عادلاً حليماً، كثير الصفح عن المذنبين، طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقرّاء والفقهاء، وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، كان من حفظة القرآن، ختمه وله إحدى عشرة سنة، واشتغل بمذهب الشافعي، وكان لا يجلس إلا على وضوء، وما توضأ إلا تنفل، وإذا سمع المؤذن أمسك عن كل ما هو فيه وتجنبه، فإذا فرغ لا يبدأ بشيء قبل الصلاة، وكان إذا غفل المؤذن ودخل الوقت أمره

بالأذان، وهذا قمة حال المنقطعين للعبادة في حفظ الأوقات ولزوم الصلوات، وكانت له صلة بالله عظيمة، وكان يواظب على صيام الاثنين والخميس، وله الأوقاف الدّارة والصدقات البارّة.

29 ـ يعتبر فقه نظام الملك في الاقتراب من السلاجقة والوقوف معهم والترقي في مناصب الدولة من فقه النهوض، حيث استطاع من خلال الدولة السلجوقية الوليدة أن يخدم الإسلام والمشروع السني. فقد تولى ولأكثر من عشرين سنة مناصب قيادية في عهد ألب أرسلان وملكشاه. وأصبح الوزير الكبير الذي تولى القيادة الإدارية وأسندت القيادة العسكرية إلى السلاطين السلاجقة، وكانت من حكمة السلاجقة إسناد الأمور الإدارية إلى أهلها، ويعتبر نظام الملك نموذجاً للعالم الذي استطاع أن يحقق الكثير لأهل السنة، ونستفيد من سيرته أهمية دخول العلماء في معمعة الصراع السياسي، وتدافع المشاريع المتناقضة، وتوظيف العلماء والحكام والدعاة لنصرة الإسلام وكسر هيبة الشيعة الباطنية.

30 ـ استخدم السلاجقة القوة العسكرية للقضاء على شوكة المذهب الباطني في قلاعهم ويعتبر السلطان محمد بن ملكشاه من أبرز السلاطين الذين استخدموا القوة لإضعاف شوكتهم ونجح إلى حد كبير.

31 ـ يعتبر نظام الملك عبقرياً في الفكر الإستراتيجي للدول، وقد رأى أن العقائد لا يمكن القضاء عليها بالقوة العسكرية ولا القرار السياسي، وكذلك الأفكار والثقافات، وقد لاحظ اهتمام الدولة الفاطمية بإعداد الدعاة من خلال المعاهد والمناهج، والإنفاق وإرسال الدعاة لنشر الفكر الشيعي الرافضي الباطني، ولا يبدأ الداعي بالتبشير للمذهب الفاطمي إلا بعد خضوعه لبرامج تعليمية تعد بعناية خاصة في عاصمة الخلافة الفاطمية لإعداد الدعاة وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثره في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الشرق الإسلامي نتيجة لهذه الجهود المنظمة المستمرة في نشر هذه الدعوة، لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومعنى ذلك أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من الوحي الإلٰهي، ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نسبت إليه، لأنه جد في إنشائها وخطط لها وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعي أن تنسب إليه من دون السلاجقة.

32 ـ لقد كان نظام الملك شافعياً سنياً حريصاً على الإسلام الصحيح، وقد عاصرت نظام الملك آراء وأفكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي، كالمعتزلة والباطنية

وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل، وكان نظام الملك يرمي بدرجة كبيرة إلى توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة الدولة وتبعث على الاستقرار والسكينة والأمن، لذا كان هَمُّ نظام الملك التأكيد على مواضع الدراسة وعلى إفهام الناس عامة ومنتسبي النظامية خاصة أصول الدين الصحيحة، ولما كان نظام الملك شافعياً، كان يرى أن يدرس الفقه والأصول المستمدة من أفكار وآراء الشافعية، وكان من شروط النظامية أن يكون المدرس من الشافعية أصلاً وفرعاً.

33 ـ إن من الأخطار العظيمة التي تواجه الأمة اليوم المد الباطني في أنحاء المعمورة، وقد استهدف عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها وتاريخها وعظمائها، علماً أن الكثير من رموز الأمة الإسلامية في عالم السياسة والفكر والعلم والتاريخ والثقافة في حالة استرخاء وفتور، والبراكين المدمرة تجري من تحتهم. أفلا نستلهم الدرس ونستخرج العبرة، ونعمل بالسنن والقوانين الإلٰهية في الدعوة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به محمد ﷺ، فيكون من حكامنا مثل ألب أرسلان في غيرته، ومن وزرائنا كنظام الملك في همّته، ومن علمائنا كالجويني والغزالي وابن عقيل والبغوي وغيرهم في دفاعهم عن الكتاب والسنة والصحابة وقضايا الفكر، ونوظف الوسائل الحديثة في بث عقائد الإسلام الصحيحة وتاريخه الموثق وفكره البديع من خلال الفضائيات والإنترنت والمطابع والجرائد والمجلات والكتب والندوات والمؤتمرات والمناهج والمدارس والجامعات ووسائل الدعوة بأنواعها، نريد بذلك وجه الله وأجره ومثوبته ومرافقة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

34 ـ إن من أبرز الأهداف التي عملت المدارس النظامية على تحقيقها: تحقيق العبودية والأداء الأمثل للتكاليف الشرعية المختلفة، وتوفير جو علمي يساعد الأساتذة والمعلمين على أن يفكروا ويؤلفوا ويبتكروا، فيضيفوا كل جديد إلى العلوم المختلفة بصفة مستمرة، والعمل على توسيع الأفق الفكري لدى الطلاب، فالمدرسة لا تكتفي بتنمية الخبرات، بل تعمل على أن تكسب الطالب الخبرات الجديدة الناتجة عن تجارب الأمم السابقة والمعاصرة، وهذا ما يسمى عند علماء التربية الإسلامية: نقل التراث؛ وهذا يكون من خلال اطّلاع على التراث الحضاري والفكري لدى الأمة مما يؤدي إلى توسيع الأفق لديهم نتيجة لاطلاعهم على تلك الخبرات ونشر الفكر السني ليواجه تحديات الفكر الشيعي ويعمل على تقليص نفوذه، وإيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني ونشره في الأقاليم المختلفة، وإيجاد طائفة من الموظفين السنيين ليشاركوا في تسيير مؤسسات الدولة؟ وإدارة دواوينها وخاصة في مجال القضاء والإدارة.

35 ـ أبدى نظام الملك اهتماماً كبيراً بوسائل تحقيق أهداف المدارس النظامية، فاختار الممتازين، وأظهر ذكاءً ملحوظاً في تحديد المنهج العلمي الذي تسير عليه، ثم بذل أقصى

جهوده لتوفير الإمكانات المادية التي تعين هذه المدارس على العطاء الفكري السخي.

36 ـ فمن ناحية الأماكن التي أنشئت النظاميات فيها يقول السبكي عن نظام الملك: إنه بنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، فهذه أمهات المدارس النظامية التي أنشئت في المشرق الإسلامي، ويتضح من توزيعها الجغرافي أن معظمها أنشىء إما في بعض المدن التي تحتل مركز القيادة والتوجيه الفكري، كبغداد وأصفهان حيث كانت الأولى: عاصمة للخلافة العباسية السنية، وليتمركز فيها عدد كبير من المفكرين السنيين أيضاً، والثانية: كانت عاصمة السلطنة السلجوقية في عهد ألب أرسلان وملكشاه (عصر نظام الملك)، وإما في بعض المناطق التي كانت مركزاً لتجمُّع شيعي في تلك الفترة كالبصرة ونيسابور وطبرستان وخوزستان والجزيرة الفراتية، فهذا التوزيع الجغرافي يشير بوضوح إلى أن وضع المدارس النظامية في الأماكن السابقة لم يأت اعتباطاً، وإنما كان أمراً مقصوداً ومدروساً حتى تقوم بدورها في محاربة الفكر الشيعي في هذه المناطق وتفتح الطريق أمام غلبة المذهب السني.

37 ـ وإلى جانب الاختيار المدروس لأماكن المدارس النظامية، فإنه تم اختيار أساتذتها بعناية تامة بحيث كانوا أعلام عصرهم في علوم الشريعة، ويشير العماد الأصفهاني إلى دقة نظام الملك في هذه الناحية، فيقول عنه: وكان بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، وكان نافذاً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم، فمن تفرَّس فيه صلاحية الولاية ولَّاه ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريسه وربما سيَّره إلى إقليم خال من العلم ليحلّي به عاطله، ويحيي به حقه ويميت به باطله. وفي كثير من الأحيان كان نظام الملك لا يعيِّن الواحد منهم إلا بعد أن يستمع إليه ويثق في كفاءته حدث ذلك مع الإمام الغزالي الذي كان يتفقه على إمام الحرمين في نظامية نيسابور، فلما مات أستاذه في عام 478هـ قصد مجلس نظام الملك، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله وتولاه الصاحب نظام الملك بالتعظيم والتبجيل وولاه تدريس مدرسته ببغداد.

38 ـ حدد نظام الملك منهج الدراسة واعتمد على تراث الشافعي وأبو الحسن الأشعري، ومما لا شك فيه بأن تراث الإمام الشافعي في الفقه والأصول والعقائد وسيرته الذاتية كان لها أثر على تلك المدارس، وليس في الفقه فقط المتعلق بالأحكام الشرعية العملية وقد مرّ أبو الحسن الأشعري في مجال الاعتقاد بأطوار، واستقر في آخر حياته على مذهب السلف.

39 ـ كان اهتمام المدارس النظامية قد انصرف إلى التركيز على مادتين أساسيتين هما: الفقه على المذهب الشافعي، وأصول العقيدة على مذهب الأشعري، وكانت تدرس بعض المواد في الحديث والنحو وعلمَي اللغة والأدب.

40 ـ لم يبخل نظام الملك بتوفير الإمكانات المادية التي تعين هذه المدارس على النهوض برسالتها، ولذلك أنفق عليها بسخاء وخصص لها الأوقاف الواسعة، واهتم بتوفير السكن للطلاب داخل هذه المدارس.

41 ـ كان اختيار الأساتذة للتعليم في النظاميات يجري وفق تقاليد تشبه أرقى الجامعات الحديثة، فقد كان النظام يختبر معلوماتهم خلال المناظرات التي كان يعقدها في المناسبات المختلفة، ويلقي عليهم أسئلة كان قد فكّر وأعدّها، فإذا لمس في أحدهم علماً وذكاء وجّهه إلى المسلك الذي يريده.

42 ـ وفق الله النظام توفيقاً قلّ نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني، فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً، وعلى الخصوص نظامية بغداد التي طاولت الزمن زهاء أربعة قرون وأدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي، وزودت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن، وبخاصة في دوائر القضاء والحسبة والاستفتاء، وهم أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الدولة الفاطمية العبيدية في مصر، وبلغوا الشمال الإفريقي ودعموا الوجود السني بها، لقد تخرج من هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك، فوجدنا كثيراً من الذين تخرجوا فيها يرحلون إلى أقاليم أخرى، ليقوموا بتدريس الإسلام ونشروا عقائده الصحيحة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا، أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية العامة في دواوين الدولة.

43 ـ كان اختيار تراث الإمام الشافعي في مناهج المدارس النظامية له مبرراته، حيث أن الشافعي يعتبر من أقرب الأئمة الأربعة لبيت رسول الله، فهو قرشي ولربما كان من أسباب اختيار نظام الملك للمذهب الشافعي قربه من النسب النبوي، حيث أن من أهداف المدارس النظامية تقويض المذهب الشيعي الباطني الذي تبنته الدولة الفاطمية، والتي يزعم مؤسسوها بأنهم من أهل البيت، وأنهم أحق بالخلافة من غيرهم. كما أن لمكانة الإمام الشافعي في المذاهب السنية سبباً في اختيار تراثه وفقهه حيث أن المالكية يفتخرون به لكونه من تلاميذ الإمام مالك، والإمام أحمد يجله ويحترمه ويعتبره من شيوخه، كما أن الشافعي تتلمذ على

يدي محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، فهو واسطة العقد بين المذاهب السنية الأربعة الشهيرة، كما أن نزعته النقلية وانتصاره للدليل وحدّة ذكائه واستخدامه للعقل في إقامة الحجة على الخصوم، وما تميزت به كتابته في أصول الفقه وبيان الخاص والعام والمطلق والمقيد والمجمل والمفصل... إلخ ربما كانت من أسباب اعتماد تراثه في المدارس النظامية.

44 ـ ساهم الإمام أبو الحسن الأشعري بتراثه وأفكاره التي وضعها في كتبه وبواسطة تلاميذه في نشاط المدارس النظامية التي اعتمدت ما وصل إليه من بحوث في عقائد أهل السنة والردود على المعتزلة والمخالفين لأصول أهل السنة والجماعة، وكان الأشعري رحمه الله من العلماء الذين حملوا لواء العلم في كل ميادينه وصنوفه، ويعد من العلماء الذين جمعوا بين شتّى المعارف والعلوم والفنون، وكانت له تصانيف في الرد على الملاحدة، وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة. قال عنه القاضي عياض: وصنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط والميزان والشفاعة والحوض وفتنة القبر التي نفت المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل العقلية ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة.

45 ـ تكاد أن تجمع كل المصادر التي ترجمت للأشعري على أنه عاش طوره الأول في ظل المعتزلة والاعتزال، وبعد خروجه على المعتزلة سلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري، وبدأ يرد على المعتزلة معتمداً على القوانين والقضايا التي قالها عبد الله بن كلاب وهي طريقة لم يسبقه إليها غيره ووافقه الأشعري، وردّ من خلالها على الجهمية والمعتزلة ومكث الأشعري زمناً طويلاً على طريقة ابن كلاب يرد على المعتزلة، وغيرهم من خلال ما اعتقده في هذه الطريقة، ولكنّ الله تعالى منَّ عليه بالحق فنوَّر بصيرته، وذلك بالرجوع التام إلى مذهب أهل السنة والجماعة والتزام طريقتهم واتباع منهجهم، وقد صرّح بذلك في قوله: وقولنا الذي نقول به، وديانتنا التي نَدين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا ﷺ، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولما خالف قوله مخالفون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق ورفع به الضلال وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مُقدَّم، وخليل معظم مفخَّم.

46 ـ من الإنصاف العلمي القول بأن المذهب الأشعري لم يستقر على ما مات عليه الإمام أبو الحسن الأشعري، بل حدث تطور في المذهب الأشعري بحيث أن أقوال الأشاعرة تعددت واختلفت في مسائل عديدة، ومن أشهر الذين اجتهدوا وخالفوا أبا الحسن الأشعري في بعض المسائل: أبي بكر الباقلاني وابن فورك وعبد القاهر البغدادي، والبيهقي، والقشيري، والجويني، والغزالي، وغيرهم على درجات متفاوتة بينهم في ذلك.

47 ـ كان للأشاعرة جهود مشكورة في الدفاع عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد أشار إلى هذه الجهود ابن تيمية في كتبه، حيث وصفهم بأنهم من أهل السنة في مقابل المعتزلة والرافضة، وقد دافع ابن تيمية عن شيوخ الأشاعرة كأبي الحسن الأشعري، والباقلاني، والغزالي مع نقده العلمي المبني على الإنصاف لبعضهم في بعض المسائل.

48 ـ من أشهر علماء المدارس النظامية أبو إسحاق الشيرازي والإمام الجويني، والغزالي.

49 ـ إذا كانت إحدى ثمرات المدارس النظامية أنها مهدت الطريق لسيادة المذهب السني، فإنه كان من أبرز آثارها أيضاً تقلّص نفوذ الفكر الشيعي، وخاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي ـ العالم السني ـ على قمة المفكرين الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة، وخاصة الباطنية الإسماعيلية، فقد ألف «فضائح الباطنية». وغيرها من الكتب؛ على أن الشيء المثير للإعجاب هو شجاعة الغزالي في حملته على الإسماعيلية الباطنية والتي جاءت في وقت انتشر فيه دعاتهم في فارس، وتزايد خطرهم حتى أقاموا الحصون والقلاع وهددوا أمن الناس وسلامتهم وقاموا بالاغتيالات على نطاق واسع فشملت كثيراً من الساسة والمفكرين وعلى رأسهم نظام الملك نفسه.

50 ـ كان لكتابات الغزالي أثر قوي في مجال الرد على الباطنية، فقد استطاع بفكره القوي وبما نال من شهرة أن يكون ذا تأثير قوي في مقاومة الباطنية، وأن يناصر المذهب السني، فقد استطاع توظيف العلوم الشرعية والعلوم العقلية من الفلسفة والمنطق والكلام في نسف جذور المذهب الباطني، وقال فيهم كلمته التي سارت مسير الأمثال: ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض، فهم يتسترون بالتشيع وما هم من الشيعة في شيء، وإنما هو قناع يخفون وراءه كيدهم لأهل الإسلام.

51 ـ يعتبر الغزالي المنظّر الكبير للدولة السلجوقية، ولم يكن يعيش بعيداً عن

الأحداث وصراعات السلاجقة مع خصومهم الفاطميين الإسماعيليين، فقد كان قبل عزلته وتركه للنظامية مُنَظِّر الدولة الكبير، وانتصر انتصاراً عظيماً لأهل السنة ولعقيدة الدولة السلجوقية السنية واستطاع أن يوجه ضربات قوية لعقيدة الدولة الفاطمية.

52 ـ ساهم الغزالي بتعاليمه وكتاباته وتوجيهاته في مجال الإصلاح وشخَّص أمراض المجتمع من فساد رسالة العلماء، ووجود السلاطين الظَلَمة، وانتشار البدع والمنكرات، ولم يكتف بتشخيص الأدواء بل ساهم في علاج الأمراض وتحدث عن ميادين الإصلاح والتي من أهمها:

ـ العمل على إيجاد جيل جديد من العلماء والمربين.

ـ وضع منهاج جديد للتربية.

ـ بناء العقيدة الإسلامية.

ـ ميدان دراسة العلوم الفقهية.

ـ ميدان الحكمة والإعداد الوظيفي.

ـ إحياء رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ نقد السلاطين الظلمة.

ـ محاربة المادية الجارفة والسلبية الدينية وتصحيح التصور السائد عن الدنيا والآخرة.

ـ الدعوة للعدالة الاجتماعية.

ـ محاربة التيارات الفكرية المنحرفة.

ـ الإصلاح في ميدان الفكر، كبيانه بأنه لا تعارض بين العقل والشرع، ورفض التقليد، والدعوة إلى الكتاب والسنة، والالتزام بمنهج السلف.

53 ـ يعتبر الإمام البغوي من العلماء الذين ساهموا في إحياء المشروع السني ومحاربة المبتدعة من خلال التدريس والتعليم والتأليف، وكانت لجهوده الأثر الكبير في تعلُّق الناس بكتاب الله وفهمه وتفسيره وهدى سنة رسول الله ﷺ، ومن أشهر كتبه: «معالم التنزيل في التفسير»، و«شرح السنة للحافظ البغوي»، و«مصابيح السنة». وقد وضع الله لكتبه القبول، وبارك الله له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام لحسن قصده، وصدق نيته، وتنافس

العلماء في تحصيلها، وقد ساهمت جهوده العلمية والتربوية في بلورة المشروع السني الكبير الذي توّج بانتصار الإسلام، وتقليص النفوذ الباطني ودحره، وتحرير البلاد من أيدي الصليبيين فيما بعد، ولم يكن الإمام البغوي من ضمن مشائخ المدارس النظامية ومع هذا ساهم في بلورة المشروع السني، وذلك بتنشيطه الدعوة الإسلامية في عهده بالوعظ والإرشاد والتعليم والتربية والتصنيف.

54 ـ لابد لأي مشروع سياسي أو عسكري أو حضاري يراد له النجاح في أوساط المسلمين من أن يهتم بالبعد العقدي والفكري، وأن تكون القيادة السياسية مبدعة في التفكير، وفي تحديد الأهداف، صادقة في الانتماء لعقيدة الأمة وتراثها ودينها وتاريخها، وقادرة على توظيف الطاقات العلمية وتحويلها من أعمال فردية إلى أعمال جماعية، عاملة على وحدة الصف ومحاربة الانشقاق، كما أن قدرة العلماء على النزول بأفكارهم وعلمهم للجمهور الإسلامي العريض من عوامل نهوض الحضارة.

55 ـ في الوقت الذي أحكم فيه نظام الملك مشروعه السني الكبير، كانت أوروبا بقيادة أوربان الثاني قد أعدت مشروعها الصليبي لغزو المشرق الإسلامي ومغربه، وقد ساهمت عوامل وأسباب كثيرة في بروزه لحيز الوجود منها: الدافع الديني، والسياسي والاجتماعي، والاقتصادي، وتبدل ميزان القوى في حوض البحر المتوسط، واستنجاد إمبراطور بيزنطة بالبابا أوربان الثاني.

56 ـ استطاع أوربان الثاني أن يوحّد شعوب الغرب في مشروع عام على الرغم من أن لغات هذه الشعوب وعاداتها المحلية واهتمامات أبنائها كانت تختلف اختلافاً بيناً، وقد تمثل نجاح أوربان الثاني في أن خطبته التي دعا فيها إلى الحملة الصليبية كانت بمثابة بؤرة تجمعت فيها كل الأفكار التي مثلت الإطار الأيديولوجي لحركة المجتمع الغربي آنذاك على الرغم من الاختلافات اللغوية والعادات والتقاليد، وهكذا لم تكن استجابة جماهير المستمعين إلى البابا في كليرمون مجرد رد فعل لبلاغة كلماته، وإنما كانت هذه الاستجابة تعبيراً عن فرحة أولئك المستمعين بالمشروع الذي مس أوتار الآمال التي كانت تداعب آمالهم تقريباً، وجاءت الحرب المقدسة ستاراً مدهشاً يمكن للجميع أن يتحركوا من خلاله؛ لضمان تحقيق أحلامهم الدنيوية وخلاصهم الأخروي بالنسبة لهم.

57 ـ نجحت الحملة الصليبية إلى حد كبير في تثبيت أربع إمارات لاتينية: **الأولى**: في أعالي الفرات وهي الرها. **والثانية**: في أعالي الشام وهي أنطاكية. **والثالثة**: على الساحل الشامي وهي طرابلس. **أما الرابعة**: فكانت قلب فلسطين وهي بيت المقدس، إضافة إلى أربع

بارونيات كبرى وهي: صيدا ويافا وعسقلان والجليل، واثني عشر إقطاعاً تسلمها أصحابها من الملك الصليبي مقابل تقديم فروض الولاء والطاعة له وتتمثل في: أرسوف، حبرون، الداروم، قيسرية، نابلس، بيسان، حيفا، تبنين، بانياس، كيفا، اللد، وبيروت.

58 ـ إن هذا النجاح الذي حققته الحملة الصليبية يرجع إلى عدة عوامل وأسباب ساهمت فيه منها: انعدام الوحدة السياسية في العالم الإسلامي، الصراع على السلطنة داخل البيت السلجوقي، وجود الدولة الفاطمية الرافضية، سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، خيانة بعض النصارى ممن كان يعيش في بلاد الشام، موقف بعض الإمارات العربية من الغزو الصليبي، دور الباطنية الإسماعيلية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين، فقد تعاونوا مع الصليبيين، واغتالوا القادة المسلمين، وأشاعوا الرعب والخوف في المجتمع الإسلامي، انتشار الفكر الشيعي الرافضي والباطني، وتدهور الحياة الاقتصادية قبل الغزو الصليبي، ضعف الدولة البيزنطية وتمرس فرسان الفرنج على الحرب، والإمدادات الأوروبية المستمرة لهم.

59 ـ أيقظت صدمة سقوط القدس غفوة العديد من الفقهاء والقضاة. وأدركوا حقيقة ذلك الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم في مدن تلك البلاد، فضلاً عن الأرض والعقيدة الإسلامية، ولذلك بادر فقهاء وقضاة الشام من دمشق وحلب وطرابلس للاستنجاد بالسلطة المركزية ببغداد والإمارات المحلية، باعتبارها تملك القوة القادرة على مواجهة العدو.

60 ـ قام بعض الشعراء بدور كبير في تحريض المسلمين، ووصف أحوال الأمة وطبيعة الغزو الصليبي الذي احتل البلاد وهتك الأعراض، ومن أشهر هؤلاء ما قاله القاضي الهروي وقيل لأبي المظفر الأبيوردي القصيدة التي أولها:

مزجنا دماً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضه للمراجم

وشر سلاح المرء دمعٌ يفيضه ... إذا الحرب شُبَّت نارها بالصوارم

وقال شاعر آخر:

أحلَّ الكُفر بالإسلام ضيماً ... يطول عليه للدين النحيب

فحقٌ ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب

وكم من مسلم أمسى سليباً ... ومسلمة لها حرم سليب

وكم من مسجد جعلوه ديراً ... على محرابه نُصب الصليب

دم الخنزير فيه لهم خلوقٌ ... وتحريف المصاحف فيه طيب

أمور لو تأملهن طفل ... لطفل في عوارضه المشيب
أتُسْبَى المسلمات بكل ثغر؟ ... وعيش المسلمين إذن يطيب
أما لله والإسلام حق؟ ... يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله وَيْحكم أجيبوا

وكان لجهود العلماء والفقهاء والقضاة والأدباء والشعراء أثر في تقوية حركة المقاومة المسلحة والتي قادها أمر السلاجقة.

61 ـ من الحقائق المسلَّم بها في تاريخ الحركة الصليبية، أن حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين انبعثت لأول مرة في بلاد المشرق الإسلامي من منطقة الجزيرة، وهي تقع بين دجلة والفرات مجاورة لبلاد الشام وتشتمل على ديار مضر، وديار بكر، وسميت الجزيرة لوقوعها بين نهري دجلة والفرات، وتمتاز منطقة الجزيرة بأنها صحية الهواء جيدة الريع والنماء واسعة الخيرات، بها مدن جليلة وحصون منيعة وقلاع كثيرة. ومن أشهر قادة السلاجقة الذين جاهدوا الصليبيين، قوام الدولة كربوقا صاحب الموصل، وجكرمش صاحب الموصل، وسقمان بن أرتق صاحب ماردين وديار بكر، وقلج أرسلان في آسيا الصغرى.

62 ـ ويحتل شرف الدولة مودود بن التونتكين مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين، وقد أسهمت عوامل عدة من أهمها: الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة وقدرته على تزعم حركة الجهاد، وإيجاد نوع من التنسيق ربما لأول مّرة بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، وقد استطاع وضع الصليبيين في موضع الدفاع وتحقيقه عدداً من الانتصارات جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين، ثم جاء مقتله السريع إثر ذلك في جامع دمشق على أيدي الشيعة الباطنية، الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، وقد حزن عليه المسلمون حزناً عميقاً، ويعتبر في تاريخ الأمة من أبطال الحروب الصليبية، وكانت فترة إمارته للموصل من عام (501هـ ـ507هـ) وكان عند مقتله صائماً وأراد من حوله تفطيره إلا أنه قال: لا لقيت الله إلا صائماً، ومات من يومه رحمه الله.

63 ـ تعتبر حملات مودود نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي خلال تلك المرحلة المبكرة، فقد صارت فكرة الإسلام حقيقة واقعة، ووجدت فارسها المخلص الذي حمل لواءها ما يقرب من نصف المدة التي تولى فيها إمارة الموصل، ويمكن اعتبار حملات

مودود مقدمة لحملات عماد الدين زنكي مع عدم إغفال الفارق الزمني في صورة الثلاثة عقود الفاصلة بين إنجاز كل منهما، والتي أدت إلى سقوط إمارة الرها الصليبية عام 539هـ حيث أن مودوداً وجه حملاته الأولى إلى الرها وتل باشر، وعمل على إرهاق أهلها، وتعتبر جهوده المقدمة الأولى لجهود زنكي ضدها على اعتبار أن قافلة الجهاد متصلة قائداً من بعد قائد.

64 ـ من القادة السلاجقة المجاهدين نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، الذي استطاع أن يكبد الصليبيين خسائر فادحة في الأرواح في معركة ساحة الدم في عام 513هـ وأسر منهم الكثير، وقد صاحب هذا النصر قيام جبهة إسلامية متحدة من الأمراء المسلمين في الشام والجزيرة إضافة إلى أنها جعلت حلب في منأى عن أخطار الصليبيين خصوصاً بعد استيلاء نجم الدين إيلغازي على حصن قريب من الأثارب.

65 ـ تولي راية الجهاد بلك بن بهرام بن أرتق بعد وفاة عمه نجم الدين إيلغازي صاحب ماردين، وكان خصماً عنيداً للصليبيين، وكان يتطلع للقضاء لا في منطقة الجزيرة فقط، بل في بلاد الشام أيضاً، قد استهل أعماله العسكرية أثناء مرض عمه نجم الدين إيلغازي في رجب سنة (516هـ/ 1122م) بحصار الرها، ودخل في معمعة الجهاد ضد الصليبيين، ووقع في أسره بعض ملوك الصليبيين، كجوسلين وابن خالته جاليران صاحب البيرة سنة (516هـ) ولم يمهل الأجل بلك بن بهرام فبينما كان يحاصر الفرنجة عند قلعة منبج وافته المنية بسهم طائش أصابه فقتله لا يدري من رماه، وفقد المسلمون بمقتله رجلاً أثبتت أعماله، إنه زعيم وقائد حاول جمع كلمة المسلمين في الشام والجزيرة ضد الصليبيين وكان استشهاده 518هـ.

66 ـ ومن قادة الجهاد آق سنقر البرسقي أمير الموصل السلجوقي الذي استطاع أن يفك الحصار عن حلب من قبل الصليبيين في عام (518هـ)، وقد تمّ قتل قسيم الدولة البرسقي صاحب الموصل في سنة (520هـ) بمدينة الموصل، قتلته الباطنية يوم جمعة بالجامع، وكان يصلي مع العامة، فوثب عليه بضعة عشر نفساً وجرحوه بالسكاكين، فجرح هو بيده منهم ثلاثة وقتل رحمه الله، وكان تركياً خيّراً يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خيرة الولاة يحافظ على الصلوات في أوقاتها ويصلي من الليل متهجداً.

67 ـ أثبت الباطنية عداءهم الكامل لقادة الجهاد الإسلامي في ذلك العصر، وكأن خناجرهم المسمومة كانت تشق للصليبيين طريقاً نحو تثبيت أقدامهم في بلاد الشام والجزيرة على حساب المسلمين.

68 ـ ومن فضل الله على هذه الأمة أن قائمة المجاهدين عامرة ومتأهبة للقتال في سبيل الله ففي ربيع الآخر من عام (521هـ/1127م) عهد السلطان محمود السلجوقي إمارة الموصل إلى عماد الدين زنكي، وبظهوره على مسرح الأحداث بدأت صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين.

69 ـ وكان من العوامل الرئيسية التي ساعدت على ظهور عماد الدين زنكي، الدور الذي لعبه أبوه آق سنقر في شؤون الدولة السلجوقية السياسية والعسكرية والإدارية.

70 ـ كان للقاضي بهاء الدين الشهرزوري دور كبير في تنصيب عماد الدين زنكي في الموصل لكونه قائد عسكري قوي، ولذلك رشح عماد الدين لقيادة القوى الإسلامية التي كان لها الأثر في التصدي للغزو الصليبي، وكان لهذا الاختيار أثره في إرساء حجر الجهاد في المشرق الإسلامي حيث تمكن من خلاله غرس نواة الوحدة مع حلب عندما أخذها ورحب به أهلها عام (521هـ). وكان لموقع حلب الإستراتيجي بين بلاد الشام ومناطق أعالي الفرات من الأسباب التي جعلتها في قلب الأحداث آنذاك، وقد أدرك عماد الدين أهمية ذلك الموقع بالنسبة لبلاد الشام والموصل والجزيرة الفراتية، واعترافاً من عماد الدين بالجهد الذي قام به بهاء الدين الشهرزوري في تعيينه ورداً لجميله عينه قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، وكان يثق فيه وفي آرائه، لذلك كانت منزلته عظيمة عنده، وكان لا يصدر إلا عن رأيه.

71 ـ اتّصف عماد الدين بصفات القادة العسكريين والسياسيين والتي من أهمها: الشجاعة، والهيبة، والدهاء، والمكر، والحيلة، والذكاء، واليقظة والحذر، والقدرة على اختيار الأكفّاء من الرجال، وتقدير الرجال، وقلّة التلوُّن والتنقل، والغيرة على محارم المسلمين، والعدل.

72 ـ اهتم عماد الدين زنكي بضبط إماراته، وكانت النظم التي سار عليها تعتبر امتداداً طبيعياً للسلاجقة في غالب مؤسسات الدولة العسكرية، والإدارية، والمالية والقضائية.

73 ـ عمل عماد الدين على توحيد الجبهة الإسلامية، وذلك بضم المدن التي حوله والقريبة منه بسبب ضعفها وتفرقها وضيق مساحتها، ثم توسع في مناطق الأكراد وضمها لدولته كالأماكن التي كان فيها الأكراد الحميدية والهكارية والمهرانية، والبشنوية، واستطاع عماد الدين أن يضع يده على معظم ممتلكاتها وقواعدها المهمة ويخضعها لسيطرته في أقل

من عقد ونصف ـ بفضل الله ـ ثم قدرته العسكرية وخططه السياسية البارعة التي أتاحت له التغلب على مصاعب القتال في المناطق الجبلية الوعرة.

74 ـ استمر عماد الدين في توسيع نفوذ دولته ولم يقم في بداية حكمه بأي نشاط عسكري ضد الصليبيين قبل أن يثبت أقدامه في إماراته الجديدة، ويُعزِّز إمكاناتها الاقتصادية والعسكرية ويوحِّد ما أمكنه من الإمارة الصغيرة المتناثرة حولها لتأمين خطوط تحركاته في الجزيرة وبلاد الشام إلى الحد الذي يمكِّنه من التصدي لهم، وبعد أن أنهى معظم مشاكله وحروبه ضد أمراء ديار بكر، وانتهت هدنته مع جوسلين أمير الرها، قرر البدء والهجوم على المواقع الصليبية، وبدأ في فتح الحصون وضمها لدولته.

75 ـ ظهرت قدرات عماد الدين ودولته في الدفاع عن حلب أمام الحملة الصليبية البيزنطية، فقد قاومت حلب وأخذ أهاليها يقومون بهجمات سريعة على معسكرات الأعداء أدخلت الرعب وعدم الاستقرار في نفوسهم فآثروا الانسحاب.

76 ـ وعندما توجهت جيوش الصليبيين والإمبراطور البيزنطي إلى شيزر، كان عماد الدين يقود حركة المقاومة للدفاع عن المدينة واستخدم أساليب الحرب النفسية ضد الجيوش الغازية. وأرسل في طلب النجدة من كل المناطق للتصدي للغزاة، وشرع في رمي الأعداء بسهام الحيلة والدهاء وإيجاد فتنة بينهم، فقد اتبع عماد الدين خطة عسكرية، فقد راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند المدينة يقول لهم: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر، وإن ظفرنا بكم أرحت المسلمين من شرِّكم، وكادت الخطة تنجح حين أشار الصليبيون على الإمبراطور بالنزول إليه وقتاله، ولكن يوحنا خشي مغبّة ذلك وأجاب: أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدة المسلمين ما لا حدّ عليه. وفي نفس الوقت كان يراسل صليبيي الشام يحذِّرهم من إمبراطور الروم ويعلمهم أنه إذا استولى على حصن واحد من الشام أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، ويرسل من جهة أخرى إلى الإمبراطور يخوّفه من أن الصليبيين في بلاد الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه فاستنفر كل طرف من الطرف الآخر وسادت الشكوك بينهما.

77 ـ تعتبر من أهم أعمال عماد الدين زنكي فتح الرها في سنة (539هـ) وكان لهذا النصر نتائج هامة على العالمين الإسلامي والنصراني ومن أهم تلك النتائج:

ـ تأكد للمسلمين أن حركة الجهاد الإسلامي وصلت سن الرشد وتجاوزت المراهقة

السياسية والعسكرية دون أن يكون في ذلك إجحاف بإنجازات القادة السابقين على زنكي لاسيما مودود، وإذا كانت أولى الإمارات الصليبية تهاوت تحت أيديهم، فإنها البداية واليوم إسقاط الرها وغداً إسقاط باقي الكيان الغازي الدخيل، وهذا ما حدث فعلاً، ومن الآن فصاعداً لن تعود عقارب الساعة إلى الوراء، بل التقدم إلى الأمام بكل ثقة وإباء وإنجاز.

ـ تأكد منطق التاريخ من أن مثل تلك الكيانات الصليبية الغير شرعية لن تستمر على الأرض، لأن أبناء المنطقة أصحاب الهوية الدينية الموحدة لن يقبلوا بذلك الوضع السياسي والعسكري الدخيل وبالتالي عاد التجانس لمنطقة شمال العراق ولم تعد الرها تمثل دور الفصل والكيان الصليبي الحاجز المانع من الاتصال بين كل من سلاجقة آسيا الصغرى، وسلاجقة العراق، وكذلك بلاد فارس.

ـ أدى إسقاط الرها بمثل هذه الصورة إلى تحرك الحلف الدفاعي الإستراتيجي القائم بين الكيان الصليبي في الشرق، والرحم الأم في الغرب الأوروبي.

78 ـ بعد فتح الرها ارتفع شأن عماد الدين زنكي إلى حد بعيد، فبعد أن كان مجرد حاكم محلي محدود النطاق والفعالية تردد اسمه سريعاً في الحوليات اللاتينية والسريانية ليعكس أنه أحدث تأثيراً كبيراً في مجرى أحداث الشرق اللاتيني، وبصورة غير مسبوقة، أما بالنسبة للمسلمين فقد احتل مكانة بارزة، فقد عزّز فتح الرها مركز عماد الدين تجاه السلطان السلجوقي مسعود والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الذي أنعم عليه بعدد كبير من الألقاب التي حازها عن جدارة، كالأمير المظفر، ركن الإسلام، عمدة السلاطين، زعيم جيوش المسلمين ملك الأمراء، أمير العراقين والشام، وجعل هذا النصر عماد الدين زنكي المدافع الأول عن الدين، والمجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله، ودارت في المحافل الإسلامية، أحاديث تمحورت حول شخصيته، تصور لنا مدى التقدير والإعجاب اللذين نالهما إثر تحقيقه هذا النصر الكبير.

79 ـ مدح الشعراء عماد الدين زنكي في فتح الرها، والملفت للنظر أن كثيراً من الباحثين والكتاب لم يهتموا بالأدب في الحروب الصليبية، بل إن الكثير منهم أطلقوا عليه أدب الانحطاط آخذين بأقوال وآراء المستشرقين الذين رغبوا في أن نبتعد عن دراسة تاريخ أدب هذه الحروب لأسباب كثيرة منها رغبتهم في عدم اطلاعنا على وحشية الصليبيين وقسوتهم، ثم حتى لا نشعر بالعز والفخر ونحن نقرأ عن تاريخ الأبطال المسلمين عرباً وأكراداً وأتراكاً ـ يقودون الجيوش وهم يحملون راية الإسلام مجاهدين ويترفعون عن القوميات والوطنيات الجاهلية، ويجمعهم حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته، إن أدب هذه الفترة ما زال بحاجة إلى دراسات مستفيضة.

80 ـ استطاع عماد الدين زنكي أن يوجه الظروف التاريخية القائمة لصالح المسلمين، وذلك بتجميعه القوى الإسلامية بعد القضاء على عوامل التجزئة والانقسام وتوحيد المدن والإمارات المنفصلة في نطاق دولة واحدة استطاع بقدرته أن يستغل أقصى ما يمكن أن تقدمه من إمكانات في سبيل تحقيق برنامجه المزدوج من تشكيل الجبهة الإسلامية وضرب الصليبيين. ويظهر أهمية الدور الذي لعبه زنكي في التاريخ الإسلامي، إذ يعتبر أول قائد قام بتجميع القوى الإسلامية وفق برنامج معين ليجابه بها تزايد الخطر الصليبي الذي لم توقفه المحاولات الجدية التي سبقت زنكي، وبخاصة تلك التي تمت على يد كل من مودود بن التونتكين وإيلغازي وبلك الأرتقين سنة (512هـ ـ 518هـ) وآق سنقر البرسقي سنة (518 ـ 520هـ) وقد مهد عماد الدين لابنه نور الدين في توحيده للجبهة الإسلامية وكسر هيبة الصليبيين بفتح الرها.

81 ـ تولى حركة المقاومة ضد الصليبيين بعد وفاة عماد الدين ابنه نور الدين زنكي، وقد تميزت شخصيته بمجموعة من الصفات الرفيعة والأخلاق الحميدة والتي ساعدته ـ بعد توفيق الله ـ على تحقيق إنجازاته العظيمة والتي من أهمها: الجدية والذكاء المتوقد، الشعور بالمسؤولية، وقدرته على مواجهة المشاكل والأحداث، ونزعته للبناء والإعمار، وقوة الشخصية، ومحبة المسلمين له، واللياقة البدنية العالية، وتجرده وزهده الكبير، وشجاعته الفائقة، ومفهومه للتوحيد وتضرعه ودعاؤه، ومحنته للجهاد والشهادة، وعبادته، وإنفاقه وكرمه.

82 ـ اتخذ نور الدين محمود زنكي من سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد اقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وإثراء المشروع النهضوي وأهميته في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة، فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة.

83 ـ كانت أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود، الحرص على تطبيق الشريعة، ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله، من التمكين والأمن والاستقرار والنصر والفتح المبين والعز والشرف وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

84 ـ اهتم نور الدين في بناء دولته بالعقيدة الصحيحة وكان أظهر ما في شخصيته هو

إيمانه الإسلامي العميق وحرصه على صبغ دولته بمنهج أهل السنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي، واتخذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة، فاهتم بالمدارس السنية ودعمها بالمال والأوقاف، واهتم بعلماء أهل السنة وشجعهم على الهجرة لدولته وفتح أبوابها، وكان لخريجي المدارس النظامية مكانة خاصة، فقد كانت لهم قدرة فائقة على الإحياء السني وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة وكشف باطلهم بأسلوب علمي رصين.

85 ـ لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي الرافضي والتمكين لمذهب السنة، ولذلك كان يعتني بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، ونجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في جبهة واحدة، ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي.

86 ـ دعم نور الدين التصوف السني وبنى لهم خوانق وربط واستفاد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم، واستطاع نور الدين أن يستفيد من التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية في بلاد الشام ومصر، واستفاد من هذه الطاقات الكامنة في الأمة ولم يعاديها.

87 ـ اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف، وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت، وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف المجانب للحق والعدل والصواب إلى الطعن في صحاح السنة، ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وعلومه كان استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبىء الناس للجهاد وتحيي فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله.

88 ـ من العوامل التي ساعدت نور الدين في نجاح برنامجه الإصلاحي، أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له، وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات، واستطاع نور الدين أن يوظف بذكاء مواهب العلماء البارزين في

عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني، وكانت شخصيته وصفاته التي تميَّز بها من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها.

89 ـ كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في مقاومة الغزو الصليبي ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي، والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر والعلم والثقافة والسياسة والقوة.

90 ـ كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لأن أبرز ما كان يستخدمه الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في تَرَفَهم اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارقين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبونهم إلى صفوفهم، ويدخلونهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته ثم بجهوده الفكرية الرائعة.

91 ـ كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وإنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته، وتم إيصال حقوق الناس إليهم، فنشطوا إلى الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم، ومن أبرز أعماله التجديدية إقامته للعدل، وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية اهتماماً كبيراً وجعلها قمة أجهزته الإدارية وخوّل القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة، ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لإقرار مبادىء الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم، وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين، وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر.

92 ـ لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا ورفعها جميعها من بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها مما كان تحت حكمه، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبى من وجوه الحرام. يقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته، يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواق العمران وانتقضت الأحوال، ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم يفضي إلى الخلل والفساد دفعة، وتنتقض الدولة سريعاً.

93 ـ فهم نور الدين محمود أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية فهي التي تستطيع أن تنقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس القيادة الربانية فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكِّر، فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل إنه أوسع بذلك بكثير إنه بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع، ولذلك قدم العلماء على غيرهم في دولته وبذل لهم العطاء الجزيل، واتصل بالمشهورين من علماء الأمة وأتى بهم إلى بلاده، وجاهدوا معه ضد الصليبيين، وقاموا بسفارات لدولته وتولوا مناصب رفيعة وساهموا في تعليم وتربية الرعية.

94 ـ اهتم الملك العادل نور الدين محمود بالشورى فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة واستقرارها وأمنها، فقد كان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب السنية ورجال الإدارة والأمراء يبحثون في أمور الإدارة والنوازل والميزانية وكانت له مجالس شورى في القضايا العامة، وأخرى في القضايا المتخصصة، فقد مارس نور الدين زنكي الشورى على أسس صحيحة في دولته.

95 ـ إن من يستعرض إنجازات نور الدين محمود في المجال الإداري يعتقد أن الرجل كان متخصصاً في هذا المجال ومتفرغاً له طول حياته دون غيره من المجالات، ولا يسعه إلا الإعجاب بعقليته القيادية الفذة في بناء قيادات إدارية تحسن تنفيذ الخطط المرسومة، فقد اعتمد نور الدين محمود في إدارة دولته المتنامية على عدد كبير من الرجال الأكفاء فكان يختارهم بعناية فائقة وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ومن بعد ذلك يراقبهم ويشرف عليهم حتى يتأكد من حسن أدائهم واستقامتهم.

96 ـ حرصت القيادات السياسية والإدارية والعسكرية على العموم بالتزامها العقائدي في نشاطاتها وممارساتها، والسبب في ذلك يعود إلى تربيتها الإسلامية وإلى شخصية نور الدين، فقد كان نور الدين زنكي تقياً ورعاً، وعدّه بعض المؤرخين بأنه أفضل مَن جاء بعد عمر بن عبد العزيز من الحكّام، وكان يحافظ على صلاة الجماعة، ويكثر من الصلاة من الليل، عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ولكن دون تعصّب على أحد، فالمذاهب عنده سواء ولا تعدو على كونها مدارس في الفقه، وكان ذا تأثير كبير على رجاله ومعاونيه وقادة الجيش، وأصبح بعضهم يقترب من مستوى نور الدين في العلم والأخلاق والتدين، ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، ومن الطريف أن هذه القيادات كانت تتخير أسماءهم على نحو يوضح تعلقهم بالدين، فبينما البويهيون ينسبون أنفسهم للدولة فيقولون: عضد الدولة، بهاء الدولة، صمصام الدولة، كان قادة هذه الدولة وأعوانهم والعاملون معهم يختارون عماد الدين، وسيف الدين، وأسد الدين، ونجم الدين، وصلاح الدين ونور الدين، وثمة ملاحظة أخرى تعلق هذا الجيل بالدين جعلهم يحرصون على الجهاد والاستشهاد، فإذا لم يكتب لهم الاستشهاد أوصوا بدفنهم في مدافن المدينة المنورة، كما فعل الوزير جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين.

97 ـ تواترت لدى المؤرخين المعاصرين أخبار الأمن والعدل واحترام الحريات العامة، كحرية الرأي، والمحافظة على كرامة الفرد التي سادت في ذلك المجتمع في الوقت الذي انتفت جميعها في الأقطار الإسلامية المجاورة، ولقد علق ابن الأثير على ذلك فقال: قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام ومنه إلى يومنا هذا فلم أرَ فيه بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه. قد قصّر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وإنعام يسديه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف في بيت واحد.

98 ـ كانت خزائن دولة نور الدين تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرة على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي، وغيرها، فقد كانت مصادر دخل دولة نور الدين متعددة منها: نظام الإقطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية، والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلّفها أبوه عماد الدين، والأمانة الكبيرة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة، وساهم استتباب الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية للدولة، ومساهمة الأثرياء، ودعم الخليفة العباسي، و. . . إلخ.

99 ـ سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير، وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداءً من قضايا المسكن والملبس والمأكل، وانتهاءً بقضايا الروح، ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال، وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر، وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق كالمستشفيات والملاجىء ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور، والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار، وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها، وحيناً خامساً: عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة، كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز لا أداة قسر واستنزاف.

100 ـ اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق، وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم وظل المسجد قاعدة مهمة في التربية والتعليم، ويروي العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت، فأناف على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً، وأصلح أحوال المسجد الأموي وباقي المساجد في دولته بالتعمير المادي والمعنوي.

101 ـ اهتم نور الدين بمؤسسات المجتمع المدني، كالمدارس، والربط، والكتاتيب وساهمت تلك المؤسسات في تحقيق أهداف الدولة الزنكية، وساند تلك المؤسسات حركة الأوقاف الواسعة التي استخدمها نور الدين لضمان استمرارية وديمومة تلك المؤسسات.

102 ـ لم يكن التعليم لدى دولة نور الدين مجرد نشاط أكاديمي يستهدف توفير الموظفين والمهنيين، وإنما كان بالدرجة الأولى نشاطاً عقائدياً استهدف إعادة صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق وأهداف الإسلام والحاجات القائمة، وكانت الصفة الجماعية للنشاط التعليمي الذي رافق الدولة الزنكية تبدو واضحة من تباري الوزراء القادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية، وتوفير الفرصة لجميع أفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها، فقد أعطت الخطة الزنكية أهمية خاصة لتعليم كافة المسلمين من عمال وفلاحين ومزارعين من الكبار والصغار والرجال والنساء، وعملت الخطة على تعليم الجميع أصول العقيدة وأركان الدين والقيم والمبادئ الإسلامية، كما عمدت الخطة الحكيمة

على تعرية المذاهب الهدّامة، والفرق الضالة من إسماعيلية باطنية، وشيعية إمامية، وشعوبية، وأبانت عن خطرها وضررها على النفس والمجتمع والأمة، وأن لا خروج من المحنة ولا خلاص من الضياع إلا بالعودة إلى روح الدين النقية الطاهرة في صورتها الأولى التي كان عليها سلف هذه الأمة دون زيادة أو نقصان، ودون تعقيدات فلسفية ومجادلات كلامية لا طائل من ورائها ولا خير فيها ولا في مروّجيها.

103 ـ بلغ اهتمام المرأة المسلمة بالدراسات الشرعية درجة كبيرة لتتعرف على تعاليم الإسلام الصحيحة لتطبيقه عملياً، وكانت دراسة الحديث تأخذ القسط الأوفى من هذا الاهتمام حيث بلغ كثير من النساء بهذا العلم درجة عالية ونافسن فيه كبار الحفاظ والمحدثين، وكنّ مثالاً رائعاً للأمانة والعدالة، وقد أشارت كتب التراجم والطبقات إلى النشاط العلمي الملموس لهذه الفئات في العهد الزنكي، حيث ذكرت تلك المصادر أسماء العديد من المقرئات والمحدثات والفقيهات والأديبات والنحويات إلى غير ذلك من العالمات بالعلوم الأساسية الأخرى.

104 ـ شملت النهضة العلمية في العهد الزنكي مختلف العلوم، فلم يقتصر الاهتمام بالعلوم الشرعية واللغوية والأدبية دون غيرها، فقد نالت ميادين علمية كثيرة نصيباً من اهتمامات الدارسين والباحثين، وقدمت فيها دراسات علمية رائدة وصنفت فيها كتب مهمة، اعتمد عليها كثير ممن جاء بعدهم، حيث ظهرت دراسات متخصصة في العلوم التاريخية والجغرافية وعلوم الرياضيات والفلك، وتدريس الطب في كثير من المستشفيات المنتشرة في المدن الزنكية، وظهر من بين المشتغلين بهذه التخصصات علماء كان لهم أثر كبير في إثراء المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات المتخصصة التي ظلت رافداً للعلوم الإسلامية حتى الوقت الحاضر.

105 ـ ازداد الاهتمام بالدراسات الاجتماعية في العهد الزنكي وبخاصة في ميداني الدراسات التاريخية والجغرافية، وحيث برز في هذا العهد عدد كبير من المؤرخين الذين تنوعت اهتماماتهم في مختلف صور الكتابات التاريخية، وقد استخدم التاريخ في تقوية الجانب المعنوي لحركة المقاومة ضد الصليبيين، فقد وجد المتخصصون بهذا الفرع من العلوم في الجهاد مادة زخرت بها مؤلفاتهم سواء عن طريق الكتابات التاريخية التي تؤرخ للمعارك بين المسلمين والصليبيين أو في الكتابة في فضائل المدن وتراجم الشخصيات البارزة في مجال الجهاد، ويعدّ الحافظ علي بن الحسن المعروف ابن عساكر من أكبر مؤرخي العهد الزنكي وكذلك العماد الأصفهاني، وابن الأثير، وابن القلانسي.

106 ـ برزت شخصية ابن عساكر إلى جانب السلطان نور الدين محمود في مناصرته

على حركة المقاومة، وتوحيد الجبهة الإسلامية، وطلب نور الدين من ابن عساكر أن يجمع له أربعين حديثاً في الجهاد تكون واضحة المتن متصلة الإسناد تحريضاً للمجاهدين على القتال، فسارع ابن عساكر إلى امتثال ما طلبه نور الدين، وتمّ تعميم تلك الأحاديث على القادة والجنود وقد استفاد نور الدين من جهود ابن عساكر في تعبئة الأمة فكرياً ودينياً.

107 ـ من الملاحظات المهمة في دراستي لفترة الحروب الصليبية أن انتصارات نور الدين وصلاح الدين ساهمت فيها عوامل متعددة منها على مستوى الخلافة نفسها، ومنها على المستوى الشعبي، فقد أخذت مؤسسة الخلافة تسترجع صلاحياتها وتقوى على ما كانت عليه في العهد السلجوقي. وكذلك مؤسسة الوزارة العباسية خصوصاًفي عهد يحيى بن هبيرة، كما كان لعبد القادر الجيلاني جهود معتبرة في الدعوة الشعبية والإصلاح العام، فقد كانت حركته الشعبية معاصرة لعماد الدين ونور الدين، وتعتبر حركة عبد القادر الجيلاني من الروافد المهمة في حركة الجهاد والمقاومة التي قادها نور الدين، وخصوصاً في القطاع الشعبي العريض، وفي عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فقد استطاع التأثير في المجتمع بدعوته ومواعظه وتزكيته.

108 ـ استفاد عبد القادر الجيلاني من جهود وتراث الإمام الغزالي وحوّل تلك التعاليم إلى مناهج مبسطة يفهمها العامّة وطلاب العلم والعلماء، فقد وضع الشيخ عبد القادر منهجاً متكاملاً بهدف إعداد الطلبة والمريدين علمياً وروحياً واجتماعياً، ويؤهلهم لحمل رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توفر لهذا المنهاج فرص التطبيق العملي في الرباط المعروف باسم الشيخ عبد القادر، حيث كانت تجري التطبيقات التربوية والدروس والممارسات العملية ويقيم الطلبة المريدون.

109 ـ بيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني عقيدته بوضوح، وكان كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة، وكان يعرض العقيدة بأسلوب بليغ سهل العبارة.

110 ـ تنسب الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يعتبر المؤسس الأول لها خصوصاً بشكلها الجماعي، والمنظم القائم على جميع المريدين وربطهم بمشايخ الطريقة لتأديبهم وتربيتهم، حيث كان التصوُّف في السابق يقوم على أساس فردي لا أثر له للتجمُّع فيه، ولم يظهر في شكل منظم تحت طريقة واحدة إلا في عهد الشيخ عبد القادر الجيلاني، والمتتبع لظهور الطرق الأخرى يرى أنها جميعها إنما ظهرت بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

111 ـ أكد الشيخ عبد القادر في وصاياه وتوجيهاته على أهمية التمسك بالكتاب والسنة، والتركيز على الاهتمام بالجوانب العملية والابتعاد عن الأفكار والفلسفات السائدة في عصره، وتأكيده على وجوب تعظيم أوامر الله سبحانه وامتثالها.

112 ـ اعتمد الشيخ عبد القادر في حركته الإصلاحية التعليم المنظم والتربية الروحية المنظمة، واهتم بالإعداد الديني والثقافي والروحي، والاجتماعي، وركز على الوعظ وانتقد علماء السوء، والحكام الظلمة، وانتقد في وعظه ومجالسه الأخلاق الاجتماعية السلبية، ودعا إلى إنصاف الفقراء والعامة، وتصدى للتطرف الشيعي الرافضي وللتيارات الفكرية المنحرفة، وبذل جهداً في إصلاح التصوف وإعادته إلى مفهوم الزهد، وتنقيته مما طرأ عليه، وقام بحركة واسعة للتنسيق بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون ونجح إلى حد كبير، وكان أول الاجتماعات التي استهدفت توحيد القيادة عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد، حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني في موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء الشيخ عبد القادر الكيلاني من العراق، والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر، والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذلك العصر، كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم. وفي نفس الوقت جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ أرسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام، ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي، واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي، ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثاراً هامة ساهمت في نهضة الأمة، وتوسيع جبهة المقاومة ضد الصليبيين.

113 ـ تدل الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل المواجهة للخطر الصليبي في البلاد الشامية، وتدل الشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر، وقد قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة، ولقد كان هؤلاء الطلاب يعرفون باسم المقادسة، نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس، ويمكن القول إن إرسال هذه

البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه أمران: **الأول**: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين، **والثاني**: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر آنذاك من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولا بد أن إقرار إرسال هذه البعوث نتج عن دراسة ومشورة، فقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر ونور الدين، فكان نور الدين يرسل أبناء المقادسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر، ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين، كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية، وهاجر بعض العلماء إلى دولة نور الدين زنكي وشاركوا في الجهاد العسكرية، وميادين السياسية، ومن أشهر هؤلاء زين الدين علي بن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي أصبح فيما بعد من رجال صلاح الدين وكبار مستشاريه.

114 ـ عاصر نور الدين محمود انتعاش مؤسسة الخلافة العباسية إبان المقتفي لأمر الله سنة (530هـ ـ 555هـ) والمستنجد بالله سنة (555هـ ـ 566هـ) والمستضيء بالله سنة (566 ـ 575هـ) وقد اتسم حكمهم بالحرص الشديد على استعادة التوازن السياسي مع السلاجقة في العراق وإيران على نحو خاص، ومن بعد ذلك كافة البقاع الإسلامية الأخرى، وقد ساعد على تمتع الخلافة العباسية بالنفوذ في هذه المرحلة وجود الوزير الصالح العالم الرباني عون الدين بن هبيرة وتعتبر قوة مؤسسة الخلافة وانتزاع صلاحياتها من السلاجقة في هذه الفترة من أسباب النهوض وقد ساهمت مؤسسة الخلافة في دعم نور الدين محمود، وحركة المقاومة للغزو الصليبي دينياً، واقتصادياً وسياسياً.. إلخ متوازياً ذلك الدعم مع الضخ الكبير لمعاني الإسلام والإيمان والإحسان في قطاعات جماهير الأمة في عاصمة الدولة العباسية وغيرها، وكان من أبرز قيادات الحركة الشعبية الروحية الإيمانية الشيخ عبد القادر الجيلاني، لقد كانت عوامل النهوض، عديدة منها، روح جديدة في مؤسسة الخلافة والوزارة، وقيادة رشيدة في ساحات الوغى، وزعامة شعبية روحية مخلصة لدين الله ساهمت في تقوية المقاومة للصليبيين، وأمدت الأمة بقدرات مادية ومعنوية للتصدي للغزاة، وتحقيق التوازن العسكري، ثم التفوق عليهم وفق رؤية نهضوية متكاملة وضع خطوطها العريضة القادة السياسيون، والعسكريون والعلماء الربانيون.

115 ـ كان نور الدين محمود مُنذ توليه الحكم في الثلاثين من عمره، واضح الرؤية والهدف مُنذ أن تسلم الحكم حتى يوم وفاته، إذ كان عليه واجب الجهاد لتحرير الأرض من الصليبيين المعتدين، وعلى رأسها بيت المقدس، وتوفير الأمان للناس، وأدرك أن الانتصار على الصليبيين لا يتحقق إلا بعد جهاد طويل ومرير، حافل بالتضحيات في خطوات متتابعة تقرّب كل منهما يوم الحسم، فالخطوة الأولى كان قد بدأها والده عماد الدين حين حرّر إمارة

الرها التي تشكل تداخلاً في الأراضي الإسلامية، فتمكن بذلك من تطهير الأرض الداخلية، وحصر الوجود الصليبي في الشريط الساحلي، وعليه أن يخطو الخطوة الثانية، لذلك وضع أسس سياسة متكاملة تتضمّن توحيد بلاد الشام أولاً، ثم توحيد بلاد الشام ومصر التي كانت تعاني من الاضطرابات وفوضى الحكم ثانياً، وطرد الصليبيين في المنطقة ثالثاً، وكان سبيله إلى ذلك مزيجاً من العمل السياسي والمعارك العسكرية والنشاط الثقافي العلمي والتربوي ـ التي تخدم توحيد الصف والهدف.

116 ـ استطاعت دمشق بدعم من نور الدين وسيف الدين زنكي من صد هجوم الحملة الصليبية الثانية، وقد ترتب على فشل الحملة الصليبية الثانية مجموعة من النتائج منها: أججت الغرب الأوروبي تجاه الإمبراطورية البيزنطية، وأثرت على طبيعة الوجود الصليبي، وأوضحت عجز الكيان الصليبي بإمكاناته المحلية عن تغيير واقع عام (539هـ/ 1144م) وحتى مع الاعتماد على الوطن الأم عجز أيضاً، وتعليل ذلك إلى جانب أخطاء الصليبيين القاتلة: أن حركة الجهاد الإسلامي حينذاك وصلت إلى درجة لن تستطيع أن تعود معها عقارب الساعة إلى الوراء بل من الآن فصاعداً الإنجاز وراء الآخر ،حتى يتم طرد الصليبيين نهائياً من المنطقة لتصحيح خطأ الانقسام الإسلامي الذي مهد للغزاة القدوم للمنطقة.

117 ـ حرص نور الدين على ضم دمشق وكانت خطته للاستيلاء على دمشق سلمياً تقتضي العمل على ثلاثة محاور، **فالمحور الأول**: يتمثل على توجيه حملة دعائية عامة إلى أهالي دمشق يتم خلالها إبراز الأحوال السيئة والأوضاع المتردية التي تسود إمارتهم بسبب سوء إدارة حكامها وفسادهم وتعاملهم مع الأعداء. **والمحور الثاني**: العمل على الاتصال سراً بوجوه مدينة دمشق وأعيانها من كبار التجار والقضاة والعلماء وبعض قادة الجند وقادة التنظيمات الشعبية، لاستغلال نفوذهم وتأثيرهم لصالح التغيير المطلوب في الوقت المناسب **والمحور الثالث**: أخذ نور الدين يراسل مجير الدين آبق ويستشيره في أمور المسلمين، ويتقرب إليه بالهدايا حتى اطمأن إليه ووثق به، ثم أخذ يُوقِع بينه وبين قادته وأمرائه، ونجحت المحاور الثلاثة، وتمّ في النهاية ضم دمشق لجبهة المقاومة الإسلامية، وشكل هذا العمل نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية بفعل أنه ترتب على هذا التحوُّل وحدة بلاد الشام الإسلامية تحت زعامة نور الدين محمود.

118 ـ عمل نور الدين على ضم القوى الإسلامية، وعلى إسقاط نفوذ الأسر الحاكمة في المدن والبقاع الشمالية، فاستطاع ضم شيزر عام (552هـ) بعد الزلزال الذي أصابها، فجدد أسوارها ودخلت شيزر في دولة نور الدين، وضم بعلبك وانتزعها من الأسرة الجندلية

الدرزية، وضمّ حرّان ومنبج، وفتح قلعة جعبر والموصل وتصالح مع سلاجقة الروم، وحقق إلى حد كبير هدفه الإستراتيجي الأول وهو: وحدة الدول والإمارات الإسلامية المواجهة للفرنجة، وأصبح القضاء على الفرنجة مسألة وقت فقط.

119 ـ دخل نور الدين في صراع مع مملكة بيت المقدس واستهدف تحقيق انتصارات في المجال الاقتصادي والسياسي والعسكري وبالمفاوضات أحياناً أخرى، وقد أدركت الدولة النورية أن تجييش الجيوش ضد مملكة بيت المقدس الصليبية خير وسيلة من أجل تحقيق باقي الدوافع السابقة، وكانت هناك صلة وثيقة بين آلة الحرب للدولة النورية وتحركاتها السياسية، وقد حرصت الدولة النورية على الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الإستراتيجية من أجل إضعاف فعاليات المملكة الصليبية عسكرياً ولتأمين حدود الدولة النورية، ولإيجاد توازن عسكري مع المملكة الصليبية يتطور مستقبلاً إلى ما هو أبعد في سبيل تحقيق التفوق العسكري على الوجود الصليبي، وهو ما تحقق في عهد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

120 ـ امتدت ساحة صراع نور الدين مع الصليبيين من إمارة الرها إلى أنطاكية ثم طرابلس وبيت المقدس، وأسقط ما يزيد على الخمسين من الحصون والمعاقل، وتصارع مع جبهتين شمالية وجنوبية في آن واحد وارتبطت طموحاته بحكمته ودهائه السياسي، وحافظ على طاقاته وإنجازاته.

121 ـ تلخصت سياسة نور الدين تجاه إمارة الرها في القضاء على محاولة أميرها السابق استردادها، ثم اتجاهه إلى أسره وإسقاط أملاكه، وطبيعي أن ندرك دوره في هذا المجال كان المحافظة على ما أمكن إنجازه في عهد والده والقضاء على المراكز الحصينة التي سيطر عليها جوسلين الثاني، ويلاحظ أن جهوده نحوها لم تكن على ذلك المستوى الكبير الذي حظيت به إمارة أنطاكية مثلاً، نظراً لانتهاء قوة الرها الصليبية الفعلية في عهده.

122 ـ كانت أهم ملامح العلاقات النورية الأنطاكية انتصارات تلو انتصارات بلغت ذروتها في حارم: ومع ذلك لم تسفر عن تغيُّر حاسم، وكأن الأحداث أثبتت أن جبهة شمال الشام منغلقة أمام أية توسعات نورية حاسمة مستقبلية طالما أن الإمبراطورية البيزنطية تقف حائلاً دون ذلك، ويلاحظ أن الأخيرة كانت حريصة على إضعاف الصليبيين وتفوقها هي عليهم، غير أنها في نفس الوقت لم تكن لتقبل بانتصار حاسم لنور الدين بل أرادت أن يكون الجميع في موقف ضعف حتى يحتاجوا إليها.

123 ـ كانت سياسة نور الدين تجاه إمارة طرابلس تتمثل في الرغبة في السيطرة على قلاعها وحصونها، ولم تحدث معارك كبرى في إمارة طرابلس، كالتي حدثت في مواجهة

أنطاكية، ومما تجدر الإشارة إليه، أن صراع الدولة النورية مع تلك الإمارات قد شهد نوعين من الاحتكاك العسكري معارك كبيرة، مثل: يغرى، وإنب، وحارم، ثم معارك محدودة من أجل إخضاع بعض القلاع والحصون مثل: المنيطرة وأنطرطوس وغيرها، وكانت المعارك جميعها برية، ولم تحدث أية معركة بحرية، وقد غدت تلك الناحية عامل ضعف مؤثر في صراع نور الدين محمود ضد الإمارات الصليبية خاصة إمارتَي أنطاكية وطرابلس اللتين امتلكتا سلاحاً ممتداً من السويدية شمالاً إلى ميناء جونية جنوباً، ونلاحظ أن محاولات نور الدين محمود لإخضاع ميناء السويدية والإمبراطورية البيزنطية لتوسعات الدولة الطموحة في ذلك الاتجاه أدى إلى عدم تملك الدولة النورية أية موانيء.

124 ـ حرص نور الدين محمود على استمرار الصلات التجارية مع الدولة البيزنطية، فقد كانت سوقاً رائجة لمنتجات الشرق، وكانت الدولة النورية طرفاً هاماً في عملية استيرادها وتصديرها من بعد ذلك للقوى الأوروبية.

125 ـ حرصت الدولة النورية على تجنب الصدام العسكري مع البيزنطيين بمفردهم أو من خلال تحالفهم مع الصليبيين، فمختصر سياسة نور الدين تجاه الدولة البيزنطية يهدف إلى تحيدها وعزلها عن بقية القوى الصليبية في المنطقة في بلاد الشام، وفي الاتجاه الجنوبي صوب الدولة الفاطمية.

126 ـ تحالفت الدولة البيزنطية مع الصليبيين وبدأت حشودهم تتحرك باتجاه الطرف الإسلامي، وقد أثارت مخاوف نور الدين محمود، فكتب إلى ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم ويبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظفر منهم، وبدأت رسل نور الدين تتردد على معسكر الإمبراطور في عمل دبلوماسي سياسي كبير مع استعداده في الوقت للحرب، وتواصل قدوم الأمراء وولاة الأعمال بجنودهم وكان على أهبة الاستعداد للجهاد.

127 ـ استهدف نور الدين العمل على زعزعة الحلف البيزنطي مع مملكة بيت المقدس وأنطاكية ضده، وحتى لا يجعل دولته بين عدوين: الصليبيين في الجنوب، والبيزنطيين في الشمال، واستطاعت دبلوماسية الدولة النورية أن تصل إلى صلح مع الدولة البيزنطية واستطاعت المهارة السياسية الزنكية أن تدق إسفيناً بين التحالف البيزنطي والصليبي، وهذا لم يأتِ بدون دفع ثمن وإنما لتنازلات غير عادية، فقد اتخذ نور الدين خطوة يصعب تقييمها إلا بوصفها من قبيل القرارات الصعبة المصيرية، فلعلم نور الدين محمود بعداء البيزنطيين للروم والسلاجقة، ولتقديره أن معركته الحالية والمرحلية ضد الصليبيين وليست ضد البيزنطيين، فإنه

وازن بين الإطاحة بمشروعاته على يد الحملة الصليبية البيزنطية، وبين الوقوف ضد سلاجقة الروم، فاختار الخيار الثاني وتفاهم مع الإمبراطور البيزنطي ضد السلاجقة وغيرها من الأمور، فقبل الإمبراطور وانسحب الحلف الصليبي، فأوقف الحملة وزال الخطر.

128 ـ من أهم الدروس والعبر والفوائد من سياسة نور الدين الخارجية، التفكير الإستراتيجي عند نور الدين، وأهمية صلاح أولي الأمر، وشن حرب استنزاف مستمرة ضد الفرنج، واعتماد اللين والمرونة والخدعة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه بالقوة، واهتم نور الدين بالإستراتيجية العسكرية وتظهر ملامحها في النقاط التالية، التركيز على النوعية والفاعلية، إعلان الجهاد والتعبئة العامة للأمة، والتدرج في مواجهة العدو، وانهاك العدو واستنزاف قوّاته، وتطبيق نور الدين لمبادئ الحرب الأساسية، كتحديد الهدف والعمل التعرضي والحشد، والمناورة، وحدة القيادة، وعنصر المفاجأة، والاستخبارات، والتقرُّب غير المباشر، والجاهزية القتالية.

129 ـ ركز نور الدين على الحرب النفسية، وأحسن استخدامها، فقد وجه حربه النفسية في البداية نحو حكام الإمارات الإسلامية الذين كانوا غارقين في حياة اللهو والترف غير مهتمين بأحوال رعاياهم السيئة، أو بمقاومة التوسع الفرنجي على حساب بلاد المسلمين ونحو من كان على شاكلتهم من أبناء الأمة من التجار والأمراء والأثرياء الذين كان همهم جمع الثروات بأية وسيلة، كانت المبادئ التي يدعو إليها نور الدين في حربه النفسية بسيطة وواضحة ومحدّدة، هي: دين واحد وهو الإسلام السني، دولة واحدة لمحاصرة الفرنجة من كل صوب، هدف واحد هو الجهاد لتحرير الأرض المحتلة، وأما الجهاز الدعائي الذي كان نور الدين يعتمد عليه لبثّ هذه المبادئ بين صفوف الأمة، فيتألف من العلماء والعبّاد والزهاد، فكان يطلب منهم كتابة قصائد ورسائل وكتب، تدور كلها حول مضمون المبادئ المذكورة أعلاه مع التركيز على توضيح فضائل القدس ومحاسنها وأهميتها بالنسبة للمسلمين، ثم يتم نشر هذه الرسائل بين الناس وقراءتها في المساجد والأسواق واللقاءات في مختلف المناسبات وكان من الطبيعي أن تشير هذه الرسائل والقصائد والكتب إلى نور الدين باعتباره رائد الجهاد الملتزم قولاً وفعلاً بالمبادئ المذكورة، وكانت صورة نور الدين التي ترسخت في أذهان الناس تؤيد وتدعم ما تشير إليه الرسائل والقصائد والكتب المذكورة.

130 ـ كان الموقف العسكري في المشرق الإسلامي راجحاً لصالح الفرنجة عندما تسلم نور الدين حكم حلب عام (541هـ) وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ تغيّر الموقف العسكري فأصبح راجحاً لصالح المسلمين، وكان التفوق العسكري الإسلامي على الفرنجة

واضحاً جداً في السنوات الأخيرة من حكم نور الدين، حقق إنجازات عسكرية كبيرة تمثلت بشكل عام من ناحيتين: **الأولى**: إلحاق هزائم منكرة بجيوش الفرنجة في معارك كثيرة، **والثانية**: بناء قوة عسكرية كبيرة منظمة وفعّالة، كانت في السنوات الأخيرة من حكمه قادرة على تحرير الأرض الإسلامية المحتلة ومواجهة التحديات الخارجية المحتملة.

131 ـ كان فتح مصر من أعظم منجزات نور الدين رحمه الله، فقد تمكن من إسقاط الدولة الفاطمية العبيدية، التي استمرت أكثر من قرنين تنشر الفساد السياسي والخلل العقدي في أنحاء العالم الإسلامي، وقد استخدم نور الدين الدبلوماسية والاختراق الأمني، والدعوة لمذهب أهل السنة، وتوجت جهوده بإرسال الحملات العسكرية مستفيداً من قانون الفرصة الذي أتيح له.

132 ـ تولى أسد الدين ثم بعد وفاته صلاح الدين منصب الوزارة عند الحاكم الفاطمي، واستطاع من خلال هذا المنصب أن يستميل قلوب الناس إليه، وبذل لهم من الأموال، فمال الناس إليه وأحبوه وسيطر على الجند سيطرة تامة، واستطاع القضاء على مراكز القوة في الدولة.

133 ـ نفذ صلاح الدين تعليمات وتوجيهات نور الدين زنكي بمصر، وكانت من أعظم المهام التي أنجزها صلاح الدين، إلغاء الخلافة الفاطمية العبيدية، وقد استفاد صلاح الدين من القاضي الفاضل في إعداد خطة محكمة ومدروسة للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي، وشرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، فعزل قضاة الشيعة وألغى مجالس الدعوة، وأزال أصول المذهب الإسماعيلي وأبطل الأذان بحي على خير العمل محمد وعلي خير البشر، وأمر في يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة (565هـ) بأن يذكر في خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر عثمان وعلي ﷺ، وأمر بعد ذلك بأن يُذكر العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك، وولى القضاء في القاهرة للفقيه عيسى الهكاري السني، فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد، وأنشأ المدارس لتدريس المذاهب السنيّة وهو في الوقت نفسه يُضَيِّق الخناق على العاضد فيلغي مخصصاته ويحرمه من المال والخيل والرقيق، ويمنع رسوم الخلافة وهي حفلاتها الرسمية في الأعياد وغيرها، ويحتجز الخليفة في قصره فلا يسمح له بمغادرته إلا في مناسبات قليلة منها خروجه لاستقبال نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوم جاء إلى القاهرة، وعمد إلى الخطة نفسها مع أمراء الجيش، فأخذ يحدّ من نفوذهم شيئاً، ثم قبض عليهم في ليلة واحدة، وأنزل أصحابه في دورهم وفرّق إقطاعاتهم عليهم، وانزوى العاضد في مخدعه فريسة للهمّ والمرض، وأدرك صلاح الدين أن الفرصة باتت

مواتية للقضاء على الدولة الفاطمية المحتضرة، فعقد مجلساً كبيراً حضره أمراء جيشه وقواده وفقهاء السُّنة ومتصوِّفوها وسألهم الرأي والنصيحة، وقد اتفق رأي الحاضرين على اتخاذ تلك الخطوة الفاصلة في حياة البلاد، وفي بداية سنة (567هـ/ 1171م) قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين، وكان قطعها بالتدرج، ففي الجمعة الأولى من محرم سنة (567هـ) حذف اسم العاضد من الخطبة وفي الجمعة الثانية خطب باسم الخليفة المستضيء بأمر الله.

134 ـ كان نور الدين محمود يرى إزالة الدولة الفاطمية هدفاً إستراتيجياً للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة، وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فتمّم الله له ما أراد على يدي جنديه المخلص وقائده الأمين صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

135 ـ استخدم صلاح الدين أساليب عديدة للقضاء على الوجود الشيعي الرافضي بمصر منها: إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، وإزالة هيبة قصر الخلافة الفاطمي، قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الباطني به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، محو رسوم الفاطميين وعملاتهم، الحفاظ على أفراد البيت الفاطمي، إضعاف العاصمة الفاطمية، الاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن ومصر.

136 ـ توفي نور الدين يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مئة، ودفن بدمشق، وكان رَحِمَهُ اللهُ حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أُدرِكها، وقال الذهبي: قد أدركها على فراشه وعلى ألسِنة الناس نور الدين الشهيد، وبعد وفاة نور الدين حمل راية الجهاد تلميذه الفذ صلاح الدين الأيوبي، الذي بنى جهاده على ما أسسه شيخه نور الدين، فأتمه ووصل إلى غايته، بفضل من الله العلي القدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أهم المصادر والمراجع

1 ـ فن الصراع الإسلامي الصليبي ـ السياسة الخارجية للدولة النورية د. محمد مؤنس أحمد عوض، عين للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى 1998م، مصر.

2 ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، شمس الدين محمد أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1402هـ / 1982م.

3 ـ البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى 1419هـ ـ 1998م.

4 ـ سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام حسن مصطفى النقيب، كلية الآداب جامعة بغداد، رسالة الماجستير عام 1988م.

5 ـ الكامل في التاريخ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، دار المعرفة، الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م.

6 ـ الخلافة العباسية دراسة في الأحوال السياسية والإدارية والاقتصادية، محمد ضايع حسون الجبوري، كلية الآداب، جامعة بغداد عام 1988م، رسالة ماجستير.

7 ـ ذيل طبقة الحنابلة، لأبي الفرج عبد الرحمٰن بن شهاب الدين أحمد بن رجب، صححه محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1952م.

8 ـ نظام الوزارة في الدولة العباسية العهدان البويهي والسلجوقي، د. محمد مسفر الزاهراني، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة 1406هـ ـ 1986م.

9 ـ أخبار الدول المنقطعة للشيخ الإمام جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر ابن حسين الأزدي، مؤسسة حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، أربد الأردن.

10 ـ جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، د. محمد أحمد الجوير، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى 1424هـ ـ 2003م.

11 ـ صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1991م.

12 ـ الإفصاح في معاني الصحاح، ليحيى بن هبيرة الوزير العباسي.

13 ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تأليف شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف، بأبي شامة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1997م.

14 ـ المنتظم لأبي الفرج عبد الرحمٰن علي بن محمد بن الجوزي، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

15 ـ المصباح المضيء في خلافة المستضيء، للإمام العلاّمة أبي الفرج عبد الرحمن علي الجوزي البكري الصديقي البغدادي، تحقيق د. ناجية عبد الله إبراهيم شركة المطبوعات بيروت، لبنان، طبعة أولى 2000م.

16 ـ دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ومقاومة غزو الفرنجة، عبد القادر أحمد أبو صيني، رسالة دكتوراه، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا.

17 ـ الجهاد ضد الصليبيين ـ الشرق الإسلامي، مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى 1406/ 1986م.

18 ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة 1968م.

19 ـ العلاقات بين الشرق والغرب د. محمد مؤنس عوض، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 1999/ 2000م.

20 ـ سنا البرق الشامي، للفتح البنداري وهو اختصار للبرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، طبعة القاهرة 1979م.

21 ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان سبط بن الجوزي، حيدر آباد الدكن 1951م.

22 ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم بن العديم، تحقيق سامي الدهان، طبعة دمشق 1954م.

23 ـ الرحلة لابن جبير، أبو الحسن محمد أحمد الكتاني الأندلسي، دار صادر، بيروت 1964م.

24 ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، طبعة القاهرة 1963م.

25 ـ دول الإسلام للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 1999م.

26 ـ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، دار الوفاء المنصورة، الطبعة الثانية 1408هـ ـ 1988م.

27 ـ تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، د. محمد سهيل طقّوش، دار النفائس، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1419 ـ 1999م.

28 ـ معجم البلدان، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، بيروت، دار صادر 1979م.

29 ـ عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصّلاحيّة شهاب الدين عبد الرحمن ابن إسماعيل المقدسي، تحقيق أحمد البيسومي؛ منشورات وزارة الثقافة بسوريا، دمشق 1991م.

30 ـ تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى 1423هـ ـ 2002م.

31 ـ ذيل تاريخ دمشق، أبو يعلى حمزة بن القلانسي، تحقيق أميدروز طبعة بيروت 1908م.

32 ـ تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى د. محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى 1423هـ ـ 2002م.

33 ـ ذيل تاريخ دمشق، أبو يعلى حمزة بن القلانسي، تحقيق أميدروز، طبعة بيروت 1908م.

34 ـ تاريخ الحروب الصليبية، رنسيمان، ستيفن، نقله إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العريني، الطبعة الثالثة 1413هـ ـ 1193م.

35 ـ دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأدنى في الجهاد ضد الصليبيين خلال الحركة الصليبية د. آسيا سليمان نقلى، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى 2002م.

36 ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة.

37 ـ رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود، سيرة مؤمن صادق، د. حسين مؤنس الدار السعودية، الطبعة الثالثة 1408هـ ـ 1987 السعودية.

38 ـ موقف فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي، جمال محمد سالم خليفة، الجماهيرية العظمى، مركز جهاد الليبيين للدراسات طرابلس 2000م.

39 ـ الدولة العباسية من التخلي عن سياسات الفتح إلى السقوط، نادية محمود مصطفى، المشرف العام، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1996م.

40 ـ الطريق إلى البيت المقدس د. جمال عبدالهادي، د.وفاء محمد رفعت، دار التوزيع والنشر الإسلامية، طبعة ثانية 1422هـ/ 2001م.

41 ـ الكواكب الدرية في السيرة النورية، تقي الدين أحمد ابن قاضي شهبة تحقيق محمود زايد طبعة بيروت 1971م.

42 ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية، السيد الباز العريني، طبعة القاهرة 1317هـ.

43 ـ الحروب الصليبية والأسرة الزنكية، شاكر أحمد أبو زيد الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

44 ـ شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام، د. محمد علي الهرفي، الطبعة الثالثة 1400هـ ـ1980م مؤسسة الرسالة.

45 ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد النويري، تحقيق سعيد عاشور طبعة القاهرة 1980م.

46 ـ البستان الجامع، للعماد الأصفهاني، تحقيق كلود كاهن، مجلة الدراسات الشرقية.

47 ـ البرق الشامي، وقد اختصره الفتح البغدادي تحت عنوان سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، طبعة القاهرة 1979م.

48 ـ من أجل فلسطين مواقف وعبر التاريخ الإسلامي حسين أدهم جرّار، مؤسسة الزيتونة، عمّان الأردن، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1998م.

49 ـ وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السّمهودي، دار المصطفى، طبعة القاهرة 1326هـ.

50 ـ التنظيمات الدينية الإسلامية والمسيحية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية مؤنس أحمد عوض، رسالة ماجستير، كلية الآداب عين شمس 1984م.

51 ـ صلاح الدين الأيوبي، قدري قلعجي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة 1997م.

52 ـ إمارة أنطاكية الصليبية، حسين عطية، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة الإسكندرية لعام 1981م.

53 ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، دار الحديث، القاهرة.

54 ـ الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لعبد الله بن يوسف الفاسي، تحقيق د. سليمان الرّفاعي، المدار الإسلامي لبنان، الطبعة الأولى.

55 ـ الحروب الصليبية مواقف وتحديات، سهيلة الحسيني، الطبعة الأولى (1243هـ/ 2003م) دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى.

56 ـ الحروب الصليبية، سهيل زكار.

57 ـ الشرق والغرب في زمن الحروب الصليبية، كلود كاهن، ترجمة أحمد الشيخ سينا للنشر، طبعة القاهرة، الطبعة الأولى 1995م.

58 ـ الحروب الصليبية د. قاسم عبده.

59 ـ حروب الخليج الثانية وأثرها على العالم الإسلامي عبد القادر أحمد أبو صيني رسالة ماجستير في الدراسات الدفاعية والإستراتيجية إسلام آباد 1992م.

60 ـ الدولة الفاطمية العبيدية للصّلاّبي د. علي محمد الصّلاّبي، دار البيارق، عمّان ـ الأردن 1999م، الطبعة الأولى.

61 ـ الفرق بين الفِرَق، تأليف ـ عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ طبع دار المعرفة ـ بيروت.

62 ـ الملل والنِحَل، تأليف: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، جمع مصطفى البابي الحلبي بمصر (1387/ 1967م).

63 ـ الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب دار الأمير، الطبعة الأولى (1415هـ/ 1995م).

64 ـ تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للشيخ الطاهر الزاوي مفتي الديار الليبية.

65 ـ جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، د. إبراهيم التهامي.

66 ـ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض، تحقيق د. أحمد بكير محمود طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

67 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تأليف ابن عذارى المراكشي: تحقيق ليفي بروفنسال.

68 ـ كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب.

69 ـ مدرسة الحديث بالقيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى 1411هـ.

70 ـ رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية تأليف أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي ـ تحقيق بشير البكوش ـ طبعة دار الغرب الإسلامي (1403/ 1983م).

71 ـ أيعيد التاريخ نفسه، محمد عبده، المنتدى الإسلامي طبعة 1411هـ.

72 ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تأليف عبد الرحمٰن بن محمد الأنصاري الدباغ، تحقيق: إبراهيم سبوح ـ طبعة ـ مكتبة الخانجي بمصر ـ الطبعة الثانية.

73 ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية تأليف محمد بن محمد مخلوف طبعة دار الكتاب العربي بيروت.

74 ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تأليف: محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ الطبعة الأولى 1356هـ.

75 ـ دولة السلاجقة للصَّلاَّبي، مؤسسة، اقرأ القاهرة ـ مصر، طبعة أولى عام 2006م.

76 ـ الخطط للمقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ الخطط المقريزية بيروت، دار صادر.

77 ـ نظام الملك، الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي د. عبد الهادي محمد رضا محبوبة الدار المصرية اللبنانية.

78 ـ طبقات الشافعية الكبرى، تأليف، تاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطماحي وعبد الفتاح محمد الحلو طبع مطبعة عيسى البابي وشركاؤه.

79 ـ رجال الفكر والدعوة، لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير، دمشق، سوريا.

80 ـ الغزالي بين مادحيه وناقديه، القرضاوي، الطبعة الثالثة 1413هـ ـ 1992م.

81 ـ الجهاد من الهجرة إلى الدعوة والدولة، د. محمد الرحموني، دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الأولى 2002م.

82 ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفاء، تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال: طبعة دار الفكر العربي (1367هـ/ 1948م).

83 ـ الجهاد والتجديد في عهد نور الدين وصلاح الدين، محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1998م.

84 ـ مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية.

85 ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين بن شداد بهاء الدين، تحقيق جمال الدين الشيال مكتبة الخانجي، القاهرة، طبعة 1994م.

86 ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تأليف جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تحقيق د. جمال الدين الشيال.

87 ـ تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، الطبعة الأولى 1422هـ/ 2001م.

88 ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف.

89 ـ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني.

90 ـ صلاح الدين القائد وعصره، د. مصطفى الحياري، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م.

91 ـ الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، د. محسن محمد حسين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1406هـ ـ 1986م.

92 ـ تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، د. محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، طبعة عام 1998م.

93 ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان.

94 ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، د.ماجد عرسان، دار القلم الإمارات العربية الطبعة الثالثة 1423هـ ـ 2002م.

95 ـ تاريخ اليمن الإسلامي د. محمد عبده السروري، مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء، الطبعة الثانية 2003م.

96 ـ جهاد الأيوبيين والمماليك ضد الصليبيين والمغول د. فرست مرعي، صنعاء، طبعة جديدة 2004 ـ 2003، الطبعة الثانية المنتدى الجامعي.

97 ـ نور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية، تأليف محمود فايز إبراهيم السرطاوي دار البشير، عمّان الأردن، الطبعة الأولى 1411هـ ـ 1990م.

98 ـ دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، تأليف السيد عبد العزيز سالم، سحر السيد عبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، طبعة سنة 1999م.

99 ـ التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، عباس العزاوي طبع ببغداد، 1376هـ/ 1957م.

100 ـ السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين أحمد المقريزي، تحقيق مصطفى زيادة.

101 ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان، لابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد: تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

102 ـ عماد الدين زنكي د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية 1402هـ ـ 1982م.

103 ـ إمارة حلب، محمد ضامن.

104 ـ مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، سهيل زكّار.

105 ـ دخول الترك الغز إلى الشام، مصطفى شاكر.

106 ـ بغية الطالب، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم.

107 ـ الحركة الصليبية سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1976م.

108 ـ نور الدين والصليبيون، حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة 1948م.

109 ـ الحياة العلمية في العهد الزنكي د. إبراهيم بن محمد المزيني، الطبعة الأولى 1424هـ/ 2003م.

110 ـ تاريخ دولة آل سلجوق لعماد الدين الأصفهاني.

111 ـ العبر في خبر من غبر، للذهبي أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق صلاح الدين المنجد.

112 ـ الاعتبار لابن منقذ.

113 ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لأبي العباس أحمد القلقشندي، القاهرة، مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي، حرره فيليب حتي ـ مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة الأمريكية.

114 ـ تاريخ المماليك البحرية، علي إبراهيم حسن.

115 ـ دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين، رشيد عبد الله الجُميلي، بيروت، دار النهضة العربية 1970م.

116 ـ أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 1981م.

117 ـ واقع التربية الإسلامية في عهد نور الدين في بلاد الشام، محمود عقلة الرفاعي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك ـ الأردن.

118 ـ تاريخ جزيرة ابن عمر مُنذ تأسيسها حتى الفتح العثماني د. محمد يوسف غندور، دار الفكر اللبناني، بيروت ـ لبنان.

119 ـ الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار، د. جودت الركابي، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية 1422هـ/ 2001م.

120 ـ الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى 1409هـ ـ 1989م.

121 ـ محاضرات عن الحروب الصليبية، صالح أحمد العلي.

122 ـ سلاجقة إيران والعراق، عبد المنعم حسين.

123 ـ شعر الجهاد الصليبي د. فؤاد حسين أبو الهيجاء، الطبعة الأولى 1424 ـ 2004م.

124 ـ الحروب الصليبية العريني.

125 ـ نور الدين محمود الرجل والتجربة، د. عماد الدين خليل، دار القلم، دمشق ـ بيروت، الطبعة الأولى 1400هـ، 1980م.

126 ـ الحركة السنوسية، د. علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

127 ـ فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصَّلاَّبي، دار المعرفة، لبنان، طبعة عام 2005م.

128 ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية 1992م.

129 ـ من أخلاق النصر في جيل الصحابة، الدكتور السيد محمد نوح، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1415هـ ـ 1994م.

130 ـ ديوان ابن منير الطرابلسي، جمعه وقدم له دكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.

131 ـ مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة، د. أحمد عوض أبو الشباب، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1420هـ ـ 1999م.

132 ـ المستدرك على الصحيحين، للإمام أبي عبد الله النيسابوري بذيله التَّخليص للذَّهبي، طبعة سنة 1390هـ ـ 1970م، دار الفكر.

133 ـ الإعداد المعنوي والمادي للمعركة في ضوء القرآن والسنة، اللواء الدكتور فيصل ابن جعفر بن عبد الله بالي، مكتبة التوبة، الرياض طبعة أولى 1419هـ / 1999م.

134 ـ تاريخ دمشق الكبير، للإمام الحافظ المؤرخ ثقة الدين أبو القاسم علي بن عساكر، دار إحياء التراث، لبنان ـ بيروت، الطبعة الأولى 1421هـ/ 2001م.

135 ـ الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز، لأبي حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي اليورنو، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1996م.

136 ـ الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز، ومعالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة د. علي محمد الصَّلاَّبي دار ابن كثير طبعة أولى 1427هـ/ 2006م.

137 ـ الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد الدمشقي، نشر وتحقيق جعفر الحسين، مطبعة الترقي 1367هـ/ 1948م.

138 ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء الكتب العربية (القاهرة).

139 ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تأليف الحافظ أبي نعيم الأصبهاني ت 430هـ، دار الفكر، بيروت.

140 ـ الجامع الصغير للسيوطي.

141 ـ معوقات الجهاد في العصر الحاضر، د.عبد الله بن قريح العقلا، مكتبة الرشد، الطبعة الثانية 1424هـ ـ 2003م، الرياض.

142 ـ مختصر صحيح مسلم للمنذري.

143 ـ دروس وتأملات في الحروب الصليبية لأبي فارس دار جهينة، الأردن ـ عمان، الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م.

144 ـ عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي، د. عدنان محمد الحارثي، مكتبة زهراء الشرق.

145 ـ المقدمة لابن خلدون.

146 ـ الإسلام والوعي الحضاري، أكرم ضياء العمري، دار المنارة، جدة السعودية، الطبعة الأولى 1407هـ ـ 1987م.

147 ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الثانية 1411هـ.

148 ـ الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، مرعي يوسف، دار الفرقان، دار الرسالة، الطبعة الأولى 1404هـ/ 1983م.

149 ـ سورة يوسف، دراسة تحليلية د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1989م.

150 ـ مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، الدكتور عبد الله بن سعيد الغامدي، 1414هـ.

151 ـ جيش مصر أيام صلاح الدين نظير حسان سعداوي، طبعة القاهرة، سنة 1959م.

152 ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة بيروت ـ لبنان.

153 ـ القبة الخضراء ومحاولات سرقة الجسد الشريف محمد علي قطب، الطبعة الأولى 1419هـ/ 1999م، الدار الثقافية، القاهرة.

154 ـ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني دوره في التخطيط في دولة صلاح الدين وفتوحاته هادية دجاني شكيل.

155 ـ الخراج لأبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت.

156 ـ اقتصاديات الحرب في الإسلام، د. غازي مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى 1411هـ/ 1991م.

157 ـ عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى 2004م.

158 ـ سياسة المال في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب، عبد الله جمعان السّعدي، مكتبة المدارس، الدوحة ـ قطر، الطبعة الأولى 1348هـ ـ 1930م.

159 ـ الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان.

160 ـ تاريخ التجارة.

161 ـ الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي تحقيق الشوربجي.

162 ـ مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق.

163 ـ صناعة الحياة، محمد أحمد الراشد، دار البشير، مصر.

164 ـ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين الحلبي، نشر يوسف بن إلياس سركيس، دمشق، دار الكتاب العربي.

165 ـ نهر الذهب في تاريخ حلب: المطبعة المارونية كامل بن حسين الغزي.

166 ـ أحياء حلب وأسواقها، خير الدين الأسدي، تحقيق وتقديم عبد الفتاح روّاس قلعجي ـ دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1984م.

167 ـ تاريخ البيمارستانات في الإسلام أحمد عيسى الطبعة الثانية، بيروت، دار الرائد العربي.

168 ـ تاريخ التربية الإسلامية، أحمد شلبي، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

169 ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية، شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الدمشقي ابن طولون، تحقيق محمد أحمد دهمان ـ دمشق، نشر مكتب الدراسات الإسلامية.

170 ـ المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها، أبو عمر محمد بن أحمد المقدسي، د. محمد مطيع الحافظ، دار الفكر المعاصر بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى 1421هـ.

171 ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة مكتبة الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة مكتبة المثنى، بغداد.

172 ـ معيد النعم ومبيد النقم، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية 1474هـ/ 1986م.

173 ـ تاريخنا المفترى عليه، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق.

174 ـ من روائع حضارتنا، د. مصطفى السباعي.

175 ـ لا طريق غير الجهاد لتحرير المسجد الأقصى د. مجاهد بن مجد الدين بن صلاح الدين، الطبعة الأولى 1414هـ/ 1994م.

176 ـ مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة، ابن الحاج أبو عبد الله بن محمد الفاسي المالكي، مطبعة الحلبي.

177 ـ أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي المالكي، تحقيق علي محمد البجاوي؛ القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه.

178 ـ التربية والتعليم في الإسلام محمد أسعد طلس، بيروت، دار العلم للملايين.

179 ـ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم لأبي إسحاق إبراهيم ابن جماعة، بيروت، دار الكتب العلمية.

180 ـ الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، محيي الدين أبو محمد عبد القادر الحنفي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه 1978م.

181 ـ أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي، تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الرابعة، بيروت، دار الكتب العلمية 1398هـ/ 1978م.

182 ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة البابي.

183 ـ التاريخ والمؤرخون العرب، شاكر مصطفى الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت 1980م.

184 ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين هاشم لكراتشكوفسكي، القاهرة 1961م.

185 ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، قدري طوقان، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار القلم 1382هـ/ 1963م.

186 ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد مصطفى طاش كبرى زاده، بيروت، دار الكتب العلمية 1405هـ/ 1985م.

187 ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق، نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة 1385هـ.

188 ـ المختارات في الطب، أبو الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند 1943م.

189 ـ موارد ابن عساكر في تاريخ دمشق د. طلال بن سعود الدّعجاني.

190 ـ صحيح ابن حبان، لمحمد بن حبان البستي.

191 ـ ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، د. أحمد عبد الكريم حلواني، دار الفداء، دمشق ـ سوريا.

192 ـ سنن النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن بحر بن سنان بن دينار النسائي، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار الفكر ـ بيروت 1348هـ ـ 1930م.

193 ـ سنن سعيد بن منصور.

194 ـ المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين محمد بن حبان البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد دار الوعي، حلب، الطبعة الأولى 1396هـ.

195 ـ التاريخ الكبير لمحمد إسماعيل البخاري.

196 ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني سعيد القحطاني، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1997م.

197 ـ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار، علي بن يوسف الشطنوفي، شركة مصطفى البابي الحلبي.

198 ـ فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمٰن بن قاسم، طبعة الرئاسة العامة للحرمين الشريفين.

199 ـ الغنية لطالبي الحق، عبد القادر الجيلاني، دار الألباب، دمشق.

200 ـ مسائل الإمام أحمد لابن هاني تحقيق الشاويش.

201 ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت 1402هـ.

202 ـ قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر للتادفي، الطبعة الثالثة، القاهرة 1375 ـ 1956م.

203 ـ التعريفات للجرجاني، علي بن محمد الشريف، بيروت، مكتبة لبنان.

204 ـ مدارج السالكين، لابن القيم الجوزية.

205 ـ السنة، لعبد الله بن أحمد بن حنبل الشيباني.

206 ـ نشأة القادرية د. ماجد الكيلاني، رسالة مقدمة إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية بيروت لإتمام المطلوب للحصول على درجة أستاذ في الآداب.

207 ـ العراق بين احتلالين للعزاوي، عباس العزاوي، بغداد، 1369هـ ـ 1949م.

208 ـ روضات الجنان، للخوانساري محمد بن جعفر تحقيق أسد الله إسماعيليان، طهران 1392هـ.

209 ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني، الإمام الزاهد القدوة، الدكتور عبد الرزّاق الكيلاني.

210 ـ بهجة الأسرار ومعدن الأنوار علي بن يوسف الشطنوفي، شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

211 ـ السنة النبوية في القرن السادس الهجري د. محمود إبراهيم الديك، الطبعة الأولى 1411هـ/ 1190م.

212 ـ جهود المرأة الدمشقية في رواية الحديث الشريف د. محمد بن عزوز، دار الفكر، الطبعة الأولى جمادى الأولى 1425هـ تموز (يوليو) 2004م.

213 ـ قضاة الشام المسمى، «الثغر البسام فيمن وُلّي قضاء الشام»، تحقيق صلاح الدين المنجد، الطبعة الأولى المجمع العلمي العربي، دمشق (1956م).

214 ـ تراجم النساء من تاريخ دمشق، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق 1403هـ/ 1983م.

فهرس الكتاب

التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٠١\٤٥٠٤٥٤-٠١\٤٥٠٤٦٧ - بيروت، لبنان



د. الصلابي

الدولة الزنكية

يتابع الدكتور الصلابي في هذا الكتاب البحث والغوص في التاريخ الإسلامي وإعادة إحياء ما أخفي منه وغيِّب، وبعثَ أنواره لتكون الدليل للأجيال الحاملة لمهمة النصر والتمكين لهذا الدين. ويتناول في هذا المؤلَّف تاريخ الدولة الزنكية وأصول الزنكيين ونشأة عماد الدين زنكي وصفاته، وأعماله في توحيد الجبهة الإسلامية في وجه الاحتلال الصليبي، وإنجازاته في مدة حكمه، ثم استشهاده وبروز ابنه الملك العادل نور الدين محمود وصفاته وشخصيته الفذة، وإنجازاته، ومعالم التجديد والإصلاح في دولته، واستفادته من التاريخ وعبره، إلى جانب علاقاته الخارجية وسياسته، وحنكته وتجربته الثرية التي تعتبر منارة لمن أراد إعادة الدور الحضاري والقيادي لهذا الدين العظيم.

إنه مؤلف مضيء ويحيي سنا الرجال الأكفاء والقادة الأفذاذ الذين أنجبهم إسلامنا العظيم ويرسم النماذج المثلى لرجال عظماء اختلطت عقيدة التوحيد بدمائهم وأرواحهم وقادت خطاهم إلى الرفعة والنصر والتمكين لدين الله تعالى..



ISBN 9953-85-082-8



دار المعرفة
للطباعة والنشر
www.marefah.com